الجمهوريـــة الجزائريـــة الديمقراطيـــة الشعبيـــة
وزارة التعليـــم العالـــي و البحـــث العلمـــي
جامعـــة وهران 1 أحمد بن بلة

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية
قسم التاريخ وعلم الآثار

مظاهر التقارب والقطيعة بين العلماء والسلطة العثمانية في بايلك الغرب فترة الدايات 1671-1830م

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث

إعداد الطالب:
بوجلال قدور

تحت إشراف:
الأستاذ. الدكتور: دحو فغرور

أعضاء لجنة المناقشة:

محمد موفق	أستاذ التعليم العالي	جامعة وهران 1 أحمد بن بلة	رئيسا
دحو فغرور	أستاذ التعليم العالي	جامعة وهران 1 أحمد بن بلة	مشرفا ومقررا
بوعزة بوضرساية	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 2	مناقشا
أرزقي شويتام	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 2	مناقشا
محمد دادة	أستاذ التعليم العالي	جامعة وهران 1 أحمد بن بلة	مناقشا
محمد مجاود	أستاذ التعليم العالي	جامعة سيدي بلعباس	مناقشا

السنة الجامعية: 2016–2017م

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}.

فاطر-28.

صدق الله العظيم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

« مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ».

رواه أبو داود والترمذيّ

الإهداء

إلى والدي الحبيب ...

الذي أحسن تربيتي وتعليمي.

إلى أمي الحبيبة ...

التي وقفت إلى جانبي في الظروف الصعبة

إلى كل أفراد عائلتي فردا فردا خاصة إلى أختي الصغرى كريمة.

إلى كل قارئ يفيد نفسه وغيره...

إلى الذين يتألمون ... ولكنهم لاييئسون

إلى الذين يثقون بأنفسهم ... فلا تردّهم عقبات

إلى كل هؤلاء أهدي هذا العمل

شكر وتقدير

أشكر الله العلي العظيم الذي وفقني لما أنا فيه، فلك الحمد ربي كله كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك.

والحمد لله الذي به تتم النعم القائل: "وَلاَ تَنْسُوا أَوْلِي الْفَضْلِ مِنْكُمْ"، فمن الواجب وأداء للأمانة، أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى أساتذتي الذين كان لهم الفضل في إخراج هذا العمل المتواضع إلى النور.

وأخص بالذكر أستاذي المشرف أ.الدكتور: دحو فغرور الذي تتلمذت على يديه، وتعرّفت من خلاله على تقنيات البحث العلمي وأصوله، والذي لم يبخل عليّ بملاحظاته السديدة ونصائحه القيمة، وكان حريصا على إتمام هذا العمل، وتوفيره لنا كل الوسائل فله جزيل الشكر وأسمى عبارات الامتنان على ذلك، والدكتور داده محمد الذي ساعدنا على إجراء هذه الدراسة.

كما أتوجّه بالشكر والامتنان إلى الدكتور بشير بالمهدي الذي كان صدره رحبا للإجابة عن استفساراتي، وتزويده لي بالمصادر والمراجع فله منا فائق الإحترام والتقدير.

وأقدم شكري وامتناني كذلك إلى مدير قسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية الجزائرية، الذي سهل لي مهمة البحث والإطلاع، والسيد رحاب نور الدين أمين المكتبة البلدية بمعسكر.

كما لا يفوتني أن أتقدم بالشكر أيضا إلى كل من الأختين نورة وفاطمة اللتين كان لهما الفضل الكبير في كتابة هذه المذكرة.

وإلى كل من ساندني سواء من قريب أم من بعيد، ولو بالكلمة الطيبة.

قائمة المختصرات

أ- باللغة العربية:

---: المصدر الموالي للمؤلِّف نفسه (في قائمة المصادر والمراجع).

/ظ/: ظهر ورقة المخطوط.

/و/: وجه ورقة المخطوط.

/ط/: طبعة.

= : تابع الهامش في الصفحة الموالية.

هـ : التاريخ الهجري.

م : التاريخ الميلادي.

...../..... : سنة هجرية/سنة ميلادية.

ج : جزء.

د.ت: دون تاريخ.

ص: صفحة.

ص، ص: من صفحة كذا...إلى صفحة كذا.

ع: العدد.

مج: مجلد.

إلخ: إلى آخره.

ت: توفي.

ب- باللغة الفرنسية:

Ibid: المصدر نفسه

Op.cit: المصدر السابق

P: Page:الصفحة

Pp: من الصفحة كذا...إلى الصفحة كذا

N° : Numéro : العدد

T : Tome : الجزء

V : Volume : المجلد

R.A : Revue africaine : المجلة الإفريقية

R.O.M.M : Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée.

(مجلة الغرب الإسلامي والبحر المتوسط).

B.S.G.A.O : Bulletin de la Société de géographie et d'archéologie de la province d'Oran.

المقدمة

حفلت الدولة الإسلامية في تاريخها الطويل، بمآثر جليلة سجّلها العلماء في مواقفهم الخالدة والفذّة مع الحكّام، تلك المواقف التي اتّسمت بالصدق والجرأة والإخلاص لله ولدينه الحنيف، فكانوا نجوما وضّاءة يهتدي بهم الحكّام والمحكومون في ظلمات الحياة.

هذا وقد اختلف العلماء والفقهاء والمثقّفون وتضاربت آراؤهم ومواقفهم حول الموقف من الدولة العثمانية، والدور الذي اضطلعت به نحو العالم الإسلامي عامة والشعوب الإسلامية – ومنها الجزائر– التي خضعت لسلطانها قرون عديدة بشكل خاص وانقسموا إلى فئتين:

فئة تؤيّدها وتنظر إليها على أنّها أعادت الاعتبار والقوّة للدولة الإسلامية التي سقطت مع انهيار الدولة العباسية ووحّدت الشعوب الإسلامية مرّة أخرى، وشرّعت الأبواب لفتوحات إسلامية جديدة ووفّرت للمسلمين القوّة والاحترام، وجعلت من القسطنطينية عاصمة لدولة الخلافة.

وفئة ثانية ترى فيها السّبب الرّئيس في تأخّر الشعوب الإسلامية التي خضعت لها، وارتكبت بحقّها مظالم كثيرة وأذاقتها ألوانا من القهر والجوع والاضطهاد، ومارست عليها سياسة التتريك والصهر القومي وخدمت الأتراك دون غيرهم، فكانت دولة تركية في ثوب إسلامي.

إنّ هذا الاختلاف في وجهات النظر هو الذي دفع بنا إلى التفكير في البحث عن معرفة حقيقة السلطة العثمانية في الجزائر، من خلال مؤلّفات الجزائريين على الخصوص، سواء تلك التي عايش أصحابها الأحداث بأنفسهم في فترة من فترات الحكم العثماني للجزائر، أو أولئك الذين كانوا قريبين منها، بحيث لم تفصلهم سوى فترة قصيرة عن هذا الوجود.

وفي هذه الدراسة نلقي الضوء على آراء ومواقف مختلفة للعلماء من السلطة العثمانية في فترة حكم الدايات (1671–1830م)، هذه المواقف وإن كانت بعضها مؤيّدة للسلطة الحاكمة، إلاّ أنّها لم تَخلُ من النّقد اللاّذع للسياسات الجائرة السياسية والاجتماعية والاقتصادية بحقّ الرعية.

ومن خلال مجموعة البحوث والدراسات التي تناولت بالبحث موضوع الحركة الثقافية بالجزائر العثمانية، لُوحِظ نوع من الانتشار للعلم والثقافة بها خاصة الجزء الغربي منها.

ومرجع ذلك لا يَكْمُن في بروز فئة العلماء والمرابطين وشيوخ الزوايا فحسب، بل ويرجع بالدرجة الأولى إلى نخبة من البايات الذين حكموا المنطقة الغربية، والذين كانت لهم أياد بيضاء في تشجيع العلماء والفقهاء والحركة العلمية والثقافية بصفة عامة.

من جهة أخرى كانت علاقة العلماء بالعثمانيين قويّة خلال القرن السادس عشر ميلادي (10ه)، لارتباط الوجود العثماني بالجزائر بالجهاد ضدّ الغزوات الصليبية الأوربية –لاسيما الإسبانية منها– على السواحل الجزائرية. حيث أدّى هذا الوضع إلى حدوث تقارب وتحالف بين الفئتين، وذلك لحاجة كلّ طرف للآخر.

وإذا كان الوجود الإسباني قد أدّى في المنطقة إلى قيام تحالف قويّ بين السلطة العثمانية وكثير من رجالات الطرق الدينية والعلماء خلال زمن ليس بالقصير، فإنّ تحرير وهران قد أدّى –في فهم كثير من القيادات السياسية والدينية في البايلك الغربي آنذاك– إلى زوال مبرّر التحالف. وهو الأمر الذي شجّع على قيام تنافر قويّ واتّساع الهوة بين الطرفين، تحوّل مع الوقت إلى ثورات وتمرّدات تزعّمها رجال الصوفية على وجه الخصوص، لما لهم من مكانة وكلمة مسموعة في أوساط المجتمع.

من هنا ارتأينا البحث في جوهر تلك العلاقة ودوافعها وأسبابها وتغيّراتها ونتائجها ضمن موضوع موسوم ب: "مظاهر التقارب والقطيعة بين العلماء والسلطة العثمانية في بايلك الغرب فترة الدايات 1671–1830م"، وقد اتخذنا من أهمّ حواضره عيّنات للدراسة في فترة لا تتعدّى القرنين من الزمن تتبَّعْنا فيها مسار علاقة العلماء بالسلطة العثمانية الحاكمة، مع الوقوف على دور العلماء والمرابطين الفاعل والمهم في مجال السياسة في مختلف الفترات التي مرّت بها إيالة الجزائر. حيث تنوّعت إسهاماتهم السياسية بين نصح للحكّام وتقويم للاعوجاج وبيان لأصول الحكم الإسلامي، ومشاركة لهم في إدارة الدولة –لاسيما المناصب الشرعية كالقضاء والإفتاء– أو في سفارات ووفود تمثل الحكّام أو كمستشارين مقرَّبين يدافعون عن المؤسسة الحاكمة أو كناصحين جريئين في قول كلمة الحق، أو كمشاركين في الثورة على الظالمين والمنحرفين والمقصرين منهم، وهذا بغضّ النظر عن إسهاماتهم الثقافية والدينية والجهادية.

جدير بالذكر أيضا أنّ هذه الفئة أقامت علاقات التعاون مع رجال الدولة العثمانية من جهة، وحافظت على كونها جزءا عضويًا من السكان المحلّيين وثقافتهم من جهة أخرى. ممّا مكّنها من لعب دور الوسيط، والتأقلم مع المتغيّرات السياسية وتجييرها لصالحها.

ومن الأسباب التي دفعت لتناول هذا الموضوع بالدراسة والتحليل نذكر:

- محاولة إبراز جهود العلماء والمرابطين مع السلطة العثمانية الحاكمة في الجزائر في ميدان الصراع مع الإسبان، والتعرّف على الجانب الظاهر من مواجهة العلماء للإسبان خلال الفتح الأول والثاني لمدينة وهران. حيث أنّ جمهرة كبيرة منهم شاركت في تلك المواجهة بنشاطات ملموسة وإسهامات مجدية وجهود مؤثّرة، سواء كان ذلك في المجال السياسي أو العسكري أو الفكري، وقد تنوّعت مشارب أولئك العلماء واتّجاهاتهم فكان فيهم المقرئون والمفسّرون والفقهاء والمحدّثون، وعلماء اللغة والأدباء والشعراء والخطباء وأئمة المساجد، والعبّاد والزّهاد، وقد كانوا من بقاع متفرّقة من المنطقة الغربية.

- محاولة تحديد وتفسير طبيعة العلاقة بين رجال العلم والسلطة السياسية آنذاك، مع إلقاء الضوء على عدّة محاور أهمّها ارتباط الحكّام بالعلماء، وأهميّة مؤازرة العلماء للحكّام فالرباط بين الجميع واضح.

- قلّة البحوث والدراسات الأكاديمية حول موضوع "العلاقة بين العلماء والسلطة" وبالخصوص في "بايلك الغرب"، الأمر الذي شجّعنا لدراسة هذا الموضوع، خاصة وأنّه أغلب ما كُتِب في ذلك لايزال مخطوطًا في أدراج المكتبات الخاصّة وفي الزّوايا.

- ضرورة الوقوف على ما تخلّل الفترة المراد دراستها من إنجازات ثقافية وعلمية وفكرية ببايلك الغرب، وتسليط الضّوء على أهمّ علماء المنطقة آنذاك، مع السّعي لتقييم إنتاجهم الفكري والحضاري. وكذا إبراز جهود المؤسسات الدينية والثقافية في رفع راية العلم، وتشجيع الدّارسين والعلماء.

- محاولة إبراز وصياغة فصل من فصول تاريخ حواضر ومدن بايلك الغرب لاسيما من الناحية الثقافية، والمساهمة في إثراء المكتبة الجزائرية بالدراسات الخاصة بالتاريخ الجزائري، ولا سيما التاريخ العثماني الذي لم يُكتب عنه إلاّ القليل.

- إعادة الاعتبار لبعض رجال العلم في بايلك الغرب ومَنحِهم المكانة التي تليق بهم كعلماء بارزين في تاريخ الجزائر الحديث، ومفخرة للأمّة الإسلامية قاطبة في ماضيها وحاضرها.

- وصف الحياة الثقافية من خلال إسهامات الحكّام والبايات على الخصوص، وأثر ذلك على الإنتاج الفكري والأدبي لعلماء بايلك الغرب كمًّا وكيفًا. مع إبراز الدّور الهام الذي لعبه الباي محمد الكبير (1779-1797م) في إعطاء القيمة السياسية والثقافية للمنطقة الغربية، والكشف عن الأبعاد الحقيقية للاهتمام السياسي بالحياة الثقافية وعلاقة كلّ طرف بالآخر.

- محاولة إبراز مظاهر الثقافة في بايلك الغرب لسدّ الطريق أمام إشاعات وطروح المدرسة الاستعمارية التي تصفُ الشعب الجزائري آنذاك بالجهل والهمجية، وأنّ الاستعمار الفرنسي هو الذي ساهم في تعليمه وتثقيفه. والتّأكيد على أنّ الفترة العثمانية فترة مهمّة من تاريخ الجزائر الحديث، وعلى أنّها المعبر الزمني الذي حافظ على قيمها الحضارية وتراثها ومقوّماتها الإسلامية العربية التي تعمّقت جذورها ورسخت دعائمها أثناء الوجود العثماني، بعد أن تبلورت واتّضحت معالمها في الفترة الإسلامية السابقة.

- محاولة الرّد على الفكرة التي مفادها بأنّ الثقافة في بايلك الغرب خلال العهد العثماني كانت جهوية إقليمية أكثر منها قطرية عمومية، وأنّها كانت محصورة في أشخاص معيّنين وأماكن محدودة جعلتها عاجزة عن التّأثير الذي هو شرط أساسي لثقافة الشّعوب أينما كانوا وحيثما وُجِدوا. مع تبرئة الخلافة العثمانية من مسؤولية التخلّف الذي عرفه العالم الإسلامي والجزائر لقرون، وإبراز أنّ الانحطاط الحضاري بدأ قبلها بكثير.

كما رأينا من الواجب الشرعي أنْ نُجنِّد قلمنا للعمل في معسكر الدفاع عن الحقّ والحقيقة، وأنْ نضع زكاة قلمنا وكتابتنا في مصرف المدافعين عن المظلومين أمثال الباي محمد الكبير (1779-1797م)، الذي ظلمته أقلام المستشرقين والمنصرين وتلامذتهم، الذين صبّوا جام غضبهم عليه وعلى أيّ باي أو داي أو حاكم يكون له صوت بجانب الإصلاح السياسي والثّقافي، أو دفاع له عن مصالح الرعيّة، أو حتّى تعاطف مع قضايا العالم الإسلامي.

إنّ القيمة العلمية لهذا العمل تتأكّد من خلال تناوله لفترة زمنية جدّ حرجة من تاريخ الجزائر صادفت أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، وأجبرت النّخبة العالمة وعلماء بايلك الغرب من ضمنها على أن يكونوا كأداة للتّوجيه والضّبط، فبصلاحهم وحكمتهم يكون صلاح الإيالة حكّامًا ومحكومين، فكيف ساهم هؤلاء العلماء في إثبات وجودهم بالداخل والخارج؟ وكيف اتّسم موقفهم من بعض القضايا الهامة والمصيرية التي عاشتها الجزائر آنذاك؟ وإلى أيّ حدّ أثّرت تلك الأحداث الجسام في العلاقة بين السلطة والعلماء؟.

ولهذا فقد جاء البحث للإجابة عن هذه الإشكالية، والتي تضمّنت عدّة تساؤلات هي كالآتي:

- ما موقف العلماء وشيوخ الزوايا والطرق الصوفية من السلطة العثمانية الحاكمة في الجزائر؟

- كيف نشأ العلماء وترعرعوا في ظلّ الفترة الأخيرة من الحكم العثماني بالجزائر؟ وكيف أثّروا في مجتمعهم وتأثّروا به؟ وكيف كانت علاقاتهم الاجتماعية آنذاك؟ وإلى أيّ مدى ساهمت الظروف التاريخية في تحديد نظرتهم إلى السلطة؟.

- ما هي العوامل التي أدّت إلى هذا التقارب بين السلطة والعلماء؟ وماهي الأسباب التي دفعت العثمانيين إلى تغيير مواقفهم تجاه العلماء، وبالخصوص علماء البايلك الغربي الذين كان لهم فضل في جهاد الإسبان وفي فتح وهران؟.

- أين تقاطع العلماء وشيوخ الزوايا في نظرتهم للسلطة العثمانية؟ وأين تباينت مواقفهم؟ ولماذا؟ وما النتائج المترتّبة على هذه المواقف؟.

- هل شارك العلماء في الحكم والإدارة؟ وما المناصب التي تقلّدوها؟.

- كيف استطاع العلماء تحقيق الوحدة والاستقرار؟ وما موقفهم من الصراعات الداخلية؟.

- ما المغزى الحقيقي من وراء اهتمام بعض الحكّام بالعلم والعلماء؟ وهل استمرّت تلك العناية أم ضاعت في خضمّ المشاكل السياسية التي عرفتها إيالة الجزائر عامة وبايلك الغرب خاصة؟.

وقد استقطبت دراسة موضوع بايلك الغرب اهتمام مجموعة قليلة من الباحثين الذين أدلوا بدلوهم في هذا الباب وأنجزوا أعمالا أكاديمية كمذكرة الماجستير التي أعدتها رشيدة شدري معمر حول "العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر فترة الدايات (1671-1830م)"، والتي بيّنت من خلالها طبيعة وخصوصية العلاقة بين العلماء والسلطة العثمانية الحاكمة في الجزائر على مرحلتين لكلّ منها خصوصيتها، حيث تميّزت الأولى بالتّقارب والتّفاهم، أمّا الثانية فقد انطبعت بالخلاف الذي انتهى بالمواجهة. ومذكرة الماجستير التي أنجزها مختار مخفي بعنوان: "العلماء والسلطة بالجزائر خلال العهد العثماني"، والتي أبرز من خلالها دور العلماء والمرابطين وإسهاماتهم في الحياة السياسية من خلال علاقاتهم بالسلطة والحكّام، بغضّ النّظر عن إسهاماتهم الثقافية والدينية والجهادية.

هذا إضافة إلى مذكرة الماجستير التي عنوانها: "نظرة المصادر الجزائرية إلى السلطة العثمانية في الجزائر" لمحمد شاطو، والتي ركّز من خلالها في الكشف على تباين نظرة ومواقف العلماء وشيوخ الزوايا إلى السلطة العثمانية الحاكمة في الجزائر وأسباب ذلك، ومذكرة الماجستير التي كانت من إنجاز بلبراوات بن عتو حول "الباي محمد الكبير ومشروعه الحضاري"، والتي رسم من خلالها ما خلّفه هذا الباي من مآثر وإنجازات ومؤسسات ثقافية تشهد له برغبته الإصلاحية في كلّ الحقول، وبالخصوص رعايته للعلم وعلاقاته بالعلماء. ورسالة الدكتوراه ذات الصلة بالموضوع للزغم فوزية تحت عنوان: "البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها الثقافي والسياسي"، والتي قدّمت من خلالها نماذج عينية لعلماء عزّزوا نفوذهم من خلال شغلهم لمناصب إدارية هامّة في أجهزة الدولة، أو قريبة منها مثل المناصب الشرعية كالقضاء والإفتاء ونقابة الأشراف وغيرها، مثل هذه الوظائف سمحت لأصحابها بقدر كبير من النفوذ والتأثير على رجال الحكم في البايلك. كما تطرّقت إلى أساليب وآليات تعزيز نفوذ العلماء والمرابطين وقيامهم

بدور الوسيط بين السلطة والسكان خصوصا، ورؤيتهم للسلطة العثمانية ومساراتها المختلفة من جوانب عدّة اجتماعية وسياسية واقتصادية بل وحتى عسكرية.

ولأجل الإجابة عن إشكالية البحث وتساؤلاته كان ولابدّ اعتماد منهج تاريخي معيّن، لذلك تمّ الاستناد على المنهج التاريخي التحليلي، حيث تمّ اعتماد النصوص التاريخية المستقاة من مصادرها الأصلية وتحليلها ومقارنتها ببعض الروايات الواردة في المصادر الأخرى التي تناولت الموضوع أو طَرقَته من إحدى جوانبه، كما حاولت الدراسة ألاّ تَخرُج عن إطارها العام المحدّد لها سلفًا من كونها مرتبطة بمعالجة طبيعة العلاقة بين السلطة العثمانية الحاكمة في الجزائر وفئة العلماء.

غير أنّ مجموعة من الصعوبات اعترضت إنجاز هذا العمل منها:

- قلّة الدراسات السابقة التي تناولت موضوع العلاقة بين السلطة والعلماء في بايلك الغرب بصفة مباشرة، وهو ما جعل الحصول على المادة العلمية يتطلّب وقتًا وجهدًا مضاعفًا.

- ندرة المصادر الأوّلية التي تتحدث عن مواقف العلماء من السلطة العثمانية الحاكمة في الجزائر، وما وُجِد من المادة العلمية فهو مُتناثر ضمن صفحات من المصادر والمراجع المحلية والأجنبية.

- صعوبة الحصول على أهمّ المخطوطات والوثائق الرسمية التي تخصّ الفترة بالدراسة، وقد أُجرِيَت في هذا الإطار عدّة تنقّلات ميدانية إلى الجزائر العاصمة، وبالخصوص إلى المكتبة الوطنية من أجل الحصول على بعضها. لكن وقع مالم يكن متوقّعًا، حيث أنّ معظم هذه المخطوطات لم نستطع الحصول عليها لصعوبة تصوير بعضها بسبب الحالة السيّئة التي آلت إليها، أو لأنّ البعض منها في إطار التحقيق في رسائل الدكتوراه، والبعض الآخر كان عدم تصويرها مُتعَمّدًا حيث ضيّع علينا انتظار وترقّب الحصول عليها من الوقت الكثير. وبالرّغم من ذلك فإنّه تمّ الحصول على ستّة منها، تمّ من خلالها محاولة دراسة هذا الموضوع.

وإلى جانب ذلك فقد وُجِدت صعوبات أخرى أعاقت السّير الحسن لهذه الدراسة، تمثّلت في تَكتُّم بعض مالكي المخطوطات الخاصة بعلماء المنطقة الغربية ورفضهم تزويدنا بها.

إنّ هذا الواقع لم يثن من عزيمتنا في البحث المستمرّ عن المطلوب، بل دفع بنا إلى بذل قصار الجهد في سبيل تحقيق الهدف، فسافرنا إلى فرنسا في رحلة بحثية للاطّلاع على المكتبات التي قد تتوفّر فيها المصادر التي قد تُسعفنا ونجد من خلالها ضالّتنا. وخلال زيارتنا تلك في مارس من عام 2015م تمكّنا -بتوفيق الله تعالى- من الاتّصال بشخصيات علمية متخصّصة في هذا الموضوع من فرنسيين وعرب فلم يبخلوا علينا وأفادونا بعض الشيء، كما اطّلعنا على بعض المكتبات المهمّة لاسيما أرشيف ما وراء البحار بأكس أون بروفانس.

ولكن الأهداف لم تكتمل دورتها إلاّ بعد عودتنا إلى الجزائر وقيامنا بزيارات متعدّدة إلى مدينة الجزائر وقسم الأرشيف العثماني بها، وطرق أبواب المكتبات الشخصية وزيارة المكتبات العامة في جامعات كلّ من وهران، سيدي بلعباس، تلمسان، قسنطينة، وتمكّنا من الحصول على بعض المصادر من مكتبات دولة المغرب عن طريق صديق زائر إلى هناك.

لم نكتف بهذا القدر في البحث والتقصي لجمع المعلومات، بل قمنا بزيارات ميدانية متعدّدة وأجرينا لقاءات مع بعض الأساتذة المتخصصين في تاريخ الجزائر الحديث أمثال الدكتور مولاي بالحميسي، واستطلعنا آراءه حول ما توصّل إليه من أبحاث عن واقع السلطة العثمانية بالجزائر ودوّنا أقواله. كما حاورناه فأدلى بإفادته عن ذلك، وهذا بعد أن قُمنا بصياغة أسئلة وجّهناها إليه لمعرفة وُجهة نظره من الأوضاع العامة بالجزائر خلال العهد العثماني 1518-1830م، ووثّقنا كلّ تلك الشهادات وضمنّاها في البحث.

وحصيلة هذه المساعي والاتّصالات والمراسلات ما زوّدنا به الدكتور مولاي بالحميسي من كتب قيّمة ومتخصّصة حول التاريخ الثقافي لمدينة مازونة أملاً في سدّ ثغرة من ثغرات البحث، إلى جانب تشجيعه لنا على البحث في هذا المجال، ولم يبخل فيها بنصائح وتوجيهات قيّمة حول الموضوع.

وممّا لا شكّ فيه أنّ الأمل كان كبيرا في الحصول على مادة علمية غزيرة عن حياة هؤلاء العلماء، إلاّ أنّه وبعد التنقيب عن تفاصيل حياتهم في المصادر المعاصرة لهم وحتى

اللاحقة وجدنا فيها مادة شحيحة وغير كافية. حيث أنّ معظم من ترجموا لهم لم يُنصفوهم باستثناء بعض المراجع والمقالات التي حاولت رسم صورة واضحة عن حياتهم لكنّها لم تَخرج بطائل، ولم تكن المعلومات فيها كافية ولا تكاد تسلّط الضوء الكافي على حياتهم وآثارهم، وعلاقتهم بالسلطة الحاكمة وقتذاك.

وإذا كانت المصادر قد أغفلت ترجمتهم فإنّ هناك من العلماء من قدّموا لنا معلومات هامّة عن حياتهم، وجاءت مؤلّفاتهم مصدرا هامًّا في هذا الإطار مثل أبو راس الناصر في سيرته الذاتية "فتح الإله" التي عرّف فيها بنفسه ورحلاته واتّصالاته ومشاهداته وشيوخه وتلاميذه. ومع ذلك تبقى المادة التي قدّمها بعض العلماء في كتاباتهم عن حياتهم ومواقفهم من السلطة العثمانية الحاكمة في الجزائر لا تف بالغرض المطلوب في بعض جوانب الموضوع، خاصة ما تعلّق بالكشف عن جوهر تلك العلاقة، وقد يكون ذلك مُودعًا في جزء كبير من مؤلّفاتهم المفقودة.

ومع ذلك فقد جاءت مؤلّفات بعض العلماء ضمن لائحة المصادر الأساسية للموضوع، وساهمت إلى حدٍّ كبير في جبر الكسر الكبير المسجّل على مادة البحث. ولذلك تمّ الرّكون في دراسة ونقد مصادر ومراجع البحث إلى تصنيفها على النّسق التّالي:

أ- المصادر المخطوطة:

1- عجائب الأسفار ولطائف الأخبار: لصاحبه أبو راس الناصر، وتكمن أهميّة هذا المصدر في كونه يعطي صورة واضحة المعالم عن واقع الفترة الأخيرة من العهد العثماني بالجزائر، وبالأخصّ ما تعلّق بالتواجد الإسباني بالناحية الغربية. كما أفادنا كثيرا في معرفة تفاصيل فتح وهران الثاني سنة 1792م وحال العلماء آنذاك، وما لقيه الباي محمد الكبير إثر ذلك من مديح وما ناله من شهرة لدى مختلف شرائح المجتمع الجزائري. ولهذا كان هذا العمل من المصادر الأساسية التي خدمت الموضوع كثيرا، وفي جلّ فتراته تقريبا.

2- الحلل السندسية في فتح وهران والجزيرة الأندلسية: وهذا المخطوط هو من نوادر ما ألّفه أبو راس الناصر، كَونه بمثابة شرح نثري لقصيدة نظّمها المؤلِّف بمناسبة فتح وهران الثاني، أدّت إلى رسم صورة واضحة المعالم حول هذا الحدث العظيم الذي عرفه البايلك الغربي.

3- الرحلة القمرية في السيرة المحمدية: لابن زرفة أبو محمد المصطفى بن عبد الله بن عبد الرحمن، وقد احتوت على جزئين لايزال الجزء الثاني منها مفقودًا رغم أهميّته في ذكر وقائع الفتح الوهراني الثاني. ورغم أنّ صاحب المخطوط كان كاتبًا للباي محمد الكبير ومادحًا له ومخلِّدًا لمآثره إلاّ أنّه لا يخلوا من حقائق تاريخية هامّة لم توفّرها بقيّة المصادر الأخرى، حيث جاءت مفيدة جدًّا للموضوع. وتمثّلت أساسًا في رسم صورة واضحة المعالم لحوادث الفتح كلّها، وتسجيل الأرزاق والمؤن التي كانت تُقدّم لطلبة وعلماء الرباط وقتذاك.

4- الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة: لصاحبه محمد بن رقية التلمساني، أفادنا من خلال حديثه عن الحملات الأوربية على الجزائر حسب تسلسلها الزمني منذ قدوم عروج وخير الدين إلى فترة الداي محمد عثمان باشا، بالإضافة إلى حديثه عن الظروف التي انضمّت فيها الجزائر إلى الدولة العثمانية.

5- ياقوتة النسب الوهاجة وفي ضمنها التعريف بسيدي محمد مولى مجاجة: لصاحبه أبو حامد المشرفي، وهو من المخطوطات الأساسية التي زوّدت البحث بمادة علمية مهمّة، لكونه اشتمل على ذكر العديد من الأسر العلمية التي توارثت العلم والمعرفة بالمنطقة الغربية وفي مقدّمتها أسرة المشارف. كما اتّضحت أهميّته في تقديمه لمعلومات هامّة عن حياة عبد القادر المشرفي ونسبه، ومكانته العلمية بين فقهاء عصره.

6- وثائق تخص أسرة الكتروسي بمازونة: وأغلبها عبارة عن ظهائر من بايات الغرب وبعض رجال الدولة إلى علماء هذه الأسرة بخصوص تعيينهم في مناصب الفتوى والقضاء والخطابة والإمامة، وقد سهّلت تلك المعلومات التي استقيناها من هذه الوثائق من مهمّتنا كثيرا –وهذا بعد أن تحصّلنا عليها من الأستاذة لزغم فوزية– في معرفة الوسائل التي لجأت إليها السلطة العثمانية من أجل كسب العلماء إلى جانبها، خصوصًا منحهم مجموعة من الوظائف والامتيازات.

ب- المصادر المطبوعة:

1- الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني: لابن سحنون الراشدي أحمد بن محمد علي الذي كان من مُقرَّبي الباي محمد الكبير، ورغم أنّ الكتاب عمل أدبي بالدرجة الأولى إذ يشرح قصيدة مادحة ومخلّدة لسيرة الباي، إلاّ أنّ أهميته التاريخية لا يمكن تجاوزها. فقد استفدنا منه كثيرا في التعرّف على العلاقة التي كانت سائدة بين العلماء والسلطة خاصة حول

مسألة الجهاد ضدّ الإسبان الذي شكّل دعامة أساسية لاستمرار التحالف بين الطرفين، كما يُظهر جانبا من العلاقة الحسنة والطيبة التي كانت تجمع السلطة بالعلماء خلال فترة حكم الباي محمد الكبير.

2- رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري: لأحمد بن هطال التلمساني أحد كُتّاب الباي محمد الكبير، وتَكمُن أهميّة المصدر في كونه نقل إلينا صورة عن حال العلاقة بين الحكّام والمحكومين. كما أفادنا بحديثه عن مراحل رحلة الباي وغزواته للقبائل الصحراوية البعيدة عن السلطة لإرغامها على دفع الضرائب، وقد تعكس جوانب عديدة من شخصية محمد الكبير وسياسته خصوصا مواقفه الجهادية.

3- دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران: لصاحبه محمد بن يوسف الزياني، والذي أفادنا بالتعرّف أكثر على الظروف التي عاشتها هذه المدينة، خاصة ما تعلّق منها بالفترة الأخيرة من الحكم العثماني كظهور ثورة درقاوة التي تحدّث عنها بالتّفصيل. ورغم أنّه هو الآخر كان مُقرّبًا من الحكّام، إلاّ أنّه كان يعطي مواقف وأحكام وآراء حول السلطة الحاكمة وقتذاك.

4- فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته: لمحمد أبي راس الناصر، وهو مصدر مهمّ لما ورد بين طيّاته من معلومات مستفيضة أفادت البحث كثيرا. حيث عرّف المؤلِّف بنفسه ورحلاته واتصالاته ومشاهداته وشيوخه وتلاميذه، كما يعطينا صورة واضحة المعالم عن التعليم في مازونة ومعسكر اللّتين درس بهما، ويُعرّف العديد من العلماء بمازونة. ومع ذلك تبقى المادة التي قدّمها أبو راس الناصر في مؤلَّفه هذا لا تف بالغرض المطلوب في بعض جوانب الموضوع خاصّة ما تعلّق بحياته العلمية بمدينة مازونة وشيوخه الذين لقيهم هناك وأجازوه، حيث أنّه لا يتعرّض بالتفصيل لترجمتهم والتي نعتبرها مهمة في ثنايا الحديث عن مشاركة بعض منهم في رباط وهران سنة 1792م.

5- طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر: للآغا بن عودة المزاري، هذا الأخير الذي عايش كثيرا من الأحداث التي عرفتها الإيالة خلال خمسين سنة الأخيرة من عمرها. وتكمن أهميّة هذا المصدر في كَونه أطلعنا على سياسة الحكّام العثمانيين في الجزائر وخاصّة بايات الإقليم الغربي المتأخّرين بدءًا بالباي حسن وأهمّ ما ميّز فترة حكمه، وفي خضمّ ذلك جاء ذكر أحداث سياسية كثيرة

لها علاقة بتاريخ بايلك الغرب كثورة درقاوة والتيجانية وسياسة البايات ضدّ الثوّار وأتباعها، بل أيضًا الاستبداد الذي مارسه الباي حسن ضدّ العلماء والفقهاء والمتصوفة من قمع وقتل وتنكيل بالجثث في إطار التصفية الجسدية.

6- بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر: لعبد القادر المشرفي، مصدر مهم جدًّا في دراسة دور العلماء في الحفاظ على وحدة إيالة الجزائر أمام الخطر الإسباني. فالمؤلِّف قد وقف إلى جانب السلطة العثمانية واهتمّ بالجهاد المضاد للقوى الإسبانية بوهران وعايش فصوله أوّلاً بأوّل، كما أنّه ندّد بالقبائل التي تعاونت مع الإسبان بعد أن فصّل الحديث عن أصولها ونسبها والمجال الجغرافي الذي سكنته، وتقديره لسكّانها ووصف أخلاق بعض عشائرها وتبيانه لموقف الشّرع من أفعالها.

7- خاتمة أنيس الغريب والمسافر: لمسلم بن عبد القادر الوهراني، وهو من أهمّ المصادر التي عالجت تاريخ بايات وهران وساعدت على التّعريف بهم والترجمة لهم. كما فصّلت الحديث خصوصًا عن ثورة درقاوة، ولذلك جاء مصدرًا فريدًا في بابه لعدم توفّر هذه المعلومات في مصادر أخرى.

هذا وقد استفدنا منه أيضا في معرفة بعض الجوانب من السياسة التي انتهجها آخر بايات وهران حسن باهي، ومن استخلاصه للنتائج التي آل إليها الحكم العثماني في الجزائر، لاسيما وأنّه كان مقرّبًا من السلطة وعايش الاحتلال الفرنسي وعرف نهاية حكم الباي حسن. فأرجع ذلك إلى ظلم الحكّام وسوء معاملتهم للعلماء، وابتعادهم عن الحق ومجانبتهم للعدل.

8- مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر: وهو مصدر عايش صاحبُه كثيرا من الأحداث التي عرفتها الإيالة خلال خمسين سنة من عمرها، وتكمن أهميّته في أنّه أطلعنا على جوانب متعدّدة من السياسة التي انتهجها العثمانيون كالجهاد ضدّ الإسبان والتداول على السلطة، بالإضافة إلى حديثه عن ثورة درقاوة والتيجانية. كما ساهم في رسم صورة واضحة المعالم حول طريقة أداء مراسيم تسليم الدنوش الأصغر والأكبر، والتي تطلَّبها الفصل الأول من البحث.

9- المرآة: لحمدان خوجة، تكمن أهميّة هذا المصدر في أنّه سلّط الأضواء على بايلك الغرب ويعطينا حقائق تاريخية كثيرة عن بايات هذا الإقليم خصوصًا الباي حسن بن موسى

ودوره في سقوط وهران في يد الاحتلال الفرنسي، بالإضافة إلى كونه فصّل الحديث ورسم لنا صورة عن مختلف الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية لإيالة الجزائر.

10- فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة: لمحمد الصالح بن العنتري الذي عاصر العقود الأخيرة من الحكم العثماني للجزائر والعقود الأولى من الاستعمار الفرنسي، وتكمن أهميّة المصدر في كَونِه نقل إلينا صورة عن الوضع الاقتصادي للجزائر عمومًا وإقليم قسنطينة خصوصًا إثر سنوات الجفاف وما انجرّ عنها. هذا الوضع الذي أدّى في الأخير إلى تذمّر الرّعية، وقيام مجموعة من الثورات تزعّمها شيوخ الطرق الصوفية.

وإلى غير ذلك من المصادر التي تجل عن العدّ فقد بات لزامًا الاستعانة ببعض المصادر التاريخية "كالديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب" لإبراهيم بن علي ابن فرحون، و"بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة" لجلال الدين السيوطي، وأُخرى في الجغرافيا لتخريج بعض الأماكن الواردة ضمن هذا العمل واعتمدنا أساسًا على "وصف إفريقيا" للحسن الوزان المعروف ب: ليون الإفريقي.

كما استفدنا أيضًا من مصادر أخرى باللغة الأجنبية نقلت إلينا كثيرًا من الحقائق حول الحياة الثقافية عامّة، واشتملت على تفصيلات هامّة ودقيقة لأهمّ الطرق الصوفية ونشاطها ودورها في المجتمع وحتى صلتها بالسلطة، ومن بينها كتاب Marabouts et Khouans لصاحبه رين لويس Rinn Louis، الذي نقل إلينا صورة عن المرابطين والإخوان التّابعين للطرق الدينية المختلفة. إضافة إلى ما أورده كلّ من Depont Octave و Coppolani Xavier من وصف دقيق لوضعية الطرق الصوفية، وعلاقتها بالسلطة في الكتاب الموسوم ب:

Les confréries religieuses musulmanes.

وفي موضوع متّصل نذكر عمل ألبير دوفو Albert Devoulx الذي نُشِر عام 1852م تحت عنوان:

Tachrifat, Recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger.

ومن المصادر المعتمد عليها كتاب: Histoire de royaume d'Alger، لمؤلِّفه لوجي دوتاسي Laugier de Tassy الذي زار الجزائر مع مطلع القرن الثامن عشر ميلادي، ونقل إلينا صورة عنها لا سيما فيما تعلّق بالحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بها. هذا بالإضافة إلى عمل الدكتور شو Dr Shaw الذي كان في الجزائر في العقد الثاني من القرن الثامن عشر ميلادي، وألَّف كتابًا سمّاه: Voyage dans la régence d'Alger.

وإذا كانت هذه المصادر لم تعالج موضوع العلاقة بين العلماء والسلطة بشكل مباشر، فإنّها احتوت على معطيات أساسية وحقائق تاريخية هامّة لم توفِّرها بقيّة المصادر الأخرى، وتمثّلت أساسًا في رسم صورة واضحة المعالم عن إيالة الجزائر. حيث اعتمدنا عليها في هذا البحث لكن مع الحذر الدائم منها، وخصوصًا المعاصرة منها للتواجد العثماني لوجود اختلاف كبير فيما بينها ومحاولتها تشويه وتزييف الحقائق، أو ربّما تمرير مجموعة من الأفكار تُبرِّر الظاهرة الاستعمارية. ضف إلى ذلك أنّها قامت بإطلاق كلمات: الاستبداد والطغيان والفساد على كثير من رجالات الدولة العثمانية، وكان الهدف من وراء ذلك –على ما يبدوا– القضاء على الوجود العثماني بالجزائر.

ومن هذا المنطلق يجد الباحث أنّ الموضوع ليس من المراكب السهلة، بل تُحيط به الصعوبات ويكتنفه الإحراج، ورغم ذلك فقد بذلنا جهودنا المتواضعة وحاولنا –معتمدين على الله تعالى– صياغة البحث في إطار المنهجية العلمية وتدوين ما توصّلنا إليه بفكرنا القاصر، دون التأثّر بالمشاعر والاعتبارات العاطفية وبعيدًا عن طغيان الأهواء على العقل والمنطق، والأحداث التاريخية التي تبيّنت لنا صحّتها وسلامتها. إذ يجب على الباحث التسلّح بالجرأة والوقوف على الحياد وسرد الاستنتاج للوقائع، وإصدار الحكم عن قناعة ولا يخشى في الله لومة لائم، وهذه محاولتنا في تدوين الشهادات وتثبيت الصورة دون أن نحيد قيد أنملة عن هذا المنهج، عسى أن يكون عملنا في الكشف عمّا نتصوّره هو الحق وسواء السبيل.

وفي ذات السياق تمَّ تعزيز قائمة المصادر بمجموعة من المراجع والأبحاث المتأخّرة التي لها صلة وثيقة بالبحث ويتصدّرها كتاب "تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16–20م)" لأبي القاسم سعد الله، وهو من المراجع الموثوقة التي تكشف حقيقة الواقع الثقافي في بايلك الغرب، حيث استفدنا منه فيما يتعلّق بحياة العلماء وإنجازاتهم الثقافية وأدوارهم السياسية.

وممّا زاد في أهميّة هذا الكتاب هو اعتماد المؤلِّف على مصادر مخطوطة متنوّعة مشتَّتة عبر مكتبات العالم كشفت لنا طبيعة العلاقة بين السلطة العثمانية والعلماء وزعماء الطرق الدينية والزوايا، فهو يحلّل ويناقش المعلومات التي يوردها، يجتهد في توضيح الملابسات. وقد مكَّنه تحكّمه في اللغة العربية من أن ينفذ إلى الموضوع من منافذ مختلفة، حيث كان يختار في كلّ ميدان أكثر العلماء شهرة فيه ويترجم لهم تبعا له فإن اشتهر عالم بالتدريس أُدرج في فصل التعليم وإن اشتهر بالتصوف أو بتأليف في علم معيّن أُدرج ضمنه وهكذا، وبهذا يكون الكتاب قد أفاد البحث بشكل مباشر.

كما كان لكتابات يحيى بوعزيز حضور كبير في هذا البحث خاصة منها كتاب "أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة"، والذي أماط اللِّثام عن كثير من مواضع الشّبهة حول بعض علماء المنطقة الغربية. بالإضافة إلى كتابه الآخر الموسوم ب: "موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب"، حيث حاول فيه رسم صورة موسّعة عن حياة بعض الأسر العلمية ودورها الديني والسياسي. ونفس الكلام يقال عن ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي اللذين أعانت كتاباتهما هذا البحث كثيرا، وفي جُلِّ فتراته تقريبًا فلا يمكن للباحث الاستغناء عنها.

ومن المراجع المهمّة التي تمَّ الاعتماد عليها في هذا البحث كتاب "مازونة مقصد الدارسين وقلعة الخليليين" لمولاي بالحميسي، وهو يَضُم تراجم عدد كبير من أعلام مازونة ومعسكر وعلاقتهم بالسلطة الحاكمة، وأغلب تراجمه مستقاة من وثائق مخطوطة سمح للمؤلِّف منصبه كعضو شرفي بمعهد التاريخ التركي –أنقرة– وكنائب رئيس المجمع العالمي للمؤرّخين في حوض البحر الأبيض المتوسط –روما– بالاطِّلاع عليها والاستفادة منها، وقد أفادت البحث بشكل كبير خاصة في الفصل الثالث منه.

ومما تجدر الإشارة إليه كذلك أنّه تمَّ الاعتماد على كتاب "الجزائر خلال الحكم التركي (1514–1830م)" لصاحبه صالح عباد، وقد كان الاستئناس بهذا العمل كبيرًا في فترات كثيرة من هذا البحث. كما أعانتنا الدراسة التي أعدّها الأستاذ محمد بوشنافي والموسومة ب: "موقف علماء معسكر من بعض القضايا السياسية للجزائر خلال العهد العثماني" ضمن كتاب جماعي تحت عنوان: "معسكر: المجتمع والتاريخ"، في معرفة موقف العلماء من السلطة العثمانية ومن بعض القضايا الهامّة والمصيرية التي عاشتها الجزائر آنذاك. كما أَطْلَعنا على

موقفهم من القبائل المتعاملة مع الإسبان، وبيَّن دور العلماء في فتح وهران، وموقفهم من الثورات الدينية التي شهدها بايلك الغرب على الخصوص.

ومن كتب التراجم التي تمَّ الاعتماد عليها في هذه الدراسة "فهرس الفهارس" لعبد الحي الكتاني وكتاب "تعريف الخلف برجال السلف" لأبي القاسم محمد الحفناوي، و"معجم أعلام الجزائر" لصاحبه عادل نويهض، حيث تمَّت الاستعانة بهذه الكتب في تخريج بعض الأعلام.

أمّا المراجع الأجنبية المعتمدة في هذا البحث فهي كثيرة ومتنوّعة من منشورات على شكل مؤلَّفات كتبها أصحابها خلال العهد الاستعماري، أو في شكل مقالات ضمن مجلاّت ودوريات ذات صلة بالموضوع، ولعلّ أبرزها المجلة الإفريقية.

ففيما يتعلّق بالمراجع الأجنبية التي راجعناها واستفدنا منها فهي كتاب:

De la domination turque dans l'ancienne régence d'Alger.

لصاحبه والزين أسترهازي Walsin Esterhazy والذي تضمّن معلومات عن مختلف شؤون الإيالة، لاسيما ما تعلّق بتاريخ غرب الجزائر تحت الحكم العثماني.

كما يمكن الإشارة عرضًا إلى بعض المراجع الأخرى في نفس السياق، ومنها كتاب تاريخ مستغانم Histoire de Mostaganem لصاحبه مولاي بالحميسي Moulay Belhamissi

ومراجع أخرى متعدّدة ساهمت في رسم صورة واضحة المعالم عن وضعية المنطقة الغربية خلال العهد العثماني.

ومن المقالات التي تمّ الاعتماد عليها ما كتبه جورجوس Gorguos حول سيرة الباي محمد الكبير، ونشره لذلك في المجلة الإفريقية Revue Africaine سنة 1856م تحت عنوان:

Notice sur le bey d'Oran Mohammed El Kebir.

حيث زوّدنا بمعلومات قيّمة خصوصًا ما تعلّق بإنجازات الباي محمد الكبير الثقافية، وتاريخ وهران وبايلك الغرب أيّام حُكمه.

كما سهّلت مهمّتنا كثيرا تلك المعلومات التي استقيناها من مقال بيار بويي Pierre Boyer عن السياسة الدينية التي انتهجها العثمانيون في الجزائر، والذي نشره في مجلة الغرب الإسلامي والبحر المتوسط سنة 1966م تحت عنوان:

Contribution à l'étude de la politique religieuse des Turcs dans la régence d'Alger xvɪ-xɪx siècle.

حيث رسم فيه صورة واضحة المعالم عن علاقة العلماء بالسلطة، منذ بدايتها وتطورها إلى مرحلة التحالف وصولاً إلى القطيعة.

وانطلاقا من المادة المتحصّل عليها اتّبعنا الخطة التالية بهدف الإجابة على مجموعة التساؤلات التي شغلتنا طيلة فترة إنجاز البحث، وبذلك تضمّنت الرسالة خمسة فصول علاوة على المقدمة والخاتمة.

فالمقدمة هي عبارة عن دليل كشّاف وخريطة ناطقة لإرشاد القارئ إلى الوقوف في أبرز محطّات الرسالة، وتبيان أهمّ العناصر التي يتركب منها البحث، وتوحي بفكرة مقتضبة عن الهيكل العام لإطار البحث وسياسة الصياغة وسبك التحرير، وتوضيح الأهداف المبتغاة من محاور الدراسة.

أمّا الفصل الأول فكان بعنوان: "بايلك الغرب: إطاره العام ووضعه السياسي"، وهو عبارة عن فصل تمهيدي اعتبرناه ضروريًا لإبراز الوضع الإداري العام لبايلك الغرب، وتحديد التشكيلة الجغرافية والإدارية له مع ذكر مسهب لعلاقته بالسلطة المركزية وأهمّ باياته، فبدون هذا التعريف المبرز تبقى خلفيات كثير من الأحداث والقضايا الواردة في فصول هذه الدراسة غير واضحة.

والواقع أنّ أهميّة هذا الفصل تَكمن في كَونه يُشكِّل جزءًا من صلب البحث للعلاقة الموجودة بين الوزن التاريخي للبايلك الغربي وماضيه الحافل بالأحداث من جهة، والتطورات التي شهدها لاحقًا من جهة أخرى. لاسيما الحملات الصليبية الإسبانية على وهران، والتي أثّرت بدورها على علاقة العلماء بالسلطة العثمانية وقتذاك، فبواسطتها يُمْكننا أن نكتشف العلاقات بين الحكّام ورجال الدين أكثر من النّظر إليها من زاوية أخرى.

وقد تناول الفصل الثاني حركة الجهاد ضدّ الإسبان بوهران، والذي يُعتبر بمثابة أحد أسباب التقارب بين العلماء والسلطة والعامل الأساسي للتحالف بين الطرفين، فكان عنوانه "حركة الجهاد ضد الإسبان بوهران: الرباط الأساسي بين العلماء والسلطة". ولقد كان من غير المناسب دراسة المناشط المختلفة للعلماء في ميدان الصراع ضدّ النصارى الإسبان دون التعرّف عليهم، والوقوف على أحوالهم، ولذا احتوى هذا الفصل على مباحث، أُفرِد أوّلها

لمعرفة ملامح حياة مشاهير هؤلاء العلماء خلال عصر الدراسة كلّه، وتناول المبحث الثاني المكانة العلمية –بشكل عام– للعلماء المشاركين في الصراع ضدّ النصارى الإسبان، كما عالج المبحث الثالث منزلتهم الاجتماعية، ثمّ أختتم هذا العنصر بالمبحث الرابع الذي يتمم المباحث السابقة وهو أثرهم العلمي في المجتمع.

كما تعرّضنا فيه لعلاقة العلماء بالسلطة العثمانية عند فتح وهران، مع إبراز جهود العلماء والمرابطين مع السلطة في ميدان الصراع مع الإسبان خلال الفتح الأول والثاني للمدينة. حيث أنّ جمهرة كبيرة منهم شاركت في تلك المواجهة بنشاطات ملموسة وإسهامات مجدية، وجهود مؤثّرة سواء كان ذلك في المجال السياسي أو العسكري أو الفكري.

كما حاولنا في هذا الفصل أن نبيّن أثر العلم وصحبة العلماء البارزين والمخلصين في تشكيل القيادات السياسية البارزة، ومدى عُمْق العلاقة والاحترام المتبادل بين البايات وبين العلماء وأثر ذلك في تحصيل الثمرة الطيبة التي اشتهر بها الباي محمد الكبير وهي فتح وهران، ابتداءً من دَوْر العلماء في تحفيز الباي على القيام بالمحاولة، ومرورًا بعمليات الاستعداد والإعداد المعنويِّ والماديِّ للمعركة، وانتهاءً بدور العلماء المميَّز في مسار عمليات الفتح الميدانية.

وخُصِّص الفصل الثالث لإظهار العلاقة بين السلطتين السياسية والروحية، فكان بعنوان: "التقارب بين العلماء والسلطة: طرقه وأشكاله"، كما حاولنا أن نُبرز فيه أساليب ووسائل السلطة لاستمالة العلماء والمرابطين، والتي تنوّعت بين امتيازات معنوية ومادية من احترام واستشارة ومنح المناصب والإعفاء من الضرائب، إلى دورهم في المهام السياسية الداخلية والخارجية، والقيام بدور الوسيط بين السلطة والسكان.

ثمّ عرّجنا على جانب مهم من حياة الباي محمد الكبير وشخصيته، وهو جانب رعايته للعلم وعلاقاته بالعلماء، وأثر تلك العلاقات والروابط في سَيْر الأحداث العامة والخاصة في تاريخ فاتح وهران.

ثم تلى ذلك: الفصل الرابع الذي رصد بصورة جليّة إسهام أكبر عدد ممكن من علماء المنطقة الغربية في ميدان الحفاظ على وحدة الإيالة، وقد عنون له ب: "دور العلماء في تمجيد السلطة العثمانية والحفاظ على وحدة الإيالة"، وقد تطرّق في البداية إلى نماذج من إسهامات هؤلاء العلماء في تحصين مدن المنطقة الغربية –لاسيما وهران– من العدوان

النصراني الإسباني الغادر عليها، مع التركيز على عنصر جهودهم في الدفاع عنها عند تعرّضها للاعتداء أو الحصار من جانب أولئك الأعداء. بالإضافة إلى إبراز أنّ هذا العمل يُمْكن أن يَدخل في إطار وقوف العلماء في صفّ العثمانيين من أجل تحقيق الاستقرار السياسي، وتوحيد أجزاء البلاد عامة.

وليتمّ الكلام بعد ذلك عن نماذج من العلماء المقرَّبين إلى السلطة ومؤلَّفاتهم الممجّدة لجهاد العثمانيين، حيث بيّنا ملامح حياة هؤلاء العلماء خلال عصر الدراسة كلّه، والعلاقات المثلى التي كانت تجمع الباي محمد الكبير مع نخبة منهم أمثال ابن سحنون الراشدي، ابن زرفة الدحاوي، أحمد بن هطال التلمساني وأبو راس الناصر المعسكري. ثمّ حاولنا دراسة مؤلَّفات هؤلاء العلماء بُغية معرفة مقدار دورها في إضفاء الشّرعية على حكم هذا الباي، وأثرها في تمجيد العثمانيين وتحسين صورتهم لدى الرعية، والرفع من شعبيتهم لدى عامة الناس وخاصتهم.

وأتى الفصل الخامس –وهو الأخير– معالجًا مرحلة جديدة من علاقة العلماء بالسلطة العثمانية اتّسمت بالتنافر والعداوة وصولاً إلى القطيعة خلال أواخر العهد العثماني، فكان عنوانه: "مظاهر تدهور علاقة العلماء بالسلطة العثمانية" أُفتتح ببيان لأسباب القطيعة، مع التركيز على السبب الرئيسي الذي أدّى إلى تدهور العلاقة بين الطرفين، ألا وهو تصفية الاحتلال الإسباني من وهران سنة 1792م. فهو يُعتبر منعطفًا حاسمًا في فترة وجود العثمانيين بالجزائر والعلاقات بينهم وبين المرابطين والعلماء والمتصوفة، لأنّه يُمثّل نهاية عهد وبداية عهد جديد اختلفت معطياتهما وملامحهما من عدّة أوجه.

وبعدها عُرضت مجموعة من المظاهر الدالة على القطيعة، مع رصدٍ للإجراءات التي اتّخذتها السلطة العثمانية ضدّ العلماء من قتل وعزل من المناصب ومصادرة أملاكهم، وحتى مضايقتهم وإهانتهم. وليتمّ بعدها تتبّع نتائج وانعكاسات هذه القطيعة على كلا الطرفين والتي تجلّت في الثورات والتمرّدات شهدتها إيالة الجزائر أواخر العهد العثماني.

وكما هو المقرّر في البحوث العلمية فقد أُنهي هذا البحث بخاتمة رصدنا فيها أهمّ النتائج التي توصّلنا إليها، كما ذُيّل بعدد من الملاحق والخرائط التي رُئي أنّها تخدم الموضوع.

ولاشكّ أنّ هذه الدراسة شأنها كأيّ بحث مبتدئ لا تخلو من ثغرات، ومع ذلك فإنّها قد أسهمت ولو بالنّزر القليل في تشكيل لبنة من لبنات دراسة تراث الجزائر عمومًا والجهة الغربية خصوصًا، ولا ندّعي بأيّ حال من الأحوال كمال هذا العمل بل الكمال لله وحده.

الفصل الأول:

بايلك الغرب: إطاره العام ووضعه السياسي

1. جغرافية بايلك الغرب.
2. المنظومة الإدارية للبايلك.
3. البايلك الغربي وعلاقته بالسلطة المركزية.
4. سياسة البايلك الداخلية وأهم بایاته: النشأة والتطور.
5. التركيبة القبائلية للبايلك الغربي ودورها في تدعيم السلطة المحلية.
6. الأطماع الأجنبية بالبايلك الغربي.

من الضّروري جدًّا لدارس أيّ نوع من العلاقات سواءًا كانت اقتصادية أو سياسية أو ثقافية أو اجتماعية، أن يتطرّق في البداية إلى إبراز الوضع الإداري العام للمجال الجغرافي الذي يريد دراسته، هذا الوضع الذي يُحرّك الصّلات بين الأفراد والجماعات من جهة وبين القاعدة والقمّة من جهة ثانية.

لذلك وانطلاقًا من هذا المفهوم، ارتأيت أن أُعطي ما هو مُفصّل ومُركّز للتشكيلة الجغرافية والإدارية لبايلك الغرب في الفترة العثمانية، مع ذكر مسهب لكيفية تنظيم وتسيير شؤونه الداخلية علاوة على وضعه الداخلي والسياسي وعلاقة ذلك بالسلطة المركزية. ضف إلى ذلك التطرق إلى أهم بایاته والتعرض إلى قبائله وتوزيعها، في دراسة لتبيان أهمية الموقع الجيوإستراتيجي والتاريخي للبايلك، والتي جعلت منه عرضة للأطماع الأجنبية المتكالبة عليه بغرض الخروج بنتيجة فحواها الوصول إلى الفكرة العامة، التي يُمكننا بواسطتها أن نكشف العلاقات بين الإطار الزماني والمكاني للبايلك.

1) رقعة بايلك الغرب:

إنّ الموقع الجغرافي والفلكي الذي تميّز به بايلك الغرب، قد جعل منه مركزا وسطيًا بين إقليمي بايلك الشرق[1] وبايلك التيطري[2]، فهو بذلك قد مثّل مركز الإشعاع والقلب النابض لكل الأقاليم الجزائرية في إطار التقسيم الإداري العثماني، حيث في هذا الصدد يؤكد ويوضح الآغا بن عودة المزاري ما يلي: "... في الحقيقة أنّه هو الثاني في المرتبة لكون الترك تولوا على الجهة الغربية وجعلوا فيها باي قبل الجهة الشرقية وقاعدته وهران، وهذا الثالث كان منوعا على نوعين أحدهما مازونة، وأول بایاتها حسن بن خير الدين باشا، ثم جمعا في

[1]: بايلك الشرق: وعاصمته قسنطينة، من أهمّ البايليكات سواءًا من حيث عمقه الجنوبي أو مساحته أو ثرواته، كان يملك أحسن أراضي الحبوب وأجود أشجار النخيل. يمتدّ إقليمه من منطقة وادي سوف إلى البحر المتوسط، ومن الحدود التونسية إلى وسط جرجرة جبال البيبان، سيدي هجرس وسيدي عيسى. لعب هذا البايلك دورًا كبيرًا في مراقبة إيالة تونس وساهم في إخضاعها لنفوذ أتراك الجزائر، يختلف عن بايلك التيطري في الكثير من الجوانب عاصمته قسنطينة، كان تحت سلطة الباي منذ إنشائه عام 1535م. صالح عباد: الجزائر خلال الحكم التركي: 1514– 1830، الجزائر، دار هومه للطباعة والنشر، 2005، ص: 292.

[2]: بايلك التيطري: وعاصمته المدية، يُعتبر أصغر البايليكات وأفقرها للأراضي الزراعية الجيدة وأكثرها ارتباطًا بالسلطة المركزية. نُظِّم في عهد حسن باشا بن خير الدين (1544– 1552م)، يحدّ هذا البايلك من الشمال الأطلس البليدي، ومن الجنوب الأطلس الصحراوي ومن الغرب الشلف ومن الشرق جبال ونوغة. "المرجع نفسه"، ص: 291.

الثامن وتسعين وألف لواحد، وصارت القاعدة قلعة بني راشد، ثم صارت معسكر ثم صارت وهران في الفتح الأول، ثم صارت مستغانم، ثم صارت المعسكر، ثم صارت وهران في الفتح الثاني..."[1].

إنّ الإدارة العثمانية بالجزائر، قد أحدثت أربعة أقسام إدارية تسهيلاً للحُكم، حيث كان ذلك في عهد حسن باشا بن خير الدين 1544– 1552م[2]، أوّلها: دار السلطان[3]وثلاثة بايليكات هي: بايلك التّيطري، وبايلك الشرق الذي عاصمته قسنطينة، وبايلك الغرب الذي أسس سنة 1563م، والذي كانت عاصمته أوّلاً مازونة ثمّ معسكر وبعد الفتح الثاني لوهران سنة 1792م أصبحت هي العاصمة الرسمية للبايلك، فمقارنة بهذا نستنتج أنّ تاريخ ظهور البايلك كتقسيم إداري وسياسي يعود إلى النصف الأول من القرن 16م[4].

لقد كان بايلك الغرب من حيث المساحة أكبر اتساعًا، حيث كانت رقعته تمتّد ما بين الحدود التالية: المملكة المغربية غربًا وبايلك التيطري ودار السلطان شرقًا، والبحر الأبيض المتوسط شمالاً والصحراء جنوبًا[5]. وبالتالي فإنّ هاته المساحة كبيرة، كما أنّ هناك من يُعطي للمنطقة حُدودًا أدقّ، فها هو أرامبورو دون جوزيف (Aramburu Don-joseph) يُحدّد منطقة بايلك الغرب بوضعه لمعطيات جغرافية جديدة، قائمة على أنّ وادي الشلف يحدّ

[1]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود: في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ج1، تحقيق: يحي بوعزيز، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990، ص: 270.

[2]: حسن باشا بن خير الدين (1544–1552م): هو ابن خير الدين بربروس، أوّل من وطّد دعائم الحكم العثماني بالجزائر سنة 1551م، حيث انتهج سياسة مضادّة لكل الدول الأجنبية بما فيها فرنسا، التي كانت ترتبط بالدولة العثمانية بروابط رسمية جيدة ساعدتها من الاستفادة بالامتيازات الاقتصادية مع إسطمبول، والتي شملت جميع أقاليم الدولة العثمانية بما فيها الجزائر. علي محمد الصلابي: الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط، القاهرة، دار التوزيع والنشر الإسلامية،2001، ص: 234.

[3]: دار السلطان: وهي من أصغر المقاطعات وأكثرها تميّزا، تتبع رأسًا للسلطة المركزية المتمثّلة في الباي أو الباشا أو الحاكم العام للجزائر– مدينة الجزائر–. تمتدّ من دلس شرقًا إلى شرشال غربًا، ومن ساحل البحر المتوسط شمالاً إلى سفوح الأطلس البليدي جنوبًا، مع بعض الامتداد في بلاد القبائل والتيطري. وتنقسم دار السلطان إلى أوطان يحكمها قوّاد تحت إشراف آغا العرب، أو قائد الجيش وكلّ وطن له قائده الخاص. صالح عباد: "المرجع السابق"، ص: 281.

[4]: أنظر: عمار بوحوش: التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، بيروت، دار الغرب الإسلامي،1997، ص:63.

[5]: Louis Rinn : « Le royaume d'Alger sous le dernier dey », Revue Africaine, N° :41, 1897, p-p : 137-139.

بايلك الغرب من الناحية الشرقية، ووادي الملوية في الغرب، والبحر الأبيض المتوسط في الشمال والصحراء في الجنوب[1].

لقد كان بايلك الغرب من الناحية الطبيعية هو الأقرب إلى بايلك التيطري، بدلاً من بايلك الشرق، باستثناء المدن والمناطق الجبلية، وعلى مساحة ساحلية بلغت حوالي 270كلم^2[2]، ومن أهمّ مدنه الداخلية: القلعة وتلمسان ومعسكر ومازونة وتيارت. أمّا عن مدنه الساحلية فمنها: وهران والمرسى الكبير ومستغانم وآرزيو وبني صاف، حيث بقي هذا التقسيم الإداري للبايلك طوال العهد العثماني، واستمرّ حتى فترة الاستعمار الفرنسي، مع تغيير الاسم من كلمة بايلك إلى كلمة "عمالة"[3]. وفي هذا الصدد يقول صالح عباد ما يلي: "لقد كان بايلك الغرب، يمتد من الحدود المغربية إلى الحدود التي تفصله عن دار السلطان وعن بايلك التيطري، ومن سواحل البحر المتوسط إلى نواحي البيض حيث مجال النفوذ الديني والسياسي لمشيخة أولاد سيدي الشيخ. ولم يكتمل بصفة نهائية إلا بعد خروج الإسبان من منطقة وهران سنة 1792م، بعد أن انتقلت عاصمته من مازونة إلى معسكر، ثم إلى وهران"[4].

شكّلت كلّ من معسكر، مازونة ووهران العواصم والقواعد الهامّة للبايلك، حيث أنّه في المرحلة الأولى – أي قبل القرن 18م– شكّلت مدينة مازونة عاصمة للبايلك، وكانت تلمسان قاعدته الهامة. لكن لم يبقى الوضع على حاله، بل تغيّر الوضع السياسي بعد ذلك خلال القرن الثامن عشر الميلادي (18م)، فأصبحت بذلك معسكر عاصمة للبايلك سنة 1701م، ثمّ

[1]: Aramburu Don-Joseph de : Oran et l'ouest Algérien au 18 Siècle, Présentation et traduction de : Korso et Epalza, Alger, Bibliothèque Nationale, 1978, P : 09.

[2]: مبروك مهيرس: المساجد العثمانية بوهران ومعسكر، رسالة لنيل دبلوم الدراسات المعمقة لعلم الآثار، الجزائر، جامعة الجزائر، 1981– 1982، ص، ص: 15، 16.

[3]: "المرجع نفسه": ص: 16.

[4]: صالح عباد: "المرجع السابق"، ص: 292.

وهران في الفتح الأول سنة 1708م، تَلِيها مستغانم سنة 1732م. لِينتقل بعد ذلك إلى معسكر ثانية سنة 1737م، ولِيستقرّ نهائيًا بوهران بعد الفتح الثاني سنة 1792م[1].

يستخلص ممّا سبق، أنّ عاصمة البايلك لم تكُن مستقرة بمكان واحد، فلقد انتقلت من مدينة إلى أخرى. ففي البداية ظلّت مازونة عاصمة لبايلك الغرب حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادي (16م)[2]، حيث أُعتبر الباي ابن خديجة من أشهر البايات الذين أقاموا بها بعدما عيّنه حسن آغا على الناحية الغربية إثر حملة وهران سنة 1563م[3]، والذي عمل على إقامة التنظيم الإداري بالمنطقة الغربية وبذلك كان الباي الفعلي الأول، ثم جاء الباي السايح الذي حكم مدة 11 سنة، والباي محمد بن موسى والباي شعبان الزناقي، الذي برز بدوره في إحدى الحملات على وهران وتوفي فيها[4]، أمّا عن آخر البايات فهو مصطفى بوشلاغم[5] الذي نقل مقرّ البايلك إلى معسكر سنة 1701م، بعدما لَجأ إلى الجمع بين إيالة مازونة في شرق المقاطعة وتلمسان بغربها، فأصبحت بذلك معسكر عاصمة للبايلك لكن هذا لم يمنع من انتقال المقرّ إلى مدينة أخرى، فلقد انتقل هذا الباي إلى محاصرة وهران حيث تَمكّنَ من تحريرها من أيدي الإسبان في عهد الداي محمد بكداش، لكن حُكمه لها لم يستمرّ طويلاً إذ استعادها الإسبان، وهوما جعله ينتقل إلى مستغانم مُتّخذًا منها عاصمة لبايلك الغرب حيث استقرّ بها حتى وفاته[6].

---

[1]: محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق: المهدي البوعبدلي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978، ص، ص: 192، 193.

[2]: محمد بن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1972، ص: 36.

[3]: صالح عباد: "المرجع السابق"، ص: 293.

[4]: الآغا بن عودة المزاري: "المصدر السابق"، ص: 271.

[5]: مصطفى بوشلاغم: هو الباي مصطفى بوشلاغم المسراتي، ابن يوسف بن محمد ابن إسحاق المسراتي، الذي جمع له في توليته بين الإيالة الشرقية والغربية. تولّى بايًا على مازونة وتلمسان فكان أوّل من جُمِعت له الإيالة الغربية بتمامها سنة 1686م، ونقل كرسي المملكة من مازونة وتلمسان معًا للقلعة ثمّ إلى معسكر وجعلها قاعدته لكونها وسطًا بين مازونة وتلمسان، فتح وهران سنة 1708م، وجعلها قيادة حكمه توفي سنة 1734م بمستغانم بعدما ملك ستًا وأربعين سنة فدفن بها. الآغا بن عودة المزاري: "المصدر السابق"، ص، ص: 274، 275.

[6]:الوليش فتيحة: الحياة الحضرية في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 1993-1994، ص: 17.

يبدوا من خلال ذلك، أنّ اختيار مدينة معسكر كعاصمة لمقاطعة بايلك الغرب، قد يرجع بالدرجة الأولى إلى أسباب عديدة، نذكر منها أنّ مدينة معسكر كانت في مكان يربط بين المناطق الساحلية والمناطق الداخلية، وهي مركز هام على الطريق بين قلعة بني راشد[1] وتلمسان ممّا جعلها سوقًا لمنتوجات السودان الغربي ومُستودعًا لبضائع فاس ومُلتقى لتجارة الغرب الجزائري، ضف إلى ذلك أنّها كانت منيعة بموقعها على منحدرات جبال بني شقران من جهة، ووقوعها في منطقة زراعية تتمثّل في سهل غريس من جهة أخرى، لكن الأهمّ من كلّ هذه العوامل، هو أنّ معسكر اختيرت لتحقيق الأهداف العسكرية المتمثّلة في محاصرة وهران والقضاء على الوجود الإسباني فيها[2].

لكن فيما بعد انتقل مقرّ البايلك إلى وهران بعد الفتح الثاني سنة 1792م في عهد الباي محمد بن عثمان الكبير[3]، إذ ترجع خلفيات ذلك إلى تحرير وهران الأوّل سنة 1708م من يد الإسبان مع بداية القرن الثامن عشر (18م)، بعد أن أمر الداي محمد بكداش بإلحاقها لبايلك الغرب اعترافًا بجميل الباي مصطفى بوشلاغم، هذا الأخير الذي جعلها مقرًّا دائمًا له فاستقرّ بها مدّة ربع القرن إلى أن استعادها الإسبان سنة 1732م. فرغم محاولات هذا الباي في استعادتها مرّات عديدة انطلاقًا من معسكر، ظلّ الإسبان سادتها مدّة حوالي ستّين سنة إلى أن استعادها الباي محمد الكبير نهائيا سنة 1792م، هذا الأخير الذي نقل إليها مقرّ البايلك ثانية وعمل كثيرًا على تدعيم السلطة التركية في الناحية الغربية، حتّى بلغ بايلك الغرب أقصى اتّساعه في عهده[4].

---

[1]: قلعة بني راشد: الواقعة بإقليم بني راشد، والذي يمتدّ على طول نحو خمسين ميلاً من الشرق إلى الغرب، وعلى عرض يقرب من خمسة وعشرين ميلا، جهته الواقعة جنوبًا كلّها سهول، والواقعة شمالاً كلّها تقريبًا مرتفعات. الحسن بن محمد الوزان الفاسي ليون الإفريقي: وصف إفريقيا، تحقيق: محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983، ص: 26.

[2]: طالبي عطاء الله: علاقة الحكام الأتراك برجال الدين والعلماء في الجزائر: 1656– 1830 بحث في منهجية الدراسات المعمقة، الجزائر، معهد العلوم الاجتماعية– دائرة الدراسات التاريخية، 1980، ص:08.

[3]: سيأتي التعريف به لاحقا، أنظر: مسلم بن عبد القادر الوهراني: تاريخ بايات وهران المتأخر أو خاتمة أنيس الغريب والمسافر، تحقيق وتقديم: رابح بونار، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974، ص: 17.

[4]: صالح عباد: "المرجع السابق"، ص: 293.

وما يُمكن استخلاصه ممّا سبق، هو أنّه بالرّغم من تناول الدّارسين والباحثين لموضوع حدود ورقعة بايلك الغرب خلال العهد العثماني، إلاّ أنّهم لم يتطرّقوا بصفة دقيقة لها باستثناء الإشارات التي جاءت في بعض الدراسات، مثلاً في ما كَتبهُ رين لويس (Rinn louis) وأرامبورو دون جوزيف (Aramburu Don-joseph)، حيث رَبطَا رقعة البايلك بالحدود المجاورة، المتمثّلة في المملكة المغربية غربًا وبايلك التّيطري ودار السّلطان شرقًا والبحر الأبيض المتوسّط شمالاً والصّحراء جنوبًا[1].

كما سبق لكثير من الدّارسين والرّحالة، أن حاولوا تعيين حدود هذا الإقليم حيث وضع الدكتور شو (Docteur shaw) خلال القرن 18م خريطة، وَضَّحَ عليها معالم وحدود إقليم بايلك الغرب، ومن خلالها تَبيّنَ أنّ هذا الإقليم كان يمتدّ من شمال البحر الأبيض المتوسط إلى غاية الجنوب الصحراوي[2]. في حين قال بايسونال (Peyssonnel)، الذي زار الجزائر خلال عامي 1724–1725م، أنّ أطراف البايلك تمتدّ من الشرق إلى الغرب على مسافة 100 ميلا (حوالي 185 كلم)[3].

ومهما يكن من محاولة لتعيين هذه الحدود خلال القرن الثامن عشر (18م)، فهي لم تَعرِف الثّبات والاستقرار، ولعلّ هذا ما دفع نوشي (Nouchi) إلى وصفها بالحدود غير الثابتة، أو ما يمكن أن نُعبّر عنها بالحدود البشرية بدل الحدود السياسية، وِفقًا للوضع الاجتماعي السّائد القائم على أساس تنظيمات إدارية مطلقة[4].

يتبيّن من خلال ما سبق، أنّ الدراسات حول بايلك الغرب[5] نادرة والمعلومات فيها مُستمدة من انطباعات الرّحالة الأوروبيين والعرب، ومن تقارير قناصل الدول الأجنبية

---

[1]: Aramburu Don-Joseph de : Op.cit : P : 9.

[2]: Dr. Shaw : Voyage dans la régence d'Alger, Trad. par j. Mac. Carthy, Paris, Editeur Marlin, 1830, p : 101.

[3]: Peyssonnel et Desfontaines : Relation d'un voyage dans les régences de Tunis et d'Alger, Paris, Gide, 1838, p-p : 292-293.

[4]: Nouchi André : Enquête sur le niveau de vie des populations rurales jusqu'à 1919, C.M.M.C, Paris, 1961, p : 15.

[5]: راجع خريطة بايلك الغرب الجزائري خلال العهد العثماني الملحقة بالرسالة عن: أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492–1792، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1976.

بالمغرب. أمّا وثائق الدول المغربية بما فيها الجزائر، والتي كانت سواءا العربية منها أو التركية، فإنّها لم تَلقَ الاهتمام اللاّزم، لذلك يجب حصرها والتّعريف بها قبل العرض لكتابة التاريخ. ونَخُصّ بالذّكر وثائق ودفاتر الحكّام الأتراك المُحرّرة باللّغتين العربية والتركية، والتّي استولت عليها الحكومة الفرنسية عند احتلال الجزائر[1].

ولعلّ هذا ما أكدّه مولاي بالحميسي[2] بقوله: "أنّه لا سبيل إلى دراسة تاريخ بلد ما، دون أن نضع يدنا على وثائق الدولة الرسمية ومراسلاتها وقوانينها الإدارية والمالية والاجتماعية والعسكرية، التي سنّتها والتي تعتبر العمود الفقري، لأيّ محاولة جادة لسير الأبعاد التاريخية والحضارية للبلد المعني والمراد دراسته"[3].

2) المنظومة الإدارية للبايلك:

لقد عرف الجهاز الإداري لبايلك الغرب في العهد العثماني تطوّرًا ملحوظًا، وذلك منذ استقرار الحكم العثماني بالجزائر، وحتّى أن استكمل تنظيماته واستقرّت أجهزته مع نهاية القرن الثامن عشر (18م). بحيث أصبحت السلطة التنفيذية بيد الباي، الذي كان يساعده في أداء مهامه الإدارية وإصدار أوامره وتعليماته ديوان خاص، يتشكّل من موظفين سامين بينما كان يقوم بتنفيذ هذه الأوامر مجموعة كبيرة من الموظفين، الذين كانوا بدورهم يُشكّلون الديوان الكبير لبايلك الغرب، والذي يجتمع أعضاؤه في المناسبات الرسمية والمواسم الدينية[4].

---

[1]: أنظر: محمود عباس حمودة: الوثائق العثمانية، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 1999، ص: 31.

[2]: مولاي بالحميسي: من مواليد مدينة مازونة سنة 1930م، درس بتلمسان والجزائر العاصمة. ثم انتقل إلى فرنسا لإكمال تعليمه، فتحصّل على شهادة الدكتوراه في التاريخ، فــأصبح أستاذًا بجامعة الجزائر، ثم عضو شرفي بمعهد التاريخ التركي بأنقرة، ثم نائب الرئيس المجمع العالمي للمؤرّخين في حوض البحر الأبيض المتوسط بروما له عدّة تآليف تاريخية.

[3]: تمّ الاعتماد على هذه الرواية الشفوية، بناءًا على البحث الميداني الذي قمنا به بالجزائر العاصمة. مقابلة شفوية حدثنا بها الدكتور مولاي بالحميسي في: 03 فيفري 2007.

[4]: ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: الجزائر في التاريخ: العهد العثماني، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص: 16.

ونظرًا لطبيعة اختيار بايات بايلك الغرب، فلقد كان هذا البايلك يخضع لموظّفين هُم مُستقلِّين عن الآغا[1]من النّاحية الإدارية، حيث كان على رأس بايلك الغرب رُتبة الباي هذا الأخير الذي كان يُعيِّنه الدّاي لمدّة ثلاث سنوات قابلة للتّجديد، إن لم يَتخَلَّ عنه قبل انقضاء المدّة المُقرّرة[2]، ومن مهام الباي التكفّل بإدارة المقاطعة، ضف إلى ذلك على أنّه كان يتمتّع بصلاحيات واسعة دون الخضوع لأيّة مراقبة مُنظّمة. ولكي يُعاد تعيين الباي مرةً أخرى، كان لابدّ عليه من أن يُرضي الداي وحاشيته من الوزراء بالهدايا، التي اعتُبرت ضرورية للتّعيين في الوظائف الإدارية بالسلطة العثمانية، لدرجة أنّه حتّى الباشوات كانوا يُقدّمونها للسلطان بصفة مباشرة[3].

كما تطرقت الوليش فتيحة هي الأخرى إلى ذلك في قولها: "لقد كان الباي صاحب السلطة السياسية الأولى على منطقة بايلك الغرب، وهو المسؤول الأول أمام الحكم المركزي. حيث أنّ هذا الأخير هو الذي كان يقوم بتعيين البايات وتنصيبهم، فكانت بالتالي سلطة البايات مُطلَقة في أداء مهامهم، المتمثّلة في تسيير شؤون أقاليمهم والإشراف على القوّات العسكرية وعملية جمع الضرائب من الأرياف، والسهر على الأمن. كما كان لهؤلاء البايات الحقّ المُطلَق في إصدار العقوبات وحقّ مصادرة الممتلكات وتولّي قيادة الجنود في المعارك"[4].

يتبيّن من خلال ما سبق، أنّه كان على رأس بايلك الغرب رتبة الباي ذو الصلاحيات المطلقة، حيث كان يتعيّن مباشرة بأمر من ديوان الجزائر، وغالبًا ما يكون الباي مُقرّبًا من بعض الموظّفين الكبار ويَحظى بسُمعة طيّبة في مجلس الديوان، أو يكون قد شَغَلَ منصب خليفة الباي الذي سبقه، ضف إلى ذلك أنّ مركز بايلك الغرب والذي أُوكل أمرُه إلى حاكم

[1]: الآغا: أُختلف في أصل الكلمة، فقيل أنّها تركية من المصدر "آغمق" ومعناه الكبر وتقدّم السن، وقيل إنّها من الكلمة الفارسية "أقا" وتطلق في التركية على الرئيس والقائد وشيخ القبيلة، وعلى الخادم الذي يُؤذن له بدخول غرف النساء. وأستعمل عند العثمانيين لقب الآغا بمنزلة "خواجا" و"أفندي"، ويُلقّب بها كبير الخدم. كما كان يُلقّب بالآغا أيضًا رؤساء الانكشارية ورؤساء الخصيان في البلاط الملكي، أمّا عن آغا العرب فهو قائد فرق الانكشارية. مصطفى بركات: الألقاب والوظائف العثمانية، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 2000، ص: 173.

[2]: صالح عباد: "المرجع السابق"، ص: 281.

[3]:"المرجع نفسه"، ص: 282.

[4]: الوليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 17.

تركي كان يخضع مباشرة لآغا العرب[1] المتصرّف في دار السلطان، وذلك بغرض الحدّ من نفوذ الباي والتقليل من قُوّته، نظرًا لقربه من مدينة الجزائر وسهولة اتّصاله بدار السلطان واطّلاعه على ما يحدث بالديوان.

كان بايات بايلك الغرب مُطالبين بالتوجّه إلى الجزائر العاصمة مرّة كلّ ثلاث سنوات لتسليم عائدات البايلك وتقاريره الخاصّة بأوضاعه الداخلية، كما كان يَتِمّ في نفس الوقت تجديد تعيين البايات أو عزلهم نهائيًا، وذلك وِفقًا لِمَا كانوا يُقدّمونه من العائدات والرّشاوي للداي وأعوانه[2] وفي هذا المقام يقول ناصر الدين سعيدوني: "... فالباي في كل بايلك كان يقوم بالمحافظة على الأمن، وإقرار الهدوء والحيلولة دون انتفاضة وعصيان القبائل بالأرياف. كما كان يتكفّل بدفع أجور الحامية التركية الموجودة بمركز البايلك، الذي يحكمه مع الاهتمام بالمرافق العامة بالمدن الكبرى التابعة له، وتأمين الطرق وإبقاء الاتصال بمركز السلطة بالجزائر..."[3].

أمّا على المستوى المحلي للبايلك، فلقد كانت المهام مُقسّمة بين ثلاثة حُكّام يقومون بجمع الضرائب والإشراف عليها وتعيين القُيّاد. وهؤلاء الموظّفون هُم آغا الدوابر وآغا الزمالة وخليفة الشرق، الذي لُقّب بهذا الاسم نظرًا لمُمارسته لسلطته على المنطقة الموجودة شرق مدينة مازونة[4]. كما كان الآغوات يُشرِفون على باقي المناطق بمساعدة أكبر القبائل وهي قبائل الدوابر والزمالة، والتي كانت تُشكّل ما يُسمّى بالمخزن، حيث لعبت هذه المؤسسة القويّة دورًا هامًّا في تدعيم وتركيز أُسُس الوجود العثماني بالجزائر[5] وفي هذا المقام يقول

---

[1]: آغا العرب: أو آغا العسكر، قائد فرق الانكشارية أو الأوجاق وجماعات فرسان المخزن. يتلقّى أمره من الداي مباشرة، أوكلت إليه مراقبة قيادات متيجة والساحل وأوطان دار السلطان، والمناطق الملحقة بها كسهول ساباو وعريب، تزايد نفوذه أواخر العهد العثماني داخل مدينة الجزائر، بعد أن كُلّف بإقرار الهدوء والمحافظة على الأمن بالضواحي القريبة من المدينة. ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: "المرجع السابق"، ص: 17.

[2]: الواليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 18، صالح عباد: "المرجع السابق"، ص: 282.

[3]: ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: "المرجع السابق"، ص: 20.

[4]: الواليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 18.

[5]: "المرجع نفسه"، ص: 18. وللمزيد عن هذا الموضوع يرجى العودة إلى:
Walsin Esterhazy : Notice historique sur le Maghzen d'Oran, Oran, Typographie de Berrier, 1849, P : 09.

صالح عباد ما يلي: "كان التنظيم الإداري لبايلك الغرب بسيطًا وقويًّا في الوقت نفسه، باستثناء مجموعتين من القبائل هما أولاد عامر والمجاهر، وقد كان باي وهران متحفّظًا منهما فإنّ الإدارة المباشرة لبايلك الغرب كانت مُقسّمة بين ثلاثة من الرؤساء ذوي النفوذ يستلمون مداخيل الجباية الغربية ويُعينون القادة، وهؤلاء الرؤساء هم آغا الدوابر وآغا الزمالة في الناحية الغربية من البايلك، وخليفة الباي في الناحية الشرقية غالبًا ما كان يُسمّى خليفة الشرق، تمتدّ إدارته على السكان الذين يقطنون مناطق شرق مازونة تقريبًا..."[1]. وفي حقيقة الأمر كان هناك أربعة آغوات، اثنان منهم يكونان في عطلة واثنان يعملان، ثمّ يَحدُث التناوب بخلاف الخليفة الذي له منطقة معينة، فإنّ لكلّ آغا من الآغوين قبائل متشابكة مع قبائل زمالة[2] فالتقسيم لا يتعلّق بالمنطقة الجغرافية بل يتعلّق بالقبائل، هكذا فإنّ ممارسة مُهِمّتهما تَقُودهما إلى نفس الأماكن دائمًا، فإن أراد أحدهما التمرّد كان له الآخر بالمرصاد والأمر هُنا يتعلّق بالدوابر والزمالة، وبالتّالي يظهر لنا جليًّا مبدأ اللامركزية الحذرة التي كانت مطبقة في بايلك الغرب[3].

وحسب إشارة الوليش فتيحة، فلقد كان للباي عدد من المساعدين الذين يقومون على مستوى محلّي بمهام متشابهة لتلك التي يقوم بها أعوان الداي في العاصمة، كما كان لهم ألقاب ووظائف جدّ قريبة من بعضها البعض، ومن بين الموظفين الذين كانوا بإدارة بايلك الغرب نذكر:

أ- **الخليفة:** الذي كان يدير شؤون الأوطان والدوائر الإدارية المحليّة، كان تحت تصرّفه القادة وكلّ القوّات النّظامية يعمل على جمع الضرائب وإخضاع السكان، كان يقوم باختياره

[1]: صالح عباد: "المرجع السابق"، ص: 301.

[2]: مخزن آغا الدوابر: ويتكوّن من الدوابر، الدرادر هاشم، الدروع، برجية سيراط، البرجية الجبايلية، عكرمة الغرابة، أولاد أحمد، المحل، السحاري، دوابر فليتة والقبيلة الكبيرة لهاشم. صالح عباد: "المرجع السابق"، ص: 301.

[3]: مخزن آغا الزمالة: ويتكون من الزمالة وحميان، ومخزن الغرابة وسجرارة ، عبيد الشراقة، المكاحلية وأولاد سلامة، صالح عباد: "المرجع السابق"، ص 203.

الباي ويعينه الداي وللخليفة مهام كبيرة. إذ غالبًا ما يقوم بأعمال نيابة عن الباي عند الضرورة، منها تقديم الدنوش الأصغر للجزائر كلّ فصلي خريف وربيع[1].

ب- الخزندار: وهو المسؤول على كلّ الخدمات المالية، سُميّ أيضًا بالباش خزناجي الذي يُشرِف على مصادر دخل البايلك الغربي، وتسديد مختلف أوجه الإنفاق به ومراقبة جمع وتسليم الضرائب أو الجباية[2].

ت- آغا الدايرة: وهو أحد قادة المخزن له رايات خاصة، يُكلَّف أحيانًا بحملات صغيرة ضدّ القبائل المُتّهمة. ونُشير هُنا إلى أنّ منصب الآغا كان يُمنَح للعرب[3]، ضف إلى ذلك أنّه كان يُشترى بمبالغ باهظة، فلقد كان الآغا يتلقّى دعاوى وشكاوي العرب ثمّ يَعرِضُها على الباي، وللآغا امتياز عظيم في ذلك، حيث لابدّ للباي من مشاورته. كما كان يُعرف أيضًا في بعض المقاطعات، بأغا العرب أو الباش آغا أو خوجة الخيل وهو قائد الحامية التركية المستقرّة بمركز بايلك الغرب، كان يتلقّى أوامره مباشرة من الداي، ويقوم بعزل أو إعدام أو تعيين البايات الجدد بالبايلك عندما تصدر له الأوامر بذلك، كما كانت تخضع لأوامره فرسان المخزن، وهذا ما مَكّنَهُ من التّصرف في الأرياف ومراقبة البايات في تعاملهم مع السلطة المركزية[4].

ث- الباش كاتب: كبير الكُتّاب أو الكاتب العام الذي يُحرّر الرّسائل السياسية الهامّة التي تخصّ باي بايلك الغرب. كما كان يُراقب باقي الكتّاب، إذًا فهو كاتب الباي الخاص وحافظ دفاتره الإدارية المحليّة بمقاطعة البايلك وله اتّصال بالخزناجي، نظرًا لتولّيه المحاسبات المالية للباي، ضف إلى ذلك الباش سيار المُكلّف ببريد البايلك وحمل مُراسلات الباي[5].

---

[1]: مخزن خليفة الشرق: كان يتكوّن من بني فاطم، وهم صبايحية آغا العرب وعزلية نوجة الخيل أولاد مخلوف، بني يحي أزاغر، عبيد عين الدفلى والمكاحلية، وعبيد السدرة الفراحلية، وصبايحية الشلف وهاشم دردور: صالح عباد: "المرجع السابق"، ص، ص: 301، 302، الوليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 18.

[2]: ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: "المرجع السابق"، ص: 20.

[3]: الوليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 18.

[4]: ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: "المرجع السابق"، ص، ص: 20، 21.

[5]: ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية (1800-1830)، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979، ص: 28.

ج- **الباش مكاحلي:** وهو قائد الحرس الشخصي للباي يحمل سلاح هذا الأخير في التظاهرات العامة، ويقود المكاحلية فرسان النخبة الذين يُشكّلون الحرس الشخصي للباي[1].

ح- **الباش سراج:** أو الباش سايس المُتصرّف في إصطبلات البايلك، والقائم بتجهيز حصان الباي عند السفر، وبالتالي فهو قائد عُمّال الحظائر يمسك لجام حصان الباي حين يمتطيه هذا الأخير[2].

خ- **الباش علام:** حامل شارات الحامية التركية ببايلك الغرب، وهو بدون مهمّة محدّدة يُشبِه الوزير الأول[3].

وهناك مجموعة أخرى أقلّ أهميّة من هؤلاء الموظّفين لا يُستَدعُون لحضور ديوان بايلك الغرب إلاّ عند الضرورة، وعند التّكليف بمهام مُعيّنة من طرف الباي، كالحاكم على مستوى المدينة، والقائد على مستوى الأوطان والأرياف[4]، والشيوخ على مستوى القبائل والعروش[5] ضف إلى ذلك الشواش وحاملي الألوية والموسيقيين المُصاحبين للجند والقائمين والقائمين على بعض الخدمات الإدارية، مثل قائد الجبيرة الذي يحمل ويعتني بمحفظة الباي المُعلّقة في سرج حصانه[6]، زيادة على هذا فلقد وُجِدَ الحاجب الخاص للباي، والباش فراش المسؤول عن الفراشين، وقائد الطاسة الذي يحمل كوب الباي أثناء الخرجات، والباش قهواجي وقائد الدريبة أو الحاجب الأول القائم على الباب الرئيسي للمدينة، كما لا ننسى قائد

---

[1]: صالح عباد: "المرجع السابق"، ص: 296.

[2]: "المرجع نفسه"، ص: 296.

[3]: "المرجع نفسه"، ص: 296.

[4]: ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: "المرجع السابق"، ص: 21.

[5]: شيخ الإسلام: كان له هذا اللقب في العهد العثماني شأن كبير، فلقد أُطلِق على مُفتي إسطمبول، واختلفت الروايات في بداية ظهوره، وأوّل من تولاّه قيل إنّ أول ظهور كان في عهد مراد الثاني. وكانت مهمّة شيخ الإسلام ببايلك الغرب مقتصره على الإشراف على جميع العلماء والقضاة ونواب الشرع ومُدرّسي المعاهد الدينية، والقضاة الشرعيين في البلدان الصغيرة للبايلك، مصطفى بركات: "المرجع السابق"، ص: 127. للمزيد أنظر: حسن الضيقة: الدولة العثمانية: الثقافة، المجتمع والسلطة، بيروت، دار المنتخب العربي، 1997، ص: 116.

[6]: ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: "المرجع السابق"، ص: 21.

السيوانه حامل مظلّة الباي والشاوشان، وهما تركيان يقومان بوظيفة الجلد حين يخرج الباي يسبقانه لِيُقدّما التّحية للجمهور نيابةً عنه[1].

هذا وتشير الوليش فتيحة إلى أنّ الحكّام كانوا يمارسون في الأوساط الحضرية للبايلك السلطة السياسية والإدارية، وبما أنّ المدن كانت تُشكّل المراكز الهامّة للبايلك، فلقد كان يُولى لاختيار الحاكم كلّ العناية والدّقة. ومن المهام التي كان يقوم بها هي مراقبة المداخيل الضريبية الحضرية والإشراف على شرطة المدن بالبايلك، ضف إلى ذلك ضمان النظام الاقتصادي والإداري[2].

كما عرفت المدن ببايلك الغرب بالإضافة إلى الحاكم، موظّفين لهم أهمية في إدارة شؤون المدينة ومنهم:

أ. قائد السوق: أو ما كان يُلقّب بالمحتسب بالمدن العربية المشرقية، ومُهمّته مراقبة السوق. كما أُطلِق عليه اسم صاحب الشرطة، إذ كان يُراقب كلّ ما يُباع بالأسواق والدكاكين من مأكول ومشروب وملبوس ومصنوع، حسب أحكام القضاء والإفتاء وغالبًا ما كان يتجوّل في الأسواق، وهو حامل الميزان لمعاينة نوعية وكميّة المعروضات في الأسواق، والتأكّد من عدم تحايل التجار ومن التزامهم بتحديد الأسعار وضبط المكاييل والموازين، إذ كان ينال مقابل عمله هذا نسبة معيّنة من ثمن البضائع الواردة إلى السوق[3].

ب. قائد الدار: أو شيخ البلد والذي يتولّى رئاسة أمناء المهن، كما يتولّى المحافظة على أملاك الدولة وتوفير الخدمات الضرورية للحامية التركية، والإشراف على شؤون البلد ورعاية مصالح الطوائف السكّانية والحرفية بالمدينة، كما كان له حريّة التّصرف في النقابات المهنية، باستخلاص ما يتوجّب عليها من رسوم وعوائد. ويُبلغ أوامر البايلك إلى مختلف الطوائف والجماعات العرقية والمهنية، كالعلماء والحرفيين والوافدين على المدينة من سكّان

[1]: صالح عباد: "المرجع السابق"، ص: 296.

[2]: الوليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 19.

[3]: ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: "المرجع السابق"، ص: 19.

الأرياف[1]. كما كان له أيضًا مقدّم الطائفة اليهودية ضف إلى ذلك، فلقد عَرف البايلك الغربي وظيفة قائد الباب المكلّف باستخلاص الرسوم الجمركية[2].

ت. **قائد القصبة (المزوار):** والذي من مهامه السّهر على أمن المدينة، خاصة أثناء الليل وتطبيق الأحكام الصادرة في حقّ المجرمين، كان يُطبّق العقوبات الجسدية ويُنفّذ حكم الإعدام بأمر من الباي في غير الأتراك. ضف إلى ذلك مراقبة أهل الدعارة والسهر على أمن الشوارع في الليل والنهار ومراقبة السجون، وعادةً ما يساعده في عمله الشّاق بعض الأعوان من الحرس مثل السركجي وقائد الفحص[3].

وزيادة على هذا، فلقد عرف البايلك وظيفة قائد الزبل المسؤول على نظافة الطرق والدلال والبراح، فالأوّل كان ينادي على البضائع بالأسواق مُقابل درهم عن كل دينار والثاني يُعلِن عن أوامر وقرارات السلطة الحاكمة للبايلك، سواءًا أوامر الباي أو قائد الدار، كما كانت مِهنَته الإشهار بالمجرمين والمحتالين[4].

يظهر من خلال ما سبق أنّ الإدارة ببايلك الغرب، قد عرفت أيضا وظيفة الشيخ أو رئيس العبادة المشرف على أحباس الحرمين، كما أُطلق عليه اسم الشيخ الناظر[5] لإشرافه على الأحباس. حيث كان يرجع إليه وكلاء الأوقاف في جميع ما يتعلّق بالأملاك الموقوفة، وبتوجيه منه يتمّ تسديد النفقات والمصاريف المترتّبة على الأوقاف واستخلاص ما يعود منها إلى بيت المال[6].

أمّا على مستوى الأوطان، فلقد كان الباي هو الذي يُعيّن القائد وعلى العموم فاختيار القيّاد كان يتمّ من بين الأتراك أو الكراغلة، الذين أغلبهم كانوا يتولّون الإشراف على شؤون

---

[1]: ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: "المرجع السابق"، ص: 21.

[2]: الواليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 19، صالح عباد: "المرجع السابق"، ص: 296.

[3]: الواليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 19، ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: "المرجع السابق"، ص: 19.

[4]: ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: "المرجع السابق"، ص: 19.

[5]: الواليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 19، وللمزيد ينظر: يحي جلال: العالم العربي الحديث: المدخل، القاهرة، المكتبة التاريخية، 1968، ص: 59.

[6]: ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي...، "المرجع السابق"، ص: 27.

البوادي والأوطان، ويقومون بإقرار الأمن واستخلاص الضرائب من سكان الأرياف بالرجوع إلى شيوخ الدواوير والأعراش والاستعانة بفرسان المخزن وفرق الحامية التركية[1].

ويبدو جليًّا أنّ القليل منهم كان يُشرف على سير الخدمات الاجتماعية داخل مدن البايلك، مثل قائد العبيد وقائد الشوارع وقائد الزبل (القمامة)، والمسؤولين على توزيع المياه والقضاة والعدول. وبالتالي فمهام القيّاد كانت في إطار الشؤون المالية وجمع الضرائب، ضف إلى ذلك أنّ مهام القائد كانت تُشبه المهام التي كان يقوم بها الحاكم، فهو المسؤول على تنفيذ الحكم المركزي على مستوى الأوطان والأرياف، وهو المسؤول على استقرار النظام، ومن مساعديه الشرطة والقاضي، هؤلاء المسؤولين كان لهم مساعدون كالخليفة والكاتب والعادل[2].

يتبين بأنّ الحكام ببايلك الغرب، كان يعود إليهم حُكم المدن ويُكلّف البعض منهم بالقيام ببعض المهام مثل مراقبة جمع الضرائب، بالاستعانة بالرؤساء المحليّين وأُمناء المِهن والطوائف والسّهر على إقرار الهدوء وتنفيذ الأحكام بالحواضر، إذ توسّعت صلاحيات بعض الحكّام فأصبحوا يُشرفون على شؤون الكثير من العشائر، مثل عشائر مازونة. وقد تزايدت الصلاحيات الإدارية لهؤلاء الحكّام في أواخر العهد العثماني، حتّى أصبحوا يُعيَّنُون مباشرةً من طرف الداي، مثل حكّام تلمسان فأصبحت بذلك أمور النقابات المهنية والطوائف العرقية تعود إليهم مباشرة[3].

ومقارنة بهذا، فلقد خضعت مدن وأرياف بايلك الغرب إلى إدارة خاصة، على غرار دار السلطان أو بايلك الشرق والتيطري[4]فمن هذه المدن مَالَهَا حاكم خاص، يَتبع مدينة الجزائر

[1]: ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: "المرجع السابق"، ص: 18.

[2]: الواليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 19، ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: "المرجع السابق"، 18.

[3]: ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: "المرجع السابق"، ص: 18.

[4]: صالح عباد: "المرجع السابق"، ص:297.

أو السلطة المركزية، ومنها مالها قائد يَتبع الباي أمّا عن السكّان خارج المدن ببايلك الغرب، فلقد كانوا يَنتظِمون في أعراش أو قبائل يُدير كلاًّ منها قائد أو شيخ كبير يُعيّنه الباي. بحيث كانت القبيلة تُقسّم إلى فرق، وعلى رأس كلّ فرقة شيخ والفرقة بدورها تنقسم إلى دواوير، العضو الأكبر سنًّا والأغنى فيها مسؤول الدوار، إذ كان القائد يستلم الأوامر من الباي، فيقوم بدور الشرطة والفصل في الخلافات والخصومات التي تقع بين رعاياه. ضف إلى ذلك السهر على أمن الطرقات، ورئاسة عملية توزيع الأراضي الفلاحية إن كانت عرشاً وتوزيع الضرائب على العائلات[1].

كان البايات وبعض الموظفين الكبار، يتقاضون–مُقابل إسناد المناصب أو تجديد الإبقاء بها–مبالغ نقدية يأخذون منها نسبة معينة مقابل توسّطهم، ويعود الجزء الأكبر منها لخزينة الدولة. وهذا ما أَدخل الاضطراب والفوضى في الجهاز الإداري والمالي لبايلك الغرب، فأصبحت جميع الوظائف والمهن يُدفَع مُقابل الفوز بها مبالغ مالية كبيرة[2] وفي هذا المقام يقول ناصر الدين سعيدوني ما يلي: "... حتّى أنّ منصب الباي، كان يدفع مقابل الحصول عليه في بعض الأحيان كميّات ضخمة من الأموال، فعلى سبيل المثال نذكر أنّ أحد الأغنياء، وهو الحاج خليل تَمكّن من الفوز بمنصب باي بايلك الغرب بعد موت إبراهيم باي رغم أَحَقِيّة خليفة الباي وهو محمد بن عثمان المعروف بمحمد الكبير، الذي ظلّ مُحتفظًا بمنصب الخليفة حتى سنَحت له الفرصة للارتقاء إلى منصب الباي فيما بعد"[3].

وقد تدعّمت التقسيمات الإدارية المتميّزة لبايلك الغرب بملاءمتها لأوضاع الإيالة الجزائرية آنذاك، نتيجة اعتمادها على نظام عسكري يرتكز على سلطة شبه مطلقة يمارسها البايات. وكان هذا النّظام العسكري يهدف إلى حفظ النظام الداخلي وضمان تحصيل

[1]: قائد الدار: الذي يُشرف على تسع قبائل، أمّا آغا الدائرة فيشرف على 39 قبيلة. ويشرف الباش كاتب على 23 قبيلة والباش مكاحلي على سبع قبائل، والباش سراج على خمس قبائل عدد القادة 35 منهم 11 شيخا و20 قائدا و4 قادة. أنظر صالح عباد: "المرجع السابق"، ص: 297.

[2]: ناصر الدين سعيدوني: "ثلاثة رسائل تتعلق بأوضاع الجزائر قبل الاحتلال". مجلة التاريخ، العدد: 07، 1979، ص:50.

[3]: ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي : "المرجع السابق"، ص: 34.

الضرائب[1]، حيث يذكر صالح عباد ذلك قائلاً: "من الناحية العسكرية، كان هذا البايلك عرضة للحروب المتواصلة مع الإسبان...كما كان هذا البايلك عرضة للحملات المغربية التوسعية، ضف إلى ذلك مغزى السياسة الإدارية العثمانية بالبايلك، فلهذا كان لبايلك الغرب تنظيم إداري أكثر عسكرية من غيره"[2].

ويبدوا جليًّا أنّ للنّظام المالي تأثير مباشر على النظام الإداري للبايلك الغربي، ذلك أنّ الإدارة العثمانية، كانت تهدف من وراء كلّ عمل تقوم به إلى جمع الضرائب والرسوم وضمان المداخيل المالية للدولة. فالحُكّام على اختلاف درجاتهم في السُلّم الوظيفي كانوا يهتمّون بجمع الأموال، ممّا جعلهم يتناسُون مع مرور الوقت حقيقة سلطة بايلك الغرب وأهدافه السامية في خدمة المصلحة العامة، ولم يعُودوا يهتمّون إلاّ بالتنظيمات الإدارية والحربية التي تهدف إلى ضمان مداخيل الدولة المالية[3]. وفي هذا المقام يذكر جلال يحيى ما يلي: "إنّ نظام الحكم العثماني القائم على التنظيم العسكري، وعلى الاهتمام بالنظام الضرائبي كعصب أساسي لمواصلة الحروب والجهاد، أهملا وسائل التنمية الاقتصادية في الوقت الذي استمرّت فيه المطالب للإنفاق الاستهلاكي، من أجل الإدارة ومن أجل الحروب، ولقد انعكست هذه الحالة السائدة في الدولة العثمانية على مستوى الجزائر..."[4]. كما يضيف صالح عباد بقوله: "وما يستخلص ممّا سبق، أنّ الإدارة العثمانية على مستوى بايلك الغرب كانت بسيطة تناسب وضعية المجتمع، فالمدينة لها إدارتها والقبائل لها إدارتها والمناطق التي تجاوزت نظام القبيلة لها إدارتها. فالإدارة الإقليمية قامت على ركيزتين، هما ضمان دخول الضريبة إلى الخزينة، وضمان خضوع الرّعية للسلطة المركزية"[5].

---

[1]: ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر...، "المرجع السابق"، ص: 30.

[2]: صالح عباد: "المرجع السابق"، ص: 294.

[3]: ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي....، "المرجع السابق"، ص: ص: 240، 241.

[4]: جلال يحي: المغرب الكبير، العصور الحديثة وهجوم الاستعمار، ج3، بيروت، دار النهضة العربية، 1981، ص:49.

[5]: صالح عباد: "المرجع السابق"، ص: 285.

يتبيّن من خلال ما سبق أنّ الأحوال المالية للبايلك الغربي، هي التي كانت تمثّل معيارًا صحيحًا يعكس مدى استقرار أجهزة الحكم. فعندما تصبح الأحوال المالية للبايلك متيسّرةً، غالبًا ما تعرف البلاد هدوءا واستقرارا سياسيا، وإذا دَاهمَ البايلك القحط أو حَلّت به المجاعة، أو تناقصت الثّروات أو حَدثَ تأخّر في دفع رواتب الجند والموظفين، فإنّ الانتفاضات تتعدّد ويَكثُر تعاقب البايات. وبالتّالي نلاحظ أنّ الانتعاش الاقتصادي الذي عرفه البايلك في النصف الثاني من القرن الثامن عشر (18م)، كان سببًا في استقرار نظام الحكم فلم يعرف البايلك سوى مجموعة من البايات في مدّة تعادل خمسين سنة، وذلك في الفترة التي بين 1748-1798م[1].

ومقارنة بهذا الأمر فلقد حدث العكس في أوائل القرن التاسع عشر (19م)، إذ شَهِد البايلك ضغطًا ماليًا وانهيارًا اقتصاديًا أثّر على توازنه السياسي، بل وحتّى الإداري والعسكري. إذ يرجع ناصر الدين سعيدوني سبب ذلك إلى الإفلاس المالي، الذي بدأت بوادره تظهر منذ مجيء الباشوات إلى الحكم (1585-1659م)، فلقد عُرِف الباشوات بتهالكهم على جمع الأموال وإخفاءها والتّظاهر بنفاذها عند دفع رواتب الجند، وقد كان سلوكهم هذا سببًا في انتفاضات القرن السابع عشر (17م) العديدة (1600- 1656م)[2].

ثمّ أعقب فترة الباشوات فترة الآغوات (1659- 1671م) المملوءة بالفوضى والاغتيالات والتنافس على الحكم، ولم تَعُد الأوضاع المالية إلى التحسّن إلاّ بمجيئ الدايات إلى الحكم في النّصف الثاني من القرن السابع عشر (17م) (1671- 1830م)، إذ ساعد على هذا الانتعاش توفّر مصادر مالية كافية عن طريق الآتاوات والغنائم، وتَحسّن مردود الضرائب. لكن الأحوال ببايلك الغرب بدأت تسوء منذ نهاية القرن الثامن عشر (18م)، حيث

[1]: ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي...، "المرجع السابق"، ص، ص: 241، 242.

[2]: ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي...، "المرجع السابق"، ص: 24.

أصبحت المقاطعة الغربية تُعاني من أزمة مالية خانقة، رغم التجاء البايات إلى الزيادة في مردود الضرائب ولو بواسطة القوّة العسكرية[1].

ويبدو جليًّا أنّ كلّ هذه الوسائل لم يَكُن لها على ما يظهر تأثير إيجابي على الوضع المالي لبايلك الغرب، وإن زادت في تدعيم مركز الإيالة الجزائرية إزاء السلطنة العثمانية والدول الأوروبية. كما أعطت صلاحيات أكثر للبايات، على حساب السلطات المخوّلة للمنظومة الإدارية للبايلك[2]. وعلى كلّ فإنّ اختلال التوازن المالي للبايلك قد انجرّ عنه ضغط مالي على الأرياف، وساهم في نشوب ثورات عديدة وَجدَت في الطرقية وسيلة للتّعبير عن عدائها وكراهيتها للسلطات الحاكمة، كما أنّ هذا الانهيار المالي كان عاملاً مباشرًا في انعزال الإيالة الجزائرية- خصوصًا بايلك الغرب- وعدم تجاوب السكّان معها ممّا جعلها تنهار في أوّل صدام حقيقي لها مع قوّة أجنبية غازية ألا وهي فرنسا[3].

وزيادة على هذا، فلقد كان النظام الضرائبي للبايلك يُمثّل المصدر الرئيسي للدخل بعد أن تناقصت غنائم الجهاد البحري، وتقلّصت ثروات سكان المدن وهي مع تنوّعها واختلاف تسمياتها، كانت ترتبط بوضعية الأرض ونوعية حيازتها وكيفية استغلالها وطبيعة علاقة سكّانها بالحكّام.

إذ كانت الملكيات الخاصة يُأخَذ عليها ضريبة العشور والزّكاة، أمّا أراضي البايلك فلقد كان مردودها يختلف باختلاف نوعية استغلالها[4]، هذا بالإضافة إلى بعض الضرائب التي كانت تفرض على قبائل الرعية بالبايلك، فَتُأخذ عُنوةً من القبائل المُمتنِعة أو المُستقِلّة وذلك

---

[1]: ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: "المرجع السابق"، ص: 38.

[2]: راجع خريطة التنظيم الإداري في أواخر العهد العثماني الملحقة بالرسالة عن: صالح عباد: "المرجع السابق"، ص:283.

[3]: عبد الله شريط ومحمد مبارك الميلي: مختصر تاريخ الجزائر: السياسي والثقافي والاجتماعي، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص: 337.

[4]: ضريبة العشور والزكاة: والتي كانت تُحدّد حسب عدد الجابدات أو الزويجات، بحيث كان يُأخذ على كلّ جابدة صاع من القمح وصاع من الشعير. كما تُضيف بعض القبائل حمولتين من التين، ومقدار من الزبدة وبعض الدواجن كالدجاج. ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: "المرجع السابق"، ص: 32.

باللّجوء إلى الحملات العسكرية، واستعمال قبائل المخزن، مثل ضرائب ضيفة الباي[1]وضيفة الدنوش وحقّ البرنوس والبشارة وغيرها.

يظهر من خلال ما سبق، أنّ هذه الضرائب المفروضة على سكّان الأرياف ببايلك الغرب، كانت غير محدّدة لا من حيث النّوعية ولا من حيث الكميّة. فبعضها كان يؤخذ عيناً وبعضها يستخلص نقدًا، كما أنّها كانت تتّصف بالتّعدّد واختلاف التّسميات، بحيث أصبحت متداخلة لا تخضع لأيّ ترتيب أو تنظيم مثل الضرائب الإضافية- العوائد-، التي ارتبطت كميّتها أساسًا بقوة السلطة الحاكمة بالبايلك الغربي[2].

وممّا يلاحظ أنّه قد وُجِدَ نوع ثاني من الضرائب ببايلك الغرب، كان يتعلّق بالضرائب والرسوم، التي كانت تُؤخَذ من سكّان المدن وهي مع تنوّعها يُمكن حصرها في المطالب المالية التالية:

أ) **عوائد بيت المال:** والتي كانت تتألّف من مردود الأوقاف، وما يؤول إلى الخزينة العامّة من التّركات والودائع والأملاك التي تبقى شاغرة وليس لها وريث شرعي، بالإضافة إلى مردود بعض الأملاك العقارية التي تعود ملكيتها مباشرة إلى الإيالة[3].

ب) **رسوم النقابات المهنية والدكاكين التجارية:** حيث كان شيخ البلد أو قائد الدار، هو من يتكلّف بجمعها من أمناء النقابات المهنية المختلفة الموجودة بمدن البايلك الغربي[4].

ت) **رسوم الطوائف العرقية والأقليات الدينية:** مثل اليهود الذين كانوا يدفعون لخزينة الدولة مبالغ مالية، يتكفّل المقدّم بتقديمها إلى الخزناجي أو شيخ البلد. ضف إلى ذلك ما كان يدفعه الأندلسيون، الذين استقروا بالمدن الساحلية للبايلك. فمثلاً كانوا يدفعون بمدينة

---

[1]: ضيفة الباي: هي ضريبة كان سكان مدن البايلك يدفعونها، وكانت تخصّ المناطق التي ليس بها حاميات عسكرية عثمانية- النوبة-. وهي تتراوح ما بين 800 و2000 ريال بوجو، حسب أهمية المدينة وعدد سكانها. ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: "المرجع السابق"، ص: 34.

[2]: جلال يحيى: المغرب الكبير....، "المرجع السابق"، ص: 50.

[3]: ناصر الدين سعيدوني: دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية: الفترة الحديثة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2001، ص: 299.

[4]: ضريبة النقابات المهنية: هي ضريبة أو مجموعة من الرسوم قدّرت سنة 1822 بما يعادل 3000 دولار إسباني، كما كان كل دكان مُلزم بتقديم رسم شهري، مقابل نشاطه التجاري قدر بـــ: 30 سنتيما عن كل دكان. ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي، "المرجع السابق"، ص: 33.

مستغانم ما يقارب: 800 زياني ذهب و600 قيسة من الحبوب، و20 رطلا من الزبدة و70 بغلا للخدمة و3 خيول للركوب. كما لا ننسى بقية الطوائف السكانية الأخرى التي تَشكّل منها البايلك، إذ كانت المجموعات السكّانية بالمدن مُلزمةً بالمساهمة بفوائد (عوائد) فصلية وسنوية مُتعارف عليها، كضيفة دار الباي وضيفة دار السلطان[1].

ث) **فوائد الاحتكار وحقوق إسناد المناصب:** حيث كان البايات ببايلك الغرب يتقاضون مقابل إسناد المناصب، أو تجديد الإبقاء بها مبالغ نقدية يأخذون منها نسبة معينة مقابل توسّطهم، ويعود الجزء الأكبر منها لخزينة الإيالة، ولعلّ هذا ما أدخل الاضطراب والفوضى في الجهاز الإداري والمالي لبايلك الغرب[2].

كما كان للنظام القضائي ببايلك الغرب انعكاس على الواقع الاقتصادي والاجتماعي وتأثير مباشر على موقف الأرياف من السلطة وصلة الحكّام برجال الدين. فرغم كَون النّظام القضائي كان يَستمِدّ تشريعاته ويَعتمد في نصوصه على الشريعة الإسلامية[3]، إلاّ أنّه كان يتصف بثنائية الهياكل والأحكام القضائية. إذ وُجِد القاضي المالكي والقاضي الحنفي، إضافة إلى المفتي الحنفي والمفتي المالكي[4] فإذا كان الأمر يتعلّق بالأتراك والكراغلة[5] فإنّ الأحكام كانت تُستمدّ من المذهب الحنفي، أمّا إذا كانت القضايا تخصّ الطوائف الأخرى من السكان، فَيعود في ذلك إلى أحكام المذهب المالكي ومع قلّة أتباع المذهب الحنفي بالبايلك، فلقد كانت الأسبقية غالبًا ما تُعطى للقاضي أو المفتي الحنفي، الذي يُعرف في الوثائق الرسمية بشيخ

---

[1]: ضيفة السلطان: هي ضريبة كانت ملزمة على سكان المدن التي تقيم بها الحاميات أو تجديدها، أو عند حلول المواسم والأعياد الدينية، وهي لا تقلّ عن 350 ولا تزيد عن 3000 ريال بوجو، حسب غنى السكان وأهمية المدينة. ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: "المرجع السابق"، ص: 34.

[2]: حتى أنّ قائد المرسى، كان يطلب منه دفع 800 قرش قود. وخوجة الجلد كان يُفرض عليه تسليم 4000 قرش دون زيادة أو نقصان أو إرجاء أو تهاون. ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: "المرجع السابق"، ص: 34.

[3]: ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: "المرجع السابق"، ص: 22.

[4]: يحيى جلال: العالم العربي...، "المرجع السابق"، ص: 59. للمزيد عن المذهبين المالكي والحنفي أنظر: عبد القادر نور الدين: صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى إنتهاء العهد التركي، الجزائر، نشر كلية الآداب الجزائرية، 1965، ص: 86.

[5]: Pierre Boyer : La vie quotidienne à Alger à la veille de l’intervention française, Paris, Ed : Hachette, 1963, p : 23.

الإسلام، والذي يُعتبر الشخصية الدينية الأولى بالإيالة الجزائرية عمومًا، وذلك لكون الطائفة التركية تنتسب إلى هذا المذهب[1].

يتبيّن من خلال ما سبق، أنّ النظام القضائي بالبايلك كان مقتصرًا على المسائل الدينية والقضايا المدنية، حيث كان الحكّام لا يرون مانعًا من السماح لبعض الحضر والكراغلة[2] بتولّي المناصب القضائية التي لم يكونوا يتقاضون عليها أجورًا محدّدة، ولعلّ هذا ما ساعد على انتشار الرشوة ودفع ببعض القضاة إلى الانحراف في بعض الأحيان، وفي هذا المقام يقول ناصر الدين سعيدوني ما يلي: "...فالقاضي لم يسمح له إلاّ بأخذ موزونة واحدة مقابل كل وثيقة يصدرها، والعدل لا ينال إلاّ بدقة شيك واحدة نظير تحريره تلك الوثيقة، وقد اضطرت هذه الوضعية التي كان يعيشها رجال القضاء آنذاك بعض القضاة إلى مجاراة الحكّام، وإصدار أحكام تتماشى مع رغباتهم..."[3].

ولعلّ أهمّ ما يُبرز لنا مدى تطور النظام القضائي ببايلك الغرب وتأثيره على الحياة الاقتصادية، هو ما يتمثّل في التنظيمات التي خَضعت لها مؤسّسة الأوقاف[4] بعد أن تزايدت الأملاك الموقوفة التابعة لها في العهد العثماني، وأصبحت في أواخر القرن الثامن عشر (18م) تَستحوذ على نسبة كبيرة من الممتلكات بالبايلك، سواءًا داخل المدينة أو خارجها قُدِّرت بثلثي الأملاك الحضرية والريفية به[5]. ونظرًا لكثرة الأوقاف وتعدّدها، فإنّ القائمين على الجهاز القضائي بالبايلك عملوا على تنظيم تلك الأوقاف وحِفظ كلّ مواردها وتسجيل عائداتها، وهذا ما حدث سنة 1776م بعدما أصبحت شؤون أوقاف البايلك تخضع لأحكام المجلس العلمي، الذي كان ينعقد مرّة كلّ أسبوع في الجامع الرئيسي لمدينة الجزائر بحضور

[1]: ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: "المرجع السابق"، ص: 23.

[2]: Pierre Boyer : Op.cit : p : 23.

[3]: ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: "المرجع السابق"، ص: 23.

[4]: ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر: العهد العثماني، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص، ص: 162، 163.

[5]: ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: "المرجع السابق"، ص: 24.

مجموعة من موظّفي البايليكات بما فيها موظفي البايلك الغربي كالشيخ الناظر[1] الذي أصبح بفضل هذا التنظيم هو المسؤول عن الإنفاق بالبايلك، وهو الذي يراقب دفاتر الحسابات وتقديم العروض عن نشاطات المقاطعة الغربية، اعتمادًا على ما يُقدِّمه له الأغوات والشواش من معلومات[2].

والجدير بالذكر أنّ النظام الإداري والمالي والقضائي للبايلك، قد كان يعكس بصدق الوضع الاجتماعي، فالمناصب ذات الدخل الوفير كانت محصورة في العنصر التركي، أمّا المناصب ذات الدخل المتوسط فكان ينفرد بها جماعة الكراغلة، والوظائف ذات المردود المتواضع كانت من نصيب الحضر. بينما الخدمات الشّاقة فكانت تُوكل للجماعات الأخرى الموجودة بمدن البايلك، والتي كانت تعرف بالبرانية ولعلّ أحسن دليل على ذلك أنّ مهنة المزوار كانت مقتصرة على الحضر دون الأتراك رغم مردودها الكبير[3].

وزيادة على هذا فلقد كانت التنظيمات الإدارية للبايلك، تستند إلى تقاليد محليّة كانت متأصلة بالإيالة الجزائرية منذ الفترة الإسلامية السابقة، مثل وظائف المحتسب والقياد والشيوخ وشيخ البلد. أو أنّها كانت مقتبسة من المشرق العثماني، لا سيما بما يتّصل بالمجال العسكري من حيث الألقاب ونوعية الخدمات. وكذلك في كيفية إسناد المناصب التي كانت تعطى عن طريق الالتزام، إذ كان قياد مدن البايلك يَشترون مناصبهم بمبالغ باهظة[4]، كما كان خوجات الخدمات الاجتماعية والاقتصادية، يَحصلُون على وظائفهم مقابل مقدار معين من المال يَتسلّمه المُشرِف على خزينة البايلك كلّ شهرين، ممّا جعل هذه المناصب بالمقاطعة الغربية قابلة للعزل والتّجديد حسب المبالغ المدفوعة[5].

---

[1]: صالح عباد: "المرجع السابق"، ص: 297.

[2]: عثمان الكعاك: موجز تاريخ الجزائر العام من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، تونس، مطبعة العرب، 1925، ص: 447.

[3]: ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: "المرجع السابق": ص: 22.

[4]: إذ كان يتراوح بمقدار مالي، ما بين عشرة آلاف وثلاثين ألف بوجو. أنظر: ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: "المرجع السابق"، ص: 22.

[5]: ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي....، "المرجع السابق"، ص: 27.

وما يستخلص ممّا سبق هو أنّ وضعية بايلك الغرب خلال القرن الثامن عشر (18م) والنصف الأول من القرن التاسع عشر (19م)، يُمكن حصرها في الفترة الأخيرة من مراحل الحكم العثماني بالجزائر ألا وهي فترة الدايات (1671–1830م)، إذ كانت هذه الفترة هي الأخرى مليئة بالثورات والمؤامرات، حيث لم تكن مدة حكم الدايات تستمر طويلا إذا ما استثنينا الداي محمد بن عثمان باشا، الذي امتد حكمه من سنة 1766م إلى غاية سنة 1791م[1].

وممّا يُذكر أنّ إيّالة الجزائر، قد عرفت تحت حكم هذا الداي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر (18م) استقرارًا نسبيًا، واستطاعت أن تتغلّب على العجز الذي كانت تعاني منه الميزانية العامة[2]. وبالرّغم من ذلك فإنّ الأوضاع الداخلية– في بايلك الغرب– لم تكُن على ما يرام، فكانت القلاقل والاضطرابات المتواصلة هي الطابع الذي ميّز هذا العهد– القرن 18م– ذلك أنّ التّناحر على الحكم وظاهرة الاستبداد جَعلت من الشّعب يعيش على الهامش، وبالتالي فإنّ هذا الأمر قد أدّى إلى نشوب الفتن الأهلية والشعور بعدم الأمن والاستقرار[3].

ومن الطبيعي أن ينتج عن تلك الثورات والتمرّدات اضطرابات في الحالة الاقتصادية، إذ أُهمِلت الفلاحة وحَدثت المجاعات من كثرة الأهوال والفتن، واهتزّ المجتمع وتوقّف الحرث والزّرع لدرجة أنّه أُغلقت الأسواق مخافةً لقطّاع الطّرق، بالإضافة إلى الزلازل التي ضربت الكثير من مدن البايلك الغربي مثل زلزال وهران سنة 1790م[4].

يظهر من خلال ما سبق أنّ الحالة الاقتصادية لإيالة الجزائر، وبالخصوص بايلك الغرب كانت تتأثّر بأوضاعها الداخلية والخارجية. فمن الناحية الزراعية والحيوانية امتاز بايلك

[1]: أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا داي الجزائر (1766–1791)، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، ص: 20.

[2]: ذلك أنّ الخزانة العامة قد تُركت– تقريبا– فارغة قبل تولّي الداي محمد بن عثمان باشا ولعلّ هذا راجع إلى سياسة التقشّف التي سار عليها. صالح فركوس: المختصر في تاريخ الجزائر: من عهد الفينيقيين إلى خروج الفرنسيين (814ق.م–1962م)، الجزائر، دار العلوم للنشر والتوزيع، 2002، ص: 127.

[3]: ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: "المرجع السابق"، ص: 16.

[4]: صالح فركوس: "المرجع السابق"، ص: 107.

الغرب بغناه في هذا الميدان، حيث عرف نشاطًا ملحوظًا خاصّةً في الربع الأخير من القرن الثامن عشر (18م)، إذ أصبح الإنتاج الزراعي حسب قول صالح فركوس يَفُوق الاستهلاك المحلّي، فها هو صالح فركوس يقول: "... حيث كانت تُصدّر كمّيات وافرة من الحبوب إلى الخارج، كما كانت البلاد تتوفّر على ثروة حيوانية كبيرة جدًّا، بدليل ما كانت تصدّره سنويًا من العدد الهائل من الجلود إلى الخارج"[1].

وبالتّالي تبرز قيمة التنظيم الإداري والقضائي والمالي للبايلك الغربي، بعد أن استكمل تنظيماته واستقرت أجهزته الإدارية مع نهاية القرن الثامن عشر (18م)، هذا التنظيم الذي اعتمد على أُسُس ومبادئ لا تَخرج عن نطاق الإدارة العثمانية أو بالأحرى السلطة المركزية.

3) البايلك الغربي وعلاقته بالسلطة المركزية:

تَبرز علاقة البايلك الغربي بالحكم المركزي في العلاقة الموجودة بين السلطة المركزية والباي نفسه، والتي تتجلّى في مساعدة هذا الأخير بالجيوش أثناء الحاجة وتقديم المساعدات المادية أثناء الكوارث الطبيعية. ضف إلى ذلك ما كان يُقدّمه الباي للسلطة المركزية من ضرائب وهدايا، التي كانت بدورها تشكل عوائد بايلك الغرب وتمثّلت هذه العوائد في ما كان يُسمّى بالدنوش الأصغر، الذي هو عبارة عن ضرائب وهدايا كانت تُمنح للداي كلّ ستّة أشهر أي في الربيع والخريف، إذ كان خليفة الباي هو من يقوم بإيصال الدنوش الصغير إلى العاصمة[2].

هذا بالإضافة إلى الدنوش الكبير الذي كان يُقدّم كلّ ثلاث سنوات، ويشمل الضرائب والهدايا وبصفة أدّق كان الدنوش الصغير والكبير يتألف من ما يلي:

---

[1]: صالح فركوس: "المرجع السابق"، ص: 123. وللمزيد ينظر: أرزقي شويتام: المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 926-1246ه/ 1519-1830م، الجزائر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، د.ت، ص- ص: 309- 312.

[2]: الوليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 19.

الدنوش الصغير يتشكّل من اللّزمة، والتي هي عبارة عن ضريبة مالية، إضافة إلى مقدار معين من الحياك والبرانيس البيضاء والزبدة وأحسن الأحصنة بالإضافة إلى العبيد. وفي هذا الصدد يقول أحمد الزهار ما يلي: "أما اللزمة فإنّ باي الغرب يقدّم بين يدي الأمير كما قدمنا ثمانين ألف ريال صغيرة....، وكلّ الخلفاء يدفعون اللزمة كل ستّة أشهر نصف ما يدفعه البايات..."[1].

أمّا الدنوش الكبير، فلقد كان لابدّ لباي بايلك الغرب من دخوله الجزائر كلّ ثلاث سنوات إن لم يلحقه عذر من مرض، وإلاّ بعث خليفته الأول عِوضًا عنه. وفي هذا الصدد يذكر أحمد الشريف الزهار ما يلي: "كان للأتراك بأرض الجزائر ثلاثة بايات: باي وهران وباي قسنطينة وباي المدية، وهم مرتّبون على حسب فتوحات الأتراك الأوائل... وكان هؤلاء البايات يدشّنون كلّ ثلاث سنوات، وخلفائهم يدشّنون مرّتين كلّ سنة، وعندما يدشّن البايات لا يدشّن خلفاؤهم فكان قدوم باي تيطري وباي الشرق وقائد سباو يقع في الرّبيع كلاّ ثلاث سنوات وقدوم باي الغرب يقع كذلك في الخريف"[2].

يظهر من خلال ما سبق، أنّ الخليفة هو من كان يقوم بإيصال الدنوش الأكبر[3] لكن غالبًا ما كان أشهر البايات ببايلك الغرب يَبعثون بالخليفة، حيث يؤكّد والزين إسترهازي (Walsin Esterhazy)[4] بأنّ الباي بوشلاغم كان يكلّف خليفته محي الدين المسراتي بإيصال الدنوش الأكبر، هذا ويعود ذلك – حسب رأي الوليش فتيحة– في الخوف عن حياتهم أو ناتج عن الكبرياء والعظمة.

---

[1]: الحاج أحمد الشريف: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار: نقيب أشراف الجزائر، تحقيق وتقديم: أحمد توفيق المدني، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980، ص: 46.

[2]: "المصدر نفسه": ص: 35.

[3]: الوليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 20، وللمزيد عن العائدات والضرائب أنظر: ناصر الدين سعيدوني: دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية...، المرجع السابق، ص، ص: 295، 299.

[4]: Walsin Esterhazy : DE la domination turque dans l’ancienne régence d’Alger, Paris, Librairie de Charles Gosselin, 1840, p : 173.

ولعلّ أهمّ دنوش كبير كان بايلك الغرب، هو بعد استرجاع وهران من يد الإسبان سنة 1792 على يد الباي محمد بن عثمان الكبير. إذ كان الدنوش الكبير في عهده يتمّ بطريقة جديرة بأن نشير إليها، وذلك لعظمة هذا الحدث ولِكونه يعكس ثراء بايلك الغرب وقوة وعظمة هذا الباي، كما يعكس لنا الازدهار الاقتصادي الذي عرفه البايلك الغربي أنذك.

كما يتبيّن من خلال ما ذكره أحمد الشريف الزهار عن دنوش بايلك الغرب، أنّ الباي محمد الكبير كان يخرج من مقرّه معسكر ومعه جيش كبير من أتباعه، فكانت مهمّته مقتصرة على توزيع المال على العبيد والحياك وريش النعام والزرابي...إلخ. حيث يقول أحمد الشريف الزهار : "... جاء وقت الدنوش، فقدم الباي محمد باي وجاء معه بتحف وأموال وهدايا كثيرة من الخيل العتاق والعبيد والمصوغ والأثاث الفاخر، فخرج من مقرّ إمارته معسكر ومعه جيش كبير من أتباعه وكبراء النجوع وقواد وأغوات، راكبين الخيل المسومة ذات السّروج الذهبية وعليهم لباسهم الفاخر، ومع الباي خزانته المقومة... والناس تتلقّاهم بالهدايا للباي وهو يكافيهم على حسب المقامات، فمن كان يستحقّ الخيل أهداه الخيل ومن كان يستحقّ العبيد يعطيه الإماء والعبيد الصغار، ومن كانوا يستحقّون اللّباس يعطيهم البرانس الزغداني والحياك الحمر صنعة تلمسان...، وكلّ يوم عندما يصل لجهة المبيت يوزّع عليهم الدراهم، فمنهم من يأخذ ريالا ومنهم من يأخذ ريالين، وهكذا كل يوم حتى يصل للجزائر..."[1].

هذا بالإضافة إلى ما أورده فونتيردي بارادي (venture de paradis) عن دنوش باي معسكر سنة 1788م، نُلخِّصه في التّالي: "حمل باي معسكر الضريبة على ظهر ستّين بغلاً كلّ بغل يحمل ألفي بياستر، وكانت البغال مرفوقة بالخيول التي منها ما يقدم للبايلك ومنها ما يقدم هدايا لكبار الإيالة، كان يتقدّم البغال والخيول عدد من العبيد الزنوج (ذكور وإناث) يتراوح عددهم بين 30 و40 عبدا، وهم هدايا لكبار رجال الإيالة الغربية كذلك. و80 عبدًا

[1]: الحاج أحمد الشريف: "المصدر السابق"، ص، ص: 36، 37.

مسيحيًا من وهران 60 منهم للبايلك الغربي و20 كهدايا لكبار الشخصيات، إذ كان الباي وهو في طريقه إلى قصر الداي يلقي بالنقود على السكّان الذين كانوا ينتظرون قدومه، يقبل الباي يد الداي ويُرحّب به هذا الأخير، ويُلبسه قفطانًا وبعد ثلاثة أيام يُلبسه قفطانًا آخر يقضي الباي ثمانية أيام في الجزائر، ثمّ يُغادرها بعد أن يقدّم الهدايا والضرائب"[1].

كما يتبيّن من خلال حديث أحمد الشريف الزهار عن ترتيب الدنوش، أنّ الخلفاء كانت مهمّتهم مقتصرة في استخلاص الضرائب. حيث كانوا يأتون في آخر الربيع لاستخلاص الزكاة والخراج والأعشار، وفي هذا الأمر يقول أحمد الشريف الزهار: "... وهكذا وضع الأوائل الجباية على المنهج الشرعي، والأواخر صاروا يخرجون المحلاّت لاستخلاص المغارم والظلمات ونهب أموال المسلمين... فأمّا محلة الغرب فتخرج في أبريل، وتقيم أربعة شهور..."[2].

وزيادة على هذا، فلقد كانت عملية تسليم الدنوش –حسب ما ذكرته الوليش فتيحة– تتمّ وفق المراسيم التالية: "إذ كان الباي يقوم بتسليم المال وعوائد البايلك الغربي إلى الخزناجي، الذي يكون مصحوبًا بدوره بمهرجان عظيم لاستقبال الباي، إذ عند اقترابه من البلاد كان يَنزل في مَحلّ منسوب له يُسمّى حوش الباي. ومن هنا يتقدم إلى الجزائر فيصل قبل الفجر لمحلّ يسمّى عين الربط حيث كان يبقى به إلى غاية الفجر إلى غاية افتتاح الأبواب، وبهذا الحدث كانت تخرج فرق الخزناجية والأغوات والخواجة والديوان لملاقات الباي بإيقاعات موسيقية للإعلان عن الحدث الهام"[3].

ونظرًا لالتقاء الموكبين بعد تأدية مراسيم الاستقبال، كان الموكب يتوجّه مباشرة قاصدًا الداي فأثناء الطريق يقوم الباي برمي النقود لمستقبليه الواقفين يمينًا وشمالاً، ولمّا يصل إلى

---

[1]: Venture de Paradis : Tunis et Alger au XVIII Siècle, Rassemblés et présentés par : Joseph Coq, Paris, Sind Bad, 1983, p : 126.

[2]: الحاج أحمد الشريف: "المصدر السابق"، ص: 35.

[3]: الوليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 20.

مقرّ الداي يؤدّي له فروض الطّاعة ويجلس معه ثم يتوجّه إلى المحلّ المُعدّ من طرف الدولة لنزول البايات فينزل به، إذ يباشر العمل وكيله المقيم بالجزائر وهو الملقّب – حسب رأي محمد بن يوسف الزياني– بوكيل الباي[1] وفي هذا المقام يقول الآغا بن عودة المزاري، حديثًا عن كيفية حمل الدنوش إلى الجزائر مفاده: "... وفي يوم دخوله يقع المهرجان العظيم بالجزائر، تخرج فيه أكثر الناس من البلاد لملاقاته، والتفرّج في ذلك المهرجان وصفته: أنّ الباي إذا قدم للجزائر لما يبقى بينه وبينها مسافة سير الأربع سوايع (كذا) ينزل في محل معزولة (كذا) يقال له حوش الباي، ومنه يقدم للجزائر فيصل قبل الفجر لمحل يقال له عين الربط، فينزل به على ارتفاع النهار وانفتاح الأبواب، فيركب أرباب الدولة من الخزناجيات والأغوات وخوجة الخيل والديوان وغيرهم، ويخرجون للقائه ومعهم نوبة الباشا تضرب عليهم. فإذا وصلوا لقربه ركب الباي ومن معه تحت الألوية والرايات...، ومن حين الركوب يشتغل الباي بتفرقة الدراهم ورميها على رؤوس الناس الواقفين يمينًا وشمالاً، إلى أن يصل لمقرّ الباشا، فينزل ويدخل على الباشا فيحيّيه بأحسن التحيّة ويؤدّي له الطاعة بالمبايعة، ويجلس هنيئة معه ثم ينصرف للمحلّ المُعدّ من طرف الدولة لنزول الباي، فينزل به ثم يباشر خدمته وكيله المقيم بالجزائر المسمّى بوكيل الباي وتلك الرتبة لا تعطى إلاّ لمن كان هو أهل لها...، وإذا كان باي الغرب فإنّه يعطي بعد وافر المال العبيد والإيماء والحياك وريش النعام وبيضه والزرابي القلعية، ثم يُعطي لأرباب الدولة وأصحاب المناصب حتى الشواش وغيرهم عوايدهم ويعد دفع العوايد اللازمة وغيرها، تضيفه أرباب الدولة وأكابرها ويعطي فيها مالا آخر (كذا) لخدام المحلّ على سبيل الإكرام زيادة على ما يدفعه للخزنة، ويمكث في البلد ثمانية أيام لا غير ويرجع لمحل عمله..."[2].

كما وصف والزين إسترهازي (Walsin Estterhazy) دنوش بايلك الغرب بقوله: "في يوم الوصول يأتي أوضة باشية وبولكباشية نوبات (حاميات) القصبة ودار الباشا وشواش

[1]: "المرجع نفسه"، ص: 20، أحمد بن يوسف الزياني: "المصدر السابق"، ص: 191.

[2]: الآغا بن عودة المزاري: "المصدر السابق"، ص، ص: 273، 274.

الباشا وأصحاب المقام لزيارته خلال اللّيل، يدخل البولكباشية البهو الذي يجلس فيه الباي رفقة خوجات وإمامه، وقائد مكاحليته يبقى الأوضة باشية والشواش في الخارج بعد تقديم التحيّات المعهودة من طرف بولكباشيين اثنين يدخل أحد الشواش فينحني أمام الباي ثم يفرش سجّادًا. عندها يقدم الباي أحد العبيد يحمل خمسة أكياس مملوءة بالسلطاني ويأخذ في إفراغ الكيس تلوى الآخر على السجاد ليعوضه بآخر، نفس الإكرام يتجدّد بالنّسبة للآغوات والبولكباشية، بالنسبة للكبجية حكّام الثكنات بالنسبة لأئمّة السراي بالنسبة للخوجات، ثم يأتي بعد ذلك دور خدماجية الباشا، أي كل موظفي داره من البوابين والحلاقين وسقاة الماء كل هؤلاء الناس يأتون ليطلبوا العوائد أو الهدايا الإجبارية، حين ينتهي التوزيع يستقبل الباي الحامل للدنوش من طرف الباشا ينتظره المزور عند الباب ليجرّده من سيفه، ويستلم منحة سلطاني، عندما يعيده إليه عند خروجه، بعد ذلك يذهب الباي لزيارة البحرية فيقدّم هدايا لكلّ موظّفي وعمّال هذه المؤسسة"[1].

لقد كان دنوش بايلك الغرب، يتألّف من 20 ألف دورو ومن المصوغ مقدار نصف ذلك، وأربعة من الخيل العتاق. ونحوه 30 عبدًا كبارًا و20 عبدًا صغارًا من عبيد السودان وحياك القرمز صنعة تلمسان وحياك الحرير صنعة فاس، ونحو عشرين قنطارا من الشمع ومثله من العسل ومثله من السمن والجوز[2].

ولمّا كان الخليفة هو الذي يَصحب الدنوش، فالخليفة يدفع نصف ما يدفعه الباي في كلّ شيء إلاّ المصوغ فلا يُهديه الخلفاء. أمّا مقابلتهم للداي وضيافتهم، فكانت تتمّ مثل ضيافة الباي في كلّ شيء[3] فها هو أحمد الشريف الزهار يقول: "وهكذا جميع البايات غير أنّهم في الهدايا والعوائد واللزم، يتخالفون وكذلك الخلفاوات وخليفة الباي في الدنوش يدفع نصف ما

---

[1]: Walsin Esterhazy : Op.cit. P : 174.

[2]: الواليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 21، الحاج أحمد الشريف: "المصدر السابق"، ص: 40.

[3]: الواليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 21.

يدفعه الباي في كل شيء، إلاّ المصوغ فلا يهديه الخلفاوات أمّا مقابلتهم للباشا وضيافتهم فمثل الباي في كلّ شيء"[1].

ومقارنة بما سبق يتّضح بأنّ مبلغ مجموع ما يدفعه باي الغرب كان يقدّر بـــ: 27300 [2] دورو علمًا أنّ الدورو وزنه كان 20 غرام من الفضة، إذا كان يقوم باي بايلك الغرب أثناء أدائه لعملية تسليم الدنوش بزيارة الوزراء بالعاصمة، وفي هذا المقام يقول أحمد الشريف الزهار: "يذهب بعدئذ إلى بيت خزندار فيجلس مقدار ربع ساعة، ويعطي زوج شكاير بها ألف دورو بيد خزندار ليوزّعها على المماليك"[3].

كما يقوم الباي بتسليم هدية الخزناجي، والتي قدّرت بـــ ألفي دورو أو ما يُقارب منها. بالإضافة إلى الأثاث والخيل والعبيد والبرانس وحياك الحرير والشّمع والعسل والأرز، إذ يقول أحمد الشريف الزهار: "هدية الخزناجي، فإذا صلى العصر وأحياناً يصلّي في المسجد مع الآغا يأمر بتوجيه هدية الخزناجي فيوجّهونها إليه، وهي مقدار ألفي دورو أو ما يقرب منها مع أثاث ومصوغ وخيل وعبيد وكسوة، وحياك قرمز وبرانس زغداني وحياك حرير وشمع وعسل وأرز من غير حصر..."[4].

بالإضافة إلى هذا، فلقد عرف دنوش الباي ما يُسمّى بعوائد الباش كاتب والكتّاب حيث كان يحمل الخزندار مع الخدّام الأموال، فيقوم باش كاتب الباشا مع باش كاتب الباي بعملية توزيع العوائد التي سمّيت بعوائد الثلاثة أيّام، وذلك بمناسبة مرور ثلاثة أيّام على لَبس الباي للخلعة السلطانية[5].

---

[1]: الحاج أحمد الشريف: "المصر السابق"، ص: 46.

[2]: الحاج أحمد الشريف الزهار: "المصدر السابق"، ص: 58.

[3]: الحاج أحمد الشريف الزهار: "المصدر السابق"، ص: 41.

[4]: الحاج أحمد الشريف: "المصدر السابق"، ص: ص: 41، 42.

[5]: الحاج أحمد الشريف: "المصدر السابق"، ص: 42.

كما يتبيّن بأنّه كانت من مسؤولية الباي أثناء أدائه لعملية تسليم الدنوش دفع عوائد الشواش السبعة الكبار – شواش القصبة–، والتّي بلغت قيمتها ما يزيد عن ألف دورو[1] حيث كان الباي يأمر خزنداره بتوزيعها عليهم بالتّساوي، فها هو أحمد الشريف الزهار يقول: "وهو يأتي مع الشواش السبعة الكبار، فيجلسون عند الباي ويشربون القهوة، وبعد ذلك يقوم أصغرهم فيفرش على الأرض سفرة من القطن، وهي خرقة كبيرة مدورة فيلقي الباي أمره إلى خزنداره، فيفرغ لهم على تلك السفرة الدراهم من الشكاير ما يزيد عن ألف دورو..."[2].

وزيادة على هذا فلقد وُجِدت هديّة خوجة الخيل، بقول أحمد الشريف الزهار: "أمّا الباي فإذا انصرف الشواش من عنده... يُحضر هدية خوجة الخيل، وهو الوزير الثالث وهي تعادل نصف ما أعطي قبله للوزيرين الآخرين"[3]. كما وُجِدت عوائد بقيّة الأوجاق من الشواش الصبايحية وشاوش السلام حيث يعطيهما الباي عوائدهما، ضف إلى ذلك عوائد وكيل الحرج بباب الجهاد والتّي قدّرت بحوالي ألفي دورو[4].

هذا ويعود الباي لتأدية دفع زكاة بايلك الغرب، والتي قدّرت بـــ: عشرة آلاف صاع من القمح ومثلها من الشعير[5] فيقوم الباي بتوزيع ألفي صاع قمحًا ومثلها شعيرًا على أصحاب الدولة وخدّامهم إضافة إلى ستة آلاف رأس من الغنم، حيث كانت هذه العملية تُؤدّى مرّتين في السنة في أفريل وفي سبتمبر. كما كان الباي يوزّع العوائد في العيد الصغير والكبير، ويوم عاشوراء والمولد النبوي الشريف للأمير ووزرائه وكُتّابه وجميع خدامه[6].

وممّا يلاحظ هو أنّ باي بايلك الغرب بعد إتمامه لمراسيم دفع الدنوش، تقوم عملية توديع الباي بتقديم الهدايا له، فها هو أحمد الشريف الزهار يذكر: "وفي اليوم السابع وهو ليلة

---

[1]: الحاج أحمد الشريف: "المصدر السابق"، ص: 43.

[2]: الحاج أحمد الشريف: "المصدر السابق"، ص: ص: 44، 45.

[3]: الحاج أحمد الشريف: "المصدر السابق"، ص: 45.

[4]: الحاج أحمد الشريف: "المصدر السابق"، ص: 45.

[5]: الحاج أحمد الشريف: "المصدر السابق"، ص: 47.

[6]: الحاج أحمد الشريف: "المصدر السابق"، ص: 47.

السفر، يأتيه الرسول من قبل الأمير فيذهب للسراية ويجلس معه، ويُوصيه الأمير بالرّعية خيرًا ويوصيه على أمور بيت مال المسلمين...، ويرسل له الأمير هدية اثنين من الخيل ومكحلة بالذهب وسكينًا ذهبيًا وحوائج مذهّبة وأثاثًا محجّرًا، وبعد صلاة العصر يرسل له الوزراء هداياهم من خيل وسلاح وقاطات بالذهب"[1].

4) سياسة البايلك الداخلية وأهم بایاته: النشأة والتطور:

لقد أُتّصِف القرن الثامن عشر(18م) والنصف الأول من القرن (19م) ببعض الميزات، منها ما كان على المستوى الاقتصادي، حيث عَرفت الإيالة الجزائرية نوعًا من الاستقرار والاعتماد على الموارد الداخلية عكس القرون السابقة، أثّرت بدورها على استقرار نظام الحكم بالبايلك الغربي الذي تميّز بدوره بأحداث تاريخية هامّة، يكفي أن نشير إليها بفتح وهران الأول والثاني[2].

كما سيطر على الحُكم طيلة القرن الثامن عشر (18م)، مع فترات انقطاع قصيرة عائلتان هما: عائلة بوشلاغم التي مكثت في الحكم من سنة 1696م إلى غاية سنة 1760م مع توقّف من سنة 1738م إلى سنة 1748م، وعائلة محمد بن عثمان الملقب بالكبير والتي حكمت من سنة 1779م إلى غاية سنة 1830م، مع انقطاع قصير من سنة 1800م إلى غاية سنة 1805م[3].

ولهذا الأمر نجعل من عهد الباي مصطفى بوشلاغم نقطة بداية للفترة التاريخية المخصّصة بالبحث، وهي تصادف بالتقريب النصف الأول من القرن الثامن عشر (18م) ولعلّ أهمّ بايات بايلك الغرب خلال هاته الفترة ما يلي:

---

[1]: الحاج أحمد الشريف: "المصدر السابق"، ص: ص: 45، 46.

[2]: صالح عباد: "المرجع السابق"، ص: 293.

[3]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: "المصدر السابق"، ص: 17.

1. الباي مصطفى بوشلاغم المسراتي (1696– 1737م): إذ أنّه بعد وفاة الباي شعبان الزناقي[1] أثناء محاصرته لمدينة وهران سنة 1696م، حلّ محلّه الباي مصطفى يوسف المسراتي الملقّب ببوشلاغم، والذي أُعتبر أوّل بايات وهران بعد أن جُمعت له المقاطعة الغربية. وفي هذا المقام يذكر الآغا بن عودة المزاري ذلك بقوله: "وأول بايات وهران مصطفى أبو الشلاغم ابن يوسف بن محمد ابن إسحاق المسراتي، الذي جمع له في توليته بين الإيالة الشرقية والغربية تولّى بايًا على مازونة وتلمسان، فهو أوّل من جمعت له الإيالة الغربية بتمامها سنة ثمانية وتسعين وألف"[2].

وممّا يلاحظ أنّ الباي بوشلاغم قد تربّى في قصر الداي محمد بكداش داي الإيالة الجزائرية في تلك الفترة، حيث كان الداي بكداش يكنّ محبّة كبيرة لمصطفى بوشلاغم، لذا اختاره أن يكون بايًا لبايلك الغرب، فها هو مسلم بن عبد القادر الوهراني يقول: "... وكان الباشا في الجزائر حينئذ هو محمد بكداش، وقد أهمّه أمر وهران فأوعز إلى أبي الشلاغم أن يضايق الإسبان بها..."[3].

لقد جاء الباي بوشلاغم إلى الحكم وهو كلّه حزم وعزم لإخضاع البايلك الغربي لسلطته والانتقام من الإسبان لقتل الباي شعبان الزناقي، وممّا يلاحظ هو أنّ بايلك الغرب قد عَرف عهدًا جديدًا مع مجيئ هذا الباي سنة 1700م، حيث قام سنة 1701م بنقل مقرّ البايلك من مازونة إلى معسكر، وذلك لعدّة أسباب منها كون مصطفى بوشلاغم كان يبحث عن مقرّ يتوسّط البايلك[4] حتّى لا تبقى قبائل الجنوب تعيش في تمرّد وعصيان دائم ورفض مستمرّ

---

[1]: شعبان الزناقي: أحد بايات مدينة مازونة سنة 1679م، قام بغزو وهران في فترات مختلفة، وتعدّدت بينه وبين الإسبان الحروب. حيث ألحق بهم هزائم عديدة لدرجة استخدام الإسبان للجواسيس في محاولة للقضاء عليه، توفي أثناء محاصرته لوهران سنة 1696م، بعد أن قطع رأسه من طرف الإسبان، يُعرَفُ قبره خارج وهران بقبر سيدي شعبان، حيث حاول مولاي إسماعيل الانتقام للباي شعبان بعد وفاته، بإرساله لحملة كبيرة زحفت باتجاه وهران سنة 1700م، والتي باءت بالفشل لحصانة مدينة وهران ببرج مرجاجو. مسلم بن عبد القادر الوهراني: "المصدر السابق"، ص: ص: 14، 15.

[2]: الآغا بن عودة المزاري: "المصدر السابق": ص، ص: 274، 275.

[3]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: "المصدر السابق"، ص: 15.

[4]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: "المصدر السابق"، ص: 19، الوليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 22.

لدفع الضرائب. إذ قام بحملات ضدّها من أجل إخضاعها، وفي هذا الصدد يقول الآغا بن عودة المزاري: "... ونقل كرسي المملكة من مازونة وتلمسان معا للقلعة، ثم للمعسكر وجعلها قاعدته لكونها وسطا بين مازونة وتلمسان..."[1].

وحسب إشارة الوليش فتيحة فإنّ الباي بوشلاغم، قد أُعتبر أوّل من تولّى بايًا على مازونة وتلمسان فهو أوّل من جمعت له الإيالة الغربية فَنقل كرسي الخلافة من مازونة إلى معسكر وجعلها قاعدته، وذلك لكونها وسط بين مازونة وتلمسان. إضافة لكون مدينة معسكر ذات أهمية استراتيجية نتيجة تحكّمها في المسالك التجارية، كما كانت تُحيط بها قبائل بني راشد التي تميّزت بتقرّبها من الحكم العثماني، كما يَرجع سبب اختيار الباي لمدينة معسكر إلى كونها كانت تقع قريبة من مدينة وهران، إذ يظهر من خلال ذلك أنّ هذا الاختيار كان يعود لتخطيط الباي لفتح مدينة وهران. [2]

لقد قام الباي مصطفى بوشلاغم بعدّة إنجازات وأعمال هامّة، منها أنّه رابط سنة 1707م قرب مدينة وهران التي كانت تحت السيطرة الإسبانية. حيث كانت قبائل بني عامر[3] المتمركزة حول مدينة وهران حليفة للإسبان، إذ استطاع هذا الباي قَهر هاته القبائل والتي أصبحت مُوالية له فيما بعد، فاسترجع بذلك مدينة وهران سنة 1708م باسم داي الجزائر آنذاك. وفي هذا المقام يقول الآغا بن عودة المزاري: "... ولمّا غزى وهران وأمدّه الباشا السيد محمد بكداش بالجيوش العديدة لنظر وزيره أوزن حسن، وفتحها عنوة صبيحة يوم

[1]: الآغا بن عودة المزاري: "المصدر السابق"، ص: 275.

[2]: الوليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 22، وللمزيد ينظر: محمد بن يوسف الزياني: "المصدر السابق"، ص: 192.

[3]: قبائل بني عامر: والتي كانت تتشكّل من ثمانية جماعات هي: كرشتل وشافع وحميان وغمرة وقيزة وأولاد عبد الله وأولاد علي والونازرة. حيث أنّه من الأسباب الرئيسية التي جعلت هذه القبائل تنضوي تحت سلطة الإسبان بوهران هو سيطرة الإسبان على سهلي مليتة وسيراط. صالح عباد: "المرجع السابق"، ص: 306. للمزيد أنظر: حنيفي هلايلي: "عملاء وجواسيس الإسبان في بايلك الغرب: على ضوء كتاب بهجة الناظر"، مجلة الحوار الفكري، ع:7، 2005.

الجمعة السادس والعشرين من شوال سنة تسعة عشر ومائة وألف، نقل كرسي المملكة من المعسكر لوهران فسكنها بأهله وجعلها قاعدة ملكه..."[1].

إنّ الفتح الأول لمدينة وهران المحتلة من الإسبان، قد تَمّ في عهد الباي مصطفى بوشلاغم. حيث بعد فتح المدينة استقرّت قبائل بني عامر بجبال تاسالة، ومنحت أراضيها المحيطة بمدينة وهران كمكافأة لقبائل الدوابر وقبائل عبيد المغربية[2] على الجهود المبذولة في هذا الفتح، وبالتّالي أصبح بوشلاغم بعد هذا الفتح بايًا لبايلك الغرب فَنَقل مقرّه من معسكر إلى وهران[3].

كما يُعتبر عهد الباي مصطفى بوشلاغم أوّل فترة تاريخية يَعرِف فيها بايلك الغرب تحرّره التّام لجميع أراضيه، وذلك منذ مطلع القرن السادس عشر تاريخ احتلال وهران من طرف الإسبان. إذ تولّى هذا الباي سيادة وسلطة البايلك بأكمله في هذه المرحلة (1708-1732م)، حيث عَرفت المدّة الممتدّة من سنة 1708م إلى غاية سنة 1732م من حُكمه إنجازات هامّة عرفها البايلك الغربي، لعلّ من بينها تلك الأعمال العمرانية الهامّة التي انتفعت بها أهمّ مدن بايلك الغرب، والمتمثّلة في برج الترك[4] الموجود بمدينة مستغانم. إضافة إلى منشآت حضرية خاصة بمدينة مستغانم، كانت جلّها أوقاف ذات مداخيل هامّة منها المحلاّت التجارية والحمّامات[5].

لقد استمرّ حُكم الباي مصطفى بوشلاغم على البايلك بكامله إلى غاية سنة 1732م، بعد أن قام الإسبان بهجوم على المنطقة. إذ نزلوا بمنطقة كاب فلكون، حيث نتيجة لهذه الهجمة

---

[1]: الآغا بن عودة المزاري: "المصدر السابق"، ص: 275.

[2]: الواليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 22.

[3]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: "المصدر السابق"، ص: 19.

[4]: الواليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 23، محمد بن يوسف الزياني: "المصدر السابق"، ص: 194.

[5]: إضافة إلى القبة التي بناها بمستغانم والتي كتب عليها اسمه وتاريخ بناءها حيث قام بحبسها. الواليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 23، الآغا بن عودة المزاري: "المصدر السابق"، ص: 275. أنظر: الأرشيف الوطني، سجلات البايلك علبة 217- 245 رقم السجل: 328. الرقم القديم: 233.

انتقل الباي إلى مستغانم وأصبحت مدينة وهران ثانية تحت السيطرة الإسبانية[1]. ضف إلى ذلك تحوّل مدينة مستغانم كعاصمة ومقرّ للبايلك، لكن هذا الأمر لم يمنع الباي مصطفى بوشلاغم من الاستسلام، فلقد وَجَّهَ حملةً باتّجاه وهران بمساعدة 5000 جندي مبعوثين من الجزائر، اعتبرت كآخر محاولة جديّة مُوجّهة ضدّ الإسبان بوهران إلى غاية سنة 1791م، فلقد توفّي الباي مصطفى بوشلاغم سنة 1737م ودفن بمدينة مستغانم[2].

2. الباي يوسف بن مصطفى بوشلاغم (1737– 1738م): بعد أن توفيّ الباي مصطفى بوشلاغم سنة 1737م، جاء بعده ابنه يوسف بن مصطفى بوشلاغم، الذي أعاد مقرّ البايلك إلى معسكر. لكن ما يلاحظ أنّ هذا الباي لم يكن يتّصف بقوّة وفضائل أبيه، إذ عرف عهده بعض الاضطرابات، حيث قام كراغلة وحضر مدينة تلمسان سنة 1738م بتمرّد أدّى إلى طرد القائد المُعيّن بها من قبل السلطة العثمانية[3].

لقد مَكَث يوسف بن مصطفى بوشلاغم في الحكم سنة واحدة ومات بالوباء بتلمسان، وأثناء عهده استمرّ محي الدين المسراتي خليفة مصطفى بوشلاغم سابقًا، خليفة في زمن يوسف بن مصطفى بوشلاغم، على ما كان يُحاك ضدّه فَفَرَّ إلى تلمسان وتوفيّ هناك[4] وفي هذا المقام يقول الآغا بن عودة المزاري: "ثم أخوه يوسف بن يوسف بن محمد بن إسحاق المسراتي، تولّى يوم موت أخيه مصطفى أبي الشلاغم، وبقي في الملك سنة واحدة ومات بتلمسان بالوباء سنة سبع وأربعين ومائة وألف ودفن بها..."[5].

3. الباي مصطفى الأحمر المسراتي (1738– 1748م): نتيجة لوفاة الباي يوسف بن مصطفى بوشلاغم، عمل محي الدين المسراتي على تَعيين ابنه مصطفى الأحمر المسراتي

---

[1]: الوليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 23، مسلم بن عبد القادر الوهراني: "المصدر السابق"، ص: 19.

[2]: الوليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 23، الآغا بن عودة المزاري: "المصدر السابق"، ص، ص: 275، 276.

[3]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: "المصدر السابق"، ص: 19، الوليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 23.

[4]: Walsin Esterhazy : De la domination turque… Op.cit : p : 174.

[5]: الآغا بن عودة المزاري: "المصدر السابق"، ص: 278.

مكان يوسف بن مصطفى بوشلاغم بايًا على بايلك الغرب، فاستمرّ بذلك حكم مصطفى الأحمر مدّة عشرة سنوات أي إلى غاية 1748م. حيث قُتِلَ من طرف عائلة زوجته بِسُمٍّ، إذ يقول مسلم بن عبد القادر الوهراني: "أخوه مصطفى الأحمر المسراتي، وتولّى بايا سنة 1147هـ ثم سقي السمّ ومات بمستغانم"[1].

وممّا يلاحظ هو أنّ جُلّ بايات الغرب الذين تَربَّعُوا على عرش البايلك بعد يوسف بن مصطفى بوشلاغم، كانت تربطهم علاقات القربى بالباي بوشلاغم عن طريق بناته وحفيداته، كما يرى الآغا بن عودة المزاري أنّ عهد المسارتية هو أفضل عهد لبايلك الغرب، وهو يستغرق عهد البايات الخمسة السابقين، وقد أكّد ذلك بقوله: "وأعلم أنّ المسارتية هم فضلاء البايات بالمغرب ولهم نسل قليل، فأمّا أبو الشلاغم وقايد فلم يُخلِّفا إلاّ البنات ..."[2]. وزيادة على هذا، فلقد دُفن الباي مصطفى الأحمر المسراتي بمدينة مستغانم بقبة بوشلاغم، حيث كانت لهم أحباس هامّة تتمثل في منازل وحدائق ودكاكين، كان يشرف عليها إمام يدير شؤونها لصالح الحرمين الشريفين[3].

4. الباي محمد أبوطالب المجاجي المسراتي (1748- 1757م): لقد تولّى هذا الباي مقاليد حكم البايلك الغربي بعد وفاة أخيه الباي مصطفى الأحمر المسراتي سنة 1748م، حيث بقي في حكم المقاطعة الغربية لمدّة تسعة سنوات إلى أن قتل سنة 1757م[4].

5. الباي مصطفى قائد الذهب المسراتي (1757- 1763م): لقد جاء هذا الباي بعد مَقتل أخيه أبوطالب المجاجي المسراتي سنة 1757م، لُقِّبَ بقائد الذهب المسراتي لكثرة سخائه وعطائه للناس[5]، كما كان يُطلق عليه اسم باي المحال[6] لكن لم تَدُم مدّة حُكم هذا

---

[1]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: "المصدر السابق"، ص: 20.

[2]: الآغا بن عودة المزاري: "المصدر السابق"، ص: 282.

[3]: Walsin Esterhazy : De la domination turque…Op.cit, p : 176.

[4]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: "المصدر السابق"، ص: 20.

[5]: الآغا بن عودة المزاري: "المصدر السابق"، ص: 280، الوليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 24.

[6]: المحال قبائل عربية، كانت متمركزة حول تنس، مازونة ومستغانم للمزيد أنظر:

الباي سوى ستّة سنوات بعد أن ثار عليه صِهره وهو الحاج عثمان بن إبراهيم، فالتجأ إلى الإسبان بوهران ثم خرج منها إلى تونس، فمكث بها إلى أن توفي هناك[1].

6. الباي عثمان بن إبراهيم (1763–1771م): لقد تولّى الباي عثمان بن إبراهيم حكم البايلك، بعد أن كان في فترة سابقة حاكمًا على تلمسان فَلُقِّبَ بـــ: عصمان. وقد أكّد كذلك الآغا بن عودة المزاري بقوله: "ثم الحاج عثمان، ويُقال له عصمان بن الحاج إبراهيم تولّى أولا بتلمسان لما كانت القاعدة بها، وقام عليه مع أهل تلمسان يوسف المسراتي المتقدّم الذّكر فخلعه، وتولّى مكانه وتولّى ثانيا على جميع الإيالة المغربية في أواسط محرم الحرام فاتح سنة ستين ومائة وألف..."[2].

يتبيّن من خلال ما سبق، أنّ الباي عثمان قد تولّى الحكم على جميع بايلك الغرب بعد أن مَكَرَ بأهل تلمسان وقبائل المحال مكرًا كبيرًا. لكن هذا لم يَمنع الباي عثمان من تقديم بعض الإنجازات العمرانية للبايلك الغربي، فلقد بنى الجامع الأعظم[3] سنة تَولّيه الحكم، كما بنى القبة والدار التي تقع قرب الجامع الأعظم، والتي تُعرف لدى الناس بقبّة الباي إبراهيم لكونه مدفونا فيها، وذلك بعد أن توفيّ بمعسكر سنة 1771م ودُفن بها[4].

7. الباي حسن (1771– 1774م): تولّى هذا الباي حكم المقاطعة الغربية بعد وفاة الباي عصمان[5] فاستمرّ في الحكم لمدّة ثلاثة سنوات، وأثناء تأديته لعملية إيصال الدنوش إلى

Marcel Bodin : «L'agrément du lecteur : Notice historique sur les arabes soumis aux espagnols pendant leur occupation d'Oran par si Abdelkader El-Mecherfi », R.A, N° : 65, 1924, p-p : 193- 260.

[1]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: "المصدر السابق"، ص: 20.

[2]: الآغا بن عودة المزاري: "المصدر السابق"، ص: ص: 282، 283.

[3]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: "المصدر السابق"، ص: 20.

[4]: محمد بن يوسف الزياني: "المصدر السابق"، ص: 194.

[5]: الآغا بن عودة المزاري: "المصدر السابق"، ص: 285.

العاصمة وأمام غضبه من الاستقبال الذي حظي به، وخوفًا من الانتقام فَرَّ إلى تلمسان ثمّ إلى وهران ثمّ إلى إسطمبول[1].

8. الباي إبراهيم المليانى (1774– 1783م): لقد جاء هذا الباي كحاكم لبايلك الغرب بعد رحيل الباي حسن إلى إسطمبول سنة 1774م، إذ عَرف البايلك في عهده مرحلة هدوء تام بعد أن وضع هذا الباي حدًّا لقبائل المحال التي كانت متمرّدة على سلطة البايلك[2]. كما أتصف إبراهيم المليانى بحبّه للعلم والفقهاء، حيث رتّب العلماء حسب رتبهم العلمية فكان يكثر من مجالستهم والمذاكرة معهم[3] أمّا عن آثاره العمرانية، فلقد بنى برج العسكر بمعسكر، واستمرّ في الحكم لمدة عشر سنوات إلى أن توفي بمعسكر سنة 1783م[4].

9. الباي الحاج خليل (1783–1784م): وهو خليفة الباي إبراهيم المليانى في عهده، تولّى بايًا على المقاطعة الغربية سنة 1783م بعد وفاة الباي إبراهيم المليانى[5]، إذ ما يلاحظ هو أنّ محمد بن عثمان الملقب بالكبير، كان خليفة في عهد هذا الباي. عِلمًا أنّ بعد وفاة الباي إبراهيم المليانى تَرقَّبَ الجميع أنّ منصب الباي، سوف يعود بكلّ جدارة واستحقاق إلى محمد بن عثمان، لكن اختيار الداي وَقَعَ على الحاج خليل، حيث قام هذا الأخير بحملة ضدّ الإسبان[6]. كما عرفت أيّامه بمدينة تلمسان تمرّد القائد الدرقاوي سيدي محمد بن علي، إذ تنقّل هذا الباي إلى عين المكان من أجل وضع حدّ لهذا التمرّد، وأثناء تأديته لهذه المهمّة توفي هناك ودفن بقبة سيدي محمد السنوسي سنة 1784م، عِلمًا بأنّ الحاج خليل حسب إشارة محمد بن يوسف الزياني، لم يكن يُحبّ الأولياء ولا غيرهم[7].

---

[1]: الوليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 25، مسلم بن عبد القادر الوهراني: "المصدر السابق"، ص: 21.

[2]: الآغا بن عودة المزاري: "المصدر السابق"، ص: 285.

[3]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: "المصدر السابق"، ص: 21، الوليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 25.

[4]: الآغا بن عودة المزاري: "المصدر السابق"، ص: ص: 285، 286.

[5]: الآغا بن عودة المزاري: "المصدر السابق"، ص: 287.

[6]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: "المصدر السابق"، ص: 22، الوليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 25.

[7]: محمد بن يوسف الزياني: "المصدر السابق"، ص: 197.

10. الباي محمد بن عثمان الكبير (1784– 1799م): فبعد وفاة الحاج خليل سنة 1784م عُيِّنَ خليفته محمد بن عثمان، الذي لُقِبَّ فيما بعد بالكبير بايًا لبايلك الغرب، وذلك بعد تعيينه من طرف الداي محمد بن عثمان (1766– 1791م) سنة 1784م[1] وزيادة على هذا، فهو محمد بن عثمان بن إبراهيم الكردي المُلقّب بمحمد الكبير، بدأ قائدًا على قبائل فليته[2] سنة 1765 م، ثمّ خليفة للباي سنة 1768م، وفي سنة 1784م ارتقى كباي لبايلك الغرب[3].

كما يتبيّن أنّ الباي محمد الكبير، قد قام بأعمال هامّة مجّدت اسمه، ويأتي على رأس أعماله استرجاع مدينة وهران وتحريرها، وانتهى الوضع بفتحها سنة 1792م[4]. ضف إلى ذلك أنّه قام بإنجازات حضارية هامّة، شملت مدن عديدة من مدن بايلك الغرب، فأعاد تشييد مدينة وهران وتنشيطها رغم الزلزال الذي أصابها سنة 1790م، والذي خلّف بها خسائر بشرية ومادّية كبيرة، وبالتّالي أعادت تلك الإصلاحات الحيوية إلى مدينة وهران وجعلتها إحدى أكبر مدن البايلك الغربي[5].

إضافة إلى ما سبق، فهناك الأعمال العمرانية والمشاريع الاقتصادية لهذا الباي، وبصفة عامة فإنّ إنجازات الباي محمد الكبير عديدة وهامّة جدًا في تاريخ البايلك والإيالة بصفة عامة. ومهما يكن فإنّ عهد محمد الكبير قد مثّل ذروة الازدهار والتقدّم لبايلك الغرب في العهد العثماني، لا سيما خلال القرن الثامن عشر (18م) إلى أن توفي سنة 1799م أثناء

---

[1]: سنتعرّض للتعريف بهذا الباي في الفصول الأخرى، بصفة أكثر تفصيلاً، وذلك من خلال تعرّضنا للباي محمد بن عثمان الكبير وإرادته السياسية في تفعيل الحركة الثقافية بالمنطقة الغربية.

[2]: فليتة: قبائل عربية تنقسم إلى أربعة فروع، كانت متمركزة حول مدينة زمورة، فاعتُبِرت بطن من بطون سويد. أنظر: الوليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 26، صالح عباد: "المرجع السابق"، ص:290.

[3]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: "المصدر السابق"، ص: 23، الوليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 26.

[4]: الآغا بن عودة المزاري: "المصدر السابق"، ص: 289.

[5]: الوليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 27، صالح فركوس: "المرجع السابق"، ص: 107.

تأديته لعملية إيصال الدنوش إلى العاصمة، تاركًا وراءه أخاه المعروف بـــ: بوكابوس وابناه محمد المقلش وعثمان، الذي كان يشتغل منصب خليفة الباي أثناء حكم أبيه[1].

11. الباي محمد عثمان (1799– 1802م): إذ تولّى حكم الإيالة الغربية عَقِبَ وفاة أبيه سنة 1799م، فبقي في الحكم ثلاث سنوات ثمّ نقل القصبة من البرج الأحمر إلى القصبة، التي هي بأعلى الساحة من ناحية مرجاجو[2]. وزيادة على هذا فلقد كان لهذا الباي مجموعة من الأعمال العمرانية، حيث اشتغل بالعمارة وتشييد القصور وإجراء المياه، لكن الأمر لم يَدُم طويلاً، إذ ركن هذا الباي إلى اللهو والبذخ كما يقول المزاري[3]، وأراد أن يَتشبّهَ في ذلك كما يقول مسلم بن عبد القادر الوهراني بملوك بني العباس[4].

وبالتّالي يتبيّن أنّ هذا الباي لم يمشي على سيرة والده محمد بن عثمان الكبير، فبدأت سياسته كما يقول الآغا بن عودة المزاري في التدهور والتراجع، وبدأ ما شيّده أبوه يتعرّض للخراب[5]. الأمر الذي أدى بباشا الجزائر إلى اتّخاذ قرار بعزله بعد أن حَدث الطاعون في وقته، والذي أدّى إلى وفاة العديد من سكان البايلك[6].

12. الباي مصطفى بن عبد الله العجمي (1802–1808م): لقد تولّى هذا الباي حكم البايلك الغربي سنة 1802م بعد عزل الباي محمد عثمان، حيث كان رجلاً عاقلاً قام بالعديد من الحملات على الدرقاويين وقبائل المخزن باءت كلّها بالفشل، بعد محاصرة الدرقاويين لمدينة وهران، الأمر الذي أدّى إلى عزله سنة 1806م[7]. فأستُبدِل في فترة يُمكِن اعتبارها

1: Gorguos (A) : "Notice sur le bey d'Oran : Mohammed El Kebir", R.A, N° : 01, 1856, p : 406.

[2]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: "المصدر السابق"، ص: 26.

[3]: الآغا بن عودة المزاري: "المصدر السابق"، ص: 298.

[4]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: "المصدر السابق"، ص: 26.

[5]: الآغا بن عودة المزاري: "المصدر السابق"، ص: 299.

[6]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: "المصدر السابق"، ص: 26.

[7]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: "المصدر السابق"، ص: 27.

فترة انقطاع لحكم هذا الباي بمحمد بن محمد المقلش، الذي استطاع أن يُحقّق بعض الانتصارات على الدرقاويين بوهران[1].

وزيادة على هذا، فلقد عاد الباي مصطفى بن عبد الله العجمي إلى حكم البايلك الغربي مرّةً ثانية سنة 1807م، فاستمرّ لمدّة سنة في محاربة الدرقاويين الذين ألحق بهم هزائم كبيرة، إلى غاية أن عُيّن خزناجيًا من طرف السلطة المركزية بوهران.

13. الباي أبو كابوس محمد بن عثمان (1808- 1813م): وهو أخ الباي محمد بن عثمان الكبير، كان يُلقّب بالرقيق والمسلوخ وبأبي كابوس[2] تولّى الحكم أواخر سنة 1808م وبَقي فيه نحو خمسة سنوات، حارب فيها الدرقاويين وحَقّقَ بهم هزائم نكراء، قُتل سنة 1813م، بعد أن وردت أخبار عن نيّته في الثورة على داي الجزائر والبيعة لملك المغرب[3] المغرب[3] وفي هذا المقام يذكر مسلم بن عبد القادر الوهراني: "...ووصل الخبر إلى الجزائر، فغضب الباشا لذلك كثيرًا وعاد الباي إلى وهران، وبينما كان يتهيّأ لدخول المدينة إذ وصلت سفن الأتراك من الجزائر مشحونة بالعساكر...، ثم أذعن وسلّم نفسه فكبل ... وتولّى عمر آغة قتل الباي السابق بنفسه، وسلخ رأسه وهو حيّ وعذّبه عذابًا أليمًا وملأه بعد سلخه قطنًا، ثم أرسله إلى الجزائر وقتل أولاده الصغار، وذلك سنة 1228هـ/1813م"[4].

14. الباي قارة بغلي (1813- 1826م): لقد كان هذا الباي الجديد صهرًا للباي أبو كابوس محمد بن عثمان من جهة، وخليفته على مازونة من جهة أخرى[5] إذ ثار الدرقاويون من جديد في عهده، الأمر الذي أدّى به إلى تَوجِيه العديد من الحملات لتشتيت شمل الطريقة الدرقاوية ككلّ، فقد أقام بهذا الباي بوهران، لكن الأمر الذي حدث هو وقوع ثورة على عمر

[1]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: "المصدر السابق"، ص: 27.
[2]: الآغا بن عودة المزاري: "المصدر السابق"، ص: 328.
[3]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: "المصدر السابق"، ص: 28.
[4]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: "المصدر السابق"، ص: 28.
[5]: الآغا بن عودة المزاري: "المصدر السابق"، ص: 338.

باشا بالجزائر، والتي انتهت بتعيين علي باشا دايًا للإيالة الجزائرية[1] والذي عمل بأعمال خالف بها من سبقه من الدايات، ومن ذلك أنّ خليفة الغرب الذي كان لا يُولّى من الجزائر مباشرة بل كان يولّيه باي المقاطعة الغربية، أصبح في عهده يولّيه الداي ويعيّنه بنفسه مباشرة، ممّا أدّى بالباي قارة بغلي بمخالفة هذا الأمر، والذي انتهى بمقتله أثناء أدائه لعملية تسليم الدنوش سنة 1826م. وفي هذا الأمر يقول مسلم بن عبد القادر الوهراني: "... فغضب عليه الباشا، ولمّا ذهب إلى الجزائر مدنّشًا ووصل إلى أبي خرشفة بأسفل مليانة، أرسل إليه الباشا من عزله ثم قتله"[2].

15. الباي حسن بن موسى (1826– 1830م): إذ تولّى هذا الباي حكم المقاطعة الغربية سنة 1826م، حيث عُرِف عند العامّة بالباهي حسن وهو آخر بايات البايلك الغربي. وممّا تجدر الإشارة إليه، أنّ هذا الباي كان في أوّل أمره طبّاخًا لأربعين جنديًا من الأوجاق ثمّ صار بائعًا للتّبغ، ونتيجة أنّه كان ذا عقلٍ وسياسة أحبّه الباي محمد الرقيق أبو كابوس فصاهره وقَرّبه إليه، فَأسنَد إليه قيادة قبائل فليتة إذ أُتصِف – في المرحلة الأولى– بالعطف والشفقة على الضعفاء واليتامى والمرضى، وبتقرّبه إلى الصُلحاء والعلماء[3].

وزيادة على هذا، فلقد وَقعَ في عهد هذا الباي ثورة أحمد بن سالم التيجاني سنة 1826م، حيث قاتلهم هذا الباي أشدّ قتال فألحق بهم خسائر فادحة أرغمت التيجانيين بالانسحاب، كما قام هذا الباي بإخضاع القبائل الخارجة عن نطاق سلطة البايلك بما فيها قبائل المخزن، فاستمرّ بذلك في حكم سلطة البايلك إلى أن احتل الفرنسيون الإيالة الجزائرية سنة 1830م، فنُقِل إلى المشرق حيث توفي هناك[4].

---

[1]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: "المصدر السابق"، ص: 29.

[2]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: "المصدر السابق"، ص: 29.

[3]: الآغا بن عودة المزاري: "المصدر السابق"، ص: 347.

[4]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: "المصدر السابق"، ص: 32.

وما يُستخلص ممّا سبق، أنّ القرن الثامن عشر (18م) قد أُتصف ببعض الميزات منها على المستوى الاقتصادي، حيث عَرف البايلك الغربي نوعًا من الاستقرار والاعتماد على الموارد الداخلية عكس القرن التاسع عشر (19م). هذا الانتعاش الاقتصادي الذي عرفته الإيالة الجزائرية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر (18م)، خاصّةً منذ سنة 1748م إلى غاية سنة 1798م كان سببًا في استقرار نظام الحكم، فلم تعرف الإيالة الجزائرية إلاّ أربعة دايات[1]، كما تميّز بايلك الغرب خلال القرن الثامن عشر (18م) بأحداث تاريخية هامّة يكفي أن نُشير إليها بفتح وهران الأوّل والثاني، إضافة إلى الحركة الاقتصادية والعمرانية والثقافية التي عرفها البايلك خاصّةً في عهد الباي محمد الكبير[2].

وممّا تبيّن أنّه قد سَيطرَ على الحُكم طيلة القرن الثامن عشر (18م) والنصف الأول من القرن التاسع عشر (19م) مع فترات انقطاع قصيرة عائلتان، هما عائلة بوشلاغم حيث مكثت هذه الأخيرة في الحكم من سنة 1696م إلى غاية سنة 1760م، مع توقّف من سنة 1738م إلى سنة 1748م. وعائلة محمد بن عثمان الملقب بالكبير، والتي حكمت من سنة 1779م إلى غاية سنة 1830م، مع انقطاع قصير من سنة 1800م إلى سنة 1805م[3].

وبالتّالي نَجعل من عهد الباي حسن بن موسى نقطة نهاية للفترة التاريخية المخصّصة بالبحث، وهي تُصادف بالتقريب النصف الأول من القرن التاسع عشر (19م)، أو بالأحرى تاريخ سقوط الإيالة الجزائرية في يد الاستعمار الفرنسي.

إنّنا ننهي الفترة المخصّصة للبحث بمرحلة تاريخية، مَثّلت أوجّ ازدهار ونمو لبايلك الغرب في جميع المجالات الاقتصادية منها، والعمرانية والثقافية بل وحتّى السياسية، كما أنّ

---

[1]: وهم: محمد بكير داي (1748– 1754م)، وبابا علي داي (1754– 1766م)، ومحمد بن عثمان داي (1766– 1791م)، وحسن داي (1791– 1798م). اعتمدنا في إثبات هذه القائمة على: ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي.... "المرجع السابق"، ص: 241.

[2]: الوليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 28.

[3]: "المرجع نفسه"، ص: 28.

هذا الازدهار لم يكن على مستوى بايلك الغرب فقط، بل هذه الميزة ميّزت الإيالة الجزائرية عامّة.

ومن خلال هذا التسلسل التاريخي للأحداث والبايات مُركّزين على أهمّ الفترات والأحداث، نَكُون قد أفرزنا أهمّ المراحل التي عاشها البايلك خلال هاتين القرنين، وذلك عن طريق إعطاء الأهمية للفترات المؤثّرة من خلال التّركيز عليها.

إن هذا التّسلسل الزمني للأحداث قد جعل منطقة بايلك الغرب تعرف أوجّ عظمتها وقوّتها، لما امتازت به من تنوع في التركيبة والبنية الاجتماعية لها.

5) التركيبة القبائلية للبايلك الغربي ودورها في تدعيم السلطة المحلية: إنّ القبائل التي تقاسمت أوطان بايلك الغرب خلال القرن الثامن عشر (18م)، والنصف الأول من القرن التاسع عشر (19م) كانت على النحو التالي:

1/ القبائل المخزنية:

والتي كان أهمّها الأعراش التالية: الدوابر والزمالة والغرابة والبرجية والمكاحلية[1] وفي هذا المقام يقول الآغا بن عودة المزاري: "والمخزن مهما قيل له في دائرة وهران، فهو خمسة أعراش جالية، الدوائر والزمالة والغرابة والبرجية والمكاحلية، فهم نجوع شداد في الحرب، ولبعضهم بعضا متوالية وكلمتهم تحت كلمة واحد بلا مخالية، غير أنّ النجوع الأربعة هم مخزن الباي والخامس وما انضمّ إليه هم مخزن الخليفة..."[2].

يتبيّن ممّا سبق، أنّ قبائل المخزن كانت تتربّع على عدّة مناطق يُمكِن حصرها في خطّين متوازيين: الأول بمحاذاة الجبال التليّة من سبخة وهران إلى الهضبة الوسطى للشلف، والثاني

[1]: محمد بن يوسف الزياني: "المصدر السابق"، ص: 228.

[2]: الآغا بن عودة المزاري: "المصدر السابق"، ص: 331.

من سعيدة إلى سبدو وإلى غاية الحدود الصحراوية، هذا التوزيع الذي كان يسمح لها بمراقبة قبائل الرعية وبجمع الضرائب[1].

وزيادة على هذا، فلقد كانت القبائل المخزنية تحتلّ مرتبة ممتازة، حيث أنّ وضعيتها كحليف للبايلك الغربي، قد مَنَحَها الأمان اتّجاه السلطة المركزية، فمُهِمّتها كانت مقتصرة في جمع الضرائب والتي منحتها كذلك نوعًا من السلطة والجاه، كما شكّلت هاته القبائل المخزنية جهازًا عسكريًا، أخذ تدريجيًا ميزات وصفات الجهاز السياسي للبايلك[2] فعلى المستوى الداخلي لهاته القبائل فإنّ التّخفيف من الضرائب، ومنها الإعفاء من ضريبة الخراج كانت ميزة ينعم بها الجميع، أي جميع أفراد القبيلة. أمّا الامتيازات الأخرى فهي محصورة على مستوى قادة القبيلة مثل آغا الدوائر وآغا الزمالة، وتمثّلت هذه الامتيازات في توسيع ممتلكاتهم الفلاحية وانتقالها إلى ممتلكات خاصّة، كما مُنِحت القبائل المخزنية نتيجة أدوارها الدفاعية أخصب الأراضي الموجودة بالقرب من الحواضر، منها الأراضي الواسعة والخصبة الموجودة بالقرب من مازونة، إضافة إلى الأراضي الخصبة الموجودة بالقرب من مدينة وهران[3].

لقد وُجِد ببايلك الغرب قسمين من قبائل المخزن الشرقي والمخزن الغربي، بحيث نجد من الناحية الشرقية كلّ من المكاحلية وأولاد سيدي عريبي، وصبيح وأولاد العباس إلى غاية وادي مينا وشلف[4]. أمّا من الناحية الغربية، فهناك الدوائر والزمالة والغرابة والبرجية[5]

---

[1]: الواليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 29، للمزيد أنظر: خريطة أراضي قبائل المخزن الملحقة بالرسالة عن: ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر: العهد العثماني...، المرجع السابق، ص: 124.

[2]: Walsin Esterhazy : Notice historique… Op.cit, p : 11.

[3]: الواليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 30، للمزيد راجع: عبد القادر جغلول: تاريخ الجزائر الحديث: دراسة سوسيولوجية، الجزائر، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، 1981، ص، ص: 40، 41.

[4]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود: في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ج2، تحقيق: يحي بوعزيز، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990، ص: 275.

[5]: البرجية: ويندرج تحت رئاستهم كلّ من سجرارة وخلافة، والحوارث. وأصل البرجية من مدينة برجة إحدى مدن الأندلس، جاء أسلافهم في عهد الدولة الزيانية خلال القرن الثالث عشر الميلادي (13م)، فسكنوا بمدينة السمار من نواحي يلل ثم انتقلوا إلى القلعة، ومنها إلى البرج فسكنوها وشيّدوا بها برجًا. "المصدر نفسه"، ص: 328.

والبحايثية[1] ضف إلى ذلك أنّ الدوابر كانت بدورها تنقسم إلى فروع من البحايثية والكراطة – الكرطية[2] – والبناعدية[3]، أمّا البرجية فكانت هي أيضًا ذات فروع، ولعلّ من بينها النقايبية[4] والبلاغة– البلغية[5] –، وفي هذا الصدد يقول الآغا بن عودة المزاري: "ومخزن وهران على قسمين وهما: المخزن الشرقي والمخزن الغربي، فالشرقي هو نجع المكاحلية... والغربي هو نجع الدوابر والزمالة والغرابة والبرجية... وأصل الرياسة في الدوابر، إنّما هي للبحايثية ثم إيالة الترك صارت تدول على ثلاثة، وهم البحايثية والكراطة (كذا) والبناعدية...، وأصل الرياسة في البرجية نوبة بين فريقين في إيالة الترك وهما النقايبية والبلاغة الزيانيون..."[6].

وبعد التعرّض لأهمّ أعراش وقبائل المخزن ببايلك الغرب، نحاول إبراز أهم الأدوار التي لعبتها هاته القبائل في تدعيم سلطة البايلك، ضف إلى ذلك محاولة التعرف على وضعية عشائر المخزن الاجتماعية والآثار التي ترتّبت عليها.

أ. دور قبائل المخزن في تدعيم سلطة البايلك الغربي:

---

[1]: البحايثية: هم أولاد المسعود من قبيلة سويد ذات الأصول المضربية، من مضرب بن عمر بن ربيعة بن عمر بن يزيد بن معد بن عدنان. اختلف المؤرّخون في نسبهم، فمنهم من أرجعهم إلى قبائل العرب الهلاليين، ولعلّ أبرزهم ابن خلدون، ومنهم من أرجعهم إلى نسب قبائل من بني مخزوم ذات الأصل المضاربي، أمثال ابن الخطيب السلماني: "المصدر نفسه"، ص، ص: 276، 277.

[2]: الكراطة: أو الكرطية كما كان يُطلق عليهم، وهم أولاد الشريف الكرطي واسمه عبد الله بن عبد الرزاق التلاوي الفرطي، من شرفاء الراشدية الأعيان نسبة لمدينة الكرط. وأصلهم من مدينة الكرط أحد مدن غريس الغربي من بطن بني تالة أحد شرفاء بني راشد، تولّوا رئاسة المخزن منذ وفاة جدّهم الشريف الكرطي. "المصدر نفسه"، ص: 317.

[3]: البناعدية: نسبة إلى جدّهم بن عودة بن خدة، أصلهم من أجواد واد الحمام ومن أجواد الحشم. من رؤساءهم الشيخ السنوسي، بن عودة بن خدة آغا المخزن. "المصدر نفسه"، ص: 321.

[4]: النقايبية: وهم أبناء عمّ الأمير عبد القادر يجتمعون معه في شجرة النّسب، في أحمد بن عبد القادر الشهير بإبن خدة بن أحمد بن محمد بن عبد القوي الثالث بن علي بن أحمد بن عبد القوي الثاني بن خالد بن يوسف. أُطلق عليهما اسم النقايبية نسبة إلى محمد أبا نقاب، فتفرّغ النقايبية ويُقال أنّ جدهم الأصلي هو عبد القويّ الثالث، المعروف بالنصبي. فَبعدَ أن توفي خلف عدّة أولاد منهم عيسى ومحمد، الذين حَملُوا راية النقايبية. "المصدر نفسه"، ص: ص: 325، 326.

[5]: البلاغة: أو البلغية، نسبة لجدّهم سيدي أعمر البلغي الزياني بن الناصر بن سعيد بن محمد، بن أحمد بن أعمر البلغي بن جبارة بن أبي حمو موسى بن يوسف الزياني. فهم بالتالي من بنو زيان تولّى الرئاسة لقبيلتهم في عهد الأتراك كلّ من محمد حتور خليفة البايات المسارتية والبشير ولد أعمر بن تجلف. "المصدر نفسه". ص: 331. للمزيد من سلالة النسب الشريفة، التي ترجع إليها هاته القبائل أنظر: سعد أبوسيف الحوتي: الموسوعة العلمية في أنساب القبائل العربية، الإسكندرية، دار أبو العزم للنشر والتوزيع، 2002، ص: 145.

[6]: الآغا بن عودة المزاري: "المصدر نفسه"، ج2. ص، ص: 275، 276.

لقد كانت قبائل المخزن حلقة الوصل بين سكّان البايلك وباياته، ورابطة متينة شَدّت المحكوم إلى الحاكم، وأبقت تماسك الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، وذلك نظرًا لمهام هاته القبائل الإدارية والعسكرية المتصلة بها[1] وفي هذا الصدد يقول ناصر الدين سعيدوني: "فقبائل المخزن بهذا المفهوم، كانت عبارة عن تجمّعات سكّانية اصطناعية متمايزة في أصولها ومختلفة في أعراقها، فمنها من أقرّه الأتراك بالأراضي التي وُجِدت عليها لتكون سند لهم، ومنها من أُعطيت لها الأرض لتستقرّ عليها، ومنها من استقدم كأفراد مغامرين أو متطوّعين من جهات مختلفة، ليُؤلِّفوا جماعة شبه عسكرية ترتبط مصالحها بخدمة الحكومة التركية"[2].

وبفعل الانتساب والاستقرار والنّشأة على أراضي البايلك الغربي، اكتسبت هذه المجموعات البشرية المعروفة بقبائل المخزن كياناً مستقلاً متمايزًا، ولم تعرف من أنسابها القديمة ومواطنها الأصلية، إلاّ ما ارتبط بتسمياتها الجديدة كقبائل الغرابة. في حين اتّخذت الغالبية الكبرى من قبائل المخزن تسميات محلّية وألقابًا خاصّة بها، استمدّتها من مواطنها الجديدة أو اشتقّتها من الوظائف التي كانت تمارسها، والمهام التي كانت تقوم بها في البايلك أو استعارتها من نوع السلاح الذي كانت تَحمِله. فمثلاً مخزن المكاحلية عُرِفوا بذلك الاسم لنوع السلاح الذي اشتهرت به فرسانه، ضف إلى ذلك المجموعات المخزنية من مخازنية وزمول ودوايرية، فلقد عُرفوا بهذه الأسماء نظرًا للمهام التي كانوا يمارسونها، والتنظيم العسكري الذي كانوا يخضعون له والحيّز الجغرافي- بايلك الغرب- الذي استقرّوا ضمنه[3].

ويتبيّن ممّا سبق، أنّه لم يَبرز ويكتمل كيان قبائل المخزن بالبايلك الغربي إلاّ بفضل سياسة السلطة المحليّة به، وبفعل أحداث تاريخية وظروف خاصّة عاشتها الإيالة الجزائرية أثناء العهد العثماني. وتَبرز هذه السياسة وما أحاط بها من ظروف خاصة، من خلال نوعية

---

[1]: ناصر الدين سعيدوني: "دور قبائل المخزن في تدعيم سلطة البايلك بالجزائر". الأصالة، العدد: 32، 1976. ص:47.

[2]: ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث....، "المرجع السابق"، ص: 98.

[3]: ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث...، "المرجع السابق"، ص: 98.

التّأثير الذي أحدثته علاقة السلطة الحاكمة بسكّان الريف[1]. وما ميّز هذا التّأثير أنّه مَرَّ بمراحل ثلاث متمايزة من حيث النّوعية والنتائج. فالمرحلة الأولى والتي تبدأ بحلول العثمانيون بالجزائر إلى غاية القرن السادس عشر(16م)، هاته الفترة التي استعان فيها الحُكّام العثمانيون بالجيش الانكشاري، بَدَلَ اعتمادهم على القبائل الحليفة التي تُقدِّم لهم العون وتُوفِّر لهم فرق الفرسان الضرورية مُقابِل ما تناله من منافع ومزايا، على الرّغم من أنّ الاستعانة بهذا النّوع من القوّات المحليّة كان تقليدًا معروفًا في الجزائر منذ أوائل الفترة الإسلامية[2].

وهكذا لم يكن لقبائل المخزن دور يُذكر في الأمور الإدارية والعسكرية للبايلك الغربي إلاّ بمجيء المرحلة الثانية، والتي استغرقت القرن الثامن عشر (18م) إلى غاية سنة 1830م. حيث بدأ الاعتماد على قبائل المخزن، بعدما برهنت أثناء المعارك على كفاءتها وفعّاليتها، لدرجة أنّها أصبحت العمود الفقري في كلّ الحملات الحربية الخاصّة بجمع الضرائب الثقيلة بل تجاوز الأمر ذلك، حيث أصبحت تلك القبائل الساعد الأيمن والوسيلة الفعّالة لتدعيم الإجراءات الإدارية والحربية بالبايلك الغربي[3].

يتبيّن ممّا سبق، بأنّ هذا التطور الذي عرفته قبائل المخزن بالبايلك كان يرتبط بأسباب ودواعي جعلت السلطة الحاكمة تَستخدِم هاته القبائل وتُعطيها صلاحيات، ومميّزات واسعة دون بقيّة السكان. ولعلّ من بين هذه الأسباب ما يتّصل بالوضع الديمغرافي للأقليّة التركية الحاكمة بالإيالة الجزائرية، إذ أنّ ضآلة العنصر التركي دفع الحكام الأتراك إلى استخدام قبائل المخزن، لتكون لهم سَندًا داخليًا وكقوّة حليفة في ضرب أيّ تهديد داخلي أو خارجي ضف إلى ذلك ما يتعلّق بحفظ الأمن وفرض سيادة البايات على الأرياف[4].

---

[1]: عبد القادر جغلول: "المرجع السابق"، ص: 45.

[2]: ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث...، "المرجع السابق"، ص: 99.

[3]: ناصر الدين سعيدوني: دراسات في الملكية العقارية، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، ص: 43.

[4]: وذلك بعد أن عجزوا عن تجنيد أكثر من اثني عشر ألف رجل من الأتراك والكراغلة في أوقات الحرب، وبعد أن انخفض عدد الجيش الانكشاري في الأوقات العادية إلى أقلّ من أربعة آلاف رجل، وحتى عشيّة الاحتلال أي سنة 1829م. في حين أنّ الاستعانة بقبائل المخزن تُعزّز الجيش العثماني، فيَصِل أفراد الفرق المتحركة منه إلى 30 ألف رجل ويضع تحت تصرف البايلك 15000 محارب، موزّع على كلّ المقاطعات، فضلاً عن

ويظهر هذا السبب واضحًا، في كون سلطة البايلك قد اضطرّت إلى أن تَعتمِد على قوّة قبائل المخزن القادرة على التحرّك والمتهيّئة للقتال في كلّ وقت. فبفضلها استطاع بايات بايلك الغرب أن يفرضوا سلطتهم وسيطرتهم، ويمدّوا نفوذهم على جهات متباعدة من المقاطعة الغربية. وأن يحافظوا على الحاميات المتمركزة بالقرب من الأسواق المهمّة والحصون الاستراتيجية والمواصلات الحيوية، وأن يتمكّنوا من استخلاص الضرائب وإخضاع الثائرين[1].

هذا بغضّ النّظر عن أنّ تواجد قبائل المخزن في النقاط الاستراتيجية من البايلك، قد ساعد بصورة واضحة على إبعاد خطر القبائل الجبلية والحدّ من عصيانها، ومنع انسيابها نحو السهول الخصبة بتلمسان وغريس وغيرها من مناطق المقاطعة الغربية[2] فلقد أصبح عدد هاته القبائل مع مطلع القرن الثامن عشر (18م) يزيد عن 20 قبيلة، وتأتي قبائل الزمالة والدوابر على رأس المجموعة، حيث أنّها كانت تُموّن البايلك بأحسن الفرسان. وبالتّالي لعبت قبائل المخزن على مستوى البايلك دورًا هامًّا، نتيجة الظروف المميّزة التي اتّصف بها البايلك منها وجود الإسبان في مدينة وهران والمرسى الكبير، والعمل على محاربة هذا الوجود. فهذا الوضع منح القبائل المخزنية الامتيازات التي سبقت الإشارة إليها، أي لا تدفع الخراج وتستغلّ مجالات فلاحية واسعة[3].

وزيادة على هذا، فيتبيّن أنّه من بين الأسباب التي أدّت بالسلطة المحلية للبايلك باستخدام قبائل المخزن، هوما يتعلّق بمحاولة البايات بالتقليل من عداء القبائل لهم، وذلك بإدراجهم ضمن قبائل المخزن، وإعطائهم الحقّ في القيام بمهمّة مراقبة المناطق التي تشهد الثورات. وبهذا العمل الذّكي أَمِن البايلك الغربي ثورات القبائل، وتخلّص من المشاكل التي كانت

توفير قوّة فعّالة من فرسان قبائل المخزن تكون موضوعة في حالة احتياط. ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث...، "المرجع السابق"، ص: 101.

[1]: Rinn Louis : Le royaume d'Alger sous le dernier dey…Op.cit, P : 128.

[2]: ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث...، "المرجع السابق"، ص: 103.

[3]: Walsin Esterhazy : Notice historique… Op.cit, p : 12.

تثيرها، بل انتفع رجال البايلك بنشاطها الجديد، عندما أمكن لهم مراقبته وتوجيهه لإخضاع بعض المناطق الجبلية والتلية. وهناك أمثلة عديدة لهذا العامل الذي أوجد كثيرًا من قبائل المخزن في الأراضي الجبلية والسهبية، ففي الجهة الغربية من البايلك مهمّة مراقبة المنطقة الممتدّة من معسكر حتى هضاب شلف وإلى غاية مدينة وهران[1].

وبالتّالي أصبح لزامًا على بايات المقاطعة الغربية، إذا أرادوا تدعيم حُكمِهم وتقوية نفوذهم أن يُحافِظوا جاهدين على ولاء والتزام تلك القبائل. ولعلّ هذا ما دفعهم على منحهم بعض الامتيازات وإقرار بعض الحقوق لقبائل المخزن دون بقيّة سكّان الرّيف الآخرين، فمن هذه الامتيازات هو الإعفاء من الضرائب الإضافية والاكتفاء بدفع واجب الزكاة والعشور، في حين ألزمت قبائل الرعية الخاضعة مباشرة للبايلك بتقديم الضرائب الإضافية، إلى جانب أداء رسوم الزكاة والعشور[2].

وممّا يلاحظ، هو أنّ هذه الضرائب الإضافية كانت لا تتعدّى في بادئ أمرها ضريبة الخراج الإسلامية التي كانت تُفرَض على أهل الذمّة في الفترة الإسلامية، لكن تطوّر أمرها في العهد العثماني فأصبحت تتضمّن عدّة أنواع من الالتزامات المالية الثقيلة، وهي المعروفة عند قبائل الرعية في البايلك الغربي باسم اللزمة[3]. وللإشارة فإنّ هذا الإعفاء من الضرائب الإضافية الذي حَظِيت به قبائل المخزن بالبايلك لم يكن القاعدة العامّة ولا الحكم الشامل لهذا الأمر، إذ نجد هناك بعض الاستثناءات التي استوجبتها وضعية بعض الجهات بالبايلك، فأصبح لِزامًا على بعض القبائل المخزنية أن تساهم بقسط من الواجبات المالية، وإن كان هذا القسط لم يصل في كميّته ومقداره حدًّا يجعله نوعًا من الضرائب الإضافية الثقيلة[4].

---

[1]: ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث...، "المرجع السابق"، ص: 104.

[2]: ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث...، "المرجع السابق"، ص: 104.

[3]: الحاج أحمد الشريف: "المصدر السابق"، ص:47.

[4]: ناصرالدين سعيدوني: دراسات في الملكية....،"المرجع السابق"، ص:43.

كما يظهر من خلال ما سبق، أنّ تلك الامتيازات التي تمتّعت بها قبائل المخزن على مستوى بايلك الغرب قد انعكس بالسلب على وضعية قبائل الرّعية المُجبرة على دفع الضرائب الثقيلة، لدرجة أنّها أصبحت المورد المالي الذي كان يتحصّل عليه فرسان المخزن من هاته القبائل، ودعمًا ماليًا لا يُمكِن التّقليل منه. لا سيما في أواخر الفترة العثمانية عندما أصبحت للمجموعات البشرية المخزنية نفوذ خاص، وتأثير ملموس على مناطق شاسعة من بايلك الغرب، كما هو الحال في الأراضي المعروفة باليعقوبية الواقعة جنوب معسكر[1] والممتدّة حتّى الشّط الشّرقي. حيث كانت قبائل الدوابر والزمالة المستقرّة في الجهات الشمالية تمارس سلطة خاصّة على القبائل الرّعوية المقيمة في تلك الجهات، إذ كانت تتقاضى منها رسومًا مالية لا يصل منها إلى خزينة البايلك سوى الجزء القليل[2].

وإلى جانب هذا المورد المالي الذي ساعد بصورة واضحة على تحسين الظروف المعيشية لقبائل المخزن، هناك الكثير من المنح التي كان يُقدِّمها بايات البايلك لفرسان هذه القبائل كالفرس والسلاح وأدوات العمل الفلاحية دون مقابل[3] وبشرط أن تكون في خدمة البايلك بمجرد أن تتلقّى أيّ أمر من الباي، وفي حالة عصيان مُمكِن أن تُسحَبَ منها هذه المكتسبات. عِلمًا أنّ الأراضي التي كانت تستولي عليها هذه القبائل في منطقة بايلك الغرب هي من أهمّ وأحسن الأراضي، فكلّ المناطق الموجودة ما بين واد مينا وشلف والسهول الموجودة ما بين البحر شمالاً وجبال الأطلسي جنوبًا، وما بين وادي المالح غربًا إلى مينا وشلف شرقًا كانت بحوزة القبائل المخزنية، حيث نجد ابتداء من سنة 1750م قبائل الدوابر الأكثر قوّةً وتماسكًا تتربّع على أراضي تزيد عن 100.000 هكتار[4].

---

[1]: ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث....، "المرجع السابق"، ص: 106.

[2]: كما هو الشأن بالنسبة لقبيلة أولاد خليف المنتمية لنظام المخزن، إذ كان شيخها يَفرِض على كلّ القبائل الرعية من شعانبة وسعيد عطية والأرباع، وأولاد يعقوب والزرارة وكذلك المخادمية، مبلغًا من المال يُعرف برسم العسة مُقابل اختلافها إلى الأسواق، وتردّدها على المراعي الواقعة تحت تصرّفه. ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث.... "المرجع السابق"، ص: 106.

[3]: عبد القادر جغلول: "المرجع السابق"، ص، ص: 45، 46.

[4]: Walsin Esterhazy : Notice… Op.cit, p : 11.

كما يتبيّن، أنّه من بين الأسباب التي ساعدت على تدعيم امتيازات قبائل المخزن بالبايلك، لا سيما المتعلّق بالانتفاع بالموارد المالية المُستخلصة من مناطق قبائل الرّعية الخاضعة، يَكمُن في أهميّة الأماكن الاستراتيجية والمواقع الحصينة والنّقاط الحيوية المكلّفة بحراستها، والمحافظة على هيبة وسلطة حكم البايلك بها[1]. وعلى كلٍّ فإنّنا نَجِد قبائل المخزن بالبايلك الغربي متمركزةً في الأماكن والنّقاط التّالية: حول الأبراج والحصون التي كانت تُقيم بها الحاميات العثمانية الصغيرة، وفي هذه الحالة كان فرسان القبيلة على أهبة الاستعداد لحمل السلاح وخوض المعارك في حالة ما إذا طلب منهم قائد الحامية ذلك. ضف إلى ذلك تمركزها بالقرب من الخوانق الجبلية والممرات الصعبة، مثل مضايق وادي مينا المراقب من طرف مجموعات مخزن المكاحلية[2]. أمّا القناطر والجسور الهامّة التي كانت تستقرّ حولها مجموعات المخزن بالبايلك، فنذكر منها قنطرة الشلف الكبرى غرب مليانة، ضف إلى ذلك تمركزها بجوار الأسواق الرئيسية منها والفصلية، كسوق عين اللوحة بالقرب من تيارت والمستودعات الرئيسية لتخزين الحبوب وحفظ المحاصيل الزراعية المعروفة بمطامير البايلك، وكذلك الطواحين المائية[3]. وبما أنّ تلك المستودعات والطواحين كانت تقع في الغالب بالقرب من المراكز العسكرية، أو عند مخارج مدن البايلك فإنّ مهام قبائل المخزن كانت منحصرة في مساعدة الجيش الانكشاري على حراستها، والتعرّف على السكّان المختلفين إليها قصد مراقبتهم وفرض الضرائب عليهم[4].

كما تمركزت تلك القبائل عند محطّات القوناق، المُقامة عند نهاية كلّ مرحلة من مراحل المخزن لتكون مأوى لفرق الأوجاق المتوجّهة من الجزائر أو إليها من مركز البايلك الغربي، والحاملة للضرائب السنوية والفصلية المعروفة بالدنوش الصغير والكبير، كما استُخدمت هذه المحطّات لتوقيف حاملي البريد والضرائب للاستراحة من عناء الطريق وأتعاب السفر قبل

[1]: ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث...، "المرجع السابق"، ص: 106.

[2]: ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث....، "المرجع السابق"، ص: 107.

[3]: ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث...، "المرجع السابق"، ص: 108.

[4]: ناصر الدين سعيدوني: دراسات تاريخية في الملكية....، "المرجع السابق"، ص: 299.

مواصلة الطريق، وبالتالي فهي مكان ومأوى آمن تحط به القوافل رحالها دون التعرض لأطماع القبائل المتمردة[1].

وممّا تجدر الإشارة إليه، أنّ قبائل المخزن قد استقرّت أيضًا على مقربة من طرق المواصلات الرئيسية والمسالك المهمة في بايلك الغرب، وبالخصوص تلك الطرق المعروفة آنذاك بالطرق السلطانية[2] والتي كانت تربط بين مراكز البايليكات الثلاث مثل الطريق السلطاني الذي كان يربط وهران بالعاصمة عن طريق هضاب شلف. ومن الملاحظ أنّه إذا تتبّعنا مثلاً الطريق السلطاني الرابط بين الجزائر وكلّ من مدينتي وهران ومعسكر، نجد العديد من قبائل المخزن مستقرّة حوله، فمن الشرق نحو الغرب نَجد على النحو التالي: مخزن بوحلوان بالقرب من مليانة ومخزن بني يحي على وادي الروينة، وزمالة البغدادي على وادي الفضة. كما نجد مجموعتين من قبائل الزمالة عند ملتقى وادي أسلي بالشلف، وهما عزارة وزمالة الحاج، ضف إلى ذلك وجود مجموعتين أخرتين من قبائل الزمالة عند ملتقى وادي مينا بالشلف، هما مخزن الصحاري على وادي الهليل، ثمّ مجموعات الدوابر والزمالة المنتشرة بين وهران ومعسكر[3].

ومقارنة بما سبق، نستنتج أنّ حراسة الطرق السلطانية والطرق الثانوية الرابطة بين مراكز البايليكات الثلاثة، كانت من مهام قبائل المخزن بالبايلك الغربي. إضافة إلى ضرورة استقرارها في المناطق التي كانت تمرّ بها المحلات الفصلية المكلّفة بجمع الضرائب ومعاقبة المتمرّدين، أي بعبارة أخرى ضرورة التّمركز في المواقع الحساسة، والمهدّدة بهجمات الإسبان وغارات المغاربة باستمرار بما فيها السهول الوهرانية، والتي عرفت استقرارا لقبائل

[1]: ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث...، "المرجع السابق"، ص: 108.

[2]: للمزيد من المعلومات عن الطرق السلطانية أنظر: خريطة المواصلات والتقسيم الإداري للجزائر في العهد العثماني. عن ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: الجزائر في التاريخ...، "المرجع السابق".

[3]: ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث....، "المرجع السابق"، ص: ص: 108، 109.

المخزن من زمالة ودوابر على ثلاث فترات متعاقبة، تحكّمت فيها الأوضاع التي عاشها البايلك الغربي[1].

فالفترة الأولى تعود إلى الثلث الأول من القرن السادس عشر، إذ تمكّن أثناءها الأتراك من مصادرة أراضي قبيلة المحال بالسهول الخصبة، الممتدّة من البحر الأبيض المتوسط إلى سفوح الأطلس التلّي، ومن وادي صالادو إلى نهري الشلف ومينا بما في ذلك مدينتي آرزيو ومستغانم. فاستقرّت بذلك مجموعات المخزن في تلك الأراضي المصادرة، وبذلك أمكن التقليل من الخطر الإسباني ووضع حدّ نهائي لمقاومة قبيلة المحال، بإجبار ما تبقّى منها على الانعزال في أراضي مجيرد الواقعة إلى الغرب من نهري الشلف ومينا[2].

أمّا فيما يخصّ الفترة الثانية، والتّي استقرّت فيها قبائل المخزن بسهول بايلك الغرب وبالأخص الوهرانية منها فتمّت مع نهاية القرن الثامن عشر (18م)، بعد أن أعقب ذلك طرد الإسبان من وهران للمرة الأولى سنة 1708م. وتمّ أثناؤها مصادرة أراضي القبائل المساندة لهم من عشائر بني عامر وفليتة عِقابًا لهما على مساندتهما للإسبان[3]، وبذلك استطاع الباي مصطفى بوشلاغم من توظيف قبائل الزمالة والدوابر من جديد في السهول القريبة من مدينة وهران، سعيًا منه للحيلولة دون أيّة محاولة أخرى قد يقوم بها الإسبان أو المغاربة[4].

وزيادة على هذا، فلقد ارتبطت الفترة الثالثة من استقرار قبائل المخزن بقضيّة طرد الإسبان من وهران سنة 1792م، بعد أن بادر الباي محمد بن عثمان الكبير إلى إقرار مجموعات الدوابر والزمالة بالجهات المحيطة بمدينة وهران. وذلك بعد أن أحسّ بالحاجة إلى خلق قوّة محليّة تساعده في صدّ هجمات الدرقاويين ودسائس المغاربة، فضلاً عن أنّ هذه القوة قد تكفل له القضاء على شوكة المتعاونين مع الإسبان من العرب المسلمين من عشائر

[1]: ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث...، "المرجع السابق"، ص: 110.

[2]: Marcel Bodin : L'agrément du… Op.cit, p 261.

[3]: Marcel Bodin : L'agrément du… Op.cit, p 262.

[4]: ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث....، "المرجع السابق"، ص: 110.

حميان وقبائل بني عامر، وفي مقدّمتهم أولاد عبد الله وقيزة المشهورين بإخلاصهم للإسبان[1].

ب. وضعية قبائل المخزن الاجتماعية والآثار التي ترتبت عليها:

لقد كانت قبائل المخزن الوسيلة الفعّالة واليد القوية لبايات المقاطعة الغربية، في فرض نفوذهم بالمنطقة. ومن الملاحظ أنّه إذا أردنا استخلاص الخصائص والصفات الاجتماعية، التي كانت قد اكتسبتها هذه القبائل المخزنية أثناء ممارستها لمهامها الحربية وتمتّعها بامتيازاتها الخاصة وحيازتها لمناطق نفوذ محدّدة، أن نَعرف مبدأ الملكية العقارية[2] وما يتّصل به من نظم في المعاملات وطرق استغلال الأرض، لِما يحدّده من طابع الحياة الريفية والإطار الخاص بها.

وممّا يتبيّن، أنّ الأراضي التّي كانت تستقرّ عليها قبائل المخزن والتي كانت تباشر عليها النشاط الزراعي، والمعروفة باسم المشاتي – جمع مشتى[3] – كانت لا تباع ولا تشترى. وذلك لكونها داخلة ضمن أملاك البايلك، وبالتّالي لم تكن تتمتّع القبائل المخزنية بحقوق الملكية، فكلّ الأمر هو أنّها كانت تقوم باستغلال تلك الأراضي الزراعية مقابل خدمة ومساعدة السلطة المحلية للبايلك، إذ سمح ذلك الوضع القانوني للبايلك بأن يبقى مالكًا للأرض فله الحقّ في طرد تلك العشائر من الأراضي المستقرّة عليها، أو تحويلها من مكان إلى آخر إذا يقتضي الأمر ذلك[4].

---

[1]: Marcel Bodin : L'agrément du… Op.cit, p263.

[2]: الملكية العقارية: أو بالأحرى ملكيات البايلك، وهي الأراضي التي تعود ملكيتها للدولة مباشرة. ويحقّ للحكّام التصرّف فيها وأغلبها تمّ إلحاقه بسجلاّت البايلك، عن طريق المصادرة أو الشّراء، أو عند ترحيل السكان المقيمين بها عند امتناعهم عن المطالب المخزنية، أو عصيانهم أوامر القيّاد ورجال البايلك. كان استغلالها يتمّ مباشرة من طرف الحكّام باستخدام خماسة مزارع البايلك، والمعروفة باسم الرّتب، أمّا كراء هاته الأراضي فأطلق عليه اسم الحكور، وهو يبلغ 12 صاعًا من القمح و12 صاعًا من الشعير، أي حوالي 50 % من إنتاج الأرض. ناصر الدين سعيدوني: دراسات تاريخية في الملكية والوقف....، "المرجع السابق"، ص: ص: 82، 83.

[3]: للمزيد عن أراضي المشاتي أنظر: ناصر الدين سعيدوني: دراسات تاريخية في الملكية والوقف...، "المرجع السابق"، ص، ص: 82، 86. وناصر الدين سعيدوني: دراسات في الملكية العقارية، "المرجع السابق"، ص: 43.

[4]: Rinn Louis : Le royaume d'Alger… Op.cit, p : 129.

وللإبقاء على هذا الوضع كان بايات المقاطعة الغربية يتعاملون مع تلك القبائل المخزنية عن طريق شيوخها وقادة فرسانها، الذين كانوا يستلمون الأرض المخصّصة لرجالهم، ليقوموا بعد ذلك بتوزيع قطع أرض زراعية معيّنة على كلّ فرد من أفراد القبيلة المخزنية كلّ حسب إمكانياته واستعداداته. وذلك بعد أن تترك مساحات كافية للرّعي تكون مشاعة بين أفراد قبيلة المخزن[1]، وبذلك أصبحت أراضي المشاتي المشاع منها للرّعي، والخاص لممارسة الزراعة الفردية لا يخضع لمعاملات الملكية الفردية، بحيث لا يسمح بكرائها أو تأجيرها لأيّ فرد لا ينتسب لقبيلة المخزن المتعاملة مع حكّام البايلك. كما لا يجوز اقتسامها بين الورثة في حالة وفاة الشخص المكلّف باستغلالها، لأنّ ملكيتها تعود إلى البايلك مباشرة[2].

وممّا يلاحظ على هذا التقليد المتّبع بشأن أراضي المخزن، أنّه أصبح قانونًا معمولاً به ومتعارفًا عليه منذ أواخر القرن السادس عشر (16م) وحتّى منتصف القرن الثامن عشر (18م)، بفعل الممارسة العملية. بحيث كان البايات بمقتضى هذا القانون يكتفون في مختلف جهات المقاطعة الغربية، بتسجيل اسم المنتفع من أفراد قبائل المخزن في دفتر المشتى من طرف أحد الكتّاب التابعين لخزناجي البايلك، وذلك بعد ترشيح المنتفع بالأرض من قبل شيخ الدوار أو قائد الفرسان، إذ يعمل هذا الإجراء على تأكيد ارتباط فرسان المخزن بالأرض وضرورة تقديمهم للخدمات بالبايلك الغربي أثناء الحاجة[3].

ولكن ما يلاحظ، هو أنّ الأحوال السياسية والظروف العسكرية التي عرفتها الإيالة الجزائرية عمومًا وبايلك الغرب خصوصًا أواخر الفترة العثمانية، والمتميّزة بانعدام الأمن وكثرة الثورات وانحراف الموظفين، زيادة على سوء الأوضاع الاقتصادية وتردّي القدرات المالية، قد أثّر تأثيرًا كبيرًا على الوضع القانوني لأراضي تلك القبائل المخزنية. حيث كان له

[1]: ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث...، "المرجع السابق"، ص: 114.

[2]: عبد القادر جغلول: "المرجع السابق"، ص: 44.

[3]: ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث...، "المرجع السابق"، ص:114.

دخل كبير في جعل ذلك القانون الخاص باستغلال أراضي المخزن التابعة للبايلك غير مُتّبع منذ منتصف القرن الثامن عشر (18م)، ممّا أدخل عليه بعض التغييرات كانت في صالح قبائل المخزن وعلى حساب امتيازات البايلك الغربي[1].

ونتيجة لهذا التغيير، لم يكن بِوُسع بايات المقاطعة الغربية سوى التّسليم بحقّ الملكية التامة للأراضي التي كانت تُقيم عليها وتتكفّل بحراستها واستغلالها قبائل المخزن، إذ عملوا على إصدار عقود تصبح بمقتضاها تلك الأراضي المستغلة من طرف هاته القبائل مِلكًا لهم[2]، حيث نتج عن ذلك التطوّر في نظام ملكية أراضي المخزن، أن تحوّلت مساحات شاسعة من أراضي البايلك المخصّصة لفرسان المخزن إلى ملكيات خاصة، عندما تمكّنت بعض هاته القبائل من الاستحواذ على الجزء الأكبر من أراضي المشاتي التي كانت تعيش عليها، حيث أصبح في استطاعة هاته القبائل المخزنية أن تمارس حقوق الملكية بأتمّ معنى الكلمة من ميراث وبيع وشراء وغير ذلك[3].

وما يتبيّن ممّا سبق، أنّ تواجد قبائل المخزن بالبايلك قد أثّر تأثيرًا سلبيًا على الزراعة بالأرياف بسبب النشاط العسكري لفرسان المخزن، بحيث أصبحت المهام العسكرية لهؤلاء الفرسان تشكّل عائقًا أمام تطور الإنتاج وتحسين طرق استغلال الأرض. ويَبرز هذا التأثير السلبي على الفلاحة بالخصوص في السهول الوهرانية، التي كانت 78%[4] من مساحتها مخصّصة لعشائر المخزن، والتي ظلّت سيّئة التصرّف ومُهملة تغطّي أغلب جهاتها الحشائش البريّة والأشجار غير المنتجة، ذلك أنّ اهتمام فرسان المخزن المقيمين بها كان مُنصبًّا على الحملات العسكرية والأعمال الحربية التي تدرّ عليهم أسلابًا وغنائم وفيرة[5].

---

[1]: أنظر: حميدة عميراوي: "معاهدة الدوايز والزمالة"، الثقافة، العدد: 88، 1985، ص: 123.

[2]: ناصر الدين سعيدوني: دراسات في الملكية العقارية...، "المرجع السابق"، ص: 43.

[3]: ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث...، "المرجع السابق"، ص، ص: 115، 116.

[4]: ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث....، "المرجع السابق"، ص: 121.

[5]: ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث....، "المرجع السابق"، ص: 121.

وعلى كلّ فإنّه يستنتج ممّا سبق، أنّه من تلك الآثار أيضًا هو التأثير على توزيع الكثافة السكانية بأرياف المقاطعة الغربية، ذلك أنّ استقرار قبائل المخزن بالمناطق السهلية وحيازتها للأراضي الخصبة، تَسبّب في إحداث ضغط على بقية السكان، ممّا اضطرّ الكثير منهم إلى الالتجاء إلى المناطق الجبلية أو السهول المقفرّة، بحيث أصبحت هذه المناطق أكثر سكانًا من السهول الخصبة، رغم كونِها مناطق طاردة للسكان بطبيعتها المناخية القاسية ومنتوجاتها الزراعية الشّحيحة[1].

وزيادة على هذا، فلقد أثّر ذلك على التصنيف الاجتماعي لسكان الريف، بحيث أَمكن تصنيفهم إلى قسم متعامل مع بايات المقاطعة الغربية وهم قبائل المخزن، وإلى قسم آخر خاضع لسلطة البايلك وهم قبائل الرعية، وإلى صنف ثالث ظلّ مُمتنعًا أو مستقلاًّ عن نفوذ وسلطة البايلك المحليّة بفعل انعزاله في المناطق النائية بالجنوب الغربي، أو تحصينه بالجهات الجبلية بالشمال. وعلى ما يبدو أنّ هذا التصنيف لسكان الريف، كان يحمل في طياته علاقة غير متكافئة تمحورت في واقع الصلة بين المخزن والرعية، القائمة على علاقة دفع الضرائب لا غير[2].

وممّا يُستخلص أيضا، أنّه بموجب هذا التصنيف أصبحت قبائل المخزن تعتبر طبقة وسطى في أرياف البايلك الغربي تماثل طبقة الكراغلة بالمدن، وذلك باعتبارها طائفة اجتماعية شدّت الحاكم إلى المحكوم، وخدمت مصالح بايات المقاطعة الغربية على حساب سكّان الأرياف، ممّا جعلها تؤلّف قوّة حربية وعسكرية عازلة لا طبقة اجتماعية رابطة، بل عامل تفرّق وتشتيت لسكان الريف لا وسيلة جمع وتأليف بين سكانه[3].

2/ قبائل الرعية:

---

[1]: عبد القادر جغلول: "المرجع السابق"، ص: 40.

[2]: ناصر الدين سعيوني، المهدي بوعبدلي: الجزائر في التاريخ....، "المرجع السابق"، ص: 110.

[3]: ناصر الدين سعيدوني: دراسات في الملكية العقارية....، "المرجع السابق"، ص: 43.

وهي تلك المجموعات السكانية الخاضعة مباشرة للبايلك، والمقيمة بالدواوير والقرى المنتشرة في الجهات التي تراقبها قبائل المخزن. إذ تعرضت هذه القبائل للاضطهاد والإكراه والاستغلال المستمرّ من طرف موظفي البايلك ورجال المخزن، فاستخلصت منها الضرائب الثقيلة ومُنع عنها الاتصال بالقبائل المعادية للبايلك، كما حُضر عنها شراء البنادق واقتناء البارود[1].

أمّا عن أماكن تمركز قبائل الرعية في بايلك الغرب، فلقد كانت موزّعة عبر كامل مناطق البايلك بما فيها المناطق التليّة والساحلية والسهبية[2]، إذ شكّلت هاته القبائل المضطهدة بالضرائب الثقيلة المورد الرئيسي للبايلك خلال القرن الثامن عشر (18م)، ذلك أمام نقص وغياب مداخيل البحر، إذ توجّه موظّفي البايلك إلى الداخل لتعويض هذه المداخيل فكانت الضرائب هي المصدر الأول في الموارد المالية[3]، وأمام هذا الاضطهاد والاستغلال كانت قبائل الرعية تتمرّد، وغالبًا ما تبنّت الفرق الدينية مطالب القبائل المتمردة. عِلمًا أنّ بايلك الغرب قد عرف فِرقًا دينية وثورات دينية عديدة، خاصة مع نهاية القرن الثامن عشر (18م) ومطلع القرن التاسع عشر (19م)[4].

6)الأطماع الأجنبية بالبايلك الغربي:

إنّ الأطماع الأجنبية التي عرفتها بايلك الغرب، متنوّعة ومتعدّدة على الصعيدين الداخلي والخارجي. إذ تمثّلت على الصعيد الخارجي في الرّغبة التوسّعية لسلاطين المغرب والوجود الإسباني، المتمثّل في احتلال وهران والمرسى الكبير منذ مطلع القرن السادس عشر

---

[1]: ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث....، "المرجع السابق"، ص: 123. للمزيد أنظر: محمد أمين: "ملاحظات حول سياسة التهميش والمهمشين بولاية الجزائر العثمانية"، مجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد: 25، 2002، ص، ص: 16، 21.

[2]: الوليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 31، ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: الجزائر في التاريخ...، "المرجع السابق"، ص: 106.

[3]: مع العلم، بأنّ ما تقدّمه قبائل الرّعية من زكاة وعشور والمساهمات المالية، المتمثلة في الضرائب الثقيلة كان يدفع في شكل مبالغ نقدية، ممّا يضطرّ تلك القبائل إلى بيع محاصيلها بثمن بخس لتحصل على النقود اللازمة لتسديد الضرائب، وهذا ما يزيد في استنزاف مواردها وبجهد طاقتها الإنتاجية، الوليش فتيحة: "المرجع السابق"،ص: 31، ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث...، "المرجع السابق"، ص: 105.

[4]: الوليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 31، ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث...، "المرجع السابق"، ص: 125.

(16م)[1]، حيث قام الكونت بيدرو نافارو (Pedro Navaro)[2] باسم الملك الكاثوليكي الإسباني لإخضاع المنطقة المذكورة. هذا ولقد حاول جُلّ بايات بايلك الغرب، إخراج العناصر الأجنبية وفرض السيطرة على البايلك.

إذ يتبين أنّ تلك الرّغبة، ألا وهي إخراج العنصر الأجنبي قد تجسّدت في موت الباي شعبان الزناقي وهو يحاصر وهران سنة 1696م[3]، أمّا عن أهمّ المحاولات التي انتهت بالنجاح فتمثّلت في الفتح الأول لوهران، والذي تم على يد الباي مصطفى بوشلاغم في مطلع القرن الثامن عشر (18م) أي سنة 1708م. وبالتالي غادرت القوات الإسبانية المنطقة يوم 21 جانفي 1708م من المرسى الكبير باتجاه إسبانيا[4]، فأصبحت بذلك مدينة وهران عاصمة للبايلك، إذ استمرّ الوضع إلى غاية سنة 1732م، حيث عاد الوجود الإسباني إلى المنطقة، وذلك بعد الحملة التي قادها الكونت مونطمار (Le conte de Montemar) مع الجيش الملكي الإسباني، فاحتلّت بذلك وهران للمرّة الثانية يوم 01 جويلية من سنة 1732م والمرسى الكبير يوم 02 جويلية من سنة 1732م[5].

---

[1]: ذلك بعد أن جهّز الإسبان بهما عدّة تحصينات، منها 27 مدفعًا من البرونز و31 مدفعًا من الحديد، وإقامة الأبراج مثل برج القديس جريجوار (برج اليهودي)، وبرج سانتا كروز (برج مرجاجو)، وبرج القديس فيليب (برج العيون أو برج بني زروال)، برج القديس أندري (البرج الجديد)، برج روزا لكزار (البرج الأحمر) للمزيد أنظر: الواليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 33، صالح عباد: "المرجع السابق"، ص، ص: 304، 305.

[2]: بيدرو نافارو (Pedro Navaro): قائد إسباني، كان في ما سبق راهبًا وقرصانًا، ذو أصول قاسكونية، فسميّ بالقاسكوني، قاد عدّة حملات على المرسى الكبير سنة 1505م، ومسرغين سنة 1507م ووهران سنة 1509م وبجاية سنة 1510 وعنابة 1510م. يحي بوعزيز: علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا 1500– 1830، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1980، ص: 17.

[3]: باعتبار أنّ المصادر الإسبانية، قد ذكرت أنّ مركيز سانتا كروز دون ألفا رودي بازان (Don Alpha Rodi Bazan)، قد واجه سنة 1642م حصارًا ضرب على وهران برًّا وبحرًا من طرف الجيش العثماني باء بالفشل، يليه حصار سنة 1656م وحصار سنة 1675م، قام القائد الإسباني دون كاسبار دي قوزمان (Don Caspar Di Kozman) بإحباطهما. الواليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 33، صالح عباد: "المرجع السابق"، ص: 139.

[4]: الواليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 33، الآغا بن عودة المزاري: "المصدر السابق"، ج1، ص: 235.

[5]: وذلك بعد أن أذاع ملك إسبانيا فيليب الخامس منشورًا ملكيًا يوم: 06 يونيو من سنة 1732م، أخذته كلّ مراكز البلاد العربية، وعملت على توزيعه والدعاية له من مقتطفاته: "قضت إرادتنا الملكية ألاّ نترك خارج كنيستنا المقدسة وديانتنا الكاثوليكية، أي جزء من أجزاء الأرض، التي كانت العناية الإلهية قد وضعتها تحت سلطاننا...". الواليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 33، بسام العسلي: الجزائر والحملات الصليبية (1547– 1719م)، بيروت، دار النفائس، 1986، ص: 128.

وممّا يلاحظ، أنّ هذا الوضع قد استمرّ إلى غاية سنة 1792م، حيث عرفت المنطقة في عهد الباي محمد بن عثمان الكبير حدثًا هامًا في تاريخ البايلك والإيالة بصفة عامة. إذ في عهده تمّ الفتح الثاني والنهائي لمدينة وهران، بعد أن وضع حدًّا نهائيًا للوجود الإسباني وإخضاع المنطقة كاملة لسلطته بموجب اتفاقية 12 سبتمبر 1791م[1] بدأ تطبيقها مع مطلع سنة 1792م، والتي نصّت على عقد اتفاق حول السلم وإقامة علاقات تجارية، انتهت بتحول المدينة تحت سلطة الباي محمد الكبير وإنهاء الوجود الإسباني بها الذي دام حوالي 283 سنة على سواحل الإيالة الجزائرية عمومًا والبايلك الغربي خصوصًا[2].

إنّ هذه المحاولات والفتوحات المتكرّرة للمناطق الغربية، توضّح لنا رغبة بايات بايلك الغرب في إخراج العناصر الأجنبية، وفرض السيادة الكاملة على البايلك. إذ اتّصف بايلك الغرب بميزة وطابع عسكري خلافًا للبايليكات الأخرى، وذلك نتيجة للظروف الخاصة المتمثّلة في الوجود الإسباني من جهة، وفتح المجال للقبائل المضطهدة بالتمرّد على بايات المقاطعة الغربية من جهة أخرى.

إضافة إلى الأطماع الإسبانية، فلقد عرف بايلك الغرب هجومات سلاطين المغرب المتتالية خاصة في القرن السّابع عشر (17م) ومطلع القرن الثّامن عشر (18م). منها هجوم سنة 1651م الذي قاده مولاي محمد على منطقة وجدة، حيث وصل إلى غاية مدينة ندرومة فأخضعها لسلطته، لكن الأمر لم يدم طويلاً إذ انسحب بعد ذلك إلى وجدة سنة 1678م[3] ضف إلى ذلك الهجوم الذي قاده مولاي إسماعيل، والذي وصل بفضل الحملة التي قادها إلى غاية الشلف فأراد أن يجعل من وادي التافنة حدودًا له، لكنّه لم يستطع ذلك. كما كان يدّعي أنّه سوف يُنهي الوجود العثماني بالجزائر، ولهذا السبب تمرّدت قبائل البايلك الغربي

[1]: الآغا بن عودة المزاري: "المصدر السابق"، ج1، ص: 260.

[2]: أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص: 457.

[3]: الواليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 34، صالح عباد: "المرجع السابق"، ص: 304.

وتحالفت معه ومنها قبائل بنو عامر[1] والحشم[2] حيث شجّعت نوايا هذا السلطان[3]، وفي هذا المقام يذكر صالح عباد: "حيث واجه العثمانيين تدخلات سلطان المغرب الأقصى في الغرب الجزائري، إذ أنّه بعد أن سيطر سلاطين تافيلالت العلويون على المغرب الأقصى وجّهوا أنظارهم نحو الجزائر، بعد حملة الشريف مولاي محمد سنة 1648م، فلقد جاءت حملة مولاي إسماعيل سنة 1693 م، والتي كان هدفها الاستيلاء على ماشية القبائل، بعد أن جمع مقاتليه في إيزلي بالقرب من وجدة. حيث ذكرت المصادر أنّ مولاي إسماعيل هاجم وهران يوم: 02 جويلية، ثمّ أعاد الكرة يوم 04 فقد العديد من جنوده البالغ عددهم 20 ألف بسبب تفوق المدفعية الإسبانية...."، ضف إلى ذلك، ما ذكره الآغا بن عودة المزاري بقوله: "... ولمّا سمع الشريف سلطان المغرب مولاي إسماعيل بن علي العلاوي يقتل العرب المتنصرة للباي شعبان إستغاظ غيظا شديدا، وجمع جيشا عظيما لا يكاد يسمع بمثله، من أقاصي سوس إلى بني يزناسن، وجاء حاركًا به على وهران سنة اثنا عشر من الثاني عشر، وقيل في أربعة منه..."[4].

ونتيجة لهذا الوضع السائد، والذي تميّز به بايلك الغرب مقارنة بباقي البايليكات الأخرى، عرف هذا البايلك تنافس الأطماع الأجنبية وخاصة الإسبانية منها، والتّي دامت بمنطقة وهران والمرسى الكبير مدّة طويلة منذ مطلع القرن السادس عشر (16م) إلى غاية نهاية القرن الثامن عشر (18م). إضافة إلى ذلك أطماع سلاطين المغرب التوسّعية، هذا الوضع السائد بالبايلك جعل من نظام الحكم السائد مرتبطًا بالدفاع عن المنطقة، ولهذا كان النظام عسكريًا أكثر منه سياسيًا، تجلّى ذلك في التّحالف المستمرّ بين نظام الحكم السائد والقبائل

---

[1]: حنيفي هلايلي: عملاء وجواسيس الإسبان....، "المرجع السابق"، للمزيد أنظر:

Marcel Bodin : L'agrément du lecteur… Op.cit, p : 196.

[2]: الحشم: هم قبيلة عربية الأصل، استقرّت في سهل غريس (الرقعة الجغرافية الممتدّة بين معسكر وسعيدة). ويذكر أنّ قبائل الحشم تفرّقت لتتجمّع في بعض النّقاط مثل: وادي البنيان ونسمط، ووادي العبد وما جاورها. أنظر: الآغا بن عودة المزاري: "المصدر السابق"، ج1، ص:260 .

[3]: الوليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 34.

[4]: الآغا بن عودة المزاري: "المصدر السابق"، ص:261.

المخزنية، حيث كانت هاته القبائل ذات دور هام وفعّال نتيجة للجو السائد على مستوى البايلك الغربي، لا سيما في حواضره الكبرى، وبالخصوص في حاضرتي معسكر ومازونة.[1]

[1]: الواليش فتيحة: "المرجع السابق"، ص: 34.

الفصل الثاني:

حركة الجهاد ضد الإسبان بوهران: الرّباط الأساسي بين السلطة والعلماء

أولا: العلماء المشاركون في الصراع ضد النصارى الإسبان ومنزلتهم العلمية والإجتماعية

ثانيا: أثر العلماء السياسي والعسكري في مواجهة الإسبان

ثالثا: دور العلماء والطلبة في ميدان الجهاد الحربي ضد الإسبان

كانت علاقة العلماء بالعثمانيين قويّة خلال القرن السادس عشر لارتباط الوجود العثماني بالجزائر بالجهاد ضدّ الغزوات الصليبية الأوربية- لا سيما الإسبانية منها- على السواحل الجزائرية، حيث أدّى هذا الوضع إلى حدوث تقارب وتحالف بين الفئتين وذلك لحاجة كلّ طرف للآخر. كما أنّ جهود العلماء مع الجيوش النّظامية العثمانية إذا نُظر إليها نظرة شمولية أكبر من أن تُفسّر، وأطول من أن تُستوعب، فشطر منها صريح في كونه موجّهًا نحو ذلك الميدان، كدعوة الحكام إلى الجهاد لمجابهة الأعداء النصارى، والتّحريض على قتالهم، وجهادهم بالأنفس والأموال، والإنبراء لحملاتهم الفكرية المناهضة للإسلام، والتّصدّي لما تسلّل إلى المجتمع الإسلامي من عاداتهم وتقاليدهم إلى غير ذلك[1]. وشطر آخر من تلك الجهود لم يُوجّه أصلا صوب ذلك الميدان، بيد أنّ لها من الآثار القريبة والبعيدة المنعكسة عليه ما لا يمكن أن يُنكر، فكلّ من يُقاوم الجهل المتفشي بين أفراد الأمة، أو يَبُثّ العلم والمعرفة في مختلف فئاتها، أو يسعى لرفع الوعي بين خاصتها وعامتها، أو يجتهد في تحصينها كلّ هذه الجهود وما شاكلها وإن لم يُصرّح بأنّها موجّهة ضدّ الإسبان، فإنّها في الحقيقة دعم لكيان سكان مدينة وهران المستهدفة من جانب النصارى، فهي بهذا المفهوم تَصُبّ في النهاية في ميدان الصراع مع الإسبان.

وهذه الدراسة ستركّز على الجانب الظاهر من مواجهة العلماء للإسبان خلال الفتح الأول والثاني لمدينة وهران، حيث أنّ جمهرة كبيرة منهم شاركت في تلك المواجهة بنشاطات ملموسة، وإسهامات مجدية، وجهود مؤثرة سواء كان ذلك في المجال السياسي أو العسكري أو الفكري. وقد تنوعت مشارب أولئك العلماء واتّجاهاتهم، فكان فيهم المقرئون والمفسّرون والفقهاء والمحدّثون، وعلماء اللغة والأدباء والشعراء والخطباء وأئمة المساجد، والعبّاد والزّهاد، وقد كانوا من بقاع متفرّقة من الناحية الغربية.

كما أنّها سوف تهتّم بإلقاء الضّوء على عدّة محاور أهمّها أثر العلم وصحبة العلماء البارزين والمخلصين في تشكيل القيادات السياسية البارزة، ومدى عمق العلاقة والاحترام المتبادل بين البايات وبين العلماء. وأثر ذلك في تحصيل الثّمرة الطيّبة التي اشتهر بها الباي

[1]: عبد القادر فكاير: "دور العلماء والرباطات في مواجهة العدوان الإسباني على الجزائر". مجلة المواقف: مجلة الدراسات والبحوث في المجتمع والتاريخ، تصدر عن منشورات المركز الجامعي مصطفى إسطمبولي معسكر، عدد خاص بفعاليات الملتقى الدولي الأول حول: الظاهرة الدينية: قراءات جديدة من منظور العلوم الاجتماعية والإنسانية، أيام 14 و15و 16 أفريل 2008، ص-ص: 285-286.

محمد الكبير وهي فتح وهران ابتداءًا من دور العلماء في تحفيز الباي على القيام بالمحاولة ومرورا بعمليات الاستعداد والإعداد المعنوي والمادي للمعركة وانتهاءًا بدور العلماء المميّز في مسار عمليات الفتح الميدانية.

أولا: العلماء المشاركون في الصراع ضد النصارى الإسبان ومنزلتهم العلمية والاجتماعية.

1: مشاهير العلماء المشاركين في ميدان الصراع مع الإسبان:

إنّ طائفة من العلماء المسهمين في ميدان الصراع ضدّ الإسبان بوهران يُعَدّون من الأعلام المرموقين، ومن رجال الفكر المشهورين كمحمد بن عبد الله الجيلالي، مصطفى الرماصي، الطاهر بن حواء، أبو طالب محمد بن علي الشارف المازوني، محمد الحلفاوي والشيخ هني، ولذا فكتب التراجم احتفت بهم، فوصفت حياتهم ودوّنت أخبارهم ورصدت تحركاتهم، وحيث أنّ هؤلاء سَيَرد ذكرهم في كثير من زوايا الدراسة، فمن المناسب التّعرّف على أبرز معالم حياتهم، وأهمّ ملامح شخصياتهم.

1ـــ1 مصطفى الرماصي: "الذي كان من المجاهدين في سبيل الله ضد النصارى"، وهو أحد علماء الوطن الغريسي الراشدي ممّن تخرّجوا من مدرسة مازونة الفقهية[1]. أمّا عن اسمه ونسبه فهو مصطفى بن عبد الله بن موسى بن محمد بن عبد المؤمن الرماصي، كان يُدعى عند بعضهم بأبي عبد الله محمد بدل من مصطفى. ولد بقرية رماصة[2] أين تضلّع في علم الفقه حتى أعتُبر من أشهر فقهاء المالكية بدليل ما وُصِف به من طرف الشيخ عبد الرحمن الجامعي الفاسي[3] قائلا: "حامل راية الفقه المالكي في عصره ومصره...."[1].

---

[1]: مدرسة مازونة الفقهية: هي أحد معاهد العلم والثقافة بمازونة اشتهرت بالحديث وعلم الكلام وخاصة الفقه حتى قيل: "مازونة بلد الفقه بالقطر الجزائري"، أسّسها الشيخ سيدي محمد بن الشارف المازوني في سنة 1029هـ/ 1619م، ودرّس بها نحو 64 سنة وعنه تخرّج الحافظ مصطفى الرماصي. للمزيد عن هذا الموضوع يرجى العودة إلى: بوكفة يوسف: مدرسة مازونة الفقهية: النهضة والسقوط، رسالة ماجستير في علم الاجتماع، جامعة وهران، 2002- 2003، ص: 29.

[2]: رماصة: قرية صغيرة من قرى الوطن الغريسي الراشدي المعسكري تقع بالقرب من القلعة، أسّس بها مصطفى الرماصي زاوية لنشر العلوم الدينية بعد رجوعه من مصر. بوجلال قدور: العلم والعلماء في بايلك الغرب، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة معسكر، 2008-2009، ص: 232.

[3]: عبد الرحمن الجامعي: 1087- 1144هـ/ 1676- 1731م، هو أديب وعلامة قرأ بفاس ثم رحل بعدها إلى تونس ليعمل مدرسا في الزيتونة، مدحه العديد من العلماء الجزائريين أمثال محمد بن ميمون في كتابه التحفة المرضية، للمزيد ينظر: حسين خوجة: ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، تحقيق: الطاهر المعموري، ليبيا- تونس: الدار العربية

ورغبة منه في طلب العلم قصَد مدينة معسكر فسمع من كبار علمائها أمثال الشيخ عمرو التراري المشرفي المعسكري[2]، ثم رحل إلى مازونة أين أخذ علوم اللغة والدين بدراسته للفقه والعلوم الدينية الأخرى فتخرّج بذلك من مدرستها الشهيرة –مدرسة مازونة الفقهية–. وقد أورد أبو القاسم الحفناوي حديثًا عن الرماصي أشار فيه إلى دوافع رحلته إلى مازونة بقوله: "ومنها يُناسب ما حكاه لي محمد أبو راس –مفتي ديار مازونة الآن– أنه سمع من جده سيدي أحمد هني: أنّ الشيخ مصطفى الرماصي وسيدي عمر بن دوبة وسيدي العربي بن الحطاب كانوا مسافرين إلى مازونة لقراءة الفقه على أحد الشيوخ من أسلافهم الأقدمين...فذات يوم أذن لهم الشيخ في الانصراف وأمر كلّا بالرجوع إلى وطنه"[3].

ولما صار عمره حوالي ستة وعشرين عاما انتقل إلى القاهرة – مصر– لمواصلة دراسته، واستفاد من أكابر علمائها وأئمّتها كالشيخ الخرشي وعبد الباقي الزرقاني ذكرهما الرماصي في بعض أجوبته لأحد تلامذته بقوله: "وأراك أيها السائل تحتفل بكلام عبد الباقي الزرقاني وذلك بمعزل عن التحقيق لأنّ شرحه وشرح الخرشي لا نكترث بهما في بلادنا الراشدية لعدم تحقيقهما، وعمدتهما كلام على الأجهوري وهو كثير الخطأ..."[4].

وممّا لا شكّ فيه أنّ مستوى الفكر الفقهي بالبايلك الغربي قد كان معمّقًا جدّا بدليل ما ألّفه مصطفى الرماصي من رسائل أحصى فيها أخطاء الخرشي في شرحه على مختصر الشيخ خليل، فتبوّأت بذلك حاضرتي معسكر ومازونة مكانة في الفقه المالكي وفي العقائد، الأمر الذي أحدث مزاحمة علمية وفكرية بين علماء الراشدية وفقهاء تلمسان، حيث انتصر علماء تلمسان للخرشي لما حمله الفقيه مصطفى الرماصي على الخرشي بما تقدّم ذكره،

= للكتاب، 1975، ص: 254. وأيضا: الجيلالي سلطاني: "قراءة في أرجوزة الحلفاوي في فتح وهران من خلال مخطوط شرح الجامعي للأرجوزة"، المجلة الجزائرية للمخطوطات، العدد: الثاني والثالث، 2004–2005، ص– ص: 36– 37.

[1]: عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، بيروت، مؤسسة نويهض للتأليف والترجمة والنشر، 1980، ص: 152.

[2]: عمرو التراري المشرفي المعسكري: من علماء معسكر وسهل غريس وهو أستاذ وشيخ مصطفى الرماصي بزاوية الكرط، كان قاضي القضاة وشيخ الجماعة، يرجع نسبه إلى عائلة المشارف، تاريخ ازدياده ووفاته مجهولان، غير أنّ كلّ القرائن تدلّ على أنّه عاش في حدود أواخر القرن الحادي عشر الهجري وبداية القرن الثاني عشر (17ــ 18م). ينظر: الزاوي الجيلالي والمشرفي عبد الكريم: "نافذة على بعض علماء معسكر: رثاء الشيخ مصطفى الرماصي لشيخه عمرو التراري المشرفي"، المجلة الجزائرية للمخطوطات، العدد: الثاني والثالث، 2004– 2005، ص: 90.

[3]: نقلا عن: بوجلال قدور: العلم والعلماء.... "المرجع السابق"، ص: 237.

[4]: ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي: الجزائر في التاريخ... "المرجع السابق"، ص: 169.

فكان على رأسهم الفقيه الشيخ محمد بن عبد الرحمن البيدري[1] قاضي تلمسان الذي تصدى لشرح الخرشي، فتعرّض في تقديمه إلى ما قرض بعض علماء تلمسان من شرح الخرشي أمثال الشيخ أبو عبد الله بن عزوز الشريف التلمساني الذي قال في الشيخ الخرشي شعرا ردًّا على مصطفى الرماصي من أبياته:

حَمَدْتُ اللهَ حَمْـدًا نَوَاشِـــــي بِنِعْمَتِهِ عَلَيْنَا بالخَرَاشِـــــي
فَاقَ مَنْ فِي العُمْـرِ عِلْمًـــــا وَنَقْلًا لاَ تَقِلُّ مِثْلُ الحَوَاشِـي
لَقَدْ شَرَحَ الغَوَامِضَ مِنْ فـُروعٍ وَحَلَّ بَصِيرَةً عَشِيًّا لِعَاشِـــي
فَثِقْ بِقَولِهِ يُغنِيـكَ عَمَّـــــا تَرَاهُ مِنَ الشُّروحِ فَقِيهَ نَاشِي[2]

ثم قال الشيخ البيدري:

أَتَانَا العِلْمَ مَنْ أَتَى الخَرَاشِـي قِيَمُنَا للشُّروحِ في التَّحَاشِي
حَواشِي للقَوْمِ عِندَهُمْ تَلاَشَتْ وَحَوَى مِنْ تَحقِيقِه التَّحَاشِي
كِتَابٌ عَالٍ قَالَ لاَ يـــُـرَامُ بِكُتُبٍ لاَ ولاَ حُمرَ الحَواشِي
مَحاسِنُهُ بِرَوْضِ الحَسَنِ حَلَّتْ وَلَمْ يَضُرّهُ شَيئًا وشَيءَ وَاشِي
تَولَّى عَنْ تَوالِيفَ شَتَّى حَتَّى تَوالَتْ للتَّقَاعُسِ مِنْ تحَاشِي[3]

ولقد برع الشيخ مصطفى الرماصي بالحديث وعلومه، وكان بجانب ذلك عالما بالقراءات، إماما بالفقه، لديه معرفة بالأدب. كما اشتهر بالفتوى والتحقيق على غرار التأليف، فهو لا يَقلّ ورعًا وعلمًا عن سعيد قدورة حتّى وإن لم يبلغ شهرته كما كتب عنه أبو القاسم سعد الله[4]. حيث كان الشيخ الرماصي من المهتمّين بعلم الكلام بل من الذين حثّوا معاصريهم على تعلّمه مُعرّفًا علم الكلام كالآتي: "علم الكلام أوثق العلوم دليلا وأوضحها

---

[1]: محمد بن عبد الرحمن البيدري: أحد علماء تلمسان المهاجرين إلى المشرق بعد تصدّيهم للتدريس بها مدة طويلة، ذكر عنه تلميذه أبو راس الناصر حديثًا مفاده أنّه نبذ تلمسان نبذًا كليًّا ولحق بالحرمين الشريفين عندما عُزل عن المناصب التي كان يتولاّها ومن بينها القضاء. ينظر: أبو راس الناصر: فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته: حياة أبي راس الذاتية والعلمية. حقّقه وضبطه وعلّق عليه: محمد بن عبد الكريم الجزائري. الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990، ص: 49.

[2]: ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي: الجزائر في التاريخ... "المرجع السابق"، ص: 170.

[3]: "المرجع نفسه"، ص: 170.

[4]: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي: من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16- 20م)، ج2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،1981، ص: 96.

سبيلا وأرشفها فوائد وأنجحها مقاصد، إذ به تعرف ذات الحق صفاته ويصرف عنه ما يليق به ولا تقبله ذاته"[1]. وعلى ما يبدوا أنّ مكانة الرماصي هذه لم تكن ترتبط ببراعته فحسب بل إلى تعزيز العثمانيين للمذهب المالكي بالمذهب الحنفي واعتماد هذا الأخير كمذهب رسمي للدولة.

هذا وظلّ موضوع الجهاد ضدّ النصارى الإسبان الشّغل الشّاغل للعلماء الجزائريين، فشاركوا بأنفسهم في حركة الجهاد وخاضوا المعارك وألّفوا الكتب ونظّموا الأشعار لإلهاب الحماس والتّحضير للمقاومة، بل وكوّنوا رباطا لهم قرب وهران دُعي برباط الطلبة يقيمون به ويشنّون الحروب على المحتلين الإسبان. ولعلّ من أبرز العلماء المدرّسين بالرباط الشيخ مصطفى الرماصي المعروف بتبحّره في الفقه المالكي داخل الجزائر وخارجها، فكان بذلك مرجع الفتوى في عصره[2].

وعلى ما يبدوا أنّ الرماصي قد تصدّى للتدريس بمعسكر وبقمم جبال الراشدية أثناء الفتح الأول لوهران سنة 1119هـ/ 1707-1708م، وهناك اجتمع به الرحالة المغربي عبد الرحمن الجامعي فذكره في شرحه على أرجوزة الحلفاوي بقوله: "كنت وفدت على العالم الراوية النقاد منهل العلم الأصفى أبي عبد الله سيدي محمد المصطفى الرماصي، فوجدته يسكن بأهله بيوت الشعر قرب غابة في رأس الجبل يأوي إليهم ليلا ويظل بالنهار في داره ومسجده يطالع كتبه ويقرئ طلبته، فسألته عن ذلك فقال: كنا على هذه الحالة على عهد الإسبانيين خوفا منهم، فإننا كنا لا نأمن في الدور من أن يصلونا ليلا فخرجنا لبيوت الشعر ليسهل علينا الفرار لغاية الجبل"[3].

ومن جملة تلامذة الرماصي الشيخ محمد بن علي الشريف الجعدي الجزائري[4] الذي قرأ عليه "الألفية بالمرادي" و"جمل المجرادي" و"صغرى السنوسي" بشرح مؤلفها و"حاشية

---

[1]: بوجلال قدور: العلم والعلماء... "المرجع السابق"، ص: 241.

[2]: عبد القادر فكاير: دور العلماء والرباطات... "المرجع السابق"، ص: 288.

[3]: أحمد ابن سحنون الراشدي: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم: المهدي البوعبدلي، الجزائر، مطبعة البعث، 1973، ص-ص: 30-31. (من مقدمة المحقق).

[4]: محمد الجعدي: هو محمد بن علي الشريف الجعدي عرف بالجزائري نسبة إلى مدينة الجزائر، كانت قراءته على الشيخ مصطفى الرماصي بوطن الراشدية بعد فتح وهران وذلك أثناء رحلة الجعدي إلى فاس الذي كان موجودا بها في حدود سنة 1133هـ/ 1720م حيث أجازه شيخه مصطفى الرماصي بعدما قرأ عليه لامية الجمل لمحمد بن محمد بن محمد بن عمران

الرماصي" عليها وبعض من صحيح البخاري، فأجازه فيما قرأه عليه ومما ورد في إجازته له قوله: "أجزته في جميع مروياتي فيما أجازني فيه أشياخي منهم باللسان ومنهم بالبنان[1] من توحيد وفقه وحديث ونحو ولغة وبيان معان ومنطق وقراءات... وأكثر قراءاتي في العقائد السنوسية على الشيخ المحقق الولي الصالح سيدي محمد بن علي بن الخروبي القلعي، أما البخاري فأخذته عن سيدي محمد بن الشارف المازوني وبعضه عن سيدي عبد الرحمن أبي زيد الراشدي...."[2].

ومع غلبة علم الظاهر على الرماصي فقد كان من العلماء المتصوفة، ولهذا أجاز لتلميذه المذكور أيضا إجازة صوفية، مما ورد فيها قوله: "...وبعد فيقول عبيد الله سبحانه وتعالى محمد بن عبد الله بن مؤمن الرماصي، قد طلب مني ولدي سيدي محمد بن علي الدخول في سلسلتنا في العبادة وأخذ الخرقة فأسعفته في ذلك..."[3].

إلى أن قال: "وقد أخذت الطريقة عن الشيخ القطب الرباني سيدي محمد الصحراوي نزيل قلعة مأمون ببلاد منداس"[4]. ثم بيّن ما على المجاز له من صلاة وصيام وأذكار وفقًا للطريقة التي أجازه بها[5].

أمّا عن أثاره فلقد ترك مصطفى الرماصي تآليف بديعة غزيرة المنال لازال الأفاضل يقتنوها مستصغرين فيها نفائس الأموال على حد قول أبو القاسم الحفناوي منها: شرحه على متن السنوسية الذي أشبع فيه الكلام على ما يتعلّق بالبسملة والحمدلة، وكفاية المريد على شرح عقيدة التوحيد فرغ منه سنة 1124هـ/ 1712م[6]. وحاشيته على شرح شمس الدين عامر بن ضرب العدواني التتائي على متن أبي الضياء سيدي الخليل في فقه مذهب مالك بن

الفزازي السلاوي المعروف بالمجرادي (ت: 778هـ/ 1376م). ينظر: لزغم فوزية: الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية 924- 1245هـ/ 1518- 1830م، رسالة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران 2005-2006، ص: 75.

[1]: البنان: الأصابع ومفردها البنانة وهي الإصبع كلها، ينظر: ابن منظور: لسان العرب المحيط، تقديم: عبد الله الفيلالي، تركيب: يوسف الخياط، بيروت، دار الجيل- دار لسان العرب، 1988/ ج13 (ن- هـ)، ص-ص: 59-60.

[2]: أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج 2، الجزائر، دار موفم للنشر، 1991، ص: 541.

[3]: "المرجع نفسه"، ص: 451.

[4]: "المرجع نفسه"، ص: 452.

[5]: لزغم فوزية: الإجازات العلمية... "المرجع السابق"، ص: 76.

[6]: عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر... "المرجع السابق"، ص: 152.

أنس رضي الله عنه، قال مصطفى الرماصي في طالعتها بعد البسملة والصلاة وتعريفه بنفسه ما يلي: "... لما كان علم الفقه أفضل العلوم بعد كتاب الله وسنة رسول الله إذ به تعرف الأحكام ويتميّز الحلال من الحرام...."[1].

وممّا لا شكّ فيه أنّ الشيخ مصطفى الرماصي قد أفنى حياته في طلب العلم والتدريس والجهاد والإفتاء، بل وحتّى التأليف في الميدان الفقهي بمستوى فكر فقهي معمّق غير سطحي، اعترف به العديد من علماء المشرق والمغرب العربي. فأسس زاوية له بمسقط رأسه رماصة اعتُبرت من أهم معاهد دراسة الفقه والعلوم الدينية بالبايلك الغربي، ليزاول بها تدريسه للعلماء والطلبة إلى أن وافته المنية سنة 1136هـ/ 1724م[2].

1-2: عبد القادر المشرفي: العالم الكبير الفقيه الذي ركض في ميدان الجهاد والتحق برباط وهران وشارك في حرب الإسبان وشهد التحرير الأول لها سنة 1119هـ/ 1708م بقيادة الباي مصطفى بوشلاغم[3]. أمّا عن اسمه ونسبه فهو أبو المكارم عبد القادر بن عبد الله بن محمد بن أحمد أبي جلال المشرفي الغريسي المعسكري المعروف بـ: بن عبد الله ويعرف أيضا بـ: سقط[4] وكان يُدعى شيخ الجماعة، وإمام الراشدية، ولد ونشأ في قرية الكرط التي التي تبعد بستة كيلومترات فقط عن مدينة معسكر، يرجع نسبه إلى أسرة المشارف ذات الأصول الوثيقة بالعرهوبيين[5] أبناء مَشْرَفْ بن عبد الرحمن بن مسعود وأسرة المشارف إدريسية النسب من الفرع الحسني حسب أبو حامد المشرفي[6].

---

[1]: أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف..ج2، "المرجع السابق"، ص: 443.

[2]: بوجلال قدور: العلم والعلماء... "المرجع السابق"، ص: 243.

[3]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص-ص: 33-34. (من مقدمة المحقق).

[4]: يذكر عبد الحي بن عبد الكريم الكتاني أنه لُقّب بهذا الاسم لضرب سبع له وهو راكب على فرس مجروحا، وأخبره بذلك بذلك فقيه المشرفين أبو عبد الله محمد بن عبد الله. راجع: عبد الحي بن عبد الكريم الكتاني: فهرس الفهارس والأثبات والمعاجم والمشيخات والمسلسلات، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1982، ج1، ص:577.

[5]: العرهوبيون: وهم حفدة العربي المدعو عرهب دفين تادلة من شرفاء فجيج بن محمد يعقوب الجد الجامع للشرفاء العرهبيين والعفيفيين واليعقوبيين والمغراويين، دفين جبل الدبس قرب مدينة معسكر بن عبد الله بن أبي عمران موسى... إلى إدريس الأكبر. ينظر: عبد الحق شرف: العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي ت 1895م: حياته وآثاره، مذكرة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران 2006-2007، ص: 59.

[6]: أبو حامد العربي المشرفي: ياقوتة النسب الوهاجة وفي ضمنها التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة، دراسة وتحقيق: بن عمر حمدادو والعربي بوعمامة، الجزائر، دار قرطبة للنشر والتوزيع، 2011، ص-ص: 291- 292.

نشأ الشيخ عبد القادر المشرفي بإقليم الراشدية أين تلقّى تعليمًا وتكوينا فقهيا وأدبيا تماشيا وشروط الفقيه العالم، حيث كان كثير التنقل بين أهم المراكز العلمية في القطر الجزائري فقرأ على شيوخ كثيرين أمثال العلامة الجزائري محمد المنور التلمساني[1]. كما أخذ عن علماء المشرق والمغرب فأجازوه ولعلّ من بينهم الشيخ محمد بن محمد بن عربي البناني المكي والشيخ محمد بن محمد شهاب الدين الأنصاري المدني ومحمد بن حسن الميقاتي الإسكندري، والشيخ مفتاح الدين أبي حسام الدين البخاري وغيرهم من علماء عصره[2].

هذا وقد حظي الشيخ عبد القادر المشرفي باحترام الجميع، حيث كانت له مكانة مرموقة بين معاصريه من العلماء والفقهاء بعد أن اشتغل بالتدريس في معهد الشيخ محي الدين في زاوية القيطنة بواد الحمام فأصبح من الأساتذة المبرزين، وذلك ما يؤكّده كثرة طلبته إذ وصفه تلميذه الشيخ أبو راس بقوله: "انتفع به خلق كثير شريعة وحقيقة.... له دروس حسنة بسلس عبارة وألطف إشارة"[3]. وعند بلوغه مستوى من العلم والمعرفة أسّس لنفسه زاوية دينية ومعهدا علميا بمسقط رأسه الكرط[4] أصبح في مستوى زاوية معهد القيطنة فكان مواظبا على بث العلم لدرجة أن قال فيه أبو حامد المشرفي: "... فلا تخلوا زاويته من مائتي طالب في بعض الأوقات..."[5]، فتخرّج عليه عدد كبير من الطلبة من أشهرهم الشيخ أبي راس الذي يذهب إلى أنّ شيخه المشرفي: "أتقن علوما جمة وبرع فيها... وأقرّ له كلّ من رآه بالبراعة والكفاية"[6]. كما كان متضلّعا في علم الأصول والفروع بدليل ما ذكره أبو حامد المشرفي:" فقد كان في علم الأصول والفروع بحر لا يجارى"[7].

ويبدوا أنّ عبد القادر المشرفي الذي اشتهر بين جماعته بغزارة العلم الشرعي وسمعته الطيبة فضلا عن تديّنه وعدله، قد كان قبلة لاحتكام الخصوم إليه من خلال توسّطه في بعض

---

[1]: أبو راس الناصر: فتح الإله... "المصدر السابق"، ص: 53.

[2]: ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1999، ص: 412.

[3]: أبو راس الناصر: فتح الإله... "المصدر السابق"، ص: 53.

[4]: يحي بوعزيز: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1995، ج2، ص: 231.

[5]: أبو حامد المشرفي: ياقوتة النسب.... "المصدر السابق"، ص: 292.

[6]: أبو راس الناصر: فتح الإله... "المصدر السابق"، ص: 53.

[7]: أبو حامد المشرفي: ياقوتة النسب.... "المصدر السابق"، ص: 292.

القضايا المختلفة بين الكراغلة وبين عرب المنطقة وتصدّيه لبعض النّزاعات التي يصعب حلّها[1]. كما كانت تلجأ إليه جلّ فئات المجتمع المعسكري لتستفتيه وتُحكّمه فيما ينشب بينها من خلافات اجتماعية وتستفتيه في قضايا دينية كالزواج والبيع والشراء، باعتباره كان أحد أفراد المجتمع ظلّ يحسّ بما يحس به مجتمعه ويتأثر بما يتأثر به محيطه فكانت معاملته اتجاه فئات المجتمع المعسكري وثيقة جدا تمثلت في غالب الأحيان في حسن المعاملة، حيث جاء على لسان تلميذه أبو راس: "يخضعون له القضاة وسائر الولاة ويهابونه ويرجعون إليه ودأبهم تعويلهم عليه في مهمّات الدين"[2]. وظل يؤدي مهمته العلمية من إسماع للطلاب المتكاثرين على دروسه إلى أن توفي سنة 1192هـ/ 1778م[3].

أمّا بالنسبة لتآليفه وأعماله فقد ترك عبد القادر المشرفي رسالته المسماة :"بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر"، كما وضع نظما سماه: "عقد الجمان الملتقط من قعر قاموس الحقيقة الوسط" شرحه ابنه محمد الطاهر المشرفي. وفي الرسالة الأولى التي انتهى من وضعها ما بين سنتي 1764- 1765م[4] ندّد فيها عبد القادر المشرفي بالقبائل التي تعاونت مع الإسبان أثناء احتلالهم لوهران فاستعرض العناصر التالية:

1. ذكر الإسبان ومواطنهم وأصلهم.
2. ذكر قبائل بني عامر وأصلهم وموطنهم وأعمالهم تجاه سكان مدينة وهران طيلة استيلاء الإسبان على المدينة وهم على التوالي: كرشتل، شافع، حميان، غمرة، قيزة، أولاد عبد الله، أولاد علي والونازرة، والتي اعتبرها عبد القادر المشرفي بمثابة الجواسيس والعملاء لصالح الإسبان.

---

[1]: بوجلال قدور: العلم والعلماء.... "المرجع السابق"، ص: 164. للمزيد ينظر: عبد الحق شرف: "صورة الأسرة المشرفية بمنطقة معسكر في كتابات يحي بوعزيز"، ضمن مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، العدد: 01، جوان 2011، ص: 135.

[2]: أبو راس الناصر: فتح الإله... "المصدر السابق"، ص :53.

[3]: محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران... "المصدر السابق"، ص: 198.

[4]: ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...."المرجع السابق"، ص-ص: 412-413.

3. الحكم الشرعي بالنسبة لمن وقف من بني عامر بجانب الإسبان وبقي متعاونا معهم، أو تاب توبة نصوحا وندم على ما بدر منه[1].

ومن حيث التناول ومعالجة المعلومات وعرض الأحداث، فلقد قام عبد القادر المشرفي بتقديم عرض عام حول القبائل التي تعاونت مع الإسبان بذكره لنسبها والمجال الجغرافي الذي تسكنه وتقديره لسكانها بعدد القرى ووصفه لأخلاق بعض العشائر المتعاونة مع الإسبان والدوافع التي شجّعتهم على التعامل مع الحامية الإسبانية بوهران، والتي حصرها في رغبتهم بالاستفادة من الحماية والامتيازات والإغراءات المادية وضعف الإيمان لديهم مما جعلهم يقبلون بمهادنتهم والعمل عندهم كجواسيس وعملاء ضد المسلمين[2]. وبالتالي جاءت هذه الرسالة في طابع ديني تحت غطاء الترهيب، حيث وصف الشيخ المتعاونين مع الإسبان بالعرب المتنصرة وبالفرقة الضالة والكفار المنافقين والمرتدين والفاسقين والزنادقة وعبدة الأصنام والأوثان[3].

وعلى العموم نستنتج أنّ رسالة بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر هي باختصار تشنيع على من كان يتعاون من المسلمين في بايلك الغرب مع المحتلين الإسبان وحث المسلمين على الاحتراس منهم، حيث وجّه عبد القادر المشرفي في عرضه هذا رسالة إلى الجزائريين من أجل الاستعداد لفتح وهران ولعلّ ذلك هو مقصده من تأليفه لرسالة بهجة الناظر بل وحتى تهيئة المسلمين نفسيا لفتح وهران للمرة الثانية بعد أن تألّم كثيرا لسقوطها الثاني بيد الإسبان سنة 1732م، خصوصا وأنه قد شارك وساهم في الجهاد أثناء تحريرها الأول سنة 1708م.

1-3: محمد بن عبد الله الجيلالي: الذي كانت له مساع متميزة في الحفاظ على الوفاق بين طلبة العلم المرابطين بجبل المائدة المطل على وهران للوقوف صفّا متراصا في وجه الكفرة

---

[1]: عبد القادر المشرفي: بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تحقيق وتقديم: محمد بن عبد الكريم، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، د.ت، ص-ص: 05- 06. (من مقدمة المحقق).

[2]: حنيفي هلايلي: "عملاء وجواسيس الإسبان في بايلك الغرب على ضوء كتاب بهجة الناظر". مجلة الحوار الفكري، جامعة قسنطينة، العدد: 07، ذي القعدة 1426هـ- ديسمبر 2005، ص-ص: 144- 146.

[3]: عبد القادر المشرفي: بهجة الناظر...."المصدر السابق"، ص: 12.

الإسبان، كما كان له الأثر الأكبر في تحريض الطلبة على القتال مبيّنا لهم فضل الجهاد[1]. أما عن اسمه ونسبه فهو محمد بن عبد الله بن موفق بوجلال أحد أحفاد الولي الصالح سيدي محمد بوجلال الذي يتوسط ضريحه مدينة معسكر، يرجع نسبه إلى السيدة فاطمة الزهراء ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم. ولد في معسكر، وكان من أبرز شيوخها حيث برع في العلوم الشرعية والأدب، كما أخذ عن علماء فاس وعلماء الحجاز عند أدائه لفريضة الحج، ثم عاد إلى بلده معسكر فدرّس بها فاكتسب قدرا وجاها كبيرا[2].

نال محمد بن عبد الله الجيلالي علما واسعا في كثير من العلوم المعروفة في زمنه وقد غلبت عليه الدراسة أكثر من الرواية، فصار "فقيها عالما حافظا للفقه، عارفا بالفتوى على مذهب مالك وأصحابه، بصيرا بأقوالهم واتفاقهم واختلافهم، نافذا في علم الفرائض والأصول". كما أصبح بجانب ذلك ذا تفوق بالحديث والتوحيد والمنطق ومعرفة باللغة والبلاغة والنحو، ومشاركة بالتفسير والتاريخ، حيث ابتدأ التدريس وشيوخه مازالوا على قيد الحياة –لا سيما شيخه سيدي بن يخلف– فاجتهد بالتعليم، وبذل عطاءا مضاعفا في بثّ علمه الذي يحمله، فقصده الطلبة من كلّ ناحية وتكاثروا حوله[3].

ولحسن تدريسه وسعة علمه وتربيته ومكانته العلمية في الفقه والحديث، عيّنه باي معسكر محمد الكبير رئيسا لمجلس الشورى ببلاطه ومديرا على المدرسة المحمدية التي كانت تضاهي المدارس الإسلامية الكبيرة من حيث نوعية الدروس المقدمة، ولما عزم الباي محمد الكبير على طرد الإسبان من وهران فكّر في إحياء الرباط بجبل المائدة فوقع اختياره على مدير المدرسة محمد بن عبد الله الجيلالي رئيسا وأميرا على الطلبة المرابطين في أواخر ربيع الأول 1205هـ ما يوافق بداية شهر ديسمبر 1790م. وعيّن له مساعدين ومنع الناس من التدريس في المدن وأنْ لا يكون التدريس إلاّ في ذلك الجبل[4]، فقام بتلك المهمة

---

[1]: وللإشارة فإن ابن زرفة قد ذكر أنّ الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي كان يفرّ من حين إلى آخر من الرباط، في محاولة منه للتّهرب من خلاف وشقاق طلبة العلم وحملة القرآن. ينظر: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية في السيرة المحمدية. ضمن كتاب تاريخ تحرير مدينة وهران من الاحتلال الإسباني خلال القرن الثامن عشر الميلادي، من خلال مخطوطتين. تحقيق: مختار حساني، جامعة الجزائر، مخبر المخطوطات، 2003، ص: 390.

[2]: بوجلال قدور: العلم والعلماء... "المرجع السابق"، ص: 131.

[3]: لا سيما بعد عودته من فاس والتقائه بعلمائها الأكابر. ينظر: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 228.

[4]: "المصدر نفسه"، ص: 233.

أجمل قيام وكان جموع طلاب العلم يتواردون عليه سواءا بالداخل أو بالخارج، حيث أمضى بقية أيام عمره في نشر العلم وتدوينه. وعلى الرغم من الدور الكبير الذي لعبه محمد بن عبد الله الجيلالي في الحياة السياسية والثقافية والمناصب العليا التي تقلدها في بلاط الباي محمد الكبير، إلاّ أنّ المعلومات المتعلقة بإنتاجه الفكري وتاريخ وفاته منعدمة لحد الآن.

وعلى ما يبدوا أنه قد ترك وراءه ثروة علمية ضخمة لأبناء الراشدية أودعها في مؤلفاته المفيدة التي كان معظمها حول التفسير والفقه والحديث والتصوف، وكُتب عنه عدة رسائل علمية كلها أشادت له بعلمه وفضله، انتفع بها أبناء عصره، وهناك رسائله الخاصة هي مقدمة تأليفه التي وضعها فاتحة لرأي المتصوفين، وقد عالج فيها موضوعيات تروق لهم وتفيدهم في دينهم ودنياهم وتقرّب إلى أذهانهم أشياء قد يستصعبون فيها العلماء وطلبة العلم. وأمّا مراسلات التصوف فلقد سلك فيها طريق الواعظ الذي ينشد صلاح الناس وتقويم عقائدهم وسيرتهم من العصاة والمنحرفين من شيوخ الطريقة التيجانية التي اعتبرها محمد بن عبد الله الجيلالي منافية للسلفية[1].

1- **4: الطاهر بن حوا:** المكثر من الخروج في الجيوش التي قادها الباي محمد الكبير لقتال الإسبان بوهران، والمسهم بقلمه في الجهاد ضدهم[2]، فهو محمد بن الطاهر بن عبد القادر بن محمد المعروف بابن حوا من كبار علماء غريس، ولد بمكان يدعى "الحجر الأبيض" بمنطقة الراشدية. تلقّى هذا العالم الجليل علومه الأولية في زاوية والده قبل أن ينتقل إلى جبل الراقوبة، ثم بعد ذلك سافر إلى المغرب الأقصى وبالضبط إلى مدينة فاس فسمع من كبار علمائها وبعد حفظه للقرآن وأحكامه جملة وتفصيلا تفرغ لدراسة الفقه والآداب، فكان من المتفوقين في حفظ الأحاديث النبوية والتفاسير، فدرس المدونة الكبرى للإمام مالك وابن الحاجب الذي هو عمدته، أما الشيخ خليل "فقد أتقنه إتقانا". وقد جلس في حلقة اللغة العربية فبدأ بحفظ ألفية ابن مالك على شرح ابن عقيل وهمزية البوصيري، فكان من النجباء في علم العروض والمنطق، الأمر الذي جلب انتباه المشايخ نحوه، حيث أنّه كان كلّما أنهى فنّا من

[1]: يرجى العودة إلى الفصل الأخير من هذه الدراسة عن موقف العلماء من ثورات رجال الزوايا والطرقية.

[2]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 233.

الفنون إلاّ ألّف فيه فتراه "يشرح الحديث ويفسّر القرآن والشريعة فمن صحيح البخاري إلى التفسير إلى المنهاج وعجالات أخرى في فنون متعددة"[1].

وقد برز الشيخ بن حوا بين وسط إخوته حيث كان له فضل كبير من حيث الذكاء فأصبحت له غزارة علمية، وممّا يلاحظ عليه هو "حسن أقواله وفصاحة لسانه وبلاغة حنانه وحسن مناظراته وإيجاز خطبه". وقد أثار ذلك والده من فضل وحب وإرشاد. إنّه في الحقيقة إمام كبير وشيخ شهير له شجاعة فائقة، إنّه الحجة مطّلع على المسائل والأصول وفتاويه مدوّنة مشهورة[2].

اشتغل الطاهر بن حوا حالما حلّ ببلده بالتدريس في المدرسة المحمدية على عهد الباي محمد الكبير، إلى جانب مهمة الوعظ والتأليف، كما شغل منصب قاضي القضاة بمدينة معسكر، ولا تحدد المصادر الموجودة بين أيدينا السنة التي قُلِّد فيها[3]، حيث عيّنه الباي محمد بن عثمان الكبير نائبا لرئيس رباط وهران محمد بن عبد الله الجيلالي، وظلّ يؤدي مهنته العسكرية والعلمية من إسماع للطلاب المتكاثرين على دروسه، وتصنيف للمؤلفات المختلفة الفنون إلى أن فُقِد في قتال الإسبان واستشهد قبل فتح وهران وتحديدا في: 02جمادى الأولى 1205هـ ما يوافق بداية يناير 1791م إثر إصابته برصاصة، جراء اشتباك وقع بين فريق من الطلبة والإسبان في 27 ربيع الثاني 1205هـ ما يوافق نهاية ديسمبر 1790م[4].

ولقد كان الطاهر بن حوا "فهمًا نبيلا فصيحا حافظا أديبا شاعرا" بشهادة ابن سحنون وكان من "أهل التفنّن في العلوم والاستبحار فيها والجمع لها"[5]. وقد صنّف في علوم القرآن والحديث والفقه والأصول والنحو والأدب والتاريخ، فترك وراءه مكتبة فخمة من المؤلفات نذكر منها: كتاب نظم الجواهر في سلك أهل البصائر، وفتح البين في التوصل برب العالمين، وزهر الأداب في جمع شعر أفاضل الكتاب[6].

---

[1]: جلول جيلالي: معسكر رجال وتاريخ، الجزائر، منشورات دار الأديب، 2006، ص-ص: 36-38.

[2]: "المرجع نفسه"، ص: 36.

[3]: ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص: 237.

[4]: "المصدر نفسه"، ص: 237.

[5]: "المصدر نفسه"، ص-ص: 233-237.

[6]: بوجلال قدور: العلم والعلماء .... "المرجع السابق"، ص:135. (هامش رقم: 67).

1-5: أبو طالب محمد بن علي الشارف المازوني: الذي كان من المحرّضين على الجهاد في سبيل الله ضد الإسبان والنافرين بأنفسهم مع جيش الباي محمد الكبير لقتال القوى النصرانية بوهران سنة 1205هـ/ 1791م[1]، يعتبر أبو طالب المازوني من أبرز علماء حاضرة مازونة خلال القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، أمّا عن اسمه ونسبه فهو محمد بن علي أبو طالب بن عبد الرحمن بن محمد بن شارف بن أحمد بن علي بن عبد العزيز بن علي بن منصور بن محمد بن أعمر البلدوي نسبا إلى جماعة العيديون، وجدهم اسمه محمد بن عبد الله بن موسى بن مسعود بن الحسن بن سليمان بن إبراهيم بن عيسى بن محمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل، ولد بمدينة مازونة في بداية القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي[2].

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ حياة أبو طالب المازوني العلمية قد كانت مليئة بالمجالسات للمشايخ والعلماء والفقهاء المختصين في الفقه والأدب وجميع العلوم النقلية، حيث درس أبو طالب على والده علي بن عبد الرحمن باعتباره أحد المدرّسين في المدرسة الفقهية. كما تتلمذ على يد جدّه بن أمحمد بن الشارف وأبو طاهر محمد عبد السميع بن أبي العرفان إبراهيم الكوران ومحمد بن علي بن أحمد بن عبد الرحمن الشريف نسبا الجعدي وطنا، وحسن بن علي بن محمد بن عمر العجيمي المكي دارا. كما تلقّى مجموعة من العلوم النقلية على أيدي علماء آخرين، سواءا من مازونة عينها أو من المارّين عليها من العلماء الجزائريين، أو من العلماء الواردين إليها من خارج الإيالة[3]. وبحرصه على التعلّم منذ الصغر وبذكائه وفطنته وإدراكه، وبتعاهد والده له اتّسعت معارفه واكتسب جملة منوّعة من العلوم فأصبح فقيها عالما بالتفسير والأحكام والحديث والنحو والأدب واللغة، وفوق ذلك كانت له يد في الإنشاء والنظم والنثر، إذ كان هو بنفسه شاعرا مجيدا وأديبا بارعا.

كما تولّى أبو طالب المازوني التدريس بالمدرسة الفقهية بعد وفاة والده سنة 1189هـ/1775م، فنال شهرة ومكانة مرموقة بين عامة الناس والحكام لغزارة علمه، حيث دامت فترة تدريسه مدة أربع وأربعين سنة إلى أن توفي سنة 1233هـ/ 1818م، مخلّفًا

---

[1]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 234.

[2]: بوكفة يوسف: مدرسة مازونة الفقهية.... "المرجع السابق"، ص: 59.

[3]: "المرجع نفسه"، ص-ص: 60-61.

وراءه مجموعة من العلماء قد أشرف على تدريسهم ولعلّ من بينهم: حفيده أحمد بن هنّي ومحمد بن علي السنوسي، أبو عبد الله محمد ابن عبد السلام بن أبي زيد اليازمي وأحمد بن عيسى المستغانمي[1]. تاركًا أيضا لمجموعة من التآليف الفقهية منها شرحه لقصيدة الصغرى للشيخ السنوسي التلمساني في التوحيد سمّاها "درّة الحواشي في حلّ ألفاظ الخرشي"، بدليل ما ذكره محمد بن يوسف الزياني: "....وفيهم العلامة ولي الله الشيخ سيدي محمد بن أبي طالب المازوني، صاحب الحاشية التي أسمها دارة الحواشي في حل ألفاظ الخرشي..."[2].

كما ألّف كتابا في علم التوحيد، أُعتبر من التآليف التي استند عليها طلبة وعلماء مدرسة مازونة الفقهية خلال العهد العثماني[3].

1-6: الشيخ هني: المتصدّر صفوف العلماء عند قتالهم الإسبان، وهو عالم وفقيه مجاهد مرابط، شارك مع والده أبو طالب المازوني في معارك الفتح الثاني لمدينة وهران سنة 1791م[4]. أمّا عن اسمه ونسبه فهو سيدي هني بن محمد أبو طالب بن علي بن عبد الرحمن بن محمد بن شارف بن أحمد بن علي بن عبد العزيز بن علي بن منصور بن محمد بن أعمر البلداوي، وُلد الشيخ هني في مازونة ولا تُحدّد المصادر التي بين أيدينا السنة التي وُلد فيها، وتربى في حجر والده أبو طالب محمد بن علي الشارف المازوني الذي كان من أشهر علماء مازونة. حيث هيّأ له أسباب طلب العلم، فمنذ أن آنس منه إدراكا خصّص لتدريسه المعلّمين الأكفّاء، وكان الشيخ هني من طرفه مُقبلا على العلم والمعرفة يستثمر باقي وقته في المطالعة والمذاكرة وحضور مجالس العلماء[5].

---

[1]: بوجلال قدور: العلم والعلماء...."المرجع السابق"، ص: 224.

[2]: محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران...."المصدر السابق"، ص : 165.

[3]: بوكفة يوسف: مدرسة مازونة الفقهية.... "المرجع السابق"، ص: 61. للمزيد عن هذا الموضوع يرجى العودة إلى: بحري أحمد: حاضرة مازونة: دراسة حضارية في العصر الحديث (1500- 1900م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران 2012-2013، ص: 242.

[4]: وللإشارة فإن الشيخ هني يُعتبر الولد الوحيد للشيخ أبو طالب المازوني، هذا الأخير الذي تجاوز عمره الثمانين سنة إلاّ أنّ ذلك لم يمنعه من الالتحاق برباط وهران رفقة ابنه هني وأخوه السيد محمد ومعهم نحو مائتي طالب. للمزيد ينظر: ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص: 234، - ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق"، ص-ص: 342- 343.

[5]: لقد ذكر ابن زرفة حديثا في رحلته القمرية مفاده أنّه قد كان للشيخ هني دور كبير في وعظ الطلبة وفكّ المنازعات والمناوشات التي كانت تحدث بينهم داخل الرباط بسبب سوء تسيير النفقة عليهم، إلى جانب تدريسه لحوالي خمسمائة طالب

وعلى أيّ حال بلغ الشيخ هني الإمامة في الحديث فأصبح حافظا له، بصيرا بطرقه، عارفا بالجرح والتعديل، كما برع في علوم القرآن والتجويد وهو بجانب ذلك كاتب بليغ وشاعر مجيد وخطيب مفوّه، ولقد مرّ عليه زمن تولّى فيه التدريس بمدرسة مازونة الفقهية وكان ذلك في شبابه، وظل يؤدي مهنته العلمية من إسماع للطلاب المتكاثرين على دروسه وتصنيف للمؤلفات المختلفة الفنون إلى أن استشهد في إحدى معارك تحرير مدينة وهران سنة 1791م سمّيت بمعركة مسرغين وعمره حوالي 22سنة، تاركا ولدين وهما أحمد وعبد الرحمن، ودفن بمدينة مازونة التي يوجد بها ضريحه[1].

وهكذا عرضنا بإيجاز مركّز سير حياة ستّة من أعلام علماء بايلك الغرب، سنراهم في العناصر القادمة من هذا الفصل على رأس المشاركين مع القوات الرسمية العثمانية في الصراع مع النصارى الإسبان، وبجانب هؤلاء سنتعرّف على حشد كبير من إخوانهم العلماء وطلبة العلم الذين أسهموا معهم في الميادين المختلفة لذلك الصراع.

2: المنزلة العلمية للعلماء المشاركين في الصراع مع الإسبان:

ممّا لا شكّ فيه أنّ رجال العلم المشاركين في مجابهة الإسبان لم يكونوا كلّهم على درجة واحدة في العلم، ولا في مستوى متقارب من الثقافة، فثمة تفاوت بينهم- كغيرهم من الناس- في مداركهم العقلية، وفي مقادير ما تهيّأ لهم من علوم ومعارف: ففيهم الكبير والصغير، والعالم والمتعلّم، والمجتهد والمقتصد، لكنّ نفرا من هؤلاء بلغوا في زمنهم منزلة علمية سامقة برزوا فيها عن غيرهم، وتفوّقوا على من سواهم، ولقد كان لتلك المنزلة العلمية التي بلغوها مظاهر مختلفة يمكن رصدها خلال التأمّل في تراجم حياتهم والنظر في تراثهم.

فمن خلال كلام مَنْ كتب عنهم- سواء ما جاء على لسان من عرفهم عن كثب ممن عايشهم، وداوم على حضور حلقات دروسهم، وتردّد على مجالسهم أو ممّن عُنِيَ بأخبارهم وهو ليس ببعيد عن الفترة التي ينتمون إليها- من خلال هؤلاء يتجلّى مقامهم العلمي بين معاصريهم، فمصطفى الرماصي وُصِف بأنّه "العلامة المتفنّن المحقّق" و"الجهيد النّقاد المدقّق". وقد حلي اسمه "بالشيخ القاضي الإمام القدوة"، فكان "من أذعنت له في وقته الأقران

مختصر خليل بعد العصر في رباط وهران، ينظر: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية... "المصدر السابق"، ص-ص: 393-394.

[1]: بوجلال قدور: العلم والعلماء.... "المرجع السابق"، ص: 223.

ولم يختلف في فضله وسعة علمه اثنان، وتزاحم على بنات فكره وعرائس سرّه الداني من أهل العلم....."[1]. كما يواصل الحفناوي في تنويهه وتحليته للعالم الرماصي بقوله: "....اشتهر بالتحقيق والتحرير والمتانة في الدين، وسمع الكلمة عند السوقة والأمير...."[2].

أمّا محمد بن عبد الله الجيلالي فقد عُرِف بـــ :"شيخ الإسلام وعلاّمة العلماء الأعلام"، وقال عنه أحد تلامذته: "إنّه رجل شريف محترم إنّه شيخ أعظم الصدور الجهابذة.... فقد كانت حلقاته حول شرح التفسير وكان يحضر لخطبه أكابر العلماء فأذعنوا له...."كما نُعِت الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي على لسان تلميذه ابن سحنون بـــ: "هو شيخنا المعظم المفضل كاشف الغوامض بذهنه". وقال عنه في موضع آخر: "النقادة النحرير، الشاهدة له دروسه بالتحقيق والتحرير"، وبالغ في وصفه بقوله عنه: "ذو الفضائل الوافرة، والمحاسن التي لم تزل في الناس على كثرتها متظافرة"[3].

وكذلك فإنّ الطاهر بن حوا الذي لَقِي حتفه في جهاد الإسبان عام جمادى الأولى 1205هـــ ما يوافق يناير 1791م قد وُشي اسمه بـــ :"العلّامة المفضال أسد الحروب"، و"الفقيه الحافظ المحدّث ذو الباع الطويل في العلوم" بل "فارس حلبة العلوم ومقدم أهل المنثور والمنظوم"[4].

وأبو طالب محمد بن علي الشارف المازوني جاءت أقوال معاصريه مبيّنة فضله العلمي بمثل قول بعضهم عنه "الشيخ العالم الذي عمّ نفعه العباد من حاضر وباد"[5]، وقول آخر "...وفيهم العلّامة وليّ الله... صاحب الحاشية"[6]. ولمّا أجاز محمد بن علي السنوسي قال عنه: "كان إماما مبرزا... قرأت عليه مختصر خليل مرارا فكان يلتزم شرح الخرشي غالبا مع حاشيته عليه"[7].

---

[1]: أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف... ج2، "المرجع السابق"، ص: 441.

[2]: "المرجع نفسه"، ص: 442.

[3]: ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص: 228.

[4]: "المصدر نفسه"، ص: 233.

[5]: وثيقة تاريخية موجودة بخزانة مدرسة مازونة الفقهية بتاريخ: 09 فيفري 1910م، إلى السيد المتصرف بدائرة أرنو (سيدي محمد بن علي: غليزان)، كاتبها غير مذكور.

[6]: محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران .... "المصدر السابق"، ص: 165.

[7]: بوجلال قدور: العلم والعلماء... "المرجع السابق"، ص-ص: 257- 258.

ومن ناحية أخرى فإنّ عددا من أهل العلم المسهمين في جهاد الإسبان أيام الفتح الأول والثاني لمدينة وهران كانوا قد تربّعوا على كرسي الصدارة العلمية في العلوم والمعارف التي تخصّصوا فيها، بحيث صار الواحد منهم في مجال تخصّصه مرجعًا علميا لعلماء زمانه يعتمدون أقواله، ويفضّلون آراءه، ويأخذون بفتاويه، ويهرعون إليه فيما أشكل عليهم من مسائل، ويحكمونه فيما شجر بينهم من اختلاف. فالطاهر بن حوا كان عارفا بالحديث، قائما به، حافظا لأسماء الرجال، ولذا حاز الرياسة في هذا الفن، بل انفرد بالإمامة في الحديث بمعسكر فصار له في وقته "مجد في التفسير والحديث"[1].

وهذا مصطفى الرماصي المتوفى سنة 1136هـ/1724م "كان حافظا للفقه مقدّما فيه على أهل عصره". فهو "منبع علم التوحيد" باعتراف كلّ من ألّف في الفقه وعلم التوحيد. بل غدا زعيم فقهاء وقته بأقطار المشرق والمغرب فاستحقّ لقب "صاحب الحاشية"- حاشية شمس الدين التّتائي- ولذا "كان إليه المفزع في المشكلات"، فكانت الاستفسارات العلمية والاجتماعية وغيرها تصل إليه للإجابة عنها سواءا من قبل علماء معسكر أو من طرف علماء مازونة، فضلا عن ورودها إليه من عامة سكان البايلك الغربي[2].

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ علماء تلمسان والمغرب الأقصى كانوا من أكثر الناس إقبالا على علماء الراشدية وفقههم أمثال أحمد المقرّي التلمساني صاحب "نفح الطيب"، الذي قال في حاشيته على صغرى الإمام السنوسي المسمّاة: "إفادة المغرم المغراء بتكميل شرح الصغرى" ما يلي: "أنّ سنده في علم التوحيد يتّصل بعلماء الراشدية العارفين بهذا الشأن". كما قال قبل ذلك: "وقد كنت قيّدت عن أشياخنا بتلمسان قبل هذا الأوان وغيرهم من علماء الراشدية العارفين بهذا الشأن...". وكذلك الشيخ عيسى السكتاني قاضي مدينة مراكش، الذي قال بدوره في حاشيته على الصغرى : "أنّ سنده في هذا الفن يتّصل بعلماء الراشدية" واصفا الراشدية بأنّها منبع علم التوحيد[3].

ولقد وصل فريق من العلماء المشاركين في مجابهة الإسبان في فترة حكم الباي محمد الكبير إلى مناصب مرموقة لا يصل إليها إلاّ من كان علمه يؤهّله للقيام بشؤونها كمهنة

---

[1]: جلول الجيلالي: معسكر رجال وتاريخ... "المرجع السابق"، ص: 37.

[2]: بوجلال قدور: العلم والعلماء.... "المرجع السابق"، ص: 235.

[3]: ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي: الجزائر في التاريخ... "المرجع السابق"، ص-ص: 170- 171.

القضاء في الحواضر خاصة، ومهنة الصلاة والخطبة في جوامع تلك الحواضر، فبالنسبة للقضاء فقد كان في بايلك الغرب من أعظم الوظائف، ولا سبيل إلى تسمي أحد من العلماء باسم قاض إلاّ حين يتقلّد القضاء في مدينة كبيرة وقبل ذلك – وهذا هو الأهمّ فيما نحن بصدده– أنّه لا يستقضى إلاّ إذا توفّرت فيه شروط على رأسها علمه بالسنة والفقه، أمّا مهنة الصلاة والخطبة فكانت أحيانا تلحق بالقضاء فيكون القاضي هو صاحب الصلاة والخطبة في موضعه. وتارة تبقى تلك الوظيفة مفصولة عن القضاء فيتولاّها– حينئذ– أحد العلماء. فمن الذين وصلوا إلى خطة القضاء في حواضر البايلك الغربي من العلماء المجاهدين للإسبان نذكر الطاهر بن حوا الذي ظلّ في منصب قاضي في معسكر حتى استشهاده برباط وهران[1]. أمّا الذين خولهم علمهم للقيام بالصلاة والخطابة في حواضر بايلك الغرب من العلماء المجاهدين فنشير إلى أبو طالب المازوني الذي وُليّ الصلاة والخطبة بالجامع الملحق بمدرسة مازونة الفقهية، وابنه الشيخ هني الذي أُسندت إليه الصلاة والخطبة في نفس الجامع[2].

ولقد كان عدد من العلماء الذين جاهدوا الإسبان في وهران مثابة للمتعلّمين ومقصدا للمتطلّعين إلى التّفقّه في الدين، أو الاستفادة من علم بعضهم المتسع إلى سائر فنون العلم والمعرفة الشائعة في ذلك الحين، فترى طلاب العلم يتواردون عليهم– بكثرة– من كلّ مكان ويزدحمون على حلقات دروسهم، ويواظبون على حضور محاضراتهم. من ذلك أنّ الإقبال على دروس مصطفى الرماصي كان كبيرا من جانب الطلاب – وهو لم يصل بعد إلى بلده من رحلته المشرقية، فعند حلوله في مصر لازمه الناس في جامعها ليلا ونهارا لسماع أحد كتب الفقه التي كانت تقرأ عليه، فكانوا – من حرصهم على ملازمته– يبيتون بمقصورة الجامع إلى أن كَملت قراءة ذلك الكتاب[3].

---

[1]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 233.

[2]: وهذا بعد المجهودات التي قام بها الشيخ أبو طالب المازوني رفقة ابنه هني في فتح وهران، حيث قام الباي محمد الكبير بتوسيع مدرسة مازونة الفقهية ببناء بيوتها وجامعها وحبسه عليها مجموعة من الكتب منها صحيح مسلم، ينظر: بوجلال قدور: العلم والعلماء...."المرجع السابق"، ص: 223.

[3]: حتى أُطلق عليه اسم "مول الحاشية" أي صاحب الحاشية، الأمر الذي يدلّ على بلوغ الرماصي درجة لا مثيل لها من العلم والفقه. في رواية شفوية حدّثنا بها أحد أحفاد مصطفى الرماصي، الإمام مصطفاوي عبد الله، يوم: 06 أفريل 2008م.

ولما وصل إلى قريته رماصة اعتزّت بوجوده فيها وصارت رتبتها عالية بين الحواضر، فاحتشد أهلها للدراسة عليه، وتنافس كبراؤهم في الأخذ عنه. وقد اغتنم أهل مازونة إقامته عندهم فسمعوا في تلك المدة عنه سماعًا كثيرا، ومن ناحية أخرى كان الرماصي محطّ أنظار طلبة العلم في شتّى الأمصار ولذا رحل الناس من البلدان إليه وكثر سماعهم عليه وكثر الأخذ عنه، حتّى أنّ بعض شيوخه الذين كان قد تعلّم على أيديهم قَبْلاً هبّوا يأخذون من مختصره الفقهي، فصار بذلك شيخًا لهم يأخذون ويكتبون رواياته[1].

ولقد استقطب أيضا الشيخ عبد القادر المشرفي جموع طلاب العلم وبخاصّة في مجال علم الأصول والفروع الذي كان مبرزا فيه فتوافدوا عليه من كلّ ناحية لينهلوا من علمه، وقد صوّر أبو راس الناصر ما لقيه شيخه من قبول لدى العلماء بعبارة وجيزة فقال: "ودفّت له من الطلبة دافّة وأذن له أهل عصره كافّة"[2]. وكذلك محمد بن عبد الله الجيلالي لما التحق بالرباط الذي أحياه الباي محمد الكبير كانت نفوس الطلبة متطلّعة على دروسه من كلّ حدب وصوب فحفلت حلقاته العلمية بطلاب العلم، فكانت بعض مَجالِسه في الرباط لا تنقطع في الليل دع عنك النهار. كما أشرف في الرباط على إجازة بعض علماء معسكر فكان ابن سحنون الراشدي صاحب "الثغر الجماني" من بين الذين استجازهم الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي بعد أن لازمه عدة ليال وأيام حيث أجازه وكتب له بذلك في 26 ربيع الثاني سنة 1203هـ/ 1788م[3]. والمتوقّع أنّ الطاهر بن حوا نائب رئيس رباط وهران كان هو أيضا يلقي دروسه في ذلك الجبل، حيث أنّ طلاب العلم- من أماكن مختلفة- كانوا يتنافسون في الأخذ عنه.

ولقد وُفق نفر من العلماء المجاهدين للإسبان خلال الفتح الأول والثاني لوهران لكتابة مؤلّفات داخل إطار اهتمامهم تميّزت بعمق الفكرة، وقوّة الحجّة، وسلامة الترتيب، وجودة التصنيف وحسن العرض، وتحقيق الغرض، ممّا جعلها تروج بين الناس في زمانهم، فتَسمو- وقتئذٍ- رُتبهم وتَعلوا منزلتهم، وقد وُجدت بعض الأقوال المتفرّقة لطائفة ممّن ترجموا لهؤلاء العلماء- وكانوا قد عاشوا في عصرهم أو بعده بقليل- قوّموا فيها- عن دراية ومعرفة-

---

[1]: بوجلال قدور: العلم والعلماء... "المرجع السابق"، ص: 240.

[2]: أبو راس الناصر: فتح الإله... "المصدر السابق"، ص: 53.

[3]: ينظر نص الإجازة في: ابن سحنون: الثغر الجماني...."المصدر السابق"، ص-ص: 229-231.

بعض تلك المؤلّفات ومدى ذيوعها بين معاصريها، فقد قال أحد المعاصرين للرماصي عن كتابه "شرح الحاشية" إنّه تأليف لم يسبق أحد من العلماء إلى مثله، حيث اعتمد الشيخ الدردير على حاشية مصطفى الرماصي على التتائي في شرحه على مختصر خليل، بدليل ما ذكره محمد بن علي السنوسي في فهرسته المسماة "الشموس الشارقة"، أثناء حديثه عن أستاذه محمد بن القندوز المستغانمي تلميذ الدردير قائلا: "وهو أول من أدخل الدردير إلى الجزائر، ثم قال أنّ شيخه المذكور عندما كان بصدد تأليفه شرح مختصر خليل كان يعتمد حاشية مصطفى الرماصي، بقوله أنّ صاحبها محقّق: فهي تُغنيني عن غيرها..."[1]، كما ذكر الفقيه محمد الحجري وزير المعارف- في عهده- بالمغرب الأقصى في تأليفه الشهير :"الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي"، أنّ الشيخ البناني الفاسي كان يعتمد في شرحه على مختصر خليل حاشية الرماصي على التتائي[2].

وهكذا حسب العرض المقتضي-آنفا- قدّمنا لوحة متعدّدة الصور حكت المنزلة العلمية التي كان يتمتّع بها جماعة العلماء المشاركين في الصراع ضد الإسبان خلال الفتح الأول والثاني لمدينة وهران.

3: المنزلة الاجتماعية للعلماء المشاركين في الصراع مع الإسبان:

إنّ المجتمع الإسلامي عامة- بمختلف فئاته- ينظر إلى العلماء نظرة نابعة- بالدرجة الأولى- ممّا أصّله الإسلام في النفوس من مكانة، وما صنعه لهم في القلوب من مهابة، ثم تزداد تلك النظرة حين يخدم أولئك العلماء الأمة في مصالحها، ويشاركونها فيما يساورها من هموم، ويكونون لسانا ناطقا باسمها إذا ما ألمت بها الهموم، ويهبون للدفاع عنها وعن دينها عند حلول الأخطار.

ومجتمع بايلك الغرب خلال فتح وهران- كغيره من المجتمعات الإسلامية- انطلق في تعامله مع علمائه المشاركين في الصراع مع الإسبان وفق ما يكنّه لهم من تقدير كبير مبني على منزلتهم المكفولة في الإسلام ، وأثرهم المتشعب في أكثر من ناحية في ذلك المجتمع، فإخوانهم من العلماء وطلبة العلم كانوا- كدأب علماء المسلمين في علاقتهم مع بعضهم بعضا في كل عصر ومصر- يحملون لهم الاحترام والإجلال، ولعل ذلك يبرز في الجمل

[1]: ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي: الجزائر في التاريخ... "المرجع السابق"، ص: 171.

[2]: "المرجع نفسه"، ص: 171.

والعبارات المستخدمة في مخاطبتهم عبر الرسائل أو من خلال أبيات شعرية أنشأها شعراء معاصرون لهم، أو حين ترد أسماؤهم –عرضا– في مؤلفات أصحاب لهم.

وأمر آخر يختص بهم– دون سواهم– وهو أنّ بعض من قُتل منهم في معركة أو موقعة مع الإسبان تعوّد طلبته وتلاميذه على تلقيبه بالشهيد تفاؤلاً باستشهاده في سبيل الله[1]، وحضًا لغيره على اقتفاء فعله، وتجسيدا لمنزلته السامية عندهم. على أنّ هؤلاء العلماء تظهر منزلتهم الاجتماعية في زمنهم بشكل ساطع عند فئتين من فئات المجتمع آنذاك، إحداهما: الفئة الحاكمة والأخرى: عامة الناس.

وبالنسبة لمنزلة العلماء المشاركين في الصراع ضد الإسبان لدى عامة الناس فتتجسّم في عدة ظواهر، منها أنّ عددا منهم كانت كلمتهم عند الناس مسموعة، وأوامرهم مطاعة، فمثلا حينما هَمّ الشيخ أحمد بن عامر البرجي–تلميذ الرماصي– بإصدار فتوى للناس هي مناقضة لفتوى شيخه، تصدّى لهم الرماصي ومنعهم من الأخذ بها، فانصاعوا لأمره ووقفوا عند قوله[2].

وممّا يجسّد منزلتهم الاجتماعية لدى العامّة أنّ منهم من منحه الناس الثقة، فكانوا يقصدونه– بلا تردد– إذا حزبهم أمر، أو انتابتهم ضائقة، فعبد القادر المشرفي كان الناس يلجئون إليه ويعولون في مهماتهم عليه، من ذلك توسّطه في بعض القضايا المختلفة بين الكراغلة وبين عرب المنطقة، وتصدّيه لبعض النزاعات التي يصعب حلّها[3]. وهذا يوحي أنّ الناس كانوا يعمدون إليه في كثير من الأحايين لإصلاح أحوالهم، وجلب منافعهم. كما كانت علاقة العلماء المجاهدين للإسبان بفئة العناصر الأجنبية الأخرى التي تواجدت بالمجتمع من يهود ونصارى، وتجار أجانب وقناصل أوروبيين ورجال الحملات التبشيرية والبعثات الدينية واضحة المعالم، من خلال تعاملهم معهم فيما يتعلق بالعقود والمواثيق من جهة، وبما أنّ هؤلاء العلماء قد مارسوا مهنة القضاء فلقد كانت تلجأ إليهم هذه الفئات

---

[1]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية... "المصدر السابق"، ص: 401.

[2]: ينظر نص الرسالة في: ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي: الجزائر في التاريخ.... "المرجع السابق"، ص–ص: 171– 172.

[3]: أبو راس الناصر: فتح الإله.... "المصدر السابق"، ص: 53.

لتحكمهم فيما ينشب بينها من خلافات اجتماعية وتستفتيهم في قضايا دينية مختلفة كالطلاق والزواج، والبيع والشراء من جهة أخرى.

وممّا يعكس مكانة العلماء المجاهدين للإسبان لدى العامة في زمن الدراسة تسارع جمهور الناس للالتفاف حول هذا العالم أو ذاك إذا ما استنفرهم لتأدية واجب، أو استصرخهم لجهاد عدو، وقد حصل مثل هذا لأبو طالب محمد بن علي الشارف المازوني الذي كان له أثره البالغ في حشد المجاهدين وطلبة العلم في مازونة للالتحاق برباط وهران الذي أحياه الباي محمد الكبير. ومثله التفاف الناس حول مدير المدرسة المحمدية محمد بن عبد الله الجيلالي أيام الدعوة لفتح وهران، وخروجهم معه بكثرة لجهاد الإسبان الذين كانوا قد استأسدوا على المسلمين في تلك المنطقة[1].

ولعلّ حزن العامة –وطلبة العلم من بينهم– على بعض العلماء المشاركين في الصراع مع الإسبان عند موتهم، وكثرة المشيعين لهم، وازدحامهم على جنائزهم من أسطع الدلائل على منزلتهم لدى أولئك العامة. فالطاهر بن حوا حين توفي عام 1205هـ/ 1791م حزن الناس عليه وكان مُحبّبا لديهم فوفاة نائب رئيس رباط وهران قد كانت نكسة للطلبة المرابطين، حيث رثاه ابن سحنون الراشدي بأبيات شعرية مطلعها:

عَزِّ نَفْسَكَ عَنْ صرُوفِ الزَّمَانْ كُلُّ شَيءٍ علَى البَسِيطَةِ فَانٍ
كُلُّ مَنْ عَاشَ لَمْ يَزَلْ كُلَّ يَوْمٍ يَشْتَكِي مِنْ إِصَابَةْ الحَدَثَانِ
إنّمَا فَقَدنَا مــَنْ لَيسَ للقَلــبِ علَى الصَّبرِ عَنْ نَواهْ يــَدانْ

إلى أن يقول:

يَا ابنَ حَواء إنَّ جَفنِي قَرِيحٌ ضْ نَقيمُهَا مِنَ الأَدرَانِ
يَا ابنَ حَواء إنَّ قَلبِي حَرِيقٌ عَنْكَ مُفْتَتِنْ وأَيُّ افْتِتَانْ[2]

وكذلك الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي لما توفي شهده جمع عظيم من الناس، وكان الثناء عليه حسنا جميلا، فقام أحمد بن سحنون بتغسيله وتكفينه وصلّى عليه تلميذه الشيخ

[1]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص–ص: 233– 234.

[2]: ينظر القصيدة كاملة في: "المصدر نفسه"، ص–ص: 237–239.

محمد بن حوا بن يخلف، وقال عنه يوم دفنه: "رحمك الله يا أبانا، غفر الله لك يا شيخنا، إنّك رضيع لبان الحكمة فإلى روح وريحان فإلى جنة نعيم"[1].

وصفوة القول أنّ العلماء المشاركين في الصراع مع الإسبان أيام فتح وهران بلغوا منزلة رفيعة في مجتمعهم، وقد لمسنا ذلك واضحا من خلال التفاف عامة الناس حولهم، وانقيادهم لأوامرهم، والنزول على أحكامهم وآرائهم.

4: أثرهم العلمي في المجتمع:

تفاوت العلماء المسهمون في الجهاد ضد الإسبان بوهران فيما بينهم في أثرهم العلمي في المجتمع، وذلك تبعًا لتباين مستوياتهم العلمية، ودرجة مخالطتهم للناس، وحرصهم على نشر العلم بينهم، وملامسة كتاباتهم وأحاديثهم لحاجيات المجتمع واهتماماته. ولقد تنوعت القنوات التي عن طريقها أثّر هؤلاء العلماء في مجتمعهم فكان أهمها ما يلي:

أولا: الإمامة والخطابة، حيث تولّى مجموعة منهم الخطبة في جوامع بلدانهم- كما سبق الإشارة إلى أمثلة على ذلك- وقد استطالت مدة تقلّد بعضهم للخطبة في بلده فوصلت – في بعض الحالات- نحوا من عشرين سنة، وممّا لاشك فيه أنّ الخطباء كانوا يتطرقون في خطبهم تلك- كما هو معلوم- إلى ما يهم الناس في أمور دينهم ودنياهم.

ثانيا: التدريس: فقلّما نجد واحدا من العلماء المشاركين في الجهاد برباط وهران لم يزاول هذه الوظيفة، سواء في المساجد أو غيرها. ولعلّ الحلقات العلمية الخاصة أو العامة التي عرفتها مساجد بايلك الغرب هي أكثر مجالات التدريس أثرا في المجتمع[2].

ثالثا: التأليف، فكثير من أولئك العلماء خاض في ميدان التأليف –كما مرّ ذكر شيء منه في التعريف ببعضهم- فمنهم المستقل، ومنهم المستكثر، وقد غطّت تلك المصنفات مستويات أكبر قطاع ممكن من المجتمع، إذ قسم منها صنّف لشرح مسائل غمض فهمها على الدارسين وطلبة العلم، وقسم ثان جُمِع ليكون في متناول عامة الناس.

ولقد أبدى معظم العلماء المشاركين في رباط وهران نشاطا منقطع القرين في نشر العلم بين مواطنيهم، فنرى بعضهم يسعى للتخلّص من الأعمال الرسمية –قيادة الرباط-

[1]: جلول جيلالي: معسكر رجال وتاريخ... "المرجع السابق"، ص: 45.

[2]: بوجلال قدور: العلم والعلماء... "المرجع السابق"، ص: 89.

ويتفرّغ لهذا الغرض النبيل ونخصّ بالذكر الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي الذي كان من أحرص الناس على طلب العلم وتعلّمه وبثّه ونشره[1]، بل ثمّة علماء منهم جرّدوا أنفسهم للعلم وإشاعته بين الناس فمصطفى الرماصي على سبيل التمثيل حُكِي من حرصه على إيصال العلم إلى تلاميذه أنّه أيام اختفائه عن الإسبان ليلا وبالجبل كان يخرج هناك ويعطي طلبته ما يطلبونه من العلم، وما ذلك إلاّ لحرصه على استغلال كل ما يملك من وقت لإفادتهم، بل من شدة اعتنائهم بنشر العلم بين الناس أنّ بعضهم كان يغتنم خروجه إلى الجهاد في سبيل الله، فيدرس في المناطق التي يمرّ عليها في طريقه[2].

وعلماء بمثل هذه الهمّة المتقدّمة في خدمة العلم ونشره سيكون –قطعًا– أثرهم العلمي في المجتمع عريضا ومتجذرا. على أنّ المصادر – في الواقع– لا تصرّح بشكل مباشر عن ذلك الأثر، اللّهم إلاّ بمثل قولها عن الشيخ عبد القادر المشرفي: "وانتفع به خلق كثير شريعة وطريقة"[3]، ولكن بإرجاع البصر في المصادر كرة أخرى، وإجالة الفكر فيما كتب عنهم بخاصة، وما دُوّن عن الحياة العلمية في بايلك الغرب بعامة يتجلّى أثرهم العلمي في مجتمعهم من خلال عدة جوانب من أبرزها:

1- تذكر المصادر عن جمع من رجال العلم المشاركين في الصراع ضد النصارى تصدّرهم في بلدانهم لتدريس مواد علمية معينة، فمحمد بن عبد الله الجيلالي رئيس رباط وهران تصدّر لإقراء ألفية ابن مالك، وصحيح البخاري وأوائل كبرى الشيخ السنوسي ومعظم جمع الجوامع وكلّ جوهرة الأخضري وسلّمه[4]، والطاهر بن حوا تصدّر في معسكر بل وحتى في رباط وهران لإقراء القرآن والحديث والفقه، والرماصي كان في قريته رماصة يُقرأ ويُسمع الحديث وعلوم النحو[5]. ومن المعلوم أنّ القرآن والحديث والفقه –المنصوص عليها في النقول الفائتة– تُعدّ من المعارف الأساسية في العملية التعليمية ببايلك الغرب، والتي قلّما يستغني عن تعلّمها المسلم، دع عنك من يَرنو ببصره لأن يصبح مستقبلا في زمرة العلماء أو حتى المتعلّمين. وحيث أنّ هؤلاء العلماء قد آلت لهم الصدارة في إقراء تلك المواد

---

[1]: ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص: 229.

[2]: "المصدر نفسه"، ص–ص: 30–31 (من مقدمة المحقق).

[3]: أبو راس الناصر: فتح الإله.... "المصدر السابق"، ص: 53.

[4]: ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص–ص: 229–231.

[5]: بوجلال قدور: العلم والعلماء... "المرجع السابق"، ص–ص: 135– 238.

العلمية في مدن وحواضر مختلفة من بايلك الغرب والذي يعني من زاوية أخرى تبريزهم في تدريسها، فمن المنتظر أن يُقبل عليهم الناس –صغيرهم وكبيرهم– ليسمعوا منهم ويقرأوا عليهم، وينهلوا من علمهم، يشهد بذلك ابن سحنون الراشدي في قوله عن أستاذه العالم محمد بن عبد الله الجيلالي مدير المدرسة المحمدية ورئيس رباط وهران: "... ذو الفضائل الوافرة والمحاسن التي لم تزل في الناس على كثرتها..."[1]، وبهذا يتبيّن جانب من جوانب الأثر العلمي لأولئك العلماء وسط المجتمعات التي كانوا يعيشون فيها.

2- نُسب إلى عدد من العلماء المشاركين في الجهاد ضد الإسبان كثرة كاثرة من التلاميذ سواء من أخذ عنهم مباشرة أو بطريق غير مباشر، فعلى سبيل المثال استطاع ابن سحنون تسجيل أخبار العلماء ممّن سمعوا من محمد بن عبد الله الجيلالي أو رووا عنه وأجازهم وهو حسب تعبيره: "تفك بجاهه الشاه من فك الأسد، وترتاح في مراح دروسه الروح كما يرتاح الجسد"[2]. كذلك تمكّن الجامعي من تقييد أسماء العلماء والطلبة ممّن أخذوا وسمعوا من الشيخ مصطفى الرماصي، وقد كانوا أيضا من أماكن متفرّقة من البلاد[3]. ومن المتّفق عليه أنّ هؤلاء الطلبة المتوزعين على حواضر بايلك الغرب صاروا في عداد علماء المنطقة، أو على أقلّ تقدير من كبار طلبة العلم فيها، ولولا أنهم كانوا كذلك لما عنيت كتب التاريخ والتراجم والفهارس وغيرها بهم، فدوّنت أسماءهم وحفظت أخبارهم، وبعض العلماء – موضوع الدراسة– شاهد مقنع على ذلك فمثلا ها هو ابن سحنون الراشدي تلميذ الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي وقد لازمه لفترة طويلة للأخذ عنه[4].

3- وممّا لاشكّ فيه أنّ ما يُقرأ على العلماء أو يُرى عنهم من مصنّفات له أثره العلمي والثقافي في المجتمع، ويزداد هذا الأثر تبعا لنوعية تلك المصنفات وكثرتها ورواجها بين المتعلمين، فعلى سبيل المثال فقد ذكر ابن سحنون ما قرئ على محمد بن عبد الله الجيلالي أو سمع منه في حلقات دروسه– لا سيما في رباط وهران– وقد شملت تلك المصنّفات – على حدّ قوله– علوم القرآن والحديث وعلومه، النحو وأصول الفقه[5]. ومثله الشيخ الرماصي الذي دُرست عليه في مجالسه العلمية مصنّفات كثيرة في فنون مختلفة، فكان شطر منها

---

[1]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 228.

[2]: "المصدر نفسه"، ص–ص: 228– 229.

[3]: بوجلال قدور: العلم والعلماء.... "المرجع السابق"، ص–ص: 233– 238.

[4]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص–ص: 229– 231.

[5]: "المصدر نفسه"، ص–ص: 229– 230.

تأليفه شرح حاشية شمس الدين التتائي، أمّا الشطر الآخر فقد كان من تأليف غيره، كما سعى ابن سحنون إلى تزجية مصنفاته بين طلبة العلم والعلماء فها هو يُعطي للشيخ الطاهر بن حوا نسخة من عقود المحاسن[1].

4- وثمة علماء مشاركون في الجهاد ضد النصارى لهم جهودهم في إثراء علوم تخصّصوا فيها، وبذلوا صفوة أعمارهم في سبيلها فكانت لبعضهم آراء واجتهادات فرضت نفسها بين معاصريهم من العلماء والمتعلمين، وأمست مشهورة من بعدهم يرُكن إليها ويُأخذ بها، كما أنّ لبعضهم أثر في دفع حركة معارف لم تكن قبلهم تحظى باهتمام واسع من قبل طلاب العلم كما هو شأن ابن سحنون –مثلا– في الطب إذ صرف همّته إليه بتشجيع من الباي محمد الكبير فانتهى بجمع ما تناثر من المقالات والقواميس والكتب الطبية، وتناول ما استطاع منها ولخّصها وشرح أغراضها فكانت شروحه لها من أوفى الشروح. وبجانب ذلك كانت له شروح ومؤلفات أدبية أخرى مثل اختصاره لكتاب الأغاني، ويبدوا أنّ ابن سحنون نال شهرة بين معاصريه حتى خارج حدود الإيالة بصفته قد عالج أحداث الثورة الفرنسية[2].

وهكذا عبر الصفحات الماضية عشنا مع العلماء المشاركين في الصراع مع النصارى الإسبان زمن الفتح الأول والثاني لمدينة وهران، فتعرّفنا عن قرب على الحياة الشخصية لطائفة منهم ثم تطرقنا لمكانتهم العلمية في عصرهم. وبعدها تطرقنا إلى مكانتهم التي تمتعوا بها بين معاصريهم، وأخيرا عرضنا لأثرهم العلمي في المجتمع الذي تربّوا في أحضانه وتعاملوا فيه مع أفراده.

ثانيا: أثر العلماء السياسي والعسكري في مواجهة الإسبان:

استشعر نخبة من العلماء خلال القرن الثامن عشر الميلادي مسؤوليتهم حيال المد النصراني الإسباني المتدافع نحو المدن الساحلية لإيالة الجزائر –لا سيما مدينة وهران– والذي بات خطره يهدّد نواحي كثيرة منها صباح مساء، فعلاوة على جهودهم في تدريس علوم إعتاد الطلبة أن يتلقّوها من العلماء في كلّ زمان ، وكذلك انشغالهم في قضايا المجتمع العادية فقد سخّروا قسطا كبيرا من اهتمامهم لمواجهة الخطر الإسباني وذلك بالتفكير في أنجع السبل لكبح جماحه والتخطيط المتوالي لمقاومته والعمل الدؤوب من أجل الوقوف في

[1]: "المصدر نفسه"، ص: 234.

[2]: "المصدر نفسه"، ص–ص: 147– 224.

وجهه، وقد أخذ هذا الاهتمام من بعضهم كلّ مأخذ فطغى على أحاديثهم وكتاباتهم وتحركاتهم[1].

وحسب إشارة الأستاذ "محمد بوشنافي" فإنّ هذا الوضع المضطرب الذي عاشته المنطقة الغربية للإيالة منذ القرن السادس عشر الميلادي بعد احتلال المرسى الكبير عام 1505م ثم وهران في 1509م عكس بايليكا الشرق والتيطري اللذين عرفا مرحلة طويلة من الهدوء والاستقرار السياسي، كان له أثره البارز على نفسية السكان وخاصة العلماء منهم الذين ركّزوا كلّ جهودهم وكتاباتهم للدعوة إلى الجهاد ضد الكفار. فنجدهم يمجّدون كلّ داي أو باي يسعى إلى طرد الإسبان وتحقيق مبتغاهم بينما يذمّون كل من يتقاعس على أداء هذا الواجب الديني، فأصبح العلماء وطلبتهم رواد حركة الجهاد ضد الإسبان يعتمد عليهم البايات في تجنيد العامة وقيادة الصفوف الأمامية، وهذا ما حدث أثناء الفتح الأول وكذلك الحال في الفتح الثاني[2].

ويمكن إجمال الأثر السياسي والعسكري لهؤلاء العلماء في مواجهة الإسبان إبّان ذلك العصر في نقاط ثلاث هي:

أولا: أثرهم في دعوة الحكام لمواجهة العدوان النصراني على وهران.
ثانيا: أثرهم في الاهتمام بشؤون الجهاد الحربي ضد الإسبان.
ثالثا: مشاركات العلماء الميدانية مع الجيش النظامي في جهاد الإسبان.

1: أثر العلماء في دعوة الحكام لمواجهة العدوان الإسباني على وهران:

من المعلوم أنّ وهران ثغر من ثغور المسلمين فالمسلمون فيها كانوا في احتكاك دائم مع الإسبان يشتدّ في فترات ويخفّ في أخرى، حتّى قال عنهم شارح أرجوزة الحلفاوي :"فلم يكن للمسلمين حينئذ غاية ولا دفاع ولم يبق لهم طمع باجتماع لعدم من يجمع كلمتهم ويشدّ على قتال العدو وظهرهم فتمكّن أنذاك العدو"[3].

---

[1]: يحيى بوعزيز: مدينة وهران عبر التاريخ، الجزائر، دار البصائر للنشر والتوزيع، 2009، ص: 08.

[2]: محمد بوشنافي: "دور الطلبة في تحرير وهران الثاني من الاحتلال الإسباني عام 1791م من خلال مصادر معاصرة"، عصور الجديدة، العدد: 01، جامعة وهران، 2011، ص: 85.

[3]: عبد الرحمن الجامعي: فتح مدينة وهران، تحقيق: مختار حساني، جامعة الجزائر، مخبر المخطوطات، 2003، ص: 45.

وقد غدا الطّول والحول بعد احتلال الإسبان لها فاستأسدوا على المسلمين وكلب داؤهم في كل إقليم، فها هو ابن زرفة الدحاوي يتحدّث عنها قائلا: "....وهذه المدينة –أي وهران– كتلمسان كثيرة الأهوال تلاعبت بها أيد الذهور فغيرت الأحوال ولذلك لم تدم على حال...."[1]. ومع أنّ الداي محمد بكداش وبمساعدة صهره أوزن حسن وباي الغرب آنذاك مصطفى بوشلاغم قد تمكّن من التصدي للاعتداءات الإسبانية واسترجاع المدينة عام 1708م. إلاّ أنّ الإسبان تربّصوا بالمنطقة وأعادوا احتلالها سنة 1732م وبقي هؤلاء يفرضون سيطرتهم المطلقة عليها، رغم محاولات بايات المنطقة المتكررة لطردهم منها إذ وقف هؤلاء الأخيرون – بقدر وسعهم– أمام العدوان الإسباني على وهران. ولكن النصارى من جانبهم –أيضا– استغلّوا الفرص في ذلك العصر لاقتطاع الأراضي، وحالما حدث تقاعس في الجهاد انطلق الإسبان في عدوانهم النّهم والشّرس على المناطق المجاورة للمدينة فأسقطوا العديد منها[2].

وممّا لاشكّ فيه أنّ تلك الانتهاكات العدوانية للأراضي من طرف الإسبان وما نجم عنها من تهاوٍ لكثير من الحصون والقرى والمدن في أيديهم، قد شَهد أحداثها العلماء كغيرهم من فئات المجتمع الجزائري آنذاك وعايشوا مآسيها وتجرّعوا آلامها. ولذلك هبوا – مدفوعين– بما أحدثته تلك المشاهد في نفوسهم من أحاسيس وبما وهبهم الله من وعي لتدابير الأعداء وسبر لمكائدهم، وكذلك بما يدركونه من واجب عليهم تجاه دينهم وأمتهم[3]. كما أخذوا يستنفرون الحكام والناس ويستنهضون الهمم ويُلهبون المشاعر ويستثيرون الحماس ويذكون جذوة الإيمان في القلوب لمجاهدة ذلك العدو والتصدي لأعماله العدوانية وغاراته التخريبية ومخططاته التوسعية، وحين أشار ابن زرفة إلى احتلال الإسبان لوهران أردف قائلا عن حالها: "...يجر في ظلها الرس ويتغنّم من دهرها غفلة الوهن...."[4].

---

[1]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية... "المصدر السابق"، ص: 210.

[2]: محمد بن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص: 203.

[3]: عبد الله بن إبراهيم بن يوسف الزهراني: الشعر وحروب الخلافة العثمانية، رسالة دكتوراه في الأدب، جامعة أم القرى، 1412هـ، ص–ص: 375–383.

[4]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية... "المصدر السابق"، ص: 173.

وبالعودة إلى المصادر ذات الصلة بعصر الدراسة سواءا ما كان منها آثارا خاصة بالعلماء في ذلك العصر أو ما كان معنيًا بسيرتهم ككتب التراجم والتاريخ والأدب وغيرها، بالعودة إليها وتعقّب ما يمكن اعتباره دعوة من جانب أولئك العلماء لمواجهة الإسبان –لا سيما عهد الداي محمد بكداش والباي محمد الكبير– نخرج بجملة متنوعة من الأساليب والمناشط والأدوار منها:

1–1: دور العلماء في تحريض الحكام على الجهاد:

قام العلماء بكتابة فتاوى وأحاديث نبوية بل وحتى سير ومغازي تكشف للحكّام والسكان من وجوب جهاد العدوّ النصراني، ويظهر ذلك جليًّا في تخصيص ابن زرفة الدحاوي فصلا كاملا في كتابه "الرحلة القمرية" عن الترغيب في الجهاد والترهيب لمن تغافل عنه من العباد. مع ذكره لنبذة مختصرة عن فضائله ونشر بعض رُتب الشهيد وفضائله، وقد أشار ابن زرفة أنّ الجهاد واجب بوهران باعتبارها ثغر من ثغور المسلمين على سائر العصور. فها هو في ذكره للرباط وأجر المرابط به يقول: "وفضل بها –أي وهران– الرباط كسائر الثغور وسواحل البلدان، وفضل العمل بالرباط وتضاعف الحسنات له المؤثرة للانبساط وحسن الثور به والاعتباط..."[1].

وزيادة على هذا فلقد كتب المصطفى ابن عبد الله ابن زرفة الدحاوي في رحلته القمرية أنّ سبب تأخّر الفتح ما هو إلاّ تقاعس عن الجهاد، الذي فسّره بأنّه خلود أهل السيف إلى حياة الأمان وضعف الفعّالية القتالية لدى الجنود والفرسان. مُضيفًا إلى أنّ العامة والقبائل المخزنية لم تُبَالِ بوهران والمرسى الكبير متهرّبة من مسؤوليتها تاركة للجهاد رغبة في الدنيا، فمنهم من جزع من القتل والهلع والإنفاق ومنهم من كان يجهل ما في الجهاد من الثواب الجزيل[2].

أمّا عن فتاوى ابن زرفة الدحاوي للترغيب في رباط وهران، فيقول في هذا الصدد: "...وهذا أكبر نص في الترغيب في الرباط بالسكنى في وهران ونحوها من الثغور إذ الدوام والثبوت به... من أنّ الرباط من وراء عورة المسلمين ثابت في سكنى وهران"[3]. وفي

---

[1]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية... "المصدر السابق"، ص: 237.

[2]: "المصدر نفسه"، ص: 237.

[3]: "المصدر نفسه"، ص: 238.

ذكره للترهيب لمن تغافل عن الجهاد فها هو يقول :"هذا وخرج الحافظ المنذري في الترهيب من أن يموت الإنسان ولم يَغْزو ولم يَنْو الغزو وما نصه... هذا وتأسست به رحمة الله تعالى في تأخير الترهيب من ترك الغزو عن الترغيب فيه وإن كان النظر يقتضي تأخير التحلية عن التخلية"[1].

وغير خافٍ أثر فتاوى العلماء في المجتمع خلال العهد العثماني لا سيما إذا صدرت من كبار علماء العصر، إذ يتلقّفها الصغير والكبير ويأخذ بها العالم والجاهل ويتبلّغها القاصي والداني. ففتاوى ابن زرفة في الجهاد – وهو من المقرّبين إلى السلطة ومن كبار علماء البايلك– يُنْتظر أن يتسامع الناس بها فتشيع بين جمهورهم، وتحرّك سواكن قلوبهم لمواجهة الإسبان. وحيث أنّ فتاوى ابن زرفة في الجهاد الآنفة الذكر صدرت منه ردًّا على من تقاعس عن الجهاد من الحكام العثمانيين، فمن المتوقّع أن يتبنّى الحكام تلك الفتاوى فيكون انتشارها في البلاد أكبر ووقعها في النفوس أعظم.

وممّا يُحسب في عداد مجهودات العلماء لمواجهة العدوان الإسباني وتقوية العزائم لدفعه من وهران والمرسى الكبير، تصنيف كتب أو تخصيص فصول من مؤلّفاتهم تتعلّق بالجهاد في الإسلام وما يرتبط به من أحكام، ككتاب "الرحلة القمرية" لابن زرفة وقد أتى وصفه: "وقد خصصت الفصل الأول في الترغيب في الجهاد والترهيب لمن تغافل عنه من العباد"[2] فجاء كتابه هذا في أبواب الجهاد وتفصيل فرائضه وسننه وذكر جمل من آدابه ولواحق أحكامه، وكان فصلا مفيدا استوعب فقه الجهاد[3]. ويبدوا أنّ هذه المصنفات قد كُتِب لها الذيوع بين الناس في ذلك الحين، إذ أنّ مصنّفيها كانوا من العلماء الذين يتقاطر طلاب العلم في المنطقة الغربية على دروسهم.

وشيء آخر يمكن أن يُلحق بهذا الاتجاه وهو ما سلكه محمد عبد الرحمن الجامعي في شرحه لأرجوزة محمد الحلفاوي، والتي تُعدّ معلمة جامعة في فتح وهران الأول 1119هـ/ 1708م. فهو في كتابه هذا فوق عرضه لجوانب متعددة من سيرة الرسول صلى الله عليه

[1]: "المصدر نفسه"، ص–ص: 175– 176.

[2]: "المصدر نفسه"، ص: 160.

[3]: "المصدر نفسه"، ص–ص: 160–177.

وسلم وغزواته وسير أصحابه[1]، والتي تعتبر في حد ذاتها تذكيرا للأمة بماضيها المتألّق الذي يحملها على الاندفاع لمواجهة الأعداء- فهو فوق ذلك عُنِيَ بالكلام عن الجهاد في سبيل الله وما يتّصل به من سلاح وخيل ونحوهما. وفي شرحه لأحداث معركة خيبر سخّرها لإبراز أهمية الجهاد والحث عليه، وقال في ختام الشرح :"ولا شك أنّ الله فضّل المجاهدين على القاعدين لا سيما في الثغور التي هي درب الإسلام وحصنه المانع له..."[2]. ولم يكتف الجامعي بذلك بل صنع قصيدة مطولة في الجهاد، وقد ساق لنا منها ما قاله الحلفاوي الذي شارك في معارك تحرير المدينة -ففي التحريض على الغزو يقول:

ثَمَّتَ نَادَى بالجِهَادِ فِي الوَرَى مُقَدِّمًا مَا كَانَ عِندَهُمْ وَرَا
فَسَارَعَ النَّاسُ لَهُ أَنْ طَلَبَــهُ لاَ سِيمَا جَماعَةْ مِنْ كَلِمَةْ[3]

وممّا لاشكّ فيه أنّ من الأهداف الرئيسية لهؤلاء العلماء- لما صنّفوا كتبهم الآنفة الذكر – تحريض الحكام والناس على الجهاد في سبيل الله، وتذكيرهم بواجب النهوض به ومخاطر القعود عنه وما أعده الله سبحانه للقائمين به من جزيل الثواب وعظيم التكريم. وهذه الأغراض السامية هي التي ينشدها عادةً علماء الأمة في التأليف عن الجهاد، وبخاصة في الفترات التي يتكالب فيها الأعداء على مواطنهم وسكناهم.

وعموما فلقد نوّهت المصادر في مجال آخر إلى تصوير الصراع الجزائري الإسباني في القرن الثامن عشر الميلادي كصراع حضاري صليبي بين المسيحية والإسلام، ونفهم هذا من خلال التنويه بمن استشهد في سبيل الوطن ضد النصارى وبتجنيد وتكافل الرعية مع السلطة العثمانية الحاكمة رغم الخلافات الداخلية في عدة محاولات دفاعية تحريرية. فنجد مثلا التلمساني[4] يحرّض على الجهاد ويجنّد العامة، بالاستناد والاستدلال بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "الجنة تحت ظلال السيوف"[1].

---

[1]: عبد الرحمن الجامعي: فتح مدينة وهران... "المصدر السابق"، ص: 80.

[2]: "المصدر نفسه"، ص: 76.

[3]: "المصدر نفسه"، ص: 82.

[4]: محمد بن رقية التلمساني: هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن الجيلالي بن رقية الجديري التلمساني، لا يُعرف عن حياته سوى أنه عاش في نهاية القرن الثاني عشر للهجرة، الثامن عشر للميلاد، كان يُعتبر من العارفين بالعلوم الفقهية واللغوية وتوفي سنة 1194هـ/1780م عُرف بمؤلّفه "الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة". للمزيد يرجى العودة إلى: ابن رقية التلمساني محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن الجيلاني: الزهرة النائرة فيما

أمّا من حيث الأسلوب العاطفي فقد كتب جميع هؤلاء العلماء انطلاقا من عقيدتهم الإسلامية للتعبير على شعور أممي – الأمة الإسلامية– مشدودين إلى العهود الإسلامية الأولى لا سيما ابن زرفة الدحاوي وأبو راس الناصر، حيث ربط كلّ منهما أحداث عصره بأحداث العصر الإسلامي الأول، وخصّص ابن زرفة دراسة حول الجهاد في الإسلام. كما أصدر عبد القادر المشرفي فتواه في تكفير القبائل العميلة للإسبان، لا سيما قبائل بنو عامر[2]. أمّا ابن رقية التلمساني الذي لم يُخْفِ حماسه الديني ذهب إلى حدّ اختيار عبارات الدعاء على العدو مثل قوله عن النصارى: "الملاعين، الكفرة، دمرهم الله، الطاغية"، ونجده يترحّم على من استشهد وجاء في هذا المجال قوله: "وليعرفوا قدر الجزائر إذ تراب نواحيها معجون بدماء الكفار اللّهم أدمها دار جهاد ومحل عزم واجتهاد إلى يوم التناد بحرمة أشرف العباد وأكرم العباد"[3].

وبالإضافة إلى هذه المؤلّفات الخاصة بالجهاد وفضله، فإنّ بعض العلماء الذين ألّفوا في تفسير القرآن أو شروح السنة النبوية قد توقّفوا عند بعض الآيات أو الأحاديث الخاصة بالجهاد فاهتمّوا ببيانها ووسّعوا مدلولاتها وأحيانا مثّلوا لتوضيحها بواقعهم الذي شاهدوه، أو بما جرى لهم شخصيا في ميدان القتال مع الإسبان. ولعلّنا لا نكون في الخيال مغرقين إذا قلنا أنّ ما تطرّق إليه هؤلاء في كتبهم لابدّ أنّه كان صدى لما يتفوهون به في دروسهم ومحاضراتهم ومجالسهم من أقوال حول الجهاد، والتي سيكون لها كبير الأثر في من يُصغي إليها.

1-2: موقف العلماء من الحكام المتقاعسين عن الجهاد:

لقد عمل علماء وطلبة حواضر بايلك الغرب على تحريك الهمم ودفعها لافتكاك مدينة وهران والمرسى الكبير من الاحتلال الإسباني، إذ لم تَخْلُ المصادر التاريخية المعاصرة للباي محمد بن عثمان الكبير من إبراز فضائل الجهاد اعتمادا على نصوص دينية من القرآن

جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، تحقيق: سليم بابا عمر. مجلة تاريخ وحضارة المغرب، العدد: 03، 1967، ص-ص: 02-32.

[1]: محمد بن رقية التلمساني: الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 2603، ص-ص: 11-17.

[2]: عبد القادر فكاير: دور العلماء والرباطات.... "المرجع السابق"، ص: 286.

[3]: محمد بن رقية التلمساني: الزهرة النائرة....، مخطوط المكتبة الوطنية، "المصدر السابق"، ص: 46.

والسنة النبوية. وكذا أبيات شعرية مثلما فعل الأديب والمؤرخ ابن سحنون الراشدي في كتابه "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني"، يحثّ فيها الحكام والناس على الجهاد قائلا:

أَيَا أُمَّةً غَابَتْ عَلَيْهَا حُلُومَهَـــــا ... وَأَصْبَحَ دَاعِي المشْرِكِينَ يَسُومُهَـــــا
تَوَاكَلَ أَمْرُ الدِينِ أَصْحَابَ أَمْرِهَا ... وَمَا نَفَعَتْ أَهْلَ العُلومِ عُلومُهَـــــا
لهَا هِممٌ مَقصُورةٌ عَنْ سَفَالَـــــةٍ ... ومَا وَجَدَتْ مِنْ نَاسِهَا مَنْ يَلُومُهَـــا
كَسَاهَا طُلّابُ المالِ ثَوْبَ مَذلَّةٍ ... فَصَالَتْ عَليهَا واسْتَجَاشَتْ خُصُومُهَا
أَلاَ يَقضَةً مِنْ رَقْدَةٍ طَالَ وَقْتُهَـــا ... فَلَا أَحَدَ فِي العَالمينَ يَنُومُهَـــــــا[1]

ولا شكّ أنّ مثل هذا الشعر كان له دوره الفعّال في تحريك العزائم وتحقيق الهدف المنشود المتمثل في استرجاع مدينة وهران وإجلاء الإسبان عنها سنة 1792م، حيث أرجع ابن سحنون الراشدي سبب تأخّر الفتح إلى قصور حدث في الهمم مشيرا إلى أنّ هذا المرض هو فشل شمل سائر الأمم. وفي موضع آخر من كتابه الثغر الجماني نلاحظه ينتقل من فكرة القصور إلى فكرة انقطاع الجهاد، مؤكّدا على أنّه لم يبق سوى ذكره بعدما أصابه كساد مستمر إلى غاية أن تقلّد الباي محمد الكبير حكم البايلك الغربي وفي هذا المقام يقول:

أَلاَ تَذَّكَرُوا أَمْرَ الجِهَادِ فإنَّـــــهُ ... بِهِ مِلَّةُ المخْتَارِ صَحَّ سَقِيمُهَـــا
فَكَيْفَ بِأَرضِ الشِّرْكِ وهيَ مَنَازِلُ ... بَدَى نَحْسُهَا عَنْ سَاكِنِيهَا وُشُومُهَا
وَبَعْدُ فَالجِهَـادُ أَصْـلُ البِـــرِّ ... وَقَدْ غَفَا رَسْمًا بِهَذَا البِـــــــرِّ
مِنْ عَهْـدِ شَعبَـانَ وبَكْـدَاشَ ... سَقَى صَدَاهُمَا الغَمَامَ النَاشِـــــئ
فَـلَا يُـرَاعَ لِلعُـدَةِ سِـــرْبٌ ... وَلاَ بِأَرْضِهِمْ تُقَامُ حَـــــرْبُ
ومَنْ مَاتَ فِي تِلْكَ المواطِنِ منكُـمْ ... فَجَنَةُ عَدْنٍ دَارهُ أَوْ نَعِيمُهَـــــا
فَلَا تَرْهَبُوا مِنْ مَانِعَاتِ حُصُونِهَـا ... فَفِي عَزْمِهِ مَالَا تُقَاوَمُ رُومُهَـــا[2]

ويلاحظ أنّ ابن سحنون في نظمه هذا قد حرص على إبراز ما خلّفه الاحتلال الإسباني من بالغ الضرر على الإسلام في وهران، مروّعًا ذلك المنظر من فتك ونهب لأهلها، حيث ساء هذا الكاتب شكوى أهل البلاد ممّا حلّ بهم وكان الخبر بمثابة الفاجعة له لخوفه أن تقع وهران تحت قبضة الإسبان من غير رجعة مثلما حدث للأندلس. فليس هناك

[1]: ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص: 162.
[2]: "المصدر نفسه"، ص: 163.

من يصدّ الصليب عن أهدافه ويستعيد تاريخ مقارعة المسلمين للصليب عهد الداي شعبان ومحمد بكداش وما أبداه المجاهدون وقتئذ من تضحيات في كسر شوكة الغزاة الإسبان، فجاءت قريحته بقصيدة أعاد فيها الإشادة بالحكام الذين أحرزوا النصر خلال الفتح الأول[1] حيث أكّد ابن سحنون على أنهم قد شيّدوا الدين وارتدوا رداء المعالي ولم يثنهم لهو ولا مجون ولا خلاعة لأنهم ليسوا من أصحابها، ويشمّخ أنفه متطلعا لذلك الانتصار، ولكنّه سرعان ما يرتّد حسير الطرف عندما يرى بني عصره وما هم فيه من ذلّ وهوان ولا يخفى ما في تلك المقارنة من حث واستنهاض لِهِمَم معاصريه. وكذا ما فيه من تقريع لهم وذلك لتوقعه –فيما يظهر– أن الباي محمد الكبير كان يومذاك يتوق إلى الحلول محلّ دولة الداي بكداش المحتضرة في مهمّتها الجهادية في وهران، فها قد جاءته الفرصة ليبرهن أنّه قادر على القيام بتلك المهمة.

1-3: أثر العلماء في نشر المرائي القرآنية والخيالية المبشرة بالفتح:

ما يلاحظ هو أنه قد رافق موضوع الحث على الجهاد والرباط ترويج العلماء للمرائي القرآنية بل وحتى الخيالية التي تبشر بفتح وهران، بحيث ذكر ابن سحنون الراشدي عشر مرائي اختلفت صيغتها وتعدّد أصحابها. فقد أورد أنّ طالبا رأى شيخه أحمد بن ثابت[2] وبشّره بفتح وهران وأنّ الناس سَيُغنمون منها كثيرا صدقة على السيد عبد القادر الجيلاني، وفي هذا الصدد يقول ابن سحنون: "....وما زال الأولياء يحضرون ملاحم الجهاد أحياء وأمواتا... يقاتلون بالآلة كغيرهم فيَقتلون ويُقتلون... وأما الأموات فإن أرواحهم تحضر إعانة للمسلمين وإغاثة..."[3].

وعن مشاركة الأولياء في الجهاد أشار ابن سحنون نقلا عن شارح أرجوزة الحلفاوي أنّ: "المسلمين كانوا يسمعون في حصارهم برج العيون صوت مدفع يرمي البرج ويهدم

---

[1]: ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص–ص: 107– 112.

[2]: الشيخ أحمد بن ثابت: أحد علماء الجزائر العثمانية، عاش خلال القرن 18م، ينحدر من العائلة الزيانية المالكة بتلمسان، نبغ في شتى العلوم والفنون والآداب والتاريخ، كما قاد الحصار على الإسبان بوهران مرات عديدة بتجنيده لطلبة العلم وحملة القرآن، أُعتبر من بين المناصرين لحكم الباي الحاج عثمان وأحد المعارضين لحكم عائلة مصطفى أبو الشلاغم المسراتي التي عجزت في الدفاع عن وهران وإنقاذها من الاحتلال الإسباني سنة 1732م، توفي الشيخ أحمد بن ثابت خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي. ينظر: بلبراوات بن عتو: الباي محمد الكبير ومشروعه الحضاري 1779–1797م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، 2001–2002، ص: 309.

[3]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 293.

أطرافه ولا يدرون من أين ذلك ولما فتحوا مرجاج كان الأسرى يقولون لهم: ما لنا لا نرى رجالا كنا نراهم أيام الحصار الأول كأنهم بقية قوم عاد طوال شداد ثيابهم بيض ولحاهم طويلة، كانوا يضربوننا بسيوفهم ونحن على أسوارنا ونضربهم فلا يفيد ضربنا فيهم وهم الذين أخرجونا إليكم، وقد ظهر في قضية الحراس من هذا المعنى ما بلغ حد التوتر وشهد به الجمع المتكاثر"[1].

كما ذكر ابن زرفة الدحاوي في رحلته القمرية اثنتا عشرة رؤية حسنة، منها أنّ أحد الطلبة المجاهدين المرابطين قد رأى في منامه أنّ الشيخ إبراهيم التازي[2] قد بشّره بفتح وهران. ضف إلى ذلك الرؤيا التي مفادها أنّ أحد الطلبة قد رأى في منامه جمعًا عظيما وحفلا كريما به رجال حسان الوجوه والثياب لتلوح على وجوههم كأنهم الصلحاء النجباء ومن ضمنهم الباي محمد الكبير، فقام أحدهم يملئ على الباي رسالة مطلعها سورة الفتح: "إنَّا فَتحنَا لكَ فَتحًا مُبينًا ليغفِرَ اللهُ لكَ مَا تَقدَّمَ مِنْ ذَنبِكَ ومَا تَأخَرَ ويُتِمَ نِعمتَهُ عَليكَ ويَهديَكَ صِراطًا مُستقيمًا ويَنصُركَ اللهُ نصرًا عزيزًا"[3].

وعلى العموم فإنّ تلك المرائي قد تقاسمت جميعها نقطتين الأولى أنها تبشّر بفتح وهران والثانية أنها تُحضّر العامة والأعيان نفسيا، وتُشجع وتُلهم حماس الحكام للجهاد وغزو وهران وتخليصها من الاحتلال الإسباني[4].

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص: 293.

[2]: الشيخ إبراهيم التازي: هو إبراهيم بن علي بن مالك اللنتي التازي تلميذ الشيخ الهواري وخليفته في عمله وطريقته. وهو من علماء القرن التاسع الهجري (15م)، كان متضلعا في علوم الفقه والحديث وقول الشعر الصوفي وعلوم اللغة والبلاغة والأدب، كما تحمس لبناء المساجد والزوايا وعمل على إدخال الماء للمدينة –أي وهران– فأحبه الناس توفي سنة 866هـ/ 1467م فدفن في وهران ثم نُقل إلى قلعة بني راشد بعد الاحتلال الإسباني لها. ينظر: "المصدر نفسه"، ص–ص: 188– 191.

[3]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق"، ص: 191.

[4]: وللإشارة فإنّ الباي محمد الكبير قد كان يتبرك بالأولياء أمثال الشيخ محمد الهواري وعبد الرحمن الثعالبي وأبي مدين والسيد أحمد بن يوسف والسيد محمد بن عودة والسيد عبد القادر الجيلاني ليحضر بهم القتال تَبركًا، فأثناء مخاطبته –أي الباي– لجيشه أشار إلى أنه عازم على فتح وهران بتصديقه لإشارات الأولياء ومبشراتهم الصادقة المنبئة له. للمزيد من الاطلاع على جميع المرائي المبشرة بالفتح يرجى العودة إلى: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص–ص: 206– 208. وعن تبرك الباي بالأولياء ينظر: "المصدر نفسه"، ص–ص: 274– 275. وأيضا ص: 297.

وممّا يندرج في مناشط العلماء للوقوف في وجه الإسبان بوهران في تلك الفترة تخصيص دروس في المساجد للتحريض على جهادهم، فقد تعرضت مجالس الدروس وحلقات العلم التي كان يعقدها علماء معسكر في المدارس والزوايا والمساجد إلى الدعوة إلى الجهاد والرباط بوهران. فمثلا الجامع الكبير بمعسكر لم يقتصر دوره على أداء الصلاة فحسب بل وكذا القيام بوظيفة الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله من خلال إلقاء الدروس وتنظيم المناظرات الفكرية بين العلماء والطلبة في باب الجهاد وفضائله، وبالتالي لا نستبعد أنّ طلبة معسكر قد تهيئوا فكريا لتقبّل أيّ دعوة إلى الجهاد ضد الإسبان، وهو ما حدث عند تلبية علماءها لدعوة الباي محمد الكبير، حيث أُعتبر علماء وطلبة المدرسة المحمدية أول المستجيبين لنداء هذا الباي مرفوقين بعدتهم سلاحا وغذاءا ودراهما.

1-4: دور العلماء في تحريض الحكام على الجهاد عقب سقوط المدن:

لعلّ من الأساليب التي أخذ بها العلماء لاستثارة حماس الحكام والناس وحفزهم للتضحية في سبيل الوقوف في وجه العدوان الإسباني، هو عرضهم نثرا وشعرا أحداث وتواريخ مدن أندلسية سقطت في وقت قد مضى تحت يد الكفرة الإسبان، وما صحب ذلك من جرائم شنيعة وأفعال دنيئة اقترفها النصارى في حق المسلمين[1]. فأبو راس الناصر صنّف كتابا سماه "الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية" صوّر فيه ما جرى لأهلها من أهوال بأسلوب يُبكي القارئ ويذهل العاقل –على حد قول أحد المؤرخين–، حيث قصد من ذلك شرح ظروفها حينما هاجمها النصارى ثم بيان ما ارتكبه هؤلاء الغزاة في حق أهلها من القسوة والعنف والتنكيل. وكأنّه أراد بعمله هذا أن يُنبّه سكان بايلك الغرب إلى الخطر الذي يهدّد كيانهم، ويدفعهم إلى الاستعداد رفقة من يتولى شؤونهم – من الحكام– والاحتياط لأنفسهم قبل فوات الأوان في سبيل تحرير وهران[2].

---

[1]: وللإشارة فإن العالم أبو راس الناصر قد ذكر في كتابه عجائب الأسفار كلّ مدن الأندلس الإسلامية التي أخذها الكفرة الإسبان. للمزيد عن هذا الموضوع يرجى العودة إلى: بوركبة محمد: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار للشيخ أبي راس الناصر المعسكري (1165– 1238هـ/1751–1823م): دراسة وتحقيق، رسالة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران: 2007–2008، ص: 497.

[2]: أبو راس الناصر: الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية، الجزائر، مطبعة فونطانا، 1903، ص–ص: 01–28 وللمزيد ينظر:

Abou- Ras En-Nasri : Les vêtements de soie fine au sujet d'Oran et de la péninsule espagnole, Traduction par : Générale. Faure- biguet, Alger, Imprimerie Orientale, p. Fontana, 1903, p-p : 01-31.

وممّا لا شكّ فيه أنّ تداول تلك المؤلفات والكتب بين الناس وروايتها عمّن قام بالجهاد دليل مقنع –فيما يبدوا– على أثرها في إشعال حرارة الحماس، وإذكاء روح الفداء بين السكان لمجابهة أعدائهم.

وثمة علماء من الناحية الغربية رثو بالشعر الأندلس بصفة عامة أو مدنًا معينة منها بصفة خاصة، فكانت استجاشة عواطف المسلمين وشدّ عزائمهم لمواجهة العدو الإسباني إحدى المقاصد التي استهدفها أولئك العلماء الشعراء في مؤلفاتهم التي نظّموها في ذلك الغرض، فأبو راس الناصر بكى الأندلس بقصيدة طويلة حيث قال:

سَأَلْتُ القَوْمَ عَنْ أَنَسٍ فَقَالُــوا بِأَنْدَلُــسٍ وَأَنْدَلُــسْ بَعِيـــــدُ
يَا شَرَّ مَا جَنَتْ بُقْعَةُ العُقَابِ لَنَا بِهَا سَاءَتْ عَوَاقِبُ قُطْرِ أَنْدَلُسُ[1]

فهذه الأبيات التي اشتهرت بين الناس وإن كان طابعها العام رثاء الأندلس، فإنها تحمل في طياتها دعوة قوية للتصدي للخطر النصراني بوهران. فإنّ فيها ثروة عاطفية حقة قادرة على إثارة المشاعر وحفز الهمم، يظهر ذلك في الوصف المؤثر لأوضاع المسلمين بمدن الأندلس وقد أحدق العدو بهم والمقارنة بين حالها أيام قوة المسلمين وحالها بعد ضعفهم. وإبراز خطر الأعداء على التراث الإسلامي وجماعة المسلمين الذين قُتِل كثير منهم فكثر الأيامى واليتامى، وأصبحت البلاد ملاذا للكفار بعدما كانت عامرة بأهل الإيمان.

كما هَوّنَ أبو راس من شأن العدو الإسباني، فأكد أنّه ليس بذي قوة لولا ما حصل من جانب المسلمين الذين تخاذلوا عن لقائه وتهافتوا على مُسالمته فتوسع على حسابهم. ثم بيّن أنّ نصرهم على العدو ليس ببعيد المنال إذا هُمْ أنابوا إلى ربهم واستغفروه، لا سيما وأنّهم يملكون وعدا ربانيا بالنصر المؤزَّر على الكفرة. فكأنه أراد بذلك كلّه أنْ يُعيد الثقة إلى الناس، ويزرع الأمل في نفوسهم لمواجهة الاحتلال الإسباني[2]. كما يُظهر أبو راس في ذلك تأسفه وتحسره الشديد على ضياع الأندلس فعواطفه قد كانت واضحة وهو يكتب حولها متمنيا

[1]: أبو راس الناصر: الخبر المعرب عن الأمر المغرب الحال بالأندلس وثغور المغرب، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 3182، ص: 107.

[2]: عبد القادر فكاير: آثار الاحتلال الإسباني على الجزائر خلال العهد العثماني (10– 12هـ/ 16–18م)، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، 2008–2009، ص: 249.

بعودتها إلى أصحابها، ولم ينس الدعاء في هذا الموضوع وهو يقول: "اللهم افتح لنا الأندلس كما مننت بفتحها علينا يا رب العالمين".

وينوّه أبو راس بموضوع الأندلس وما جرى لأهلها في مناظراته بين علماء الأمصار، منها مناظرته مع شيخ الأزهر وجماعة من العلماء، حيث قال شيخ الأزهر: "الحمد لله الذي عوضنا عنها بالقسطنطينية"، فأجاب أبو راس بأنّه هو كذلك يحمد الله ولكنّه علّق على ذلك قائلا :"إن لم تكن إبل فمعز"، مشيرا إلى أنّه مهما كان العوض فلن يغني الله عن الأندلس شيئا في نظره، وهذه إشارة بليغة تخرج من عند مؤرخ يقدّر الحوادث التاريخية[1].

1-5: إشادة العلماء بفضل الرباط والجهاد بوهران:

ممّا يغلب على الظن أنّ إبراز فضائل وهران وخصائص سكناها وفضل الرباط وأجر المرابط بها في مؤلفات كتبها بعض رجال العلم في الفترة التي ندرسها، كان من أهدافه إيقاظ الناس وتأجيج مشاعرهم نحو بلادهم المهدّدة من قبل النصارى الإسبان. فابن زرفة حشد في كتابه الرحلة القمرية أحاديثا وأثارا في فضل سكنى وهران، وفضل المرابطة بها كسائر الثغور على ممرّ الزمان[2]. بل الملفت للنظر أنّ ابن زرفة لما اقتبس أخبار غزو وهران في الجاهلية والإسلام خرج عن الاقتباس وراح يثبت بكلام مسهب أنّ حصار وهران شبيه بحصار الطائف، في محاولة منه لإجراء مقارنة بين الماضي الإسلامي والفتح الوهراني سنة 1792م[3].

ومن صور الاستنفار لمواجهة الإسبان في زمن البحث إبراز العلماء لماضي الأمة المجيد وعلى الخصوص ما يتّصل بعصر النّبي صلّى الله عليه وسلّم والصحابة الكرام رضي الله عنهم، وذلك بالكتابة عنه وإذاعته بين الناس. فالرعيل الأول من هذه الأمة ضربوا أروع الأمثلة في العزة والشجاعة إزاء أعداء الملّة وقدّموا دماءهم رخيصة في سبيل نشر هذا الدين والذّود عنه، فذيوع مثل هذا بين الحكام والناس سَيُفجِّر -بلا شك- روح التضحية والفداء

[1]: نقلا عن: حمدادو بن عمر: أبو راس الناصر المعسكري وكتاباته التاريخية 1155- 1238هـ/ 1737-1823م، مذكرة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2002-2003، ص: 120.

[2]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية... "المصدر السابق"، ص-ص: 237-238.

[3]: "المصدر نفسه"، ص: 299.

ويحرّكهم لمحاكاة فعل أولئك السلف والاقتداء بهديهم وترسم خطاهم. وساعتئذ تنقدح العزة الإسلامية فيهم، ويهبوا لمقاتلة الإسبان بوهران. فتأمّل ما وضعه كلّ من ابن سحنون وابن زرفة، حيث أشاروا إلى أنّ هؤلاء الخلفاء قد توالت في أيامهم الغزوات والفتوح واستطاعوا التغلب على طوائف الشرك والكفر ثم أفصحوا عن الغاية التي كانوا يرونها من جميع تلك الغزوات، وهي أنْ تنبعث الهمم الأبية وتتجرد العزائم فيُحتدى ذلك الحذو ويمتثل ذلك المثال[1].

ويلاحظ أنّ التأليف عن عصر النبي صلى الله عليه وسلّم والصحابة رضوان الله عنهم أصبح سمة مميزة من سمات ذلك العصر، حيث صنّفت مجموعة من الكتب والقصائد في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومغازيه ونبوته وشمائله ومعجزاته، وفي مدحه وأزواجه وأهل بيته وأصحابه وفي فضائل الصحابة ومغازيهم.

ومن المتوقّع أن يكون لمثل هذه المصنّفات أثر في إنهاض الناس لجهاد الإسبان بوهران، لا سيما وأنّ الحكام في ذلك الزمان –الباي محمد الكبير بالخصوص– اهتموا بهذا اللون من التصنيف. فأمروا العلماء بالتأليف فيه وشجّعوا على الكتابة عنه، كما صارت كتب المغازي –مثلا– تُقرأ في مجالس بعضهم، فضلا عن كَون بعض تلك الكتب قد قدّر لها الانتشار بين طلبة العلم لا سيما بحاضرتي معسكر ومازونة.

ومن ناحية أخرى فإنّ فريقا من أهل العلم –حرصا منهم فيما يظهر– على شحن الناس لمحاربة الإسبان، عادوا يُقلِّبون صفحات التاريخ المتعلّق بمدينة وهران وذكر من غزاها في الجاهلية والإسلام. وينوّهون في كتاباتهم بأسلافهم الذين كانت لهم وقائع مشرّفة أيام فتحها ضد أولئك الأعداء، وفي هذا المقام يقول ابن زرفة : "... الرابع– أي الفصل الرابع من الكتاب– في التعريف بوهران وذكر ما حضرني فيمن غزاها في الجاهلية والإسلام...."[2]. حيث صاروا يستعيدون ذكرى وتاريخ تأسيس المدينة ومؤسّسها، وخير دليل على ذلك ما قام به العالم أبو راس الناصر في مؤلَّفه "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار"، والذي سعى كثيرا إلى الإشارة بتاريخ فتح وهران ولم تكن لديه من وسيلة أبلغ من

---

[1]: وللإشارة فإنّ ابن سحنون قد تطرق إلى ترجمة لشخصية صلاح الدين الأيوبي وفتوحاته. ينظر: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص–ص: 167–182.

[2]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية..... "المصدر السابق"، ص–ص: 159–210.

وضع ذلك في قصيدة عنونها "نفيسة الجمان في فتح ثغر وهران"، ليترجمها بعد ذلك إلى نص نثري وضعه تحت عنوان "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار". فهو يتعرّض إلى وهران وتاريخها ثم المغرب الإسلامي وحدوده القديمة والبحر المتوسط والأقوام القريبة من شواطئه الغربية، مُبرزا كفاح المغرب الأوسط وبخاصة جهاده ضد الاحتلال الإسباني لوهران[1].

ويبدوا أنّ سرّ اهتمام هؤلاء العلماء بتاريخ المدينة –أي وهران– بالذّات، لأنّه يصوّر جهود الأمراء والمرابطين في الحفاظ على انتشار الإسلام بها. وما آلت إليه في عهد الإسبان وسياستهم بعد دخولهم إليها، فكأنهم أرادوا زرع التفاؤل في نفوس الناس، ودفعهم– حكاما ومحكومين– لتخليصها بعدما استأسد النصارى الإسبان بها.

وهكذا – فيما فات من كلام– تعرّفنا على ما بذله العلماء من مجهودات وما أنفقوه من أوقات في سبيل تحشيد طاقات جماعة المسلمين في وهران لجهاد الإسبان، والتصدي لزحفهم المتنامي وانتهاكاتهم الوحشية وغاراتهم المسعورة على أراضي إيالة الجزائر. وصفوة القول أنّ أثر العلماء السياسي في مواجهة الإسبان أواخر العهد العثماني توزّع بين استنفار الأمة وطاقاتها للجهاد، وحرص مفرط على وحدة الإيالة واستصراخ للحكام في السنوات التي حدث فيها تقاعس للمرابطين على مقاومة وحصار الإسبان بوهران.

2: مظاهر عامة لاهتمام العلماء بشؤون الجهاد الحربي ضد الإسبان:

بحكم أنّ وهران ثغر من ثغور المسلمين، علاوة على أنّها كانت على مرّ العصور دار جهاد وموطن رباط، أمّا أهلها فقد وُصفوا بأنهم أصحاب جهاد متّصل، وحين تكلّم عنها ابن زرفة –أحد المعاصرين لزمن الدراسة– رأى: "أنّ كل مرابط بوهران إنما هو مرابط في سبيل الله كسائر الثغور وسواحل البلدان...."[2]. وقد كُتب لعلماء الناحية الغربية الذين هم أدرى الناس وأخبرهم بفريضة الجهاد في وهران أن يكونوا في صدارة هذه الفئة المخلصة التي عناها ابن زرفة، فالعلماء قاطبة أولى من غيرهم في فهم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الواردة في الجهاد واستيعاب مدلولاتها، ثم تمثل ما جاء فيها من سُنن وأحكام[3]. وعلى هذا بذل كثير من العلماء ما في وسعهم واستفرغوا طاقاتهم في الجهاد الحربي ضد

---

[1]: عبد القادر فكاير: آثار الاحتلال الإسباني.... "المرجع السابق"، ص: 249.

[2]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق"، ص: 237.

[3]: عبد العزيز البدري: الإسلام بين العلماء والحكام، ط2، دار القلم، الكويت 1986، ص: 253.

أعدائهم الإسبان المتواجدين بوهران، فكأنّهم وضعوا نصب أعينهم قول الله تبارك وتعالى: "انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"[1]، فاجتهدوا في تحقيقه والعمل بمقتضاه.

وزيادة على هذا فإنّ لدينا شذرات متفرّقة ومجهودات متناثرة ذات صلة وطيدة بالجهاد الحربي للعلماء ضد الإسبان زمن البحث يصعب نظمها في سلك واحد أو ترتيبها في موضوع محدد، لكنّها – على أي حال– تُعَبِّر بجلاء عن وقوف العلماء إلى جانب الحكام العثمانيين واهتمامهم بالجهاد الميداني المضاد للقوى الإسبانية بوهران وتشبّعهم المغرق فيه ومعايشتهم لفصوله أولا بأول. وسنحاول فيما يوالينا من صفحات الإحاطة بجهود هؤلاء العلماء في هذا المجال، وتبيانها مقسّمين ذلك على عنصرين هما:

- دور العلماء في نشر الوعي العسكري وفي بناء الجيش العثماني.
- دور العلماء في التعريف بالوسائل القتالية.

2–1: دور العلماء في نشر الوعي العسكري وفي بناء الجيش العثماني:

شهدت مدينة وهران خلال القرن الثامن عشر الميلادي كثيرا من الحروب والمعارك مع الإسبان، وقام العلماء خلال ذلك بدور جهادي آخر وفقا للظروف الحربية السائدة يتمثّل في إسداء النصائح والإرشادات ذات الطابع العسكري للقادة والجنود وتوجيههم إلى ما فيه سلامة الجيش والنيل من العدو. وكانت هذه النصائح إمّا على شكل رسائل إلى القادة أو تسجيلها في مؤلفاتهم العلمية، واختص عدد من هذه المؤلفات في دراسة الحروب والمعارك، كما تضمّنت إشارات عسكرية عدّة مثل تعبئة المواكب والحيل العسكرية والمناورات والأساليب القتالية وطرق الدفاع والهجوم، وتكون هذه الإرشادات العسكرية أحيانا على شكل قصائد شعرية.

ومن وجهة نظر بعض العلماء أنّ ثقافة الحروب من الأهمية بمكان لذا وجب تعلّمها، فمن ذلك ما ذكره ابن زرفة عن الرمي: "...أعلم أنّ الرمي وتعليمه بنية الجهاد في سبيل الله تعالى والمسابقة به ممّا ندب به صلّى الله عليه وسلم وخطّ عليه... لأن قوة الرمي أول القوة... تقوية لقلوبهم وزيادة لنشاطهم وترغيبا لهم..."[2].

---

[1]: سورة التوبة، الآية: 41.

[2]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية... "المصدر السابق"، ص–ص: 356–357.

كما ذكر ابن زرفة حوارا دار بين الصحابيين خالد بن زيد وعقبة بن عامر، وهذا الحوار فيه درس وعبرة لأهمية الرمي وتعليمه بنيّة الجهاد في سبيل الله، وممّا جاء فيه: "... فقد قال خالد بن زيد كنت رجلا راميا فكان يمر بي عقبة بن عامر فيقول يا خالد أخرج بنا نرمي، فلما كان ذات يوم أبطأت عنه فقال خالد أخبرك ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة صانعه يحتسب في صنعته الخير والرمي به ومن يليه وأرموا وأركبوا، وإن ترمي أحب إلي من أن تركبوا وليس اللهم إلاّ في ثلاثة تأديب الرجل فرسه وملاعبة أهله ورميه بقوسه ونبله ومن ترك الرمي بعدما تعلمه فهي نعمة تركها أو قال كفرها...."[1]. كما يشير ابن زرفة إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم عن الرمي والترغيب فيه قائلا: "...أرموا يا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميا"[2].

إنّ الإرشادات العسكرية والتوجيهات العديدة في فنون القتال تقود إلى حقيقة إلمام العلماء بالفقه العسكري، وهذا من نتاج انخراط العلماء في الصفوف الأولى لكتائب المجاهدين بالشكل الذي أتاح لهم فرصة تكوين مبادئ وتفصيلات الفقه العسكري بالإضافة للفقه الديني.

ونظرا لمشاركة العلماء في الجهاد العسكري ضد الإسبان أو متابعتهم لسير العلميات الحربية ومستجداتها على جبهات القتال وخطوط التماس بين الطلبة والجند المرابطين وأعدائهم، فقد عرض بعضهم للأحداث عبر رسائل وانتقادات، بل وحتى تقارير فاجتهدوا في تحليل دقائقها وتفسير تطوراتها، وربما وضعوا تصورات لمستقبل الصراع العثماني الإسباني في ثغر وهران. ففي إحدى المرات التي خرج فيها ابن سحنون للجهاد برباط وهران وقف وقفة معارض لبعض قادة الجيش الذين شكّكوا في نجاح الرباط الذي أحياه الباي محمد الكبير، ناقدا إياهم بقوله: "ولقد كان الناس حين أمر بجمع الطلبة بيفري مستبهمين للأمر ظانين أنه مما لا فائدة فيه، فلما رأوا نجح تدبيره بتضييق الطلبة على الكفرة وقتالهم إياهم أينما رأوهم حتى عجزت عنهم طاقة الكفار واحتاجوا إلى طلب المسالمة بتسليم البلاد،

[1]: "المصدر نفسه"، ص: 356.

[2]: "المصدر نفسه"، ص: 356.

وصرحوا بأنهم أذوهم أشر الإذاية ونكوهم أكبر النكاية، تبين للمعترضين أنهم كانوا في أودية الضلال يهيمون وأن اعتراضهم معترض بل هم قوم لا يفهمون...."[1].

ولقد أبدى ابن سحنون فزعه الشديد جرّاء استرجاع الإسبان لوهران سنة 1732م، بعدما وقع خلاف شخصي بين ابن باشا الجزائر وباي وهران مصطفى بوشلاغم[2]. لكن ابن سحنون رَجَّح أنّ سقوط المدينة قد تمّ بفعل تجاوزات هذا الباي قائلا: ".... وأبو الشلاغم عفا الله عنه كان قد استفتح أمره فيها بالعسف والقتل الكثير على الأمر الحقير وغير ذلك مما حرص به على عمارتها فاستوجب أن أخذت من يده، ثم ختم أمره فيها بأن تركها بعد الإشراف على فتحها حسدا..."[3].

ثم عاد ابن سحنون بعد هذا التحليل ليعطي رأيه حول ما آلت إليه مدينة وهران فتوقّع- حسب ما توفر عنده من معلومات وما يملكه من نظرة عسكرية- أنها قد سقطت بسبب انهيار الدول البربرية[4] بالمغرب، الأمر الذي شجّع المسيحيين من إسبان وغيرهم في الهجوم على البلاد[5] فيقول: "... فكانوا لا يقرون لملوكهم على قرار ولا يزالون يثورون على حكامهم في سائر الأعصار والأقطار.... وهرمت دولهم فأوفت شمسها على مرقب الغروب، واستولى الخراب على مدنهم وقراهم....ولما خمدت نارهم وبادت ملوكهم وثوارهم طمحت إلى بلدهم نفوس الكفرة المتغلبين على عدوة الأندلس فانتزوا على وهران فانتزعوها"[6].

---

[1]: ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص-ص: 140-141.

[2]: لقد كان سبب الخلاف حول أسير من الإسبان تنازع ابن السلطان مع الباي مصطفى بوشلاغم عنه بين إخلاء سبيله أو قتله، حيث رفض الجيش ما صدر عن ابن السلطان بتخلية سبيله فسمع الباي بوشلاغم بذلك فقام بقتله لإطفاء نار الفتنة على حد تعبير ابن سحنون، للمزيد ينظر: "المصدر نفسه"، ص: 193.

[3]: "المصدر نفسه"، ص: 194.

[4]: ذكر ابن سحنون زعماء البربر وملوكهم والأدوار التي قاموا بها عبر التاريخ، ومن بينهم: "يوسف بن تاشفين ملك لمتونة وعبد المؤمن بن علي شيخ الموحدين ويعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين ويغمراسن بن زيان سلطان بني عبد الوادي وثابت بن منديل أمير مغراوة أهل شلف، و وزمار بن إبراهيم زعيم بني راشد ومحمد بن عبد القوي بن وزمار كبير بني توجين". "المصدر نفسه"، ص: 437.

[5]: "المصدر نفسه"، ص: 437.

[6]: "المصدر نفسه"، ص-ص: 437-438.

وعموما فابن سحنون رجّح أنّ فتحها في تلك الآونة لن يقع- حسب رأيه- لسببين: أحدهما: ما لوحظ من التحصينات العسكرية القوية للإسبان، والذي حال دون استعداد الطلبة والجند للمرابطة حولها. والسبب الآخر: المجهودات غير الكافية التي كان يبذلها بعض القادة العثمانيين في تلك النواحي لإضعاف الجيش الإسباني، مؤكدا ذلك بقوله:".... ومازال الكفار يحصنونها في كلّ حال فصار فتحها من قضايا المحال...."[1].

و لقد أسهم العلماء في بناء الجندي العثماني من خلال مؤلّفاتهم التي بيّنوا فيها صفات الجندي المسلم وسبل إعداده، فها هو شارح أرجوزة الحلفاوي يقول عن الجيش :"... وسمي الجيش جيشا لجيشانها في تحركه من جاش إذا تحرك، ويسمى الخميس لانقسامه على خمسة أقسام مقدمة وساقة وجلب وجناحان، وقوله خمس الدين أي منعه من عبث الأعداء به ونصره عليهم... هذا الجيش الذي حمى الدين..."[2]. ولأنّ الجندي المجاهد مهمّ -كما سبق- فمن الضرورة أنْ يتحلّى بخصال وصفات عدّة ذكرها ابن سحنون الراشدي بقوله:"... والكمي الشجاع جمعه كمات ويطلق على لابس السلاح... إذا كان شديد القلب رابط الجأش فهو مرير فإن كان عبوس الشجاعة والغضب فهو باسل، فإن كان يبطل الدماء فلا يدرك عنده ثأر فهو بطل، فإن كان يركب رأسه لا يثنيه شيء عما يريد فهو غشمشم...."[3].

ومن الوسائل التي تهدف إلى تقوية روح الجند المعنوية قبل خوض غمار المعارك إذاعة بعض الأخبار التي تُبشِّر بالنصر[4]، ومن أمثلة ذلك الرؤيا التي رآها الفقيه الناسك محمد بن عبد الله الجيلالي، إذ رأى في النوم قبل زمن الطاعون كأنّه يدور بالأبراج خائفا من المدافع فقيل له أنّ وهران فُتِحت ورأى المسلمين قد عمروها، فعزم على سكناها وسمّاها

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص: 186.

[2]: عبد الرحمن الجامعي: فتح مدينة وهران...، "المصدر السابق"، ص-ص: 76-77.

[3]: ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص: 272. وللمزيد عن الكتيبة والجيش وتعريف اللغم يرجى العودة إلى نفس المصدر، ص: 273.

[4]: حيث يروي صاحب الثغر الجماني أنّ والدة الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي رئيس رباط وهران وهي من الصادقات، قد رأت كأنها فُتحت- أي وهران- وسكنها بعض أولادها فكانت تعدهم بذلك في زمن صباهم. ومن ذلك أيضا أنّ الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي قد لقيه وهو ذاهب بالطلبة إلى إيفري رجل من أهل السر والفضل، فقال له: إني رأيتك في مدينة خالية فقلت لك ما أتى بك هاهنا؟ فقلت لي: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي: إسبقني حتى ألحقك. "المصدر نفسه"، ص-ص: 207-208.

مدينة مغراوة محلّ البيع والشراء فاستيقظ فرحا مسرورا، ولمّا علم ابن سحنون بقصة الرؤيا نشرها بين الجنود لرفع معنوياتهم[1].

2-2: دور العلماء في التعريف بالوسائل القتالية:

قدّم العلماء معلومات مفصّلة عن أصناف الأسلحة كونها إحدى أداوت القتال ولِمَا لها من أهمية بالغة في تسيير مجرى المعارك، وهم بذلك يُقدّمون للمجاهدين- من متطوّعة وجيش نظامي- خبرة عسكرية في آلية استخدام الأسلحة. ومن الأسلحة التي ذكرها العلماء المهارس والمدافع والألغام بل وحتى كيفية صناعة البارود، ودور الخيول أثناء خوض المعارك والحروب[2].

ولقد انعكس خوض بعض العلماء غمار المعارك مع النصارى الإسبان على كتاباتهم فصاروا يتحدثون عن الشؤون الحربية وآلاتها- إذا تطرقوا إليها- حديث من خبرها ومرن عليها وعرف جيّدها من رديئها، فعن اختبار قائد الجيش لجنده من حيث طاعتهم له يقول ابن سحنون عن الباي محمد الكبير: "... وعلى قوة هذا الجند وكثرة كماته فإنه لا يعصيه في أمر ولا يخالفه في مقصد بل يتبعه مطاوعا له حيث سار وتوجّه، فكأنه ظلّه لا يسأل عن السبب الذي ركب لأجله، كما أن الظلّ لا يسأل متبوعه عن ذهابه..."[3].

وحينما تحدث ابن سحنون عن التعبئة للقتال أشار إلى أهمية صنع البارود قائلا: "... والبارود هو هذا التدبير العجيب الذي أبطل آلات القتال منذ قعقعت رعوده في مواطن الحروب وتلاعبت بنادقه ورنت فأوقفت الأرواح على شرف الغروب، فياله من تراب يهشم الحديد فلا تمنع الدروع المضاعفة من سهمه السديد ولا يقى منه الترس الشديد، يهدم الجبال ويقتل الأسود والأفيال ويخرب الحصون ويفتك كل حرم مصون..."[4].

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص: 207.

[2]: وللإشارة فإن ابن سحنون قد أشار في مؤلَّفه إلى التعريف بالجيش الذي هو حسب تعبيره يتكون من ألف إلى أربعة آلاف، وكذلك الفيلق والجحفل ثم الخميس والكتيبة السرية. هذا بالإضافة إلى إشارته إلى اللغم والمدفع، والمهارس والبونبات والمتارس. وللمزيد ينظر: ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص-ص: 272- 273.وأيضا: ص-ص: 278- 279. وأيضا: ص-ص: 246-247.

[3]: "المصدر نفسه"، ص: 364.

[4]: "المصدر نفسه"، ص: 104. وللإشارة فإن ابن سحنون قد نقل وصف تركيبة البارود من المصادر التي تحصّل عليها، فبيّن أماكن تواجده وطريقة تحضيره. للمزيد ينظر: "المصدر نفسه"، ص: 105.

وشيء لاحظه ابن سحنون في طلبة العلم والجيوش العثمانية المرابطة بوهران والذين صحبهم كثيرا في الجهاد[1] وهو استخدامهم للبارود بكثافة حال مجابهة الإسبان فسجّله في مؤلَّفه بقوله: "... دوام أمطار البارود الشبيه دخانه بالسحائب المتكاثفة البناديق الرصاصية الشبيهة بالقطر في وقوعها وبالبرد الضخم في قدرها ومدة سل السيوف من أغمادها....، وكأن حدها ثغر مبتسم في مواطن الحروب الشبيهة في كثرة المقاتلين بها بالسوق القائمة التي نفقت السلع بها فاجتمع لها الناس من كل مكان ودام ذلك أي أمطار البارود البناديق، وافترار استعرت للنصر اسم الهلال المراد به البدر وللفتح اسم النور..."[2].

وممّا يُسجّل لأبو راس الناصر في هذا الجانب أنّه كان مهتمًا بالتعريف بالوسائل القتالية ولذلك كان يحرص كل الحرص على التطرق لها في مؤلفاته، ومن ذلك قوله: "... المدافع والبونبات آلتان عظيمتان استحدثهما الكفرة آخر القرن الثامن فبظهورهما ذهب وبطل أمر المنجنيق، وكان حدوث البارود وسط القرن الثامن قبل المدافع وذلك أن حكيما يعالج صنعة الكيمياء حتى اتفق له أنه صنعه وجعله في محل ضيق وأحماه فبرفع محله وتعجبت من أمره ودهش من قوته... ثم عمّت به البلوى في سائر الأقطار..."[3].

ومن نماذج ذلك أيضا ما قدّمه شارح أرجوزة الحلفاوي عن أنسب الطرق لصناعة المهارس، كما ويضع بين يدي المجاهد الآلية السليمة لاستخدامها وهو يتحدث بشكل تفصيلي في هذا الأمر قائلا: "... ووجه الشبه أن كورها هذه الرعدات تصنع فارغة القلب على هيئة القدر فإذا أراد رميها ملئت بالبارود ملئا محكما على هيئة لا يمكن خروج البارود منها إلا إذا انكسرت، ثم يجعل في فمها فتيل مشغول مقدر بتقدير لا ينفد معه بأقل النار نزوله في المكان، فإذا رميت من المهراس جعدت إلى عنان السماء ثم تنزل إلى المحل المقصود بها فيظهر الفتيل في أثناء ذلك في إشتعالة وامتداده بنزلة نجم الرحم..."[4].

ومن المعلوم أنّ الخيل كانت إحدى العناصر المهمة في عدّة الجيش العثماني المجاهد للنصارى الإسبان[5]، فكانت الحاجة ملحّة إلى الاستكثار منها[1]. ولذا فإنّ احتفاء بعض

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص: 235.

[2]: "المصدر نفسه"، ص: 107.

[3]: بوركبة محمد: عجائب الأسفار... "المرجع السابق"، ص: 457.

[4]: عبد الرحمن الجامعي: فتح مدينة وهران.... "المصدر السابق"، ص-ص: 94-95.

[5]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 319.

العلماء بها من خلال كتاباتهم زمن الدراسة يمكن تصنيفه ضمن المظاهر العامة لجهودهم في حقل الجهاد الحربي المضاد للإسبان، فثمة فريق منهم نوّه بأهميتها في الحروب وأثرها في هزيمة العدو. فابن سحنون الراشدي يؤكد أنّ الخيل هي أصل الحروب وأوزارها لما فيها من الغنيمة المستفادة للكسب والمعاش وما تُوصل إليه من قهر الأعداء وغلبة الكفار وإعلاء كلمة الله، فيقول في هذا الصدد: "وقال جرير بن عبد الله: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلوى ناصية فرسه بأصبعه وهو يقول: الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والغنيمة، وقال الله تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ) فثبت بهذه الآية وتأكد حفظ الخيل، لأنه لا يكون عدة ينكى بها العدو إلا مع صونه وعدم امتهانه....."[2].

وعلى ما يبدوا أنّ الخيول من أكثر العناصر أهمية في الحرب في وهران، ولها أهمية في إحراز النصر وللاهتمام الكبير الذي حظيت به، فقد عدّد ابن سحنون مجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة الداعية لاقتناء المجاهدين للخيول[3]. والخيل في الحرب أفضل من جميع الحيوانات فهي أصبر البهائم وأشدّها قوة وأسرعها وأقلّها مئونة في العلف والمشرب ، والخيل يحمل من فارسه وآلته وسلاحه ما لا تحمله الحيوانات الأخرى. وأفضل ما يُستخدم في الهجمات السريعة الخيول، ويُقدّم المؤلِّف –ابن سحنون– الصفات الخلقية للخيل الأصيل الذي يساعد المجاهد في ساحة القتال، ويذكر بعض عيوب الخيل وطريقة علاجها لتكون أكثر صلاحية وأداءا في المعارك[4]. وفي فصل خاص يتحدث المؤلِّف عن كيفية قيادة الخيول أثناء المعارك، ومن ذلك ما قاله: "... ومن جملتها أن يكون في سيره وعدوه كالسابح في الماء، ويكون راكبه غير منكب على وجهه بل يكون متمكنا في سرجه مستويا عليها...."[5].

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص–ص: 334–364.

[2]: "المصدر نفسه"، ص: 345.

[3]: حيث يشير ابن سحنون أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قد قرن الخير بنواصي الخيل بقية الدّهر. ينظر: "المصدر نفسه"، ص: 359.

[4]: "المصدر نفسه"، ص: 360.

[5]: "المصدر نفسه"، ص: 324.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ ابن سحنون قد تطرق في مؤلَّفه "الثغر الجماني" أكثر من مرّة للخيل وفضلها وخصائصها وأهميتها في الجهاد، مُستشعرا –فيما يبدو– أنّ الكتابة عن الخيل من المعارف التي ينبغي الاعتناء بها[1] لأنها ممّا يرجع إلى شأن الجهاد ويتعلّق بالتأهّب للعداة والاستعداد. وفي هذا الشأن يقول: ".... يجب على الملك ألا يخلوا من خمسة معاقل يتحصن بها أولها وزير صالح يتحصن برأيه... وثالثها فرس سابق يتحصن بظهره إذا لم يمكنه الثبات...."[2].

وقد أشاد ابن سحنون بفاعلية الصيد في قتال العدو إشادة مُجرّب بصير فقال: ".... وأما حظ المحارب منه فالتمرن على طلب الأعداء وركوب الخيل، ومعرفة الطراد وإدراك لذة الظفر وتعلم اقتحام الأمور وركوب الشدائد إلى ما قيل أنه يحدث الشجاعة ويقطع عروق الجبن....."[3]. وعن بعض الوسائل الناجعة في الحروب أشار ابن سحنون إلى أهمية الرياضة وتربية الصقور[4] ففي تفسيره للأولى قال: "... اعلم أن نفوس الملوك محتاجة إلى الرياضة والتدبير الجاري على نهج الاستقامة في حركاتها وسكناتها وسفرها وإقامتها ومأكلها ومشربها.... إذ قوام الرعايا إنما يكون بقوامها ودوام السلامة للبرايا إنما يكون بدوامها، إذ هي التي تذب عن حريمها وتجد في طلب غريمها تكشف عنها الشدائد والبلوى وتكف عنها الأهواء والأسواء...."[5].

وشيء لاحظه ابن سحنون حال مجابهة الإسبان، ألا وهو دور الصقور في الحرب إذ يقول:

وَأَرْسِلْ مِنْ شُهَبِ البَزَّاتِ مَعْلَـــمُ غَدَى وَاقِعًا فيِ الشُهَبِ مِنْ خَوفِهِ النِسْرُ
جَوَارِحَهُ عِنْدَ النِّزَالِ سِلَاحُـــــــهُ فَمِنْ مُرْهِفٍ ظَفَرَ وَمِنْ..... نَحْرِ

---

[1]: لقد ذكر ابن سحنون جميع أسماء ما يُحمد من الخيل وأنسابها وما يتصل بحياتها بل وحتى عيوبها، فكانت مادته العلمية التي حواها من أنبل الموضوعات وأعظمها جدوى. ومن أنواع الخيول التي ذكرها نذكر: الأدهم، العتاق، الأصفر، الورد، الأشهب السوسني والقرطاسي، العتيق الطويل العنق، الكميت، الأبلق الجامع لكل لون، قوس قزح، الشامات، السيمات، الأغرص، المسوم، . ينظر: "المصدر نفسه"، ص–ص: 331– 344.

[2]: "المصدر نفسه"، ص: 328.

[3]: "المصدر نفسه"، ص: 377.

[4]: من أنواع الصقور التي ذكرها ابن سحنون: البازي، العفصي، الباشق، الزرق، البيدق. للمزيد ينظر: "المصدر نفسه"، ص–ص: 370–396.

[5]: "المصدر نفسه"، ص: 371.

يَكُونُ رِبْئَ الجَيْشِ إنْ جَاشَ رِيعُهُمْ وَيَضْمَنُ زَادَ السَفَرِ إنْ سَغُبَ السَفَرُ[1]

كما يقول في فوائد الصيد[2]:

يَلُومُنْنِي فِي الصَيْدِ والصَيْدُ جَامِعُ لأَشيَاءَ لِلإنْسَانِ فِيهَا مَنَافِعُ
ويُورِثُ عِنْدَ الاِقْتِحَامِ شَجَاعَــةً وَفِيهِ مِنَ السِرِّ الخَفِيِّ بَدَائِعُ
كَرَعْيُ نِظَامٍ وَافْتِقَادُ رَعِيَــــــةٍ وَحِفْظُ جَنَابٍ مِنْ عَدُوٍّ يُنَازِعُ
وَتَدْبِيرُ أَمْرِ الحَرْبِ والفَتْكِ بِالْعَدَى وَصَيْدُ أُسُودِ الإِنْسِ والوَحْشُ تَابِعُ
إِذْ الحَرْبُ خُدْعَةٌ وَكَيْدٌ تَحِيلُ بالقَنْصِ الدُهَاتَ التَوابِعُ[3]

هذا ما توفّر رصده من مظاهر تشهد بأنّ العلماء عنوا بالجهاد الميداني، فاهتمّوا بقضاياه وتابعوا أخباره، ووقفوا دارسين لبعض أحداثه وتطرقوا في مؤلّفاتهم لما يرتبط به من عتاد واستعداد[4].

ثالثا: دور العلماء والطلبة في ميدان الجهاد الحربي ضد الإسبان:

لم يكتف العلماء زمن الاحتلال الإسباني لوهران بالدعوة إلى الجهاد بالأقوال المجرّدة، وهم بمنأى عن ساحات الوغى، وميادين القتال بل أتبعوا ذلك بتطبيق واقعي لما يدعون إليه، فشاركوا هم وغيرهم من حملة العلم وطلبته في معارك عديدة وشهدوا وقائع كثيرة، أرخصوا فيها الأرواح وباعوا فيها الأنفس نصرة للدين ودفاعا عن سكان المنطقة، وقد كُتب لبعضهم القتل في سبيل الله، وتعرّض بعضهم لذلّ الأسر، وجاهدت فئة ثالثة وعادت سالمة لتستأنف القيام بمسؤولياتها ولتمارس مهامها الملقاة على عواتقها تجاه المشروع النهضوي الذي تبناه الباي محمد الكبير بالبايلك الغربي.

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص-ص: 392-393.

[2]: لقد أشار ابن سحنون أنّ للصيد :"خلة أدبية ملوكية صوفية طبية حربية". للمزيد ينظر: "المصدر نفسه"، ص-ص: 374-377.

[3]:"المصدر نفسه"، ص: 373.

[4]: حيث ألّف أبو راس الناصر كتابا في هذا الجانب تناول فيه علم الصيد وأهميته ومنافعه ومضاره وطرقه، وهو شرح للقصيدة المعروفة باسم روضة السلوان للشيخ عبد الجبار الفجيجي. ينظر: أبو راس الناصر: الشقائق النعمانية في شرح الروضة السلوانية في علم الصيد. دراسة وتحقيق: حمدادو بن عمر، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010، ص-ص: 190-197. وأيضا: ص-ص: 115- 153.

وسنحاول فيما يوالينا من صفحات الإحاطة بجهود هؤلاء العلماء والطلبة في فتح وهران الثاني وتبيانها، خاصة وأنّ الباي محمد الكبير كان قد اعتمد على هذه الفئة لغرض حصار طويل الأمد ضد الإسبان، فأسكنهم في الرباطات كرباط جبل المائدة وإيفري[1]، ووفّر لهم كلّ ما يحتاجون إليه من مؤن وأسلحة وأغدق عليهم الأموال، فكان نتاج ذلك أنْ نجح الطلبة في الحدّ من تحركات الإسبان الذين كانوا قبل ذلك يعيثون فسادا في المنطقة[2].

1: دور العلماء والطلبة في تجنيد العامة وقيادة الصفوف الأمامية:

لقد تعرضت الكثير من المناطق الساحلية الجزائرية إلى سلسلة من الهجمات الإسبانية منذ بداية القرن السادس عشر، واستمر العداء بين البلدين إلى غاية سنة 1792م، تاريخ تصفية الوجود الإسباني من الأراضي الجزائرية، ومن الفئات التي تولّت الدفاع عن حمى البلاد ومواجهة خطر الغزاة العلماء من رجال الدين ومؤسسة الرباطات التي كانوا يشرفون عليها، ولما رأى الحكام العثمانيين جديّة هذا التنظيم في مقاومة المعتدين تعاونوا مع بعض الرباطات ومع المشرفين عليها ونظّموها، فقد قام الباي محمد الكبير بالإشراف على رباط وهران ودعمه بكلّ المستلزمات بغية تخليصها من نير الاحتلال الإسباني[3].

1-1: الباي محمد الكبير وإحياء فكرة الرباط:

اقتضت إرادة الله أن تتمتّع بعض الأقاليم بمزايا البركة والفضل، ومن هذه المزايا ميزة الرباط، ويقصد بالرباط بمعناه الاصطلاحي هو ملازمة الثغور لحراسة من فيها من المسلمين، والمرابط في سبيل الله هو الشخص "الذي يشخص إلى ثغر من الثغور ليرابط فيه مدة ما"[4]. والرباط مأخوذ من الربط، لأنه إذا لازم الثغور فكأنه قد ربط نفسه بها. وجمع الرباط رباطات أو ربط ، والرباط نوعان: إما يكون حماية وحراسة حدود الدولة الإسلامية

---

[1]: وللإشارة فلقد كان بوهران رباطات عديدة ومتعددة، وذلك راجع لطبيعتها الجبلية والبحرية وانزوائها على البحر. ونذكر منها رباطين أساسيين هما رباط صلب الفتح ورباط جبل المائدة الذي أُسس بين سيدي معروف والبريدية وتانسالمت على يد الباي محمد الكبير، وهو في الأصل عبارة عن مجموعة من المغاور تركّز بها بعض المجاهدين لمقاومة النصارى الإسبان وملاحقتهم ومضايقتهم. للمزيد ينظر: يحيى بوعزيز: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، الجزائر، دار الهدى، 2009، ص-ص: 121- 122.

[2]: محمد بوشنافي: دور الطلبة في تحرير وهران.... "المرجع السابق"، ص: 86.

[3]: المهدي بن شهرة: تاريخ وبرهان بمن حل بمدينة وهران، الجزائر، دار الريحانة للكتاب، 2007، ص: 159.

[4]: إكرام شقرون: "مصطلح الرباط: المفهوم والدلالة "، دورية كان التاريخية، العدد: الثامن عشر، ديسمبر 2012، ص: 69.

من أي خطر وشيك سواء كان العدو موجود أم غير موجود وهنا تكون الغاية من المرابطة حقن دماء المسلمين، أي لها هدف وقائي وإما أن يكون الرباط لتمركز القوات الإسلامية مواجهة لقوات العدو لحراسة بيضة الدين من أجل إقامة شعائر الإسلام[1].

إنّ ظاهر التعريف السابق للرباط تُوحي بأنّ أرض وهران أرض رباط، فكما هو معلوم أنّ وهران تعرضت لهجمات النصارى الإسبان ومن خلفهم نصارى أوربا، ولم تبرز فكرة المرابطة حولها مع الباي محمد الكبير وإنما وجدت قبله بفترة طويلة من الزمن. ربما لأهمية وهران وموقعها الاستراتيجي وتكالب الأعداء على احتلالها[2]، وسواءا كانت الأخطار برية أم بحرية، فقد أدرك الحكام هذه الخطورة ورسموا لأنفسهم سياسة دفاعية تتمثل في إنشاء ثكنات عسكرية حول المدينة تحسبا لأي غارات مفاجئة وهي ما عُرِفت بالرباطات[3].

ولقد أكد ابن سحنون بأنّ وهران ميدان للرباط أثناء إشارته لرباط صلب الفتح الذي كان يلجأ إليه المتعبدون والزاهدون وكان يقع فوق تلة تطلّ على المدينة، كما ارتبطت به حادثة مقتل علي بن يوسف بن تاشفين آخر أبناء حكام الدولة المرابطية على يد جنود عبد المؤمن بن علي وذلك بعد سقوطه في جرف وهو يمتطي فرسه[4]. وبسبب الهجمات الصليبية الشرسة التي قادتها كل من إسبانيا والبرتغال على طول سواحل بلاد المغرب العربي، تزايد عدد الرباطات بعد أن شَعر السكان بالخطر المحدق بهم فقاموا بتحصين السواحل والاستعداد للرد على أي هجوم، غير أنّ تلك الرباطات لم تقم بالدور المنوط بها لضعفها أمام قوة العدو فسقطت المدن الساحلية الواحدة بعد الأخرى ومنها المرسى الكبير عام 1505م ووهران عام 1509م[5].

وكنتيجة للاحتلال الإسباني لوهران بدأ الصراع المستمر بين المسلمين والنصارى ولهذا عُدَّت المدينة –في نظر المسلمين– ثغرا للدولة الإسلامية وأرضا للجهاد والمرابطة،

---

[1]: المهدي البوعبدلي: "الرباط والفداء في وهران والقبائل الكبرى" الأصالة، العدد: 13، مارس– أفريل 1973، ص: 20.

[2]: محمد بوشنافي: دور الطلبة في تحرير وهران.... "المرجع السابق"، ص: 86.

[3]: المهدي البوعبدلي: الرباط والفداء.... "المرجع السابق"، ص–ص: 22– 23.

[4]: ابن سحنون: الثغر الجماني..... "المصدر السابق"، ص–ص: 186–187.

[5]: محمد بوشنافي: دور الطلبة في تحرير وهران..... "المرجع السابق"، ص: 87.

ولقد فرض هذا الوضع عليها أن تستقبل المتطوعين من القبائل التي تمد الدولة بالجيوش اللازمة للجهاد[1].

هذا وقد كان المرابطون المتطوعون بوهران أثناء الفتح الأول يخضعون لإدارة قيادة جيش الثغور التي وقعت على عاتقها مسؤولية الاهتمام بشؤون المرابطات وتجهيزها، فكانت على مستوى عال من الحصانة والمتانة إثر الزيارات الميدانية للداي محمد بكداش لتفقّد الثغر الوهراني في محاولة منه لتنظيمه وبغية زيادة عدد الطلبة الوافدين إليه. إلاّ أنّه رغم ذلك فإنّ عددهم لم يتجاوز الألف طالب في أحسن الأحوال، وكان معظمهم من المتطوعين[2].

وممّا يستلفت النظر أنّ أرض وهران قد شهدت الكثير من الحروب والمعارك من أجل الحفاظ على سلامة السكان من أي انتهاكات نصرانية، حيث أولى الكثير من الحكام العثمانيين عناية خاصة بكل ما يتعلق بقضايا الجهاد سواءا كان ذلك في حالة الدفاع أو الهجوم، كَوْن أنّ الجهاد من أهم متطلبات الحكم ومسؤوليات الحاكم. وتذكر بعض المصادر أنّ الباي محمد الكبير قد استفاد من نقائص وتجارب سابقيه ولهذا لما قرّر إحياء فكرة الرباط جعله تحت إشرافه الخاص، وتحمّل كل أعباء المرابطين فيه كالمؤن والتسليح، وعيّن له مسؤولا ومساعدين ممّن كان يثق بهم وبقدراتهم العسكرية والإدارية من القواد والقضاة[3].

ووصل به الحد أن أصبح يتدخل شخصيا لفضّ النزاعات والخلافات التي كانت تنشب بين الطلبة أنفسهم من حين لآخر أو بينهم وبين سكان المنطقة، وفي هذا الإطار يخبرنا كاتبه الخاص ابن زرفة الدحاوي قائلا: "....وكلما جاءه شاكي بشيء إلاّ قال له اذهب واشتغل بالجهاد...."[4].

ولكن قبل أن يعتمد الباي على الطلبة في الرباط كان يقصد ضواحي وهران سنويا، فيرابط لمدة يوم أو يومين ولكن دون أن يلاقي الإسبان في مواجهات مباشرة، وهذا بسبب التحصينات العسكرية النصرانية المنيعة والقوية، فها هو ابن سحنون يشير إلى ذلك بقوله:

---

[1]: المهدي البوعبدلي: الرباط والفداء.... "المرجع السابق" ، ص: 27.

[2]: محمد بوشنافي: دور الطلبة في تحرير وهران..... "المرجع السابق"، ص: 87.

[3]: "المرجع نفسه"، ص: 87.

[4]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية... "المصدر السابق"، ص: 311.

"وكان فعل الأمير لجميع ما ذكر أن وهران حصينة منيعة لا ينال منها قاصدها مطلبا أو تنال ولو اجتمعت ألف قبيلة..."[1].

الأمر الذي أدى به إلى الاعتماد على المكائد والخدع العسكرية قائلا: "أن الأمير لم يزل منذ ولى يتحيل على الظفر بالكفرة وينصب لهم المكائد والخدع... فتارة يوجه لهم المهرة بالسباحة في البحر فيبيتون من قدروا عليه منهم في بيوتهم وياتونه برؤوسهم، وتارة يرصد لهم الكمين قرب أسوارهم حتى يظفروا بهم"[2].

إنّ تلك المحاولات المتكررة من الباي محمد الكبير لم تكن إلاّ عادة دأب عليها بايات المنطقة لتذكير الإسبان بأنّ قضية وهران كانت لا تزال قضيتهم الأساسية، بعد ذلك أصبح الباي يعتمد على سكان المنطقة في حصار الإسبان وغايته من ذلك مداومة الرباط[3]. ولتشجيعهم على ذلك منح هؤلاء المرابطين امتيازات شتى، وفي هذا الإطار يقول ابن سحنون: "فنادى في رعيته –أي الباي– من ارتحل إليه سقطت عنه المطالب المخزنية وبقي محترما موقرا، فاجتمعت فيه أمة من الناس من كل ناحية بأموالهم وأولادهم، فنزلوا فيما بين سيدي معروف والبريدية إلى عين تانسالمت"[4].

وليشجعهم على البقاء مرابطين كلّف الباي قادته بتوفير احتياجاتهم المادية من سلاح وخيول وطعام ومأوى خلال فصلي الشتاء والصيف، والسماح لهم بحراثة المنطقة القريبة من أسوار وهران، كما أمرهم بإشراك العلماء في مهمة توزيع العطايا لما لهم من محل احترام وتقدير بين السكان[5].

وفي أثناء الزيارات التفقّدية للرباط كان الباي يُبدي إعجابه وتقديره للمتطوعين المرابطين، كما كان يطلب المزيد من دعائهم له بالمغفرة والتوفيق، وفي هذا الصدد يقول ابن سحنون: "إخواني أكثروا من الدعاء لهذا الأمير الكريم الذي أجلكم أعلى منازل التكريم.... فإن العرب بأسرها ما كانت تطمع من الأمراء قبله في بعض ما نلتم ولا تنال إلا

---

[1]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 199.

[2]: "المصدر نفسه"، ص: 197. وللمزيد عن تلك المكائد ينظر نفس المصدر، ص–ص: 198–199.

[3]: محمد بوشنافي: دور الطلبة في تحرير وهران.... "المرجع السابق"، ص: 87.

[4]: ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص: 198.

[5]: ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص: 198.

الدرهم والدرهمين على وجه المذلة والسؤال.... على أنه لو ادخر بعض ما يعطيهم لأخص أولاده لأغناه به، فهو يؤثركم على أولاده بطارفة وتلاده فأقروا عينه بمزاحمة العدو في بلاده وجدوا كل الجد في قتاله.... فرفعوا أصواتهم بالدعاء له والثناء عليه لما تحققوا مقدار نعمه عليهم"[1].

وكما أنّ الحكام وقعت عليهم مسؤولية الإعداد العسكري من أسلحة وحصون ومؤن فإنّ العلماء وقعت عليهم مسؤولية الإعداد النفسي والمعنوي للمقاتلين المرابطين، فقد كان العلماء يتجولون في رباط وهران بهدف التعبئة النفسية وتحريض المرابطين على الصبر والثبات وغرس القيم العسكرية كالشجاعة والإقدام بهدف تقوية العزائم وإلهاب روح الشجاعة في النفوس. إلاّ أنّه مع مرور الوقت تراجعت همّة المرابطين وتقاعسوا على مراقبة حركة العدو ومحاصرته فعاد الإسبان إلى سابق عهدهم، ولهذا فإنّه بعد عودة الباي من غزوته إلى الجنوب، قرّر أن يعيد تنظيم الرباط وتشديد الحصار على الإسبان لإجبارهم على الاستسلام والرحيل عن وهران، فارتأى في هذه المرّة أن يعتمد على الطلبة لما لهم من روح جهادية وإقبال على الشهادة[2].

1-2: الباي محمد الكبير وتجنيد الطلبة:

لقد تأكّد الباي محمد الكبير بعد استرجاع الإسبان لوهران والمرسى الكبير سنة 1732م إلى افتقار المجاهدين للقدرة القتالية وضعف خبرتهم الحربية، ومن قلّة الرجال المخلصين النية في الجهاد، حيث كان النفاق والجهاد في سبيل الغنائم متفشيا بين صفوف القبائل، ومن أجل سدّ هذه الثغرة عمل على جمع طلبة العلم، إذ رأى هذا الباي ضرورة حضور رجال يحاصرون وهران ويداومون على ذكر الله ولا يكون ذلك إلاّ بطلبة العلم وحملة القرآن. كما يخبرنا ابن زرفة أنّ الباي قد استفاد من تجربة سابقيه في تجنيد الطلبة "وذلك لما علم من بلائهم واستماتتهم في القتال خلال الفتح الأول فأصدر أمرا لتجنيدهم حتى يستفيد منهم ومن إرادتهم الصلبة في القتال"[3].

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص: 199.

[2]: محمد بوشنافي: دور الطلبة في تحرير وهران.... "المرجع السابق"، دون تصرف، ص: 87.

[3]: نقلا عن: محمد بوشنافي: دور الطلبة في تحرير وهران.... "المرجع السابق"، دون تصرف، ص: 88.

وفي إطار ذلك جمع الباي محمد الكبير العلماء وعمل على اختيار ستة طلاب من المدرسة المحمدية بمعسكر حيث ألبسهم أفخر الملابس –برانيس– وأعطاهم ما يعتدّ به الرّسل من خيل أصيلة قوية وأسلحة –مكاحل– ودراهم وفيرة –ستة ريالات– لشراء المحازم، وأمرهم بالتّجول بين قبائل تلمسان وما وراءها لتجنيد وتعبئة الطلبة وحثّهم على الالتحاق بالرباط من خلال توظيف أسلوب الترغيب لا الترهيب[1]، حيث في أواخر شهر ربيع الثاني 1205هـ الموافق لشهر ديسمبر من سنة 1790م عاد الطلبة الستة إلى معسكر مصحوبين بأربعمائة طالب فوجّههم الباي إلى المحلّ المسمى رباط إيفري بضواحي وهران وأرسل إليهم ما يحتاجون إليه من أسلحة وغذاء وغيره. وفي هذا المقام يقول ابن سحنون: "وقد كان الأمير جهز نحو الستة من الطلبة ألبسهم لباسا جيدا ودفع لهم عدة رفيعة ولأمة كاملة ودراهم ووجههم يسيرون في البلاد القريبة يجمعون الطلبة ويرغبونهم، فلم تمض إلا أيام قلائل حتى قدموا بنحو الأربعمائة طالب، فبعث لهم بالأسلحة وكل ما يحتاجون إليه ولم يزل مددهم يتواصل حتى أربى عددهم عن الحد"[2].

كما راسل الباي كبار علماء المنطقة لمساعدته على تجنيد الطلبة لما كان لهم من تأثير وحظوة، فكانت كلمتهم مسموعة وأمرهم مطاع بين جماعة الطلبة، ومن بين هؤلاء العلماء الذين راسلهم الباي نذكر أبو طالب محمد بن علي بن الشارف المازوني، فجاء رفقة ولده السيد هني وأخوه محمد ومعهم حوالي مائتي طالب[3]. هذا وقد استجاب لدعوى الباي عدد كبير من طلبة المنطقة فإلى جانب ما سبق ذكره، توافد الطلبة جماعات على رباطات وهران من عدة مناطق، وفي هذا الصدد يقول ابن زرفة: "ثم ترادفت أمداد الطلبة ووفودهم وهطلت من كل شارق برودهم وتسابقت الناس لهذا الرباط"[4]. ويشير في موضع آخر بقوله:"... تقبل الناس دعوته– أي الباي– وتجنبوا معصيته فجاءوه من كل فج عميق وانسابوا إليه من كل قبيل وفريق، وأنفقوا في طريقهم إليه الطارق والتليد....."[5].

---

[1]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق"، ص: 347.

[2]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 235.

[3]: "المصدر نفسه"، ص: 234. – ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية....، "المصدر السابق"، ص: 342.

[4]: "المصدر نفسه"، ص: 335.

[5]: "المصدر نفسه"، ص: 259.

وزيادة على هذا فلقد كان لسكان البايلك الغربي إسهامات ملموسة في حقل الجهاد وفي مواساة الطلبة قبل احتكاكهم العسكري بالإسبان، وقد تنوعت أساليبهم في هذا الحقل فأنفقوا بأنفسهم الأموال بصور مختلفة ودعوا غيرهم إلى النفقة. وفي هذا المضمار كان الطلبة يلاقون ترحابا منقطع النظير من طرف سكان المناطق التي يمرّون بها، فكان هؤلاء يحسنون ضيافتهم ويقدّمون إليهم الطعام وكلّما يحتاجون إليه أثناء سفرهم[1]، ويخبرنا ابن زرفة أنّ الطلبة المتوجهين من معسكر إلى وهران وهم طلبة المدرسة المحمدية التي أسسها الباي محمد الكبير بمعسكر، لاقوا استقبالا شعبيا واسعا عند وصولهم إلى منطقة واد الحمام فيقول: "هذا وبات الطلبة ليلة خروجهم بوادي الحمام فأكرمهم أهله بسمين اللحم وخالص الطعام والبعض ذبح لهم الدجاج واستعذروا بأن الشتاء مضلة للأهزال، وقبل الطلبة منهم ذلك ولم يقابلوهم بسوء مقال لأنهم تلقوهم بالفرح والسرور والترحيب...."[2].

ونفس الترحاب لاقاه طلبة الشيخ محمد بن أبي طالب المازوني بعد وصولهم إلى وادي تليلات التي أقاموا بها أياما في ضيافة سكانها ورعاية خاصة من الباي نفسه، وفي هذا الإطار يقول ابن زرفة: "... فباتوا جميعا عند كاتب سر هذه الإيالة السيد محمد بن عبد القادر بن عبد الكريم فذبح لهم ثورا سمينا إذ جاءوه في المغرب وبالغد دخلوا على سيدنا الأمير ففرح بهم وانبسط، ووسع لهم في مجلسه وأفرغ عليهم البارود والسلاح وخرجوا من عنده مسرورين وبنعمه شاكرين"[3].

هذا وقد كان الباي شديد الحرص على سلامة الطلبة لما لهم من دور أساسي في التعبئة والتجنيد والدعوة إلى الجهاد، حيث قدّم لهم عبر بريد – بريد الطلبة– رسالة ضَمَّنها مجموعة من النصائح ذكرها ابن زرفة بقوله: "....وليأخذ الطلبة حذرهم ولا يعتزون بالدخول إلى محاير الكفار فإنهم لا يغفلون عن أملاكهم فربما تجدون بعض حيلهم كما هي عادتهم، فحذروا كل الحذر والسلام معاد إليكم..."[4]. وهذه إشارة على أنّ غاية الباي محمد الكبير من تجنيد العلماء والطلبة هو التبرك بهم وبدعواتهم، فها هو كاتبه الخاص ابن زرفة

---

[1]: محمد بوشنافي: دور الطلبة في تحرير وهران....."المرجع السابق"، ص: 88.

[2]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق"، ص: 330.

[3]: "المصدر نفسه"، ص–ص: 342–343. –ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص: 234.

[4]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق"، ص: 327.

الدحاوي يخبرنا أنّه لما وصله – أي الباي– خبر استشهاد أحد الطلبة في هجوم على الإسبان أصابه حزن كبير وراسل الطلبة قائلا: ".... يكفيكم الرباط وقراءة القرآن والعلم وتستحفضون بذوي النجدة منكم... والمطلوب منكم الآن هو أن تلزموا محلتكم ودرس كتبكم وقرآنكم، فإنا إنما قدمناكم تبركا ليكون قدومنا لها– أي وهران– بالله لا بأنفسنا.... ولا زائد إلا حبكم والتماس صالح دعائكم"[1].

وممّا لاشكّ فيه أنّ هذه الإجراءات قد ساهمت ولو بالنّزر القليل في تزايد أعداد الطلبة المجنّدين للالتحاق برباط وهران، لكن ما لاحظه الباي محمد الكبير هو تزايد عددهم بسرعة لدرجة أنّه فاق الألفين طالب. فأمر –هذا الباي– من أمناء الرباط – العالم ابن سحنون وابن هطال التلمساني– بتقسيم الطلبة المرابطين إلى مجموعات كثيرة أطلق عليها اسم "ديوان"، حيث ضمّ كل ديوان خمسة وعشرين طالبا حتى وصلت إلى حوالي مائة ديوان وفّر لها الباي ما يكفيها من الطعام والدراهم، وفي هذا الصدد يقول ابن سحنون: ".... كل هذا وهم يتزايدون حتى أنهم قسموا الرزق أول رجب على نحو الستين ديوانا ثم قسمناه بينهم أول شعبان على نحو التسعين ديوانا، وقسم بينهم في آخره على ما ينيف عن المائة، وتصدق عليهم أول شعبان بزيادة ريال لكل شخص وقد كان اشترى لهم نحو الألف سيف...."[2].

وما يستنتج ممّا سبق أنّ اهتمام بايات البايلك الغربي وبالخصوص الباي محمد الكبير بهذه الرباطات قد كان كبيرا، حيث حشد إليها العلماء والفقهاء وطلبة العلم ووفّر لهم كل ما يلزم ليقوموا بالجهاد ضد النصارى الإسبان المحتلين بوهران والمرسى الكبير. كَوْن أنّ هذه الفئة من المجتمع هي التي أَبْدت استعدادات أكثر للتضحية والجهاد لما كان لها من قدرة على إقناع الناس على حمل السلاح والتطوع بعد أن أعطت هي المثل الأول، فكان الباي محمد الكبير أكبر البايات تجنيدا للعلماء والفقهاء وطلبة العلم، حتى وصلوا إلى حوالي الألفين وخمسمائة عالما في رباط إيفري ورباط المائدة والبريدية وسيدي معروف[3].

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص–ص: 399–400.

[2]: ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص: 235.

[3]: منهم أربعمائة طالب ينتمون إلى المدرسة المحمدية بمعسكر، وأكثر من مائة طالب قدموا من منطقة غريس ومائتي طالب جاؤوا مع الشيخ المازوني إلى جانب أربعمائة طالب توافدوا من نواحي تلمسان كترارة وندرومة وغيرها، استجابة

1-3: تكليف العلماء لقيادة الطلبة المرابطين:

لقد عمل العلماء على تلبية نداء الباي محمد الكبير وتطبيق كلّ أوامره فإلى جانب اعتماده عليهم في تجنيد الطلبة، فإنّه أصدر مجموعة من القرارات والتدابير التنظيمية والتحفيزية بغية تفعيل الاستجابة لنداء الرباط حصرها علماء معسكر – ابن سحنون وابن زرفة– فيما يلي:

– ضرورة جمع العلماء وطلبة العلم بين الدروس العلمية والجهاد بالرباط، وفي هذا المقام يقول ابن سحنون الراشدي: ".... والطلبة يدخلون مكاحلهم منها ويضربون ... كل هذا وهم مشتغلون بقراءة القرآن والفقه والنحو لا يتركون إلا في أوقات القتال وبالليل يبيتون يتلون القرآن العزيز لا يفترون عنه إلا نحو الساعتين من أوقات النوم، ومتى انتبه النائم وجدهم على حالتهم تلك وسمع التلاوة من كل ناحية في ذلك الوادي فكانوا رهبان بالليل أسود بالنهار..."[1]، كما يشير ابن زرفة إلى ذلك بقوله: "... وأقام الطلبة بهذا المحل –أي الرباط– يقرؤون نهارا ويرابطون كل ليلة...."[2].

– ضرورة الإعداد النفسي والمعنوي للجيش النظامي وحثّ الطلبة على التجوّل في رباط وهران بهدف التعبئة النفسية وتحريض الجند على الصبر والثبات، وغرس القيم العسكرية كالشجاعة والإقدام بهدف تقوية العزائم وإلهاب روح الشجاعة في النفوس، وفي هذا الإطار يقول ابن زرفة: "وتفاوض مع العلماء وأمرهم أن يدوروا على العسكر ويذكروهم ما وعد الله المجاهد الصابر ويعرفونهم أجر الشهادة، وأنها أفضل منحة منحها الله لعباده ويحذرهم من الفرار في الزحف ويذكر لهم ما ذكر في ذلك، فمن فر من الصف وإنه من الكبائر الموبقة في النار وأن يكثر عليهم من ذكر الأحاديث والآثار....."[3].

لدعوة العالم محمد أبي يوسف الذي كان يقطن بضواحي بني عامر. للمزيد ينظر: بوشنافي محمد: دور الطلبة في تحرير وهران.... "المرجع السابق"، ص: 89. –ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية... "المصدر السابق"، ص–ص: 325– 328.

[1]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 241.

[2]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية... "المصدر السابق"، ص: 325.

[3]: "المصدر نفسه"، ص: 276.

– إبقاء أجرة معلّم – مؤدّب– الصّبيان الذي شغله التحاقه بالرباط عن مهمته مع تخصيص أجرة إضافية له إن التحق بالرباط، فتكون له أجرة كاملة مع ما يناله من عطاء كإحسان من الباي[1].

– تخصيص خمسين ريالا لكل مدرّس ومقرئ وسلّاك للقرآن التحق بالرباط وإن تكاثر العدد[2].

– منع التدريس في البدو والمدن وجعله يقتصر على الرباط فقط، وفي هذا المجال يقول ابن زرفة: ".... وفيه أن لا يدرس أحد في بدو أو حضر وليذهب كلا للرباط يدرس به وله مزيد الأجر..."[3]. كما يخبرنا ابن سحنون عن ذلك بقوله: "... ومنع الناس من التدريس في المدن، وأن لا يكون التدريس إلا في ذلك الجبل...."[4].

ومن الملاحظ أنّ الباي كان المشرف الأول على الرباطات إلاّ أنّه فضل تعيين جماعة من العلماء ليكونوا المشرفين الميدانيين على الطلبة داخل الرباط عوض رجال من الجيش، لأنّ الطلبة كانوا يستأنسون بالعلماء ويكنّون لهم احتراما كبيرا. كما اشتدّت رغبته –أي الباي– في جمع العلماء والطلبة لإشراكهم في الفتح عندما علم بدورهم في الفتح الأول سنة 1708م، والمجهودات التي قام بها كل من الشيخ مصطفى الرماصي القلعي وعبد القادر المشرفي والشيخ والأديب محمد بن أقوجيل وغيرهم من علماء الوطن الغريسي الراشدي[5]، حيث اختار هذا الباي أبرز أعضاء ديوانه من العلماء لقيادة الفتح والإشراف على الطلبة المرابطين بجبل المائدة ووادي إيفري، وهم على التوالي: تعيين الفقيه محمد بن عبد الله

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص–ص: 328–329.

[2]: "المصدر نفسه"، ص: 328.

[3]: "المصدر نفسه"، ص: 329.

[4]: ابن سحنون: الثغر الجماني....، "المصدر السابق"، ص: 233.

[5]: وللإشارة فلقد كان للعلماء دور بارز في ميدان الجهاد الحربي فضلا عن الأدوار السابقة، حيث اختار الكثير منهم الجهاد طريقا لتجسيد المفاهيم والمعاني الجهادية. ولاشك أنّ مشاركة العلماء في المعارك تجعل منهم قدوة حسنة وتعمل على رفع معنويات المجاهدين، ومن هؤلاء العلماء الذين ساهموا في الفتح الأول سنة 1708م في عهد الباي مصطفى بوشلاغم نذكر مصطفى بن عبد الله بن مؤمن الرماصي ومحمد بن توزينت العبادي التلمساني الذي يُعد من القراء المشاهير وقد عُرف عنه العلم والجهاد معا، ذلك أنه توفي مجاهدا ضد الإسبان عام 1706م. وأحمد بن ثابت الذي قاد الطلبة في الحرب ضد الإسبان في وهران مثل شيخه لكنه لم يمت في تلك المواجهة، بل ذكر عنه أنه ثار على الأتراك سنة 1737م وأنه اضطرّ إلى الهجرة والوفاة في المهجر. للمزيد ينظر: عبد القادر فكاير: دور العلماء والرباطات.... "المرجع السابق"، ص: 288.

الجيلالي– مدير المدرسة المحمدية بمعسكر– رئيسا وأميرا مسؤولا على الطلبة المرابطين في أواخر ربيع الأول 1205هـ ما يوافق بداية شهر ديسمبر 1790م[1]، وخصّص له مساعدين فكان الطاهر بن حوا قاضي القضاة بمدينة معسكر نائبا لرئيس الرباط هذا[2] والعالم ابن سحنون الراشدي والشيخ أحمد ابن هطال التلمساني من الأمناء البارزين الذين اعتمد عليهم الباي في مهمّة الاتّصال بالأقطار والدول لجمع السلاح وتوزيع العطاء على المرابطين[3].

بالإضافة إلى تكليف الباي لكاتبه الخاص محمد المصطفى بن زرفة الدحاوي بتسجيل الحوادث المتعلقة بالجهاد وما يصل الطلبة من رزق وغيره[4]، وكان هذا التعيين بعد إنزال الطلبة برباط وادي إيفري وفي هذا المجال يذكر ابن سحنون في قصيدة مطلعها:

وَرَتَّبَ المرَابِطِينَ فِي الجَبَلِ ... مِنْ كُلِّ حِبْرٍ عَنْ هَوَى الموْتِ جَبَلْ
وَكُلَّ مِقْدَامٍ هَمَّامٍ وَبطَــلِ ... مُنْذُ بــدَى بـــادِ الضَلالِ وَبَطَلْ
مُؤَمِّرًا لِشَيْخِنَا الجِيلالِــي ... مُحَمَدْ الأَحَـــــقُّ بالإِجْـــلَالِ[5]

إلى أن يقول:

مُلْتَزِمًـــا لِرِزْقِهِمْ جَمِيعًا ... مُلَبِيـــًّا لِقَوْلِهـــمْ سَمِيعًـــا
فَوَقَعَتْ هُنَا لكُمْ حُرُوبُ ... زِيدَتْ بهَا عَلَى العَدَى كُرُوبُ[6]

كما أَمَّرَ على المرابطين إلى جانب من سبق ذكرهم الفقيه محمد بن أبي طالب المازوني الذي عيّنه على رأس طلبة مازونة والأستاذ القارئ محمد بن يوسف الذي كان له دور بارز في تجنيد طلبة ترارة وندرومة وما جاورها من ضواحي تلمسان، والشيخ محمد

---

[1]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق"، ص: 329. –ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص: 233.

[2]: "المصدر نفسه"، ص: 237. –ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق"، ص: 329.

[3]: ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص: 247.

[4]: محمد بوشنافي: دور الطلبة في تحرير وهران.... "المرجع السابق"، ص: 89. – ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص: 146.

[5]: "المصدر نفسه"، ص: 228.

[6]: "المصدر نفسه"، ص: 236.

بن أبي سيف[1] كقائد على الغرابة وقدور المحلي[2] قائدا للمكاحلية وأحد شيوخ المدرسة المحمدية كقائد على طلبة معسكر. وهذا يعني أنّ الباي قد عيّن مسؤولا على كل جماعة من المجاهدين والطلبة حسب انتمائهم الجغرافي أو العسكري[3]. زيادة إلى المهابة التي كان يتمتع بها هؤلاء الشيوخ في قلوب الناس لارتباطهم بالزوايا والمدارس التي اشتهر مؤسسوها الأوائل بالتقوى والكرامة من جهة، ولممارستها لعدة وظائف أبرزها العبادة والتعليم وإيواء الطلبة الفقراء والغرباء المسافرين من جهة أخرى[4].

2: إسهام الحكام العثمانيين في إنفاق الأموال على طلبة العلم المرابطين:

الإنفاق في سبيل الله هو صنو الجهاد الذي فرضه الله على الأمة الإسلامية، ففي القرآن والسنة صاحبت الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله في معظم المواضع دعوة إلى الإنفاق. وقد رغّب سبحانه وتعالى أعظم الترغيب بالإنفاق المبذول للجهاد في سبيل الله، وذلك بالوعد بمضاعفة الثواب فيه أكثر بكثير مما وعده سبحانه بالثواب على ما ينفق في أبواب الخير الأخرى[5].

ولقد دأب علماء بايلك الغرب- كغيرهم- على تخصيص أحاديث منفردة عن الإنفاق في سبيل الله إذا ما تطرقوا للجهاد في مؤلفاتهم أو ألّفوا كتبا عن الجهاد أو ما يدور حوله، لا سيما فيما تعلّق بحدث فتح وهران[6]. فها هو ابن زرفة في ردّه على من شكّك في مصدر المال الخاص بنفقات الباي على الطلبة المرابطين يوظّف مجموعة من الأحاديث النبوية

---

[1]: محمد بن أبي سيف: هو العالم والأستاذ الفاهم الذي عيّنه الباي محمد الكبير على جيش الغرابة، كما كلّفه بتقسيم الأرزاق على طلبة جيشه فأعطى ثلاث ريالات لكل من المدرسين والسلاكين وريالين غير ربع لما تبقى منهم. ينظر: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق"، ص-ص: 349- 350.

[2]: قدور المحلي :هو قدور بن مخلوف المحلي قائد المكاحلية، كلّفه الباي محمد الكبير بنقل السلاح والمؤن للطلبة المرابطين فوفد عليهم بثمانين مكحلة- بندقية- وثلاثة عشر مائة ريال كرنيطة. للمزيد ينظر: "المصدر نفسه"، ص: 346.

[3]: محمد بوشنافي: دور الطلبة في تحرير وهران..... "المرجع السابق"، ص: 90. وللمزيد ينظر: بلبراوات بن عتو: الباي محمد الكبير ومشروعه الحضاري.... "المرجع السابق"، ص: 141.

[4]: محمد نسيب: زوايا العلم والقرآن بالجزائر، الجزائر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د. ت، ص: 106. وللمزيد ينظر: العيد مسعود: "حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني"، مجلة سيرتا، العدد: 03. رجب 1400هـ -ماي 1980، ص: 63.

[5]: سيد قطب: في ظلال القرآن، بيروت، دار الشروق، ج1، 1980، ص: 304. وللمزيد عن هذا الموضوع يرجى العودة إلى: محمد خير هيكل: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، ج2، بيروت، دار البيارق، 1993، ص: 1084.

[6]: ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص- ص: 195- 196.

الدالة على الإنفاق في سبيل الجهاد فيقول: ".... فبيت المال يجب عليه فعل المرغوب والوقوف مع الأمر الذي فيه صلاح العباد وأين صلاح لهم كإنفاقه في وجوه الجهاد...."[1].

وممّا لاشكّ فيه أنّ العلماء المرابطين بما يفقهونه من واقع بلادهم، وبما يَعلمونه من فضل الجهاد بالأموال لا سيما في دعم جهاد العدو الإسباني النصراني المهدّد لهم دوما بوهران والمرسى الكبير، لاشكّ أنهم سيكونون في طليعة المنفقين في ذلك السبيل الداعين غيرهم إلى البذل والعطاء فيه.

ولا يعدّ غريبا أنّ لا تفصح المصادر عن العلماء والطلبة المرابطين الذين تطوعوا بالنفقة في الجهاد ضد الإسبان بوهران، إذ النفقة في هذا الموطن الأصل فيها ابتغاء وجه الله فينجح باذلها إلى إخفائها عن الأنظار. لكن تلك المصادر- لا سيما ابن زرفة وابن سحنون- أعطت اهتماما بالغا فيما أنفقه الباي محمد الكبير من أموال، للاعتناء بالطلبة المرابطين وتمويلهم بكل المستلزمات.

ومهما يكن من أمر فقد اختلفت السبل التي أنفق فيها الباي محمد الكبير في حقل الجهاد ضد الأعداء الإسبان، فمنها ما كان في إطار حماية الطلبة المرابطين من الإسبان أو في أخذ الأهبة والاستعداد لجهادهم، ومنها ما كان لمعالجة وضع الطلبة في داخل الرباط. ففيما يتعلق بالأول ما ذُكر – مثلا- عن ابن زرفة أنّ الباي محمد الكبير قد دعا الطلبة المجنّدين إلى التحصن في رباطي جبل المائدة وإيفري لموقعها الاستراتيجي وأهميتها في حصار وهران. فبالنسبة لرباط جبل المائدة فإنه يشكّل نقطة ضعف في دفاعات المدينة، كما أنه يُمكِّن من قطع الطريق بين وهران والمرسى الكبير، أما رباط إيفري فيقع على طريقين طريق تؤدي إلى المرسى الكبير وأخرى نحو وهران، وبه كهوف يتخذها المرابطون كبيوت[2].

ولقد كانت للأحباس والأوقاف في بايلك الغرب صلة وثيقة بالجهاد في سبيل الله، إذ إعتاد الحكام العثمانيون أن يجعلوا نصيبا من أحباسهم لتمويل مرافق الجهاد الحربي ضد

---

[1]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق"، ص: 377.

[2]: بلبراوات بن عتو: الباي محمد الكبير.... "المرجع السابق"، ص: 139. – محمد بوشنافي : دور الطلبة في تحرير وهران.... "المرجع السابق"، ص: 90.

النصارى ومتطلباته. وثمة أناس في زمن الدراسة حبسوا أملاكا على الجهاد، وقد يكون هؤلاء الحابسون من طلبة العلم أو من سواهم فالمصادر حجبت أسماءهم عنا.

وهناك من العلماء من نوّهت المصادر بكثرة صدقاتهم، والمسارعة إلى بذل أموالهم في أعمال البر والخير- لا سيما بناء المساجد-. ومع أنّنا لا نملك نصوصا تصرّح أنّ تلك الصدقات أو ذلك البذل وجّهه أصحابه لمصلحة الجهاد ضد النصارى، إلاّ أنّه لا جدال في كَوْن النفقة في باب الجهاد تُعدّ من أفضل النفقات التي لا يتصور أن يقصر عنها مَن يتصدق بماله في سبيل الخير وطرق البر المختلفة.

أمّا ما يتصل بإنفاق الباي محمد الكبير الأموال لإصلاح أحوال العلماء أثناء الجهاد، فلقد بذل مجهودا كبيرا لتوفير كل ما يحتاجه الطلبة في داخل الرباط ولم يتقاعس عن تموينهم بالغذاء. حيث أمر – أي الباي- كل من ابن سحنون الراشدي وابن هطال التلمساني – أمناء الرباط- بتوفير ما يلزم للعلماء وطلبة العلم والقرآن المرابطين بجبل المائدة. إذ عمل أمناء الرباط على جلب الحطابين والطباخين، ونقل المؤونة الغذائية- التي كانت تحوي على أنواع شتى من الطعام كالسمن والزيت والعسل والقمح والفواكه والأغنام والأبقار وغيرها- والذخيرة الحربية- من بارود ورصاص وقنابل وبنادق- على أظهر الدواب إلى الرباط وتوزيع ذلك شهريا على المرابطين. كَوْن ذلك يُعين أمير المرابطين محمد بن عبد الله الجيلالي في أداء مهامه ويُبعد عنه التُّهم، وفي هذا المقام يقول ابن سحنون :"... كل هذا وهو – أي الباي- يوجه لجميعهم بالأطعمة والسمن والزيت والفواكه ونحوها وبالشاه والبقر للذبح وبما استحدث من السلاح والبارود وبالدراهم للصابون وشراء المناطق والنعال، ويبعث مع ذلك في كل شهر من يقسمه عليهم من أمنائه حتى ترتفع التهم منهم عن أميره عليهم وتحصل له الإعانة...."[1].

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ الرباط في بداية الأمر كان يتوفر على مطبخ واحد لجميع الطلبة إلا أن تزايد أعدادهم جعل الطباخين يعجزون على سد حاجياتهم كلها[2]، الأمر الذي أدى بأمناء الرباط إلى تقسيم الطلبة المرابطين- بأمر من الباي- إلى مجموعات كثيرة أطلق

[1]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 235.

[2]: "المصدر نفسه"، ص: 235. – ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق"، ص: 374.

عليها اسم "ديوان"، حيث ضم كل ديوان خمسة وعشرين طالبا وفّر لها ابن سحنون وابن هطال ما يكفيها من الطعام والدراهم. بحيث قُدّرت حاجة كل ديوان أربعين صاعا من القمح في كل شهر، إضافة إلى خمسة وعشرين ريالا كمصاريف متنوعة[1].

هذا ولم يخلوا الرباط من بعض النزاعات والمناوشات التي كانت تحدث في أوساط الطلبة أنفسهم من جهة، وبينهم وبين السكان من جهة أخرى. ولعلّ من بينها المناوشات التي أصبحت تحدث بين الطلبة والسكان عند طحن القمح المرسل من الباي[2]، بدليل ما ذكره ابن سحنون: "... فكانوا- أي الطلبة- يذهبون بالقمح لمن يجاورهم من الأعراب يطحنونه لهم بأجرة فصعب ذلك عليهم وكانوا لا يفترقون معهم غالبا عن خصومة أو مضاربة..."[3]. فقرّر الباي محمد الكبير أن يرسله لهم مطحونا مع إنقاص ريال واحد من ميزانية كل ديوان، وبعد ذلك بنى لهم ثلاث أرحاء تشتغل بماء نهر مسرغين[4].

وإلى جانب الغذاء يذكر ابن زرفة أنّ الباي وفّر للطلبة كل مستلزمات الحياة داخل الرباط، ومنها الخيم والأواني- الطناجر والبقارج[5]- والخَدمْ والأطباء والدواء وغيرها[6]. كما أرسل لهم من يقوم بإصلاح المكاحل[7]- البنادق- الفاسدة، وفي هذا المقام نجده يقول أثناء حديثه عن طلبة المدرسة المحمدية: "... واستعد للطلبة أولا خيمتين عظيمتين كل منهما تحمل ما ينيف عن المئتين وعين الطباخين والحطابين وجميع ما يحتاجه الطلبة المرابطون

---

[1]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 235.

[2]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية... "المصدر السابق"، ص: 382.

[3]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 235.

[4]: محمد بوشنافي: دور الطلبة في تحرير وهران... "المرجع السابق"، ص: 90. وللمزيد ينظر ابن سحنون: "المصدر السابق"، ص: 235.

[5]: الطناجر: كلمة عامية منتشرة في أغلب مناطق الجزائر والمقصود بها الوعاء الذي يطبخ فيه الطعام، أما البقارج فهي أيضا كلمة عامية لا تزال متداولة ويقصد بها الإبريق. ينظر: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية... "المصدر السابق"، ص: 479.

[6]: "المصدر نفسه"، ص-ص: 345- 349.

[7]: الشقماقجية: هم من قاموا بصناعة وإصلاح المكاحل -البنادق- الفاسدة، ينظر: "المصدر نفسه"، ص-ص: 327- 350.

في المنال والحين، كالأواني والزيت والسمن للطبخ واستعد لهم حتى المراجل للوضوء..."[1].

كما كان الباي يراعي الظروف المناخية للمنطقة وما قد يعانيه الطلبة من قساوتها، ولهذا كان يرسل إليهم جلود الأبقار إمّا لاستعمالها أثناء تساقط الأمطار[2] وفي هذا المجال يقول ابن زرفة: "... بعث سيدنا الأمير- أي الباي- جملة وافرة من جلود البقر لانتعال الطلبة أيام البلل والمطر، إذ جبل وهران كثير الأحجار لا يلحق به طالب ولا يدرك فيه هارب وهذا لشدة لطفه على الطلبة..."[3]، أو لترقيع أحذيتهم، بدليل ما ذكره ابن سحنون: "... وغيرها مما يحتاجون إليه حتى الجلود لخصف نعالهم..."[4].

ولتوفير هذه المستلزمات والحرص على تأمينها، طلب أمير المرابطين الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي من أمناء الرباط بتخصيص فرسين أصيلين وبريدين لموافاته بالأخبار التي تَرِد من الباي محمد الكبير[5]. هذا وقد أمر هذا الأخير في رسالة كتبها لرئيس الرباط من أنْ يُسرّح الطلبة إلى ذويهم، مع وجوب التردد على الرباط المرة بعد الأخرى بقوله: "... ولتعلموا أن الطلبة الذين عندكم لا حصرة في تسريحهم لأهلهم ثم يأتوا المرة بعد المرة..."[6].

كما يحثّه فيها على ضرورة تذويب الخلافات التي كانت تقع بين المرابطين وشيوخهم وقوادهم أثناء توزيع العطايا بإرداف عطايا إضافية أو إعادة توزيعها بالعدل، ضف إلى ذلك ضرورة تحسين النيّات والتذكير بفضل الرباط والجهاد في سبيل الله. حيث يقول ابن زرفة:

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص: 328. وللمزيد ينظر: محمد بوشنافي: دور الطلبة في تحرير وهران... "المرجع السابق"، ص- ص: 90-91.

[2]: محمد بوشنافي: دور الطلبة في تحرير وهران... "المرجع السابق"، ص: 91.

[3]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق"، ص: 382.

[4]: ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص: 233.

[5]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق"، ص: 326.

[6]: "المصدر نفسه"، ص: 347.

"... وخصّص المشائخ في تحسين النيات وإصلاح السرائر والطاولات، وبإصلاح ذات البين بينهم ونزع الضغائن والتحامر فيما لديهم..."[1].

إنّ هذه الإجراءات ما هي إلاّ سعي من الباي محمد الكبير في توطيد ثقة المرابطين وطلبة العلم والقرآن، وفي من يقوم بأمرهم في الرباط – محمد بن عبد الله الجيلالي– حتى لا يتسلّل إليهم الإحباط فيستغله الاحتلال الإسباني بوهران والمرسى الكبير. كما أنّه لم يبخل على طلبته في مجال العطاء فكان يخصّص لهم ما بين الحين والآخر مبالغًا مالية يقوم الأمناء بتوزيعها عليهم، وكان قد خصّص لكل ديوان أربعة وعشرين ريالا[2]. ويشير ابن زرفة أنّه في إحدى المرات بعث إليهم حوالي سبعمائة ريال مع الفقيه القاضي أبو عبد الله السيد المكي بن عيسى وألف ريال قام بإرسالها مع سي بن عبد القادر بن البوري، وأمر أن يتحصل كلّ خمسة وعشرين طالبًا على نصيب قدره خمسة عشرة ريالا. وهذا بعد أن كتب الباي محمد الكبير رسالة إلى الطلبة جاء فيها: "...فترون بعثنا لكم سي بن عبد القادر بن البوري وبيده الدراهم أقسموها على الطلبة واجعلوا خمسة وعشرين طالبا في القسمة وكل قسمة أعطوها خمسة عشر ريالا..."[3].

وكان الباي محمد الكبير قد أوكل إلى رئيس الرباط مهمة توفير الأسلحة للطلبة، حيث قام كلا من الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي والطاهر بن حوا بتسليح طلبة المدرسة المحمدية بمعسكر وتجهيزهم بالسيوف والبنادق، مع تقييد ذلك في دفتر خاص سُجِّل فيه اسم ونسب كل طالب استلم السلاح والجهة التي قَدِم منها والأسلحة التي قُدّمت له. ولم يكن هذا الإجراء إلاّ بعد رسالة كتبها هذا الباي إلى أمير المرابطين جاء فيها:"... أن تعدّو أصحاب المكاحل من الطلبة وتكتبوهم في جريدة وسموا كل واحد واسم أبيه وقبيلته وأكتبوا من لا مكاحل لهم في جريدة أخرى، لنعرف عدد الفرقتين فأثبت عدد ذوي السلاح وأبعث السلاح للآخرين إعدادا لحرب الثغر الوهراني، وإن لم تعلمونا فلا نبعث لكم السلاح ولا البارود ولا شيئا من العطاء المعهود..."[4].

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص: 352.

[2]: محمد بوشنافي: دور الطلبة في تحرير وهران.... "المرجع السابق"، ص: 91.

[3]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق"، ص: 382. كما يرجى العودة إلى نفس المصدر، ص: 348.

[4]: "المصدر نفسه"، ص: 404.

وبالرغم أنّ الباي محمد الكبير لم يتقاعس عن توفير كل ما يحتاجه الطلبة في داخل الرباط، إلاّ أنّ ذلك لم يمنع من وجود بعض المناوشات بين الطلبة نتيجة بُعْد الأسواق "أين تعسّر عليهم شراء السمن والأواني للطبخ"[1]. ونتيجة لهذا الوضع قام الباي بإصدار قرار يمنع بموجبه إقامة الأسواق على طول المنطقة الممتدة من وادي مينا قرب غليزان شرقا حتى أحواز تلمسان غربا، وسمح بإقامتها قرب رباط إيفري وهذا حتى يُقرِّب الأسواق من رباط الطلبة بدليل ما ذكره ابن سحنون: "...وعطّل الأسواق من جميع إيالته من مينه إلى أحواز تلمسان، وأمر بجعلها قباله بيفري ليمكّن الطلبة شراء ما يحتاجونه من قرب ولا يذهبون للأسواق البعيدة حسما لمادة الفتن بينهم...."[2].

وعلى ما يبدوا أنّ هذه الإجراءات هي التي مكّنت علماء وطلبة المدرسة المحمدية من جمع أعداد غفيرة من الطلبة سواءا من المدن أو من البوادي، ومن استنفار الفقهاء والعلماء جاؤوا بهم إلى الثغر الوهراني. فأصبح بذلك مجموع أفراد الرباط ما يزيد عن الألفين وخمسمائة طالب علم، كانوا في المقدمة خلال الهجومات التي شُنَّت على الإسبان في وهران وأحوازها إلى أن تمّ تحريرها نهائيا سنة 1792م.

3: مشاركات العلماء الميدانية مع الجيوش النظامية في الجهاد الحربي ضد الإسبان:

كان الصراع العسكري بين الطلبة المرابطين والإسبان في وهران متواصلا فحروب العثمانيين مع أعدائهم لم تزل سجالا، فتارة حال نصر واقتدار وتارة حال تمحيص واختبار[3]. ولقد انعكس ذلك على نمط حياة الطلبة فجعلهم –مثلا– يُعنون بآلات الحرب المختلفة، ويصرفون الهمم في صناعتها أو جلبها[4]. وكذلك يسعون لإتقان استخدامها، فقد حكى ابن زرفة أنّ الباي محمد الكبير كان يحثّ الطلبة على إتقان استعمال السلاح بالتدريب المتواصل، حيث أمر طلبة المدرسة المحمدية بالتدرّب على ذلك قبل تنقّلهم إلى وهران. وذلك لأنّه لم تكن لهم دراية بذلك لانشغالهم بالدراسة والعلم، وفي هذا المقام يقول: "وكان سيدنا الأمير... لما قسم على الطلبة البارود بأم معسكر أمرهم بضربه في المناضلة تعليما

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص: 383.

[2]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 245.

[3] : ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 233.

[4]: "المصدر نفسه"، ص–ص: 247– 249. – ابن زرفة: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق"، ص: 271.

لهم وترويجا للقلوب من الضجر... فنجدهم تارة يقرءون وتارة يتناضلون"[1]. كما أشار ابن سحنون على أنّ طلبة العلم وحملة القرآن قد اختلطوا بالطبجية – رماة المدافع– وحفرة الألغام[2] برباط وهران بُغية تدريبهم على القتال، حيث عيّن الباي محمد الكبير من كلّ ديوان جماعة من الطلبة وألحقهم بالطبجية للتعلّم تحت إشراف أحد المهرة[3].

ومن خلال ما سبق يتبين أنّ العلماء وطلبة العلم كانوا ضمن الجماعة المحاربة للإسبان بوهران فهم قد نحو– ولا بدّ– منحاها في هذا الجانب التربوي في صغرهم، ثم صاروا بعد ذلك أبصر من غيرهم بواجبات الجهاد في سبيل الله، وكذلك بمستلزمات الدفاع عن حياض الأمة والحفاظ على ثغورها.

وفي زمن الباي محمد الكبير– الذي احتدمت فيه المجابهة مع الإسبان– لم يتوان العلماء وطلبة العلم عن الانخراط في قافلة الجيش النظامي، وبخاصة القادرون منهم على القتال المطيقون لحمل السلاح. فمنهم الذين نصّت المصادر المعنية بتراجمهم على مشاركتهم في معركة أو أكثر أو في التصدي للعدو عند حصار مدينة وهران، ومنهم من عرفنا مشاركته بالجهاد بذكر مقتله في معركة معينة مع النصارى الإسبان[4]. ثم إنّ هناك طائفة

---

[1]: ابن زرفة: الرحلة القمرية ... "المصدر السابق"، ص: 448.

[2]: وللإشارة فإنّ رماة المدافع قد قدموا من مناطق داخل البايلك الغربي، أمّا حفرة الألغام فهم أهل فجيج بالجنوب على الحدود الجزائرية المغربية. اختصّوا بحفر الألغام تحت الأرض فقدم إلى الباي محمد الكبير ما ينيف عن المائة حفّار، دفع لهم هذا الباي الكتّان الجيد ومائتين وألف ريال. للمزيد ينظر: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 248. وأيضا: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق"، ص: 358.

[3]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 248.

[4]: مثل استشهاد العالم الطاهر بن حوا. ينظر: "المصدر نفسه"، ص: 237. – ابن زرفة: الرحلة القمرية... "المصدر السابق"، ص–ص: 363–364. وللإشارة فإن البخاري قد عنون أحد أبواب كتاب الجهاد في صحيحه بـــ: "باب لا يقول فلان شهيد"، فأورد قول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه :"الله أعلم بمن يجاهد في سبيله والله أعلم بمن يُكْلم في سبيله". كما روى حديث الرجل الذي قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم إنه من أهل النار رغم أنه قاتل المشركين معه قتالا شديدا، وقد تبين أنّ ذلك الرجل أصيب بجرح غائر فاستعجل الموت وقتل نفسه. ومن كلام ابن حجر في شرحه لأحاديث هذا الباب قوله: "فالمراد النهي عن تعيين وصف واحد بعينه بأنه شهيدا، بل يجوز أن يقال ذلك عن طريق الإجمال". ولما وصل إلى شرح حديث الرجل الذي قتل نفسه عقب جهاده المشركين علّق عليه بقوله: "فلا يطلق على كل مقتول في الجهاد أنه شهيد لاحتمال أن يكون مثل هذا، وإن كان مع ذلك يعطى حكم الشهداء في الأحكام الظاهرة". للمزيد ينظر: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، ط4، بيروت، عالم الكتب، 1985، ج4، ص–ص: 104–105. وأيضا: شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، نشر: محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، بيروت، دار المعرفة، ج6، ص: 90.

من العلماء اكتفت المصادر بوصف الواحد منهم –مثلا– بعبارات عامة قد يُفْهم منها مشاركته بالجهاد دون تحديد لمعركة أو حادثة معينة مثل القول عن بعضهم "كان ... مجاهدا"، أو عن آخر "كان... شهير الزهد والخير والجهاد" أو "كان مقدام ميادين الحروب"[1]. وتارة يذكر عن بعضهم – لا سيما ابن زرفة– كلمة قد تُوحي بأنّ حياته خُتمت بقتال مع العدو الإسباني، مثل قول "توفي شهيدا" أو "أستشهد"[2].

ولا شك أنّ كلمة الجهاد أو الاستشهاد وإن كانت قد تدلّ دلالة قوية على المشاركة في الجهاد الحربي ضد الأعداء إلاّ أنّه لا ينبغي لنا الجزم مطلقا بدلالتها على ذلك، فقد يقصد بهما في المصادر معاني أخرى[3].

وعلى كلّ حال فنحن على يقين تام أنّ كثيرا من العلماء وطلبة العلم في بايلك الغرب زمن الباي محمد الكبير لم يتخلّفوا عن أي مجابهة مع النصارى الإسبان على مدى فترة الحصار للمدينة وهران للحيثيات التي عرضناها في غضون كلام سابق، وذلك كمعرفتهم بفرضية الجهاد في بلادهم واطلاعهم على فضل الجهاد أكثر من غيرهم. فضلا عن كَوْن العلماء عموما هم عنصر من العناصر الفاعلة في المجتمع الذي لا يتصور أن يتخلّف عن شهود وقائع ترتبط بمصير الأمّة ومستقبلها[4]. لكن الإشارة إلى مشاركتهم بالجهاد في المصادر تتوقف– كما هو معلوم– على قيامهم في المعارك بأعمال تسترعي الانتباه، وذلك بكسر الوتيرة المألوف رؤيتها في الجيوش النظامية مثلا أو يكون مقتلهم في هذه المعركة أو تلك. المهم يكون ثَمَّ سبب يدعو الراوي أو الإخباري إلى تسجيل معلومة أو خبر يُفهم منهما

---

[1]: ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص: 233.

[2]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق"، ص: 283. – ولدرجة أنّ ابن زرفة يذكر بالتفصيل أنّ الشهيد سميّ شهيدا لأنه مشهود له بالجنة. ينظر: "المصدر نفسه"، ص–ص: 170– 174.

[3]: فالوصف بالمجاهد قد تعني جهاد النفس عند المتصوفة. ابن العربي: عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، دار أم القرى للطباعة والنشر، القاهرة، ج7، ص: 122. وكلمة الاستشهاد قد تستعملها بعض المصادر أحيانا في مقتل أحد العلماء ظلما على أيدي مسلمين. أنظر مثلا: أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن الأبار: المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي، القاهرة، دار الكتاب العربي، 1967، ص: 152. و: أبو جعفر أحمد بن يحيى الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، دار الكتاب العربي، 1967، ص: 51. – القاضي أبو الفضل عياض بن موسى عياض: الغنية : فهرست شيوخ القاضي عياض: تحقيق: محمد بن عبد الكريم، الدار العربية للكتاب. ليبيا– تونس، 1978، ص: 118.

[4]: يحيى بوعزيز: علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا 1500– 1830، الجزائر، دار البصائر للنشر والتوزيع، 2009، ص: 21.

اشتراك العالم أو طالب العلم بإحدى المعارك الجهادية مع النصارى الإسبان، ولذا فلا عجب أن نرى معارك كثيرة دارت رحاها زمن البحث على جبهات القتال بين الطلبة المرابطين والإسبان – وقد تكون بعضها مهمة- تواطأت المصادر المتوافرة لدينا على عدم ذكر أحد من العلماء شارك فيها.

هذا ما يمكن قوله عن حال طلبة العلم المرابطين في المواجهات البرية، أمّا حالهم في الغزوات البحرية فإنّنا لم نعثر – حسبما تهيأ لنا من مصادر- على نصوص صريحة تُفيد باشتراك علماء أو طلبة علم من بايلك الغرب في معارك بحرية سواءا في الفتح الوهراني الأول أو الثاني. وافتقارنا إلى مثل تلك النصوص لا يخول لنا أبدا نفي مشاركة أهل العلم بغزو البحر[1]. صحيح إنّ ركوب البحر والقتال على ظهره يتطلب تدريبا وتمرينا لكن من غير المعقول – مهما كانت الظروف- أن لا يكون أحد من رجال العلم والطلبة المرابطين بوهران قادرا على خوض عباب البحر محتسبا لجهاد العدو فيه وبخاصة إذا تذكّرنا أنّ الحكام العثمانيين كانوا قد اهتموا بالأساطيل في ذلك الحين وتوسعوا في رعايتها وتطويرها واشتبكوا مع الإسبان في معارك بحرية عديدة[2]. ويكفينا ما ذكره ابن سحنون أثناء حديثه عن طرق الباي ومناوراته في حرب الإسبان بقوله: "... فتارة يوجه لهم المهرة بالسباحة في البحر فيبيتون من قدروا عليه منهم في بيوتهم..."[3].

وما قلناه – آنفا- في تفسير عدم تعقّب الرواة لكل مشاركات العلماء في المواجهات البرية يمكن أن يقال –أيضا- في تعليل خلوّ المصادر من إشارات إلى مشاركات هؤلاء في الغزوات البحرية، ولعلّ ما ورد عرضا عن ابن سحنون بأنّ الباي محمد الكبير قد كلّف السباحين المهرة بتدريب الطلبة المرابطين على السباحة يوميا في شواطئ البايلك يؤيّد جزمنا بمشاركة العلماء في هذا المضمار. هذا بالإضافة إلى ما ذكره ابن زرفة من أنّ الباي قد

---

[1]: حيث يذكر ابن زرفة في رحلته فضائل الغزو في البحر ورتبة شهيد البحر. للمزيد ينظر: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق"، ص-ص: 248- 249.

[2]: للاطلاع على تلك المعارك البحرية يرجى العودة إلى: حنيفي هلايلي: النظام الحربي للجزائر في العهد العثماني منذ مطلع القرن السابع عشر إلى 1830م، أطروحة دكتوراه، جامعة سيدي بلعباس، 2003- 2004.

[3]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 197.

كلّف فريقا بتعليم الطلبة على السباحة في البحر بقوله: "... هذا ولم يزالوا – أي الطلبة- يخرجون اليوم بعد اليوم، ويتدربون في البحور بساحة العوم..."[1].

3-1: مقدار أثر العلماء والطلبة في الجيوش النظامية:

وقبل أن نأتي على تفاصيل مشاركة العلماء في المعارك الجهادية نلقي أضواءا عامة على طبيعة مسلكهم ومقدار أثرهم في الجيوش العثمانية، فإذا تركنا مباشرتهم للقتال على جنب- والتي سيأتي الحديث عنها لاحقا- لاحظناهم ينهضون في تلك الجيوش بخدمات مختلفة ومجهودات متنوعة. وقد لا نغالي إذا قلنا أنه لا يجاريهم في النهوض ببعضها أحد سواهم، ففي أخبار تجهيز الباي محمد الكبير لحملته على وهران وسهره على إحياء الرباط نجده يُحاط بكوكبة من العلماء وقد يُهاب أحيانا بالصالحين والعبّاد – الأولياء- ومَنْ إليهم للخروج إلى جهاد الإسبان تفاؤلا بهم وبدعواتهم[2]. ولا بد أنّ قسما من هؤلاء ينتمون إلى جماعة العلماء أو طلبة العلم، وكان بعض العلماء النافرين للجهاد يستفاد منهم في معرفة مسارب المدينة وثغورها ويستشارون في أمثل الطرق لمحاربة النصارى الإسبان[3].

فها هو الباي محمد الكبير يعرض المشورة على العلماء حول الطريقة الجديدة لمواجهة الإسبان بعد كشفهم للألغام التي حفرها الطلبة بالأبراج، حيث يقول ابن زرفة: "فأمر سيدنا – أي الباي- أمده الله بالعون والتسيير بالعلماء الصلحاء فحشدوا إليه ومثلوا بين يديه ثم أنشأ يعرض عليهم المشورة فقال لهم: لا يخفاكم ما فعله النصارى أعداء الله الكفرة من كشف اللغم وفرغ باروده وإصلاحهم من برجهم ما تهيأ لفساده، ولم يبقى إلا طلب النزال جهارا والصدمة ليلا ونهارا..."[4].

وهناك مناشط معينة يضطلع بفعلها العلماء وطلبة العلم خلال التحرك للجهاد أو الاستعداد له، لكن المصادر في الغالب لا تكشف لنا هويّة هؤلاء الطلبة، فما نلمسه من هذه

---

[1]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق"، ص: 355.

[2]: "المصدر نفسه"، ص-ص: 328- 347.

[3]: حيث ذكر جون وولف أنّ الباي محمد الكبير قد تجمّع لديه بحلول سنة 1789م حوالي خمسين ألف رجل جاهزين للحصار، رغم أنّ معظمهم لن يُفيدوا سوى في مراقبة الطرق والحقول لتدعيم الحصار. ينظر: جون وولف: الجزائر وأروبا 1500-1830، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، الجزائر، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 2009، ص: 409.

[4]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق"، ص: 273.

الأدوار والمناشط بصفة خاصة في الجيش النظامي الذي قاده الباي محمد الكبير للقتال هو تكليف العلماء بجمع أحاديث الجهاد لدراستها وإملائها على المقاتلين[1]. ومنها –أيضا– قراءة بعض طلبة العلم القرآن بصورة جماعية أثناء سير الجيش إلى ساحة المعركة، ثم يعقب ذلك قراءة الحديث وبعض الشروح والحواشي الفقهية بدليل ما ذكره ابن سحنون: "...كل هذا وهم –أي الطلبة– مشتغلون بقراءة القرآن والفقه والنحو لا يتركون إلا في أوقات القتال، وبالليل يبيتون يتلون القرآن العزيز لا يفترون عنه إلا نحو الساعتين من أوقات النوم..."[2].

وقد نقل عن بعض العلماء والطلبة المرابطين قيامهم في الجيش النظامي بمهمة التحريض على جهاد العدو والاستبسال في قتاله، وذلك بإلقاء الخطب المتعلقة بهذا الأمر حال اللقاء مع الإسبان، وقد يستخدم المحرّض على الجهاد من العلماء أحاديث نبوية في باب الجهاد وأجر المرابط في الثغور[3].

وشيء خليق إيراده في هذا الشأن عن العلماء، وهو أنّ منهم مَنْ آلت إليه الراية خلال بعض المعارك مع الإسبان فحملها وسط المعترك وأعتبر بذلك وكأنّه قائد للجيش الذي جهّزه الباي محمد الكبير لفتح وهران، بدليل ما ذكره ابن سحنون: "...فلما علم الكفرة بذلك تكالبوا عليهم وجدوا في قتالهم فقتلوا منهم ثلاثة أحدهم حامل الراية..."[4]. وهذا معناه أنّ بعض العلماء وصلوا إلى مرتبة تُضارع مرتبة القيادة في الجيوش العثمانية.

وعن بعض الوسائل الناجعة في إثارة حماس الطلبة والجند المرابطين وإرهاب عدوهم وقت القتال أشار ابن زرفة إلى رفع الأصوات بذكر الله تعالى حال لقاء طلبة العلم بأعدائهم الإسبان، وفي هذا الإطار يقول: "... حتى تشجعت الناس وتثبتت قلوبها وطابت لنيل الشهادة نفوسها، وقلنا لهم أن شعار المرابطين التكبير فكبّروا وصلّوا عليه صلى الله عليه وسلم وأكثر الناس في هذا الزمان شعارهم الصلاة على النبي ذلك حسن لا دليل بمنكره..."[5].

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص: 276.

[2]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 241.

[3]: "المصدر نفسه"، ص–ص: 110–116. وأيضا يرجى العودة إلى: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق"، ص–ص: 160–237.

[4]: ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص: 237.

[5]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق"، ص: 277.

وعلى ما يبدوا أنّ الباي محمد الكبير قد أدرك أنّ فتح وهران لا يتلاءم وخطورة الوضع الذي كانت تعاني منه، فقضيتها ليست قضية إمدادات بل قضية تراجع همّة المرابطين من الجند وتقاعسهم على مراقبة حركة العدوّ ومحاصرته. حيث عاد الإسبان إلى سابق عهدهم، ولن يتأتّى ذلك – أي الفتح- إلاّ بإشراك فئة العلماء الذين كان لهم دور كبير في تضييق سبل العيش على الإسبان داخل المدينة[1]. ومن ذلك أنّ الطلبة في بداية حصار وهران اكتشفوا منبع الماء الذي يزوّد المدينة عن طريق ساقية تجري تحت الأرض فقرروا تفجيره لمنع الماء عنها، ولذلك اتصلوا بالباي حتى يمدهم بما يكفيهم من البارود لهذا الغرض فاستجاب لهم وأرسل إليهم شخصا مختصا في ذلك إنه "ابن ناصف قائد الجير". وفي هذا الإطار يقول ابن زرفة : "وبعث- أي الباي- أحمد ابن ناصف قائد الجير وكان له بهذا الشأن هندسة وتدبير وبعث معه جملة وافرة من المحازم لإنجاد الطلبة الحوازم، فجعلوا اللغم بعد اللغم والبارود يعمل في الأحجار عمل الزلزال بالكفار حتى أفضوا إلى غار في جوف الحجارة فانقطع خرير الماء الذي كان يسمع وعدم ذلك الصيت..."[2].

وقد أشاد ابن زرفة بفاعلية الحصار الذي قام به الطلبة، حيث أنهم تمكنوا من قطع إمداد الماء إلى المدينة. ومشيرا إلى أنه – أي الحصار- كان من أنجع ما يُتعاطى في الحرب وأنكاه في العدو وأقربه تناولا للأرواح، فيقول: "... والطلبة يشتدون هنالك وهم – أي الإسبان- لا يخرجون من ناحية الجبل بعدما كان لهم تكلان المعول...."[3]. أمّا عن دور الطلبة في تحريض الجند على القتال فلقد كانوا يتجولون في الرباط بهدف التعبئة النفسية، ودعوة الجند على الصبر والثبات "فالسعيد من الجند من أشار بالمشي لهم والتوجه لحضرتهم"[4].

كما كان لهم منهج تربوي خاص وهي كتب الجهاد بمواضيعها المختلفة والنظم الإسلامية الحربية، وفي هذا الإطار يقول ابن زرفة: "... دار العلماء على العساكر

---

[1]: محمد بوشنافي: دور الطلبة في تحرير وهران.... "المرجع السابق"، ص: 87.

[2]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق"، ص-ص: 340- 341.

[3]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق"، ص: 367.

[4]: "المصدر نفسه"، ص: 371.

وشجعوها بذكر الأوامر والزواجر وجمعوا بين الترغيب والترهيب، ورجوا قلوبهم بريح الوعض المصيب فإن الناس تلقت سبل الشهادة..."[1].

كما كان لطلبة العلم دورا بارزا في جمع الحطب من الغابة بُغية ردم خنادق الإسبان، وهو ما يؤكّده ابن زرفة: "... ثم أنشأ بجمع الحطب من الغابة لردم خنادق العدو وجعل للناس أوقية على كل حزمة حطب فانسابت الناس رغبة في معرفة وامتثالا لما طلبه، وذهبوا رجالا وركبنا مشايخ وعلمانا حتى جمعوا من الحطب ما فيه وقاية من مكايد يحملون الحطب ليلا وكل من حمل حزمة يأخذ أوقية..."[2].

وزيادة على هذا تراهم ممتثلين لأوامر الباي محمد الكبير في إزالة الأشجار والأحجار لإصلاح طريق المدافع باتجاه وهران بدليل ما ذكره ابن زرفة: "فنادينا ذوي النجدة من الطلبة أن يلتحقوا إليهم –أي بالجيش النظامي– ويتغذوا بالعدو قبل أن يتعشى بهم فينثروا ما نظموا من عقودهم وينقضوا ما أبرموا من عهودهم، فانتدبوا لذلك وتعاقدوا على ما هنالك فلما أرخى الليل جناحه تقلدوا الفؤوس والمناقر وباتوا ينقلون حجارته"[3]. هذا بالإضافة إلى الدور الكبير الذي لعبوه في ميدان الحراسة التي تعدّ صفة أساسية من صفات المرابطة[4].

وقد لا نتجاوز الحقيقة في شيء إذ قلنا أنّ خروج هؤلاء العلماء مع الجيوش النظامية النافرة للقتال في وهران إنما يُمثّل نموذجا للعديد من العلماء والطلبة الذين لابد أنهم صاحبوا هذا الجيش، فابن سحنون أشار إلى مبادرة المطوعة في الالتحاق به[5]. ولا جرم أنّ العلماء ومن على شاكلتهم يأتون على رأس المطوعة، وبخاصة إذا كان الجيش يرفع راية الجهاد في سبيل الله.

3-2: مشاركة العلماء في المعارك:

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص-ص: 280-281.

[2]: "المصدر نفسه"، ص: 263.

[3]:"المصدر نفسه"، ص-ص: 446-447.

[4]: "المصدر نفسه"، ص: 335. وللمزيد عن دور طلبة العلم في الحراسة برباط وهران، يرجى العودة إلى: "المصدر نفسه"، ص- ص: 409- 443. وأيضا: ص: 447.

[5]: ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص: 247.

قبل الولوج في تفاصيل نشاط العلماء الميداني مع الجيش النظامي في الجهاد ضد القوى النصرانية وفي استماتة الطلبة في قتال الإسبان وأعوانهم، نُنبّه على أنّ ما سيرد ذكره والكلام عنه فيها من مواجهات بين الطلبة المرابطين والإسبان أو في مجال الدفاع عن مدينة وهران لا يقتضي بالضرورة أهميتها في حلقة الصراع التاريخي بين الجانبين، لأنّ التطرق إلى شيء من ذلك خاضع –كما لا يخفى– لما تسعفنا به المصادر من أسماء لرجال من أهل العلم شاركوا في هذه المواجهة أو تلك.

وعلى العموم فلقد شارك الطلبة إلى جانب شيوخهم في معارك تحرير وهران يدفعهم إلى ذلك روح الجهاد وحب الشهادة في سبيل الله، وقد أبلوا في ذلك بلاء حسنا. وكانوا قد بايعوا الباي محمد الكبير على الشهادة وذلك لما كان بمعسكره في مسولان قرب وهران، حيث انتخب خمسمائة منهم "بايعوه على الموت فكسى كل واحد منهم كسوة جيدة وأعطاه دراهم وأمرهم بملازمة الوادي المؤدي إلى حدائق البلد ويأتيهم فيه مأكلهم ومشربهم ورجع الباقون إلى يفري كما كانوا"[1]. وبالرغم من أنه لم تكن لهم دراية باستعمال السلاح وفنون القتال إلاّ أنهم استطاعوا إتقان ذلك في فترة وجيزة[2]، حيث أشار ابن زرفة بأنّ أثرهم كان بارزا في مواجهة الإسبان وعملائهم بتضييق الخناق عليهم وإبداء مقاومة شرسة في قتالهم أينما صادفوهم، فكانوا يراقبون تحركاتهم من أعلى الجبل ومتى خرجت طائفة منهم انقضوا عليها وتركوها بين قتيل وجريح أو فار بنفسه[3].

ما فتئ علماء بايلك الغرب عموما ينفرون خفافا وثقالا للجهاد والمرابطة بوهران فصحبوا الجيوش المجاهدة للكفرة الإسبان ورفعوا راية التوحيد وانتضوا السلاح وتقدّموا الصفوف، فكثير منهم –وفقا لما ذكره ابن سحنون– ما فارقوا الحياة الدنيا إلاّ وهم في ساحات الوغى أو في طريق التحاقهم بالرباط[4]. وهو الأمر الذي حدث للشيخ محمد بن أبي طالب المازوني وطلبته –مائتي طالب– أثناء اقترابهم من وهران، حيث داهمهم الإسبان ومعاونوهم من العرب الذين أعلموهم بمكان تواجد الطلبة وهنا وجدها الإسبان فرصة للإيقاع

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص–ص: 275– 276.

[2]: محمد بوشنافي: دور الطلبة في تحرير وهران.... "المرجع السابق"، ص: 91.

[3]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية..... "المصدر السابق"، ص: 443.

[4]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 234.

بهذا الفريق "فكمنوا له وسط الطريق وأطبقوا عليه"[1]. كما حقروا من شأنهم لما أخبروهم "أنّ أكثرهم صبيان ولم تكن لهم بالحروب تجربة وقدروا في أنفسهم الخبيثة أنهم إن أدركوا من جدهم حقيقة يستأصلون الطلبة عن آخرهم، فريقا يقتلون وفريقا يأسرون ويقطعونهم بأسرهم"[2].

هذا وقد كان هجوم العدوّ ليلا، إلاّ أنّ الطلبة تفطّنوا له فبادروا بفتح صرر البارود وملئ بنادقهم دفاعا عن أنفسهم[3]. أمّا من عجز منهم على ذلك فأخذ يلتقط الحجارة من الأرض ويرمي بها الأعداء[4]، وهنا يبرز قاضي الجماعة الطاهر بن حوا في حفز المقاتلين على الجهاد وإثارة الحماس في نفوسهم. وبعد قتال عنيف انتهت المعركة بنجاة الطلبة بعد وصول المدَد إليهم من مسرغين وإيفري[5]، حيث لجأوا إلى الجبل بعدما قتلوا عددا من الأعداء، في حين لم يُصب منهم إلاّ طالبين أو ثلاثة فبعث إليهم الباي من يسعفهم[6].

وعلى ما يبدوا أنّ بعض الطلبة لم يتعرضوا للإصابة إلاّ بعد أن قاتلوا الإسبان بشدة وأرخصوا نفوسهم في قتالهم وأبلوا البلاء الحسن، يشهد بذلك أنهم آثروا مرافقة شيخهم أبو طالب المازوني في الوفد الذي توجّه لرباط وهران، حيث غامروا بالسير في طريق وعر المسلك صعب المرور ومشيا على الأقدام[7]. ويحكي ابن زرفة عن الشيخ أبو طالب المازوني أنه يوم الواقعة- أي المعركة- رأى الخلل في طلبته فاستنزل من الصفّ وبرز أمام الزحف ورغّب الطلبة في الصبر، وقد انكشفوا وناشدهم الله أنْ يقفوا فما وقفوا

---

[1]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية... "المصدر السابق"، ص: 343.

[2]: "المصدر نفسه"، ص: 344.

[3]: محمد بوشنافي: دور الطلبة في تحرير وهران.... "المرجع السابق"، ص: 92.

[4]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق"، ص: 344.

[5]: حيث مدّهم الباي محمد الكبير بنحو العشرة فرسان من مرابطي مسرغين، وبنحو العشرين من طلبة إيفري. ينظر: ابن زرفة: "المصدر نفسه"، ص: 345.

[6]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 234. وللإشارة فلقد كتب الشيخ محمد بن أبي طالب المازوني لرسالة وجّهها للباي محمد الكبير بعد إصابة طلبة العلم، يطلب منه فيها بتوجيه الأطباء للمجاريح وأن يبعث زاد المرضى "إذ ليس المريض كالصحيح فبعث بجميع ذلك عاجلا وفي المطلوب كاملا". ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية... "المصدر السابق"، ص: 345.

[7]: "المصدر نفسه"، ص: 343.

"ويستغيث بالله ويقول: أفلاذ كبدي وكان نهاهم عن ملاقاة العدو يومئذ فعصوا فصار يقول قد نهيت أولا فلم يصغوا، ومع ذلك لم يزل يدعمهم زاحفا إلى الكفار مقبلا غير مدبر"[1].

وعموما فإنّ تكليف العلماء لقيادة الطلبة كانت له آثاره الإيجابية برزت في ذلك التلاحم الذي تولّد بين القيادة والطلبة، فكانت العلاقة بين الطرفين علاقة أبوة وعطف[2] حتى أنّ ابن زرفة يخبرنا بأنّ الفقيه محمد بن أبي طالب المازوني: "جاء ماشيا من مازونة ودابته تقاد وراءه وهو يأمر الطلبة أن يتداولوا ركوبها ويحتسب مشيته، وكبر في قلبه أن يركب وطلبة العلم يمشون ومازال كذلك إلى أن وصل إلى محروسة أم عسكر وجمع الطلبة يسعون، ثم ذهب لوجهه كذلك ودابته تقاد أو يركبها من شاء فيها هنالك إلى أن شرفوا على وهران"[3].

وبهذا الفعل من أبو طالب المازوني انكشف لنا ما كان يختلج في نفوس بعض رجال العلم عند عزمهم على الخروج إلى قتال الإسبان، ومن ناحية أخرى لوحظ على الشيخ محمد بن أبي طالب المازوني استغلاله لوقته وهو في الطريق إلى الجهاد في التدريس ونشر العلم بين الناس. فالعديد من الطلاب استمعوا إليه- مثلا- داخل الرباط، وبعمله هذا ضرب أزكى مثال للعالم المسلم العامل الذي يصرف ساعات عمره في جهاد مستمر متعدد الميادين[4].

وممّا يستلفت النظر أنّ حشودا كبيرة من المتطوعين نفروا للجهاد والمرابطة بوهران فأربى عددهم عن مائتي طالب من مدرسة مازونة الفقهية[5]، ويُرجّح أنّ خروج هذا العدد الهائل من المتطوعين حصل بتأثير الشيخ محمد بن أبي طالب المازوني. فقد كان يحتل مكانة علمية واجتماعية سامقة ليس في مازونة فقط بل في إيالة الجزائر بأسرها، وخروجه إلى الجهاد والرباط بوهران بحدّ ذاته دعوة لمحبيه وتلامذته ومَنْ إليهم للاقتداء به.

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص: 344.

[2]: محمد بوشنافي: دور الطلبة في تحرير وهران.... "المرجع السابق"، ص: 90.

[3]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية... "المصدر السابق"، ص: 343.

[4]: "المصدر نفسه"، ص-ص: 410-411. أيضا: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 234.

[5]: "المصدر نفسه" ، ص: 234.

ومن المفيد أن نشير إلى ما أخبرنا به ابن زرفة عن نفسه من حضوره معركة مع الطلبة المرابطين جرت في منطقة الأفوال[1] في أوائل جمادى الأولى 1205هـ، فتواصل القتال فيها طيلة النهار حتى أجبر الطلبة الأعداء على التراجع وراء الأسوار بعدما قتلوا منهم ستة وجرحوا اثني عشر آخرين[2]. غير أنّ الرصاص والبارود نفذ من الطلبة[3]– وفيهم من رمى نحو الأربعين سهما– ممّا اضطرّهم إلى الرمي بالحجارة[4]، ولما علم الإسبان بذلك ارتدوا عليهم وتكالبوا في قتالهم فقتلوا منهم ثلاثة أحدهم حامل الراية[5].

هذا ولمّا علم السيد الطاهر بن حوا بما وقع للطلبة قفل راجعا لدعمهم، إلاّ أنّه "أصيب في ذراعه الأيمن قرب الأكحل ببندقة– أي رصاصة– خرجت من منتهى عضده ثم دخلت جوفه"[6]. وبقي يعاني من جرحه مدة ليلتين حيث أستشهد عقب صلاة العشاء ليلة الخميس ثاني جمادى الثانية فكانت خسارته كبيرة على الطلبة، حيث "فقدت بفقده محاسن الأخلاق وعدم معه الحياء من أمثاله على الإطلاق وذهب الوفاء والإنصاف، ولم يبق أحد مثله مصاف وبكته العيون الجامدة والقرائح الخامدة رحمه الله وأسكنه فسيح الجنان وأحله منزل الرضى والرضوان"[7].

وعلى ما يبدوا أنّ وفاة نائب رئيس رباط وهران – الطاهر بن حوا– قد كانت نكسة للطلبة المرابطين، حيث رثاه ابن سحنون بأبيات شعرية مطلعها:

عَزِّ نَفْسَكَ عَنْ صرُوفِ الزَّمَـــانِ كُلُّ شَيْءٍ عَلَى البَسِيطَةِ فَانِ
كُلُّ مَنْ عَاشَ لمْ يَزَلْ كُلَّ يـــوْمٍ يَشْتَكِي مِنْ إِصَابَةِ الحَدَثَانِ
إِنَّما قَدْ فَقَدْنَا مَنْ لَيْسَ للقَلْبِ عَلَى الصَبْرِ عَنْ نَوَاهُ يَدَانِ

---

[1]: الأفوال: هي منطقة بالقرب من جبل المائدة المطلّ على وهران، ذكر عنها ابن زرفة أنها منطقة جبلية وعرة كثيرة الفياض المحجرة التي يعسر بها المحال. ينظر: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية... "المصدر السابق"، ص: 363.

[2]: "المصدر نفسه"، ص: 363. وأيضا: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 237.

[3]: وللإشارة فلقد ذكر ابن زرفة أنّه من كثرة حبّ الطلبة للقتال والاستشهاد في سبيل الله، كانوا إذا نفذ الرصاص يتكلّمون فيما بينهم: "هل عندك قرطاس منه فأعود". ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية... "المصدر السابق"، ص: 361.

[4]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 237.

[5]: "المصدر نفسه"، ص: 237. – ابن زرفة: الرحلة.... "المصدر السابق"، ص: 361.

[6]: ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص: 237.

[7]: "المصدر نفسه"، ص: 237.

يَا ابْنَ حَوَاءَ إِنَّ جَفْنِي قَرِيـــحٌ ضْ نَقِيمُهَـــا مِنَ الأَدْرَانِ
يَا ابْنَ حَوَاءَ إِنَّ قَلْبِي حَرِيـــقٌ عَنْكَ مُفْتَتِنْ وَأَيُّ افْتِتَانِ[1]

ولم يكن هذا الفعل من الطاهر بن حوا بِدْعًا في هذه الموقعة- المعركة-، فقد عُرف بأنّه ثابت الجأش يباشر بنفسه مواضع القتال. وقد سجّل تلميذه ابن سحنون ما شاهده بعينه في إحدى المواطن من شجاعة شيخه بقوله: "... العلامة المفضال أسد الحروب الذي لا يسأم النضال، فارس حلبة العلوم ومقدام ميادين الحروب ذو الكمال الباهر المخصوص بالطبع المهذب المنفس على رفقته شدائد الكروب، السيد المشذب محبنا الأصفى الدراكة الأريب، العلامة الأديب..."[2].

وعلى ضوء ما مضى قد لا نتعدّى الحق إذا قلنا أنّ الطاهر بن حوا كان في تلك الأيام العصيبة – أي خلال فترة الرباط والحصار لمدينة وهران- أعظم من الحكّام مكانة عند الطلبة. بفضل علمه وشخصيته وانصرافه لخدمة بلده، وفيما رُثي به من شعر ما يُصَدّق ذلك. فقد رثاه ابن زرفة هو الآخر في قصيدة تربوا عن الخمسين بيتا مطلعها:

كَيْفَ الْسِلْوُ عَنْ صَفْوَةِ الأَخْوَانِ وَالَشَّوْقُ مِنْ تِذْكَارِهِ أَظْنَـــانِ
أَنِّي يَطِيقُ الصَّبْرَ مِنْ أُلْفِ الْكَرَى مِنْ فَرْطِ مَنْ يَلْقَاهُ مِنَ الشَّجَانِ
يَا طَاهِرْ أَنِلْتَ الفَخَـــارَ بأَسْـــرِهِ يَا مَجْلِيَ الأَشْجَانِ والأَحْـــزَانِ
حَازَ ابْنَ حَوَا المكَارِمَ فِي التُقَـــى والفِقْهَ فِي ذِكْرٍ وَفِي قُرْآنِ
وَقُلْ هَنِيئًا يَا سَادَتِي مَا نِلْتُـــــمْ مِنَ الشَهَادَةِ فَرُتَبٌ بِالغُفْرَانِ[3]

وهكذا نلمس في معركة الأفوال أثرا ظاهرا للطاهر بن حوا ومن معه من طلبة العلم والقرآن في التصدي للزحف الإسباني على وهران، فالشيخ الطاهر بن حوا كانت له جهوده في استنهاض الناس – فيما يبدوا- لمحاربة الإسبانيين. ثم نراه في ميدان المعركة بمثابة القائد للجيش النظامي فهو الذي حرّض الجند وطلبة العلم المتطوعة على الاستبسال في قتال العدو، فلمّا سمع ما أصابهم من تشرذم في صفهم قفل راجعا لدعمهم وأمسك ببندقيته ليرمي

[1]: "المصدر نفسه" ص-ص: 237-239.
[2]: "المصدر نفسه"، ص-ص: 233- 237.
[3]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق"، ص-ص: 364-366.

بها وأخذ يدعوهم إلى الشهادة في سبيل الله وظل على تلك الحالة حتى أستشهد، وفي هذا الإطار يقول ابن زرفة: "... فبات تلك الليلة ودمه ينفح مسكا وهو يتطهر به تبركا..."[1].

أمّا معركة الرفافيد التي كانت في مطلع جمادى الثانية 1205هـ فلقد أخبرنا ابن زرفة أنّه لما عزم الطلبة على مناطحة العدو زحفوا نحوه حتى إذا تكاملت جموعهم فقام الخطباء فخطبوا في الحث على الجهاد فأبلغوا وأحسنوا، ولا نحسب ابن زرفة إلاّ من هذا الصنف من العلماء الذين حرّضوا الناس على القتال وذكّروهم بفضل الجهاد في سبيل الله ومثوبته عند الله. فكانت ثمرة ذلك بأن تلاحم الطلبة وقويت أنفسهم وعزيمتهم وتضاعفت نجدتهم وإقدامهم، حيث التحم الجمعان في معركة عنيفة استمرت حتى الليل واجه فيها الطلبة ترسانة قوية من الأسلحة. حيث استعمل الإسبان المدافع والقنابل في حين أنّ الطلبة لم يملكوا إلا المكاحل – أي البنادق– والأسلحة البيضاء، كما عانوا من نقص في البارود والرصاص[2]، ورغم ذلك أبلوا بلاء حسنا في مساعدة بعضهم بعضا والتدافع نحو الشهادة. وكانت عاقبة المعركة انهزام الإسبان ومقتل عدد كبير منهم، وفرار بعضهم تحت جنح الظلام أمّا الطلبة فلقد أستشهد منهم اثنين وجرح ثمانية[3].

ومن المعارك التي دارت رحاها بين الطلبة من جهة والإسبان ومساعدوهم المغاطيس من جهة أخرى، ذلك الاشتباك الذي وقع عند برج العيون في قتال رهيب للطلبة أسفر عن انسحاب الإسبان وتحصنهم وراء خنادقهم بعد مقتل أعداد هائلة منهم، ولم يُصَب فيها إلاّ طالبين جُرحا جروحا خفيفة[4]. ولقد أظهر بعضهم من ضروب الشجاعة وألوان البسالة والتحريض على الجهاد وصدق النية في طلب الاستشهاد ما حدا بالناس إلى تناقله ومن ثم تدوينه، وفي هذا الصدد يخبرنا ابن سحنون أنّه بينما كان يوزّع على الطلبة المرابطين في

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص: 363.

[2]: وللإشارة فلقد أرجع ابن زرفة سبب نقص البارود والرصاص إلى قيام الباي محمد الكبير بإبطال العطاء للطلبة المرابطين بعد حدوث المناوشات بينهم، وقال: "هذا أحقّ للتخاصم". للمزيد ينظر: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق"، ص: 394.

[3]: "المصدر نفسه"، ص: 396. كما يذكر ابن زرفة أنّ الطلبة قد قاموا في هذه المعركة برمي حوالي اثنين وأربعين ما بين مدفع وبونبة. يرجى العودة إلى "المصدر نفسه"، ص: 379.

[4]: محمد بوشنافي: دور الطلبة في تحرير وهران.... "المرجع السابق"، ص: 92. – كما ذكر ابن سحنون أنه قد مات ثمانية من الإسبان في تلك المعركة. ينظر: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 239.

إحدى المرات مبلغا من المال بعثه إليهم الباي وصلتهم أخبار بخروج بعض الإسبان من أسوارهم "فلم يكن إلا كلمح البصر حتى امتلأت بهم السبل الهابطة إلى البلد فأتوها فوجدوا الكفار دخلوا بلدهم وغلقوا أبوابهم دونهم فحمل طائفة منهم على جماعة من النصارى في عسة لهم فأخرجوهم منها، وجلسوا فيها يضربون نحو المدينة والأبراج إلى العشية ثم رجعوا كأنهم أسود الغاب، وحفظ الله ظاهر عليهم ولطفه مكتنف بهم، ثم صاروا يكمنون لهم في ناحية الوطا وجهة البحر، فلا يوافونهم حتى كأنهم ينذرون بهم فينحجرون في مدينتهم"[1].

كما جرت معارك أخرى شارك فيها الطلبة مع الجيش النظامي ضد الأعداء، ومنها قتال وقع بالقرب من جبل المائدة لما أجبر الطلبة أعداءهم على الخروج لناحية الجبل رفقة المغاطيس فقابلوهم ونشبت معركة حامية بين الجانبين تحمّل فيها أولئك المتطوعة عبئ القتال فأبلوا البلاء الحسن. بيد أنّ الهزيمة في الأخير حاقت بهم وقُتل معظمهم، وهذا بعد أن عاد الإسبان أدراجهم وقاموا برمي الطلبة من داخل الأسوار والأبراج[2]. وفي هذا المقام يقول ابن سحنون: "ثم حملوا عليهم في ذلك البرج فغلقوا الأبواب وضاربوهم من الطيقان التي فيه والطلبة يدخلون مكاحلهم منها ويضربون، فكان ذلك اليوم على الطلبة من أيام البلاء والابتلاء مات منهم نحو الستة عشر، وجرح منهم كثير لم يتحقق عدده"[3].

وعليه نستنتج أنّ الجند النظامي كان قليل العطاء أثناء خوض المعارك مقارنة مع المتطوعة من طلبة العلم، ولا شك أنّ مبادأة المتطوعة بقتال العدوّ وجريان هذه المقتلة الرهيبة عليهم ليدل دلالة ساطعة على حماسهم للجهاد في سبيل الله، والذي لا بدّ أنه استجاش في نفوسهم بأثر من مواعظ العلماء الذين كانوا يرافقونهم. لدرجة أنّ الطلبة كانوا لا يكترثون لكرات المدافع بدليل ما ذكره ابن زرفة: "وترى البونبة وكرة المدافع أكثرها في وسط الجيش واقع والطلبة لا يكترثون به ولا يلتفتون إليه بل ترى بعضهم يرتجس بالموزون، والأخر بالشعر الملحون"[4]. كما يذكر ابن سحنون أنّه قد بلغ من تهاونهم بأمر الإسبان: "...أنّ

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص-ص: 239- 240.

[2]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية ... "المصدر السابق"، ص: 368.

[3]: ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص: 241.

[4]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق"، ص: 368.

بعضهم قد سقطت قربه بونبة –أي قذيفة– فرمى عليها برنسه وركب فوقها وهي تدور به، فقال لرفيقه ويلك ثقلني حتى لا تطير بي فركب فوقه وما فارقها حتى طفئت...."[1].

ونظرا لكون أبراج الإسبان وحصونهم تربض على جبال مرتفعة محتلة موقعا منيعا، وفي الوقت ذاته مشرفة على مروج مدينة وهران ومرافقها متخذة منها قاعدة للإغارة والعيث فيها. فقد تفطّن الباي محمد الكبير إلى خطورة ذلك وعمد إلى تكليف الطلبة بمهمّة مراقبة البرج الجديد والبرج الأحمر وآخرين وزعهم على جبل المائدة وحواليه، عسى أن يظفروا بالقبض على بعض الجواسيس والمغاطيس[2].

ولقد ضاق سكان مدينة وهران ذرعا بالأعمال الإسبانية المخرّبة المنطلقة من الأبراج والحصون فقرّر الباي انتزاعها منهم واستنفر الطلبة المرابطين للجهاد فتوافدوا عليه، حيث كلّف خمسمائة طالب بحراسة أهل فجيج الذين كان الباي قد استقدمهم لوضع القنابل تحت أسوار العدوّ لتهديمها. أمّا ما بقي من الطلبة فأمرهم بحفر المتاريس والأنفاق لوضع الألغام تحت الأبراج، وبهذا الأمر تكون قد تعددت مهام الطلبة بين القتال والحراسة والحفر[3].

وواضح أنّ ما سبق ذكره من أخبار عن أثر طلبة العلم الذين خرجوا في هذه المعارك لا يكشف لنا ما هم خليقون بفعله في جهاد الإسبان، فالاحتمال كبير جدا أنّ هؤلاء كلهم أو على الأقل بعضهم باشروا القتال بأنفسهم. ثم من المنتظر أنْ يكون الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي – باعتباره رئيس رباط وهران– على رأس الواعظين للطلبة مبيّنا لهم فضل الجهاد ومحرّضا لهم على قتال الأعداء، لا سيما وأنه كان يحظى بمكانة علمية وأدبية مرموقة بين تلاميذه الذين أشرف عليهم في جبل المائدة قرب وهران فالطلبة كانوا يترسمون خطاه ويقتدون بما يصدر عنه من حركات، بدليل ما ذكره عنه تلميذه ابن سحنون: "... وهو الآن كهف إليه الملاذ وجبل به المعاذ.... ألا وأنه من أكبر شيوخنا الذين انتجعنا رياض دروسهم، وانتفعنا كل النفع بما اجتنينا من غروسهم...."[4].

---

[1]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 240.

[2]: ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص: 239. –ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق"، ص: 443.

[3]: ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص: 248.

[4]: "المصدر نفسه"، ص–ص: 228–229.

وبالنسبة لابن سحنون وابن زرفة فبصفتهما كانا من الموظفين الرسميين لدى الباي محمد الكبير[1] وبخاصة أنّ الثاني منهما أكّد النص على أنّه من أعضاء ديوان الباي ومن المقرّبين إليه، فمن المتوقع أن يضطلعا ولو بجزء من أعمال هذا الديوان- وبالخصوص ديوان الجيش- كإحصاء الجند ومعرفة احتياجاته المتجددة وتحديد الرواتب والأعطيات. وكذلك كتابة الأوامر الحربية، وليس إلى الشك سبيل أنّ العمل في مصلحة الجيش المجاهد للإسبان كالقيام بمهمة الكتابة داخلة في إطار أعمال الجهاد في سبيل الله.

وقبل أن نغادر إسهام العلماء في ردّ العدوان الإسباني على مدينة وهران، نعرج على عمَلين نراهما يتصلان بجهودهم في تحرير المدينة والدفاع عنها رفقة جيش الباي محمد الكبير:

أولهما: المخاطرة بالنفس أثناء عملية التسلّل لأبراج وحصون الإسبان، وثانيهما: الكتابة من المدينة المحاصرة إلى الباي لاطلاعه على ظروف المدينة وتذكيره بأنجع الوسائل لإنقاذها، وقد تجسّد هذان العملان كلاهما في غضون تكليف الباي للطلبة المرابطين بمهمة مراقبة الأبراج والحصون[2].

وفي ختام كلامنا عن مشاركة العلماء مع الجيش النظامي في المعارك ضد القوى الإسبانية نشير إلى أن ثمة علماء تحدثت المصادر عن خروجهم إلى الجهاد من غير أن تقدم لنا أي إفادة عن المعارك التي خاضوها، حيث اكتفت بذكر قصص جهادهم في بلاد العدو، وأخبرت أنّ نهاية بعضهم كانت القتل في سبيل الله[3]. وسواء أكان ما استنتجناه صوابا كله أم كان غير ذلك، فإن الرواية التي حدثنا بها ابن سحنون عن موقف الطاهر بن حوا من الإسبان قد أمدتنا بتفصيل فريد من نوعه عن إقدام بعض طلبة العلم وشجاعتهم وصبرهم

---

[1]: وللإشارة فالأول كان مصاحبًا لولده ووليّ عهده عثمان، أمّا الثاني فكان يشتغل كاتبه الخاص وكان الباي قد كلّفه بتسجيل أحداث الفتح الثاني، ممّا يجعلهما على إطلاع بكثير من القضايا والأمور الدقيقة والسرية. ينظر: محمد بوشنافي: دور الطلبة في تحرير وهران... "المرجع السابق"، ص: 86.

[2]: ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص: 239. – ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية ... "المصدر السابق"، ص: 443.

[3]: حيث ذكر الجامعي حديثا عن العالم الفقيه أبو عبد الله الموفق التلمساني الذي كان أكثر الناس حرصًا على الظفر بالشهادة خلال الفتح الأول لمدينة وهران حتى استشهاده بين البرج الأحمر والجديد، هو والعالم محمد بن أبي عبد الله التلمساني. ينظر: عبد الرحمن الجامعي: فتح مدينة وهران...، "المصدر السابق"، ص-ص: 88-89.

ومصابرتهم في مقاومة الإسبان بالسلاح بل وحتى بالحجارة. دع عنك ما زودتنا به من وصف حي للقاء بين مقاتلين أحدهما مسلم والآخر نصراني، والأسلوب الذي كان كل واحد منهما ينهجه في القتال حتى كأنك ترى ذلك رأي العين.

وهكذا عبر الصفحات الماضية تجلّى لنا في عدّة جوانب أثر العلماء والطلبة في الجهاد الحربي ضدّ الإسبان، فرأينا اهتمامهم الكبير بشؤون الجهاد وقضاياه وأخباره وما يرتبط بذلك من عدّة وعتاد. كما ظهرت جهودهم في دعم حركة الجهاد الميداني بالأموال سواء بإنفاق ما يستطيعون منها في ذلك السبيل أو بحثّ غيرهم على الإنفاق أو بمؤازرة السلطة القائمة على حركة الجهاد في مطالبتها الناس بالمعونة عند الحاجة إلى ذلك، على أنّ أثرهم استبان لنا بشكل لامع في ساحات القتال فرأيناهم يتقدمون الصفوف ويحملون السلاح ويخالطون به العدو. كما أنّهم كانوا لا ينفكون عن تحريض أفراد الجيش النظامي على التضحية في سبيل الله، ومقاومة الأعداء إلى غاية تحرير مدينة وهران سنة 1792م.

الفصل الثالث:

التقارب بين العلماء والسلطة: طرقه وأشكاله.

أولا: وسائل السلطة في التّقرّب من العلماء والمرابطين

ثانيا: علاقة البايات بالعلماء: الباي محمد الكبير أنموذجا

لقد أدرك العثمانيون منذ بداية تواجدهم بالجزائر قدرة العلماء والمرابطين الهائلة في التأثير على العامّة، ولهذا عمدوا إلى التقرّب منهم والرّفع من شأنهم باحترامهم واستشارتهم والأخذ برأيهم، ولم ينته دور هؤلاء العلماء والمرابطين ببسط العثمانيون نفوذهم على البلاد فالسلطة لا تزال بحاجة إليهم لإحكام سيطرتها على البلاد "لأنّ السكّان كانوا يثقون في رجال الدين من الفقهاء والمرابطين أكثر ممّا كانوا يثقون في رجال السياسة والحرب، ولهذا كان العثمانيون يقدّرون العلماء ويخشونهم ويتقرّبون منهم، ويطرونهم ويمنحونهم الهدايا، وكانوا أحيانا يلجؤون إليهم في موقف تأييد أو غير ذلك، كما أنّ العلماء كانوا في حاجة إلى الباشوات والبايات طمعًا في مال أو وظيفة، وقد اشتهر بعض الباشوات بتقريبهم للعلماء ومراعاتهم إمّا حبًّا في الدين والعلم وإمّا طمعًا في تأييدهم وإما حبًّا في المدح والثناء وكان عدد هؤلاء الباشوات قليلا"[1].

ويفهم من هذا أنّ من بين العوامل التي ساعدت على توثيق الصّلة بين العلماء والسلطة هو حاجة العلماء كغيرهم من الرّعايا إلى الباشوات والبايات من أجل الحصول على الوظائف المختلفة، أو الحصول على تدعيم السلطة عمومًا ماديًا أو معنويًا.

أولا: وسائل السلطة في التقرّب من العلماء والمرابطين:

إنّ العلاقة بين السلطة الحاكمة والسكّان كانت مؤطّرة بتعامل السلطة المباشر مع العلماء والمرابطين، هؤلاء كانوا ينقلون أحوال الرعيّة ومطالبها إلى الحكّام ويتدخّلون في التوسّط لحلّ ما يحدث من أزمات بين الرعية والسلطة، وبالتّالي كان عليها هذه الأخيرة أولاً أن تكسب ولاء هؤلاء العلماء والمرابطين الذين يحظون بنفوذ كبير سيما أولئك المنحدرين من بيوتات دينية وعلمية عريقة[2]، حيث اعتمدت على عدّة وسائل وأساليب أهمّها تخصيصهم بامتيازات مهمّة مادية ومعنوية.

1- الامتيازات المعنوية: ويمكن أن نتناول هذه الامتيازات في النقاط التالية:

1-1: الاحترام:

---

[1]: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998، ص: 409.

[2]: فوزية لزغم: البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها الثقافي والسياسي (925-1246ه /1520-1830م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2013-2014، ص: 445.

أدرك العثمانيون منذ بداية تواجدهم بالجزائر قدرة العلماء والمرابطين الهائلة في التأثير على العامّة ولهذا عمدوا إلى التقرّب منهم والرّفع من شأنهم باحترامهم واستشارتهم والأخذ برأيهم[1] ،هذه المكانة التي حظوا بها هي التي جعلت الكثير من المصادر تشيد وتنوّه بها ومن ذلك ما ذكره حمدان خوجة: "لم يكتف الأتراك بأن فرضوا على أنفسهم احترام هؤلاء المرابطين، وإنّما صاروا يقدّمون لهم أكبر الامتيازات وأثمنها، وصارت أماكن سكناهم وضرائحهم بعد الموت مقدّسة، كما أنّ القانون لا يمس كلّ مَنْ لجأ إليها"[2].

وعليه لم يتوان العثمانيون بالجزائر في التقرّب من العلماء والمرابطين وطلب دعواتهم كلّما أقبلوا على أمر شديد، والرّفع من منزلتهم وتجنّب إذايتهم وإغضابهم، حيث كانوا يرون الصّلاح في أشخاصهم والأمن والسّلامة في صالح دعواتهم[3]. هذا وقد وجدنا العديد من الأمثلة الدّالة على احترام السلطة للعلماء منها الرسائل التي كان يُوجِّهها إليهم الحكّام بعبارات التقدير والاحترام والتعظيم، ولعلّ أبرزها ما وجّهه الباي محمد الكبير للطلبة والعلماء المرابطين بوهران، إذ وُصف ابن زرفة الدحاوي والطاهر بن حوا في أحد الرسائل ب: "أحباؤنا الأجلاّء وإخواننا السادات الفضلاء السيد محمد بن عبد الله والسيد الطاهر ابن حوا"[4].

---

[1]: ومن الأمثلة على استشارة السلطة للعلماء هوما حدث للبايلر باي حسن آغا 1544–1546م عندما راسل سيدي محمد بن سليمان بمدينة تلمسان يشرح له فيها علاقات الإيالة بالسلاطين السعديين، ومن الأمثلة على أخذ السلطة برأي العلماء هو استفتاء عروج وخير الدين العلماء في إعدام أمير تنس المتعاون مع الإسبان. للمزيد حول هذا الموضوع يرجى العودة إلى: خير الدين بربروس: مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة: محمد دراج، الجزائر، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، ط1، 2010، ص: 83.

[2]: حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق: محمد العربي الزبيري، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 2006، ص–ص: 72–73.

[3]– : محمد شاطو: نظرة المصادر الجزائرية إلى السلطة العثمانية في الجزائر؛ مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2005–2006، ص: 36.

[4]: ابن زرفة: الرحلة القمرية... "المصدر السابق"، ص: 327. كما تتكرّر هذه العبارات في جلّ الرسائل الموجّهة من الباي إلى طلبة العلم المرابطين بوهران. للمزيد ينظر نفس المصدر: ص: 340، 346، 348، 350، 353، 384، 385، 387، 388، 389، 391، 399، 401، 404.

كما أنّ الظهائر التي وجّهها الدايات والبايات لعلماء بيت الكتروسي بمازونة مثلاً خير دليل على احترام السلطة للعلماء، حيث وُصِف السيد أحمد بن خدة[1] في أحد الظهائر ب: "الولي الصالح القطب الناصح شريف النسب والحسب سليل العرب ومعاني الجود والكرم سيدي أحمد بن خدة ابن الولي الصالح المعظم الشهير سيدي علي الكتروسي"[2]. كما وُصِف الشيخ محمد بن المهدي الكتروسي[3] في ظهير آخر: "العالم الأجّل المرعي المبجّل الزّكي الأفضل السيد محمد بن المهدي نجل العالم الأوّاه الخايف من مولاه المرحوم بكرم الله الحيّ القيّوم السيد محمد بن المهدي برّد الله ضريحه وأسكنه من الجنان فسيحه"[4]. هذا وقد وُصِف السيد المهدي بن أحمد بن خدّة الكتروسي[5] في ظهير صادر عن مصطفى باي صاحب الولاية الغربية وهو مؤرّخ بسنة 1124ه/ 1712م ب: "المكرّم الوجيه المحترم العلامة الحبر الفهامة السيد محمد الصغير نجل البركة السيد أحمد بن خدة"[6]، وفي المرسوم المؤرّخ ب: 1238ه/ 1822م: "أما بعد فإننا أنعمنا على الحسباء النسباء الفضلاء الأدباء... الأشراف... السيد محمد المهدي وإخوانه وأولاده ومن انضم إليه"[7].

---

[1]: السيد أحمد بن خدّة: هو أحمد أبو العباس عبد الله الشيخ أحمد بن خدّة بن علي الكتروسي الشريف الحسني، أحد علماء مازونة خلال القرن 17م، مارس الإفتاء بها والإمامة بجامعها الكبير المعروف بسيدي عيسى وعزوز بحيّ بوماتع، كان على علاقة حسنة مع بايات الناحية الغربية وباشا الجزائر أحمد أبو العباس عبد الله الذي أمر السلطات بحمايته وإعفائه من كلّ الالتزامات – الضرائب- .جنان الطاهر: مازونة عاصمة الظهرة: ثغر حربي ومركز إشعاع حضاري، الجزائر: مكتبة الرشاد للطباعة، والنشر والتوزيع، 2005، ص، ص: 45، 70.

[2]: وثيقة ملك عائلة الكتروسي بمازونة مؤرخة ب: 1080ه/ 1669م. حيث استطعنا الحصول على هذه الوثائق من طرف الأستاذة: لزغم فوزية: أستاذة بقسم التاريخ في جامعة تيارت.

[3]: محمد بن المهدي الكتروسي: هو أبو عبد الله محمد بن سيدي المهدي بن محمد بن المهدي بن أحمد بن علي الكتروسي الشريف الحسني، مارس وظيفة الإفتاء والخطابة في مسجد أبي ذلول بمازونة، وأُضِيف له القضاء فيما بعد بموجب ظهير صدر من طرف أحد بايات الولاية الغربية، لزغم فوزية: البيوتات والأسر العلمية...."المرجع السابق"، ص-ص: 319-320.

[4]: وثيقة ملك عائلة الكتروسي بمازونة مؤرخة ب: 1215ه/ 1800م.

[5]: المهدي بن أحمد بن خدة الكتروسي: أبرز علماء أسرة الكتروسي خلال القرن 12ه/ 18م لأنّها حَملت اسمه فيما بعد وأصبح عَقِبه يُعرفون بأولاد المهدي، مارس وظيفة الإمامة بجامع سيدي عيسى بمازونة بموجب ظهير صدر عن مصطفى باي صاحب الولاية الغربية بتاريخ 1124ه/ 1712م. جنان الطاهر: مازونة ثغر حربي... "المرجع السابق"، ص: 70، وأيضا: لزغم فوزية: البيوتات والأسر العلمية.... "المرجع السابق" ص: 318.

[6]: وثيقة ملك عائلة الكتروسي بمازونة مؤرخة ب: 1124ه/ 1712م.

[7]: وثيقة ملك عائلة الكتروسي بمازونة مؤرخة ب: 1238ه/1822م.

وقد وصلت درجات التّقدير والاحترام إلى معاقبة كلّ من يُسيئ إلى العلماء خوفًا من إثارة الرعيّة، كما أظهر العثمانيون احترامًا مُبالغًا فيه للعلماء والمرابطين الأحياء، وبالغوا أيضًا في تقديس أضرحة الأموات منهم حتى أصبحت أضرحتهم وزواياهم ملجأ للفارّين والهاربين في وجه الأتراك، إذ لا يستطيع رجال الحكومة تعقّبهم فيها احترامًا لذلك الضريح ولوقارة المكان. وفي هذا الإطار وفَّرتْ زاوية القيطنة أمانًا حقيقيًا وذا مصداقية لدرجة قول الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر أنّها "كانت كمقام سيدنا إبراهيم"، كما كانت ملجأ للفارِّين الذين يحتمون بها "... ومن اجتاز الوادي قاصدًا القرية يأمن ولا سبيل عليه"[1].

كما عفا الباي عثمان إبراهيم (1747–1755م) عن أبناء وأنصار الباي بوشلاغم الذين سعوا لقتله بعدما فرّوا إلى ضريح سيدي محمد بن عودة[2]، ناهيك عن الباي الحاج خليل (1783– 1784م) الذي دُفِن بقبة سيدي محمد السنوسي سنة 1784م[3].

ومن الخطورة بما كان انتهاك حرمة الزاوية الذي قد ينتهي بانتقام من أتباعها أومن روح شيخها ففي 1732م فرَّ بعض الأشخاص من استبداد الباي بوشلاغم طالبين الأمان من سيدي محمد الهواري سيد وهران، غير أنّ الباي استهان بقدسية المكان وأرسل فرقة من قوات إزبنطوط لإخراجهم من ملجأهم وقيادتهم إلى قصره، وما أن جنّ الليل حتى ظهر سيدي محمد الهواري في حلم الباي وأنذره بموت مأسوي وسقوط وهران بيد الإسبان، وقد تحقّق الحلم بموت الباي في اليوم الموالي وسقوط المدينة ثلاثة أيّام بعد ذلك[4].

وللإشارة فلقد كان بايات الغرب يحترمون زعماء القادرية، بحيث ورد في ترجمة صاحب "القول الأعم" للشيخ عبد القادر بن المختار المعروف بسيدي قادة[5]: "وأجلسته الملوك

---

[1]: الأمير عبد القادر: مذكرات الأمير عبد القادر: سيرة ذاتية، تحقيق: محمد الصغير بناني وآخرون، الجزائر، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، 2008، ص: 49.

[2]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: خاتمة أنيس الغريب..."المصدر السابق" ص:20.

[3]: عِلمًا بأنّ الباي الحاج خليل لم يكن يُحِب الأولياء ولا غيرهم حسب إشارة محمد بن يوسف الزياني. للمزيد حول هذا الموضوع ينظر: محمد بن يوسف الزياني : دليل الحيران...." المصدر السابق"، ص: 197.

4: ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص– ص: 447– 448.

[5]: الشيخ عبد القادر بن المختار: هو عبد القادر بن أحمد المختار بن عبد القادر بن أحمد المختار بن محمد أشتهر بسيدي قادة، وهو الجدّ الأدنى لأسرة عبد القادر بن المختار والجدّ الثالث للأمير عبد القادر، عُرِف بعلاقاته الطيّبة مع بايات الولاية الغربية. الطيب بن المختار الغريسي المختاري: كتاب القول الأعم في بيان أنساب قبائل الحشم، ضمن كتاب مجموع النسب

الملوك من آل عثمان على فرشها"[1]. كما أشار الطيب بن المختار الغريسي إلى أنّ زاوية القيطنة قد قدَّمت ضيافتها إلى عدّة بايات وباشوات منهم الباي محمد الكبير الذي كان من مُريدي الطريقة القادرية، ولم يَرُد طلبًا لمصطفى بن المختار مؤسِّس الزاوية بدليل ما ذكره: "واشتمل عليه–الهاء تعود على الشيخ مصطفى– الباي محمد اشتمالا كثيرا خالطه فيه بنفسه وكان لا يرد عليه كلمة فحصل على يديه للمسلمين نفع كثير"[2].

ويفهم من هذا القول على أنّ هذه الأسرة قد حظيت بمكانة رفيعة لدى السلطة العثمانية، ونفس الشيء بالنسبة للشيخ عبد الرحمن بن علي المعروف بدحو بن زرفة والذي كان له مكانة رفيعة عند الحكّام في عهده، وذلك ما أكّد عليه صاحب "القول الأعم" بقوله: "ولجدّهم احترام عند ملوك الأتراك حتى أنّ بكلّ محكمة من محكماتهم مسجدًا مضافًا إليه، ومن دخله من أهل المطالب والجنايات لا يتعرّض له، ولا يواخذ بشيء مراعاة لجناب سيدي دحو"[3].

كما نلتمس ذلك الاحترام الذي حظي به العلماء من طرف الحكّام في القضية التي واجهت طلبة العلم المرابطين بوهران حول دفن رفاة الشهداء، حيث قرّروا نقل رفاة إخوانهم إلى مقرّات سكناهم ليُدفنوا هناك قرب عائلاتهم، ولمّا وصل الخبر إلى الباي محمد الكبير رفض ذلك رفضًا قاطعًا وأرسل أمره بدفن الطلبة الشهداء في مكان استشهادهم اقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك، وكان قد أرسل الباي إليهم كتابًا يُبيِّن فيه صواب رأيه وممّا قال فيه :"كيف بكم تعلمون سنة النبي صلى الله عليه وسلم ولا تعملون بها، وفائدة العلم العمل، أما تدرون أنّ سيدنا صلى الله عليه وسلم دفن شهداء أُحُد بمصارعهم ولم ينقلهم للمدينة المشرّفة مع أنّها أقرب العمارات إليهم وأنتم تتلون الكتاب العزيز على الألسنة، لقد كان في رسول الله أسوة حسنة، فالمطلوب منكم الآن هو أن تدفنوا من مات هنالك، وتكون مقبرة الشهداء من طلبة العلم مشهورة بذلك مقصودة للتبرّك والزّيارة والنّسك"[4].

والحسب والفضائل والتاريخ والأدب في أربعة كتب للهاشمي بن بكار، تلمسان، المطبعة الخلدونية، 1961، ط1، ص–ص: 337–338.

[1]: "المصدر نفسه"، ص: 338.

[2]: "المصدر نفسه"، ص: 340.

[3]: "المصدر نفسه"، ص: 332.

[4]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق". ص: 401.

ومن هنا نرى كيف كان الحاكم يُقدِّر مكانة العالم ويبجّلها، فالباي محمد الكبير أصرّ على تشييد مقبرة للشهداء تضمّ رفاة طلبة العلم حتى تكون معلمًا يُبيِّن الدور الكبير الذي قامت به هذه الشريحة من أجل تحرير وهران وطرد الإسبان منها[1].

هذا ويُقدِّم ابن هطال وصفًا حيًّا للمعاملة التي خُصَّ بها العلماء أثناء دخول الباي محمد الكبير لمدينة عين ماضي، وفيها نظرة ثناء واستحسان على تخصيص البايات معاملة لائقة ومكانة محترمة للعلماء جاء فيه: "ثم أصبح مرتحلا قاصدا عين ماضي فوصلها في ثلاث ساعات... وإذا بهم خرجوا بنسائهم وعلمائهم، وأذن للعلماء في التقدّم فتقدّموا وسلّموا عليه وسألوه أن يرفق بهم ويشفق من حالهم وأن يعفيهم من القطيعة الأولى التي فرضها عليهم، فإنهم لم يقدروا عليها ولا طاقة لهم بدفعها، فلمّا سمع كلامهم واستقصى خبرهم أدركته الحنانة والشفقة عليهم وجعل لهم لزمة أقلّ من الأولى"[2]. ويضيف متحدِّثًا عن كرم الباي وكثرة عطاياه على نساء العلماء فيقول: "وأعطى لنسائهم سوار فضة لكلّ امرأة منهن، ورجعوا مدينتهم فارحين مستبشرين بما أنعم عليهم السلطان واقتضاه فضله من تخفيف اللزمة عنهم والأمان"[3].

وممّا تقدَّم يمكن القول أنّ المكانة التي حظي بها العلماء لدى السلطة الحاكمة استمرّت طيلة الوجود العثماني، فقد كانوا خلالها يُقدَّمون في الصّفوف ويُستشارون ويؤخذ برأيهم، ويقدِّم ابن سحنون وصفًا حيًّا للمعاملة التي خُصَّ بها العلماء أثناء تحرير وهران من طرف الباي محمد بن عثمان الكبير وفيها نظرة ثناء واستحسان على تخصيص البايات معاملة لائقة ومكانة محترمة للعلماء، وفخر واعتزاز بهذا الباي ومدح فائق له بهذا الانتصار جاء فيه: "وكان أول من دخلها- الهاء تعود على مدينة وهران- بعد الذين وضعوا الأعلام وعمروا المدافع وبنوا مضرب الأمير العلماء يقدمهم صحيح البخاري، ثم تلاهم الأمير في جنده الجرّار، وفي يده رمح كاد أن يمزق أديم السماء طولا ويمسّ الثريّا وأسرة وجهه تتهلّل بلوامع البشرى...."[4].

---

[1]: محمد بوشنافي: دور الطلبة في تحرير وهران الثاني....."المرجع السابق" ص-ص: 93-94.

[2]: أحمد بن هطال التلمساني: رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري؛ تحقيق وتقديم: محمد بن عبد الكريم، القاهرة، عالم الكتب، 1969، ص- ص: 72- 73.

[3]: "المصدر نفسه": ص- ص: 73- 74.

[4]: ابن سحنون الراشدي: الثغر الجماني....، "المصدر السابق"، ص: 459.

كما أنّ الباي محمد المقلّش رغم إساءته للكثير من العلماء أثناء حرب درقاوة فقد أوصى جنوده بعدم التعرّض لأيِّ فارٍّ إلى ضريح سيدي محمد بن عودة في أيّ حالٍ من الأحوال، وبعد نهاية المعركة قاموا بزيارة الضّريح وقدّموا له صدقة قُدِّرت بأكثر من مائتي ريال دراهم[1]. كما عفا الباي عن أهل الثائر الشريف الدرقاوي عندما فرّوا إلى القيطنة مستنجدين بالشيخ محي الدين، وجاء العفو عنهم مراعاةً لحرمة الشيخ وحفظًا لذمّته[2].

كما كانت علاقة السلطة ببيت أولاد سيد الشيخ حسنة خصوصًا بعدما أصبح لها نفوذ واسع مشكِّلة عائلة مرابطية ترتبط قبائلها في الطريقة الشيخية، وعليه حَظِيت باحترام بايات الغرب وأعفتهم من دفع الضرائب[3]، ولعلّ أحسن دليل على ذلك هو عندما كان الشيخ سيدي "بوبكر ولد سيدي الشيخ" يذهب إلى وهران كان الباي يرسل في استقباله الموسيقيين، وحصاناً مسرّجًا، ويعتق جميع العبيد على شرفه[4].

وممّا يلاحظ أنّ أضرحة المرابطين والأولياء التي تمتّعت بسلطة أخلاقية وروحية قويّة، وتحوّلت بفعل طابعها القُدُسِي إلى مكان مُحرّم معلوم لدى عامّة الناس، وملاذًا آمنًا لكلّ فار أو معتصم بها سُرعان ما كان يختفي ويسقط هذا التّقديس عندما يقترب هذا العالم أو ذاك المرابط من أمور الدولة، وقد يدفع العالم حياته ثمنًا لذلك كغيره من الناس ولو لمجرّد الشّك[5]، وهذا دليل واضح على أنّ احترام السلطة للعلماء لم يكن عميقًا متجذّرًا، وذلك ما صوّره "لوجي دوتاسي" عندما زار الجزائر في الربع الأول من القرن 18م وعبّر عنه بقوله:

---

[1]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود...، ج1، "المصدر السابق"، 315.

[2]: عبد الرحمن بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج3، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1994، ص: 292. – محمد بن الأمير عبد القادر: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر. ج1، الإسكندرية، المطبعة التجارية عرزوزي وجاويش، 1903، ص: 76.

[3]: عبد القادر خليفي: الطريقة الشيخية، الجزائر، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، 2010، ص: 67.

[4]: Esterhazy : De la domination turque, Op.cit, p :270.

[5]: حيث تمنع السلطة العثمانية وصول المساعدة للفارِّين داخل الضّريح حتى يموتوا جوعًا. للمزيد حول هذا الموضوع يرجى العودة إلى:

Pierre Boyer: « Contribution à l'étude de la politique religieuse des Turcs dans la régence d'Alger XVI-XIX Siècle » in : R. O. M. M, N: 01, 1966. P: 28.

"إنّ الأتراك لم يكن لهم مراعاة لتصنّعهم، وكانوا يقتلون المرابطين مثل البقيّة عند تدخّلهم في أمور الدولة"[1].

ويفهم من هذا أنّ الاحترام الذي خصّته السلطة للعلماء والمرابطين والأولياء وأضرحتهم قد تميّز بخاصيتين متناقضتين: الأول إنّ احترامهم لهذه الفئة كان منطلقه طبيعة العثمانيين الدينية والمتمثّلة في تقديس المرابطين وما تعلّق بالتصوف عمومًا، أمّا الثانية فهي تحوّلهم إلى خصوم إذا ما تعارضوا مع سياسة الحاكم وتدخّلهم في شؤون الدولة[2].

1-2: الوساطة:

من أهمّ الأدوار التي أُنيطت بالعلماء والمرابطين هو دور الوسيط والتي اتخذت أشكالاً مختلفة جمعت بين السياسة وقضايا الأمن والاقتصاد لاعتبارات كثيرة أهمّها أنّ العثمانيين غرباء عن البلاد، وأنّ العلماء هم حلقة الوصل بين الحاكم والمحكوم لتأثيرهم الرّوحي على الأوساط الشعبية، وبذلك كانت القوّة الوحيدة التي يمكن أن تلجأ إليها لكسب طاعة الرعيّة في المناطق البعيدة والمستعصية وصولاً إلى الوساطات السياسية الكبرى ومع القبائل شبه المستقلّة القاطنة في المناطق الجبلية والصحراوية، ممّا جعل سلطة شيوخ الطرق والمرابطين موازية للسلطة المركزية بل منافسة لها بعد أن تحوّلت إلى سلطة سياسية مدعومة بسلطتها الروحية[3].

1-3 دور العلماء والمرابطين في المهام السياسية الداخلية:

لقد وُجِد في بايلك الغرب العديد من الأمثلة الدّالة على سعي السلطة العثمانية في استخدام وساطة المرابطين والعلماء وفي مواقف ومناسبات كثيرة منها المسائل السياسية،

1: Laugier de Tassy: Histoire de royaume d'Alger, avec l'état présent et son gouvernement, de ses forces de terre et de mer, de ses revenus, police, justice politique et commerce. Amsterdam, Henri du Sauzet, Sans date, p: 92.

2: وهناك شيء آخر، وهو إذا أثار جندي عثماني من فرقة زبنطوط ولجأ إلى زاوية ما يتفاوض الباي سرًّا مع خليفتها وينجح في إقناعه بوجوب قطع المؤونة عليه لإجباره على تسليم نفسه للقضاء العثماني، أويتمّ طرده بكلّ بساطة. للمزيد عن هذا الموضوع راجع:

Venture de Paradis : « Alger au XVIII siècle » .R.A ; N : 40, 1896. P-p : 33-78. Et 256-277.

3: مختار مخفي: العلماء والسلطة بالجزائر خلال العهد العثماني، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة معسكر، 2011-2012، ص-ص: 138-139.

حيث كُلِّف القاضي محمد بن سعد اليبدري التلمساني[1] بمهمّة تهدئة الأوضاع بتلمسان عقب الأحداث التي شهدتها المنطقة، والتّي تعود مجرياتها لخريف عام 1828م عندما رفضت قبائل ولهاصة في شمال تلمسان دفع الضريبة المفروضة عليهم للسلطة، فأرسل إليهم الباي حسن آخر بايات وهران محلّة –فرقة عسكرية– لاستخلاصها منهم بالقوّة، إلاّ أنّ المحلّة العثمانية تعرّضت لكمين فأبيدت عن آخرها، فخرج العالم محمد بن سعد لتهدئة الأوضاع[2].

من هنا نرى أنّه قد أصبح اللّجوء إلى العالم أو المرابط أمرًا ضروريًا عند حدوث نزاعات بين القبائل والسلطة العثمانية، كما كانت السلطة بحاجة للتّحالف مع هؤلاء ومنحهم عدّة امتيازات سيما المنحدرين منهم من بيوتات علمية عريقة ذات مكانة ونفوذ واسع، واستعمالهم كأداة فعّالة لإحكام سيطرتها على البايلك. وضمن نفس السياق سنحاول التطرّق لبعض أدوار الوساطة الناجحة ونبدأ بقضيّة الباي بوكابوس عندما حاول تفجير خزينة البارود لتدمير مدينة وهران، حيث تدخَّل العلماء وأقنعوه بالتّراجع عن قراره بعد التوسّل إليه، وأسفرت مهمّتهم بنجاح بعد تسليم الباي نفسه لهم ليتمّ قتله من قبل الآغا بعد أن نكَّل بجسمه، ثم بعثه إلى مدينة الجزائر[3]، هذا ويقدّم الآغا بن عودة المزاري وصفًا حيًّا للحادثة بقوله: "... فدخل الباي محله وقد سمع بذلك فجزم بإلقاء النار في خزنة البارود لتصير المدينة عاليها سافلها ولم ينج منحوس ولا مسعود وأنّه ميِّت معهم ما فيها المحالة، فصعد له المخزن للدخول عليه ومعهم كبراء البلد للقبض عليه ونهيه على فعله، فلم يدع أحدا يدخل

---

[1]: محمد بن سعد اليبدري: هو أحد علماء تلمسان ينتمي إلى أحد البيوتات العلمية البارزة ألا وهو بيت اليبدري نسبة إلى مؤسّسها الشيخ أحمد بن الحاج المناوي اليبدري، نشأ بتلمسان وتلقّى تعليمه على شيوخها، سافر إلى فاس لطلب العلم، ثم تولّى محمد بن سعد القضاء بتلمسان للعثمانيين عهد الباي حسن آخر بايات وهران، لكنّه سرعان ما هاجر إلى المغرب وتوفي بفاس عام 1264ه/ 1847م، ومن آثاره العلمية مؤلَّفه شرح على الشمقمقية. ينظر: لزغم فوزية: البيوتات والأسر العلمية...."المرجع السابق"، ص–ص: 312–315.أيضا: عبد المجيد بن نعمية وآخرون: موسوعة أعلام الجزائر (1830–1954م)، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، 2007، ص–ص: 375– 378.

[2]: لزغم فوزية: البيوتات والأسر العلمية.... "المرجع السابق"؛ ص، ص: 313،516.

[3]: تعود حيثيات القضيّة إلى الخلاف الذي كان بين باشا الجزائر والباي بوكابوس، هذا الأخير الذي كُلِّف بالزّحف على تونس، إلاّ أنّه حاول الثورة على باشا الجزائر والدخول في طاعة سلطان المغرب المولاي سليمان بن عبد الله (1792–1822م)، فقام بقتل محلة الأتراك فغضب الباشا لذلك كثيرًا وأرسل جيشًا لتأديبه بوهران، فحاول الباي بوكابوس تفجير المدينة. للمزيد عن هذا الموضوع يرجى العودة إلى: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود... ج1، "المصدر السابق" ص– ص: 333– 336.

عليه وزاد في قوله وفعله... فعند ذلك صعد له العلماء وبأيديهم المصاحف وصحيحا البخاري ومسلم وناجوه من بعيد وأروه ذلك ووعظوه بليغا، فأذن لهم في الدخول وأمنهم وقال من شاء تأخر ومن شاء تقدم فدخلوا عليه وصبروه ووعظوه، فثبت يقينه وزال ما به من الغضب وأذن للعلماء في قبضه فأبوا ذلك، وقالوا له هذا شأن المخزن لا شأننا فهم أولى بذلك"[1].

ونستنتج من هذه الحادثة أنّ العثمانيين كانوا على عِلم بتأثير العلماء والمرابطين على السكّان، ودورهم كوسطاء خلال مختلف الأزمات التي نشبت بالبايلك.

كما قام العالم السيد أحمد بن أعمر بن الخضير المهاجي[2] بدور الوساطة بين الباي محمد بن عثمان الملقّب بالمقلّش وبين الحشم بمعسكر خلال ثورة درقاوة، حيث أشار على الباي بأن يُصاهِر كبير الحشم الشيخ قدور بن الصحراوي ويخطب بنته إلى ابنه فوافقه على ذلك، وأعطى له توكيلاً بخطّ يده يحمل تاريخ 1220ه (1805– 1806م) لينوبه في الخطبة، وهوما حصل[3] بدليل ما ذكره صاحب القول الأعم: "... وكانت رياستهم بعد موت الشيخ العربي للشيخ قدور بن الصحراوي الذي قدمنا سالفا أنّ الباي محمد الصغير المعروف بالمقلش صاهره على ابنته لولده أيام حادثة ابن الشريف وفتنة درقاوة، ليقبض بذلك على عصيبة الحشم خوفا من أن يتحاشوا إلى ابن الشريف، ويدخلوا فيما دخل فيه غيرهم من الأعراب، فيتسع الخرق على الراقع فتمّ له بذلك مقصوده"[4].

يُفهم من هذا القول أنّ الباي محمد المقلش قد عمد إلى مصاهرة الشيخ قدور بن الصحراوي كبير قبيلة الحشم المساندة للدرقاوي حتى يتمكَّن من القضاء على الثورة الدرقاوية، وبهذا كانت المصاهرة إحدى أساليب الحكّام في التقرّب من العلماء والمرابطين

---

[1] : "المصدر نفسه"، ص–ص: 335– 336، مسلم بن عبد القادر الوهراني: خاتمة أنيس الغريب..."المصدر السابق"، ص: 28.

[2]: السيد أحمد بن أعمر بن الخضير المهاجي: أحد علماء الراشدية ذكر صاحب القول الأعم أنّه شريف النّسب ومن قبيلة مهاجة المتفرّعة من أولاد ميمون، عاش هذا العالم أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، وكانت له عدّة صلات ببايات الغرب الجزائري. ينظر: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود...ج1، "المصدر السابق". 104.

[3]: "المصدر نفسه"؛ ص: 104.

[4]: الطيب بن المختار الغريسي: القول الأعم... "المصدر السابق"، ص: 346.

من أجل تقوية الصِّلة بينهما وكسب الولاء، وبالتّالي ضمان الأمن والاستقرار في المناطق التي لهم نفوذ عليها.

كما وُجِد عدّة علماء قاموا بأدوار سياسية بحُكم مكانتهم لدى أهالي المناطق التي يقيمون فيها أو القريبة منهم منها الإصلاح بين القبائل والوساطة بين السكّان والسلطة العثمانية التي كانت تقبل وساطتهم في غالب الأحيان، بدليل ما ذكره الأمير عبد القادر في مذكراته أنّ الشيخ محي الدين كان: "يسعى في مصالح المسلمين بالشفعة لهم عند الملوك تارة بنفسه وتارة ببعث أحد أولاده، وتارة بالكتابة فيقضونها طائعين أو كارهين قهرا من الله"[1].

هذا ويشير صاحب القول الأعم للأدوار التي كان يقوم بها العلماء والمرابطين بغريس، وفي الصلح بين السلطة العثمانية وقبائل الحشم بقوله: "الحشم هم أساس القبائل وقطب دائرتها لا يضرّهم من خالفهم ولا يستقيم أمر لمن خالفوه، وكانوا كثيرا ما يخرجون عن طاعة الأتراك إن رأوا منهم تقصيرًا في أمرهم أو نقصًا في حرمتهم، فتخرج إليهم المحال من الجنود العثماني والمتطوعة فتقع بينهم حروب وهم مجتمعون بواد فروحة وهو موضعهم الذي كانوا يجتمعون فيه إذا خرجوا عن الطاعة وشمّروا للحرب، فلا يروع لهم سرب ولا يضام لهم نزيل إلى أن يدخل أعيان مرابطي غريس في الصلح بين الفريقين، وهكذا كان حالهم مع الأتراك إلى أن انقرضت دولتهم"[2].

ويفهم من هذا القول أنّ السلطة العثمانية قد سعت للزيادة من النفوذ المعنوي للعلماء والمرابطين في المجتمع لحاجتها الماسّة إليهم كوسطاء، حيث كانت تقبل وساطتهم في غالب الأحيان، ولعلّ هذا ما أكّده صاحب القول الأعم بقوله: "... وبعد هذا دخل أعيان مرابطي غريس في الصلح بين الأتراك والحشم كعادتهم فقبل الباي توسطهم ورضيه، وعاد الحشم إلى حالهم مع الأتراك وأذعنوا الطاعة لله الأمر من قبل ومن بعد"[3].

كما كان الحكّام في الجزائر يُقدِّمون العلماء في المواقف الحاسمة التي لا يمكن أن يقوم بها غيرهم خاصّة ما يتعلّق منها بأمور المصالحة وإصلاح ذات البين، وتقريب الوجُهات، سواءا في القضايا الداخلية التي تخصّ علاقة الحكّام بالمحكومين، أو تلك التي تدخل في

---

[1]: الأمير عبد القادر: مذكرات الأمير... "المصدر السابق"، ص: 49.

[2]: الطيب بن المختار الغريسي: القول الأعم... "المصدر السابق"؛ ص: 346.

[3]: "المصدر نفسه"، ص: 349.

علاقة الجزائر بجيرانها، وهو ما تمتدحه المصادر وتذكره بين طيّاتها، مثل ما خلّده العلماء أنفسهم ضمن الحديث عن سير باياتهم.

ومن الشّواهد الدّالة على ذلك ما ذكره ابن هطال عن مشاركة العلماء والفقهاء في الصلح الذي تمّ بين سكان الأغواط والباي محمد الكبير، وهو ينقل إلينا نصّ الرّسالة التي بعثها الباي إلى علماء المدينة اخترنا منها ما يلي: "بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، إلى كافّة علماء بني الأغواط بعد السلام عليكم ورحمة الله: إن بلغكم كتابي هذا أخرجوا غدا عيالكم وأولادكم من هذه القرية الظالم أهلها وانحازوا خارج المدينة إلى جهة وعليكم أمان الله، وإن خفتم من بعض العسكر أن يوقع بكم وكلت بكم من يحرسكم، ولا تختلطوا بالقوم التي أراد الله هلاكها، فإن قبلتم النصيحة فاحذروا الفضيحة، وإن أبيتم فإثم أولادكم عليكم والسلام"[1].

وتوضّح رسالة الباي محمد الكبير مدى تقدير الباي لفئة العلماء، كما تبرز لنا طبيعة المكانة التي كان يلقاها العالم من الحاكم، فقد بعث إليهم رسالة يطلب فيها منهم بالخروج من مدينة الأغواط حفاظًا على أرواحهم وممتلكاتهم، فها هو كاتبه ومستشاره ابن هطال يُصوِّر حالة الباي النفسية بقوله: "ثم تفكّر في عاقبة هذه البلاد وما تصير إليه ويحلّ بها الفساد وبها العلماء الذين حصر الله فيهم خشيته وواعدهم على ذلك جنّته، ووصفهم بأخيار البريّة وفي رضاه بشهادتهم عليه أعظم مزية، أراد أن يحذرهم وينذرهم، ويعلمهم بما لديه- أي الباي- وسأل الله أن لا يحصل هلاك واحد منهم على يديه كتب لهم كتابًا"[2].

كما استعرض ابن هطال في نفس السِّياق الرسالة الجوابية التي تقدّم بها أحد علماء مدينة الأغواط، والتي توضّح مدى تجاوب المرابط والعالم المذكور مع القابض على السلطة في بايلك الغرب، فقد بعث إلى الباي محمد الكبير رسالة يطلب فيها العفو والتّجاوز عن الثائرين الذين قاد لأجلهم الباي حملة بنفسه بهدف تأديبهم جاء فيها: "يا سيدي إن جعلتنا عتقاءك فأمنن على هؤلاء القوم واجعلهم أرقاءك، وادّخر أجر عفوهم عند الله تعالى ولا تخفر ذمة من

[1]: أحمد بن هطال التلمساني: رحلة محمد الكبير..."المصدر السابق"، ص-ص: 61-62.

[2]: "المصدر نفسه"، ص: 61.

جاءك شفيعًا ولا تفضحوه، وما تفعلوا من خير فلن تكفروه وإن شئتم: يخرجون من البلاد بأنفسهم خاصة وهي لك بما فيها"[1].

ويُفهم من هذه الرسالة تجاوب علماء الأغواط وتعاونهم مع الباي محمد الكبير، كما تجاوب كثير من العلماء الجزائريين مع السلطة العثمانية الحاكمة ومنحوها تأييدهم بآرائهم، ومن الشّواهد الدّالة على ذلك ما جاء في رحلة ابن هطال من إشارات تُبرز لنا طبيعة المكانة التي كان يلقاها العالم من الحاكم بقوله: "فلمّا أخذوا منه الكتاب وفتحوه وقبلوه- أي العلماء- ألقوه مخصوصًا بالعلماء ومقصودًا بمن كان منهم بصيرًا لا من به العمى، فبهتهم ذلك لفضل الملك وحلمه ودلّهم على مرغبته في العلم وأهله وحبّه للخير وفعله...فأخذ العلماء كتاب صحيح البخاري رضي الله عنه وقدموا على سيدنا وسلّموا عليه، فأعاد عليهم القول في نصيحتهم وشفقته عليهم فبشّر العلماء بالعفو عن قومهم وقبول سيدنا بما في رأيهم، فطفق يدعو أولئك العلماء كلهم لسيدنا، ولمن كان لهم سببا في رضاه بما يرجو من الله قبوله"[2].

من هنا نرى كيف كان الحاكم يُقدِّر مكانة العالم ويبجّلها، والعالم يعرف مكانة الحاكم فيساهم في صيانتها، ولعلّ القول التالي يتناسب مع هذه المواقف "رجال السياسة يُدركون المصالح ومناشئ الضّرر، والعلماء يطبّقون العمل بمقتضاها على أصول الشريعة"[3].

1-4: دور العلماء والمرابطين في المهام السياسية الخارجية:

لم يقتصر دور العلماء والمرابطين على الوساطة بين السلطة العثمانية والقبائل بل شمل أيضًا الوساطة بين العثمانيين والدول الأجنبية في إطار السياسة الخارجية للإيالة، وفي هذا المجال نشير إلى الكثير من العلماء أرسلتهم السلطة كسفراء ومبعوثين سياسيين في وقت

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص-ص:63- 64.

[2]: "المصدر نفسه"، ص، ص: 62، 65.

[3]: محمد شاطو: نظرة المصادر الجزائرية إلى السلطة العثمانية...، "المرجع السابق" ص: 44. وللمزيد حول موضوع لزوم الاتحاد بين رجال السياسة والعلماء في جلب مصالح الأمة ودرء مفاسدها، يرجى العودة إلى: خير الدين التونسي: أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، ط1، تونس، مطبعة الدولة، 1867، ص-ص: 33- 34.

السّلم والحرب[1] خاصة بين تونس والمغرب الأقصى حيث الصراعات دائمة بينهما، فكان للعلماء دور كبير في عملية التّفاوض والصّلح بين الطرفين[2].

ومن أشهر العلماء الذين تولّوا السفارة العالم ابن هطال التلمساني الذي تولّى مناصب سياسية كثيرة في بايلك الغرب أيّام الباي محمد الكبير، حيث كان مستشاره وكاتبه الخاص ومبعوثًا له في المهمّات الخارجية الصّعبة. فعندما كان الباي يستعدّ لفتح وهران بَعَثَهُ رُفقة قاضي المحلّة ابن سحنون مصحوبين بهدايا إلى السلطان المغربي ليسمح لهما بشراء الأسلحة من بريطانيا فَوُفِّق في مسعاه، وعاد من جبل طارق بحمولة من البارود تُقدَّر بمائتي قنطار ونصف كان قد اشتراها الباي[3].

كما حافظ العلماء والمرابطين على دور الوسيط الدّائم بين العثمانيين والمملكة المغربية[4]، فهذا السلطان مولاي إسماعيل يرسل ابنه مولاي عبد المالك في سنة 1693م إلى الجزائر، حيث أستقبل من طرف المرابطين قبل توجّهه إلى الديوان لإبرام اتّفاق سلم بين الطرفين الجزائري والمغربي، ولمّا تمّ الصلح باركه المرابطون[5].

1-5: الاستشارة:

لقد كانت معاملة الحكّام لفئة العلماء معاملة طيّبة إلاّ ما ندر، فقد كانوا يستشيرونهم ويقرِّبونهم ويأخذون بآرائهم ويطلبون تدخّلهم ومساعدتهم كلّما اشتدّ عليهم أمر من الأمور، وهو ما جعل بعض المؤلّفين من عصرهم يُنوِّهون بذلك ويثنون عليهم، من ذلك ما ذكره ابن سحنون عن الباي محمد الكبير الذي استشار العلماء بعد فتح وهران في أمر الذين يتعاونون مع الإسبان فأفتوا له بالعفو عنهم حتّى لا يذهبوا للإسبان، فكتب لهم كتابًا في هذا ولكنّهم

1: Kamel Filali : «Sainteté maraboutique et mysticisme : contribution à l'étude du mouvement maraboutique en Algérie sous la domination ottomane », Insaniyat, N : 03, 1997, p :127.

2: وكمثال على ذلك: الحرب التي جرت بين العثمانيين والسعديين، حيث أرسل حسن بن خير الدين الشيخ الخروبي المتوفى في 1569م لإجراء مفاوضات خاصة بتحديد الحدود بين الجزائر ومملكة السعديين، للمزيد حول هذا الموضوع راجع:
El Mahdi Bouabdelli : «Le cheikh Mohammed Ibn Ali El Kharroubi ». R. A, N : 96, 1952, p : 334.

3: ابن سحنون: الثغر الجماني ... "المصدر السابق"، ص: 247.

4: Albert Devoulx: Tachrifat: Recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger, Alger, Imprimerie du gouvernement, 1852, P : 78.

5: Kamel Fillali: Sainteté maraboutique..., «Op.cit», p : 127.

طلبوا منه أن يبعث لهم الأمان مع بعض المرابطين "فبعث إليهم بقاضي البلد العلامة السيد عبد الله بن حواء وخطيب المسجد الأكبر أخينا السيد أحمد"[1] وغيرهما.

ويفهم من هذا القول أنّ العالم عبد الله بن حواء[2] كان محلّ ثقة الباي محمد الكبير ولهذا كلّفه بالعديد من المهام، وها هو أيضًا الباي عندما عَزَم على فتح مدينة وهران ومحاولته تحديد اليوم المناسب لعملية الفتح تلقّى ردًّا من الرعيّة بتأجيل ذلك إلى فصل الخريف حتى يتسنّى لهم جمع محصوله وغلّتهم، لكنّه فضّل استشارة العلماء والأولياء وكان جواب الباي لهم: "رأيكم فيه الحكمة والصّواب، ولكن أنتم ونحن في رأي الأولياء والعلماء أولي الألباب، فهم أدرى بالأمور وبإشارتهم يكون الفوز والسرور"[3].

كما كان الحكّام العثمانيون يتفاءلون بأقوال العلماء والمرابطين ويستبشرون بها خيرًا، ومن الشّواهد الدّالة على ذلك ما ذكره الآغا بن عودة المزاري عن استشارة الباي محمد بن محمد بن عثمان الملقّب بالمقلّش للعالم محمد بن الجيلاني الخرّوبي[4] في شأن ظهور الدرقاوي مرّة أخرى بالرّغم من تحقيق هذا الباي لانتصارات مهمّة عليه، حيث يقول: "ونادى لنديمه الأديب ورفيقه الحبيب ومؤنسه، وصاحب سرّه المطلع في جميع الأحوال على سعده ونحسه وخيره وشرّه، شبيه الحكيم اليوناني اللبيب الخروبي القلعي السيد محمد بن الجيلاني"، فأشار عليه الشيخ محمد بن الجيلاني الخروبي بجمع أعيان مخزنه ليستشيرهم ففعل[5].

---

[1]: ابن سحنون الراشدي: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 427.

[2]: السيد عبد الله بن حواء: من أسرة علمية عريقة عُرِفت باسم أسرة ابن حواء المستغانمية التي اشتهرت بالعلم والتقوى وهي من بني توجين القبيلة ذات الأصل البربري التي كانت تقطن بنواحي معسكر، وهي من الأسر التي حظيت بتقدير السلطة، حيث مارس عبد الله بن حواء مهنة القضاء بمعسكر خلال الفتح الثاني لوهران. ينظر: صادق بن قادة: "الشيخ بن حواء المستغانمي ومنظومته سبيكة العقيان: مكانتها في إنتاج المناقب الجهوية". المجلة الجزائرية للمخطوطات، العدد: الثاني والثالث، 2004-2005، ص: 73.

[3]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود...ج1، "المصدر السابق " ص: 261.

[4]: محمد بن الجيلاني الخروبي: من أسرة علمية تُدعى بأسرة الخروبي بقلعة بني راشد توارثت خطّة القضاء للعثمانيين وللأمير عبد القادر، حيث تولّى السيد محمد بن الجيلاني الخروبي القضاء والكتابة بوهران، وكان مُقرّبًا من بعض بايات وهران، ومن جلساء الباي عثمان بن محمد بن عثمان. ينظر: بوركبة محمد: "جوانب من مخطوط قلعة بني راشد للشيخ أبي عمر بن عثمان القلعي"، المجلة الجزائرية للمخطوطات، العدد الأول، جوان، 2003، ص: 115. وأيضا: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود...ج1، "المصدر السابق" ص- ص: 298- 299.

[5]: "المصدر نفسه" ج1، ص: 312.

من هنا نرى أنّ الاعتقاد بالمرابطين والعلماء وتبجيلهم كان ميزةً وسلوكًا عند جميع العثمانيين في إيالة الجزائر الذين عُرِفوا بمستواهم الثقافي وإنجازاتهم الثقافية أمثال الباي محمد الكبير، فها هو كاتبه ابن زرفة الدحاوي يُقدِّم وصفًا حيًّا للمعاملة التي كان يلقاها العلماء وطلبة العلم المرابطين بوهران، وفيها نظرة ثناء واستحسان على تخصيص البايات مكانة محترمة للعلماء باستشارتهم والأخذ برأيهم جاء فيه: "فأمر سيدنا أمدّه الله بالعون والتيسير بالعلماء الصلحاء فحشدوا إليه ومثلوا بين يديه، ثم أنشأ يعرض عليهم المشورة...ومشاورتهم وهذا تماشيا مع حديث النبي (ص) ما خاب من استخار ولا ندم من استشار...، وهذه السُنّة سُنّة سيّدنا الأمير إذا ما نزلت مُعضلة جمع عليها العلماء من أهل بلده والصلحاء فحصلت به بَركَة الديوان"[1].

1-6: المراسلات والزيارات:

تُعدّ المراسلات والزّيارات وجهًا من أوجه التّحالف والتّعاون بين العلماء والسلطة، وشكلاً من أشكال التّواصل والتّقارب بينهم كأفراد وأسر، حيث اتّخذت ملامح مختلفة يبقى عنوانها الأساسي هو الحاجة وتبادل الرسائل والتراسل[2]، ومن أشهر من تبادل الرسائل مع العلماء الباي محمد الكبير الذي تراسل مع طلبة العلم المرابطين، ومع من يقوم بأمرهم برباط وهران السيد محمد بن عبد الله الجيلالي، وقد أشاد الباي فيها برئيس الرباط ونائبه السيد الطاهر بن حوا، كما طلب منهم الحذر من مكائد الإسبان، والدّعاء لهم بالتّوفيق في عملية فتح المدينة وقد جاء فيها: "بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله حفظ الله وعمّ بجميل ستره ذوات أحبائنا الأجلاّء وإخواننا السادات الفضلاء السيد محمد بن عبد الله والسيد الطاهر ابن حوا ومن معهم سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ورضوانه لعميم وتحيّاته وبعد: فقد بلغنا كتابكم وقرأناه وعرفنا ما ذكرتم لنا فيه جملة وتفصيلا... والله يكون في عونكم ويوفّقنا وإيّاكم لما فيه صلاح الدارين، وليأخذ الطلبة حذرهم ولا يعتزّون بالدخول

[1]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية...، "المصدر السابق"، ص-ص: 273-276.

[2]: هناك رسائل عبّرت بحق عن السياسة الدينية للعثمانيين، والقارئ يُدرك من خلالها مدى ولاء المرابطين للباشوات، للمزيد عن هذا الموضوع يرجى العودة إلى:

Albert Devoulx : « Lettres adressées par des marabouts arabes au pacha d'Alger ». R. A, N : 18, 1874, P-P : 171- 190 et 262- 280.

إلى محاير الكفار، فربّما لنجد عونهم ببعض حيلهم كما هي عادتهم فأحذروا كلّ الحذر، والسّلام معاد عليكم من كاتبها بأمر السيد محمد باي وفّقه الله تعالى"[1].

ويُفهم من هذه المراسلة مدى تجاوب الباي محمد الكبير مع طلبة العلم المرابطين بوهران، كما نلمس منها الأهميّة التي كان يوليها الحكّام للعلماء بحيث أنّ خطاب الباي يُوجَّه دائمًا لهم، وهذا لإدراكه المكانة التي يحظون بها لدى الرعيّة لمدى نفوذهم وتأثيرهم عليهم، وكذلك لقدرتهم على التّغيير والتحكّم في مسرى الأمور، فالحكّام كانوا متسامحين ومتساهلين مع العلماء والمرابطين شريطة أن لا يمسّ هؤلاء الآخرين بأمن السلطة[2].

في حين نجد رسالة أخرى أوردها ابن زرفة الدحاوي في رحلته القمرية كانت من رئيس رباط وهران الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي موجهة للباي محمد الكبير طالبًا منه فيها بضرورة التدخّل لفكّ المناوشات التي صارت تَحدث بين طلبة العلم المرابطين والسكّان عند طحن القمح، وممّا جاء فيها: "... وقد كنت دبّرت في عاقبة هذا الأمر وكاتب سيّدنا الأمير أمدّه الله بالعون والتيسير ما حوزته بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله (ص) أنّ الطلبة لا يستقيم أمرهم في تعيين الأخبية، وأخذ القمح وطحنه وحمله لهم من البادية، واستعداد الأواني إلاّ في أيام كثيرة فدبّرهم على القوت فيها، وما هذه الأمور عليك بعسيرة وإلاّ فتخاف أن بعد حدّهم، وينقص بذلك من المرابطين عددهم"[3].

ومن خلال هذه الرسالة التي كانت تحمل كلّ عبارات التّعظيم والتّبجيل للباي محمد الكبير، نستخلص أنّ العلماء وخاصّة المتعاونين مع السلطة كانوا عبارة عن أَعْيُنْ للباي حول كلّ ما يدور في الحياة اليومية لطلبة العلم المرابطين بوهران، واطْلاَعه على كثير من الأمور الدقيقة والسريّة داخل الرباط، وفي نفس الوقت تكشف العديد من مراسلات المرابطين عن ولاءهم التّام وطاعتهم المطلقة للسلطة العثمانية[4].

وهناك عدد آخر من الرّسائل التي وجّهها الباي محمد الكبير لطلبة العلم المرابطين بوهران، وقد أوردها ابن زرفة الدحاوي في رحلته القمرية، وكلّها تُبيِّن الأهميّة والمكانة التي

---

[1]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية..."المصدر السابق"، ص: 327.

[2]: Pierre Boyer : Contribution… Op.cit, p : 28.

[3]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية... "المصدر السابق"، ص: 385.

[4]: Albert Devoulx : Lettres adressées… « Op.cit », p : 171.

حظي بها العلماء وتخصيصهم بمجموعة من الامتيازات، من ذلك ما نقرأه في رسالة بَعث بها الباي إلى رئيس الرّباط محمد بن عبد الله الجيلالي ونائبه الطاهر بن حوا طالبًا منهم فيها بالتدخُّل لفكّ نزاع حدث بين القائد محمد بن عمر[1] ومجموعة من طلبة العلم المرابطين بمسرغين إثر شكوى رفعوها للباي يشكون فيها من ظلم القائد، وممّا جاء في رسالته: "أحباؤنا السيد محمد بن عبد الله والسيد الطاهر ابن حوا بعد أتمّ السلام عليكم، فالمطلوب منكم هو أن تجمعوا بين محمد بن عمر قائد المجاهدين وهذه الجماعة التي شكت به، وقابلوا بينهم على ما أدعيا به عليه وأنّه أخذ منهم ظلما بغير موجب فكلّ ما ثبت عنده أنّه أخذه بغير موجب فليردّه عليهم لابدّ، وعظوه بأنّ قائد ذلك الموضع ينال الأجر من الله تعالى على وقوفه ولم نجعله بالدراهم حتّى يقبض من المساكين الدراهم، لأنّ المجاهدين ضعفاء وحتّى العود الذي أعطيناه للذي مات عوده سمعنا به أعطاه لغيره، فليردّه للذي مات عوده بالرصاص، وكتب بأمر السيد محمد باي وفقه الله تعالى"[2].

كما وجَّه الباي محمد الكبير رسالة أخرى إلى رئيس الرباط الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي ونائبه الطاهر بن حوا يأمرهم فيها بمساعدته على تجنيد الطلبة وتسليحهم، مع تقييد ذلك في دفتر تُسجَّل فيه أسماء الطلبة، وأماكن قدومهم، والأسلحة التي سُلِّمت لهم، وممّا جاء فيها: "بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله (ص) لابدّ من أن تَعُدُّوا أصحاب المكاحل من الطلبة وتكتبوهم في جريدة وسمّوا كلّ واحد واسم أبيه وقبيلته، وأكتبوا من لا مكاحل لهم في جريدة أخرى لنعرف عدد الفرقتين وحملة الطائفتين، فأثبت عدد ذوي السلاح وأبعث السلاح للآخرين إعدادا لحرب الثغر الوهراني، وإن لم تعلمونا فلا نبعث لكم السلاح ولا البارود ولا شيئًا من العطاء المعهود، فقد كنت أمرتكم بالإحصاء غير مأمرة فلم تفعلوه وإن كان لكم عندي شيء تهرعون إليه ولا تغفلوه، وإن كان صعب عليكم الإحصاء المعدود، فكيف لا يصعب عليّ بعث السلاح والبارود"[3].

وعلى العموم فلقد استطاع الباي محمد الكبير بفضل سياسته الرّشيدة، وبفعل مراسلاته مع كبار علماء المنطقة بُغية مساعدته على تجنيد الطلبة، من أنْ يجمع عددًا معتبرًا منهم فاق

---

[1]: القائد محمد بن عمر: هو أحد القادة الميدانيين برباط وهران، كلّفه الباي محمد الكبير بمهمّة توزيع العطايا على الطلبة، لكنّه عُزِل وخلفه القائد عدّة بن مخلوف. ينظر: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية... "المصدر السابق"، ص: 325.

[2]: "المصدر نفسه"، ص-ص: 324-325.

[3]: "المصدر نفسه"، ص: 404.

الألف ومائة طالب حسب ابن زرفة، وهذا ما هو إلاّ دليل واضح على أنّ هؤلاء العلماء والمرابطين كان لهم تأثير وحظوة، وكانت كلمتهم مسموعة وأمرهم مُطاع بين جماعة الطلبة[1].

وفي مقابل دور الوسيط الذي يقوم به العلماء والمرابطين دعمًا لسياسة الدولة أَعْلن الحكّام العثمانيون فخرهم بهذه الفئة، وأعدّوا لهم زيارات الشّكر وطلبوا منهم مساندتهم[2]، وخير دليل على ذلك زيارة الباي المقلّش لأسرة الغبريني بشرشال وهو في طريق عودته إلى وهران بعدما قدَّم الدنوش، وهي تُعبِّر بكلّ صراحة على الصداقة والشّكر الذي قدّمه الباي لهذا المرابط المدعو "الحاج بن عودة الغبريني" بعد رفضه مدّ الدّعم والمساعدة لابن الشريف الدرقاوي، كما أنّ هذا المرابط ردّ الزيارة للباي في معسكره بوهران[3].

والجدير بالذكر أنّه كان للزوايا طموحات دنيوية وعدم الاقتصار على الحياة الباطنية، ومن هنا أدرك الحكّام العثمانيون الواعون بانتشار نفوذها أهميّتها، وسعوا إلى تحويل سلطتها الدينية وشهرتها لخدمة مصالحهم السياسية والاقتصادية خاصّة في المناطق الريفية، وأقاموا علاقات وطيدة مع أكبر العائلات المرابطية، فكانت المراسلات والزيارات مع هؤلاء وجه من الأوجه التي تُبرز التّحالف بين الطرفين[4].

وفي إطار السياسة نفسها قدَّم العثمانيون امتيازات كثيرة إلى الزوايا القويّة من حيث النّفوذ والانتشار، فبنوا على قبور الأولياء مشاهد أو جدّدوها كما فعل الباي محمد الكبير الذي جدَّد ضريح أحمد بن يوسف المليانى، ووهب أصحابه العديد من الهدايا من أجل الاستفادة من العائلات ذات النفوذ المرابطي، وإذا لجأ أحد المُلاحقين إلى قبّة أو ضريح وليّ فلا يُقبض عليه احترامًا لذلك الضريح[5].

---

[1]: محمد بوشنافي: دور الطلبة في تحرير وهران..."المرجع السابق"، ص-ص: 88-89.

[2]: وهذا ما جعل صاحب المرآة يقول أنّ الحاميات التركية نفسها عندما تتوجّه إلى حصن بجاية سنويًا مضطرّة إلى اصطحاب مرابط وإلاّ فإنّها تأخذ طريق البحر، وهذا لزعمهم أنّ ليس في استطاعتهم بدون مرابط أن يؤمّنوهم من الحوادث التي قد تقع في أثناء السفر. ينظر: حمدان بن عثمان خوجة: المرآة... "المصدر السابق"، ص: 74.

[3]: Louis Guin : « Notice sur la Famille des Robrini de Cherchel », R.A, N :17, 1873, p p : 451-452.

[4]: Pierre Boyer : Contribution….. «Op.cit», p: 34.

[5]: Dermenghem Emile : Le culte des saints dans l'islam Maghrébin , Gallimard, Paris, 1951, p :165.

كما بالغ العثمانيون في تعظيمهم للمرابطين، فلم يكونوا يخرجون للغزوات البريّة أو البحرية حتى يتبرّكون بوليّ صالح حيًّا كان أو ميّتًا طلبًا للنّصر، كزيارة ضريح الوليّ الصّالح عبد الرحمن الثعالبي، وضريح الوليّ الصّالح أحمد بن يوسف الملياني[1]، وربّما كان هذا تفسيرًا خرافيًا في مجتمع طبعته القداسة.[2] غير أنّه لا يفوتنا التّذكير بالدور الرئيسي لمرائي العلماء والمرابطين المبشّرة بفتح وهران والتي بفضلها قام الباي محمد الكبير بزيارة العديد من الأولياء الأحياء منهم والأموات للتبرّك بهم وبدعواتهم[3]، وخير دليل على ذلك أنّه لمّا وصله خبر استشهاد أحد الطلبة في هجوم على الإسبان أصابه حزن كبير وراسل الطلبة قائلا: "...كان يكفيكم الرباط وقراءة القرآن والعلم، والمطلوب منكم الآن هو أن تلزموا محلّتكم ودرس كتبكم وقرآنكم، فإنّا إنّما قدمناكم تبرّكًا بكم، ليكون قدومنا لها- أي وهران- بالله لا بأنفسنا ولا زائد إلاّ حبّكم وإلتماس صالح دعائكم"[4].

كما استعمل الحكّام العثمانيون كلّ وسائل المدح والإطراء للمرابطين للاحتفاظ بهم إلى جانبهم، ولعلّ أهمّ وسيلة هي تلك التي تتعلّق ببناء المؤسسات الدينية كالزوايا والمساجد من ذلك بناء قائد من ولاّة وهران مسجدًا بقرية القيطنة خُصِّص للصلاة، ناهيك عن تنافسهم بالمزايدة في إنفاق الأموال على زاوية القيطنة بُغية الحصول على بركتها[5]، وعلى ما يبدوا أنّ المعاملة الحميدة التي كان الحكّام يُعاملون بها المرابطين لم يكونوا يقصدون بها

---

[1]: أحمد الزهار: مذكرات الحاج أحمد الشريف.... "المصدر السابق" ص: 61.

[2]: لدرجة أنّه أصبح لكلّ مدينة حماتها من الأولياء الذين يسهرون على أمنها وراحة سكّانها، سواءا أكان هؤلاء الأولياء أحياءًا أم أمواتًا فإنّ حمايتهم تظلّ مطلوبة وضرورية، وتذكر الأسطورة أنّ الباش شاويش أثناء قيامه بغلق الأبواب الكثيرة لمدينة تلمسان يؤمنه سيدي الحلوي شهيد الصوفية في القرن 13م، ويُعلمه أنّ باب الإله محفوظ دائمًا. ينظر:
Charles Brosselard : « Les inscriptions arabes de Telemcen ». R.A, N :06, 1862, p :13.

[3]: كمثال على ذلك استدعاء الباي محمد الكبير للوليّ سيدي الأكحل ابن عبد الله الخلوفي والوليّ سيدي محمد أبي دية الضرير، هذا الأخير الذي بشّره بفتحها- أي مدينة وهران- بإذن الله، "فسُرَّ الباي وفرح واطمأنّ قلبه وانشرح". ينظر: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود... ج1، "المصدر السابق"، ص-ص: 261-262. ابن سحنون الراشدي: الثغر الجماني....."المصدر السابق"، ص-ص: 206-207.

[4]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية..."المصدر السابق"، ص-ص: 399-400.

[5]: الأمير عبد القادر: مذكرات الأمير ..."المصدر السابق" ص-ص: 48-49.

المرابطين في حدّ ذاتهم، ولكنّهم كانوا يقصدون ما وراء المرابطين أي الفئات الشعبية الذي مفتاح انفجارها أو إخمادها يأتي عن طريق المرابطين والعلماء[1].

2: الامتيازات المادية:

لم تكتف السلطة العثمانية بمنح الامتيازات المعنوية لكسب ولاء العلماء والمرابطين، بل منحتهم امتيازات مادية كثيرة نذكر منها تعيينهم في الوظائف الدينية العليا كالفتيا[2] والقضاء وإعفائهم من الضرائب، والتّأكيد على عدم مطالبتهم "بالمطالب المخزنية والوظائف السلطانية قلت أوجلت"[3].

2-1: المناصب:

لقد حظي العلماء بمكانة خاصة عند الحكّام، وعملاً بمبدأ ترضيتهم أسندت لهم معظم المناصب البسيطة التي لا تمتّ للحكم بأيّ صلة[4] ومنها الوظائف الدينية والعلمية كالإفتاء والقضاء والخطابة والإمامة، بالإضافة إلى التعليم بمختلف مراحله والكتابة ونقابة الأشراف.

ومن أشهر الامتيازات التي منحها الحكّام للعلماء كانت لعائلة الكتروسي التي دعمت نفوذهم بمازونة، حيث قدَّم لها بايات الغرب كلّ الصّلاحيات فحظي أفرادها بإدارة المدينة وتولّى أفرادها مناصب دينية وعلمية رفيعة[5]. هذا وقد استطعنا الحصول على خمسة وثائق وهي عبارة عن ظهائر صادرة عن بايات الغرب وبعض رجال الدولة لصالح علماء هذه الأسرة بخصوص تعيينهم في مناصب الفتوى والقضاء والخطابة والإمامة، وكذا منحهم

---

[1]: طالبي عطاء الله: علاقة الحكام الأتراك برجال الدين والعلماء في الجزائر 1656- 1830، بحث في منهجية الدراسات المعمّقة، معهد العلوم الاجتماعية، دائرة الدراسات التاريخية، 1980، ص: 20.

[2]: كانت أعلى وظيفة يتولاّها العالم بعدما تتوفّر فيه مجموعة من الشروط، وللعلم فإنّ الإفتاء لم يكن وظيفة رسمية إلاّ بمجيء العثمانيين، حيث جعلوه وظيفة رسمية وجعلوا الفتوى على مذهبين مذهب مالكي وهو مذهب أغلبية السكان ومذهب حنفي أُعتبر المذهب الرسمي للإيالة. كما لقّبوا المفتي الحنفي بشيخ الإسلام وفضّلوه على المفتي المالكي لعدة أسباب وعوامل، كما وُجد بالجزائر العثمانية ما سُميّ بالمجلس العلمي الشرعي وهو بمثابة هيئة دينية عليا تضمّ كلّ من المفتي والقاضي الحنفيين، والمفتي والقاضي المالكيين إضافة إلى موظفين آخرين، وقد كان لها دور في تجاوز الخلاف في الأحكام بين المذهبين المالكي والحنفي. ينظر: مصطفى أحمد بن حموش: المدينة والسلطة في الإسلام: نموذج الجزائر في العهد العثماني، دمشق، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1999، ص: 86.

[3]: عبارة تتكرّر كثيرا في الظهائر الصادرة عن البشوات والبايات، لاسيما ما تعلّق بوثائق أسرة الكتروسي بمازونة.

[4]: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي....ج1، "المرجع السابق"، ص: 388.

[5]: فوزية لزغم: البيوتات والأسر العلمية..."المرجع السابق"، ص: 316.

امتيازات مادية مختلفة، من ذلك الوثيقة المؤرخة بسنة 1080ه/ 1669م وهي صادرة عن باشا الجزائر أحمد أبو العباس عبد الله مُوجّهة إلى الشيخ أحمد بن خدّة بن علي الكتروسي قصد تعيينه مفتيًا بمازونة وسائر عمالتها على مذهب مالك[1] وإمامًا بالجامع الكبير المعروف بسيدي عيسى وعزوز بحي بوماتع، وهذا مقتطف من نصّ تعيينه: "بسم الله الرّحمن الرّحيم صلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه عليهم تسليمًا كثيرًا: ليعلم الواقف على هذا الأمر الكريم والخطاب الواضح الجسيم.... الولي الصالح القطب الناصح شريف النسب والحسب سليل العرب ومعاني الجود والكرم سيدي أحمد بن خدة ابن الولي الصالح المعظم الشهير سيدي علي الكتروسي، وأنّنا أنعمنا عليه أن يكون مفتيا ببلاد مازونة وسائر عمالتها... ويكون إماما بجامع الكبير المعروف بسيدي عيسى وعزوز بحي بوماتع..."[2].

كما نصّت الوثيقة على تعيين السيد أحمد بن خدة مسؤولاً على أحباس هذا المسجد والتكفّل به من ناحية الزيت والبناء والحصير، مع الوصاية باحترام هذا العالم وأمر السلطة بالمدينة بحمايته وإعفائه من الضرائب[3]، حيث جاء فيها:"...ويكون في أحباسها ومتكفِّلا بالمسجد بالزيت والبناء والوطاء والباقي يشمل... ويكون مفتيا على مذهب مالك... وأوصينا بحرمه واحترامه ومن هم بجانبه بحيث لا يصيبهم أحد بإذاية، ويعفى من جميع المطالب المخزنية والوظائف السلطانية قلت أم جلت"[4].

يفهم من هذا الظهير أنّ المفتي كان يُشرف على نشاطات مختلفة للجامع الكبير بالمدينة إلى جانب قيامه بوظيفة الإفتاء، بحيث كان المفتي يتولّى الإشراف على أوقافه، كما يتولّى به الخطابة والإمامة إلى جانب التّدريس. هذا وقد كانت السلطة تختار المفتي من

---

[1]: لقد كان المذهب الحنفي والذي اتخذه العثمانيون مذهبًا رسميًا لدولتهم يتمتّع بالأسبقية والأولوية على المذهب المالكي مذهب أغلبية السكان، غير أنّ هذا لا يعني بتاتًا وجود صراع أو خلاف بين المذهبين بل تميّزت العلاقة بينهما بالتّكامل والتّعاون. وخير دليل على ذلك وجود مجلس علمي يضمّ بين أعضائه مُفتيًا وقاضيًا المذهبين، كما أنّ العثمانيين لم يُظهروا تشدّدًا في هذا المجال فتركوا أهل البلد حريّة الإفتاء والقضاء وفق المذهب المالكي أو الإباضي ينظر: محمد بوشنافي: القضاء والقضاة في الجزائر خلال العهد العثماني (10-13ه/ 16-19م)، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر جامعة وهران، 2007-2008، ص-ص: 11-13.

[2]: وثيقة ملك عائلة الكتروسي بمازونة مؤرخة بـــ: 1080هـــ/1669م.

[3]: فوزية لزغم: البيوتات والأسر العلمية... "المرجع السابق"، ص: 317.

[4]: وثيقة ملك عائلة الكتروسي بمازونة مؤرخة بـــ: 1080هـــ/ 1669م.

الطبقة المثقّفة الدينية، وبالرّغم من مرتبته العالية إلاّ أنّه لم يكن له أيّ نفوذ أو تأثير في الأمور السياسية[1].

وفي نفس الإطار وُجِد ظهير آخر مؤرّخ بسنة 1124هـ/ 1712م صادر عن مصطفى باي صاحب الولاية الغربية، وموضوعه تعيين السيد محمد الصغير بن أحمد بن خدة الكتروسي إمامًا بجامع سيدي عيسى وعزوز، وممّا جاء فيه: "ليعلم من يقف على هذا الأمر الكريم والخطاب الواضح الجسيم...أنّنا أنعمنا على المكرم الوجيه المحترم العلامة الحبر الفهامة السيد محمد الصغير بن نجل البركة السيد أحمد بن خدة وجعلناه إماما بجامع سيدي عيسى وسيدي عزوز يصلي فيه الصلوات المفروضات... ولتكن أحباس الجامع المذكور تصرف على يديه فمنها ما يصرفه في البناء وزيتا وحصيرا إلى غير ذلك... والباقي يدفعه في مونة عياله كما جرت به العادة والطريقة السابقة المعتادة، مع حرمه واحترامه ورعيه وإكرامه... وأن لا يقاس بما يقاس به الغير وحرمة خدامه وخماميسه ومن انضاف إليه من خاصته... بأمر عبد الله المجاهد في سبيله السيد مصطفى باي صاحب الولاية الغربية وفّقه الله"[2].

ويُفهم من هذا الظهير أنّ السلطة العثمانية قد منحت هذه الأسرة العلمية العديد من الامتيازات المادية والمعنوية فهي توصي بـــ: "حرمهم واحترامهم"، ولدرجة أنّها منحت إمام المسجد حقّ الاستفادة من ما تبقّى من أوقافه، وعليه فدور الإمام لا يقتصر على إقامة الصلاة، كما أنّ دور القاضي لا ينحصر في إصدار الأحكام، ضف إلى ذلك أنّ العلماء كانوا يستمدّون شرعيتهم من مكانتهم ووظيفتهم لأنّهم الفاعلون الرئيسيون في الحياة الاجتماعية في المدينة من خلال وظائف تتمحور خصوصًا حول القضاء والإمامة.

هذا وقد وجدنا العديد من الأمثلة الدّالة على تولّي بعض العلماء للوظائف الدينية ومنها القضاء كالشيخ محمد بن حواء بن يخلف[3]، سعيد بن محمد العقباني[1]، محمد بن عبد القادر

1: Pierre Boyer : Contribution…, Op.cit, p-p : 27-28.

2: وثيقة ملك عائلة الكتروسي بمازونة مؤرخة بـــ: 1124هـــ/ 1712م.

3: محمد بن حواء بن يخلف: من أسرة علمية عريقة عُرفت باسم أسرة ابن حواء المستغانمية، حيث حظيت هذه الأسرة بتقدير السلطة، فمارس الشيخ محمد بن حواء بن يخلف مهنة القضاء أواخر العهد العثماني، وحضر بيعة الأمير عبد القادر = الثانية سنة 1832م. ينظر: أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي: القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط، تحقيق: ناصر الدين سعيدوني، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1991، ص-ص: 35- 36.

بن المختار[2] والسيد أحمد بن التهامي[3]، ومن بين العلماء الذين تقلّدوا القضاء من بيت أو أسرة علمية واحدة نذكر أولاد أحمد بن علي بوشنتوف بدليل ما ذكره صاحب "القول الأعم": "... فمن مشاهير علمائهم سيدي أحمد بومعزة وولده سيدي عبد الرحمن بن أحمد ولد سيدي الطيب بن عبد الرحمن، وقد وليّ عبد الرحمن هذا القضاء في ولاية الباي حسن آخر أمراء بني عثمان بوطن الجزائر"[4].

ومن علماء بيت المشارف الذين تولّوا القضاء الشيخ محمد بن عبد الله سقط[5] والشيخ اعمر التراري المشرفي[6]، وغيرهم من علماء هذه الأسرة التي حظيت بمكانة رفيعة لدى السلطة العثمانية بدليل ما ذكره صاحب "القول الأعم": " ولم تتعدّ الرياسة فيما علمناه دار الشيخ المشرفي وأولاده، فإنّهم الذين كانوا معتبرين عند الملوك وكانت لهم ولاية في خطط

---

[1]: سعيد بن محمد العقباني: كان قاضيًا وخطيبًا بتلمسان خلال القرن الحادي عشر الهجري (17م)، له عدّة مؤلّفات منها ما تعلق بالإرث وهو شرح لإحدى كتب الفرائض والفقه. ينظر أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص: 86.

[2]: محمد بن عبد القادر بن المختار: من علماء الراشدية وأحد زعماء الطريقة القادرية، عُرف باسم: شايب ذراع، انتقل بعدها لتلمسان فاستوطنها، واشتهر بالمال وكثرة العقّار. ينظر: الطيب بن المختار الغريسي: القول الأعم... "المصدر السابق"، ص: 336.

[3]: أحمد بن التهامي: أحد علماء الراشدية، لُقِّب بشيخ الجماعة، تولّى الفتوى في وهران خلال العهد العثماني، وحضر بيعة الأمير عبد القادر سنة 1832م، حيث تمّ تعيينه كعضو في مجلس الشورى العالي الأميري. ينظر الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود...ج1، "المصدر السابق"، ص: 102. الطيب بن المختار الغريسي: القول الأعم... "المصدر السابق"، ص: 333. ينظر أيضا: إبراهيم لونيسي: "مصطفى بن التهامي (1788-1866م) : العالم ورجل الدولة" عصور، العدد: الثالث، ربيع الثاني 1423هـ/ جوان 2003، ص: 96.

[4]: الطيب بن المختار الغريسي: القول الأعم...."المصدر السابق"، ص: 333.

[5]: محمد بن عبد الله سقط: هو محمد بن عبد الله بن مصطفى بن إمام الراشدية الشيخ عبد القادر المشرفي، الملقّب بسقط أو سقاط لُقِّب بشيخ الإسلام وشيخ الجماعة، حيث كان إمامًا في الفقه والحديث، درس بمعسكر على يد عمّه الشيخ الطاهر المشرفي وغيره من علماء المنطقة، تولّى القضاء خلال العهد العثماني وفي دولة الأمير عبد القادر، حيث حضر بيعة الأمير وكان من ضمن الموقّعين على وثيقة المبايعة المؤرخة بـــ: رجب 1248هـ/ 27 نوفمبر 1832م، فتمّ تعيينه كعضو في مجلس الشورى العالي الأميري، وكُلِّف بالعديد من المهام الدبلوماسية خاصّة إلى سلطان المغرب الأقصى مولاي عبد الرحمن بن هشام إلى أن تُوفي بمكناس ودُفن بها. ينظر: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود... ج1، "المصدر السابق"، ص-ص: 100-101. الطيب بن المختار الغريسي: القول الأعم... "المصدر السابق"، ص: 334.

[6]: الشيخ اعمر التراري المشرفي بن أحمد أبي جلال: أحد علماء الراشدية، لُقِّب بشيخ الجماعة، عاش في حدود أواخر القرن الحادي عشر الهجري (17م)، ذكر تلميذه الشيخ مصطفى الرماصي أنّه باشر مهنة القضاء بنزاهة وعفّة. ينظر: الزاوي الجيلالي بن محمد المشرفي المعسكري والمشرفي عبد الكريم: "نافذة على بعض علماء معسكر: رثاء الشيخ مصطفى = الرماصي لشيخه عمرو التراري المشرفي"، المجلة الجزائرية للمخطوطات، العدد: الثاني والثالث، 2004-2005، ص-ص: 90-93.

الشريعة أيّام الأتراك وأيّام ابن عمّنا الأمير، وغيرهم من أبناء عمّهم بهم لا ظهور لهم معهم"[1].

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ بعض العلماء كانوا يرفضون وظيفة القضاء بدعوى أنّها مهمّة صعبة ومسؤولياتها كبيرة، ولكن لا نغفل أنّ هذا الرّفض يُعطي للمعني بالأمر قيمة إضافية ونوعًا من الهيبة تجعله أكثر فاعلية في وساطته، وَوُجِد مَنْ أُجْبِر على تولِّي القضاء رغم امتناعه ومثاله القاضي الطاهر بن عبد القادر المشرفي[2] وهومن بيت علم وصلاح وُصِف بأنّه من أهل الفضل وخاتمة قضاء العدل، فَوُلِّي القضاء "بعد إباية منه وامتناع فأحسن السياسة الشرعية"[3]. فهذا الإلحاح من طرف السلطة العثمانية لتوليه القضاء هو في حدّ ذاته ضمانة ومكسب وتشريف حتى وإن وُجِد بعض العلماء الذين رفضوا نهائيًا تولِّي القضاء، كما هو الحال بالنسبة لعبد القادر المشرفي هذا الأخير رغم أنّه أصدر العديد من الفتاوى عن أسئلة طُرِحت عليه من العامّة والخاصّة، كان حسب أبو راس لا رغبة له في القضاء مع أهليته له حيث يقول: "عُرِض عليه القضاء مرارا فلم يلتفت إليه ولا عرج عليه"[4].

كما تولّت بعض الأسر العلمية نقابة الأشراف ونخصّ بالذكر أسرة المشارف بدليل ما ذكره صاحب ياقوتة النسب: "المشارف كلّهم حازوا الرياسة على سائر شرفاء الراشدية ولذلك كانت النقابة فيهم لا تتعداهم ولا تخرج منهم، وحصرها فيهم ملوك الأتراك وقد أدركناها في يد الجواد ابن عمنا السيد عبد القادر الأطرش من أولاد سيدي عبد القادر بن محمد وفي يد ابن عمنا السيد محمد بن عبد الله من أولاد البقرة"[5]. ويفهم من هذا القول أنّ السلطة الحاكمة كانت حريصة على التنظيم الجيّد والتسيير الحسن لشؤونها في البايلك بتولية

---

[1]: الطيب بن المختار الغريسي: القول الأعم...."المصدر السابق"، ص- ص: 334-335.

[2]: الطاهر بن عبد القادر المشرفي: أحد علماء الراشدية، نشأ بمعسكر ومارس بها وظيفة التدريس بعدما أخذ العلم على والده عبد القادر المشرفي وغيره من العلماء، ثم تولّى القضاء بوهران خلال فترة حكم الباي حسن الذي خصّه بمرتّب شهري لممارسته بها لوظيفة التدريس، له عدّة تآليف منها كتاب شرح النصيحة الزروقية، ينظر: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود....ج1، "المصدر السابق"، ص: 100. فوزية لزغم: البيوتات والأسر العلمية..."المرجع السابق" ص-ص: 245-247.

[3]: أبو حامد المشرفي: ياقوتة النسب... "المصدر السابق"، ص: 19.

[4]: أبو راس الناصر: فتح الإله... "المصدر السابق"، ص: 53.

[5]: أبو حامد المشرفي: ياقوتة النسب... "المصدر السابق"، ص-ص: 23-24.

بعض العلماء والمرابطين لنقابة الأشراف، هذه الوظيفة التي تمتّع بفضلها أصحابها بمكانة مرموقة لدى رجال الدولة.

وممّا يلاحظ أيضًا أنّ بعض الأسر العلمية قد قامت باحتكار الوظائف الدينية والعلمية خاصة منصب الإمامة في الصلاة الذي كانت الوراثة فيه هي القاعدة، فالإمامة تورث أبًا عن جدّ وكلّ إمام يحاول جاهدًا المحافظة على هذا المنصب بين ذريّته وأحفاده، وكمثال على ذلك عائلة الكتروسي بمازونة التي توارثت الإفتاء المالكي والإمامة بالجامع الكبير بسيدي عيسى وعزوز لمدة طويلة[1]. هذا ويمكن أن نعتبر بأنّ العامل السياسي هو الذي كان وراء ترسيخ ظاهرة الوراثة في هذا الميدان خصوصًا وأنّ السلطة العثمانية قد حرصت على استمرار تلك المناصب في هذه البيوتات والأسر العلمية المؤيِّدة لها، والذي يعتبر في النهاية بمثابة امتياز مادي ومعنوي لها، وكمظهر من مظاهر حسن العلاقة بينها وبين السلطة.

2-2: الإعفاء من الضرائب:

منحت السلطة العثمانية امتيازات مادية كثيرة لفئة المرابطين من شيوخ الزوايا ورجال العلم الذين تصدّروا للإفتاء أو الإمامة والتعليم، حيث كان البايات والدايات يتقرّبون إلى هذه الفئة بتقديم الظهائر التي تعفي شيوخ الطرق الصوفية والعلماء مع عائلاتهم من جميع أصناف الضرائب، والمطالب المخزنية التي تعدّدت إلى القدر الذي لم يصبح ممكنًا ذكرها كلّها في هذه الظهائر، وإنّما يُكتفى ببعضها ثمّ يُعمَّم الإعفاء على الباقي[2].

ومن الظهائر التي تثبت هذا، الظهير الذي وقّعه خليفة الباي الحاج أحمد عام 1215هـ/ 1800م، والذي يعفي فيه الشيخ محمد بن المهدي إمام مسجد أبي ذلول بمازونة من المطالب المخزنية جاء فيه: ".... يعلم الواقف على هذا الأمر الكريم والخطاب الواضح الجسيم... أنّنا أنعمنا على ماسكه العالم الأجلّ المرعي المبجّل الزّكيّ الأفضل السيد محمد بن المهدي... وأوصينا له بحرمه واحترامه ورعيه وإكرامه، بحيث لا يطالبه أحد من العشور

[1]: فوزية لزغم: البيوتات والأسر العلمية.... "المرجع السابق"، ص: 384.

[2]: أحمد بحري: "ضرائب الجزائر العثمانية من خلال بعض الظهائر المازونية". المجلة الجزائرية للمخطوطات، العدد: 10، 2013، ص-ص: 09-10.

والعشرات ومبيت ومونة وصخرة، وغير ذلك من التكاليف المخزنية والوظائف السلطانية قلت أم جلت"[1].

كما نصّت الوثيقة على تعيين السيد محمد بن المهدي مفتيًا بمازونة وخطيبًا وإمامًا يصلّي الصلوات الخمس في جامع أبي ذلول، كما أوصت بضرورة احترام الناس لعائلته ونسله لتشمل بذلك الامتيازات كافّة إخوانه بدليل ما جاء فيها: "....وأبقيناه مفتيا بمازونة وخطيبا مرضيا... يصلي الصلوات الخمس أيضا في جامع أبي ذلول ... كما أننا أنعمنا على كافة إخوانه السيد علي والسيد أحمد والسيد علي الصغير وعلى أولادهم وأولاد أولادهم وعقبهم وعقب عقبهم حيثما تناسلوا وامتدت فروعهم في الإسلام، وحرّرناهم من جميع التكاليف المخزنية والوظائف السلطانية بحيث لا يقاسون بما يقاس به غيرهم لا قليلا ولا كثيرا إنعاما تاما شاملا عاما لهم ولكل ما تنسل منهم، فحسب الواقف عليه أن يعمل بمقتضاه ولا يتعداه وأصل العمل كله لله...ومن تعدى الحد فقد استوجب الحد وبتاريخ أول ذي الحجة الحرام، كتب بأمر السيد الحاج أحمد الخليفة وفقه الله عام 1215هـ"[2].

ويفهم من هذا الظهير أنّ ما حصلت عليه عائلة الشيخ محمد بن المهدي الكتروسي من امتيازات مادية ومعنوية ليس استثناء، بل هو استراتيجية من سياسة العثمانيين مع المرابطين والعلماء تجنّبًا لحدوث اضطرابات قد تُواجه السلطة فيقفون إلى جانبها، وهذا حماية لهم ولأنفسهم في نفس الوقت[3].

بالإضافة إلى هذا نجد أنّ الباي عثمان بن الحاج إبراهيم قد" أمر بتحرير العلامة السيد محمد بن حواء وإخوانه وبني عمّه التجاجنة من جميع التكاليف المخزنية، وكتب لهم بذلك رسمًا نصّ ختامه: بأمر المعظم الجليل المجاهد الكفيل أبي سعيد السيد الحاج عثمان باي الإيالة الغربية وتلمسان في أواسط جمادى الأولى عام سبعة وستين ومائة وألف (1167هـ)"[4].

---

[1]: "المرجع نفسه"، ص: 10.

[2]: "المرجع نفسه"، ص: 11.

[3]: رشيدة شدري معمر: العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر: فترة الدايات (1671- 1830م)، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2005-2006، ص: 120.

[4]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود ...ج1، "المصدر السابق"، ص: 284.

كما يتّضح أنّ الإعفاء من الضرائب كان يتمّ على العالم وعائلته ويستمرّ إلى الأبناء والأحفاد، ما لم تُعلِن هذه العائلات العصيان والثّورة على السلطة، هذه الأخيرة التي حرصت على ربط علاقات تعاون مع العلماء وفئة المرابطين من شيوخ الزوايا، حيث انتهجت معهم في ذلك سياسة ماهرة باعتبارهم يُمثِّلون السكّان ويُؤثِّرون فيهم، وذلك بكسب رضاهم بمراسيم التعظيم والهدايا الكثيرة وتقريبهم، إضافة إلى استفادتهم من الإعفاءات الضريبية وتصرّفهم في بعض موارد الأحباس التي أتاحت لهم التوسّع ومدّ نفوذهم في المجتمع، وقد كان من وراء سياسة العثمانيين هذه هو الحفاظ على الأمن العام والتوسّط بينهم وبين السكّان لمصلحة الطرفين، بالإضافة إلى ضمان السّير الحسن لعملية جباية الضرائب وتسليمها[1].

ثانيا: علاقة البايات بالعلماء: الباي محمد الكبير أنموذجًا:

كانت الحياة الثقافية ببايلك الغرب قبل وصول الباي محمد الكبير إلى الحكم تتسمّ بالخمود والجمود والتحجّر، ذلك أنّ اهتمام السكّان آنذاك كان مُنصبًّا بالدرجة الأولى نحو التجارة بخاصّة والاقتصاد بعامّة باعتبار أنّ التجارة كانت تدرّ عليهم أرباحًا طائلة، إلى جانب أنّهم كانوا يضمنون بواسطتها حصولهم على حاجياتهم اليومية، ولعلّ هذا راجع إلى التّدهور السياسي والتأزّم الاقتصادي والتفكّك الاجتماعي الذي عاناه البايلك الغربي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين (16 و17م)[2].

وزيادة على هذا فلقد كان التعليم بحواضر البايلك ينقصه وسائل التشجيع والتنشيط المعنوي والمادي، وقد وُجِد ذلك في عهد الباي محمد الكبير باعتبار أنّ المدن والحواضر الرئيسية بالبايلك الغربي التي اشتهرت بالعلم كادت أن تكون خالية من مؤسّسات التعليم وأدواته من جهة، كما أنّ لانتشار الأميّة خصوصًا بحاضرة معسكر- حسب شهادة الأسير الإسباني تيدنا "Thedenat"- أثر كبير في ذلك من جهة أخرى.[3] حيث لم يكن مجال العلم مفتوحًا أمام عامّة الناس بل كان يقتصر فقط على بعض الخاصّة، لأنّه كان يتطلّب نفقات

---

[1]: توفيق دحماني: النظام الضريبي ببايلك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني (1193هـ/ 1779م- 1246هـ/ 1830م)، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2003-2004، ص: 131.

[2]: صالح فركوس: "الباي محمد الكبير وبعث الحركة الثقافية ببايلك الغرب الجزائري"، الثقافة، العدد: 71، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، سبتمبر- أكتوبر 1982، ص: 16.

[3]: Emerit Marcel : «Les aventures de Thédenat», R.A, N : 92, 1948, p : 181.

باهضة لم تكن في استطاعة كلّ واحد يرغب في التعليم أو الدراسة، حيث كان قلّة من السكّان هي التي تحتكر هذا الجانب الثقافي وتتميّز به دون غيرها[1].

ويبدوا أنّ الحياة الثقافية والعلمية بالبايلك الغربي كانت تعيش الخمود والرّكود والجمود الفكري قبل تولّي الباي محمد الكبير، إذ يصف أبو راس الناصر ذلك الخمود الثقافي بقوله: "...إذ في زمن عطلت فيه مشاهد العلم ومعاهده وسدّت مصادره وموارده، وخلت دياره ومواسمه، وعفت أطلاله ومعالمه، لا سيما فن التاريخ والأدب وأخبار الأوائل والنسب، قد طرحت في زوايا الهجران، ونسجت عليها عناكب النسيان، وأشرفت شمسها على الأفول، واستوطن فحولها زوايا الخمول يتلهفون عن أنداس العلم والفضايل، ويتأسفون من انعكاس أحوال الأذكياء والأفاضل...."[2].

وما يستنتج ممّا سبق أنّه قد عانت حاضرة معسكر كباقي الحواضر بالبايلك الغربي من ذلك الركود الثقافي والجمود الفكري والمعرفي وبالخصوص طيلة القرنين الأولين من الحكم العثماني، ذلك أنّه قبل مجيئ العثمانيين كانت معظم المدن والحواضر بالجزائر مسرحًا للمجابهات الدينية والتعليمية التي أصبحت تضيئ بنور معرفتها جميع أرجاء حواضر الإيالة الجزائرية، ولعلّ من بينها حاضرة معسكر[3].

وزيادة على هذا فيبدوا أنّ حاضرة معسكر لم تكن تحظى باهتمام الحكّام العثمانيين في بعث وإحياء الثقافة بها الذين لم يهتمّوا كثيرًا بالثقافة والعلوم أكثر ممّا اهتموا بالشؤون السياسية والعسكرية والاقتصادية بهاته الحاضرة، والتي تمثّلت في ردّ الهجمات وقمع الثورات وفرض الضرائب على السكّان، لكن في أواخر العهد العثماني بدأ البايلك الغربي يعرف حركة انبعاث ثقافي في ظلّ إرادة سياسة عثمانية، حيث ظهر محمد بن عثمان الكبير باي المقاطعة الغربية والذي كان له أيادي بيضاء في تشجيع الثقافة وتنشيطها والاهتمام بأعلامها وفقهاءها ومفكّريها، حيث فاق نشاطه في ذلك ما كان في الناحية الشرقية، وبالتالي

---

[1]: صالح فركوس: الباي محمد الكبير... "المرجع السابق"، ص: 16.

[2]: أبو راس الناصر: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 1632، الورقة: 18.

[3]: ضف إلى ذلك مدينة تلمسان. ينظر: عبد الحميد حاجيات: "الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان"، مجلة الأصالة، عدد خاص، جويلية – أوت 1975، ص-ص: 136- 155.

كان نصيب معسكر وعلماءها من هذا الإصلاح الثقافي بمثابة الانتعاش والازدهار لهاته الحاضرة بفعل وسائل التشجيع المعنوي والمادي التي أوجدها هذا الباي[1].

أمّا عن الحركة العلمية في بايلك الغرب خلال القرن الثامن عشر ميلادي فهي من أهمّ مميّزات عصر الباي محمد الكبير، هذا الأخير الذي نشأ نشأة علمية دينية وولع بالآداب والفنون، ولم يقتصر نشاطه العلمي والثقافي بقراءاته الشخصية واقتناء الكتب النّادرة ومصاحبة العلماء والأدباء والشّعراء، وتشجيعه لهم في داخل بلاده وخارجها ورعايته لهم، بل يعود إليه الفضل في الحركة التعليمية الكبرى التي قامت في عهده وتحت رعايته الشخصية والتي نتج عنها ازدهار الحركة الفكرية في عهده لتقرّبه من العلماء، وبناءه للمؤسّسات التعليمية واختيار كبار العلماء للتدريس[2].

لقد قلنا فيما مرّ أنّ الباي محمد الكبير لم يكن مجرّد فاتح عظيم وسياسي بارع بل كان أيضًا منشئ حضارة عثمانية إسلامية زاهرة، وسنلقي الآن بعض الأضواء على منجزاته الحضارية والعلمية الهامّة الدّالة على اهتمامه بالعلم والعلماء، والتي يمكن إبراز معالمها كالآتي:

1- رعايته للعلم وعلاقاته بالعلماء:

1-1- اهتمامه بالمدراس والمساجد: كان الباي محمد الكبير محبًّا للعلم والعلماء ولذلك اهتمّ ببناء المدارس والمساجد خاصّة، والتي لعبت في عهده الدور الرئيسي في التعليم والتدريس، وقد كان من أشهرها المدرسة المحمدية نسبة إلى مؤسّسها الباي محمد الكبير وتبرّكًا باسم النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم، أو مدرسة "الحايطة" كما وردت على اللوحة التذكارية للجامع الأعظم[3].

ولقد اعتُبرت المدرسة المحمدية من أهمّ المدارس التي أسّسها هذا الباي بالغرب الجزائري لما كان لها من صدى واسع في العالم العربي والإسلامي، حيث أصبحت أكبر

---

[1]: بوجلال قدور: العلم والعلماء.... "المرجع السابق"، ص: 87.

[2]: بلبروات بن عتو: "الباي محمد الكبير: باي وهران 1779-1797، حياته وسيرته"، عصور، العدد: 03، 1423هـ- جوان 2003، ص-ص: 157- 162.

[3]: Leclerc : « Inscriptions arabes de Mascara » R.A, N :04, 1859, P :44.

معهد علمي يضمّ أساتذة أكفّاء متفرّغين لمهمّة التعليم لا غير، إلى جانب الآلاف من الطلبة والتلاميذ الذين سارعوا إلى الإقبال على العلم بلهف شديد[1].

إذ تمكّن الباي محمد الكبير بفضل تلك المدرسة من أن يجعل من مدينة معسكر عاصمة علمية كبيرة، بدليل ما قاله أبو راس الناصر بشأنها: "إنّ المدرسة المتعارفة عندنا، هي التي تبنى لدراسة العلم... كالمدرسة البوعنانية بفاس... والمدرسة المستنصرية والبياشية بتونس والقشاشية في الجزائر"[2]. وهي التي أشار إليها أيضا ابن سحنون بقوله: "...وهي المدرسة التي كاد العلم أن يتفجّر من جوانبها..."[3].

ويبدوا أنّه بالرّغم من اهتمام الباي بالجامع الأعظم الذي بناه بمعسكر، فإنّه قد أسّس المدرسة المحمدية بجانبه، وذلك تماشيًا مع التقاليد الإسلامية كما هو الحال بالنسبة للجامع الأزهر في مصر، وجامع القرويين في المغرب وجامع الزيتونة في تونس، باعتبار أنّ فكرة المدرسة المستقلّة عن الجامع لم تكن تدور في خيال الباي محمد الكبير.

ولقد فاق الباي محمد الكبير من سبقه في هذا المضمار، وبذل جهودًا كبيرة في نشر العلم وإنشاء المدارس والمعاهد، وأدخل بعض الإصلاحات في التعليم في كافّة الحواضر الكبيرة والصغيرة، وأوقف عليها الأوقاف العظيمة، ونظّم هذه المدارس ورتّبها على درجات ومراحل ووضع لها المناهج، وحدّد العلوم والمواد التي تُدرس في كلّ مرحلة. حيث أنّ المواد والعلوم التي كانت تُدرَّس في المدرسة المحمدية فهي لا تقلّ عن المواد التي كانت تدرّس بأشهر المدارس الإسلامية، حيث طغى عليها الجانب الديني واللغوي وبعض كتب التاريخ والسيرة، وقد يعود ذلك إلى تفكير العلماء الذي كان مُنصبًّا بالدرجة الأولى على الفقه والتفسير والحديث والشعر[4].

هذا وقد تخصّصت مدرسة المحمدية في تدريس الفقه المالكي وعلم التوحيد إلى جانب علوم اللغة العربية، فمن كتب الفقه نجد حواشي شرح الشيخين الزرقاني والخرشي وحاشية

---

[1]: صالح فركوس: الباي محمد الكبير... "المرجع السابق"، ص: 17.

[2]: أبو راس الناصر: عجائب الأسفار... "المصدر السابق"، ص: 90.

[3]: ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص: 127.

[4]: جاكر لحسن: نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مدينة معسكر 1931- 1956، الجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع، 2003، ص: 30.

الشيخ مصطفى الرماصي[1]. إلى جانب المختصرات التي وُضِعت على المصادر كمختصر الشيخ خليل[2] في الفقه المالكي، إلى جانب كُتب النّحو مثل شرح الشيخ المكودي وألفية ابن مالك[3]. وفي اللغة كتاب القاموس للشيخ الفيروز آبادي ومقامات الحريري، وفي الأصول شرح الشيخ المحلي، بالإضافة إلى كتب أخرى في التصوف والمنطق وعلم البيان وغيرها من العلوم النقلية الأخرى.

ويمكن الإشارة إلى الحقيقة التالية: هي أنّ العناية بالعلوم الشرعية والعلوم المساعدة لها كاللغة والنّحو والبيان وغيرها ظلّت الشّغل الشّاغل للمدرسة المحمدية، حيث أدّى التركيز عليها إلى عدم العناية بالعلوم الأخرى، وهذا القصور لا ينطبق على مؤسسات العلم والثقافة بحاضرة معسكر، بل هي حال الإيالة الجزائرية عمومًا، وهو ما أدّى إلى انحطاط وضعية العلوم العقلية به خلال العهد المدروس، وليس أدلّ على ذلك من قلّة المشتغلين بالطّب والكيمياء، الفلك، الحساب، الجبر، وغيرها من العلوم الطبيعية والتجريبية[4].

وذلك ما لاحظه الرحالة الإنجليزي شو (Shaw) الذي زار العديد من الأقطار الإسلامية في القرن الثامن عشر ميلادي (18م)، وقال عن وضعية العلوم العقلية في الجزائر بأنّ أيّ علم لم يُأخذ بدرجة من الكمال، مؤكّدًا على أنّ هذه الوضعية ليس ناجمة عن قلّة الأشخاص الذين يمارسون الطب أو أيّ من المهن التي تتطلّب بعض المعرفة بالعلوم الدقيقة،

---

[1]: مصطفى الرماصي: شرح حاشية شمس الدين التتائي، ج 1، مخطوط بخزانة الشيخ البشير محمودي، البرج- معسكر.

[2]: ضياء الدين خليل بن إسحاق موسى بن شعيب توفي سنة 749هـ/ 1348م، من أكبر فقهاء المالكية، شرح جامع الأمهات لابن الحاجب في ست مجلّدات، ثم اختصره في الكتاب المعروف بمختصر خليل. ينظر: إبراهيم بن علي ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، ج1، تحقيق: علي عمر، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية 2003، ص: 313.

[3]: منظومة في النّحو لجمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي المتوفي بدمشق (672هـ/ 1274م)، له بالإضافة إلى الألفية المشهورة: الشّافية في النحو، ولامية الأفعال والوافية في شرح الكافية له، أنظر: جلال الدين السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج1، تحقيق: أبو الفضل محمد إبراهيم، طبع بمطبعة عيسى البابلي الحلبي وشركاه، 1964، ص-ص: 130، 137.

[4]: بوجلال قدور: العلم والعلماء... "المرجع السابق"، ص: 105. وللمزيد عن هذا الموضوع يرجى العودة إلى: شاكر مصطفى: موسوعة دول العالم الإسلامي ورجاله، ج3، بيروت، دار العلم للملايين، 1993، ص: 1653.

إلاّ أنّ كلّ ما يفعلونه هو من قبيل العادة والتعوّد معتمدين في ذلك على ذاكرتهم القويّة وذكائهم الفذّ[1].

والجدير بالذكر أنّ بعض المدرِّسين بالمدرسة المحمدية قد تطرّقوا في مجالسهم لبعض العلوم العقلية كالحساب والفرائض والفلك، ولكن دراستها لم تكن إلاّ للاستفادة منها في الحياة اليومية البسيطة، فالحساب كان للاعتماد عليه في التجارة والفرائض وتقسيم التركات وغيرها، وكان الفلك يُدرس لمعرفة الزوال وأوقات الصلاة، وبالتالي فعدم اهتمام علماء معسكر بهذه العلوم هو الذي جعل الكتّاب الأوروبيين ينتقدون التعليم في الإيالة الجزائرية عمومًا، وممّا لا شكّ فيه أنّ انتقادهم فيه شيء من الحقيقة[2].

وممّا يجدر ذكره أنّ الباي محمد الكبير لم يكتف بذلك، بل أمر بتجهيز المدرسة المحمدية بكافّة الوسائل التعليمية والتثقيفية من مكتبة إلى قاعات مطالعة وغرف لمبيت الطلبة وكلّ المرافق الضرورية، كما عيّن لها موظّفين وأساتذة أكفّاء للتعليم أمثال العلامة الطاهر بن حوا قاضي قضاة معسكر، والعلامة السيد عبد الله بن حوا قاضي البلد وخطيب المسجد الكبير. وعَيَّن مُديرًا لها ليتولّى إدارتها وهو الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي رئيس رباط وهران، وغيرهم من الأساتذة الأعلام، فتخرَّج منها بذلك عدد كبير من موظّفي البايلك كالعلماء والأئمّة والفقهاء، والقضاة والمفتين الذين قاموا بدورهم الملحوظ في تنشيط الحركة العلمية في أرجاء البايلك الغربي[3].

يبدوا أنّ الباي محمد الكبير كان على إدراك بأهميّة العلم وصُحْبة العلماء فيما تحقَّق على يديه من شَرف عظيم بفتح وهران، ولذلك لم يَزدْهُ فتحُ وهران إلاَّ مزيدًا من التمسُّك بهذه الجوانب فكان أثر ذلك واضحًا في بقيّة مراحل حياته، وكانت أولى الخطوات الدّالة على هذه العلاقة وعلى هذا التأثّر أن بادر الباي في أعقاب بناء المدرسة بالإنفاق عليها من ماله الخاص بُغية جمع واستنساخ المخطوطات النّادرة بمكتبة ألحقها بها، ووضعها تحت وصاية

---

[1] :Shaw : L'Algérie un siècle avant l'occupation Française, Traduit par : J. Mac.Carthy, Paris, Editions Imprimerie de Carthage, 1968, p : 48.

[2]: جاكر لحسن: "المرجع السابق"، ص-ص: 43-44. للمزيد عن هذا الموضوع ينظر: محمد بن جبور: صورة الجزائر والجزائريين من خلال الكتابات الفرنسية في القرنين 17 و18م، رسالة ماجستير في تاريخ العلاقات الدولية، جامعة وهران، 2002- 2003، ص-ص: 132- 133.

[3]: صالح فركوس: الباي محمد الكبير... "المرجع السابق"، ص، ص: 17، 19.

الحبوس لخدمة الطلاب وأئمّة المسجد والمُدرِّسين الملحقين بالمدرسة، كما وضع لها نظامًا داخليًا لتسييرها[1].

وفي سياق وصف الأديب أحمد بن محمّد بن علاّل المشهور بالقرّومي للجامع الأعظم، جاء وصف للمدرسة المحمدية قائلاً بشأنها:

تَحْوِيهِ مَدْرَسَةٌ غَدَتْ آثَارُهَا تُحْيِيهِ بالعِلْمِ الشَّرِيفِ الأَشْعَرِي
تَمْحِي رُسُومَ الجَهْلِ مِنْ أَلْوَاحِهِ تَمْحِي شَمَائِلَهُ مِنَ الزُورِ السِرِي
مَبْنَى الأَمِيرِ مُحَمَدٌ فيِ الغَرْبِ قَدْ لاَحَتْ رُسُومَهُ كالصَّبَاحِ المُسْفِرِ[2]

وهكذا يتبيّن أنّ المدرسة المحمدية هي من المعاهد العليا التي عرفتها الإيالة الجزائرية خلال العهد العثماني مثلها مثل المدرسة الكتّانية التي أنشأها صالح باي في قسنطينة، والمدرسة القشاشية في الجزائر العاصمة، غير أنّ سمعتها ومكانتها العلمية فاقت المدرستين الأخيرتين، لأهميّتها الوظيفية في تلبية حاجيات السلطة العثمانية من الإطارات والكفاءات العلمية المتخصِّصة[3].

كما كان من الخطوات العملية التي قام بها الباي محمد الكبير لإصلاح التعليم والعناية بالمؤسسات التعليمية هو قيامه ببناء العديد من المساجد والجوامع بحاضرة معسكر، منها أنّه أعاد بناء الجامع العتيق الذي شيّده والده الباي عثمان سنة 1761م، وذلك بعد هدمه وتوسيع مساحته وبناء خمسة أحواض للوضوء به، واستبدال منبره بمنبر أحسن من ذي قبل وهو المُسمَّى حاليًّا بمسجد سيدي حسن الذي تمَّت فيه مبايعة الأمير عبد القادر كقائد للمقاومة ضدّ الاحتلال الفرنسي سنة 1832م[4].

وعن دور الباي محمد الكبير في ترميم وإصلاح المساجد يقول ابن سحنون: "... فكان أوّل ما صرف إليه همّته أن شرع في إصلاح مساجد الجمعة فزاد في جامع السوق

---

[1]: وللإشارة فإنّ السلطة العثمانية لم تكن تهتّم ببناء المساجد، وبالتالي فالباي شيّد هذا المسجد من ماله الخاص وعلى أرض اشتراها بأغلى ثمن، ينظر: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 127.

[2]: أنظر القصيدة كاملة في الثغر الجماني لابن سحنون: ص-ص: 130-132.

[3]: بلبراوات بن عتو: الباي محمد الكبير... "المرجع السابق"، ص: 222. جاكر لحسن: "المرجع السابق"، ص: 31.

[4]: يحيى بوعزيز: المساجد العتيقة في الغرب الجزائري، الجزائر، دار البصائر للنشر والتوزيع، 2009، ص: 210.

الصفّين المقدّمين"[1]، وبمعنى آخر أنّ الباي قد وسَّع من مسجد جامع السوق وزاد فيه صفَّين من الأمام بعدما رأى إقبال النّاس الكبير على هذا الجامع الذي لم يقتصر دوره على أداء الصلاة فحسب، بل وكذلك القيام بالوظيفة التعليمية من خلال إلقاء الدروس، وتنظيم المناظرات الفكرية بين العلماء.

وبالإضافة إلى هذه المساجد بأقسامها المختلفة شيَّد الباي محمد الكبير الجامع الأعظم بمعسكر في الفاتح من ذو القعدة سنة 1195هـ الموافق لنوفمبر 1781م، ولعلّه هو المعروف عند سكّان معسكر بجامع العين البيضاء أو جامع الباي محمد الكبير، كما بنى بجواره مدرسة كبيرة ألحقها به[2].

هذا وقد قام الباي محمد الكبير بإيصال الماء إلى المسجد عبر قنوات وأنشأ ستّة عشر حوضًا للوضوء، كما استبدل منبره بمنبر أحسن من ذي قبل، ثم شيَّد حمّامًا- الأدهم- حول ذلك المسجد وحبسه على المدرسة والمسجد، وهو المعروف عند سكّان معسكر بحمّام البركة الذي ما زال قائمًا إلى اليوم وصفه ابن سحنون "بالرائق بناءًا وشكلاً"[3]، كما اشترى الباي محمد الكبير حدائق ودورًا وحوانيت، وبنى له فرنًا وفندقًا جديدًا بالسوق القديم[4]. ويُفهم من هذا أنّ الباي قد بادر بهذه الأعمال الحضارية بُغية تلبية حاجيات موظّفي هذه المراكز التعليمية، وبالأعمال الوقفية بهدف أن تقوم بوظيفتها التثقيفية على أكمل وجه.

أمّا هندسة بناء الجامع والنّقش والخطوط فقد قام بها أحمد بن محمد بن صارمشق الذي ينتمي إلى أسرة تلمسانية، حيث نُقشت كتابة بارزة بخطٍّ كوفي خارج المحراب من الجهة اليمنى جاء فيها: "...أمّا بعد أمر بتشييد هذا الجامع المبارك خليفة السلطان السيد محمد باي بن عثمان أيّده الله أمين"، أمّا من الجهة اليسرى فكُتبت بحروف صغيرة ورد فيها ما يلي: "... انتهى بحمد الله على يد المعلم أحمد بن محمد بن الحاج حسين بن صارمشق التلمساني رحمه الله في أول يوم من ذي القعدة عام خمسة وتسعين ومائة وألف"[5].

---

[1]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 127.

[2]: "المصدر نفسه"، ص: 128.

[3]: "المصدر نفسه"، ص: 128.

[4]: "المصدر نفسه"، ص: 133.

[5]: Leclerc, Op.cit, p-p : 42-43.

وبالإضافة إلى المرافق العديدة التي كان يتوفّر عليها امتاز الجامع الكبير بجماله ودقة بنائه، والزخرفة والنقوش بالحروف العربية على الجدران والعناية بالعيون والإضاءة والنظافة، وما يؤكّد ذلك أحمد بن سحنون الراشدي الذي اعتبره من العجائب وقال: "أنّ الناس كانوا يقصدونه للتنزّه والتعجّب"[1]. أمّا الآغا بن عودة المزاري فقد قال بشأنه: "...وبنا رحمه الله- الباي محمد الكبير- الجامع الأعظم قليل الوجود بالعين البيضاء من بلدة معسكر..."[2].

كما تغنّى به الشّعراء وقيلت فيه القصائد، نذكر منها الوصف الذي قام به الأديب الشاعر أحمد بن محمد بن علال القرومي في إحدى قصائده المتعلّقة بمدح الباي محمد الكبير وأعماله الحضارية، كبنائه للمسجد الكبير ومدرسته العريقة، وممّا جاء فيها:

أُلْقِ العَصَا وَأَفُكَ رَحْلَ رِكَابِي ... بِالمَسْجِدِ المُنْشَئِ بِأُمِ العَسْكَرِ
المُحْكَمِ التَشْيِيدِ فِي شُرُفَاتِهِ ... فَتَرَاهُ يَخْطِفُ أَعْيُنًا لِلنَظَرِ
عَجَبًا لَهُ مِنْ مَسْجِدٍ فِي الأَرْضِ قَدْ ... حَاكَى السَمَاءَ تَطَاوُلاً فِي المَفْخَرِ
تَحْوِيهِ مَدْرَسَةٌ غَدَتْ آثَارُهَا ... تُحْيِيهِ بِالعِلْمِ الشَرِيفِ الأَشْعَرِي[3]

وممّا لاشكّ فيه أنّ الجامع الكبير كان يضمّ عددًا كبيرًا من الموظفين الذين يتألّفون من خطيب للجمعة وإمام للصلوات الخمس، وأربعة مؤذّنين وسمّاع وأربعة أساتذة ومقدّم للطلبة، وممّا يلاحظ أنّ هؤلاء الموظفين كانوا يتلقّون الرواتب والأجور من مداخيل الأوقاف التي حبسها الباي محمد الكبير على الجامع الكبير، والتي تضمّنت ما يلي: "أربعون ريالا للإمام وأربعون ريالا للخطيب وثمانون ريالا للمؤذنين الأربعة بالمسجد الكبير يتقاسمونها حيث يأخذ كل واحد منهم عشرين ريالا، وأربعون ريالا للحزّابين – قرّاء القرآن في المسجد- يتقاسمونها حيث يأخذ كل واحد منهم عشرة ريالات، وأربعون ريالا لمدرّس صحيح البخاري وستون ريالا للمدرّسين وهم ثلاثة في الفقه وغيره يتقاسمونها حيث يأخذ كل واحد منهم عشرين ريالا، وخمسة عشر ريالا لوكيل خزانة الكتب الملحقة بالجامع الكبير وعشرة ريالات يتقاضاها الرّاوي وخمسة عشر ريالا لمصلح المطاهر- منظّف بيوت الطهارة-،

[1]: ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص: 128.
[2]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود...ج1، "المصدر السابق"، ص: 295.
[3]: ابن سحنون: الثغر الجماني...."المصدر السابق"، ص-ص: 130-131.

وأربعون ريالا يتقاضاها وكيل الوقف وأربعة سلطاني ذهبا للطلبة الذين يحضرون درس صحيح البخاري في كل سنة، ونصف ريال شهريا حق لكل بيت عامر من بيوت الطلبة لشراء الزيت المستعمل في الإنارة"[1].

وممّا يلاحظ هو أنّ مدينة معسكر قد حفلت بنشاطات علمية وثقافية كبيرة تبلورت في مؤسساتها الثقافية ولعلّ من بينها مساجدها التي سبقت الإشارة إليها، كما عرفت هاته الحاضرة أيضًا ازدهارًا اقتصاديًا بالنظر إلى الأموال المخصّصة إلى الموظفين بتلك المساجد، حيث خصّص الباي محمد بن عثمان الكبير رُبْع الأوقاف للإنفاق عليها وصيانتها، إلى جانب تشجيعه للعلماء والمؤرّخين والفقهاء بها، حيث منحهم العطايا والهدايا التي تليق بمستواهم ومكانتهم الاجتماعية والعلمية في المجتمع المعسكري آنذاك[2].

والجدير بالذكر أنّ عملية بناء المساجد لدى الباي محمد الكبير لم تقتصر على معسكر فحسب بل شملت بَلْدات أخرى مجاورة مثل البرج[3] والكرط[4]، حيث عَملَ الباي على بناء الجامع الأعظم بالبرج وتوسيعه، كما أنشأ جامعًا آخر بالكرط ألحق به العديد من المرافق الضرورية لم يُشخِّصها محمد بن يوسف الزياني بالتفصيل[5]. لكن يُعتقد أنّها مجموعة من مكتبات ومدارس ودور سكن للطلبة زوّد بها الباي هذا الجامع لكي يؤدّي وظيفته الدينية والتعليمية على أحسن وجه.

1: Leclerc, Op.cit, p-p : 44-45.

2: مبروك مهيرس: "المساجد العثمانية في وهران ومعسكر"، عرض وتقديم: قويدر بشار، مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، العدد: 01، 1986، ص: 154.

3: البرج: قرية صغيرة أو بلدة صغيرة إن صح التعبير، تبعد عن مدينة معسكر بأربعة وعشرين كيلومترا من الجهة الشمالية الشرقية، كانت مقرًّا لقائد تركي يُدير شؤون المقاطعة الواقعة بين فليتة وغليزان والظهرة ومجاهر وسيرات والمحمدية ومعسكر، وبني سنوس وفرندة وهوارة، ويرتبط بها مقام ثلاثة أضرحة لثلاثة متصوفة هم: الشيخ عبد الرحيم، الشيخ ابن عامر، الشيخ عبد القادر، كانت االبرج تُعرف من قبل ببرج عياش، ثم أصبحت تُعرف فيما بعد ببرج المخفي نسبة إلى قدور بالمخفي الذي سكنها في عهد الأتراك. أنظر:
Raoul : «Notice historique sur El-Bordj depuis la dernière période de l'occupation turque jus qu à nos jours». in : B.S.G.A.O. T : XX, Oran, 1900, p-p : 145-171.

4: الكرط: أو جبل الذهب كما كانت تُسمّى، وهي معسكر القديمة بها مقبرة شهيرة تضمّ عددًا من العلماء والأولياء الصالحين بالإضافة إلى مسجدها المرمّم من قبل الباي محمد الكبير. بلبراوات بن عتو: الباي محمد الكبير.... "المرجع السابق"، ص: 217.

5: محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران.... "المصدر السابق"، ص: 204.

كما أنّ أعماله الحضارية لم تقتصر على مدينة معسكر بصفتها عاصمة البايلك، بل مدّ مشاريعه الثقافية إلى العاصمة الثانية وهران التي بنى بها مسجدًا أُعتبر أكبر مسجد بالمدينة، بالإضافة إلى المسجد الذي بناه بعد فتح وهران سنة 1792م والذي حَمل اسمه، والمعروف أيضًا بمدرسة خنق النطاح[1]. وما استفادت منه المدن التي سبق ذكرها من إصلاحات الباي وإنجازاته استفادت مدينة تلمسان هي الأخرى من إصلاحاته الحضارية، حيث تمَّ تجديد بناء مدرستين بتلمسان، وهذا بعد بناء المدرسة الجديدة في وهران خلال فتحها سنة 1792م[2].

ولتلبية حاجيات موظّفي هذه المراكز حبس عليها الباي العديد من الحمّامات والبساتين والحدائق والحوانيت بُغية العناية بالعلم والعلماء، وتوفير الظروف الحسنة لطلب العلم. كما أنّ هذه الأوقاف لم تستفد منها فقط هذه المؤسّسات بل حتى العلماء، حيث خصّص لهم رواتب منها بدليل ما ذكره ابن سحنون:"....أنّه رتّب المدرِّسين في الجوامع بوظائف يأخذونها من الأحباس بعد أن كان العلماء لا ينتفعون من ناحية المخزن بشيء، إلاّ من كان متوليًّا لخطّة أو مستعملاً في خدمة، فاتّسعت بذلك حال العلماء وانشرحت الصدور للقراءة، وكثر طلبة العلم واشتدّ الحرص على العلم"[3].

وزيادة على هذا فلقد أشار ليكليرك Leclerc أنّ اللوحة التذكارية التي كانت موجودة على أحد جدران الجامع الأعظم بمعسكر قد بيّنت تلك الأحباس[4] على الطريقة التالية: "بسم الله الرّحمن الرّحيم وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله، هذا بيان المحبسات للسلطان ابن السلطان السيد محمد باي ابن سيدي عثمان باي رحمه الله على الجامع الأعظم الكاين في حومة سيدي علي بن محمد الذي أنشأه وشيّده مع مدرسة الحايطة ودار الوضوء الغربية منه

---

[1]: مبروك مهيريس: المساجد العثمانية بوهران ومعسكر، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 2009، ص: 41.

[2]: Gorguos : « Notice sur le Bey d'Oran Mohammed El Kebir », R.A, N : 01, 1856, P-p: 409-410.

[3]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 135.

[4]: وللإشارة فإنّ أحباس مدينة معسكر قد كانت كثيرة وساهمت في دفع نفقات المدارس بها، كما شملت ميادين عديدة منها داخل المدينة وخارجها متمثلة في البساتين والأراضي، والحمامات والمحلات التجارية: حوانيت ومخابز- أفران-، إضافة إلى المخازن والمحلات الحرفية. ينظر: الأرشيف الوطني: سجلات المحاكم الشرعية، علبة: 108- 109، وثيقة رقم 30-47، المؤرخة بتاريخ: 1244هـ- 1828م.- أيضا: الأرشيف الوطني: سجلات البايلك، علبة: 80- 85، رقم السجل: 167. الرقم القديم: 82.

مع الجبانة المحاذية له أيضًا، الأول من ذلك جميع الدار المجاورة للمسجيد المذكور الملاصقة بالمطاهرة وبإسطبل حاجي، ثم جميع الحمّام الكاين بقرب المسجيد أيضا المحدود بالطريق الذاهبة إلى المدينة... إلى فرن الحمام المذكور ثم بحيرة قريبة من الجامع أيضًا المعروفة ببحيرة سيدي محمد الوهراني... ثم أربعة عشرة حانوتًا... ثم حانتين... ثم حانوتًا مجاورة لدار مصطفى... ثم حانوتًا داخل درب اليهود، ثم جميع الدار المعروفة بدار ميمون ثم رحا الماء ثم جميع الدار الكاينة في المدينة الجديدة المجاورة للكوشة..."[1].

يظهر من خلال ما سبق أيضًا أنّ الجو الثقافي الذي أحدثه الباي محمد الكبير قد أعتبر بمثابة فاتحة عهد جديد أتاح الفرصة للعلماء والمدرِّسين والأساتذة لممارسة التعليم، واستغلال مواهبهم في الكتابة والتأليف، وذلك عندما "فتح باب الوظائف أمامهم وخصّص لهم رواتب يأخذونها من الأحباس بعد أن كان العلماء لا ينفقون من ناحية المخزن بشيء إلاّ من كان متوليًّا لخطّة أو مستعملاً في خدمة، فاتّسعت بذلك حال العلماء وانشرحت الصدور للقراءة وشرهت لها النفوس، وكثر طلب العلم وتشوّق كلّ أحد للتدريس، واشتدّ الحرص على العلم من بعد أن كاد يُترك اشتغالاً بالتجارة لقلّة جدواه"[2].

1-2 اهتمام الباي محمد الكبير بالعلماء:

لقد كان للعلماء والأدباء مكانة خاصّة لدى الباي محمد الكبير فقرّب إليه العلماء ورفع قدرهم، وشجّعهم على العمل والإنتاج وبذل لهم الأموال، ووسّع لهم في العطايا والمنح والهدايا لا سيما في المناسبات ليتفرّغوا للعلم والتعليم[3]. كما أنّه كان يختار من جلسائه العلماء والأدباء من كتّاب وشعراء، وكانت مجالسه تضمّ العديد منهم خاصّة في الأعياد والمناسبات بدليل ما ذكره ابن سحنون:"... والأعياد فإنّه كان يعمّ فيها أهل الوظائف كالخطباء والأئمّة والمؤذّنين، والمؤدّبين والمدرّسين"[4]. كما كان يُكرمهم غاية الإكرام لدرجة أن سمّاهم ابن سحنون الراشدي بالعلماء الأخيار بقوله: "وأمّا حبّه للعلم وإحسانه إلى العلماء الأخيار فقد شاع منه ما يغنى عن الأخبار"[5].

1: Leclerc : Op.cit, p-p : 43-44.

2: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 135.

3: صالح فركوس: الباي محمد الكبير... "المرجع السابق"، ص: 24.

4: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 143.

5: "المصدر نفسه"، ص: 146.

وزيادة على هذا فلقد كان يستشيرهم أيضًا في بعض القضايا الهامّة ويُوجِّههم ويُرشدهم إلى مناصب مختلفة، فكان مثلاً أحمد بن هطال التلمساني قد شغل عدّة مناصب سياسية في بايلك الغرب حيث كان مستشارًا للباي وكاتبه الخاص، والمبعوث له في المهام الخارجية. فلقد رافقه كذلك في رحلته التي سجَّل أحداثها سنة 1199هـ/ 1785م في مؤلَّفه "رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي" كخدمة يُقدِّمها إلى الباي بدليل قوله: "أردت أن أذكر منه نبذة أخدم بها قامع المبغضين ومدوخ المارقين، من جمع الله له خصال الشّرف والمجد"[1].

وكان من الذين أسند إليهم المناصب العلامة الطاهر بن حوا الذي شغل منصب قاضي قضاة مدينة معسكر، وكذلك العلامة الشيخ عبد الله بن حوا الذي كان قاضي البلد وخطيب المسجد الأكبر، وهما من أسرة واحدة تمتاز بالعلم والمعرفة[2]. وقد عيَّن كذلك الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي مديرًا على المدرسة المحمدية، ورئيسًا على الرباط عند حصار مدينة وهران[3].

كما مارس أبوراس الناصر عدّة وظائف حكومية في إطار ما يسمّى "بديوان الباي" منها منصب قاضي مدينة معسكر ومفتيها[4]، وعلى ما يبدوا أنّ كتابات ومؤلّفات علماء معسكر قد أشارت لمجالسة الباي محمد الكبير للعلماء، فها هي رحلة أبو راس الناصر تدلّ على ذلك بقوله: "...وكنت –مرّة– قصدت وهران وافدا على حضرة... السيد محمد باي ابن عثمان أخلص الله جهاده... فانجر الكلام إلى أن قلت: الأمر الفلاني كلا شيء– بفتح الهمزة–، فقال لي لسان الدولة... والباي رحمه الله ينظر إلينا..."[5].

وكان الباي محمد الكبير يحترم العلماء ويسعى جاهدًا في مشورتهم أثناء اتخاذ القرارات، فهو قد عامل الرعيّة وفق الشريعة الإسلامية وأعطاهم حقوقهم ولم يتعرّض أحد للظلم أو التعدّي بل أكرمهم وأحسن إليهم، وكان شعاره العدل أساس الملك بدليل ما ذكره أبو

---

[1]: أحمد بن هطال التلمساني: رحلة محمد الكبير... "المصدر السابق"، ص: 35.

[2]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص، ص: 237، 427.

[3]: "المصدر نفسه"، ص–ص: 62–63.

[4]: حمدادو بن عمر: أبو راس الناصر المعسكري وكتاباته التاريخية، 1155– 1238هـ /1737– 1823م، رسالة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2002– 2003، ص: 80.

[5]: أبو راس الناصر: فتح الإله... "المصدر السابق"، ص: 100.

راس الناصر: "...معناه أن المنصور بالله إنّما يصنع أقواله الأمرية وأحكامه الشرعية في شؤون رعيته، ونوازل قضيته في محلها لعدله وعمله، ولا يعمل شيئا في غير محلِّه"[1].

يبدوا أنّ الباي محمد الكبير كان على إدراك بأهميّة العلم وصحبة العلماء في توسيع قاعدته الشعبية، وأنّها شرط ضروري لأيّ حاكم بُغية تفعيل مشاريعه الفكرية والعلمية. ولذلك كان يَحرص كلّ الحرص على مشورتهم، وفي هذا المقام يقول ابن سحنون: "... وفي حال كونه محكمًا في النّاس إلى آخر عمره محببًا إليهم، لا يملّون أيامه الحميدة ولا يعدمون ذاته السعيدة"[2]. كما أشار إلى ذلك طالبي عطاء الله بقوله:"... كانت طبيعة الحكم العثماني هو الاعتماد على المرابطين والعلماء في وقت الشّدة، باعتبار هؤلاء يمثِّلون الرأي العام ويؤثِّرون بالنصح والموعظة والنفوذ الروحي على العامّة، وقد عُرِف عن بعض الحكّام أنّهم كانوا من الذين يقرّبون العلماء ويعفون المرابطين والأشراف من دفع الضرائب ويهادنونهم..."[3].

وليس ذلك فحسب بل تحدّثت كتب التاريخ أنّ الباي محمد الكبير لمّا دخل مدينة وهران بعد فتحها قدَّم أمامه العلماء والصلحاء وبيدهم صحيح البخاري، بدليل ما ذكره ابن سحنون: "وكان أوّل من دخلها بعد الذين وضعوا الأعلام وعمروا المدافع، وبنو مضرب الأمير العلماء يقدمهم صحيح البخاري، ثم تلاهم الأمير في جنده الجرار"[4]. ولم يتوقّف عن هذا التكريم والحب، بل قام ببناء مدرستين للطلبة الأولى بمعسكر والثانية بوهران[5].

كما كان يعتني بشأن العلم والعلماء والمشايخ والصلحاء لإدراكه لمكانتهم في المجتمع، لذا ولمّا اشتكى سكّان وهران من الطّلبة وطالبوا منه إخراجهم من المدينة، حزن عليهم حتى أشار عليه الآغا قدور الكبير بن إسماعيل البحثاوي بعدم طردهم من المدينة بل مساعدتهم، وحسب المصادر فإنّه دفع لهم مالاً كثيرًا قصد التبرّك بهم، كما أمرهم بأن يشتغلوا بالقراءة

---

[1]: بوركبة محمد: عجائب الأسفار... "المرجع السابق"، ص: 513.

[2]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 122.

[3]: طالبي عطاء الله: "المرجع السابق"، ص: 18.

[4]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 459.

[5]: صالح فركوس: الباي محمد الكبير... "المرجع السابق"، ص-ص: 17-18.

ويكفّوا عن إذاءة الناس وقال لهم: "أيّها الطلبة... فما في المدينة من يحبّكم إلاّ ثلاثة في المحبّة سواء وهم: أنا والآغا قدور بن إسماعيل البحثاوي والنساء"[1].

يبدوا أنّ الباي محمد الكبير كان على إدراك بأهميّة العلم وصحبة العلماء وتقريبهم إلى مجالسه واستقطابهم إلى جانبه، وهذا لتدعيم مركزه في الحكم. فقد كان ذكيًّا يتمتَّع بتفكير سياسي بعيد النظر إذ عرف كيف يكسب هؤلاء العلماء ويجلبهم إليه، وعرف كيف يحرِّكهم ويجعلهم يلهجون بالثناء عليه، ويتبارون بذكر مناقبه وتخليد مآثره. كما كان الباي يرمي من وراء ذلك إلى هدف آخر هو بعث الرباطات الطلابية التي أصبحت كمؤسسة علمية، ذلك أنّ الباي محمد الكبير كان قد جعل الدراسة تقتصر على من كان في الرباط الذي كان يُشرف على إدارته والأساتذة، فجمع بذلك المرابطون بين الدروس العلمية والجهاد[2].

ومن هنا يمكن القول أنّ عناية الباي بالعلم والعلماء قد كانت نتيجة شخصيته المثقَّفة فقد كان فصيحًا في كلامه يُحبّ المطالعة، ويُعنى بمطالعة كتب التاريخ ويَدرس حياة كبار الملوك والأبطال وفتوحاتهم[3]. وعلاوة على ذلك فقد كوّن الباي مكتبة خاصّة له تحتوي قدرًا جيِّدًا من الكتب القيِّمة التي جمعها وانتقاها باهتمام جعلته يحبّ المجالس والمناظرات العلمية، في محاولة منه مُجاراة الحكّام والملوك المسلمين السابقين والمعاصرين له[4]، بدليل ما ذكره أبو راس الناصر في رحلته بقوله: "... ولم تزل الملوك الكرام تستدعي العلماء إلى صدور المجالس، وتزيّن عقود المحافل بدررهم النفائس وتشركهم في المآكل والمراكب والملابس، وتجعل توقيرهم إلى استخلاص ضمائر المسلمين ذريعة وكلمتهم لديهم مطيعة..."[5].

1-3 تشجيع الباي لحركة النسخ والتأليف ومكافأة العلماء على أعمالهم:

كان الباي محمد الكبير فصيحًا في كلامه، فقيهًا وأديبًا، محبًّا للمطالعة ومتشبِّعًا بالثقافة[6]، ومن أجل أن يبعث نهضة فكرية في بايلكه الغربي أمر كتّابه وطلبة العلم بنسخ

---

[1]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود...ج1، "المصدر السابق"، ص-ص: 295-296.

[2]: صالح فركوس: الباي محمد الكبير... "المرجع السابق"، ص: 26.

[3]: محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران... "المصدر السابق"، ص: 199.

[4]: لدرجة أنّه كان يُمارس الطب بنفسه، وحيث سُمِّي "بطبيب الفقراء". ينظر: ابن سحنون: الثغر الجماني..."المصدر السابق"، ص: 147.

[5]: أبو راس الناصر: فتح الإله... "المصدر السابق"، ص: 64.

[6]: أحمد بن هطال التلمساني: رحلة محمد الكبير... "المصدر السابق"، ص: 27.

الكتب الثمينة والمخطوطات النادرة، والكتابة في المواضيع التي يقترحها هو بنفسه[1]. من ذلك أنّه أمر محمد بن رقية الجديري التلمساني بالكتابة عن الحملة التي شنّتها إسبانيا على الجزائر عام 1189هـ/1775م المشهورة بحملة "أوريلي"، فتناولها هذا الكاتب في تأليفه المعروف بعنوان: "الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة"، والذي انتهى من تأليفه حسب ما هو مسجّل فيه في الرابع عشر من ذي الحجة سنة 1193هـ الموافق لـ: 23 ديسمبر 1779م[2]. وهذا بعدما أشار من أنّه كتبه استجابة لطلب الباي محمد الكبير باي الغرب، وترغيبه وحثّه على الجهاد حيث يقول: "الحمد لله الذي وعد المومنين بالغلبة والنصرة، وجزى المشركين بالخذلان والدبرة...وبعد فهذه أوراق تحرك على الجهاد أرباب القلوب النافرة....وسميتها بالزهرة النايرة... وسبب تحرير هذه الأوراق حديث خير الخلق على الإطلاق.... عن إذن الأمير... سيدي محمد باي نجل عثمان"[3].

ولم يكتف ابن رقية بحملة أوريلي بل دوّن تسعة حملات قام بها الكفرة على حدّ تعبيره على مدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية وتحديدًا من سنة 1516م إلى 1775م، حيث بدأ بحملة ديغو دوفارا Diego Devara في عهد عروج، ثم حملة هيغو دومانكادا Hugo de Mancada في عهد خير الدين، ثم حملة شارلكان Charlesquint في عهد حسن آغا، ثم حملة الإنجليز في عهد رمضان بولكباشي... وآخر حملة كانت هي الحملة الإسبانية بقيادة أوريلي Oreilly على عهد عثمان باشا 1189هـ/ 1775م[4].

كما حظي فتح وهران الثاني بنشاط تأليفي كبير فاق نظيره في الفتح الأول، ولعلّ الداعي إلى ذلك هو تشجيع الباي محمد الكبير للعلوم والكتابة عمومًا والتاريخ بصورة أخص، فضلاً عن أهميّة الحدث باعتباره فصل لامع من فصول النزاع الجزائري الإسباني إن لم نقل الإسلامي المسيحي. وفي هذا الإطار أمر الباي من أحد كتّابه وهو المصطفى بن

---

[1]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 146.

[2]: رقية شارف: الكتابات التاريخية... "المرجع السابق"، ص: 67. للمزيد عن هذا الموضوع يرجى العودة إلى:
Alphonse Rousseau : Chroniques de la régence d'Alger, Traduites d'un manuscrit arabe intitulé : El- Zohrat-El- Nayerat, auteur : Muhammad ibn Muhammad al- Tilimsani, Alger, Imprimerie du Gouvernement, 1841, p : 06.

[3]: محمد بن رقية التلمساني: الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 2603، ص، ص: 01، 47.

[4]: زبيدة خليفي: حركة التأليف التاريخي في الجزائر خلال العهد العثماني، مذكرة ماجستير في التاريخ العثماني، جامعة قسنطينة، 2004– 2005، ص: 45.

عبد الله بن زرفة الدحاوي بتدوين الأحداث التاريخية المتعلّقة بالجهاد، والتي كان قد دوّن بعضها والبعض الآخر نقله عن الرّواة في مؤلَّفه الرحلة القمرية في السيرة المحمدية[1].

وزيادة على هذا فلقد كان الباي محمد الكبير يحثّ الكتّاب على التّأليف في العلوم الأخرى المتداولة خلال العهد المدروس، حيث أمر من كاتبه المصطفى بن عبد الله بن زرفة الدحاوي بتأليف كتاب يجمع فيه فتاوى العلماء حول جوائز الأمراء والملوك، حيث قام ابن زرفة بالشروع في التدوين وجمع ما تناثر من المقالات والكتب حول الموضوع، مُستعينًا بخزائن كتب الباي لينتهي من تأليفه في 24 محرم 1199هـ الموافق ل: 07 ديسمبر 1783م، بعد أن سمّاه: "الاكتفاء في حكم جوائز الأمراء والخلفاء"، فكافأه الباي عليه بسبعين دينار ذهبًا.

هذا وقد كان الموضوع الرئيسي لهذا الكتاب هو إثبات صحَّة منح الأمراء والخلفاء أراضي للناس من أجل تعميرها[2]، حيث عالج ابن زرفة ذلك في أربعة فصول تطرّق في الفصول الثلاثة الأولى منه إلى حقوق الأمراء وجباية الضرائب، الهدايا التي يمكن لهم قبولها، العمليات التجارية المسموح لهم بها، أمّا الفصل الرابع فعالج فيه طبيعة ثروات بيت المال ودراسة حالة الأعراب- الرعية- في الريف[3].

ومن الملاحظ أنّ التأليف كان من الطرق الهامّة لإبراز روح المنافسة بين العلماء، حيث كانت حركة التأليف في العهد المدروس نشيطة جدًّا، لدرجة أنّ الباحث من خلال اطِّلاعه على المصادر المختلفة لا يكاد يجد عالمًا من علماء حواضر بايلك الغرب إلاّ وله قائمة قصيرة أو طويلة من المؤلّفات في مختلف العلوم المتداولة، وقد تمثّل ذلك في الشروح

---

[1]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص-ص: 146-147.

[2]: هناك من يرى في أهميّة كتاب "الاكتفاء" لابن زرفة كَونه مرجعًا يستفيد منه المؤرّخون في وضع الحجج والبراهين لإسقاط دعوة المعارضة للسلطة العثمانية، ولأنّ الباي محمد الكبير قد أمر من ابن زرفة بتأليف هذا الكتاب قصد الردّ على من اتّهمه بالتّجاوزات في موضوع الضرائب وما يتعلّق بها. يحي بوعزيز: أعلام الفكر والثقافة...ج2، "المرجع السابق"، ص: 233. ابن زرفة: الرحلة القمرية...."المصدر السابق"، ص: 377.

[3]: رقية شارف: الكتابات التاريخية الجزائرية الحديثة خلال القرن 18م وبداية القرن 19م: دراسة تحليلية نقدية، ط1، الجزائر، دار الملكية للطباعة والنشر والتوزيع والإعلام، 2007، ص-ص: 72-73. للمزيد راجع: بلبراوات بن عتو: الباي محمد الكبير..."المرجع السابق"، ص- ص: 232-233. بوجلال قدور: العلم والعلماء.... "المرجع السابق"، ص: 178.

والحواشي والتّقاييد والتّعاليق والرّسائل والفهارس، وفي التآليف ذات الأجزاء أيضا[1]. وكلّ ذلك كان بتشجيع من الباي محمد الكبير، حيث اهتمّ العلماء والكتّاب بتدوين الأحداث التاريخية خاصّة تاريخ وهران وبايلك الغرب عامّة، إذ كان الباي يجزل لهم عطاياه ويحثّهم على التأليف في التاريخ، ويتّضح ذلك من خلال ما ألّفه ابن سحنون الراشدي من كتابات تنوّعت مواضيعها واختلفت غاياتها لا سيما تأليفه الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني[2].

ولا شك أنّ اهتمام العلماء بالعلم يعود كذلك إلى أهميّته في استخلاص العبر والدروس وتقرُّب هذه الفئة من الباي محمد الكبير والتّأريخ لعهده ومدحه، حيث خصّص الشعراء معظم إنتاجهم الأدبي لذكر خصائل هذا الباي وتخليد مآثره لقاء ما كان يغدق عليهم من عطايا وهبات[3]، مثال ذلك كاتبه ابن سحنون الذي قام بتأليف كتاب "عقود المحاسن" وهو كتاب في الأدب تطرّق فيه لمدح الباي محمد الكبير، لكن ما لوحظ هو أنّ ذلك التأليف لم يصل بين يدي الباي لأسباب غير واضحة، بدليل ما ذكره ابن سحنون: "... فلم تسمح الأيام بإيصاله إليه..."[4].

هذا بالإضافة إلى تأليف أبو راس الناصر لكتاب "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار" الذي بيّن فيه مدى حُبِّه للعلم والتأليف بقوله: "هذا وأني قد خضت في هذا الفن قديمًا وضقت به أديمًا، لم أزل في خدمته مستديمًا حتى كثرت عندي رقاعه وامتلأت بقاعه، وصارت نفسي تحدثني بالتدوين والانخراط في صنف المؤلّفين وهنت علي شيئا أمره، وأنا في ذلك أقدم رجلا وآخر أخرى، وإنّني لي بذلك وبضاعتي في هذا العلم نزر منزور والمتشبّه بما لم يعط كلابس ثوب نوره، مع ما كان يعوقني من ذلك ويمنعني في الخوض فيما هناك"[5].

كما وُجِدت صورة أخرى من صور اهتمام الكتّاب والعلماء بالعلم، وهي تحمّسهم في تدوين الأحداث التاريخية وتقييد المعارك خاصة بعد تعبئة الباي محمد الكبير للطلبة برباط

---

[1]: بوجلال قدور: العلم والعلماء... "المرجع السابق"، ص-ص: 150- 151.

[2]: صالح فركوس: الباي محمد الكبير..."المرجع السابق"، ص: 26.

[3]: "المرجع نفسه"، ص: 22.

[4]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 146.

[5]: أبو راس الناصر: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 1632، الورقة: 02.

وهران لإجلاء الإسبان عنها نهائيًا، وفي هذا المقام يقول أبو راس الناصر: "... وذلك أني لما رأيت تبسّم الدين بثغر وهران بعد عبوسه، وابتذال النعيم بعد بؤسه واسترداده بالغنا والنبل سنّة الله التي قد خلت من قبله، تحرّك مني الساكن لذكر واقعة تلك الأماكن، وقد حصل لي سرور وجدل وحبور، وأنشدت قصيدة غريبة الشّكل مجيدة الأصل محصلة من مرغوب متكفّلة بتوفية المطلوب يسير حسنا بلا أذن، أجريت جواريها بريح البلاغة في بحر البسيط..."[1].

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ الغرض الذي اتَّبعه أبو راس الناصر في كتاباته التاريخية يختلف من كتاب لآخر، فغايته في عجائب الأسفار ولطائف الأخبار كانت في الأساس إظهار الطاعة للباي محمد بن عثمان خاصّة وأنّه كان مُعيّنًا قاضيًا ومفتيًا بدليل قوله: "...مع أنّ الغرض من هذا الكتاب- عجائب الأسفار ولطائف الأخبار- ذكر فتح وهران ومدح الفاتح لها وهو نادرة الزمان وقبلة الإحسان السيد محمد بن عثمان باي، الذي من الملوك محل اللبة من الصدر أو النور الباهي من هالة البدر، حتى اشتهر من بينهم اشتهار النهار وشيّدت به معالم الحق وانطمس رسم الباطل..."[2].

ويبدوا أنّ أبو راس الناصر قد ركَّز كثيرًا إلى الإشارة بتاريخ فتح وهران الثاني عام 1792م بوضعه لقصيدة عنونها بـــ :"نفيسة الجمان في فتح ثغر وهران"، سجّل فيها الأحداث التي جرت أمام عينيه فاختار لها قافية السين من البحر الكامل، وقدَّمها هدية للباي محمد الكبير الذي استحسنها ومدح لفظها ومعناها[3]، ولكنه طلب منه أن يُعيد شرحها شرحًا آخر وافيًا ويوضّح ما جاء فيها من إشارات تاريخية وأخبار في الأنساب، ووقائع وأسماء بدليل ما

---

[1]: أبو راس الناصر: الخبر المعرب عن الأمر المغرب الحال بالأندلس وثغور المغرب، مخطوط بخزانة الشيخ البشير محمودي، البرج- معسكر، الورقة: 01.

[2]: أبو راس الناصر: عجائب الأسفار... "المصدر السابق"، الورقة: 02.

[3]: ذلك الأمر قد حدث بينما كان أبو راس الناصر عائدًا من حجّته الأولى سنة 1205هـــ/ 1791م، فسمع وهو في تونس بالحرب بين المسلمين والإسبان بسبب وهران فعاد مسرعًا لمساندة إخوانه في الجهاد، وحينها شرع في تأليف كتابه الموسوم بـــ: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار الذي فرغ منه في السنة الموالية أي سنة 1206ه/ 1792م. راجع: حمدادو بن عمر: أبو راس الناصر... "المرجع السابق"، ص: 68. وأيضا: ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي... "المرجع السابق"، ص-ص: 462-463.

ذكره أبو راس الناصر: "... وقد كنت كلفت بشرحها واسترعيت سائمة شرحها، ثم ثنيت عنان القلم ثانيا لشرح القصيدة الأولى ثانيا لمقصد أردته وغرض قصدته..."[1].

والجدير بالذكر أنّ اهتمام الكتَّاب والعلماء المتزايد بجوانب المعرفة يعود بالدرجة الأولى إلى ولوعهم بالعلم والمعرفة، ومن حيث استخلاص العبر والدروس من الأحداث التاريخية. لذا نجد من بين هؤلاء العلماء والكتّاب من أرَّخ لمدينة وهران والأمم التي تداولت عليها والأحداث التاريخية التي وقعت بها، وكذلك لتاريخ بعض الدول الأخرى كتاريخ الدولة الفاطمية بالجزائر والمغرب الأقصى وطرابلس وغيرها[2]، ولا نحسب كلّ من عبد القادر المشرفي وأبو راس الناصر إلاّ من هذا الصّنف من العلماء بحاضرة معسكر.

كما وُجِد من علماء معسكر من كان يهتمّ بالبحث في نسب القبائل والتّأريخ لها، وبنسب البربر ومساكنهم والتعريف بزعمائهم وملوكهم والدور الذي لعبوه عبر التاريخ إلى غاية سقوط دولهم وإماراتهم، ولعلّ أحسن دليل على ذلك هو اهتمام أبو راس الناصر في كتابه "الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية" بالإشادة بالقبائل العربية والبربرية والإشارة إلى تاريخ بعض الدول[3]. وممّا يؤكد هذا الاهتمام البالغ بالتاريخ المحلي وتاريخ الدول هو أنّ الكثير من كُتّاب وعلماء معسكر خلال تلك الفترة كانوا يحثّون على الكتابة فيه[4]، لدرجة أنّ بعض علماء الوطن الغريسي الراشدي كانوا يسجّلون رحلاتهم إلى المشرق العربي في مواسم الحج وما يحدث لهم، وكذا انطباعاتهم والمناقشات التي كانت تدور بينهم

---

[1]: أبو راس الناصر: الحلل السندسية في فتح وهران والجزيرة الأندلسية، مخطوط بخزانة الشيخ البشير محمودي، البرج- معسكر، الورقة: 02.

[2]: صالح فركوس: الباي محمد الكبير... "المرجع السابق"، ص-ص: 22-23. ينظر أيضا: أبو راس الناصر: عجائب الأسفار..."المصدر السابق"، الورقة: 31، 23.

[3]: من بين القبائل العربية والبربرية التي أشاد بها أبو راس الناصر في كتاباته نذكر قبيلة مغراوة وقبائل بني توجين، وقبيلة مغيلة وقبائل بني عامر وبني راشد، أمّا عن الدول التي أشار إليها في كتاباته التاريخية فقد تطرّق لتاريخ الجزائر ومراحل تطوره على عهد الحفصيين وبني عبد الواد، والحملات الصليبية التي توالت عليها من الحملة الإنجليزية والحملة الفرنسية مُنوِّهًا ذلك بذكره للدولة الزيانية وبلاد تونس والأمراء الذين تولّو على حكم هذه البلاد، ضف إلى ذلك حديثه عن الدول التي ظهرت بالمغرب الإسلامي منها الدولة الصنهاجية وملوكها، المرابطين، الموحدين والدولة المرينية، ينظر: أبو راس الناصر: عجائب الأسفار... "المصدر السابق"، الورقة: 36، 120، 136- أبو راس الناصر: الحلل السندسية... "المصدر السابق"، الورقة: 11.

[4]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 140.

وبين العلماء هناك، مقتنعين بفكرة أنّه لا نهضة بدون الاهتمام بالعلم ووسائله المادية والمعنوية[1].

ويفهم من هذا أنّ الباي محمد الكبير قد شجَّع الكتَّاب على التّأليف وفي شتّى المعارف والعلوم، مع تكريم القائمين بذلك من الطلبة الأكفّاء والعلماء النّزهاء وكُتّابه الخصوصيين، حيث كان يُجيز كلّ واحد منهم بسخاء حسب عمله وجهده بدليل ما ذكره ابن سحنون:"... وكم من تأليف نشأ بأمره، ونال مؤلّفه به وافر بره..."[2]. كما كان هذا الباي يملك مكتبة خاصّة به وهي مكتبة ضخمة تحتوي على مختارات من شتّى المخطوطات "حيث كان لا يكتفي بالمخطوطة الواحدة في خزانته، بل يأمر بنسخ عدة منها لتكون في متناول أيدي جميع المثقفين من العلماء وطلبة العلم"[3]، ولا يهمّه الثمن المدفوع من أجل مخطوط ثمين فكان يبذل الأموال الطائلة للحصول على المخطوطات النّفيسة فيشتريها ويضعها في خزانة القصر، أو يحبسها على طلبة المدارس وعلماء المساجد[4]، وفي هذا الصدد يقول كاتبه ابن سحنون: "ولمحبة هذا الأمير للعلم والأدب كان يشتري كتبه بالثمن البالغ ويستكثر منها، وينتسخ ما لم تسمح نفس مالكه ببيعه، وكثيرا ما يأمر بقراءتها بحضرته في مجلس حكمه..."[5].

لكن على ما يبدوا أنّ ذلك لم يكن ليتحقّق لولا الحوافز المادية التي وضعها الباي محمد الكبير لفائدة العلماء، من أمثال كاتبه ابن سحنون الراشدي الذي استفاد من مائة سلطاني (دينار ذهبا) بعد تلخيصه في نحو ثمانين كراسة لكتاب "الأغاني"، كما منحه الباي خمسون دينار ذهبا على جمعه لكتاب "طب القاموس"[6]. وبما أنّ فترته تميّزت بتعبئة الناس ضدّ الإسبان، هذا الأمر ضاعف حماس الكتّاب على تقييد المعارك والأحداث خاصة التي وقعت في عهده فإنّه منح الأديب الحاج أحمد القرومي مائة محبوب ذهبًا وألبسة فاخرة

---

[1]: أبو راس الناصر: فتح الإله... "المصدر السابق"، ص: 91.

[2]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 146.

[3]: أحمد بن هطال التلمساني: رحلة محمد الكبير..."المصدر السابق"، ص-ص: 26-27.

[4]: "المصدر نفسه"، ص: 27.

[5]: ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص: 147.

[6]: "المصدر نفسه"، ص: 146.

تساوي خمسين محبوبا ذهبًا عندما مدحه بقصيدتين الأولى عندما شيّد المسجد الكبير بمعسكر والثانية لمّا دخل مدينة الأغواط وضواحيها[1].

وتشجيعًا منه للحركة العلمية قام بإرسال بعثات علمية للأزهر حيث "كان يمدّ طلبة العلم الملتحقين به، ويبعث لهم سنويا إعانات"[2]، وهذا دليل على رغبته في تكوين أساتذة ذوي مستوى عال للتدريس في بايلكه. ولم تقتصر علاقاته الثقافية الحدود الجغرافية للبلاد، بل تجاوزت ذلك بإرساله الهدايا والعطايا للعلماء المشهورين أمثال العالم المصري الشيخ أبو الفيض المرتضى الزبيدي صاحب كتاب "تاج العروس في شرح القاموس"[3]. كما أكرم العالم المغربي أبو القاسم الزياني (1734- 1833م) صاحب "الترجمانة الكبرى" عندما نزل بوهران[4]، فربّما يكون هذا من باب الاحترام، أو من أجل جلبهم إلى حضيرة بايلكه للاستفادة من علمهم[5].

وعلى ما يبدوا أنّ الباي محمد الكبير قد استمرّ في طلب العلم ومجالسة العلماء بمختلف الفنون بعد تولّيه السلطة وتقرّبه منهم لحاجته الماسّة لأصحاب النفوذ، وذلك تحسّبًا للظروف التي يشتدّ فيها الكرب وتواجه السلطة تمرّدات وثورات، فيقف أولئك العلماء والمتصوفة وأصحاب النفوذ الروحي إلى جانب السلطة حماية لها وحماية لمصالحهم في نفس الوقت[6].

وهكذا ارتكز العامل السياسي في بايلك الغرب عمومًا وحاضرة وهران خصوصًا على مبدأ الصِّراع والتنافس الذي أدّى إلى نشوب حروب مع الإسبان خلّفت ما خلّفته من خسارة وحزن، وفخر ومباهاة وإعجاب واعتزاز وضغن ونقمة. حروب إذا كان لها من المساوئ ما لها، فقد أثّرت بليغ الأثر في إذكاء القرائح، وفي نهضة وازدهار الشعر والأدب،

---

[1]: أحمد بن هطال التلمساني: رحلة محمد الكبير... "المصدر السابق"، ص: 26. للمزيد ينظر أيضا: أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766- 1791، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، ص: 141.

[2]: ابن سحنون: الثغر الجماني...."المصدر السابق"، ص: 69 (من مقدمة المحقِّق). وأيضا: صالح فركوس: الباي محمد الكبير... "المرجع السابق"، ص: 24.

[3]: ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص-ص: 149-150.

[4]: مولاي بالحميسي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979، ص: 21.

[5]: رشيدة شدري معمر: العلماء والسلطة...."المرجع السابق"، ص: 137.

[6]: لزغم فوزية: البيوتات والأسر العلمية.... "المرجع السابق"، ص: 590.

وعلى اختلاف وتعدّد هذه المعارك، اختلف الشعر وكثر، وتنوّعت أغراضه فكان خير ديوان لحياة العثمانيين عامّة وحياة الباي محمد الكبير خاصّة.

الفصل الرابع:

دور العلماء في تمجيد السلطة العثمانية والحفاظ على وحدة الإيالة.

أولا: أثر العلماء في الحفاظ على وحدة إيالة الجزائر أمام الخطر الإسباني

ثانيا: نماذج من العلماء المقرّبين إلى السلطة ومؤلّفاتهم الممجّدة لجهاد العثمانيين

كانت مدينة وهران بعد فتحها النهائي سنة 1792م أقوى الحواضر بالإيالة وأكثرها استقرارًا وأبلغها تأثيرًا في سكّانها سواء في مستواها الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي أو العمراني، وهي مستويات تداخلت فأدّت إلى نهضة أدبية كان للعلماء والبايات فيها أبلغ تأثير في إذكاء قرائح الأدباء والشعراء على وجه الخصوص، وهي نهضة أدبية ارتكزت على عوامل متعدِّدة يمكن حصرها في الازدهار الاقتصادي والعمراني، ثمّ الصّراع السياسي الذي شهده الربع الأخير من القرن 18م بين العثمانيين وأتباع الطرق الصوفية الثائرة كالدرقاوية والتيجانية[1]. الأمر الذي أدّى إلى تهديد وتراجع سلطة العثمانيين، فقرّروا تجديد قوّتهم من أجل توطيد حكمهم، حيث أعدّوا سياسة دينية قائمة على دعم العلماء وحثِّهم على إحياء أمجاد العثمانيين في الجهاد لاستغلاله في الدعاية لصالح سياسة الباشوات، وتأكيد الشّرعية الدّائمة للعثمانيين على الجزائر المحمية[2].

أضف إلى هذه الأسباب في ازدهار الأدب والشعر ما كان للباي محمد الكبير من حبّ وميل لهذا الفن، وما كان للشعر من أثر في نصرة العثمانيين وفي تثبيت حكمهم القائم على مهمّتي الترهيب والترغيب، لذلك فتح هذا الباي بلاطه للأدباء والشعراء فعجَّت قصوره بهم، فتنافسوا وألقوا مدائحهم أمامه، ممّا جعل هذا الباي يقوم بدوره في إغداق الأموال والعطايا بدليل ما قاله أبو راس الناصر: "...ومع هذا كان مقصد الوفود ومطلع الجود وقبلة الأمال، ومحط الرحال في أهل الفضل والأفضال، ومأوى الشعراء والأدباء وملازم العلماء والخطباء..."[3].

هذا ولقد ارتأينا الاهتمام بغرض المدح في الشعر الذي قيل بمناسبة فتح وهران وفي فاتحها الباي محمد الكبير وذلك لما له من أهميّة قصوى، ولكونه يسجِّل أحداثًا تاريخية وسياسية واقتصادية وفكرية ونفسية للعثمانيين وللشعراء والعلماء الذين عايشوهم ووقفوا إما معهم أو عليهم. هذا فضلاً على أنّ هذا الغرض هو من أبرز الفنون الشعرية إذ ارتبط بالتطورات التي عرفها العرب عبر العصور، فرافق الشعر منذ بدايته إلى اليوم، ولم يغب لحظة عن مسرحه.

---

[1]: سيأتي الحديث عنها في الفصل الخامس من هذه الدراسة.

[2]: عبد القادر صحراوي: التصوف والمتصوفة في الجزائر العثمانية ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة جيلالي اليابس– سيدي بلعباس، 2008– 2009، ص: 197.

[3]: بوركبة محمد: عجائب الأسفار.... "المرجع السابق"، ص: 445.

أولا: أثر العلماء في الحفاظ على وحدة إيالة الجزائر أمام الخطر الإسباني:

ممّا لاشكّ فيه أنّ بقاء الحكم العثماني في وهران- بصفة خاصة- كان مرهونًا في غالبه بوحدة كلمة سكّانها وائتلافهم فيما بينهم، وتراصّ صفوفهم، وبُعدهم عن الخلاف والتّشرذم والتّنازع والتشتّت، فأيّ خلل في ذلك يعرِّض مدينتهم للتهديد الخارجي المتمثّل بالقوى الإسبانية المحاصرة لهم من جهة، والجماعات والقبائل المحليّة النصرانية – بنو عامر- القاطنة معهم في الداخل من جهة أخرى[1]. وقد وعى العلماء المخلصون هذه المعادلة فتشبثّوا بالوحدة واستماتوا في الحفاظ عليها، وسلكوا شتّى الطرق المفضية لإرساء أركانها وتثبيت أسسها.

ولقد ظهر أثرهم في هذا المجال بشكل جليّ زمن الباي مصطفى بوشلاغم الذي في كنفه عاشت وهران فترة من الزمن- أي بعد أن بقيت تحت يد المسلمين حوالي أربعة وعشرين سنة من سنة 1708م إلى غاية 1732م- مشمولة بوحدة ربطتها سياسيًا وعسكريًا بحواضر وأقطار الإيالة عامة، وفي سبيل وحدة البلاد في مواجهة الإسبان وضع العلماء أيديهم بأيدي الحكّام العثمانيين فالتفّوا حولهم وناصروهم في سيطرتهم على البلاد، وارتبطوا بخدمتهم، وأعطوا النصيحة لهم وأثنوا عليهم خيرا في مجالسهم وكتاباتهم وزكّوا نهجهم في الحكم، وكانوا يعتقدون جازمين أنّ الله قيّضهم لكبد العدو النصراني، وتوهين كيده، واستنقاذ المسلمين في وهران من عدوانه[2].

وعلى صعيد آخر فما كتبه عبد القادر المشرفي يمكن أن يدخل في إطار وقوف العلماء في صفّ العثمانيين من أجل توحيد أجزاء البلاد عامّة، هذا الأخير الذي ندَّد بالقبائل التي تعاونت مع الإسبان أثناء احتلالهم لوهران، وكان على رأس العلماء الذين تبنّوا – بحرارة- دعوة العثمانيين لاستنقاذ وهران من براثن النصارى، ثمّ بعد ذلك أفتى للحكّام

---

[1]: تعود جذور اتّصال الإسبان مع السكّان المحليّين إلى أعقاب احتلال الإسبان للمرسى الكبير سنة 1505م عندما فتحوا سوقًا تجارية بجوار المدينة المحتلّة، وإلى نوايا الملك الإسباني فيليب الثاني. للمزيد حول هذا الموضوع راجع: أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1962، ص-ص: 101-102، وأيضا:

Jean Cazenave : « Les gouverneurs d'Oran pendant l'occupation espagnole de cette ville (1509-1792) », R.A, N :71,1930, p : 291.

Jean Cazenave : « Cervantes à Oran 1581 », B.S.G.O, 1923, p-p : 216-217.

[2]: عبد الله بن إبراهيم بن يوسف الزهراني: الشعر وحروب الخلافة العثمانية... "المرجع السابق"، ص: 375.

بجواز خلع مَنْ تخاذل عن الجهاد أو من ثبُتَ تورّطه في مداخلة النصارى الإسبان، كما أفتى بقتالهم إن امتنعوا، وكان دافعه إلى ذلك كلّه تشوّفه إلى اتّحاد كلمة المسلمين في وهران، ومن ثمّ القيام بواجب الجهاد ضدّ الأعداء[1].

ومن بين ما ترتّب عن الوجود الإسباني فترة أطول في المرسى الكبير ووهران اتّجاه بعض القبائل إلى التعاون مع الإسبان، وقد جعلهم موقفهم هذا يشكّلون فئة من المجتمع الجزائري التي نزعت إلى سلوك كان قد ساهم من دون شكّ في تعزيز وجودهم في المنطقة[2]، حيث أصبح يُطلق عليهم اسم "العرب المتنصرة"[3]، كما أُطلق عليهم نعت آخر أكثر شهرة وهم "المغطسون"[4]. وحسب ما جاء في كتاب "بهجة الناظر" أنّ المغطسين في الأصل هم أفراد قبيلة كرشتل الذين كانوا يُقدِّمون الأخبار إلى الإسبان في وهران أو يبيعون إليهم أشخاصًا، وأصبح هذا النّعت يطلق على غيرهم من الناس الذين عملوا مثلهم بدليل ما ذكره: "وكيفية التغطيس أنّهم يأتون بدوابهم للدواوير على صفة الحضر المتجولين، البائعين للعطرية ومعهم مناطقة من الجلود الفلالية، فإذا وجدوا خبرا جلبوه للنصارى، وإذا رأوا فرصة في الصغير أو الكبير أخذوه وجعلوا الجلود على فيه كي لا يتكلم وحملوه على دوابهم، ومشوا به ليلا لوهران فيبيعونه للإسبانيين وينتفعون بثمنه وهذا دأبهم"[5].

لقد كانت تلك القبائل تركن إلى النصارى الإسبان بوهران وضواحيها، وتُسدي لهم المعونة بسبب ضعف الإيمان و"الطمع في غرضهم الفاني..."[6]، في حين أنّها تثاقلت عن نُصرة إخوانهم المسلمين، وبسبب ذلك بلغت أحوال المدينة تحت مظلّة الحماية النصرانية

---

[1]: حنيفي هلايلي: عملاء وجواسيس الإسبان... "المرجع السابق"، ص: 146.

[2]: Pedro de Madrid : « Rapports officiels espagnols sue le prise de Mers- el- Kebir en 1505. traduction de Berbrugger », R.A, N :13, 1869, p-p : 104-105.

وللمزيد عن موضوع احتلال وهران والمرسى الكبير راجع:

A.Pestemal Djoglou : « Mers- el- Kebir historique et description de la forteresse », R.A, N : 84, 1940, p-p : 160-163.

وأيضا: محمد العربي الزبيري: مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث، الجزائر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1985، ص-ص:15-16.

[3]: عبد القادر المشرفي: بهجة الناظر... "المصدر السابق"، ص:12.

[4]: من هذا أخذ الإسبان كلمة Mogatazes التي تدلّ على قبيلة كرشتل، "المصدر نفسه"، ص: 13.

[5]: "المصدر نفسه"، ص- ص: 13- 14.

[6]: "المصدر نفسه"، ص: 12.

غاية في السّوء صوَّرها عبد القادر المشرفي بدقّة فقال: "لمّا استقلّ قدم الإسبانيين بوهران انحاز إليهم طوائف من الأعراب فصاروا خدمة لهم، ومن جملة جيشهم وكثر بهم السواد على المسلمين فكانوا لهم عليهم أعوانا، وفي الدين الفاسد لهم إخوانا، فشنّوا بهم الغارات، وانتفعوا بهم فيما يحتاجونه من الدواب والأقوات"[1].

ومن المؤكّد أنّ سكان وهران تبرّموا أقصى التبرّم بحكم تلك القبائل المتحالفة مع الإسبان، إذ تولّت عليهم بمعونة النصارى وجعلت أمن المدينة بأيدي النصارى أيضًا وأُرهقوا بالضرائب، ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ بل قاموا بتدابير وأعمال أُنتهك فيها الحرمات بشكل سافر صوّرها المشرفي بقوله: "كانوا أهل بأس شديد ولهم قوة وبطش وفتك بالمسلمين، قد نزع الله رحمته من قلوبهم عليهم... وكم لهم من غارة على المسلمين وسبي لهم وفتك بالمؤمنين"[2]. إذن فلا عجب أن يسعى العلماء للخلاص ممّا أُبتلي به أبناء جلدتهم متى وجدوا نهزة أو سنحت لهم فرصة، باعتبارهم دعاة إصلاح وجهاد في نفس الوقت بُغية توحيد أجزاء الإيالة.

ولِكَون وهران- كما مرّ ذكره- ثغر من ثغور المسلمين ويعيش بين جوانحها أعداد عظيمة من النصارى الإسبان، وبمعنى أنّها تُواجه أعداءها وخصوم عقيدتها كلّ حين، فإنّ العلماء ظلّوا يتمسّكون بما يرونه مذهبًا لأهل السنّة والجماعة في المجال الفقهي والعقائدي، فوقفوا بالمرصاد لكلّ من يُعارض ذلك سدًّا لأبواب الخلاف وما قد يجرّه من فتن ووقاية للوحدة الإسلامية في هذا الثغر القصيّ من أيّ تصدّع أو إنفلات قد يؤدّي – حسب تعبير عبد القادر المشرفي- إلى اجتثاث شجرة الإسلام منه. وفي معرض تحذيره من تلك القبائل وصف المشرفي بعضها بقوله:"...لا يتّقون في الإسلام تقية، فكم لهم من تطلّع على عورات الإسلام... وليس لهم غيرة على الإسلام، ولا لهم محبّة إلاّ في عبادة الأوثان والأصنام"[3]. ثمّ أضاف قائلا: "صاروا شجى في حلق الدين باحتكام، وقذى في عيون الإسلام وحلاوة في قلوب الكفرة اللئام...،وكان لهم فتك عظيم في الإسلام إذا ظفروا بأهله"[4].

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص: 12.

[2]: عبد القادر المشرفي: بهجة الناظر... "المصدر السابق"، ص: 29.

[3]: "المصدر نفسه"، ص-ص: 29-30.

[4]: "المصدر نفسه"، ص-ص: 26-28.

وانطلاقا من هذا المبدأ فإنّه حالما تعاونت هذه الفرق الثّمانية الضالّة- وهم كرشتل وشافع وحميان وغمرة وقيزة، وأولاد عبد الله وأولاد علي والونازرة[1]- مع الإسبان، أَصْدر عبد القادر المشرفي شيخ الجماعة بالراشدية فتوى بإباحة دمّها باعتبارها مشوشّة لعقائد الناس، ومُشتِّتة لكلمة الجماعة جاء في نصِّها: "والحكم في هذه الفرقة إباحة مالها ودم رجالها والبالغين من ذراريها لمن ظهر بهم من المسلمين لكونها ردءا، وأمّا صغار الأولاد فلا يقتلون ولا يكونون فيئا للمسلمين... وفرقة منهم لجأت للمسلمين وصارت تقاتل معهم العدو، غير أنّها في الخفية تُعلم العدو بأحوال المسلمين، وتأمره بالثبات وتواعده بالرجوع عنده إذا وجدت السبيل، والحكم فيها أنّها فرقة الزنادقة يُقتل كلّ من اطلع عليه منها وإلاّ فأمره إلى الله سبحانه وتعالى"[2].

وهكذا نرى اتّخاذ عبد القادر المشرفي منذ البداية موقفًا صارمًا من القبائل المتنصّرة بوهران، والتي اعتدت على السكّان وأرهقتهم بالضرائب، فكان هذا سببًا في خوفه من تنامي الفوضى والاضطراب وامتدادها إلى مدن أخرى فينفرط عقد وحدة الإيالة، ثمّ توّج ذلك كلّه بمساعيه الحميدة في إعطاء العفو للقبائل التّائبة حقنًا لدماء المسلمين وتأليفًا لجماعتهم، وإعادةً لجوّ الانسجام بين السلطة والسكّان بقوله: "وفرقة منهم تابت لله تعالى، وأنابت من موالاة العدو ومواصلاته، وتركت الإعانة له ظاهرا وباطنا وندمت على ما صدر منها سابقا، والحكم فيها أنّها واحدة من جماعة المسلمين إن لم يتقدّم منها ما يبيح الدم"[3]. ومن خلال ما سبق نستنتج أنّ بعض العلماء قد قاموا برصد ما شهدوه أو سمعوه من اعتداءات نصرانية على مدن إيالة الجزائر، ثم المبادرة بتبليغه لأولي الأمر لكي يقوموا بمسؤوليتهم في حماية المسلمين، وكذلك في رفع علم الجهاد في وجوه النصارى الإسبان المعتدين، ومن ذلك أنّ الإسبان لما عاثوا في وهران مفسدين، رصد هذا كلّه عبد القادر المشرفي في كتابه "بهجة الناظر" رصدًا دقيقًا يُخبِر فيه ما جرى للحاضرة وليس هذا فحسب، بل ويستصرخ الحكّام

---

[1]: للمزيد من المعلومات عن تلك القبائل راجع: عبد القادر فكاير: آثار الاحتلال الإسباني..."المرجع السابق"، ص-ص: 208-211. وأيضا:

Fernand Braudel : « Les espagnoles et l'Afrique du nord », R.A, N : 69, 1928, p-p : 193-213. Et p-p : 216-217.

أيضا: Montanes : « Mers el-Kebir », R.A, N :09 , 1865, p :351.

[2]: عبد القادر المشرفي: بهجة الناظر... "المصدر السابق"، ص: 39.

[3]: "المصدر نفسه"، ص: 39.

من أجل وضع حدّ لهذا العبث النصراني وفتح المدينة، ومن ثمّ نظمها في سلك الوحدة العثمانية.

وعلى أيّ حال فهذه الشذرات المتفرّقة والمجهودات المتناثرة ذات صلة وطيدة بدور العلماء في الحفاظ على وحدة الإيالة أمام الخطر الإسباني، وتتّحد في كونها تُعبِّر بجلاء عن وقوف أولئك العلماء إلى جانب السلطة العثمانية واهتمامهم بالجهاد المضاد للقوى الإسبانية بوهران، ومعايشتهم لفصوله أوّلاً بأوّل.

ثانيا: نماذج من العلماء المقرّبين إلى السلطة ومؤلَّفاتهم الممجِّدة لجهاد العثمانيين:

لم يُكثر الشعراء في مختلف العصور في فنّ من الفنون، قدر ما أكثروا في المدح وتنافسوا فيه، ووقفوا عبقرياتهم على صناعته، حتى احتلّت قصائد المديح الصدارة، وامتلأت بذلك الدواوين الشعرية وأصبح النقّاد أنفسهم يضعون مصنّفات أخذت بأيدي الشعراء للضرب على الوتر الذي يهزّ كيان الممدوح فيرضى عن المادح، وحدّدوا لذلك قِيمًا يمكن حصرها في: العقل والعفّة، والعدل والشجاعة، وغدا المديح معها إكبارا للمروءة وتمجيدا للشجاعة وإعجابا بالفضيلة، وهي صفات جميلة كوّنت الدافع الطبيعي للمدح في مراحله الأولى عند الشعراء، فوقفوا عندها موقف الإعجاب، فقامت قصائدهم على الثناء المجرد إلى أن تطورت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، فتداخلت الغايات والمنافع، ولم يَعد الإعجاب الدّافع الوحيد وراء فنّ المدح بل أُضيف إليه الشّكر والاعتذار والاستعطاف والتّهديد والتّحريض... وبرزت هذه الدوافع أغراضا مواكبة للمدح، حتى أضحى معها المدح توطئة لها بعد أن كان مستقلاً بذاته[1].

واعتمادًا على هذه الأهميّة الشعرية لغرض المدح سنقف عند مدح الباي محمد الكبير، هذا الأخير الذي استطاع الاستحواذ على رأي النّخب الفكرية والمثقّفة لتحقيق أغراضه الخاصّة، وتطبيق سياسة إصلاحية دينية قائمة على إقحام العلماء في أمور الدولة واستغلال نفوذهم خدمة للسلطة، وهذا بُغية تعبئة كلّ وسائل الدّعاية للعثمانيين[2].

---

[1]: للمزيد حول هذا الموضوع راجع: أبو الفضل جمال الدين بن منظور: لسان العرب المحيط، تقديم: عبد الله العلايلي، إعداد وتصنيف: يوسف خياط ونديم مرعشلي، بيروت، دار لسان العرب، 1970، ج3، ص: 452. وأيضا: محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، دار مكتبة الحياة، مصر، ط1، 1306هـ، ج2، ص-ص: 220- 221.

[2]: Kamel Filali : Sainteté maraboutique…, Op.cit, p :121.

فلا عجب أن تكون حاضرة وهران في عهد العثمانيين خاصّة منهم الذين عُرِفوا بحبّ الشعر والأدب كالباي محمد الكبير، موئل مشاهير الشعراء والأدباء الذين حضروا إليها من كلّ مكان وتهافتوا على باياتها فأنشدوهم شعرهم ونالوا جوائزهم، وكانت لهم معهم أخبار وقصص دفعتهم في أحيان كثيرة إلى هجائهم والاعتذار إليهم واستعطافهم ومدحهم، وكانت مجالسهم لا تخلوا من منافسة الشعراء ومن نقد بعضهم لبعض، كما كانت تعجّ بعلماء وشعراء أمثال ابن سحنون الراشدي، ابن زرفة الدحاوي، أبو راس الناصري والحاج أحمد بن محمد بن هطال التلمساني.

1- ابن سحنون الراشدي:

1-1: التعريف بابن سحنون:

يعتبر الشيخ أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي من أبرز علماء معسكر خلال القرن 18م، فهو ينتمي إلى أسرة علمية اشتهر بالعلم والجهاد كثير من أفرادها[1] من بينهم والده الشيخ محمد بن علي بن سحنون الراشدي قاضي القضاة بمعسكر على عهد الباي محمد الكبير، وأستاذ أبي راس في الفروع الفقهية[2].

نشأ أحمد بن سحنون بمعسكر أين تلقّى هذا العالم الجليل على يد أبيه ثقافة فقهية وأدبية حيث حفظ القرآن الكريم في سنٍّ مبكّرًا، وأتبعه بفنون متنوّعة فقهية وأدبية، كما حفظ الأحكام والنّصوص المتداولة في ذلك العهد، وليلتحق بعدها بأحد زوايا منطقة غريس فدرس بها العلوم الشرعية كالحديث والتفسير والنقلية كالمنطق والعروض. كما تلقّى على يد علماءها ثقافة فقهية وأدبية دلّت على اطّلاعه الواسع للأدب والفقه والتاريخ الإسلامي بمختلف أطواره، ويتّضح ذلك من خلال الإجازات التي تحصّل عليها هناك[3].

---

[1]: حيث حضر عمّ صاحب الثغر الجماني الفتح الأول لوهران 1120هـ/ 1708م. للمزيد حول الموضوع راجع: ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1999، ص: 439.

[2]: للمزيد عن والده: محمد بن علي بن سحنون يرجى العودة إلى: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود...، ج1، ص: 286.- أبو راس الناصر: فتح الإله...، ص: 42.

[3]: مجموعة أساتذة: "الحياة الروحية في الإسلام: معسكر رجال وتاريخ"، في أعمال ملتقى الفكر الإسلامي الواحد والعشرين، ج1، معسكر، وزارة الشؤون الدينية خلال: 26 أوت- 01 سبتمبر 1987، ص: 36.

ومن الملاحظ أنّ ابن سحنون الراشدي قد مكث في زاوية غريس مدّة ثلاث سنوات، لِما تميّزت به تلك الزاوية بغلبة العلوم النقلية على العلوم العقلية[1]، لينتقل بعدها إلى معسكر فالتحق بالمدرسة المحمدية، وزاول دراسته المعمّقة بها على يد الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي الذي أجازه وعلى يد الشيخ الطاهر بن حوا والشيخ مصطفى بن عبد الله ابن زرفة الدحاوي، حيث وَجد أحمد بن سحنون في هذه المؤسسة- المدرسة المحمدية- وبجواره علماء كبار ساعدوه على تنمية مداركه وصقل موهبته، حيث درس بالمدرسة المحمدية سنتين تعلّم فيها صحيح البخاري وفقه اللغة إلى أن صار فقيها وعالما بارزا من علماء الراشدية[2].

وعلى العموم فلقد كان ابن سحنون من علماء وفقهاء وأدباء الوطن الغريسي الراشدي وأحد المؤرِّخين البارزين الذين كتبوا عن التطورات التي حدثت بأوربا آنذاك، والجدير بالذكر أنّه قد انفرد دون بقيّة المؤرّخين المسلمين المعاصرين له بذكره لقيام الثورة الفرنسية سنة 1789م[3]، وتبيينه لمغزاها وبُعدها الاجتماعي القائم على قلب أسس المجتمع الإقطاعي بل وحتى إدراكه لمبادئها الجديدة، حيث فهِم ابن سحنون مغزاها فهمًا صحيحًا وبذلك صار من علماء الراشدية المتميزين، ومن أدباءها المتمكِّنين إلى أن توفي بعد سنة 1211هـ/ 1796م[4].

1-2 علاقته بالباي محمد الكبير:

كان ابن سحنون من ملازمي بلاط الباي محمد الكبير، حيث تولّى وظيفة الكتابة لديه (1193-1211هـ/ 1779-1796م)، ومن هذا الجانب استطاع أن ينال إعجابه فعيّنه الباي مُدرِّسًا في المدرسة المحمدية التي بناها بحاضرة معسكر، كما كلَّفه أيضًا بتدريس ابنه الأكبر

---

[1]: قيل أنّ تلك الزاوية تُدعى بزاوية اللوزات، والتي كانت إحدى قلاع العلم والمعرفة بالوطن الغريسي الراشدي. للمزيد حول الموضوع ينظر: جلول جيلالي: معسكر رجال وتاريخ، الجزائر، منشورات دار الأديب، 2006، ص: 157.

[2]: "المرجع نفسه"، ص: 158.

[3]: غالم محمد: "الشيخ والثورة الفرنسية: نظرة عالم جزائري معاصر لثورة 1789"، وهران، مطبوعات مركز الأبحاث في الأنتروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، نوفمبر 1995، ص-ص: 03-06. وللاطّلاع على ما جاء به ابن سحنون من حديث عن الثورة الفرنسية أنظر: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص-ص: 224-225.

[4]: ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي... "المرجع السابق"، ص:440.

عثمان، والذي مدحه هذا الأخير في مواضع عدّة من كتابه: "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني"[1].

ويبدوا أنّ صلة هذه الأسرة بحكّام بايلك الغرب كانت قويّة بدليل وظيفة الوالد كقاضي بمعسكر، ومكانة الابن وصلته القوية بمحمد الكبير باي وهران والتي كانت سببًا في إقباله على التأليف والنسخ[2]. إذ كان الباي محمد الكبير يأمر بنسخ الكتب النادرة ويكافئ عليها، فمنح ابن سحنون مائة سلطاني (دينار ذهبا) بعد تلخيصه واختصاره لكتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني في نحو ثمانين كراسة، وخمسون دينار ذهبا على جمعه لكتاب "طب القاموس"[3].

وزيادة على هذا فلقد وُجِد لابن سحنون تآليف أدبية منها كتابه: "شرح العقيقة"، وهو شرح لقصيدة شعرية تضمّ ثلاث مائة وتسعة أبيات نظّمها الشاعر السعيد بن عبد الله المنداسي في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث عنون ابن سحنون شرحه بـــ: "الأزهار الشقيقة المتضوءة بعرف العقيقة"، تناول فيه موضوعات تتعلّق بالأدب والنقد والبلاغة، مع ذكره في ثنايا هذا التأليف لمآثر الباي محمد الكبير، حيث نال هذا العمل إعجاب عدد كبير من العلماء المعاصرين لابن سحنون كابن عمار والمختار أنكروف والمفتي ابن الشاهد[4]، وفي هذا المقام يقول ابن سحنون: "... وفي أيامه السعيدة شرحت العقيقة شرحا ضخما عجيبا، وفي مآثره الحميدة ألّفت هذا الموضوع..."[5].

وباعتبار ابن سحنون أحد أعضاء ديوان الباي محمد الكبير ومن المقرّبين إليه فلقد قام بتأليف كتاب "عقود المحاسن"، وهو كتاب في الأدب تطرّق فيه لمدح الباي محمد الكبير، لكن ما لوحظ هو أنّ ذلك التأليف لم يَصِل بين يدي الباي لأسباب غير واضحة[6] بدليل ما ذكره

1: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص، ص: 251، 427. -ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي...."المرجع السابق"، ص-ص: 439-441.

2: فوزية لزغم: البيوتات والأسر العلمية... "المرجع السابق"، ص: 282.

3: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 146.

4: غالم محمد: الشيخ والثورة الفرنسية.... "المرجع السابق"، ص: 02.

5: ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص: 146.

6: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي.... ج2، "المرجع السابق"، ص: 183.

4: ابن سحنون: الثغر الجماني..."المصدر السابق"، ص: .146

ابن سحنون: "...فلم تسمح الأيام بإيصاله إليه"[4]. غير أنّ شهرة ابن سحنون قد ارتبطت بتأليفه لكتاب "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني" الذي يذكر فيه تعليقًا مفاده أنّ كتابه هذا –الثغر الجماني– كان في البداية قصيدة أرجوزة[5] بدليل قوله: "هذا وإني قد خدمت حضرته الفخيمة وأعتابه الكريمة بقصيدة أرجوزة سهلة الألفاظ...أوشكت أن تطرب الميت، وإذا جليت معانيها كادت أن تنوب على السراج في البيت، ومن بديع سرّها أنّه لا حشو فيها أحتاج إلى الاعتذار عنه...."[6].

كما أورد ابن سحنون أنّه يقصد من وراء ذلك تخليد مآثر الرجل الفاتح وتدوين محامده ومفاخره، ليقف عليه آخر هذه الأمّة فيعلمون قدره وإحسانه، ويُترجمون عليه ويدعون له بدليل قوله: "...وبأنه تتميم للبيت ذكرت فيها محاسنه الجهادية وأيامه الجلادية وكيفية توصله إلى هذا الثغر الذي تقاعدت عنه الملوك...، وتدوين بعض محامده ومفاخره..."[1].

وعلى ما يبدوا أنّ الباي محمد الكبير أو أحد أعضاء الديوان قد طلب من ابن سحنون شرح الأرجوزة لبلوغ الغرض، فشرح مفرداتها ومضمونها مبيِّنًا مغزى كثير من مواضيعها الغامضة، وبذلك سُمِّي المؤلَّف الذي جمع بين النّظم والنثر بـــ: "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني"[2]. فها هو ابن سحنون في مواصلته لذكر أسباب ودواعي تأليفه لهذا الكتاب يقول: "ثم إني علمت أنّ لسان النظم حصور... والنثر أشدّ منه بيانا إذ به يصير الخبر عيانا، وبتذييل النظم به تزداد عبارته تبيانا، فعزمت على أن أشرح تلك القصيدة شرحا يبيّن ألفاظها ويجلى على منصة الظهور أغراضها... وقد سمّيت هذا الصوان المحتوى على لبابه، والمليح المشتمل بثيابه الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، ولما وقف عليه العلامة السيد اليبدري ابن حامد سمّاه الدرّ والعسجد في مناقب الباي محمد..."[3].

5: حمدادو بن عمر: "الجزائر الحديثة من خلال الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني لابن سحنون الراشدي"، مجلة الحضارة الإسلامية، العدد: 12، ربيع الثاني 1426ه/ جوان 2005، ص: 312.

6: ابن سحنون: الثغر الجماني..."المصدر السابق"، ص: 92.

[1]: "المصدر نفسه": ص–ص: 92–93.

[2]: بلبراوات بن عتو: الباي محمد الكبير... "المرجع السابق"، ص: 231.– يحيى بوعزيز: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1995، ص: 248.

[3] : ابن سحنون: الثغر الجماني...."المصدر السابق"، ص: 94.

كما يمكن تقسيم موضوعات ابن سحنون في كتابه الثغر الجماني إلى موضوعات رئيسية وأخرى ثانوية، فمن الموضوعات الرئيسية أنّه تناول الفتح الأول لوهران على يد بكداش باشا سنة 1119هـ/1708م، والفتح الثاني على يد الباي محمد الكبير سنة 1206هـ/1792م، ضف إلى ذلك تطرّقه إلى مجموعة من الموضوعات الثانوية التي شملت ذكر لبعض التراجم للعلماء والأولياء، كالشيخ الهواري وإبراهيم التازي وصلاح الدين الأيوبي، مع تنويهه بمسألة الرباط والفداء وحديثه عن البربر ونسبهم بل وحتى مواطنهم، شأنه في ذلك شأن أيّ عالم من علماء الراشدية خلال تلك الفترة[1].

ومقارنة بما سبق نستنتج أنّ طريقة ابن سحنون في كتابة التاريخ شبيهة بطريقة علماء معسكر الآخرين خلال القرن 18م، ونخصّ بالذكر كلّ من أبي راس الناصر صاحب كتاب "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار" وكتاب "الحلل السندسية في فتح وهران والجزيرة الأندلسية"، وابن زرفة الدحاوي صاحب "الرحلة القمرية في ذكر السيرة المحمدية" حيث سلك ابن سحنون نفس منهج معاصريه في الكتابة التي كانت تجمع بين الأدب والتاريخ، إذ يبدأ المؤرِّخ بكتابة قصيدة موضوعاتها تاريخية ثم ينتقل إلى شرح هذه الموضوعات شرحا تاريخيا وعلى منواله الخاص، وهو ما فعله ابن سحنون في كتابه هذا[2].

أمّا مفهومه للتاريخ فلا يخرج عن نطاق المفهوم التقليدي الذي يربط علم التاريخ بالحكمة والاعتبار، حيث أوصى ابن سحنون بنهج أسلوب الفرس بقوله: "...كانت الفرس تكتب سير ملوكها ويتدارسونها..."[3]. كما دعى إلى تدوين الأخبار لإذكاء الوعي الإسلامي بقوله: "...الغيرة على بلد المسلمين والإسلام أن تعمرها الأصنام، والحر يغار على حرمة الإسلام أشدّ ممّا يغار على العيال..."[4].

---

[1]: بوجلال قدور: العلم والعلماء في بايلك الغرب... "المرجع السابق"، ص: 173. -حمدادو بن عمر: الجزائر الحديثة من خلال الثغر الجماني... "المرجع السابق"، ص-ص: 313-316.

[2]: غالم محمد: الشيخ والثورة الفرنسية.... "المرجع السابق"، ص-ص: 02-03 . وللمزيد حول الموضوع راجع: المهدي البوعبدلي: "أضواء على تاريخ الجزائر في العهد التركي من خلال مخطوط الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني"، مجلة الأصالة، العدد: 08، ربيع الثاني- جمادى الأولى 1392هـ/ ماي- جوان 1972م، ص-ص: 273-292.

[3]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 140.

[4]: "المصدر نفسه"، ص: 202.

وعمومًا فإنّ موضوعات ابن سحنون قد التقت فيها ثلاثة أجناس تاريخية هي علم الأخبار والخاص بفتح وهران، وعلم النسب المتعلّق بالباي محمد الكبير، وعلم التراجم المرتبط بالعلماء والأولياء، فهو قد وظَّف هذه الأجناس لصياغة النص التاريخي، ولاعتقاده أنّ مصداقية التاريخ تحيل إلى الحكمة والحكمة لا تتحقّق إلاّ من خلال أعمال الأكابر والعظماء – النسب–، وبمباركة الأولياء والعلماء– التراجم–، وهي الرّسالة التي أراد ابن سحنون إيصالها حين خصّص لفتح وهران كتابه الموسوم بـــ: "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني"[1].

1-3 مدحه للباي محمد الكبير وأثر ذلك في إضفاء الشّرعية على حكمه:

إنّ الجود والعلم والشجاعة والدين والورع من الصفات السامية والقيم الرفيعة التي حرص جلّ الحكّام والسلاطين على مرّ العصور واختلاف الأقاليم أن يوصفوا بها وأن يأخذوا منها، فلهذا حثَّ الباي محمد الكبير مادحيه على وُجوب مدحه بها هو وابنه عثمان لقدرتها على الارتفاع بالممدوح وتمجيده وتخليد ذكره، ومن هنا فقد ركَّز ابن سحنون مدائحه للباي وابنه على هذه القيم وأَكثر من وصفهم بها، وهذا بُغية تحسين صورتهم لدى الرعيّة والرّفع من شعبيتهم لدى عامّة الناس وخاصّتهم.

1-3-1 المدح بالدين والورع:

من الموضوعات التي دارت حولها كتابات ابن سحنون الراشدي في مدحه للباي محمد الكبير هو إبراز هذا الأخير في صورة الحريص على إقامة شعائر الإسلام، ومعاقبة كلّ من تسوّل له نفسه تجاوز حدود الدين والإخلال بقواعده الثابتة ومبادئه السامية، ومن ذلك قوله: "... وظهرت به معالم الدين، ولاح منارة للمهتدين وأمسى بها العلم يقتضى مجالس ودروسا..."[2]. وقوله أيضا: "إنّما كان قصده ثبت الله عزمه تطهير مواطن حكمه وأركان إيالته من خبث الشرك وحسم عروق الكفر منها، حتى لا يجاوره دين غير دين نبيّه المختار صلى الله عليه وسلم آناء الليل وأطراف النهار"[3].

---

[1]: بوجلال قدور: العلم والعلماء... "المرجع السابق"، ص: 174.

[2]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 92.

[3]: "المصدر نفسه"، ص: 307.

وما نلاحظه هو تركيز ابن سحنون على مدح الباي بصفات الدين والورع وذلك إلحاحًا من الباي نفسه، باعتباره حاكمًا ومسؤولاً على إقامة شريعة الله في رعيّته وحياطة المجتمع وتحصينه، ومن هذا المنطلق سعى كاتبه ابن سحنون إلى الإعلاء من شأنه والتّأكيد على البعد الديني في شخصيته، ووصف انتصاراته التي تُعدّ نصرًا للإسلام ونشرًا لتعاليمه ومثله الرفيعة.

كما أشار ابن سحنون إلى أنّ الباي قد قام بواجبه في نصرة الدين ومعاقبة المتجاوزين لأوامره ونواهيه، فكان ذلك سببًا في التفاف النّاس حوله ومبايعتهم له حيث يقول: "ودبر الأمور أحسن تدبير، وساس الرعية بما أحبّه به الصغير والكبير، والرعية حامدة لسيرته، وأشعّة الإحسان تلمع من أسارير سريرته..."[1].

1-3-2 المدح بالنجدة والإغاثة:

من المعلوم أنّ النجدة والإغاثة من مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات التي تعلّقت بها همم الرجال ودعت إليها مروءة الأبطال، فأصبحت هذه القيمة قادرة لوحدها أن ترفع بالمتّصف بها إلى أعلى درجات الشّرف والمجد في حياته وأن تُخلِّد ذكره بعد موته، ومن هذا المنطلق قام ابن سحنون بوصف الباي ومدحه بالنجدة والإغاثة لعلمه بموقع هذه الصّفة في نفس الباي وقدرتها على استدرار كرمه وعطفه، خصوصًا وأنّه قد فتح مدينة وهران وخلّصها من أيدي الكفرة الإسبان.

ومن ذلك قول ابن سحنون مادحًا الباي بالإغاثة في سنوات الجفاف: "...وقد كان له في سنى القحط والمسبغة من الإحسان ما لا يشق أحد فيه غباره، وبلغ السعر مبلغا لم يسمع به أحد من الناس، فإنّه أعان الخلائق بالسلف العام والتصدّق والإطعام"[2]، ويواصل مدحه للباي بقدرته على الإغاثة وتأمين الخائف، ونجدة المستغيث بقوله: "قد نقى إيالته من المخاوف وأذهب من غياضها وغياباتها وشعابها موجبات المتالف، حتى صارت مستراحا للقوافل والسفار... فإذا بلغوها اطمأنّوا وأمنوا وقرروا وسكنوا..."[3]

ويستمرّ ابن سحنون في ذكر مناقبه، ومآثره في النجدة والإغاثة بقوله:

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص: 126.

[2]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص-ص: 135-136.

[3]: "المصدر نفسه"، ص: 136.

مُلِئَتْ بِلاَدُ الْغَرْبِ أَمْنًا عِنْدَمَا أَمْسَى بِهَا وَهُوَ الرَئِيسُ المَالِكُ
مَا بَعْدَ خَوْفٍ عَمَّ فِي أَقْطَارِهَا وَتَوَعَّرَتْ سُبُلٌ بِهِ وَمَسَالِكُ[1]

وأوّل ما نلاحظه في هذه الأبيات هو أنّ ابن سحنون قد بالغ في وصف الباي محمد الكبير، حيث أفرط في تنميق شِعره بألوان البديع، ولعلّ للأوضاع السياسية التي ميّزت عصره وإقامته في بلاط هذا الباي دورًا حاسمًا في استخدامه لهذه الأساليب البديعية والميل إلى الزخرفة اللفظية، لما يتطلّبه المقام من حذر في مُخاطبة الباي خوف غضبه وخشية بطشه، ورغبة التقرّب منه ونيل الحظوة عنده.

1-3-3 المدح بالحِلم:

من القيم والصِّفات والخصال التي تعلي من قدر الإنسان وترفع مكانته بين الناس صفة الحِلم أو العفو عند المقدرة، وقد تحلّى بها العرب منذ جاهليتهم الأولى واتّخذوها سُلَّمًا للمجد في حياتهم، ووسيلة للذكر الحسن بعد موتهم وضربوا في ذلك أروع الأمثلة. ولهذا حرص الباي محمد الكبير على أن يُوصف بها حيث أمر كاتبه ابن سحنون على توظيف الحِلم في مدائحه استجابةً لرغبته من جهة، واستدرارًا لعطفه وطلبًا لعفوه من جهة أخرى، فكانت أحسن وسيلة لابن سحنون لاستعادة ثقة الباي به ورضاه عنه[2].

فابن سحنون يمجّد فيه صفة الصّفح والسّماح، ويشير إلى أنّ الباي كان أكثر الحكّام ليناً وسهولة مع رعيّته، فمن أخلاقه العظيمة كثرة عفوه عن المذنبين وتجاوزه عن إساءة المسيئين بدليل ما ذكره: "وأمّا حلمه فأمر شهير لا يحتاج في إثباته إلى سفير، وقد جرب من خلقه أنّه ما عاقب أحدا في حق أو غيره إلاّ صار بعد ذلك يحنو عليه ويحسن إليه، وأنّه متى استعتبه أحد أعتبه..."[3].

1-3-4 المدح بالعدل:

لقد شكّل المدح بالعدل نقطة مركزية وعلامة مضيئة في كتاب الثغر الجماني لِما له من أهميّة في تحسين صورة الباي لدى الرعيّة والرّفع من شعبيته، خصوصًا وأنّ للباي محمد بن عثمان الكبير مسؤوليات يمارسها في تسيير شؤون رعيته. ومن ذلك قول ابن

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص: 160.

[2]: ابن سحنون: الثغر الجماني..."المصدر السابق"، ص: 193.

[3]: "المصدر نفسه"، ص: 141.

سحنون مادحًا الباي بالعدل ومهنِّئًا إيّاه بإقبال الرعيّة عليه بعد فتحه وهران وانضوائها تحت لوائه: "هذا الأمير الذي من صفاته... أنّه أذاع في إيالته العدل في غالب أحكامه والأمان في سائر أقطاره...، أبو عثمان السيد محمد بن عثمان"[1].

كما يمدحه بأنّه إمام عادل وحاكم مقسط، لا جور في حكمه ولا استبداد بقوله: "كل هذا وهو يسوس الرعية أحسن سياسة ويدبّر أمرها أحسن تدبير، ويحوط حرمها من الانتهاك، فما تشتّت لها شمل إلاّ جمعه ولا ظهر عليها عاد إلاّ قمعه، ولا مدّت له يد إلاّ شلّها..."[2] إلى أن يقول: "...ويكفيك أنّه مدبر لرعيته العريضة دون وزير ولا مشير، وما أخطأ قط في تدبير، وله في الفحص عن أحوال الرعية واستقصاء أخبارها أمر خارج عن العادة"[3].

1-3-5 المدح بالكرم:

لقد استطاع ابن سحنون أن يرسم صورة مشرقة للباي محمد الكبير من خلال وصفه بالكرم والجود، حيث يقول أنّه قد بلغ الغاية في ذلك وأصبح قبلة للناس ومقصدًا لكلّ ذي حاجة، فهو لا يردّ قاصده خائبًا سواءًا كان فقيرًا أو غنيًّا فجوده وكرمه أصبح مضربًا للأمثال[4]، وأشار إلى ذلك بقوله: "مفيض أودية الجود الذي انقطع من هؤلاء الأواخر لا زال على ما هو عليه من صفات الكرم...يمنح سائله كلّ شيء نفيس، ويفتح بسيف نصره كلّما انغلقت أبوابه على غيره وصعب عليه حتى استغاث به فيه، فكشف عنه همّه وأزال منه كلّ غمّه"[5].

ويقول كذلك من قصيدة على روي الميم، مادحًا الباي محمد الكبير بالكرم والجود:

عَسَى اللَّيْثُ عُثْمَانَ يَعْذِرُنِي وَيَجْرِي عَلَى خُطَّةِ الكَرَمِ

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص- ص: 121- 122.

[2]: "المصدر نفسه"، ص: 135.

[3]: "المصدر نفسه"، ص: 140.

[4]: كذلك أشار ابن سحنون على أنّ الباي قد أعان كل من أراد الذهاب للحج من ماله الخاص، بالإضافة إلى مساعداته لفقراء الحرمين الشريفين وأهل السقاية بمكة، وخدمة الروضة الشريفة بطيبة. راجع: ابن سحنون: الثغر الجماني: ص- ص: 142-144.

[5]: ابن سحنون: الثغر الجماني، ص: 122.

وَفِي جُودِهِ العِزُّ مَا يُكْتَفَى بِهِ المُمْحِلُونَ عَنِ الْدِيمِ[1]

1-3-6 المدح بالشجاعة:

لقد أشار ابن سحنون في أكثر من مرّة إلى موضوع الشّجاعة التي تَحلَّى بها الباي محمد الكبير، حيث تحدّث عن إقدام وجرأة هذا الباي في خوض غمار الحرب والتَّصدي للأعداء، ومن ذلك قوله: "وأمّا شجاعته فإنّها أمر تذل به الأسود وترغم به معاطيس الحسود، وغزواته كلها الجبان يلازم الكن ويطلب مواضيع الأمن... وجاهد في الله حق جهاده، حتى بهر من حضر فلم يقدم إلا بطل جسور وأسد هصور، وكان فيه لهذا الهمام البلاء المحمود والمقام المشهود، وكم له من يوم سواه أحسن فيه الأثر..."[2].

كما جمع ابن سحنون في قصيدة على روي الكاف طائفة كبيرة من صفات الشجاعة والبأس والإقدام تحلّى بها ممدوحه الباي محمد الكبير، فشجاعة ممدوحه وهيبته كشجاعة الأسد وهيبته إذا رفع صوته بالزئير، وممّا جاء فيها:

مَلِكٌ يَهَابُ اللَّيْثُ شِدَّةَ بَأْسِهِ وَيَخَافُ سَطْوَتَهُ الشُّجَاعُ الفَاتِكُ
أَسَدٌ يَصُولُ عَلَى الأُسُودِ وَمُرْهَفٌ قَلْبُ المُرِيبِ لِبَأْسِهِ يَتَهَالَكُ[3]

وعلى مستوى آخر فإنّ ابن سحنون لم يقتصر على ما مضى، بل راح يبثّ الدعاية للعثمانيين في أوساط المجتمع الجزائري، وذلك بالثّناء عليهم وتزكية حُكمهم أو إطراء بعض زعمائهم، فأشار إلى أنّ العثمانيين قاموا بدعوة الحق ونصرة الدين، وحماية المسلمين والجهاد في سبيل رفع راية الإسلام، ومن ذلك يقول: "وبنو عثمان المراد بهم هؤلاء القوم المتملكين هذه البلاد الذين لهم الطاعة والبيعة وبهم الخطبة والسكة، وفيهم الخلافة ومنهم الأمراء..."[4].

كما امتدح أيضا الداي محمد بكداش فقال: "...وباكداش هو الإمام العلامة الناظم الناثر مقيم رسم الجهاد الداثر الملك العظيم، المستوجب غاية الإجلال والتعظيم..."[5]، ثم أثنى على

---

[1]: ابن سحنون: الثغر الجماني..."المصدر السابق"، ص: 120.

[2]: "المصدر نفسه"، ص-ص: 139-140.

[3]: "المصدر نفسه"، ص: 160.

[4]: "المصدر نفسه"، ص: 211. وأيضا في الصفحات التالية: 298، 441، 405، يدافع عن العثمانيين.

[5]: "المصدر نفسه"، ص: 109.

على الباي مصطفى بوشلاغم فقال: "... فضائله الشهيرة ومفاخره الأثيرة، ومزاياه الكثيرة ومحاسنه التي أخفت شمس الظهيرة"[1]. ويستمرّ ابن سحنون في تمجيد هذه الخصال عند العثمانيين ويَسمو بهم إلى الدرجات العلى قائلاً في ابن الباي عثمان: "ولده المنتخب للمهمات، المرجى عند الأزمات، السيد عثمان لا زال في أكنة الصون والأمان فقام بواجب حقه أتم القيام"[2].

ولقد أثنى ابن سحنون على الباي محمد الكبير خيرا فأشاد بجهاده للأعداء، وقد تضمّن هذا الثناء تزكية للسلطة العثمانية، ودعاءا بالجزاء الأوفى لحكّامها حيث قال: "أدام الله الإمرة في أعقابه على مرور الدهر واتصال أحقاب، وستدوم هذه البلاد بدوام سعده للإسلام..."[3]، ويواصل في الدعاء له إلى أن يقول: "أسأل الله تعالى أن يحبوه إليه من عطاياه نفائسها النافعة دنيا وأخرى، ويخصه بطول الأجل ودوام الحياة زمانا زائدا على المعتاد"[4].

2- ابن زرفة الدحاوي:

2-1 التعريف بابن زرفة الدحاوي:

يُعتبر الشيخ محمد مصطفى بن عبد الله بن زرفة الدحاوي أحد علماء وشرفاء غريس خلال القرن 18م، فهو ينتمي إلى أسرة علمية أشتهر بالعلم كثير من أفرادها من بينهم عبد الرحمن بن علي المعروف بدحو بن زرفة[5] من كبار علماء الراشدية في عصره، وأستاذ عبد الرحمن التوجيني في الفروع الفقهية. أمّا نسبه الكامل "فهو أبو عبد الله محمد المصطفى بن عبد الله بن زرفة بن عبد الرحمن بن علي بن عثمان بن عيسى بن عثمان بن عيسى بن عقيل بن أحمد بن محمد بن أحمد، من أبناء ابن راشد بن يحي بن علي بن حمود بن ميمون

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص: 111.

[2]: "المصدر نفسه"، ص: 251. وللمزيد ينظر نفس المصدر، ص: 427.

[3]: "المصدر نفسه"، ص: 193. وأيضا يدعو له في: ص: 150، 358.

[4]: "المصدر نفسه"، ص-ص: 403-404.

[5]: عبد الرحمن بن علي المعروف بدحو بن زرفة: أحد علماء وأشراف غريس، تصدّى للتّدريس بمعسكر، من تلاميذه: عبد عبد الرحمن بن عبد الله التوجيني مؤلّف عقد الجمان النفيس، أمّا وفاته فكانت سنة 1065هـ/ 1654م. راجع ترجمته =في: أبي زيد عبد الرحمن بن عبد الله التوجيني: عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس، الجزائر، دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع، ط1، 2005، ص: 15.

بن علي بن عبد الله بن عمر بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن بن الحسن"[1].

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ انتسابهم للأشراف يأتي وِفقًا لما ذكره صاحب كتاب "القول الأعم" بقوله: "فمن أعيان الأشراف الذين لاشكّ في شرفهم ولا خلاف أولاد سيدي دحو أبي زرفة، وهذه القبيلة من أصح القبائل نسبا، وأوضحها حسبا وأشدها بأسا وأعظمها في القديم جاها، وأكثرها تعاطيا لله للعلوم، وأولاها بتحقيق المنطوق والمفهوم"[2]. كما يضيف أنّ بيت ابن زرفة من البيوتات العلمية الشهيرة التي حازت على الرياسة خلال العهد العثماني، وفي دولة الأمير عبد القادر: "في بيت السيد الحاج محمد وفي بيت السيد الحاج المكي ابن عبد الله وفي بيت سيدي عبد الرحمن بن حسن، وغيرهم من أبناء عمهم تبع لهم، وهؤلاء الثلاثة هم كانوا بين أبناء عمهم وملوك الأتراك يرفعون حوائجهم ويتكلمون في مصالحهم"[3].

ويبدوا أنّ معاصريه أو على الأقلّ المقرّبين منه كانوا يُقدِّرون مكانته العلمية، حيث عرّفه شيخه أبو راس بقوله: "كبير العلماء العاملين والجهابذة الفاضلين الذي لا يتحرّك إلاّ بقلب حاضر...، العالم الأصفى والتقي الأضفى تلميذنا الشيخ مصطفى بن عبد الله بن دحو... كاتب بارع، ناظم ناثر، ذو المعاني والإعراب والفنون والآداب مع الحسب الأصيل"[4]. ووصفه المزاري بـــ: "العالم الجليل العدل الماجد البارع الفارد، الكاتب الفاخر الناظم الناثر... الجامع بين الحسب والنسب، الأصيل الشريف السيد بن عبد الله بن دحو"[5].

وزيادة على هذا فلقد كان ابن زرفة الدحاوي كاتبًا للباي محمد الكبير، ومُدرِّسا بمدرسة المحمدية، ومساعدًا لرئيس رباط إيفري الذي كان مخصَّصًا لمرابطة العلماء والفقهاء بوهران خلال الحصار الثاني عليها سنة 1206هـــ/1791م. حيث شارك بنفسه في الهجوم الشامل عليها إلى غاية تحريرها نهائيا سنة 1792م، ليكلِّفه الباي بتسجيل حوادث

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص-ص: 15-16.

[2]: الطيب بن المختار الغريسي: القول الأعم....، "المصدر السابق"، ص-ص: 329-330.

[3]: "المصدر نفسه"، ص-ص:329-330. للمزيد راجع: أبو حامد المشرفي: ياقوتة النسب..."المصدر السابق"، ص-ص-ص: 24-25.

[4]: أبو راس الناصر: فتح الإله.. "المصدر السابق"، ص: 72.

[5]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود ... ج1، "المصدر السابق"، ص: 294.

الفتح كلها، وتسجيل الأرزاق والمؤن التي كانت تُقدَّم أثناء عملية الفتح لطلبة وعلماء الرباط، فدوّنها ابن زرفة في كتاب سمَّاه "الرحلة القمرية في السيرة المحمدية"[1].

وعلى ما يبدوا أنّ تلك الرحلة قد احتوت على جزئين لا يزال الجزء الثاني منها مفقودا رغم أهميّته في ذكر أحداث الشهور المتبقّية من عملية الفتح، أي من شهر رجب 1205هـ- 1791م إلى محرم 1206هـ-1792م، وعلى العموم فلقد قسَّم ابن زرفة الجزء الأول من رحلته إلى مقدمة وخاتمة وأربعة فصول بدليل قوله: "وجعلت أمام المقصود مقدمة تشتمل على أربعة فصول وخاتمة، الأول في الترغيب في الجهاد والترهيب لمن تغافل عنه من العباد... الثاني في السبب الذي نبض منه عرق الحزم والمثير لهذا العزم ... الثالث نبذة في مدح هذا السيد الذي أكرمه الله تعالى بهذا الفتح الكريم... الرابع في التعريف بوهران وذكر ما حضرني فيمن غزاها في الجاهلية والإسلام، الخاتمة في الترغيب في سكنى وهران وفضل الرباط بها كسائر الثغور على ممر الزمان، وسمّيتها بالرحلة القمرية في السيرة المحمدية وها أنا أشرع في المقصود..."[2].

وبناءًا على ما سبق نستنتج أنّ ابن زرفة قد دوَّن، الجزء الأول من الرحلة في مقدمة وخاتمة وأربعة فصول لها عناوين كالآتي:

- مقدمة .
- الفصل الأول: في الترغيب في الجهاد والترهيب لمن تغافل عنه من العباد، ثم ذكر نبذة مختصرة من فضائله ونشر بعض رتب الشهيد.
- الفصل الثاني: في سبب غزو وهران من طرف الباي محمد الكبير، مع ذكر نبذة من المرائي المبشّرة بالفتح.
- الفصل الثالث: في نبذة من مدح الباي محمد الكبير والإشادة بمآثره الحربية.
- الفصل الرابع: في التعريف بوهران وتاريخ غزو الإسبان لها، ومحاولات الأتراك لتحريرها، ثم الفتح الأول لها.

---

[1]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية... "المصدر السابق"، ص: 159. -ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص-ص: 146-147.

[2]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية... "المصدر السابق"، ص-ص: 156-159.

- الخاتمة: في الترغيب في سكنى وتعمير وهران، وفضل الرباط بها كسائر الثغور على ممرّ الزمان.

وحتى يكون العمل دقيقًا في تدوين مراحل الفتح، قام الباي محمد الكبير بتزويد ابن زرفة بمجموعة من المصادر والوثائق الإدارية التابعة له بدليل قوله: "...ولما عزمت على الانطلاق وعقدت لتقييد الرحلة حبل النطاق، دخلت إلى مجلسه الرحيب وتضللت بأفياء غصنه الرطيب، فكان من سابع فضله أن زودني من خزائن كتبه ... ما استظهر به على ما أنا بصدده، فكان كالدليل المعين على السفر بزاده...."[1].

ومهما يكن فإنّ ثقافة هذا الأخير لا يمكن أن نحكم عليها إلاّ من خلال ما تولاّه من مناصب وما تركه من إنتاج، فقد أشتهر ابن زرفة بنظم الشعر وله قصائد في أغراض مختلفة: المدح، الرثاء، التقريض، منها القصائد التي مدح بها الباي محمد الكبير الذي كان عيّنه قاضيًا بوهران بعد الفتح، وظلّ بمنصبه إلى أن توفي عام 1215هـ/ 1800م من جرّاء الوباء[2].

2-2 مدحه للباي محمد الكبير:

لقد قام ابن زرفة الدحاوي بمدح الباي محمد الكبير في ثنايا كثيرة من مؤلَّفه الرحلة القمرية، هذا الأخير الذي قرَّبه منه وأنزله من بلاطه المنزلة العالية، فلم يتوان في الإشادة بفضائله والتغنِّي بمحامده وشكر نعمه عليه ووصف وقائعه وبطولاته في فتح وهران، ولم يخرج ابن زرفة في مدحه للباي عن الصفات والموضوعات المفضّلة في قصيدة المديح العربية، مستندًا في ذلك إلى الإرث الشعري العربي الكبير وتلك التقاليد الفنيّة الراسخة في هذا المجال، مستلهمًا لها ومغترفًا من معينها، ومن هذه المثل العليا التي حفلت بها قصيدة المديح العربية في معظم مراحلها التاريخية نذكر: المجد، الكرم، الشجاعة، العدل، الحلم،

---

[1]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق"، ص: 155.

[2]: عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، بيروت، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1971. ص: 158.- في حين يشير مختار حساني أنّ ابن زرفة قد قدَّم مساعدة للشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر عندما استدعاه الباي حسن آخر بايات البايلك الغربي. ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية... "المصدر السابق"، ص: 147. (من مقدمة المحقّق). أمّا أبو راس فقد أشار إلى أنّه قد توفِّي "في حال الشيبة"، نفهم من ذلك أنّه قد توفيّ شابًّا قبل شيخه أبو راس الناصر، حيث عاش تسعة سنوات فقط بعد فتح وهران الثاني. أبو راس الناصر: فتح الإله... "المصدر السابق"، ص: 72.

النجدة والإغاثة، العلم، الدين والورع، مع التركيز على الصفات النفسية للممدوح التي من شأنها أن تعلي من قدره، وترفع من مكانته في سماء المجد والفضيلة[1].

هذا وقد جمع ابن زرفة في رحلته القمرية بين الشعر والنثر، فها هو في الفصل الثالث من الرحلة يقدِّم نبذة من مدح الباي محمد الكبير فاتح هران بقوله: "هذا وقد حركت مني محاسنه الحميدة وشمائله الزكية المجيدة مديحة جامدة، وهمت عن الارتياع في غصن القريض..."[2]. إلى أن يقول: "هذا ولو جمع ما قيل في هذا السيد من الشعر الملحون والموزون لضاقت بجمعه فسائح الدواوين، وكانت عن شيخ نظره العيون أن لا تخلوا مساحته من القصاد ولا أفنيته من الشعراء غالبا والنشاء، فكانت تتناسب إليه من الفج الداني والعميق..."[3].

كما استشهد ابن زرفة بالسّنن المأثورة في الجهاد لإضفاء الشرعية الدينية على أفعال الباي محمد الكبير، فاستظهر وقائع تاريخية شهيرة في تاريخ المسلمين من عهد الرسول صلّى الله عليه وسلّم والخلفاء الراشدين لتفسير وقائع فتح وهران، في محاولة منه لإجراء مقارنة بين الماضي الإسلامي والفتح الوهراني سنة 1792م بدليل قوله: "... وانتدبت لإملاء تلك السيرة المحمدية وترحيل قمرها... وتأييد أفعاله بالاستشهاد، وتطبيقا على السنن المأثورة في الجهاد"[4].

من الصفات التي وسم بها ابن زرفة الدحاوي ممدوحه الباي محمد بن عثمان الكبير انتسابه إلى المجد وانتساب المجد إليه، فمجده قد سما على كلّ الملوك، وأفعاله وأقواله إنّما تهدف إلى تحقيق أمجاد جديدة تُضاف إلى الأمجاد التليدة التي حقّقها أجداده من قبل، فهو قد

---

[1]: سامي الدهان: المديح، مصر، دار المعارف، ط4، 1984، ص-ص: 05-17. وللمزيد عن الصفات والفضائل التي مدحت بها العرب في الشعر ينظر: ابن طباطبا العلوي: عيار الشعر، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع، الرياض، دار العلوم للطباعة والنشر، 1985، ص: 17، وأيضا: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي: عصر الدول والإمارات، القاهرة، دار المعارف، ط1، 1995، ص: 120.

[2]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية...."المصدر السابق"، ص: 199.

[3]: "المصدر نفسه"، ص: 200.

[4]: "المصدر نفسه"، ص: 155. للمزيد عن هذا الموضوع راجع: بوجلال قدور: العلم والعلماء... "المرجع السابق"، ص-ص: 175-179.

ورث المجد أبًا عن جدّ فارتفع على كلّ الملوك نتيجة ما حقَّقه من نصر وعزّ بوهران التي تشهد له بالمجد والرّفعة.

ومن ذلك قول ابن زرفة مادحًا الباي محمد بن عثمان الكبير:

هُمُ القَوْمُ يُشْفَى مِنْ مَنَاهِلِ رَاحِهِمْ ... لَذِيذُ المَعَانِي وَالسَجَايَا تَتَأَثَرُ
لَهُمُ يَشْتَاقُهَا كُلُّ كَابِرٍ ... فَتَسْمُوا عَلَيْهِ كَالْدَرَارِي ظَوَاهِرُ
وَلاَ سِيَمَا شَهْمُ المُلُوكِ مُحَمَدٌ ... وَنَاظِمُ سَمْطِ العَالَمِينَ المُصَابِرِ
حَلِيفُ النَّدَا وَالمَجْدِ كَاشِفُ غَمَةٍ ... يَدَا غَمَرَاتِ المَوْتِ ثُمَ هُوَ زَائِرُ[1]

وأوّل ما نلاحظه في هذه الأبيات هو قيام ابن زرفة بمدح الباي وذكر مناقبه وشمائله، فمقام ممدوحه أعلى من أن يبلغه غيره من ملوك الأرض، فخصائص الملك وصفات السيادة مقصورة عليه، فقد كمل الممدوح فليس باستطاعة الناس جميعًا أن تنافسه في كماله ومجده، كما أنّ الممدوح قد سما مجدًا وعزّةً على الملوك فهم دونه مكانة بدليل ما ذكره ابن زرفة: "...العطريف الأمجد أبي محمد السيد عثمان، أبقاه الله تعالى... تضاءلت الملوك له طوعا وكرها"[2].

ويقول كذلك من القصيدة نفسها:

مُحَمَدٌ الهَادِي إِلَى سُبُلِ الْهُدَى ... وَفِي سَمَاءِ المَجْدِ بَدْرُهُ زَاهِرُ
تِلْكَ الرُؤُوسُ ذَلِكَ لِعِزِّهِ ... وَفَرَتْ عُيُونٌ مَنْ لِفَضْلِهِ شَاكِرُ
فَمَا صِيَغُ تَاجِ المُلْكِ إِلاَّ بِجَاهِهِ ... وَلاَ عَقَدَتْ إِلاَّ عَلَيْهِ الخَنَاصِرُ
وَمَا نَهَضَتْ قَوَائِمٌ فِي مَحَافِلٍ ... تَشُدُّ سَرِيرَ الحُكْمِ وَهِيَ تُصَابِرُ
وَلاَ صِيَغُ سُلَّمِ الثَنَا الأَسَاوِدِ ... مِنَ العُظَمَاءِ تُبَعٌ وَقَيَاصِرُ
لِتَرْقَى عَلَيْهِ فِي المَوَاسِمِ وَالجَلاَ ... وَتُثْنِي عَلَيْهَا فِي الجُمُوعِ المَنَابِرُ[3]

فابن زرفة يرى أنّ ممدوحه قد بلغ من الجلالة والمجد مبلغًا عظيمًا، فلم يستطع الزمان احتواء مجده وجلالته، كما أنّ المكان –كذلك– أصبح لا يتَّسع لمجد هذا الممدوح، فقد

---

[1]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية... "المصدر السابق"، ص: 195.

[2]: "المصدر نفسه"، ص–ص: 198–199.

[3]: "المصدر نفسه": ص: 197.

امتدّ خبر فتحه لمدينة وهران إلى كلِّ الجهات فالأرض ببرّها وفضائها قد دخلت في حماه، وأنّ ملوك الأرض وزعمائها قد خضعوا لعزمه وإرادته، فتبوَّأ الممدوح أعلى درجات المجد.

ويمدح ابن زرفة العثمانيين بالمجد، حيث يقول من القصيدة نفسها:

تَوَارَثَ عُثْمَانُ العُلاَ عَنْ أَكَابِرِ طِوَالَ القَنَابِضِ القَوَاضِ يُوَاتِرُ
لَهُمْ فِي مَيَادِينِ المَعَالِي مَفَاخِرٌ تَضِيقُ بِكُتُبٍ تُسْهِرُ الدَفَاتِرَ
وَأَيَامُهُمْ مَشْهُورَةٌ فِي لِقَائِهِمْ لَهَا فِي فَرَاغِ الزَاحِفِينَ مَذَاكِرُ[1]

وإذا نظرنا في المعاني العامّة لهذه الأبيات نخلص إلى أنّ الباي محمد بن عثمان الكبير قد فاق أمجاد غيره من الملوك والسلاطين فأفعاله التي يُحمد عليها كثيرة، عجزت الدفاتر على تدوينها كلّها، ثمّ يبدأ ابن زرفة بنعت الباي بصفات المجد وعلى أنّه سليل أسرة قد ورثت المجد كابرا عن كابر، وذلك تعظيمًا ومبالغة في وصف مكانة الباي السامية وفضله الذي فاق كلّ فضل على سبيل المبالغة[2]. ومن مدح ابن زرفة للباي محمد بن عثمان الكبير قوله: "... هذا ولو قصصت أثرا ما قيل في هذا السيد الأمير من الأشعار وقرائر لقصائد المخلدة كالأذكار، لخرجت في ذلك عن المضمار ولطاقت عن حمل ذلك الدواوير والأسفار..."[3].

هذا ويختم ابن زرفة مدحه للباي محمد بن عثمان بقوله:

دِيَارُ أَبِي عُثْمَانَ بَدْرًا أَهَالَةً تَحُوطُ بِهَا لِلطَارِيَتَيْنِ سَوَافِرُ
وَفِيهِ يَحِقُ أَنْ بِهَا قَابِلُ يَجْرِي مَعَ الأَمْثَالِ قَوْلُهُ نَاصِرُ
إِذَا ذُكِرَ وَالمُلُوكُ فِي مَهِيجِ الجِدِّ طَوَى ذِكْرُهَا ذِكْرَ لِطِيبَةِ نَاشِرُ[4]

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص-ص: 197-198.

[2]: كلّ ذلك يدلّ على أنّ مكتبة الباي كانت غنيّة بالكتب. ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية..."المصدر السابق"، ص، ص: 150، 155. للمزيد عن هذا الموضوع راجع: حمدادو بن عمر: المساهمة العلمية لمتصوفة بايليك الغرب خلال =القرنين (11-12هـ/ 17-18م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، قسم الحضارة الإسلامية، 2012-2013، ص-ص: 257-258.

[3]: ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية.... "المصدر السابق"، ص: 209.

[4]: "المصدر نفسه"، ص: 198.

والجديد في مدح ابن زرفة هو أنّه نصَّب نفسه كمتحدِّث رسمي باسم السلطة العثمانية من بين شعراء البلاط في عهد الباي محمد بن عثمان الكبير، وقد انصبَّت مدائحه في الدفاع المتواصل عن أحقيَّة العثمانيين بالخلافة، مؤكِّدًا على أنّ ذلك الحق تؤيِّده أحكام الدين الإسلامي وآيات القرآن الكريم، مُندِّدًا بكلّ من يرى غير هذا الرأي، وهو أسلوب جديد ينمّ عن إطّلاع واسع وذكاء متوقّد وحسن استغلال للمواقف بما يتناسب مع الوضع السياسي في ذلك الوقت.

لذلك لا ينبغي أن نتعجَّب مِن كَون ابن زرفة هو العالم والشاعر المقدّم في بلاط الباي محمد الكبير، فهو يُعدّ مكسبًا للباي وقصائده تُعدّ دعامة قويّة للعثمانيين، ولا سيما أنّ الدولة كانت تئنّ في ظروف جدّ حرجة أواخر العهد العثماني.

3- أحمد بن هطال التلمساني:

3-1 التعريف بابن هطال:

هو أبو العباس الحاج أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن هطال التلمساني، من أبرز علماء الوطن الغريسي الراشدي خلال القرن 18م، كانت له علاقة وطيدة بالباي محمد الكبير حاكم البايلك الغربي إذ كان كاتبًا ومستشارًا ومبعوثًا له في المهمّات الخارجية[1]. كما ذكر ابن سحنون في كتابه الثغر الجماني أنّ الباي محمد الكبير- عندما كان يستعدّ لفتح وهران- أوفد كاتبه أحمد بن هطال مع قاضي المحلة ابن سحنون مصحوبين بهدايا إلى سلطان المغرب الأقصى ليسمح لهما بشراء ما يحتاج إليه الباي من أسلحة حربية وعتاد، فَوُفِّقَ في مسعاه وعاد من جبل طارق بحمولة من البارود تُقدَّر بمائتي قنطار ونصف، كان الباي محمد الكبير قد اشتراها من القوّات الإنجليزية[2].

هذا وقد حافظ ابن هطال بعد وفاة الباي محمد الكبير على منصب الكتابة لدى ولده وخلفه عثمان باي، وظلّ يشغل نفس المنصب عند تولّي الباي مصطفى بن عبد الله العجمي بايلك الغرب، وصاحبه في حركته ضدّ ابن الشريف الدرقاوي وأتباعه، فلقي حتفه مع العديد

---

[1]: أحمد بن هطال التلمساني: رحلة محمد الكبير... "المصدر السابق"، ص: 13 (من مقدمة المحقق).

[2]: ابن سحنون: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص: 247.

من رجال المحلة في معركة فرطاسة بين وادي مينا ووادي العبد في أوائل ربيع الأول سنة 1219هـ الموافق ل: 1804م[1].

3-2 إشادته برحلة الباي محمد الكبير إلى الجنوب:

عُرِف ابن هطال بمصنَّفه المُعنون بـ: "رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري"، والذي تتبَّع فيه غزوات الباي محمد الكبير لقبائل المناطق الجنوبية الصحراوية المستقلّة والخارجة عن حكمه ببايلك الغرب، والتي امتنعت عن دفع اللزمة السنوية في حدود سنة 1119هـ الموافق ل: 1785م[2].

ويُعتبر هذا العمل من الأعمال الخاصّة الممجّدة لسيرة هذا الباي، حيث أمر من كاتبه بتقييد وقائع الغزوة، ووضع تقرير مفصَّل حول رحلته إلى الجنوب الجزائري لإخضاع القبائل الممتنعة بُغية التّرويج بنجاح غزواته، ووصف حملاته وانتصاراته الصاعقة ضدّ مناطق النفوذ المرابطي والتجمّعات الطرقية التي تحوّلت إلى منافس حقيقي للحكم العثماني[3].

لقد كتب ابن هطال مُبيِّنًا هدف تأليفه للرحلة من أنّه كتبها استجابة لطلب الباي محمد الكبير باي الغرب، ومحاولة منه لإظهار قوّة الباي ومدى استطاعته في التغلّب على القبائل التي كانت ناشزة عن الحكم العثماني- على حد تعبيره-، وهذا ما صرّح به في المقدّمة بقوله: "وقد أردت أن أذكر منه نبذة أخدم بها حضرة قامع المبغضين ومدوخ المارقين.... مقتصرا على ذكر خروجه إلى جهة القبلة... أنها ذات بلدان كثيرة وأعراب راحلة ومقيمة، إلاّ أنّها لم تنلها أيدي السلطنة فشمّر لها عن ساعد الجد، عازما على رد ما بها من النفار والصد فجمع جموعه وقواده..."[4].

---

[1]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود... ج1، "المصدر السابق"، ص: 304.- أحمد بن هطال التلمساني: رحلة محمد الكبير... "المصدر السابق"، ص-ص: 13-14 (من مقدمة المحقق).

[2]: بلبراوات بن عتو: الباي محمد الكبير... "المرجع السابق"، ص: 230.

[3]: حيث تضمّنت الرحلة معلومات جغرافية، عسكرية، سياسية، اقتصادية وثقافية هامّة جمعت بين الشعر والنثر. للمزيد حول هذا الموضوع ينظر:

Gorguos : « Expédition de Mohammed El Kebir bey de Mascara dans les contrées du sud », in : R.A, N : 03 , 1858, p-p : 52-61, et 185-192. N : 04, 1859-1860, p-p : 347-357.

[4]: أحمد بن هطال التلمساني: رحلة الباي..."المصدر السابق"، ص-ص: 35-37.

كما كتب بدافع إعجابه بأعمال هذا الباي، ومن زاوية تقديره للتّاريخ باعتباره سجِّلاً وأثرًا لأعمال الحكّام حيث ورد في الرحلة: "إنّ علم التاريخ من أجلّ العلوم قدرا وأكملها محاسن وفخرا...به عرفت قدماء الأمم وبه حفظت مكارم أخلاقهم والشيم، فاشتغلت به علماء كل قطر وصنفت فيه أدباء كل عصر"[1].

ومن الملاحظ أيضًا أنّ كتاب "رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي الجزائري" هو أوّل عمل علمي يأمر به الباي خارج ديوانه وقصره، لأنّ تاريخ إنجازه يصادف سنة قيامه بغزو قبائل الجنوب الخارجة عن حكمه سنة 1785م، وهذا يعني أنّ الباي محمد الكبير قد أمر ابن هطال بتدوين وتقييد وقائع الغزو وهو في رحلته انطلاقًا من معسكر بدليل قول ابن هطال: "... فخرج يوم الخميس التاسع من ربيع الأول بقومه وعسكره من المعسكر التي هي محل وطنه..."[2]. وأيضا قوله: "لأني قيدت هذه الأوراق في أثناء السفر ولم تصحبني كتب في هذا المعنى، أستعين بها ولا قوة حفظ نعول عليها..."[3]. وهو ما يجرّنا إلى الاستنتاج أنّ ابن هطال كان عضوًا بارزًا في مجلس الخليفة الباي محمد الكبير، حيث رافقه إلى الجنوب لصدّ تلك القبائل وكلّفه بمهمّة تدوين أحداثها، مثلما فعل محمد بن صالح العنتري الذي رافق صالح باي ودوَّن أحداث الحملة كذلك.

ويمكن القول أنّ السلطة العثمانية الحاكمة في الجزائر كانت تحرص على مراعاة أحوال الرعيّة وتتبّع أخبارها والنّظر في شكاويها حفاظًا على الاستقرار الذي كان ينشده الجميع، وعلى هذا الأساس بذل بعض الحكّام جهودًا كبيرة في سبيل هذه الغاية فنجد ابن هطال يُعدِّد خصال الباي محمد الكبير ويشيد بسيرته في الرعيّة قائلا: "فلم يبق منهم أحد إلاّ أعطاه ولا صاحب خدمة إلاّ واساه، ولا ذو نجدة إلاّ حاباه... فأعطى لكلّ قبيلة بقدر حاجتها، ولكلّ طائفة على حساب أهلها فأوصلهم معروفه جملة وتفصيلا، وعمّهم فضله حقيرا وجليلا فأوجب تخليد ذكره بذلك ثناء جميلا"[4].

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص: 35.

[2]: "المصدر نفسه"، ص: 37.

[3]: "المصدر نفسه"، ص: 72.

[4]: "المصدر نفسه"، ص-ص: 75-76.

وفي نفس الصّدد يُثني ابن هطال على كرم الباي ويُعدِّد خصاله الجهادية من حلم وعفو على المخطئين، حيث أشار إلى أنّ الباي محمد الكبير قد عامل الرعيّة بالجنوب وفقًا للشريعة الإسلامية وأعطاهم حقوقهم، ولم يتعرّض أحد للظلم أو التّعدي بل أكرمهم وأحسن إليهم، وكان شعاره العدل أساس الملك بقوله: "فلما رأى ما حلّ بهم أدركته الشفقة عليهم فأمر بإطلاق الشيوخ والصبيان وترك الكهول، وأعطى لكل من جاءه بواحد منهم العدد الذي سمى له- من المال- راجيا أجر ذلك وراغبا في ثواب ما هناك"[1].

كما يبرز في نفس الصّدد بعض المواصفات والسلوكات التي ميّزت سيرة الباي في رحلته إلى الجنوب، ولعلّ من بينها الرّفق والسماحة وإحسانه الشّامل حيث يقول: "وكان أكثر ما أدركته الرقة حين رأى شيخًا كبير السنّ من ذريّة بعض الصالحين أنّه لا يقدر على المشي، أمر خدّامه أن يحملوه وكساه وأعطاه دراهم، وبالغد أعطاه فرسًا وزاد له كسوة أخرى ودراهم ورده لأهله مكرما، والكل معلنون بحياة سيدنا ومبتهلون بالدعاء بنصره وتخليد الخلافة في نسله وفرعه"[2].

ولعلّ هذه الطباع التي اتّسمت بها شخصية الباي محمد الكبير عمومًا هي التي أطالت من بقاء الحكّام العثمانيين في أرض الجزائر، وجعلت العلماء ورجال الصوفية والمثقّفين عمومًا يساندون جهودهم ويؤازرون مواقفهم ويؤيّدون سياستهم.

هذا ويشيد ابن هطال بسياسة الباي محمد الكبير أثناء غزواته على قبائل الجنوب، وهو يقدِّم من خلاله صورة حيّة عن محاربة العثمانيين للفساد، وسهرهم في الحفاظ على المصلحة العامّة للبلاد فيقول عنه: "وأوصاهم- أي الباي- على الأشجار والنخيل فلا يقطعون شيئا منها، ومن قطع شجرة أو نخلة فالله حسيبه ومتولي الانتقام منه"[3]. كما أشاد بجهوده في استخدام العدل مع رعيته وفي البلاد التي فتحها، فلم يعامل القوم المغلوبين بالظلم أو الجور، أو التعسّف أو التجبّر أو الطغيان أو البطش، وإنّما عاملهم بإنصاف بدليل قوله:

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص: 47.

[2]: "المصدر نفسه"، ص-ص: 47-48.

[3]: "المصدر نفسه"، ص: 57.

"وقد نبه سيدنا على أنّ المرأة لا يتعرض لها، ولا يأخذ أحد شيئا من لباسها صونا لحرمتها وتنزيها عن حقارتها"[1].

نُدرك من هذا القول المشتمل على التوجيهات التي يُقدِّمها الباي محمد الكبير لجنده مدى الإحساس بالمسؤولية لدى هؤلاء البايات، وكيف يعملون على غرسها في نفوس جنودهم، ينبِّهونهم بضرورة العدل والإحسان في تعاملهم مع السكّان الذي هو أساس وجودهم بأرض الجزائر، وتجنّب كلّ ما يُثير أحاسيسهم ويثير حافظتهم.

كما أشاد ابن هطال بالمجهودات التي كان يبذلها الباي محمد الكبير لتوفير الأمن وحفظه بقوله: "فجعل على كل قبيلة شيئا معلوما من الإبل والخيل، وأمنهم وكساهم ورفع عنهم ما هم فيه من الخوف والويل، ففرحوا بالأمان فرحا شديدا وذهبوا مبشرين أهلهم بعافية وطنهم وعمارته ومخبرينهم بسطوة الملك وكرامته"[2]، والعمل بهذا الشرع يدلّ على إيمان وتقوى وفطنة وذكاء، وعلى عدل وبرّ ورحمة.

هذا وقد أشار ابن هطال إلى أنّ الباي محمد الكبير كان يخوض المعارك بنفسه ويقاتل الأعداء بسيفه بقوله: "لأنّه أطال الله بقاءه كان له فطنة زائدة وتجربة صادقة مع ما هو عليه ممارسة الحروب وفهمه لما ترمزه العيون وما تضمره الجيوب، وأمّا ثبوت الجنان والشجاعة فشيء تحار فيه العقول وتقصر عنه العبارة"[3]. ولعلّ هذه المواقف تدلّ على عزيمة الباي، وإصراره في الوصول إلى هدفه.

لقد استطاع ابن هطال أن يرسم صورة مشرقة للحكّام العثمانيين من خلال وصفهم بالكرم والجود، مستخدمًا في ذلك كلّ طاقات اللغة وإيحاءاتها التعبيرية وما توفِّره الأدوات البلاغية من تشبيه واستعارة ومجاز لتجسيم وتشخيص ما هو معنوي وبعثه في صورة محسوسة، فالباي محمد الكبير تحوّل إلى نموذج حيّ للكرم والجود بل لقد فاق في ذلك الناس جميعًا فلا كريم يدانيه ولا جواد يقاربه، فهو مقصد كلّ محتاج وملاذ كلّ فقير أو عابر سبيل، فالكرم عند العثمانيين شيمة فطرية متأصّلة فيهم وليس تصنّعًا أو بحثًا عن السمعة والذكر الحسن حيث يقول: "الحاصل أنّه مهما شهد أحد عطاءه في ذلك اليوم إلاّ جزم بأنّ نفس غيره

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص: 47.

[2]: "المصدر نفسه"، ص: 45.

[3]: "المصدر نفسه"، ص-ص: 55-56.

من الكرام لا تسمح بمثله، بل لا تجود بعشر عشرة، ولو نظر عاقل في سيرة غيره من الملوك وتأمّلها وتتبّع أحوالهم وتحققها مع اطلاعه على سعة ملكهم وقوة سلطانهم ونسب ذلك للذي مدح من فعلهم لوجده لم يف بقدر مملكتهم، ولم يناسب عشر منزلتهم، وهذا أمر لا يخفى على ذي بصيرة ولو كان أعمى... فعلى هذا لو استبقوا معه في ميدان المجد لما سبقوه، بل لو جعلوا كلهم شق عدل ما وزنوه ولا لحقوه"[1].

لقد كان الباي محمد الكبير من بين الحكّام العثمانيين الذين حظوا باهتمام كبير لدى العلماء والمثقّفين، ونالوا منزلة مميّزة في نفوسهم وخُصُّوا بمدحهم والتّنويه بسياستهم، وقد وقع اختيارنا على ما خصّه به ابن هطال بقوله: "فأربى على ملوك العصر بما أربت به الشمس على البدر... وقد تباشر بقدومه الدهر وقابل أيامه بالأسعاد حتى صارت من حسنها كالمواسم والأعياد، وعمّ خصبه الأهل والرعية والبلاد فزال عنهم كلّ غمّ وارتفعت عنهم الأحزان والأنكاد، وكانوا يريدون أن يفدوه بالأهل والمال..."[2].

وعمومًا فلقد ألّف ابن هطال كتابه هذا بُغية الإشادة والتأييد والاستحسان للدور الذي كانت تقوم به السلطة العثمانية في الجزائر، وما تميّز به حكّامها من مواقف وخطوات سياسية إيجابية في غالب الأحيان خاصّة تجاه القضايا التي تتعلّق بوجود الأمّة ومصيرها[3].

4- أبو راس الناصر المعسكري:

4-1 التعريف بأبو راس الناصر:

يُعدّ الشيخ أبو راس الناصر أحد علماء وفقهاء الوطن الغريسي الراشدي، فهو ينتمي إلى أسرة أشتهر بالعلم والصلاح كثير من أفرادها من بينهم السيد الناصر بن علي بن عبد العظيم من كبار العلماء في عصره، والجامع بين شرف العلم والنسب ومؤسِّس هذه الأسرة[4].

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص: 76.

[2]: "المصدر نفسه"، ص، ص: 83، 98.

[3]: للمزيد من المعلومات والمعطيات التاريخية حول هذه الشخصية يرجى العودة إلى: رقية شارف: الكتابات التاريخية... "المرجع السابق"، ص، ص: 75، 110. وأيضا : – ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي... "المرجع السابق"، ص: 449.

[4]: أبو راس الناصر: فتح الإله... "المصدر السابق"، ص–ص: 26–27.

أمّا نسبه الكامل فهو: "محمد أبو راس بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر بن علي بن عبد العظيم بن معروف بن عبد الله بن عبد الجليل، وهذا النسب متصل بعمرو بن إدريس إلى علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم"[1].

ومن الملاحظ أنّ أبو راس الناصر قد عرَّف بنفسه في سيرته الموسومة بـــ: "فتح الإله"، والتي تُعتبر أكبر مرجع لذلك فأكَّد على شرعية نسبه الشريف، وبانتمائه إلى البيت النبوي، وهذا بعد أن شهد له اثنان من كبار العلماء "وهما الشيخان: المصطفى بن المختار وعبد القادر بن السنوسي، فقد قالا ذلك باللسان، وكتبا رضي الله عنهما شهادتهما بالبنان"[2].

ولد أبو راس الناصر سنة 1165هـــ/ 1751م بقلعة بني راشد قرب مدينة معسكر بالغرب الجزائري بين جبل كرسوط وهونت، وهو من كبار العلماء في عصره حتى وُصف "بمجدِّد القرن الثالث عشر"[3].

لقد نشأ أبو راس نشأة فقيرة جدًّا حيث فقد والدته زولة وهو صغير بسهل متيجة أين استقرّت بها عائلته، وبعد موتها انتقل به والده إلى منطقة مجاجة حيث اشتغل بتعليم الصبيان وقراءة القرآن إلى أن توفي والده وهو في سن الثامنة، فكفله أخاه عبد القادر الذي يكبره بشيء قليل، وبذلك ترعرع بين يدي أحضان أخيه عبد القادر وأخذ منه نصيبًا وفيرًا من العلم، حيث اصطحبه معه إلى المغرب الأقصى أين "حفظ القرآن الكريم وأتقن أحكامه فهما واستيعابا"[4].

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص: 25.

[2]: "المصدر نفسه"، ص-ص: 29-30، -هذا وقد عالج أبو راس قضيّة النّسب كثيرا في مؤلّفاته لعدّة أسباب ذكرها في كتابه "زهر الشماريخ في علم التاريخ" بقوله: "بقاء الأنساب محفوظة وصفاتها على صفة أباءها، لكن لاختلاط النطف تبدّلت الأنساب...". في حين شكّك أبو القاسم سعد الله في انتماء أبي راس إلى النّسب الشريف. للمزيد عن هذا الموضوع راجع: أبو راس الناصر: زهر الشماريخ في علم التاريخ، مخطوط بخزانة الشيخ بلقرد بوكعبر، معسكر، الورقة: 222. وأيضا: - أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص:89.

[3]: لزغم فوزية: البيوتات والأسر العلمية... "المرجع السابق"، ص: 288. وللمزيد عن نسب ومكان مولد أبو راس يرجى العودة إلى:

G. Faure- biguet : « Notice sur le cheikh Mohammed Abou Ras », Journal Asiatique (septembre-octobre), 1899, série : 9, Tome : 14, Paris, Imprimerie National, p-p : 320-324.

[4]: أبو راس: فتح الإله... "المصدر السابق"، ص: 19. وللمزيد عن نشأة أبو راس يرجى العودة إلى: محمد بشير بويجرة: "التسامي والعبقرية عند أبي راس: قراءة في فتح الإله وفق المنهج النفسي"، مجلة قراءات: دورية لغوية أدبية محكمة يصدرها قسم اللغة العربية، المركز الجامعي مصطفى إسطمبولي بمعسكر، العدد: الأول، 2008، ص: 100.

وبعد عودته من المغرب اتّجه إلى معسكر وبالضبّط إلى القيطنة التي كانت أكبر معهد علمي لدراسة علوم الشريعة فقرأ الفقه على علمائها، ليتوجّه بعدها إلى مازونة والتي كان صيتها يجول في تلك الفترة باعتبارها مركزًا ثقافيًا نشيطًا لتحصيل العلوم الدينية والدنيوية حيث أظهر تفوّقًا في قراءة مصنّف خليل فمكث بها حوالي ثلاث سنوات[1]. ثم ليرجع بعدها إلى معسكر ويشمّر عن ساعديه للتّدريس مدّة ست وثلاثين سنة "فكان يُورد درسه على التحقيق والتدقيق ويرشحه بتتمة أو لطيفة مهمة، أو تنبيه وجيه أو تكميل وتذييل إلى أن صارت حضرته في العلم تُذكَر في الآفاق، وتُناظِر دروس مصر والشام وتونس والعراق"[2].

كما التقى بعدها بالشيخ عبد القادر المشرفي الذي درس عليه أبو راس ألفية ابن مالك على شرح المكودي والتي جعل عليها حاشيتين صغرى وكبرى، إلى أن قام بإنجاز تأليف عند إتمام الدراسة أُعتبر بمثابة خلاصة لما درسه، وكان مؤطّره في ذلك الشيخ المشرفي الذي كانت شهرته العلمية الواسعة تملئ ربوع الوطن داخله وخارجه في ذلك العصر[3]. وممّا زاد في تحصيله العلمي قيامه بعدّة رحلات داخل الجزائر وخارجها، بحيث زار مدينة الجزائر سنة 1789م تعرَّف خلالها بعدّة علماء وشعراء وكُتّاب حيث التقى بمُفتيها الشيخ محمد بن جعدون وكذلك فقيهها الشيخ محمد بن مالك، كما نزل بقسنطينة والتقى بعالمها عبد الكريم محمد الفكون[4].

ويبدوا أنّ أهمّ ما ميّز حياته العلمية كثرة شيوخه، فلقد أفرد بابًا خاصًّا بهم في مؤلَّفه فتح الإله سمّاه: "ذكر أشياخي النافضين عني قشب أوساخي: شريعة وحقيقة وقرآنا وطريقة"، حيث عرض فيه أبو راس أسماء الشيوخ الذين أخذ عنهم ولعلّ من بينهم والده الشيخ أحمد بن أحمد، الشيخ عبد القادر المشرفي، الشيخ العربي بن نافلة، المفتي أحمد بن عمار، الشيخ

---

[1]: مولاي بالحميسي: مازونة مقصد الدارسين وقلعة الخليليين، الجزائر، منشورات المجلس العلمي، 2005، ص: 44. –أبو راس الناصر: فتح الإله... "المصدر السابق"، ص: 20.

[2]: وذلك بعد قيامه بالعديد من الرّحلات خارج الجزائر، للمزيد حول الموضوع راجع: محمد غانم: "أبو راس المعسكري مسار عالم جزائري وإنتاجه الفكري"، مجلة الحضارة الإسلامية، العدد: 12، 1426ه–2005م، ص:180.

[3]: حمدادو بن عمر: أبو راس الناصر... "المرجع السابق"، ص: 66.

[4]: أبو راس الناصر: فتح الإله..."المصدر السابق"، ص: 98.

القاضي عبد الرحمن التلمساني والشيخ محمد بيرم، وغيرهم من العلماء والشيوخ الذين ساعدوه على شقّ حياته التعليمية بل وأثّروا في ملكته الفكرية والمعرفية[1].

ولقد حجّ أبو راس مرّتين أولاهما كانت في سنة 1204هـ/ 1790م وتعدّ أكبر رحلة قام بها وقد التقى خلالها بشعراء وكتّاب وعلماء أفادوه كثيرا، فالتقى بعلماء الجزائر وقسنطينة وتونس ومصر والحرمين الشريفين والشام وفلسطين، ومن جملة الذين التقى بهم وخصّهم بالذكر والثناء شيخه أبو الفيض محمد مرتضى الزبيدي الذي درس عليه العديد من العلوم فأجازه عدّة إجازات علمية[2].

وأثناء عودته من الحج سمع بخبر الجهاد في وهران فأراد أن يكون له شرف المشاركة في تحرير المدينة من دنس الإسبان، وألّف كتابه الموسوم بـ: "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار". كما تقلّد الشيخ أبو راس المناصب الدينية العليا: الفتوى، القضاء والخطابة، وتصدّى للتدريس فازدحم الطلبة على حلقته، ولذلك صنع له الباي كرسيًا، لكنّه سرعان ما عُزِل من وظيفة القضاء سنة 1211هـ/ 1797م لاتّهامه بضلوعه في فتنة درقاوة التي ألّف عنها كتابًا سمّاه: "درء الشقاوة في فتنة درقاوة"[3]. ليتوجّه بعدها إلى فاس ويفد على السلطان مولاي سليمان، حيث أهدى له نسخة من الشرح الأكبر للمقامات والعقيقة فأجازه، واشتهر بمدينة فاس ولقّبه علمائها "بالحافظ" لغزارة علمه وكثرة تآليفه[4].

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص-ص: 41-76.

[2]: "المصدر نفسه"، ص: 116. وللمزيد عن مواقف أبو راس الفكرية والعلمية خلال رحلاته خارج الجزائر ينظر: ودان بوغوفالة: "أبو راس الناصري والآخر: نظرة الفقيه إلى نابليون من خلال كتاباته"، مجلة الحضارة الإسلامية، العدد: 12، 1426هـ- 2005م، ص-ص: 280-281. -أيضا: ودان بوغوفالة: الثورة الفرنسية في الأسطوغرافيا المغاربية: دراسة تاريخية تحليلية في نماذج من كتابات القرن 13هـ/19م، الجزائر، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، 2004، ص-ص: 91-93.

[3]: ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 46 (من مقدمة المحقق).

[4]: لقد كان أبو راس كثير الزيارة للمغرب الأقصى، من ذلك الزيارة التي قادته إلى فاس سنة 1216هـ- 1802م حيث أقام بها مدّة، وأهدى العديد من المؤلّفات إلى السلطان المغربي سليمان منها شرح بعنوان "روضة السلوان المؤلّفة بمرسى تيطوان". للمزيد عن هذا الموضوع راجع: بوجلال قدور: العلم والعلماء... "المرجع السابق"، ص-ص: 248-249. وأيضا: عمار هلال: "العلماء الجزائريون في فاس" ، مجلة الدراسات التاريخية: مجلة علمية تصدر عن معهد التاريخ بالجزائر، العدد: 09، ص-ص: 07-60.

ورغم تقلّد الشيخ أبو راس للعديد من الوظائف فإنّها لم تشغله عن التأليف، بحيث عُرف بكثرة تآليفه، فكَتب في كلّ علوم عصره كعلوم القرآن والتفسير والقراءات والحديث والفقه والتصوف والنحو واللغة، والبلاغة والعروض والمنطق والأصول والتراجم والأنساب والتاريخ والجغرافية، كما نظَّم الشعر، حيث أنّ هذا التوسّع في العلوم قد جمع بين التآليف الأصلية التي هي من وضعه، والشروح والتعاليق على كتب وقصائد له أو لغيره[1].

وعلى ما يبدوا أنّ أبي راس قد خلَّف كتبًا كثيرة في مجال التاريخ وغيره بعضها موجود وبعضها مفقود، حيث ذكر أنّ مجموع تآليفه بلغت نحو الخمسين كتابًا في التفسير والتاريخ والأدب والتراجم والرحلات، في حين ذهب بعضهم إلى أنّ مؤلّفاته قد بلغت ما يزيد عن الستين كتابًا، كما نُسب إليه أزيد من ثلاثين ومائة مصنّف في مختلف الأغراض بين كبير وصغير وبين تأليف وشرح وتعليق وتلخيص، منها ما نُشر ومنها ما زال محفوظا، ومنها ما أعتبر في حكم المفقود[2].

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ أبي راس قد ترك كتبًا كثيرة ومتنوّعة في مجال التاريخ بلغت حوالي ثلاثة وثلاثين كتابًا لعلّ أبرزها: زهر الشماريخ في علم التاريخ، كتاب المنا والسول من أول الخليقة إلى بعثة الرسول، الحلل السندسية في فتح ثغر وهران والجزيرة الأندلسية، لقطة العجلان في شرف الشيخ عبد القادر بن زيان، وعجائب الأسفار ولطائف الأخبار وغيرها[3].

---

[1]: لدرجة أنّه قد وُصِف بالسيوطي من جهة وبالجبرتي من جهة أخرى، وهذا نظرا لكثرة تآليفه وتنوّعها. للمزيد عن هذا الموضوع يرجى العودة إلى: أبو القاسم سعد الله: "مؤرخ جزائري معاصر للجبرتي أبو راس الناصري". مجلة تاريخ وحضارة المغرب، العدد: 12، ديسمبر 1974، ص: 25. وأيضا: – محمد سي يوسف: "دراسة مخطوط عجائب الأسفار ولطائف الأخبار لأبي راس الناصر"، مجلة الدراسات التاريخية: مجلة علمية تصدر عن معهد التاريخ بجامعة الجزائر، العدد: 02، 1986، ص–ص: 135–136.

[2]: رقية شارف: الكتابات التاريخية... "المرجع السابق"، ص: 79. –حمدادو بن عمر: أبوراس الناصر... "المرجع السابق" ص: 86. وللمزيد عن هذا الموضوع راجع: الشيخ بشير ضيف: فهرست معلمة التراث الجزائري بين القديم والحديث، ج3، الجزائر، 2002، ص: 107. وأيضا: عبد المنعم القاسمي: أعلام التصوف في الجزائر، دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع، ط1، 2006، ص: 321.

[3]: خصَّص أبو راس الفصل الخامس من فتح الإله لذكر مؤلّفاته. أبو راس الناصر: فتح الإله.... "المصدر السابق"، ص–ص: 179– 182. وللمزيد عن هذا الموضوع يرجى العودة إلى: أحمد الحمدي: "أهمية مخطوط لقطة العجلان في شرف سيدي عبد القادر بن زيان في تاريخ الجزائر الحديثة"، مجلة الحضارة الإسلامية، العدد: 12، 1426هـ– 2005م، ص–ص: 229–238.

لقد كانت وفاة أبي راس يوم الأربعاء 15 شعبان سنة 1238هـ الموافق لـ: 27 أفريل 1823م عن عمر يناهز 73 سنة، ودُفن بعقبة بابا علي بمعسكر[1].

4-2 إشادته بالباي محمد بن عثمان:

لا يختلف اثنان حول ما احتلّه الباي محمد بن عثمان الكبير من شهرة كبرى في فترة حكمه وتقلّده بايًا على الناحية الغربية، سواءا على مستوى ازدهار بايلكه أو من أحاط به من الشعراء والعلماء، أو ما قيل فيه من شعر[2].

وأن يزدهر الشعر في عهد حاكم من الحكَّام معناه ازدهار على جميع الأصعدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية، وهذا حال بايلك الغرب في عهد الباي محمد الكبير، فقد وصل إلى أوجِّ ازدهاره ممّا خوّل للباي إغداق الهبات على الشعراء وجلبهم حتى يكونوا اللسان الناطق والسجّل الموثّق لعظمته وعظمة بايلكه، فضلاً عن تذوّقه للأدب والشعر خاصة، ممّا جعل شخصيته تجمع بين الإنسان العاشق للحكم والموطّد له وبين المحبّ للشعر الذي تهافت عليه الشعراء من كلّ أنحاء البايلك لذلك استمتع بجلسات الشعراء وبشعرهم، ونالوا من جوائزه وعطاياه، فمدحوه واعتذروا إليه وقالوا في مرضه وحرّضوه واستعطفوه واستعانوا به على أمورهم[3].

ومن خلال كتاب عجائب الأسفار ولطائف الأخبار نجد تمجيد أبي راس للباي محمد بن عثمان الكبير واضحًا حيث يقول: "... أبو الفتوحات المنصور بالله الباي محمد بن عثمان، الذي ضبط الملك بازايه وربط السلك بالاية ــ أدام الله سلطان ملكه وثبته وتقبله بقبول صالح وابنته، وأخذ عدوه قابلا ويبته وأرغم أنفه بسيفه وكتبه...."[4].

---

[1]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود...ج1، "المصدر السابق"، ص: 349. –أبو القاسم محمد الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، الجزائر، المطبعة الشرقية، 1906، ص: 333.

[2]: صالح فركوس: الباي محمد الكبير... "المرجع السابق" ، ص: 20.

[3]: ابن زرفة: الرحلة القمرية... "المصدر السابق"، ص: 209. وللمزيد عن موضوع الشعر السياسي خلال العهد العثماني يرجى العودة إلى: حورية قايش: التحليل اللغوي للخطاب الشعري الجزائري في العصر التركي: "ديوان أشعار جزائرية تحقيق أبو القاسم سعد الله نموذجا"، مذكرة ماجستير ضمن مشروع الدراسات اللغوية والنحوية في العصر التركي بالجزائر، جامعة الشلف، 2007-2008، ص-ص: 23- 34.

[4]: بوركبة محمد: عجائب الأسفار... "المرجع السابق"، ص: 535.

ويواصل مدحه للباي بقوله: "المنصور بالله سيدي محمد بن عثمان أدام الله سعادته وأشاد سيادته، وختم لنا وله بالإحسان والحسنى، ورفعنا وإياه في الفردوس إلى المرتبة الأسنى..."[1].

ثمّ نجده يمدحه في أكثر من موضع من ذلك قوله:

وَلَكِنَ إِحْسَانَ المَلِكِ مُحَمَدًا دَعَتْنِي إِلَى شِعْرٍ فِي مَدْحِهِ بَارِعُ
فَكَالْأَسَدِ المَنْصُورِ فِي مَجْمَعِ الوَغَا بِرُمْحٍ وَسَيْفٍ حُومَةُ المَوْتِ شَارِعُ
فِي تَدْبِيرِ أَمْرِ الحَرْبِ فَاقَ ابْنَ عُمْرُسْ وَنَجْلَ زُهَيْرَ وَابْنَ طُولُونَ رَابِعُ
يَكْسِبُ لِقَلْبِ الجَبَانِ شَجَاعَةً وَيَأْلُفُ مِنْهُ الصَبْرُ مَنْ هُوَ جَازِعُ[2]

يقصد أبو راس من هذا أنّ الباي محمد بن عثمان الكبير قد تحلّى بصفة الشجاعة والإقدام والجرأة في خوض غمار الحرب، والتصدّي للأعداء الخارجيين ومجابهة المناوئين الداخليين، فالباي لا يخشى المخاطر، ولا يتوانى عن مواجهة الأهوال، كما يتميّز بالصبر وحسن التدبير، فقد حنّكته التّجارب بعد فتح وهران.

كما نجد أبو راس يُنوِّه بشأن الباي محمد بن عثمان بقوله: "... هو أبو الفتوحات المنصور بالله طالع السعادة، ومستحق السيادة، وواسطة القلادة، وكعبة الجود والأمل ومقصد الوفد، كسلفه الأول لقواعد المعالي، مؤسس وشائد أنارت له الأداني وضاءت الأباعد..."[3]. وهنا إشارة واضحة من أبي راس تبيِّن مدى ولائه للباي ومحاولة كسب رضى الباي محمد بن عثمان، ومن ثمّ العيش في كنف السلطة العثمانية.

هذا وقد احتلّت قصائد المدح –التي قيلت في الباي محمد بن عثمان الكبير– في كتاب عجائب الأسفار ولطائف الأخبار لصاحبه أبو راس الناصر بـــ: 204 بيتًا[4]، توزّعت على خمس قصائد هي: العينية والسينية والدالية والرائية ثمّ البائية، حيث يقول في قصيدة من روي العين مادحًا فيها الباي بالعدل:

---

[1]: "المرجع نفسه"، ص: 581.

[2]: بوركبة محمد: عجائب الأسفار... "المرجع السابق" ص–ص: 411–412.

[3]: "المرجع نفسه"، ص: 440. للمزيد ينظر: ص: 525 من نفس المرجع.

[4]: ينظر في قائمة الملاحق جلّ الأبيات الشعرية التي قيلت في مدح الباي محمد بن عثمان الكبير.

فَقَدْ سَاوَاهُمْ بَلْ زَادَ جُودًا عَلَيْهِمْ فَجُودُهُمْ إِلَيْهِ تَالٍ وَتَابِعُ
أَخُو العَدْلِ وَالإِحْسَانِ بِالْعِلْمِ عَامِلٌ فَزَادَ ارْتِفَاعُ المَجْدِ مِنْهُ تَوَاضُعُ
فَقَدْ سَوَّى بَيْنَ النَاسِ بِالْحَقِ فَاسْتَوُوا وَمَا مِثْلُهُ لِلْظُلْمِ وَالْبَغْيِ دَافِعُ[1]

وممّا يلاحظ أنّ أبي راس الناصر قد بدأ قصيدته بالوقوف على الأطلال وبكاءه على ما خلّفه الكفرة الإسبان بمدينة وهران، بعد أن ثارت مشاعره الدفينة إثر رؤيته لما تبقّى من آثارهم، ثمّ يمدح الشاعر خليفته فيصفه بالملك الكريم العادل الذي جمع بين طيب الأصل وعلوّ المكانة، والذي هو لشدّة رأفته برعيّته كأنّه وَالِدٌ لهم، إلاّ أنّ ذلك لا يتعارض مع سلطته عليهم وأخذه على يد المخالف منهم ومعاقبته أشدّ العقاب.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّه من الصفات التي حرص الباي على أن يُمْدح بها فضيلة العدل كَونها من أسس الحكم الراشد، فهذه الصفة من شأنها أن ترفع من مكانته وتعلي من منزلته وتضفي عليه الهيبة والتقدير، خصوصًا وأنّ للباي محمد بن عثمان الكبير مسؤوليات يمارسها في تسيير شؤون رعيته.

ومن قصائده الشهيرة في مدح الباي محمد الكبير قوله:

لَهُ حِلْمُ أَحْنَفٍ وَفِي الجُودِ حَاتِمُ وَنَجْدَةُ عَنْتَرٍ وَسَعْدَ الطَلاَئِعِ
وَفَاقَ فِي عُلُومِ الآدَابِ ابْنَ مَقَلَةٍ وَعَبْدَ الحَمِيدِ والمُحَارِبَ جَامِعُ
فَلِلَهِ مُلْكُهُ العَظِيمُ فَإِنَّهُ يَفُوقُ عَلَى مُلْكِ المُلُوكِ التَوَابِعُ
كَأَنَّهُ شَمْسٌ وَالمُلُوكُ كَوَاكِبُ إِذَا ظَهَرَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ سَاطِعُ
لَهُ سِمَةُ عِلْمٍ وَهِبَةُ هُزْبُرٍ فَكُلٌّ عَزِيزٍ عِنْدَهُ مُتَوَاضِعُ
رَؤُوفٌ بِأَهْلِ الدِينِ ذُو شِدَّةٍ عَلَى كَفُورٍ عَلَى أَهْلِ الشَقَاءِ شَدِيدُ[2]

وأوّل ما نلاحظه في هذه القصيدة هو كثرة الصفات الدينية التي أسبغها أبو راس الناصر على الباي محمد بن عثمان الكبير مع كثرة الاقتباس من معاني القرآن الكريم، كما مدحه بالحلم والعفو وبالجود والكرم وحسن الخلق، والمهابة والإقدام والشجاعة والحياء

[1]: بوركبة محمد: عجائب الأسفار... "المرجع السابق"، ص-ص: 411-412.
[2]: "المرجع نفسه"، ص، ص: 412، 508.

والتقوى والدين والورع والعلم، وهي في مجملها صفات مُدِح بها الملوك منذ القدم بُغية تحسين صورتهم لدى الرعيّة والرّفع من شعبيتهم.

ومن مدح أبي راس للباي محمد بن عثمان قوله: "... ففي مثله يتنافس المتنافسون، وفي مثل فخره فليعمل العاملون فإنه فوز الآخرة والدنيا، والسعاية إلى المرتبة الزلفى العليا... فقد أتحفنا سيدي محمد عثمان وأخذهم بفتحه ثغر وهران، فهو غلب لا يضاهى وفخر لا يباهى..."[1]. إنّ أبا راس متأثِّر جدًّا بالباي محمد بن عثمان الكبير خصوصًا بعد فتح وهران، فهو يحاول أن يتّخذ لنفسه مكانة في بلاطه وقصره.

هذا ولم يكن أبو راس نافرًا من السلطة العثمانية إذ نجده يمدحهم ويتقرّب إليهم، من ذلك مشاركته إلى جانب الباي محمد الكبير في الجيش الإسلامي لفتح وهران، فضلاً عن إشادته في كتبه بولاّة آل عثمان وبدورهم الإسلامي[2].

4-3 تمجيده للعثمانيين:

لقد تناول أبو راس الحديث عن الأتراك العثمانيين في العديد من المواقع ولم يُخف على الإطلاق مشاعره اتّجاههم، فمن خلال كتابه عجائب الأسفار نجده يمجّد العثمانيين حيث يقول عنهم: "... وأول من ملك بها منهم مشهور السيادة وواسطة القلادة، متنقل الأحوال، مسعد المآل، أمير المسلمين السلطان حسن خير الدين، فهو سبب سعادتهم وانتشار صيتهم..."[3]. ثم يواصل أبو راس حديثه عن الإخوة بربروس بقوله: "... عروج المشهور بربروس وخير الدين وإسحاق، وعروج أكبرهم فشبوا في أكمل خصال الرجولية وغاية الشجاعة والفحولية..."[4].

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ أبا راس من الناحية السياسية ينتمي إلى جماعة العلماء الذين دعّموا النظام العثماني وسلطانه بالجزائر، ويتجلّى موقفه هذا خاصّة بعدما رثى الباي مصطفى بوكابوس بعد موته بمرثية أوردها في رحلته المعنونة: "فتح الإله ومنته في التحدث

---

[1]: "المرجع نفسه"، ص: 570.

[2]: عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج3، الجزائر، المطبعة العربية، 1900، ص-ص: 570-577.

[3]: بوركبة محمد: عجائب الأسفار...."المرجع السابق"، ص: 330.

[4]: "المرجع نفسه"، ص: 331.

بفضل ربي ونعمته"، حيث كان الشيخ أبو راس مقرّبًا من الباي بوكابوس، فبنى له هذا الأخير مكتبة كبيرة تُعرف بمكتبة المذاهب الأربعة[1].

وفي نفس المجال نَجد أبو راس عند حديثه عن خبر فتح وهران على يد الباي محمد بن عثمان الكبير يشير إلى بطولات وأمجاد من سبقه في نيّة فتحها، وهو يعطينا وصفًا عن بعض القادة العثمانيين أمثال الداي محمد بكداش والوزير أوزن حسن، فمن بين ما قاله في هذا الموضوع: "... وقد اجتمعت خصال الخير في محمد أباكداش وقد أتحف بالنعم والسعادة والرضوان، وأي نعمة أعظم من فتحه لثغر وهران..."[2]. أمّا عن أوزن حسن فيقول: "...وازن بمعنى طويل وحسن وهو صهر الباشا المذكور ووزيره، وكان شهما وشجاعا عارفا بمكائد الحرب ودسائسها، طالبا لمعالي الأمور مقتنصا لنفائسها"[3].

وقد رأى أبو راس أنّ ابن الباي عثمان كان خير خلفاء زمانه، وفي هذا الصدد قال: "وقولي عثمان هو ابنه وخليفته على الإيالة الشرقية صاحب جود وحسب وعقل وأدب ورئاسة وعلم وشجاعة وحلم، كشف عن الرغائب شموس مجباها وأشرفته المعارف من كؤس حمياها... لقد ملك من الإيالة لبابها، وكشف عن كل معظمة من الأمور حجابها..."[4]. ثم يواصل أبو راس حديثه عن الباي محمد بن عثمان الكبير بقوله:

إِنَّ الإِمَارَةَ كَانَتْ وَالإِيَالَةُ فِي أَسْلاَفِهِ عِرْقُهَا مُخْضَرًّا لَمْ يَيْبَسِ[5]

يعني أبي راس من هذا البيت الباي محمد بن عثمان الكبير فيقول: "ومعناه أنّ أميرنا المنصور بالله كانت السلطة في آبائه وهي مستمرة فيه وفي عقبه دائمة إن شاء الله لا ينقطع

---

[1]: حمدادو بن عمر: أبو راس الناصر... "المرجع السابق"، ص: 96. وللإشارة فإنّ هذه المكتبة هي بمثابة غرفة للمطالعة تمّ إنجازها بعدما تبيّنت براءة أبو راس من ضلوعه في حرب درقاوة ضدّ السلطات العثمانية، حيث قام الباي مصطفى ببناء مسجد له بمعسكر، وزوّده بمكتبة بها أكثر من ثلاثة آلاف مجلّد. للمزيد عن هذا الموضوع يرجى العودة إلى: عبد القادر أوقاسي: مخطوطات المؤلفين الجزائريين في المكتبة الوطنية للجزائر: فهرس فانيان، رسالة ماجستير في علم المكتبات والتوثيق، جامعة الجزائر، 1996– 1997م، ص: 454.

[2]: بوركبة محمد: عجائب الأسفار..."المرجع السابق"، ص: 341.

[3]: "المرجع نفسه"، ص: 348.

[4]: "المرجع نفسه"، ص: 496.

[5]: "المرجع نفسه"، ص: 520.

مددها ولا ييبس عرقها..."[1]. وهنا إشارة واضحة من أبي راس تبيّن مدى ولائه للباي ومحاولة كسب رضاه، ومن ثمّ العيش في كنف السلطة العثمانية.

ونستشف أنّ أبي راس الناصر لم يكن عشوائيًا في نظمه لأبياته إذ رسم خطة محكمة ومتقنة، تركت وقعًا في النفس سواء لدى الباي محمد الكبير أو المتلقّي عامّة، وكان من أهمّ خصائصها الدفاع عن قضيّة مصيرية شغلت اهتمام الشاعر وجعلته لا يرى غيرها ألا وهي قضية فتح وهران، فنظر إليها بعين قلقة أنسته كلّ جمال، فعاش حالة نفسية متأزّمة حاول أن يوفق بينها وبين ضرب الأمثال والحكم والمدح واستقراء التاريخ، وهي وسائل حاول التقرّب بها إلى الباي محمد الكبير وكسب ثقته ونيل رضاه وفي هذا الصدد يقول: "... ثم نظم الله شملها بعد الشتات، ووصل حبلها بعد البتات بتشمير أميرنا أبي الفتوحات إلى حربها مجددا لأهل الإسلام عرسها، وعرفت الفها وأنسها ودام لها السرور والحبور...."[2].

وبمعنى آخر فحياة الباي محمد الكبير يبدوا أنّها كانت بالفعل حياة علم وجهاد فهي بإيجاز وكما وصفها أبو راس كانت: "قد اشتدت به أركان الملة والدين وإحسانه إلى ذلك الخير عند أهل الإسلام، ومتعارفة أفضاله كل حين لديهم مترادفة وحسناته كاملة لا يعتريها وقص ولا عقص..."[3].

ولذلك لم يكن غريبًا على الباي أن ينشغل بعد ذلك في استكمال مسيرة الفتوح التي اشتهر من خلالها، أو في إكمال بناء الدولة وبخاصّة النواحي الحضارية منها، حيث لاحظنا هنا أنّ أبي راس الناصر يقوم بتمجيد هذه الخصال عند الباي محمد الكبير ويسمو به عن بقيّة الملوك إلى الدرجات العلى قائلا: "دام لك التصرف فيما أعطاه الله تعالى لك وأفأه عليك من ثغر وهران، ومد لك السعادة والأمن والأمان ما تعاقب الجديدان، ولاشك أن الله رزقه السعادة في ملكه وأسعد المسلمين بتملكه فأيامهم في مدته أعراسا ورياضهم بساتين وأغراسا، وارتيعوا في مهاد الأمن وقرت لهم أعيانا وطابت لهم أنفاسا دام الله للمسلمين طلعته الحميدة وعلى الكفار سطوته الشديدة، وعلى أهل الزيغ بطشته العتيدة وللمتقين والعلماء منحه

---

[1]: "المرجع نفسه"، ص: 521.

[2]: بوركبة محمد: عجائب الأسفار... "المرجع السابق"، ص: 270.

[3]: "المرجع نفسه"، ص-ص: 444- 445.

العديدة"[1]. وعلى ما يبدوا أنّ أبا راس الناصر كان يرى أنّ تأييد حكم الباي محمد الكبير هو الطريقة الوحيدة للتخلّص من بعض القلاقل التي كانت تعرفها إيالة الجزائر.

وبصورة عامّة نجد أنّ المديح في كلّ الاتجاهات قد طُبِع بالطابع الرسمي المتعلّق بإنجازات الباي محمد الكبير بعد فتحه لمدينة وهران وتحريرها من الاحتلال الإسباني والولاء لحكمه، والإكثار من الخطاب باستخدام العبارات الحضارية المنمّقة تأثّرًا بأسلوب الفرس في مخاطبة ملوكهم، وتتّضح فيه مدى المبالغة في المعاني وتزييف العواطف لأسباب شخصية:[2] إمّا طمعًا في نيل الجوائز والمناصب، وإمّا رغبة في تحقيق مطامع شخصية أو لكسب رضى الباي محمد الكبير ونيل ثقته، ومن ثم العيش في كنف السلطة العثمانية.

[1]: "المرجع نفسه"، ص-ص: 525- 526.

[2]: وللإشارة فإنّ كثيرا من العلماء تقرّبوا من السلطة والحكّام بُغية تحقيق مصالح ذاتية ونفعية على رأسها الطمع في عطاياهم والمال لاستخدامه في التقوّي على أحد المنافسين، ولذلك اتّخذ هذا التقرّب مظهر المدح المفرط والمبالغ فيه، وهذا ما أكّده ابن سحنون بقوله: "فأمر لي أدام الله جوده عطاء أغاظ به الحواسد، وقطع به عروق الفقر المستأسد فأمسيت به غنيًّا". ابن سحنون: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 461.

الفصل الخامس:

مظاهر تدهور علاقة العلماء بالسلطة العثمانية.

أولا: أسباب القطيعة بين السلطة والعلماء

ثانيا: مظاهر القطيعة

ثالثا: نتائج القطيعة

منذ الوهلة الأولى من التحاق الجزائر بالدولة العثمانية قرّب العثمانيون إليهم رجال الدين من علماء ومرابطين بُغية استخدامهم كواسطة بينهم وبين السكّان، وبدافع الجهاد ضدّ الإسبان والغزوات الصليبية الأوروبية على السواحل الجزائرية، وفي تعبئة الناس وتوجيه آراءهم. وللعلم فقد استمرّت تلك العلاقة بينهما حسنة حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي لتتغيّر بعدها في الفترة الأخيرة من العهد العثماني، لا سيما بعد تحرير مدينة وهران سنة 1792م، وتتحوّل من تحالف إلى قطيعة ونفور.

أولا: أسباب القطيعة بين السلطة والعلماء:

لقد أصبح العلماء ورجال الطرق الصوفية إلى محرّضين على السلطة بعد أن كانوا في فترة قد مضت من المدافعين عنها والمؤيّدين لها، وهنا نتساءل حول الأسباب التي أثّرت على تلك العلاقة بين الطرفين حتى وصلت إلى درجة التأزّم، وقد حاولنا إرجاعها للعوامل التالية:

1- الأوضاع السياسية المتعفنة والمتدهورة:

تميّزت الفترة الأخيرة من الحكم العثماني بعدم استقرار جهاز الحكم وكثرت الاضطرابات التي عمّها الظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي، وتتجلّى هذه الاضطرابات في كثرة تعاقب الحكّام الذين تميّز جلّهم بالضعف وعدم الكفاءة، حيث لم يتمكّنوا من ضبط أمور الدولة خاصّة بعد أن أصبحت المناصب تُباع وتشترى بدلاً من مراعاة الكفاءة التي تسمح بتسيير شؤون الدولة بحزم ودراية[1]. وفي هذا الصدد يقول حمدان بن عثمان خوجة: "...وفي تلك الفترة لم يكن على الذي يريد أن يصبح بايا إلاّ أن يتّجه لأقارب أحمد باشا ويمدهم بالأموال، لقد كانت تلك المناصب تباع وتشترى وهو أمر كان يلائم رجال الحكم الذين كان ظلمهم يتجاوز القانون"[2].

ويضيف: "ومن أكبر التجاوزات التي وقعت في عهد حكومة الأتراك بالجزائر هو إعطاء منصب الباي لأشخاص بلا مروءة ولا كفاءة"[3]. كما أنّ أغلب دايات الجزائر في الفترة الأخيرة من الحكم العثماني وصلوا إلى مناصبهم بفضل الانقلاب للمطالبة بزيادة

---

[1]: فاطمة الزهراء سيدهم: علاقة دايات الجزائر بالدولة العثمانية ما بين 1791- 1830م، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة سيدي بلعباس، 2011- 2012، ص: 13.

[2]: حمدان بن عثمان خوجة: "المصدر السابق"، ص- ص: 112- 113.

[3]: "المصدر نفسه"، ص: 130.

الأجور، كما أنّ الكثير منهم كان يمارس مهنًا تُعتبر وضيعة كمهنة الفحامين والإسكافيين والكنّاسين، وأبرز مثال على ذلك الغسّال الذي كان يشتغل بتغسيل الموتى قبل 1808م[1].

وعلى إثر موت الداي محمد عثمان باشا سنة 1791م وتولّي الداي بابا حسان 1791-1798م مقاليد الحكم بعده والداي مصطفى باشا 1798- 1805م[2]، هذا الأخير الذي كثرت في فترته أعمال الاحتكار في القمح والحبوب من طرف اليهوديين بكري وبوجناح، وارتفعت الأسعار وانتهى الأمر إلى قيام فتنة شملت طائفة اليهود[3]. كما أصبح منصب الداي يفرض عليه الاختيار ولا يمكنه الاستقالة فبالنسبة إليه لا يوجد في الحياة سوى مكانين العرش أو القبر، ونتيجة لهذا فقد شاعت ظاهرة اغتيال الدايات حتى تعاقب على الحكم خلال تسع سنوات ما بين 1220-1230هـ/ 1805-1814م خمس دايات[4]. فضلاً عن الداي مصطفى باشا قُتِلوا كلّهم على أيدي العساكر نذكر منهم الداي علي باشا ويُعرف بالغسّال 1809م، والداي محمد باشا سنة 1814م والداي عمر باشا سنة 1817م[5].

كما كانت فترة الكثير منهم لا تتعدّ بضعة أشهر، وهو ما يشير إلى عدم الاستقرار السياسي الذي عاشته الجزائر في هذه المرحلة من الحكم العثماني الشيء الذي أثَّر سلبًا على الوضع الداخلي للبلاد، حيث وجد البايات مُتّسعًا من الحريّة في تصرّفاتهم فعاث بعضهم فسادًا بين الناس وشاع ظلمهم للسكّان[6] بدليل ما ذكره العنتري وهو من الذين عايشوا المرحلة الأخيرة من الحكم العثماني واصفًا حكّام تلك الفترة بقوله: "... ومن هذا الوقت صاروا الترك يأخذون الجور ونبذوا الحقوق المشروطة وبدا منهم الفجور، وبالجملة أنه من

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص: 113.

[2]: وللإشارة فلقد ارتكب الداي مصطفى أخطاء كثيرة أهمّها والذي قُتِل من أجله، هو إعطاءه لليهودي بوجناح سلطة مطلقة يتصرّف في الإيالة كيفما يشاء، حتى أنّ المؤرخين الغربيين كانوا يُسمّونه "ملك الجزائر". للمزيد راجع: حمدان خوجة، "المصدر السابق"، ص: 112.

[3]: محمد شاطو: "السلطة العثمانية في الجزائر وعلاقتها بالطرق الصوفية 1792- 1830"، المواقف، العدد: الثالث، ديسمبر 2008، ص-ص: 159-160.

[4]: أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا داي الجزائر...، "المرجع السابق"، ص، ص: 56، 58.

[5]: حمدان بن عثمان خوجة: "المصدر السابق"، ص-ص: 112-114.

[6]: محمد شاطو: نظرة المصادر الجزائرية...، "المرجع السابق"، ص: 82.

حين موت الباشا الذي اسمه بابا محمد –الداي محمد عثمان باشا– ومات صالح باي تبدلت أحكام الترك، وانقلبت حقائقهم وصار صغيرهم لا يواقر كبيرهم وبدا النقص في ملكهم"[1].

ويضيف: "... أنّ الأتراك في بدء أمرهم عدلوا بين الناس ولم يظلموا أحدا وحين تمكّنوا صاروا يظلمون الناس ويسفكون دماءهم ويأخذون أموالهم بغير حق، ويعدون ولا يوفون ويؤمنون ويغدرون كما يعلم ذلك مما تقدم... اشتهروا الترك بالظلم وجاروا ولم يزل ظلمهم يزداد حتى تمّ وجاوز الحد"[2].

ومن خلال استقرائنا لتلك الكتابات والدراسات التاريخية المهتمّة بالفترة العثمانية في الجزائر نلاحظ أنّ فترة أواخر العهد العثماني بالجزائر شهدت تدهورًا في مختلف الأوضاع نتيجة لفساد النظام السياسي من جهة، وتأزّم الأوضاع الاقتصادية من جهة أخرى في عهد حكومة الدايات 1671–1830م، حيث تقلّص معها النشاط البحري الذي تزامن مع سنوات القحط التي أضرّت بالزراعة في هذه المرحلة، هذا ما أسفر عن أثار انعكست سلبًا على المجتمع الجزائري بمختلف شرائحه.

2- الأوضاع الاقتصادية:

إنّ ما تميّز به الوضع الاقتصادي لم يكن يختلف عمّا تميّز به الوضع السياسي من حيث التدهور والتردّي، بل عرف هو الآخر صعوبات في أواخر العهد العثماني لم تعهدها البلاد من قبل، فبعد تحوّل طرق التجارة العالمية وفقدان حكومة الأتراك لمصادر تمويل خارجية جعلها ترتبط أكثر بالأراضي داخل الإيالة ممّا أثّر سلبًا على طبيعة الفلاحين الممثلين آنذاك أغلبية المجتمع الجزائري[3]، الذين عانوا من السياسة الضريبية القاسية التي فُرضت عليهم بالقوّة لتغطية العجز النّاتج عن ضعف موارد الغنائم البحرية بفعل تكتّل الأوربيين في مواقفهم لوضع حدّ لنشاط البحرية الجزائرية التي كانت تزعجهم كثيرا في الحوض الغربي للمتوسط، وهي التي كانت في الوقت ذاته تدرّ أموالا طائلة على البلاد[4]، وهو ما يذكره الشريف الزهار بقوله: "وفي تلك السنة 1231ه/ 1815م اتفق جميع الرياس

---

[1]: محمد الصالح بن العنتري: فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، مراجعة وتقديم وتعليق: يحي بوعزيز، الجزائر، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع ، 2007، ص: 81.

[2]: "المصدر نفسه"، ص: 96.

[3]: ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي: الجزائر في التاريخ.... "المرجع السابق"، ص: 33.

[4]: محمد شاطو: السلطة العثمانية في الجزائر....، "المرجع السابق"، ص: 161.

مع السلطان محمود على إلغاء الأسر ...فقدم الإنكليز للجزائر وأخبر الأمير بذلك... وأنّ الأسارى الذين بالجزائر فإنّه أتى لكي يحملهم"[1].

ومن ثم تحولت الحكومة العثمانية بالجزائر في أواخر عهدها إلى جهاز لجمع الضرائب وكثيرا ما كانت تجهّز الحملات العسكرية لهذا الغرض، وذلك لإرغام السكان على دفع ما فُرض عليهم[2]. وللإشارة فإنّ نظام الجباية كما يراه سعيدوني والبوعبدلي أنّه غير عادل، لأنّ القائمين على ذلك النظام لم يراعوا طبيعة الإنتاج ولا وضعية الفلاحين وحالتهم، فهم لا يأخذون بعين الاعتبار إلاّ نوعية الملكية ومتطلّبات الخزينة وحاجة الموظفين ممّا زاد من شقاء وبؤس الفلاحين[3].

وفي نفس السياق يقول الزهار: "... الخلفاء يأتون في أواخر الربيع- يقصد نواب البايات- فيخرجون معهم الأحمال ليستخلصوا الخراج والزكاة والأعشار، وهكذا وضع الأوائل الجباية على المنهج الشرعي، والأواخر صاروا يخرجون المحلات لاستخلاص المغارم والظلمات ونهب أموال المسلمين، وما صار هذا حتى أصبح الناس فجّارا والأمراء ظالمين"[4].

والجدير بالذكر أنّ الجباة كانوا من الجنود المأجورين الذين استعملوا العنف في جباية الضرائب وعن طريق الإكراه والضغط في كثير من الأحيان خاصة ضدّ القبائل الممتنعة والمستعصية، ممّا أدّى إلى اتّساع شقة الهوة بين الحاكم والرعيّة وإلى سخط فئات عريضة من السكان[5]، وخير دليل على ذلك ما ذكره إميرت Emerit بأنّ الباي محمد الكبير قام خلال حملته من جمع عدد كبير من الغنائم ما يقدر بـــ: 67 ألف رأس من الغنم والمعز

---

[1]: أحمد الشريف الزهار، "المصدر السابق"، ص-ص: 119- 120.

[2]: وللإشارة فإنّه كانت تتشكّل كلّ محلّة من عدد معيّن من الخيام كلّ خيمة تأوي 30 جنديًا أو جبّايًا للضرائب على رأسهم ضابط برتبة بولكباشي، ثم تطوّر عددها مع تطوّر الظروف السياسية للإيالة حيث يذكر حمدان خوجة أنّه في عهده كانت مائة خيمة لمحلّة قسنطينة، وستّون خيمة لمحلّة معسكر وأربعون خيمة بالنسبة لمحلّة التيطري. للمزيد يرجى العودة إلى : حمدان خوجة: المرآة... "المصدر السابق"، ص-ص: 101- 102.

[3]: ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي: الجزائر في التاريخ....، "المرجع السابق"، ص: 33.

[4]: أحمد الشريف الزهار: "المصدر السابق"، ص: 35.

[5]: مختار مخفي: العلماء والسلطة في الجزائر... "المرجع السابق"، ص-ص: 149-150. وللمزيد عن السياسة التعسّفية في جمع الضرائب يرجى العودة إلى: العربي الغالي: الثورات الشعبية أثناء العهد التركي، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، 1985، ص: 168.

و5000 جمل و653 من البغال و720 من البقر، وأسره 60 شخصا أغلبهم من النساء والتي وزّعها على جنوده وقبائل المخزن خلال عودته من الحملة[1].

كما يذكر المزاري أنّ الباي حسن أثقل كاهل الرعية بالضريبة التي عُرفت "بالخطية" وهي نوع من العقوبة المالية[2]، واستمرّ في تصرّفه هذا حتى في الظروف الصعبة مثل قلّة المطر وأيام المجاعات والأوبئة، وعندما سُئِل هذا الباي عن هذا أجاب قائلا: "...إنّ أهل الجزائر قد أكلوني بالكلية ولذلك تراني قد أكلت الرعية"[3].

وعلى هذا الأساس فقد زادت معاداة السكان الجزائريين وخاصّة الفلاحين في الناحية الغربية للحكومة العثمانية بسبب المطالب الضريبية التي أدّت إلى تفاقم المآسي واتّساع الهوة بين الطرفين، وغلاء الأسعار والإضرار بالقدرة الشرائية، ممّا أثقل كاهل السكان[4]، حتى أنّه بسبب ارتفاع قيمة الضرائب أهمل الفلاحون النشاط الزراعي وانسحبوا إلى الجبال والصحاري لمزاولة حرفة الرعي[5].

وفيما يظهر أنّ الأتراك لم يسعوا لتنمية المجال الاقتصادي عن طريق الاستثمارات فأموال الضرائب كانت تُدفع كمرتّبات للجيش[6] هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد عرف القطاع الزراعي تدهورا بفعل تعاقب وتواتر الكوارث الطبيعية[7] منها على سبيل المثال اجتياح الجراد للحقول والبساتين عامي 1806 و1807م وعامي 1816–1819م، فكان سببًا في تراجع المحاصيل الزراعية وتدهورها ممّا أدّى وتسبّب في القحط والمجاعات[8].

---

[1]: Marcel Emerit: "Les aventures de Thédenat: esclave et ministre d'un bey d'Afrique 18 Siècle", in: R.A, N: 92, 1948, p: 182.

[2]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود.... ج1، "المصدر السابق"، ص: 350.

[3]: "المصدر نفسه"، ص: 351.

[4]: محمد شاطو: السلطة العثمانية في الجزائر... "المرجع السابق"، ص: 160.

[5]: مبارك بن محمد الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، الجزائر، مكتبة النهضة الجزائرية، 1964، ص: 333. وللمزيد عن الحملات العسكرية العثمانية على القبائل لجباية الضرائب ينظر: ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي للجزائر... "المرجع السابق"، ص: 247.

[6]: توفيق دحماني: النظام الضريبي ببايلك الغرب...، "المرجع السابق"، ص–ص: 121–122.

[7]: محمد الزين: "نظرة على الأحوال الصحية بالجزائر العثمانية في أواخر عهد الدايات"، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، العدد: 17، جامعة غرداية، 2012، ص: 131.

[8]: ناصر الدين سعيدوني: دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية... "المرجع السابق"، ص: 101.

هذا وقد أشار صالح العنتري إلى ذلك بقوله: "...حصلت للناس شدّة ومجاعة قد أشرف فيها الضعفاء على الهلاك... حتى صاروا يقتاتون الدم والميتة وغير ذلك مما لا يباح إقتياته"[1]، كما يؤكد هذا الآغا بن عودة المزاري أثناء حديثه عن معاناة السكان سنوات القحط والمجاعة، وأيام ارتفاع الأسعار وانتشار الفساد وقلة الغذاء بقوله: "وفي فصل الربيع سنة اثنين وأربعين ومائتين وألف-1242ه/ 1827م- وقع غلاء عظيم وقحط فيه الناس إلى أنصار الباشا يفرق الرغيف بالمدن على الناس، فسمّي العام بعام خبز الباشا"[2].

وكذلك ظاهرة الجفاف فقد كانت الأمطار تنقطع عن التساقط لفترات تستغرق الموسم الفلاحي كلّه خاصة الفترات الممتدة من 1734 إلى 1737م، ومن عام 1778 إلى 1779م هذا ما تسبّب في ظهور عدّة مجاعات كان أثرها وخيمًا على الوضع الاجتماعي والصحي والاقتصادي للبلاد منها مجاعة 1792 و1793م وحتى سنوات 1798 و1799م وأخطر مجاعة سنة 1800م، والتي على إثرها اختفت الأقوات من الأسواق وأعقبتها سنوات القحط 1806-1807م[3]، وفي هذا المقام يقول أبو العباس الناصري: "...ومع ذلك لم يتم للترك ما أرادوا من أجل القحط الذي كان قد عمّ حتى عدمت الأقوات وجلا أهل تلمسان عنها إلى بلاد المغرب، ورفضوا الرجوع إلى جنب الأتراك أين يصيبهم الجوع والقتل"[4]. ويفهم من هذا أنّ سوء الحالة الاقتصادية جعلت الناس تُعاني من التذمّر وتُصرّ على رفض العودة إلى بلادهم التي أجمعت عليهم القتل والجوع معًا، وهو ما أدّى فيما بعد أيضا إلى إعلان حالة العصيان[5].

وممّا يستلفت النظر أنّه أمام تمادي الحكّام في سياستهم تلك انفلت الأمر من أيديهم وازدادت الأوضاع سوءًا وحركية السكّان ضعفًا وحالة الجيش تدهورًا، خصوصًا بعد انتهاج الدايات الأواخر-لا سيما الداي بابا حسان والداي مصطفى باشا- لأسلوب جديد في

---

[1]: صالح العنتري: مجاعات قسنطينة، تحقيق وتقديم: رابح بونار، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974، ص-ص: 33-34.

[2] :الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود.... ج1، "المصدر السابق"، ص: 360.

[3]: قندوز عبد القادر: "الوضع الصحي لسكان الجزائر في العهد العثماني"، الخلدونية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد: السابع، جامعة ابن خلدون: تيارت، ديسمبر 2014، ص: 273.

[4]: أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي الناصري: الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى: الدولة العلوية، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، المغرب، دار الكتاب، 1956، ص: 111.

[5]: مختار مخفي: العلماء والسلطة في الجزائر... "المرجع السابق"، ص: 150.

التعاملات التجارية يرتكز على تصدير أكبر قدر من المحاصيل الزراعية إلى الخارج عن طريق الشركات الأوربية، والمحتكرين اليهود أمثال بكري وبوجناح[1].

الأمر الذي أحدث اضطرابات خطيرة بعد معاناة السكان من قلّة كميات القمح والتي تعتبر الغذاء الأساسي لهم، يرويها نقيب أشراف الجزائر أحمد الشريف الزهار بقوله: "إنّ الخزناجي –مصطفى – كان محبّا لليهود وكان كبيرهم ولد بوجناح له صولة كبيرة مع الأمير والخزناجي، وكانت له مراكب تسوق القمح والشعير من وهران وعنابة إلى بر النصارى بإذن الأمير ووزيره الخزناجي... وكان الناس والأتراك يخافون شوكته إلى آخر سنة 1219ه/ 1804م، فقام رجل من الأتراك اسمه يحي يريد قتله... فلما قرب منه ضربه ببندقية لبطنه... فلما سمع أهل البلد بموت الذمي وبقاتله فرح المسلمون بذلك... فلما علم الأتراك أن أهل البلد فرحوا... خرج الأتراك وذهبوا للحارة وابتدأوا يقتلون رجال اليهود فقتلوا منهم نحو المائتين، وعندما وقع هذا الأمر باليهود بقي الأمير ساكنا ولم يقدر على أحد"[2].

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ اليهود قد ازداد نفوذهم وسيطرتهم على الاقتصاد الجزائري مع أواخر العهد العثماني، إذ أصبحوا أصحاب السلطة بفضل ثروتهم وازدهار تجارتهم التي كانوا يمارسونها بدعم من السلطة الحاكمة[3]، فقد أوكل الدايات لليهود مهمّة الإشراف على تنظيم المدفوعات الخارجية وتسييرها وزاد تأثير اليهود في عهد الداي حسن باشا 1791– 1798م وخليفته الداي مصطفى 1798– 1805م، حيث أصبح اليهوديين بكري وبوجناح يتصرّفان في الشؤون الداخلية والخارجية للإيالة بكلّ حريّة، وفي عهد الداي مصطفى فإنّ بوشناق أصبح الحاكم الفعلي لإيالة الجزائر حيث كان يُعيِّن من يشاء في الوظائف الحكومية، ويُحدِّد قيمة الضرائب وأسعار السلع[4].

---

[1]: محمد شاطو: السلطة العثمانية في الجزائر... "المرجع السابق"، ص: 162. وللمزيد عن هذا الموضوع يرجى العودة إلى: محمد داده: اليهود في الجزائر في العهد العثماني، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة دمشق، 1985، ص: 145.

[2]: أحمد الشريف الزهار، "المصدر السابق"، ص–ص: 67–68.

[3]: محمد داده، "المرجع السابق"، ص: 145.

[4]: حنيفي هلايلي: أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، الجزائر، دار الهدى، 2008، ص: 19.

وعليه فإنّ هذه السياسة التي انتهجها العثمانيون في أواخر عهدهم بالجزائر قد أثّرت على الأوضاع الاقتصادية، وكانت انعكاساتها سلبية على المجتمع ممّا وفّر الأجواء لقيام التمردات والثورات عليهم، ويرجّح أنّ آثارها كانت جسيمة على الجميع حيث تلاشت الروابط بين الحكّام والرعية وفقدت الثقة وقلّ الأمن، واشتكى النّاس من ظلم البايات وانحرافهم.

3- الأوضاع الاجتماعية:

إنّ السياسة العثمانية في الجزائر جعلت من الأتراك طبقة حاكمة لها كلّ الحقوق السياسية والامتيازات الاقتصادية، ومن السكّان المحليّين طبقة محكومة عليها تقديم الضرائب والقيام بالواجبات المفروضة عليها، وقد ترتّب على ذلك فقر السكان وبؤسهم وتفكيك البنية الاجتماعية للمجتمع الجزائري[1].

وبعبارة أخرى فإنّ أسلوب الحكم العثماني كان قد انتهى إلى مثل ما انتهى إليه في عامّة النيابات من انتشار المظالم واحتقار الأهالي، والعمل على الاستبداد بالحكم والإمساك بمقاليد الإدارة، بالإضافة إلى التحكّم في النشاط السياسي والاقتصادي فأصبحت الغالبية من السكان الأصليين الجزائريين مهمّشين، ومجرّد عمّال في خدمة الأقليّة التركية الحاكمة التي رسمت لنفسها نظامًا إداريًا سياسيًا تتدرج فيه الوظائف والرّتب مكرّسًا مبدأ الاحتكار والتمييز، حيث تمّ فيه إبعاد كلّ ما هو جزائري عن تقلّد أيّ منصب إداري أو اقتصادي مهم[2].

وقد تسبّبت تلك السياسة في فساد النظام العثماني وانعزاله عن الرعيّة والمجتمع وهذا ما جعل المؤرخ مؤيد محمود حمد المشهداني يقول عن العثمانيين: "كان من الأخطاء التي ارتكبها الأتراك عدم محاولتهم ربط المجتمع في الجزائر بحكمهم، واستمرّت علاقاتهم بالمجتمع الجزائري تتّسم بالسوء وبطابع نفعي بحت دون أيّة محاولة للتوحيد السياسي، وهذا ما يفسّر العدد الكبير للكيانات المستقلّة أو شبه المستقلّة داخل الجزائر، فضلا عن ارتباط المجموعات الجزائرية مع قادتها المحليين في إطار الطرق الدينية أكثر ممّا كانت تتفاعل مع

---

[1]: بونقاب مختار: "انتفاضة درقاوة في بايليك الغرب الجزائري 1802- 1816"، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، العدد: 03، جامعة معسكر، ديسمبر 2008، ص: 137.

[2]: حنيفي هلايلي: "الثورات الشعبية في الجزائر أواخر العهد العثماني كرد فعل على سياسة التهميش"، مجلة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، العدد: 20، أفريل 2006، ص: 190.

الأتراك، وهذا ما يظهر بشكل واضح في تاريخ الثورات التي حدثت فيها ضدّ أيّ حكم أو حاكم"[1].

ويضيف: "...هناك إخفاقات واجهت حكّام الجزائر بعد وفاة خير الدين، تمثّلت في عدم الاهتمام بالجوانب الاجتماعية الأمر الذي أدّى إلى تفاقم أزمات الشعب الجزائري بعد تسلّط الحكّام، واهتمامهم بتدعيم سلطتهم فقط دون النظر إلى حاجات الشعب الجزائري وبذلك طوقوا أنفسهم بطوق العظمة الذي سبّب لهم نفورا في النهاية، ولم تتم مساعدتهم حين هجوم فرنسا على الجزائر وسقوطها سنة 1830م"[2].

ويفهم من هذا أنّ الفقر والشعور بالإحباط هو ما أدّى إلى محاولة تغيير الوضع عن طريق الانتفاضة، فالحكّام العثمانيون لم يعملوا على دمج التنظيمات الاجتماعية من جماعة ومشيخات ومرابطين في نظام واحد موحّد ولهذا كان حكْمهم بعيدًا عن أحوال الناس، حيث قلّت ثقة الشعب فيهم لأنّهم راعوا مصالحهم وامتيازاتهم بالدرجة الأساسية ولم يهتمّوا بالشعب وظلموه[3]، الأمر الذي بلغ ببعض شعراء الجزائر إلى هجائهم والحطّ من شرفهم ومن ذلك قول الشاعر المنداسي:

فَمَا دَبَّ فَوْقَ الأَرْضِ كَالتُرْكِ مُجْرِمٌ ... وَلاَ وَلَدَتْ حَوَاءُ كَالتُرْكِ إِنْسَانَا
وَلاَ طَارَ مِثْلَ التُرْكِ لِلْسَمْعِ طَــارِقٌ ... وَلاَ وَجَدَ الشَيْطَانُ كَالتُرْكِ فَتَانَا
عَتُوا وَاسْتَفَزُوا المُسْلِمِينَ مِنَ القُرَى ... وَقَدْ عَبَدُوا حُمْرَ الدَنَانِيرَ أَوْثَانَا[4]

كما شهدت الجزائر منذ بداية الحكم العثماني إلى نهايته فترات صعبة تدهورت خلالها الأوضاع الصحيّة تاركة أثارًا سيّئة على نموّ السكّان وأحوالهم الاجتماعية، كما صاحب ذلك ركود اقتصادي وانكماش عمراني وانتشرت عدّة أمراض خطيرة كالطاعون والكوليرا

[1]: مؤيد محمود حمد المشهداني: "أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني 1518-1830"، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، المجلد: 05، العدد: 16، نيسان 2013م، ص-ص: 427-428.

[2]: "المرجع نفسه"، ص-ص: 411-412.

[3]: رشيدة شدري معمر: العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر.... "المرجع السابق"، ص: 161.

[4]: ابن سحنون الراشدي: الثغر الجماني....، "المصدر السابق"، ص: 56.

والتيفوس والجذري، ولعلّ أخطرها الطاعون الذي ترك بصمات خطيرة على البنية الاجتماعية الجزائرية[1].

هذا بالإضافة إلى تعرّض الإيالة الجزائرية للعديد من الكوارث الطبيعية في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر أثّرت بدورها على الوضع الصحّي للسكان مثل الجفاف والفيضانات والمجاعات[2]، بالإضافة إلى الزلازل التي ترتّب عنها تخريب وتدمير العديد من المدن مثل الزلزال العنيف الذي أصاب وهران وضواحيها في ليلة 08 إلى 09 أكتوبر 1790م، فقد دمّر في ظروف دقائق معدودة كلّ المنازل والكنائس واستمرّ حتى جانفي 1791م متسبِّبًا في قتل 3000 ضحيّة، وهذا على الرغم من المحاولات التي قام بها الباي محمد الكبير بإنقاذ المنكوبين بمساعدة المخزن الذي وزّع الحبوب والزيوت والألبسة والخيام[3].

وممّا زاد الأحوال الصحية سوءًا أنّ الحكّام العثمانيين كانوا لا يهتمّون بأمور الصحّة ولا يولونها العناية اللائقة بها[4]، كما لم تكن لهم سياسة واضحة إزاء ذلك لدرجة أنّهم لم يتّخذوا أيّ إجراء وقائي ضدّ تنامي هذه الأمراض التي تكرّر ظهورها في شكل تواتر حلقات متعاقبة[5]، وهو الأمر الذي جعل الفئة المحرومة من السكّان الذين أغلبيتهم من الفلاحين تشعر بالغبن والجور والظلم مقابل رفاهية العنصر العثماني، وأنّها من الدرجة الثانية مهمّتها

---

[1]: قندوز عبد القادر: "المرجع السابق"، ص: 268. وللمزيد عن وباء الطاعون الذي مسّ إيالة الجزائر وقتل العديد من العلماء أمثال أبو راس الناصر، وابن زرفة الدحاوي وعبد القادر بن السنوسي بن دحو بن زرفة يرجى العودة إلى: فلة موساوي القشاعي: الصحة والسكان في العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي، أطروحة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، 2003-2004، ص: 49. وأيضا: فلة موساوي القشاعي: "وباء الطاعون في الجزائر العثمانية : دوراته وسلّم حدّته وطرق انتقاله"، مجلة دراسات إنسانية ، جامعة الجزائر، العدد: 01، 2001، ص: 134.

[2]: محمد الزين: "المرجع السابق"، ص: 131، قندوز عبد القادر، "المرجع السابق"، ص-ص: 272-274.

[3]: قندوز عبد القادر، "المرجع السابق"، ص: 272. وللمزيد عن هذا الموضوع راجع: قندوز عبد القادر: الطب في ثقافة علماء الجزائر خلال العهد العثماني 1519-1830م، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة معسكر، 2011-2012، ص: 21.

[4]: قندوز عبد القادر: الوضع الصحي لسكان الجزائر...، "المرجع السابق"، ص: 274.

[5]: ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية : دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2000، ص: 560.

دفع الضرائب المتزايدة التي أثقلت كاهلها[1]، وهذه التجاوزات هي التي أكّد عليها دي غرامونت De Grammont بقوله: "أنّ الأتراك كانوا لا يفرضون الحجر الصحي على السفن لتفادي انتقال الأمراض"[2].

ومن المرجّح أنّ إهمال هؤلاء الحكّام للأمور الصحية قد يعود إلى الانحرافات والتجاوزات الخطيرة التي شهدتها البايليكات الثلاث أواخر العهد العثماني، حيث أنّ بعض البايات عاثوا بين الناس فسادا وأنهكوا السكان بشتّى أنواع المظالم[3]. فمع موت الباي محمد الكبير محرّر مدينة وهران من الإسبان تولّى ابنه مكانه وهو الباي عثمان الذي انحرف عن الجادة ولم يلتزم بسيرة أبيه، ولم يحافظ على أمجاده فكثر ظلمه وعبثه بالرعيّة وهو ما ذهب إليه المزاري واصفا إياه: "وأعرض عن المملكة باللب وأقبل بكله على اللهو والطرب، فانهمك فيه انهماك بعض ملوك العرب...ولم يلتفت لما كلفه الله به من أمور الرعية، بل جعل ذلك نسيا منسيا بالكلية"[4].

كما يقول عنه مسلم بن عبد القادر الوهراني: "...وانتقل باللهو والطرب متشبها ملوك بني العباس العرب... وقد اتخذ مجلسا للخلوة فلا يخرج إلاّ بعد أيام وأصحاب المظالم بالباب تنتظر، وتولى الدعاوي أرباب دولته حتى لحقهم في تلك المدة ربح كثير حيث رجعت الأمور الملوكية إليهم، وهذا كله وهو لا يلتفت إلى ما يشوشه ويشغله عن اللهو...وذلك أنه بعث إلى تونس رجلا يأتيه ببعض جواريها المغنيات فأتاه بجاريتين مغنيتين متصدرتين في الجمال والغناء، فتسلّى معهما أياما وليالي إلى أن بلغ ذلك متولي أمره بالجزائر، واستشاط

---

[1]: وللإشارة فإنّ بعض المصادر الغربية قد أكّدت على أنّ بعض الحكّام الأتراك كانوا يُهدِّدون ويعاقبون من يتكلّم عن الطاعون أو الأوبئة الأخرى، في حين كان نظام الحجر الصحي لمدّة أربعين يومًا- الكارنتين- معمولاً به عند الأوربيين والذي يسمح بحجز الوافدين من الخارج والمشتبه في مرضهم أربعين يومًا حتى تثبت سلامتهم من الوباء، للمزيد عن هذا الموضوع يرجى العودة إلى : حمدان بن عثمان خوجة: إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز عن الوباء، تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم، الجزائر، وزارة الثقافة، 2007، ص: 45.

[2]: H.D. De Grammont: Histoire d'Alger sous la domination Turque 1515-1830, Ed Ernest Leroux, Paris, 1887, p:410.

[3]: زينب جعني: "ثورة ابن الأحرش في بايلك الشرق 1800-1807"، عصور الجديدة، العدد: 18، جامعة وهران، خريف- أكتوبر 1436- 1437هـ/ 2015م، ص: 131.

[4]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود.... ج1، "المصدر السابق"، ص-ص: 298-299.

من ذلك غضبا فأمر بعزله وكبس دوره وأخذ جميع ما في خزائنه من الأموال والذخائر..."[1].

وأمام انحرافات البايات والفساد الذي أصاب أجهزة السلطة الحاكمة من انتشار الرشوة وتدخّل الجيش في الحكم، وتعفن الجهاز الإداري تَعرّض النّاس للظلم والنهب والسلب[2]، حيث تشهد آراء العديد من العلماء على السياسة الخاطئة التي انتهجها العثمانيون في آخر عهدهم في الجزائر كمسلم بن عبد القادر الوهراني في قوله: "إنّ الأتراك لم يكونوا أهلا للحكم في أواخر عهدهم... وحكموا البلاد مدة ثلاثين سنة لم تكن فيها سياستهم رشيدة، ولا كان حكمهم فيها عادلا على العموم فكان من الطبيعي أن يكثر الناقمون والثائرون عليهم"[3].

وعليه يمكننا القول أنّ سياسة الأتراك التعسفية هي التي كانت سببا في اتّساع الهوة بين الطرفين- السلطة والرعية التي من ضمنها فئة العلماء-، وممّا زاد في اتساعها فقر الجزائريين وشعورهم بالإحباط والضعف بعد غلاء الأسعار وزيادة المطالب الضريبية[4] وهو الأمر الذي أدّى بهم إلى محاولة تغيير الوضع عن طريق التمرد والقيام بالثورة ضد الأتراك، والتي تزعّمها رجال الصوفية على وجه الخصوص لما لهم من مكانة وكلمة مسموعة في أوساط المجتمع[5].

4- الأوضاع الثقافية والدينية:

من المعروف أنّ الدين ظاهرة سياسية ترتبط بالنظم السياسية وأنظمة الحكم، والدين له وظيفتان سياسيتان متناقضتان فقد يُستعمل أداة للسيطرة على الشعوب وقد يستعمل كأداة

---

[1]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب... "المصدر السابق"، ص-ص: 66-67.

[2]: وللإشارة فإنّ الأتراك قد حافظوا على امتيازاتهم داخل الجزائر من خلال انعزالهم عن القاعدة الشعبية الجزائرية وعدم إشراك السكان في تسيير شؤونهم بأنفسهم، وعلى حسب قول أبو القاسم سعد الله فقد كان نظامهم سياسيا جمهوريا عسكريا مغلقا. وللمزيد عن سياسة تهميش الجزائريين من طرف السلطة العثمانية يرجى العودة إلى: سفيان صغيري: =العلاقات الجزائرية العثمانية خلال عهد الدايات في الجزائر 1671-1830، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الحاج لخضر: باتنة، 2011-2012، ص-ص: 146-148.

[3]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب... "المصدر السابق"، ص: 55.

[4]: محمد شاطو: السلطة العثمانية... "المرجع السابق"، ص: 161.

[5]: بونقاب مختار، "المرجع السابق"، ص: 137.

لتحريرها[1]. ومن هذا المنطلق كانت الثقافة بالجزائر خلال العهد العثماني تتّسم بالطابع الديني الذي مثّلته الطرق الصوفية المسيطرة على الحياة الروحية في تلك الفترة وذلك بتشجيع من الأتراك الذين كانوا يعتقدون في الطرقية، حيث أنّ السلطة العثمانية منذ حلولها بالجزائر أدركت المكانة المتميزة التي يتمتّع بها المرابطون وشيوخ الزوايا والطرق بين أوساط المجتمع ولا سيما بين سكان الريف فتقرّبت منهم بالهدايا والزيارات، وأعفتها من الضرائب وشجعتها وجعلت منها مدخلا يمكّنها من فرض سلطتها عليهم[2].

لكن مع أواخر القرن السابع عشر تحوّل النظام العثماني في الجزائر إلى جهاز لجمع الضرائب من السكان بسبب تدهور الوضع السياسي والاقتصادي بعد تراجع مداخيل الجهاد البحري، وتكالب الدول الأوربية على ممتلكات الدولة العثمانية، ما أدّى إلى تذمّر السكان فتوجّهوا بشكواهم إلى رجال الطرق الصوفية نظرا لما كانوا يتمتّعون به من نفوذ روحي في المجتمع الجزائري[3].

وأمام ذلك لم يستطع رجال الزوايا والطرق الصوفية أن يقفوا مكتوفي الأيدي أمام هذه الشكاوي المقدمة من الأهالي من جرّاء السياسة التعسفية، وخصوصًا أنّ مصالح رجال الدين والمرابطين هي الأخرى قد تضرّرت وضاعت امتيازاتهم التي كانوا يتمتّعون بها بعد أن طالبتهم السلطة بالتخلّي عن جزء منها ولكنّهم رفضوا، ما جعل الحكّام يشنّون حملات لتأديبهم فتمرّدوا وفضّلوا الوقوف إلى جانب سكان الريف لتحريضهم ضدّهم[4].

وفي هذا السياق تقول زينب جعني: "ولهذا تغيرت سياسة العثمانيين تجاه الزوايا بعد أن كانت تحاول كسب ودّهم وتأييدهم أصبحت تحاول إخضاعهم لإجبارهم على دفع

---

[1]: حسن حنفي: "أبعاد الظاهرة الدينية"، المواقف، عدد خاص بفعاليات الملتقى الدولي الأول حول الظاهرة الدينية: قراءات جديدة من منظور العلوم الاجتماعية والإنسانية، أيام 14 و15 و16 أفريل 2008، جامعة مصطفى إسطمبولي، معسكر، ص: 30.

[2]: نذكر من هؤلاء المرابطين مثلا في سهل غليزان زاوية بن شاعة وأولاد بن عبد الله، حيث تحالف معهم العثمانيون واستعملوا نفوذهم الروحي للتحكّم في السكّان وتسيير جباية الضرائب، ضف إلى ذلك مرابطو مجاجة بوادي الشلف. للمزيد عن هذا الموضوع يرجى العودة إلى: عبد المنعم القاسمي الحسني: الطريقة الرحمانية: الأصول والآثار، الجزائر، دار الخليل للنشر والتوزيع، د.ت، ص-ص: 688-689. وأيضا: توفيق دحماني: النظام الضريبي ببايلك الغرب... "المرجع السابق"، ص: 131.

[3]: محمد شاطو: السلطة العثمانية في الجزائر....، "المرجع السابق"، ص: 161.

[4]: زينب جعني، "المرجع السابق"، ص: 131.

الضرائب، وهو السبب الذي أدى إلى حدوث نوع من القطيعة بين الزوايا وأتباعها وبين السلطة التي حاول موظفوا البايات تطبيقها دون مراعاة للأوضاع الصعبة التي كان يعاني منها سكان الريف، وهذا ما دفعهم إلى إعلان العصيان والوقوف في وجه ما كانوا يعتبرونه ظلما وتعسفا"[1].

وحسب توفيق دحماني فإنّ ما كان يتمّ تحصيله من ضرائب هامّة لم تكن تُنفق في التخفيف من بؤس السكان أو للتقليل من خطر الأوبئة والمجاعات الدورية، أو لشق الطرق ووضع قواعد لصناعة قومية، أو لتحسين الزراعة أو لإعداد الجيوش لمقاومة الغزو والاحتلال الأوربي، وإنّما كانت تُنفق على حياة البذخ في قصور الباي والداي وعلى الجيش وقواده، كما يذهب جزء هام منه كهدايا للشركات اليهودية ومختلف الوسطاء التجاريين وغيرهم[2].

وهذا ما يسمح لنا بالقول بأنّ عملية جباية الضرائب قد أثّرت على السكّان بعدما كانت تتمّ تحت الضغط والتشدّد، وتجهيز الحملات العسكرية لإرغام الرافضين على دفع المبالغ المستحقة عليهم[3]. كما أن الضرائب قد وسّعت من شق الهوة بين السلطة والرعية وأنهت التحالف الذي كان موجودا بين الأتراك ورجال الدين[4]، بحيث أحسّ الفلاحون بصفة خاصة بالخرق والتعسّف المفروض عليهم وعدم تمتّعهم بأيّة حقوق، وفي المقابل شاهدوا ما كان يعيشه العثمانيون من عز ورفاهية وهكذا اعتبر السكان ذلك الوضع بالجائر الذي يتوجّب عليهم تغييره ومحاربته، لذلك قامت ثورات كانت كرد فعل طبيعي على التصرفات الناجمة عن الإجراءات المالية التي فرضها البايلك، وأدّت تلك الثورات إلى آثار كبيرة على المنطقة وتسبّبت في تخريب كبير للحياة الاقتصادية فيها[5].

ونظرا للخدمات الجليلة التي قدّمها أهل التصوف للمجتمع الجزائري أصبحت العامّة تعتمد اعتمادا كليّا عليهم لمواجهة الأزمات الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تحلّ بها من حين لآخر، وهذا نظرا لعجز الدولة أو السلطة عن التكفّل بحلّ مشاكل الناس، ومع مرور

---

[1]: "المرجع نفسه"، ص: 131.

[2]: توفيق دحماني: النظام الضريبي... "المرجع السابق"، ص: 123.

[3]: "المرجع نفسه"، ص: 124.

[4]: Pierre Boyer : Contribution… Op. cit, p- p: 38- 39.

[5]: توفيق دحماني: النظام الضريبي .... "المرجع السابق"، ص-ص: 124- 125.

الزمن ترسّخت قناعة لدى العامّة أنّ الصوفية هم أقدر الناس على حلّ المشاكل وتقديم المساعدات للطبقات المحرومة[1]، حيث قال أحد الباحثين المعاصرين: "...تدريجيا وبانتظام احتلت الطرقية مكانة بارزة في الحياة اليومية، بل أصبحت في أماكن عدة وفي مناطق كثيرة المرجع الأول والأخير للجماهير"[2].

وفضلا عمّا كانت تقوم به الزاوية من وظائف متعدّدة كالتعليم والتربية والإرشاد والإطعام بل وحتى الإيواء لعابري السبيل والفقراء والإصلاح بين الناس[3]، فإنّها كانت كذلك مركزا لتجنيد الأتباع وإثارة الحماس وتنظيم الجهاد ضدّ الأتراك وهذا ما كان له الأثر في توليد الحقد ورد الفعل وفي تغذية الروح الجهادية لدى أتباع الطرق الصوفية في الغرب الجزائري ضدّ الأتراك[4]، وقد أرجع أبو القاسم سعد الله سبب كثرة الزوايا بالناحية الغربية إلى زوايا المرابطين في المغرب الأقصى وإلى حجّاج ورحّالة المغرب الذين كانوا يَعبرون الجزائر، ويُغذّون فكرة المرابطية وينشرون مبادئ شيوخهم[5].

وحسب إشارة أبو القاسم سعد الله فإنّ سلطان الطرق الصوفية قد برز وتقوّى نتيجة مشاركة هذه الفئة مع العثمانيين في مواجهة التهديدات الإسبانية على السواحل ورد كلّ تلك الاعتداءات، كما يشير إلى أنّ هذه الفئة – المرابطون– قد استخدمت الخطاب الديني لتعبئة الناس للجهاد في سبيل الله، حيث التفّ الناس حولهم وأتمروا بأوامرهم وخضعوا لسلطانهم[6].

كما كانت السلطة في المغرب تدعم هذه الطرق الصوفية إمّا إرضاء لأصحابها ودفعًا لنقمتها أو إيمانًا بتعاليمها على حدّ تعبير الدكتور أبو القاسم سعد الله، غير أنّ هذه العلاقة

---

[1]: عبد المنعم القاسمي الحسني: "المرجع السابق"، ص: 257.

[2]: الجيلالي صاري: محاضرة بعنوان: "الدور التاريخي للطرقية بالمغرب العربي"، ملتقى الفكر الإسلامي بمعسكر، 1983 ، نقلاً عن : عبد المنعم القاسمي الحسني: الطريقة الرحمانية... "المرجع السابق"، ص: 258.

[3]: أرزازي محمد: "الأبعاد السوسيولوجية والرمزية للممارسة الصوفية في الجزائر"، المواقف، عدد خاص: أفريل 2008، ص-ص: 73-75.

[4]: بونقاب مختار: انتفاضة درقاوة....، "المرجع السابق"، ص: 137.

[5]: حفيظة بن دحمان: "قراءة في بحث للدكتور أبو القاسم سعد الله حول: السلطة والطرق الصوفية في المغرب العربي في العهد العثماني من خلال الوثائق المحلية"، قراءة وتعليق من طرف الطالبة في إطار الأعمال الأسبوعية المنجزة في السنة التحضيرية للماجستير، تخصص: الدولة والمجتمع في المغرب الكبير، ص: 01.

[6]: "المرجع نفسه"، ص: 01.

اتّجهت للتأزّم في القرن السابع عشر بسبب تعاظم قوة ونفوذ الزوايا وشيوخها، حيث حاول العثمانيون تقزيم هذه القوة بتحويل الزوايا إلى مراكز علمية واجتماعية لأنّها أصبحت تنافسهم في سلطتهم الزمنية[1].

فالزوايا قد تعاظم دورها كثيرا مع أواخر العهد العثماني عندما تراجع دور السلطة المركزية حتّى صارت تُشرف إشرافًا تامًّا على المجتمع من خلال قيامها بمهام التعليم وحلّ قضايا الناس، كما أصبحت دُورًا لعابري السبيل ولإيواء الفقراء والمساكين[2]. وانطلاقا من نهاية القرن الثامن عشر الميلادي دخلت الزاوية مرحلة أخرى من التطور حيث أصبحت مكانًا لتبنّي أفكار سياسية معادية لنظام الحكم العثماني، فأصبحت هذه الزوايا أوكارا للثورة على العثمانيين والمخزن تنادي بالجهاد في سبيل الله ورفع المظالم المسلّطة على سكان الريف، وممّا يؤكّد ذلك ما قاله الأستاذ محفوظ سماتي: "لقد بلغ الأمر إلى جعل جميع الأهالي في مواجهة مع الحكومة، وإذا كانت الانتفاضات الشعبية محصورة في البداية محليا فإنّ الزوايا تمكّنت من توسيع نفوذها، وقد أدّى الاضطهاد العشوائي إلى توليد الحقد ورد الفعل من الشعب ممّا أدّى إلى وعي جماعي"[3].

ويضيف قائلا: "... فالأمر يتعلق بأزمة اقتصادية سببها السياسة الملتوية المتبعة والديوان لم يعد يمثل رمزا للأخلاق والنزاهة والولاء للدولة والنفاذ إلى الحكم بفتح الطريق للثراء ولأنواع التعسف، وخلال هذه الفوضى السياسية والتصرفات الدنيئة سببت في ثورة الأهالي الذين يساندون رجال الدين وكتّابهم وزواياهم ومدارسهم، فانفصمت عرى الثقة والحضوة التي كانت تجمع بين الجماعة المؤلفة خاصة من أسر الشيوخ وبين البايلك في الجزائر العاصمة، وأصبحت عدم الثقة الميزة الرئيسية التي تميّز العلاقات التي كانت قائمة منذ القدم على التفاهم والاحترام المتبادل، وتردّي العلاقات بين ممثلي الحكومة والمجموعات

---

[1]: "المرجع نفسه"، ص: 02.

[2]: عبد المنعم القاسمي الحسني: "المرجع السابق"، ص: 683. وأيضا أرزازي محمد، "المرجع السابق"، ص-ص: 72-73. وللمزيد عن دور الزاوية خلال العهد العثماني ينظر: بن عامر كريمة: "الطقس الديني والضبط الاجتماعي"، المواقف، عدد خاص: أفريل 2008، ص-ص: 164- 165. وأيضا: هشام عمر النور: "الظاهرة الدينية من المجتمعات القديمة إلى الحداثة"، المواقف، عدد خاص: أفريل 2008، ص: 121.

[3]: محفوظ سماتي: الأمة الجزائرية: نشأتها وتطورها، ترجمة: محمد الصغير بناني وعبد العزيز بوشعيب، منشورات دحلب، 2007، ص: 89.

الدينية المختلفة قضى على العنصر الرئيسي الذي يميّز السلوك في المجتمع الجزائري منذ قرون"[1].

هذا ولقد استغلت الفرق الصوفية صفة الشريف أو فكرة "الشريفية" في توجيه مراكز القوة لصالحهم حيث تحصّلوا على الأراضي والمنافع العديدة وأصبحوا شيوخًا روحيين وحماةً صوفيين[2]، وهذا ما جعل ألفرد بل Alfred Bel يقول عنهم: "أنّ صفة الشريف صار لها سحر عند البربر في بلاد المغرب، وأصبحت لقبا هامّا يتلقب به رؤساء الفرق الصوفية والصوفية العاديون، يثبتها لهم أو يخلعها عنهم عن خطأ أو صواب من ترجموا لهم من مؤلفي كتب التراجم الصوفية وواضعي كتب الأنساب على مرّ العصور"[3].

ويعني ذلك أنّ فكرة الشريفية تكون بالتالي قد فقدت شيئا من مضمونها ومصداقيتها بعد تلك التجاوزات من طرف المرابطين ورجال الدين، فنالوا بذلك حظوة ومكانة قد لا تحصل لغيرهم بسهولة، حيث وجدوا خير ترحيب من جانب السكان، وصار هؤلاء الشرفاء بمثابة دعائم القبيلة وعنوان وجودها[4]، وحسب تعبير ألفرد بيل فقد نشأت نبالة دينية في القبيلة وجرى تنظيم اجتماعي جديد وطبقة سياسية ودينية جديدة[5].

أمام هذا التدهور في الجانب الاجتماعي والاقتصادي وعدم اهتمام الحكّام الأتراك بأمور الشعب، تحوّلت المدن الجزائرية إلى بيئات منكمشة على نفسها متخوّفة من سكان الريف القريبين منها، كما غدا الريف الجزائري مجالا مغلقًا على نفسه يكاد يفقد صلته بالمدن وينقطع تفاعله مع سكانها، فأصبح منكفئًا على نفسه وغير مستعد للتّعامل مع السلطة المركزية، بعد أن تحوّل أغلب سكّانه المؤطرين بشيوخ الزوايا إلى موقف عدائي صريح من إدارة البايليك والمتعاملين معها[6].

---

[1]: "المرجع نفسه"، ص، ص: 90، 96.

[2]: محمد أوجرتني: "إشكالية الخطاب الشريفي في الجزائر العثمانية: أسرة بن قانة نموذجا"، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد: السابع، قسنطينة، شوال 1427هـ- نوفمبر 2006م، ص: 101.

[3]: ألفرد بيل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي إلى اليوم، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1989، ص: 422.

[4]: محمد أوجرتني، "المرجع السابق"، ص-ص: 101-102.

[5]: ألفرد بيل، "المرجع السابق"، ص: 433.

[6]: عبد المنعم القاسمي الحسني، "المرجع السابق"، ص-ص: 216-217.

وبالتالي فالتصوف قد انتقل من المرحلة الأكاديمية والنخبوية إلى المرحلة الشعبية وبسط سلطانه على جميع مناحي الحياة[1]، وأدّت الطرق الصوفية والتي تعتبر الجانب العملي من التصوف أدوارا أساسية في حياة المجتمع الجزائري، وهو ما يؤكّده أحد الباحثين في قوله: "اتسم العهد العثماني في الجزائر بانتشار ظاهرة التصوف، وسيطرتها على توجيه مسار الحياة السياسية والاجتماعية والروحية بوجه لم يسبق لهذه البلاد أن عرفت مثيلا له، رغم أنّه كان منتشرا قبل وبعد هذه الفترة – العهد العثماني- ..."[2].

ولم يمنع الوضع المادي والمعنوي المزري للطرق الصوفية من التكاثر والنشاط[3]، حيث وجدت الجماهير الريفية فيها وفي الزوايا الريفية ذات الأفكار الثورية ملاذا لها من ظلم الترك ومخزنه، لا سيما بعد إلتفات الإدارة العثمانية إلى المناطق التي كانت تحت حكم العائلات الكبيرة من المرابطين لتفرض الضرائب عليها، وهنا تعارضت المصالح وتوترت العلاقة ممّا أدّى إلى نشوء عدّة ثورات ضدّ العثمانيين بقيادة رجال الدين.

ثانيا: مظاهر القطيعة:

لاشك وأنّ هناك عقبات داخلية وخارجية أثّرت على تدهور واضمحلال العلاقة بين العلماء والعثمانيين، حيث كان لرجال الدين والعلماء آراء ومواقف مختلفة من السلطة في هذه الفترة فها هو العالم محمد بن يوسف الزياني[4] يصف سياسة العثمانيين في الجزائر تجاه

---

[1]: "المرجع نفسه"، ص: 268.

[2]: مختار حبار: "الحضور الصوفي في الجزائر على العهد العثماني"، مجلة التراث العربي، العدد: 57، أكتوبر 1994، ص: 123. نقلا عن: "المرجع نفسه"، ص: 268.

[3]: وللإشارة فقد تزايد عدد الزوايا مع نهاية العهد العثماني، ونذكر على سبيل المثال أنّ مدينة تلمسان وحدها كان بها ما يزيد عن ثلاثين زاوية، هذا في شمال البلاد أمّا جنوبها فلم تكن تخلو عشيرة منها بل لقد كانت الزاوية تُرحَّل أحياناً مع الراحلين كما هو بالقياس إلى زاوية سيد الشيخ، للمزيد ينظر: حباش فاطمة: "الوضع في منطقة الجنوب الغربي خلال العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي"، عصور، العدد: 12-13/ 14-15، جامعة وهران، 2008- 2009، ص: 142. وأيضا: بوداوية مبخوت: "دور الطريقة الشيخية في مقاومة أولاد سيد الشيخ الثانية"، المواقف، عدد خاص: أفريل 2008، ص: 351.

[4]: محمد بن يوسف الزياني البرجي: ينتمي إلى أسرة علمية بنواحي مدينة برج عياش المشهورة الآن ببرج ولد المخفي قرب معسكر، وكلّ ما نعرفه عن أسرته هو أنّ عمّه أحمد بن يوسف الزياني كان من العلماء المستشارين عند الباي إبراهيم المليانى سنة 1170هـ/ 1756م، هذا وقد تولّى محمد بن يوسف الزياني صاحب تأليف "دليل الحيران" القضاء بمدينة البرج سنة 1861م، لينتقل بعدها لوادي تليلات وليمارس نفس الوظيفة سنة 1883م، ثم أصبح قاضيا بوادي سيق. للمزيد ينظر: محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران... "المصدر السابق"، ص: 13 (من مقدمة المحقق).

تجاه السكان بالظلم والاحتقار بقوله: "... وأعلم أنّ الأتراك لما تمهد لهم الملك بالجزائر كثر ظلمهم وفسادهم، بحيث لا يليق أن يذكر ما كانوا فيه من الظلم والمناكر، وتواتر ذلك على الألسنة بغاية التواتر فاشتغلت العلماء في ذكر ذلك في نظمهم، وسألت الناس الله أن يزيل بهم ما حلّ من ظلمهم"[1].

ويفهم من هذا أنّه بعد استرجاع مدينة وهران نهائيا سنة 1792م وتصفية الاحتلال الإسباني من الجزائر كثر ظلم العثمانيين وفسادهم، فأخذ العلماء يستنكرون عليهم سلوكهم هذا ويهجونهم، ومنهم سعيد عبد الله المنداسي التلمساني[2] الذي قال فيهم:

بَنَى السُدَّ ذُو القَرْنَيْنِ لِلْنَاسِ رَحْمَةً فَيَا لَيْتَهُ مِنْ شَوْكَةِ التُرْكِ هَنَّانَا[3]

ويسايره في ذلك مسلم بن عبد القادر الوهراني[4] كاتب الباي حسن، والذي كتب رجزا فيهم بعد مفارقته لهذا الباي قال فيه:

أَدَّبَهُمْ رَبُّهُمْ لَمَّا طَغُوا عَرَفَهُمْ بِغَدْرِهِمْ لَمَّا بغُوا
فَانْشَغَلُوا بِالْظُلْمِ لَيْسَ مِنْ عَدْلٍ فَأَخَذُوا أَخْذًا وَبِيلاً بِالْمُهْلِ
لَمَّا نَسُوا مَا ذُكِرُوا بِهِ خَتَمَ عَلَى قُلُوبِهُمُ اللهُ وَانْتَقَمْ
عَاتُوا عُتُوًا عَلَى الخَلْقِ وَجَارُوا فَكَانُوا أَكْثَرَ العِبَادِ وَبَارُوا

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص: 253.

[2]: سعيد بن عبد الله التلمساني المنشأ المنداسي الأصل، من مواليد القرن الحادي عشر هجري، شاعر من فحول الشعر الشعبي في الجزائر والمغرب العربي عامة، وصف في قصائده العثمانيين بأبشع الصفات نتيجة ما عانته مدينة تلمسان منهم، ليهرب بعدها إلى المغرب الأقصى فالتحق ببلاط الملك محمد بن عبد الله العلوي ثم ببلاط مولاي إسماعيل حتى توفي بسجلماسة سنة 1088هـ/ 1677م، تاركًا وراءه العديد من القصائد منها "العقيقة" قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، للمزيد يرجى العودة إلى : ابن سحنون الراشدي: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص-ص: 56-57.(من مقدمة المحقق).

[3]: "المصدر نفسه"، ص: 56. وللمزيد ينظر: محمد مفلاح: أعلام من منطقة غليزان: أعلام التصوف، شعراء الملحون بمنطقة غليزان، الجزائر، دار المعرفة، 2008، ص-ص: 183-190.

[4]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: هو أبو عبد الله مسلم بن عبد القادر الحميدي الزائري، كان يمارس الكتابة الديوانية عند الباي حسن قبل تولّيه الحكم، وبعد تولّيه الحكم شغل منصب باش كاتب عنده بوهران، توفي سنة 1249هـ/ 1833م ودُفن بضريح سيدي المسعود من بلد تارقة قرب مدينة عين تموشنت، تاركًا وراءه العديد من المؤلّفات والرسائل أبرزها =تأليفه الشهير "أنيس الغريب والمسافر" وكتاب "نظم الجواهر في سلك أهل البصائر"، وفي الشعر منظومة تعرّض فيها للاحتلال الفرنسي وأسباب هزيمة الأتراك، للمزيد يرجى العودة إلى : مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب... "المصدر السابق"، ص-ص: 33-42 (من مقدمة المحقق).

فَرَفَعَ الكُلُّ الأَكُفَ وَدَعـــــوا بِمَا بِهِ أَجَابَ اللهُ وَرَجُــوا
أَمْهَلَهُمْ لَهُ بَلَغَ الوَقْتُ الأَجَـــلْ أَبْدَلَهُمْ بِغَيْرِهِمْ ثُمَ العَمَـــلْ[1]

ومن خلال ما سبق نستنتج أنّ هناك اتّفاق في وصف السياسة العثمانية في الجزائر في أواخر أيامها بالظلم والجور والاستبداد بإجماع المؤرّخين والعلماء الجزائريين المقرّبين والمحسوبين على النظام، وبعض الأوربيين أمثال لوجي دو تاسي Laugier de Tassy الذي قال: "أنّ الأتراك كانوا يقتلون المرابطين كغيرهم إذا تدخّلوا في الحكم"[2]. ونستشف من هذا القول اعترافا رسميا، وإقرار صريح عن تجاوزات الحكم العثماني.

ولا شكّ أنّه بالفعل لما تمّ استرجاع مدينة وهران اضمحلّ شيئا فشيئا حبّ الحكّام للمرابطين والعلماء، حيث تيقّن العثمانيون أنّه لا جدوى من اكتساب رأي المرابطين والعلماء بكلّ الامتيازات لأنّ الخطر في رأيهم – الحكّام– قد زال[3]. وفي هذا السياق انتهى التحالف بين الطرفين بعد استرجاع وهران من أيدي الإسبان، وتدخل العلاقة مرحلة جديدة من التوتر والقطيعة خاصة بعد تزايد نفوذ الطرق الصوفية والزوايا والتفاف السكان حولها[4].

الأمر الذي جعلها تصطدم مع السلطة التي أصبحت ترى فيها تهديدا محدقا لمصالحها ووجودها، بعد أن تحولت من موقف الداعم إلى موقف المنتقد وصولا إلى كسب الرأي العام، وبهذا تكون أسهمت في الإخلال بركائز النظام بعد أن تخلّت عن مهمّة الوسيط بين الحاكم والمحكوم، ولم يعد بإمكانها مواصلة هذا الدور بفعل تزايد التذمّر الشعبي ضدّ العثمانيين ممّا جعلها تختار مواجهة السلطة سياسيا وعسكريا، ممّا دفع السلطة أيضا من أن تراقب تحرّكاتها وتضيّق عليها الخناق حتى التي كانت تُحسب على السلطة وساندتها في الماضي[5]، وبهذا تعرّض العلماء لشتّى أنواع القمع والتعذيب والقتل والإهانة[6].

---

[1]: ابن سحنون الراشدي: الثغر الجماني .... "المصدر السابق"، ص–ص: 54–55 (من مقدمة المحقق).

[2]: Laugir, de Tassy : Histoire de royaume d'Alger…,Op.cit, p: 92.

[3]: طالبي عطاء الله: علاقة الحكام الأتراك برجال الدين والعلماء ... "المرجع السابق"، ص: 35.

[4]: Pierre Boyer: Contribution…, Op.cit, p: 37.

[5]: مختار مخفي: العلماء والسلطة.... "المرجع السابق"، ص: 161.

[6]: نشير إلى أنّ القمع السياسي تلجأ إليه الحكومات التي لا تملك قاعدة شعبية تكفيها لتثبيت حكمها، واعتماد أسلوب العنف أو هذا السلوك العنيف يخطّط له كوسيلة معوّضة عن عزلة الحكّام، بقصد توفير الرادع الذي يمنع المقت الشعبي من أن يتحوّل إلى تحرّك يهدّد سلطة الحاكم. للمزيد عن هذا الموضوع يرجى العودة إلى: حميد الحداد: النفي والعنف في الغرب الإسلامي، المغرب، دار إفريقيا الشرق للنشر والتوزيع ، د.ت، ص: 209.

1-القتل:

هذا الأسلوب وُجِّه أساسًا ضدّ العناصر التي كانت تهدّد استمرار الحكّام في الجلوس على عروشهم، أو ضدّ منافسيهم من الزعامات الدينية، أو ضدّ المعارضين والمنتقدين. ومن أهمّ العناصر التي تعرّضت للقتل العلماء والفقهاء والمتصوفة خصوصًا[1]، وكان قرار القتل المتّخذ من قِبل الحكّام لا تنفع معه لا وساطات رجال الدولة والعلماء ولا توسّلات الأهالي، ولا تهديد قبيلة أو أتباع طريقة أو مرابط[2].

ومن جانب آخر نتج عن انتشار ظاهرة التصوف وتوسّع تيّار المتصوفة في بايلك الغرب لجوء العثمانيين إلى ممارسة سياسة القمع ضدّهم، تعتمد على المراقبة والسجن والقتل، فالعثمانيون لجأوا إلى قتل الكثير من العلماء والفقهاء وشيوخ الصوفية تخوّفًا من الاستمرار في استقطاب المزيد من الأتباع، وفي أيام الباي حسن آخر بايات وهران ازداد القمع ضدّهم، ولا سيما إثر اندلاع ثورة درقاوة والثورة التيجانية[3].

وقد اعتبر أحد الباحثين أنّ خطورة هذه الحركة تبدوا في توقيتها، فقد اندلعت وسلطة العثمانيين ما تزال تبحث عن توازنها وخصوصا بعد فقدانها للقاعدة الشعبية ولم تثبت دعائمها بعد، وكان لهذا الأمر تأثيره المباشر على موقف الحكّام من المتصوفة بحيث أضحت الحيطة والصرامة والتنافر والتباعد سمات سياستهم تجاههم[4]، فالمراقبة الرسمية لنشاطات بعض المتصوفين المشهورين، وإزعاج بعضهم تدخل في إطار قمعي شامل استعمله الباي حسن لتنحية الانشقاقات السياسية والثورات.

وفي هذا الصدد نقدّم ما جاء على لسان المزاري الذي يسوق لنا شيئا من سيرة الباي حسن آخر بايات وهران، وكيف تعامل مع رعيته؟ فيقول: "...واجترأ على العلماء والأولياء والشرفاء والرعية، فبان منه الجور والظلم والتعدي، وكثر منه الضلال وهتك المحارم

---

[1]: محمد شاطو: السلطة العثمانية في الجزائر...."المرجع السابق"، ص: 168.

[2]: مختار مخفي: العلماء والسلطة.... "المرجع السابق"، ص: 166.

[3]: عبد القادر صحراوي: التصوف والمتصوفة في الجزائر...، "المرجع السابق"، ص، ص: 212، 214.

[4]: "المرجع نفسه"، ص: 197.

والتردي وطغا وتجبر وتكبر، وكثر منه الفساد والسفك بغير موجب لدماء العباد ولم يراقب في ذلك خالقه، ولم ينظر ليوم المعاد ..."[1].

لقد دعى المتصوفة من خلال الكرامات الصوفية إلى مناهضة الظلم والطغيان متعاطفين بذلك سياسيا واجتماعيا مع العامّة، ممّا جعل السلطة تتحرك بممارسة مختلف أشكال العنف ضدّهم، ممّا يدلّ على تدهور العلاقة بين الجانبين، فمَنْ هم أشهر هؤلاء الذين تعرّضوا للقتل؟

لقد أقدم الباي حسن على قتل الكثير من العلماء والفقهاء وشيوخ الصوفية، فقتل ولي الله الحاج محمد البوشيخي وعلّقه مع خشبة بوهران، وقال: "هذا جزاء من يريد الظهور والإعلان"[2].

لقد سجّل لنا المزاري الأسلوب المتّبع من طرف الباي حسن في التصفية الجسدية، والذي ارتبط بالعلانية لاعتبارات نفعية تقوم على مبدأين أساسيين: أوّلهما تحقيق الردع، وثانيهما ضمان تنفيذ العقوبة. كما وسجّل نماذج من التصفية الجسدية مع التّمثيل والتي تمّت في كثير من الأحيان بقطع الرأس وأحيانا أخرى بالخنق[3]، فقد قتل في سنة 1239ه/ 1823–1824م قتلة ذميمة ولي الله الفقيه السيد العالم محمد ابن أحمد الصدمي، حيث صلبوه وتمّ قطع رأسه وعُلِّق على خشبة بوهران[4].

نستنتج أنّ هذا الأسلوب العنيف وظّفه بعض الحكّام أساسا لترهيب الرعايا، ولا سيما النخبة حتى تأخذ بعين الاعتبار الجزاء المنتظر لها إن هي لجأت إلى القيام عليهم ومعارضتهم، لأنّ المقصود من الصلب هو إشهار أمر المصلوب، فالهدف من صلب الثائر أو غيره هو أن يشيع أمره ويبقى معنى الإزدجار به[5].

---

[1]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود.... ج1، "المصدر السابق"، ص: 350.

[2]: "المصدر نفسه"، ص: 361.

[3]: وللإشارة فقد ذكر المزاري أنّ شخصًا يُدعى "ظربير" هو المأمور بقطع الرؤوس بأمر الأمير الباي حسن. ينظر: "المصدر نفسه"، ص: 354.

[4]: "المصدر نفسه"، ص: 350.

[5]: حميد الحداد: "المرجع السابق"، ص: 234.

وفي نفس السنة في شهر شعبان أمر بقطع رأسي الفقيهين العالمين الجليلين الوليين الكاملين الجميلين السيد بن عبد الله بن حواء التجيني الدرقاوي والسيد فرقان الفليتي[1]، لكن صاحب طلوع سعد السعود بخل علينا بالتفاصيل ولم يقدّم لنا معطيات تشفي غليلنا لا عن سبب القتل ولا عن منفِّذ العملية، بالرغم من أنّه ذكر أنّ العالمين قد قُتِلا بـــ: "غير الكلام"[2] – حسب مؤرخنا–، ممّا يبرز تعاطفه ورفضه لمثل هذا السلوك العنيف.

ومن الاغتيالات المتداخلة الأسباب المجهولة المصدر أو الغامضة اغتيال الأديب العالم السيد محمد بن قريد الغربي، والذي قُتِل في بيته بخنق النطاح بوهران في حدود سنة 1244هـــ/ 1828م على يد لصين هاجماه في منزله، فدافع عن نفسه دفاعا إلى أن قتلاه[3].

وللإشارة فقد أورد المزاري بنوع من التفصيل لِما حدث لعائلة هذا العالم الجليل، حيث بطشت بها يد الباي حسن بمنتهى القسوة "ففي الغد بعد مقتل العالم ذهبت زوجتاه إلى الباي شاكيتين، فأمر بتشكيرهما ورميهما في البحر من غير تحويرهما، فقيل للباي أنّ أحدهما حامل، فقال ليست تأتي بابن قريد في القابل، فنفذ فيهما الأمر تنفيذا واستحوذ بهما تحويذا، وأمر بحرق نوائل تلك الحومة وصيرها تنوح بها البومة..."[4].

وممّا يلاحظ أنّه لم يذكر لنا المزاري نوعية الخطأ ولا سبب ذلك، وعلى ما يبدوا أنّ الباي حسن قد قام بقتل زوجتيه لتهمة لحقته عنده في محاولة العالم السيد محمد بن قريد الغربي القيام عليه[5]، حيث كان لذلك أثر سيء فظيع في نفوس الجماهير، بل قد يكون هو الشيء الوحيد الذي يجعل لعقوبة القتل قيمتها بين الجمهور عامة وبين المتصوفة خاصة،

---

[1]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود...ج1، "المصدر السابق"، ص: 350. ويذكر ذلك أيضا: مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب... "المصدر السابق"، ص: 30.

[2]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود... ج1، "المصدر السابق"، ص: 350.

[3]: "المصدر نفسه"، ص: 366. وأيضا: محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران... "المصدر السابق"، ص–ص: 251–252.

[4]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود... ج1، "المصدر السابق"، ص: 366.

[5]: وللإشارة فقد نجا اللصان من القصاص بعد قتلهم للشيخ محمد بن قريد حتى تولّى الأمير عبد القادر الإمارة بمعسكر، فقبض على أحدهما وسلّمه إلى عائلة الشيخ فقتلوه قصاصًا. للمزيد يرجى العودة إلى : الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود...ج1، "المصدر السابق"، ص: 366. – محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران... "المصدر السابق"، ص: 252.

فالتمثيل بالجثة والإهانة الشنيعة له أثره الذي لا ينكر في زجر الغير، وكفّه عن المعارضة للسلطة الحاكمة[1].

ومن خلال هذه الأمثلة المستقاة من طلوع سعد السعود نستطيع أن نتبيّن استبداد الباي حسن وعدم رعايته لحرمة النفس الإنسانية، ويسايره في ذلك محمد بن يوسف الزياني الذي قال في أمر هذا الباي: "ولمّا استوسق له الملك وأذعنت له الرعية رفض ما كان عليه من الوصف السابق، وكثر ظلمه وغضبه وبغضه وعبثه بالرعية، وحدث بوقته الوباء العظيم وتكرر رجوعه بعد ذهابه فمات به خلق كثير"[2].

كما قدّم المزاري وصفًا لأحد العلماء تعرّض للإهانة من طرف الباي حسن وهو الفقيه السيد إبراهيم الخروطي، حيث يقول: "كما بعث- أي الباي- بمحمد بن المختار الزمالي ليأتي بـــ: الشيخ الضرير السيد إبراهيم الخروطي الخرير لأمر ظهر عليه غير الموالي، ولمّا أتاه به نظر في حاله وأصله فألفاه من الذين لا يثورون عليه فسرحه لأهله"[3]. وفيما يظهر أنّ ملاحقة الباي حسن لهؤلاء المتصوفة، يدلّ على التخوّف الذي بدأت السلطة العثمانية تحسّ به من جرّاء اتّساع نفوذهم.

إضافة إلى ما سبق نستنتج أنّ الاستبداد الذي ساد خلال هذه الفترة والاستئثار بالسلطة من طرف البايات نتج عنه اتّخاذ القمع عقابا فرديا وجماعيا لقهر المعارضين من مختلف الشرائح الاجتماعية، وفكّ روابطهم الاجتماعية عن المجال الذي ترعرعوا فيه أو احتضنهم، وإبعاد المخالفين في الرأي وإشعارهم بالمهانة والازدراء، مخالفين- أي رجال السلطة- في كثير من الأحيان النصوص التشريعية الإسلامية رغم اعتمادهم أحيانا على مبرّرات دينية وسياسية، محوّلين العقاب إلى إحدى مظاهر العنف ومتمسّكين بالقوة والغطرسة والانفراد بالمجد[4].

ولم يَنجُ من الباي حسن أحد من الأولياء والعلماء إلاّ السيد محمد بن عبد الله البوشيخي المعروف عند الناس بالشيخ "ابن سحنون" فإنّه لم يتصرّف فيه بالقتل، وكان ساكنا

---

[1]: حميد الحداد، "المرجع السابق"، ص: 231.

[2]: محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران.... "المصدر السابق"، ص: 240.

[3]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود.... ج1، "المصدر السابق"، ص: 366.

[4]: حميد الحداد، "المرجع السابق"، ص: 12.

بضواحي تلمسان، وسعى به الوشاة عنده بأنّه يريد أن يقوم عليه فبعث له عدّة أناس واحدا بعد واحد ليأتوا به، فكلّ من يصله منهم لا يقول له شيئا ويرجع للباي ويقول له: أنّه عصى القدوم عندك ولا يأتيك ألا تذهب له بجيش فتظفر به، ثم أنّ الباي دبّر في حاله فقال: "لا أذهب لرجل واحد بجيوشي وإنّما أبعث له محمد المزاري"[1].

وبالفعل لمّا أحضره هذا الأخير سأل له الأمان من الباي حسن فأعطاه ذلك، وسأل في النهاية الشيخ قائلا: يا هذا الرجل ما الذي يُسمع عنك من اجتماع النّاس في كلّ وقت عليك، ووفودهم في كلّ آن عليك؟ فقال له: إذا أخبروك بأنّي جاعل خيمة –أي بيت– للطلبة وضياف الله والمخزن إذا جاء فذلك حقّ ليس به اشتباه، وإذا أخبروك بغير هذا فذلك عنّا بعيد وهذا كذب ولست من أهله، ونحن في طاعة أمير المؤمنين كما أمرنا الرسول والمولى الكريم المجيد، وفي النّهاية عفا هذا الباي عن الشيخ[2].

وممّا يستلفت النظر هو تعاطف محمد المزاري مع هذا العالم، ومحاولته في تبرئته من التهم المنسوبة إليه ورفضه لمثل هذا السلوك العنيف من طرف الباي حسن، وهو ما أكده الآغا بن عودة المزاري بقوله: "... ولما وصله– الهاء تعود على محمد المزاري– نزل عنده ونظره في أحواله وتدبر في أفعاله وأقواله فألفاه بريئا، وأنّه من أولياء الله المتعبدين بجحرهم المعزين للفقراء والمساكين والضعفاء وغيرهم، وللوافدين عليهم في محبة الله أهلا ومرحبا بكم وسهلا، وأنّه ليس من أهل الثوران ولا خوف منه على باي وهران..."[3].

---

[1]: وللإشارة فإنّ محمد المزاري قد عامل الشيخ العالم معاملة حسنة ولم يُعانِفه، لدرجة أنّه قبل أن يلتحق بالباي حسن طلب منه محمد المزاري – أي من الشيخ– أن ينزل ببيته، وهذا بالرغم من أنّ الباي أمره بأن يأتي به مُكبّلاً على برذعة. للمزيد ينظر: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود...ج1، "المصدر السابق"، ص–ص: 364–365. وأيضا: محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران... "المصدر السابق"، ص–ص: 249–250.

[2]: وبالفعل فإنّ هذا الباي عفا عن الشيخ البوشيخي بعد أن اختبره في أشياء كثيرة لها مساس بالمتصوفة والتصوف، ومن بين تلك الاختبارات أنّ الباي حسن قد رمى هذا الشيخ على مخاطف الحديد فصار يلعب عليها، ثم ألقاه بين يدي السباع فصار يركب عليها واحدا بعد واحد وهي مذعنة له، ثم رماه الباي في الكوشة فانطفأت النار التي بها، ثم بهذا أخرجه وعفا عنه. للمزيد يرجى العودة إلى: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود....ج1، "المصدر السابق"، ص: 365. –محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران ... "المصدر السابق"، ص: 251.

[3]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود....ج1 "المصدر السابق"، ص: 364.

ويفهم من هذا أنّ المزاري قد تبيّن ناحية في سياسة الباي حسن نحو العلماء الذين كانوا يقطنون الناحية الغربية، وأساليب القسوة التي عاملهم بها من ناحية، والمبادئ التي قام عليها حكمه القويّ من ناحية أخرى.

وفي سياق عام لسياسة العثمانيين التي استهدفت التخلّص من الفقهاء والعلماء، يشير صاحب دليل الحيران إلى تعرّض العالمين الشيخ سيدي المداني ابن عطاء الغريسي والسيد الحاج الموفق الكبير بن سعيد الشقراني لمختلف أصناف المتابعة وأشكال القهر والامتحان، فالشيخ المدني ورفيقه كان الباي الحاج خليل وعدهما بالقتل حال رجوعهما من سفرهما[1].

وممّا تجدر الإشارة إليه هو أنّ الباي الحاج خليل كان مبغضا للعلماء وغير محب لأولياء الله الصالحين وغيرهم، فقد حاول قتل الشيخ العالم أبو ترفاس[2] بعدما "...غزاه الباي خليل بمدشرة بالساحل وأخذ قيطنته وفرّق طلبته، وهمّ بقتله لولا أنّ الله عصمه منه فقال له أبو ترفاس نحن مساكين لا معرفة لنا بالملوك ولا دخول لنا في شئونهم، وفضحتنا علانية بلا سبب فضحك الله وعجّل بهلاكك لتستريح منك البلاد والعباد..."[3].

وتناول المزاري أكبر الجرائم التي ارتكبها الباي حسن والمتمثّلة في قتله للفقيه العالم الشيخ بلقندوز القداري التجيني[4]، حيث توجّه هذا الباي في حدود سنة 1829م بجيش عظيم

---

[1]: وللعلم فقد ذكر محمد بن يوسف الزياني أنّ سبب موت الباي الحاج خليل هو دعاء الشيخ سيدي المداني ابن عطاء الغريسي شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه والأولياء، وكذلك دعاء شيخ الطلبة ولي الله أبي ترفاس محمد، حيث أنّ الأول قد اشتغل بالاستصراخ، واشتغل الثاني بالعبادة: للمزيد ينظر: محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران ..."المصدر السابق"، ص-ص: 197-198.

[2]: الشيخ أبو ترفاس: عالم وفقيه كانت له زاوية مشهورة بنواحي العين الكبيرة- ندرومة-، ذكرت المصادر أنّ هذا الشيخ هو من دعا على الباي الحاج خليل فاستجاب الله له، حيث أُصيب الباي بعلّة يُقال لها "الشهدة"، وهي حبّة عظيمة أصابته بين كتفيه، وتعاظمت جدًّا حتى أدّت إلى وفاته بتلمسان. للمزيد يرجى العودة إلى: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود....ج1، "المصدر السابق"، ص-ص: 287-288.

[3]: محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران.... "المصدر السابق"، ص: 198. - الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود....ج1، "المصدر السابق"، ص-ص: 287-288.

[4]: هو الإمام أبو عبد الله محمد بن القندوز شيخ الجماعة بالحضرة المستغانمية وأحوازها، يرجع نسبه إلى سيدي محمد إقدار أحد علماء القرن السادس عشر الميلادي، وُلِد بمنطقة القدادرة، أشتهر بالتقوى والتصوف والعلم والتدريس، تخرّج من مدرسة مازونة الفقهية، حيث كان رفيق أبي راس الناصر في الدراسة، ثم حطّ رحاله بجامع الأزهر - مصر- فأخذ على العالم "الدردير"، كما أسّس محمد بن القندوز بعد عودته من مصر إلى بلاده زاوية للتعليم بمنطقة "تحمدة" بالقرب من مدينة غليزان، اعتُبرت من الزوايا والمعاهد القرآنية الهامّة بالبايلك الغربي والتّي كان يدرس بها حوالي 400 طالب، حيث أشرف

إلى زاوية الشيخ بلقندوز التي كانت عامرة بطلبته من أبناء البرجية والزمالة، وبعضهم من بني عامر والحشم وفليتة ومجاهر وبني شقران[1]. وعندما رأى هذا الباي أنّه ليس عند هذا الشيخ سوى الطلبة يتعلّمون القرآن قال: مثل هذا لا يثور علينا ورجع[2]، ثم غزاه ثانية في نفس السنة وأرسل له "ابن دهماء العامري" لقتله، والذي قيّده وعدمه شنقًا سنة 1244هـ/ 1829م[3]بمنطقة وادي أرهيو–بين واريزان ومازونة– أمام شلّة من طلبته والعلماء ممّن تخرّجوا على يديه، وممّن تحصّلوا على إجازات علمية من عنده بزاويته الدينية[4].

ومن الملاحظ أنّ الشيخ محمد بلقندوز قد كان قادري الطريقة[5] والتي عمل على نشر تعاليمها بزاويته الدينية، حيث ساند الشيخ الثورات التي قادها رجال الطرق الصوفية ضدّ حكم الأتراك ومنها ثورة درقاوة سنة 1802م والتي دامت عشر سنوات، تلتها سنة 1826م ثورة الشيخ أحمد بن سالم التيجاني صاحب الزاوية التيجانية. وكذا معارضته لاعتقال وسجن الشيخ محي الدين القادري والد الأمير عبد القادر من طرف باي وهران، الأمر الذي أقلق الباي حسن بن موسى آخر بايات البايلك الغربي، والذي أمر بقتله بعدما رأى فيه من الشخصية القوية والنفس الأبيّة[6].

بلقندوز على التدريس بها فتتلمذ على يديه نجل من العلماء أمثال: محمد بن علي السنوسي والشيخ الشارف بن تكوك، واستمرّ في عمله التعليمي إلى غاية سنة 1829م بعدما أقدم الباي حسن على قتله خنقًا. ينظر: محمد مفلاح: أعلام من منطقة غليزان: تراجم منذ القدم إلى غاية القرن التاسع عشر ميلادي، الجزائر، دار هومه للطباعة والنشر، 2006، ص– ص: 21–22. وأيضا: عبد القادر بن عيسى المستغانمي: مستغانم وأحوازها عبر العصور: تاريخيا وثقافيا وفنيا، الجزائر، المطبعة العلاوية بمستغانم، 1996، ص: 46.

[1]: محمد مفلاح: أعلام من منطقة غليزان..."المرجع السابق"، ص: 23. – بوجلال قدور: العلم والعلماء.... "المرجع السابق"، ص: 255.

[2]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود....ج1، "المصدر السابق"، ص: 362. – محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران.... "المصدر السابق"، ص: 248.

[3]: وللإشارة فقد ذكر المزاري تفاصيل أكثر عن طريقة وأسلوب "ابن دهماء العامري" الشنيعة في التّعامل مع الشيخ بلقندوز، حيث دخل عليه بزاويته ولطم خدّه وأخذه بشدّة، وجرّه على الأرض إلى أن أوصله للباي وهو يسحب فيه، فأمر الباي بوضع الكبل عليه فَكُبِّل. ينظر: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود....ج1، "المصدر السابق"، ص: 363.

[4]: بوجلال قدور: العلم والعلماء.... "المرجع السابق"، ص–ص: 255– 256.

[5]: مولاي بالحميسي: مازونة مقصد الدارسين ... "المرجع السابق"، ص: 40. محمد مفلاح: أعلام من منطقة غليزان.... "المرجع السابق"، ص: 22.

[6]: بوجلال قدور: العلم والعلماء... "المرجع السابق"، ص: 255.

كما يظهر من خلال ما سبق أنّ كتاب "طلوع سعد السعود" قدّم لنا معطيات لا بأس بها عن التصفية الجسدية التي شملت عدّة علماء وفقهاء بمختلف مناطق بايلك الغرب كتلمسان ووهران، إذ أصبحت القوة وسيلة إخراس المعارضة، وغدا القتل أداة للقضاء على أصوات الانتقاد أو لحفاظ الحكّام على عروشهم، وصارت القوى المتصارعة بحاجة إلى سند شرعي يدعم صلاحيتها في حكم البلاد، هذا السند تجلّى في كثير من الأحيان في العنف والتنكيل والقتل[1]، وبالإضافة إلى كتاب "طلوع سعد السعود" يمكن الرجوع إلى غيره من مصادر الفترة "كدليل الحيران" و"أنيس الغريب" ليتّضح ما سجّلناه.

ولقد كان لمقتل الشيخ محمد بلقندوز وقع عظيم في نفوس تلاميذه وطلبته وصدى كبير نتيجة هذا الفعل الشنيع، منها نقمة محمد بن علي السنوسي على الأتراك[2]، ورثاء الشيخ الشارف بن تكوك[3] معلّمه الشيخ بلقندوز القداري في قصيدة عُرِفت "بالغوثية" لا زالت تُردَّد في الأوساط الشعبية، ويُنشدها طلبة مدرسة مازونة الفقهية كلّ ليلة جمعة[4] ومطلعها:

ارْحَمْ شَيْخِي بَلْقَنْدُوزْ مُرِيدُ الشَيْخْ المَعْزُوزْ
بَالْقَنْدُوزْ المُزَهَـــدْ فِي وَسَطِ الطَلَبَةِ عَابِدْ

---

[1]: وللإشارة فقد قدّم لنا المزاري نماذج من الاغتيالات تبرز لنا العنف والطغيان السلطويين بما لا يقيم أيّ اعتبار لا للقيم ولا للإنسان، حيث يذكر بأنّ الباي حسن قد أمر جيشه بقتل الشيخ بلقندوز وجميع طلبته إن هم رفضوا تسليم الشيخ للباي. ينظر: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود...ج1، "المصدر السابق"، ص: 362.

[2]: مولاي بالحميسي: مازونة مقصد الدارسين....، "المرجع السابق"، ص: 40. –بوجلال قدور: العلم والعلماء..."المرجع السابق"، ص: 256.

[3]: الشيخ ابن تكوك (1218– 1307ه/1803– 1890م): هو الشيخ ابن الشارف بن الجيلالي بن تكوك فقيه من أنصار الطريقة السنوسية، ولد ببوقيراط بالقرب من مدينة مستغانم فتعلّم بها وهاجر إلى المغرب الأقصى، ثم عاد وأسّس الزاوية السنوسية سنة 1276هـ/1861م وتوفّي بها، وهي قائمة إلى حدّ الآن كما تُعرف بالزاوية التكوكية، وتُعتبر مزارا للصوفية وغيرهم. ينظر: حمدادو بن عمر: أبو راس الناصر... "المرجع السابق"، ص: 84. وللمزيد عن مستغانم وعلمائها ينظر:
Moulay Belhamissi: Histoire de Mostaganem: des origines à nos jours, Alger, Imprimerie El-wiame, 2004, p: 81.

[4]: مولاي بالحميسي: مازونة مقصد الدارسين... "المرجع السابق"، ص:40. وللإشارة فلقد اشتهر بن تكوك بالقصيدة الغوثية أو الاستغاثة التي رثى بها شيخه بلقندوز، مشيرا فيها إلى تلك المأساة التي ذهب ضحيّتها هذا العالم الجليل لمواقفه الشجاعة من الأتراك، فأصبحت تلك الغوثية من المصادر الأساسية في دراسة الفترة الأخيرة من العهد العثماني بالجزائر، والتي كثرت فيها الفتن وعمّت المظالم. ولتفاصيل أكثر يرجى العودة إلى : ابن سحنون الراشدي: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص–ص: 50–53 (من مقدمة المحقق).

لاَبُدَّ فِي الذِكْرِ يُمَجَّدْ يَخْدُمُ رَبِي بِالْنِيَـــــةْ[1]

إنّ ما نلمسه ضمن هذه الأبيات من قوّة التأثّر والتعلّق بهذا الشيخ لما تجسد في شخصه من مواصفات جليلة شهد له بها تلميذه الشيخ الشارف بن تكوك، وممّا يتبيّن أيضا هو تضمّن تلك القصيدة الترحّم على الشيخ وذكر حسناته، والدعاء على الباي حسن بعذاب الله وانتقامه إستياءا وتذمرا من السلطة الحاكمة وسياستها القمعية تجاه المتصوفة، فها هو يتعرّض للباي حسن فيقول:

يَا رَبِّ عَذِّبْ حَسَـــنْ بَرَكَتْ بَيْتِ الله تَعْيَانْ
وَالطَلَبَةْ قَعُدَتْ تَنْهَانْ وَافْتَرَقُوا فِي بَكْرِيـــــا
افْتَرَقُوا مِنْ تَحْمِـــدَا شَدُّوا مَنْ بِهِ العُمْـــــدَا
ثُمَ كَانُوا مَجْمُوعِيـــنَ عَمَارَةً لِلْمَسَاكِيـــــــنِ
يَكْفُلُ مَنْ لاَ عِنْدَهْ وِينْ يَكْسِي إِلِي يْجُوهْ إِعْرَايَا[2]

ثم يشير إلى تعرّض جلّ المتصوفة للتعذيب والقتل، مع أشكال مختلفة من العنف كالضرب والتكبيل وغير ذلك فيقول:

مَا رَفْقُوشِي بِالنُفُـــوسِ يَخَدْمُوا غَيْرَ النُحُـــــوسِ
مَاذَا قَتَلُوا مِنْ رُؤُوسِ مِنْ سَادَاتِي الصُوفِيَـــــةِ
قَتَلُوا شَيْخِي الرِبَانـــي مَا هُوشِي مِنْ أَهْلِ الفَانِي
يَجَعْلُوا مَا يَنْسَانـــــي فِي الآخِرَةِ وَالدُنْـــــــيَا[3]

يتبيّن لنا أنّ المزاري والزياني قدّما لنا معطيات عنفية عن هذا الحدث بشكل يجعلنا نتصوّره بشكل "سينمائي" إن صحّ التعبير، ونستنتج أنّ الشيخ بلقندوز قُتِل ظلمًا وغدرًا لا لشيء إلاّ أنّه تحمّل مسؤوليته الدينية كعالم في تقديم النصيحة، وفي تدريس طلبة القرآن فهو– حسب أحد الباحثين–: "يمتاز بمواصفات جليلة من تقوى وورع وعلم وزهد وعبادة وذكر، وانكباب على تدريس جموع من الطلبة على مدار عقود من الزمن.... إنّه الدعاء على الباي حسن بما يستحقه من عقاب الله لما فعله مع هذا الشيخ الضرير، وكيف كان فعله

[1]: "المصدر نفسه"، ص: 51.
[2]: "المصدر نفسه"، ص: 52.
[3]: "المصدر نفسه"، ص: 52.

سببا في تفريق طلبة القرآن وحفظته حين أقدم على قتل شيخهم، وعطّل نشاطا دينيا وثقافيا ودورا اجتماعيا كانت تقوم به الزاوية بزعامة هذا الشيخ"[1].

وممّا تقدّم يمكن القول أنّ سوء تعامل الأتراك مع الرعية وخصوصًا المتصوفة كان هو الطابع الذي غلب على تلك المرحلة من الحكم العثماني في الجزائر حسب كلّ من كتبوا عنها، سواء من أولئك الذين عايشوها أو أولئك الذين كانوا قريبين منها كالمزاري ومسلم بن عبد القادر الوهراني والزياني، الذين قدّموا لنا معطيات عن القتل والتعذيب والأسباب التي أدّت إليها، كما سجّلوا لنا تعرّض كثير من الفقهاء والعلماء والمتصوفة وغيرهم لمختلف أشكال العنف نتيجة العوامل المتنوعة والمتداخلة السابقة، والأخرى التي يمكن الإشارة إليها باقتضاب منها:

- سياسة تكميم الأفواه التي سلكها بعض الحكّام لا سيما الباي حسن ورفضهم للنصيحة ولإبداء الرأي، فالملاحظ أنّ معظم البايات الذين حكموا في هذه الفترة لم يكونوا مؤهلين لتولي هذا المنصب الخطير، وكانت الأحداث التي مرّت بالإيالة في وقتهم أكبر من قدراتهم، ممّا نتج عنه تردّي هيبة السلطة وبطلان رسومها[2].

- ضعف التكوين وإصدار أحكام ظالمة، فها هو الباي حسن يَتَتبّع رجال الدين والعلم فيسجن ويعذِّب ويقتل، وأحدث "محاكم التفتيش" الشبيهة بالمحاكم التي أحدثها الإسبان بعد سقوط مملكة غرناطة[3].

- السعاية والحسد من جانب فقهاء وقضاة وعلماء آخرين، فكثيرا ما يحتدم النقاش بين المفتيين الحنفي والمالكي، وطبعًا تكون كفّة الرّجحان لجانب الحنفي[4].

- المطالب الضريبية العثمانية المتتالية والتي شكّلت عبئًا ثقيلاً على السكّان، وقد كان ذلك العبء يزداد حدّة في سنوات الجفاف ويشتدّ وقعًا بفعل قسوة وتشدّد الجباة، فنتج عن ذلك حالة تذمّر عاشها السكان طوال الفترة موضوع البحث، والتي أدّت بهم إلى التهرّب من دفع الضرائب، ثم التمرّد والعصيان وفقا لظروفهم ومقدرتهم على ذلك[5]. وفي هذا السياق انتقد

---

[1]: محمد شاطو: السلطة العثمانية في الجزائر.... "المرجع السابق"، ص-ص: 168-169.

[2]: طالبي عطاء الله: علاقة الحكام الأتراك برجال الدين... "المرجع السابق"، ص: 35.

[3]: ابن سحنون الراشدي: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص: 49 (من مقدمة المحقق).

[4]: Pierre Boyer :La vie quotidienne à Alger…, Op. cit, p : 76.

[5]: توفيق دحماني: النظام الضريبي ببايلك الغرب.... "المرجع السابق"، ص: 126.

المزاري سياسة الباي حسن على أنّه يظلم الناس والعلماء من ضمنهم ويأخذ أرزاقهم بالباطل فيقول: "ثم صار مهمى مات أحد من رعيته وهو ذو مال وفلوس، إلاّ صيّر نفسه واحد من الورثة، ويأخذ حظه معهم على عدد الرؤوس"[1].

- معارضتهم أحيانا لنظام الحكم القائم بسبب ميولاتهم السياسية.

نستخلص أنّ الأسباب السياسية كانت الدافع الجوهري للسلوك العنيف ضدّ المتصوفة، كما كانت السبب في تعدّد وتنوّع مظاهره.

كما تتجلّى قيمة كتاب "أنيس الغريب والمسافر" في اهتمام محققه "رابح بونار" بالتحليل النفسي الذي أصبح من العلوم الإنسانية التي لها أهميتها في الكتابة التاريخية، حيث ذكر بأنّ مسلم بن عبد القادر الوهراني لم يتحدّث عن الباي حسن وعن حياته السياسية والاجتماعية التي دامت على يده نحو إحدى عشر سنة، بالرغم من أنّه كاتب لامع في بلاطه، ومن المنتظر من المؤلِّف أن يحدثنا كثيرا عنه، ولا شك أنّ سكوت المؤلِّف عن هذا يعود إلى عدم رضاه عن حياته في البلاط بعد أن تغيّر سلوك الباي، وساءت معاملاته للناس عامة وللعماء ورجال الدين خاصة[2].

2-العزل من المناصب:

لعب العلماء دورا سياسيا وثقافيا واجتماعيا هامّا أدّى بهم إلى التعرّض لمختلف أصناف المتابعة وأشكال القهر، وتعتبر عملية العزل من الوظيفة من الأساليب القمعية التي اعتمدها الحكّام العثمانيون ضدّ معارضيهم، وضدّ كلّ من يهدد استقرارهم السياسي والاجتماعي والمذهبي، وقد شكّل عزل القضاة والفقهاء وسيلة لمحاولة ردع وتضييق الخناق على العناصر المعارضة منهم[3].

ومن الملاحظ أنّه بعد أن جرت ثورة درقاوة على الحكم العثماني بإيالة الجزائر ولصبغتها بالصبغة الدينية، صار الأتراك يكيلون التّهم لجميع رؤساء الدين الذين لا فرق بين المنتسبين لدرقاوة أو لغيرها من الطرق، ولم يَنجُ من هذه التّهم حتى الموالون للأتراك مثل

[1]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود... ج1، "المصدر السابق"، ص: 351.

[2]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب... "المصدر السابق"، ص-ص: 47-48.

[3]: مختار مخفي: العلماء والسلطة.... "المرجع السابق"، ص: 162.

العالم المؤرخ أبو راس الناصر فأصابته بعض شظايا هذه التّهم، وعُزِل من مناصبه الرسمية كالإفتاء والقضاء[1].

هذا وقد كانت الوشاية إحدى الوسائل المطيحة برجال الدين، وكان الحكّام من أكبر المصدقين لها دون الإقدام على التحرّي في صدقها ومصدرها، كما لعب العلماء تحت حجّة المنافسة الهدّامة اللجوء إلى أساليب لا أخلاقية للإطاحة بخصومهم أو منافسيهم مثلما حدث للشيخ العلامة الحافظ أبو راس الناصر، الذي تمّ الإطاحة به من قبل خصومه وحساده بحكم أنّه كان من المقرّبين عند الحكّام العثمانيين، حيث تمّت الوشاية به عند الباي "مقلش" هذا الأخير الذي قام بعزله من مناصبه الرسمية، فأبو راس كالكثير من العلماء ضحايا السياسة التي لا تبقي ولا تذر[2].

وخلاصة القول لقد عانى بعض العلماء من عقوبة العزل من المناصب نتيجة الفتن والثورات الدينية التي أصابت الإيالة مع مطلع القرن التاسع عشر، ونتيجة استبداد الحكّام أحيانا، وتخوّفهم من أدنى معارضة أو نقد.

والجدير بالذكر أنّ الشيخ أبو راس الناصر كان من أبرز المعارضين لتلك الثورات حيث اعتبرها وبالاً على البلاد والعباد، وفي نظره أنّ تلك الثورات التي ثار أصحابها على العثمانيين ما هي إلاّ حركات تمرّدية غايتها إحداث الفتنة[3]، حيث عبّر عن معارضته لثورة درقاوة التي سمّاها "فتنة" في رحلته لمّا كتب يقول: "... ثم عمّتنا فتنة درقاوة وأنا لم نكن فيها، كما قال الشيخ عامر الشعبي للحجاج بن يوسف: وقد خبطتنا فتنة لم نكن فيها أتقياء بررة ولا أقوياء فجرة... فاتصلت علينا صراصر النكبات والبليات من الخوف والجوع والروع الذي في الفؤاد مودوع، وقد ناداني لسان الحال بقوله: دع الدفاتر للزمان الفاتر فطرحت الكتب بمتروك مكان، واستمر عليها النسيان حتى نسجت عليها عناكب الهجران...."[4].

---

[1]: ابن سحنون الراشدي: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص: 46 (من مقدمة المحقق).

[2]: مختار مخفي: العلماء والسلطة..... "المرجع السابق"، ص-ص: 162- 163.

[3]: محمد بوشنافي: "موقف علماء معسكر من بعض القضايا السياسية للجزائر خلال العهد العثماني"، ضمن كتاب جماعي تحت عنوان: معسكر: المجتمع والتاريخ، تنسيق: عبيد بوداود، الجزائر، منشورات مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر، 2014، ص: 24.

[4]: أبو راس الناصر: فتح الإله.... "المصدر السابق"، ص-ص: 24-25.

وزيادة على هذا فإنّه من المرجّح أنّ الشيخ أبو راس الناصر قد اضطرّ إلى الهروب نتيجة لهذه الأوضاع المزرية والخطيرة التي شهدتها الإيالة، خصوصًا أنّ الحكّام العثمانيين كانوا يتوجّسون خيفة من كل رجل دين، وفرضوا عليهم رقابة شديدة خوفًا من أن يثوروا عليهم مرة أخرى[1]، وبعد استقرار الأوضاع عاد الشيخ أبو راس الناصر إلى معسكر وألّف كتابه "درء الشقاوة في حرب درقاوة"، والذي بيّن من خلاله موقفه من ثورة درقاوة التي اعتبرها "مفسدة ظالمة" وأنّه لم يكن طرفًا فيها[2].

3- الهجرة:

لقد وُجِد العديد من العلماء ممّن سَلِم من القتل فاتّخذ من الهجرة والرحيل حلاً[3]، حيث غادر إيالة الجزائر جماعة لا يستهان بها من علمائها وأدباءها، منهم الشيخ محمد بن عبد الرحمن اليبدري التلمساني[4] قاضي المالكية بتلمسان، فلمّا عُزِل عن القضاء والمناصب التي تحمد وترتضى، سمت به همته ونمت به رفعته إلى المشرق ثانيا فكانت هجرته نهائية إلى الحرمين الشريفين، وعبّر عنها أبو راس بقوله: "ونبذ تلمسان نبذا كليا واتخذها وراءه ظهريا وقد قيل له... ومسقط رأسك فقال: هيهات قد طلقتها بتاتا قائلا: فما قلبي إليها يرجع ويسفر، وكم من مثلها فارقتها وهي تصفر، فودعها وداع من لا يعود وأعرض عن العشائر والأقارب والأهل وأضرحة الجدود ولحق بالحرمين الشريفين، وأخذ معه من العسجد أكثر من ألفين فضلا عن الورق الوريق"[5].

---

[1]: محمد بوشنافي: موقف علماء معسكر.... "المرجع السابق"، ص: 20.

[2]: مختار مخفي: العلماء والسلطة... "المرجع السابق"، ص: 164.

[3]: لبصير سعاد: "دوافع الهجرة الدينية والعلمية من الجزائر في العهد العثماني 1516- 1830"، مداخلة بالملتقى العلمي الأول حول سوسيولوجية الهجرة الجزائرية في تاريخ الماضي والحاضر، ماي 2008، منشورات مخبر الدراسات والأبحاث الاجتماعية التاريخية حول الهجرة والرحلة، قسنطينة، جوان 2009، ص: 47.

[4]: محمد بن عبد الرحمن اليبدري التلمساني: أحد علماء تلمسان وقاضي الجماعة بها، عاش خلال القرن 12هـ -18م، من نسل عالم المذاهب الأربعة الشيخ أحمد بن الحاج المناوي اليبدري، رحل إلى مصر لطلب العلم ثم عاد إلى تلمسان وتولّى القضاء بها والتدريس لمدّة طويلة، ومن بين تلامذته الشيخ أبو راس الناصر، لكنّه عُزل فيما بعد عن القضاء فقرّر الهجرة النهائية إلى الحرمين الشريفين، ومن بين مؤلّفاته حاشيته على الخرشي. ينظر أبو راس الناصر : فتح الإله ... "المصدر السابق"، ص: 49.

[5]: "المصدر نفسه": ص-ص: 49-50.

هذا وقد كان استبداد الحكّام العثمانيين والبايات على الخصوص من الأسباب التي أدّت إلى النفي والهجرة القسرية والفرار، فاستبداد الباي حسن أدّى إلى خروج وهجرة الشيخ الشارف بن تكوك إلى المغرب بعد مقتل شيخه بلقندوز خنقًا[1]. كما هاجر إلى المغرب العلامة الشيخ أبو عبد الله محمد بن سعد التلمساني إثر الأحداث التي شهدتها مدينة تلمسان، والتي تعود مجرياتها لخريف عام 1828م عندما رفضت قبائل ولهاصة في شمال تلمسان دفع الضريبة المفروضة عليهم للسلطة، فأرسل إليهم الباي حسن محلّة لاستخلاصها منهم بالقوة إلاّ أنّ المحلة العثمانية تعرّضت لكمين فأبيدت عن آخرها، فخرج العالم محمد بن سعد لتهدئة الأوضاع لكنّه أُتُّهِم بالتّعاطف مع السكّان، فخشي على نفسه وعجّل بالفرار إلى المغرب، حيث استقبله السلطان عبد الرحمن بن هشام[2].

ومن هنا يتّضح لنا كثرة الفقهاء ورجال العلم الذين اضطرّوا إلى الهجرة والاغتراب – يمكن اعتباره نفيًا– أثناء فترات عدم الاستقرار والاضطراب السياسي التي كان ينجم عنها غياب الأمن، وأدّى نشوب تلك الثورات الدينية إلى تحرّك الفقهاء والعلماء بشكل ملفت وفي صورة مأساوية يطبعها التشرّد وتفكّك الأسر، إذ تمّ أحيانا ترك الأبناء والأهل[3]، لكن بالرغم من ذلك إلاّ أنّ العلماء وجدوا في الهجرة المنأى والمنى[4].

وفيما يظهر أنّه قد راج لون الهجاء في الجزائر خلال العهد العثماني بصورة كبيرة وذلك لأسباب كثيرة من أهمّها تقلّب الأحوال السياسية واضطرابها، واستبداد بعض الحكّام بالسلطة وإهمالهم شؤون الرعية وتقاعسهم عن الجهاد، ومن هذه الأسباب أيضا ما يُردّ إلى عوامل ذاتية أو شخصية تتمثّل في فساد العلاقة بين الشاعر والحاكم كأن يُبعده الحاكم عن دائرته واهتماماته أو يضن عليه بالعطاء، فها هو الأديب العالم أبو عثمان المنداسي بن عبد الله التلمساني ينتهي به المطاف إلى المغرب نتيجة الانتقاد السياسي الذي وجّهه للحكّام العثمانيين، حيث نظّم قصيدة أسماها "العقيقة" وصف فيها جور الترك واتّهم من ولاهم من

---

[1]: ابن سحنون الراشدي: الثغر الجماني ... "المصدر السابق"، ص: 51 (من مقدمة المحقق).

[2]: فوزية لزغم: البيوتات والأسر العلمية.... "المرجع السابق"، ص: 313.

[3]: وهو ما حدث مع الشيخ أبو عبد الله محمد بن سعد التلمساني وأحمد التيجاني. للمزيد ينظر: لبصير سعاد، "المرجع السابق"، ص: 55.

[4]: عميراوي حميدة: قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث، الجزائر، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، 2005، ص: 56.

العلماء بتهم شنيعة، مشيرا إلى ادعاءات العثمانيين بأنّهم إخوانهم لكنّهم أشدّ أعدائهم، وهم في نفس مرتبة المسيحيين[1] وممّا جاء فيها:

أَمِنْ قَادِرٍ بِاللهِ يَحْمِي تِلِمْسَانَـــا ... فَإِنَّ بِهَا مِنْ قَوْمِ يَاجُوجَ إِخْوَانَـــــا
بَنَى السُدَّ ذُو القَرْنَيْنِ رَحْمَـــــةً ... فَيَا لَيْتَهُ مِنْ شَوْكَةِ التُرْكِ هَنَانَـــــا
سَمِعْنَا حَدِيثًا صَادِقَ النَقْلِ رَبُهُ ... بِأَنَّ لِجِنْسِ التُرْكِ فِي الأَرْضِ إِخْوَانَا
وَلَكِنْ وَرَاءَ السُدِّ عَمَّ فَسَادُهُـــمْ ... وَهُمْ أَفْسَدُوا فِي الغَرْبِ كُفْرًا تِلِمْسَانَا[2]

ورفضًا لتلك الظروف هاجر المنداسي خوفًا من التنكيل به أو نفيه ومصادرة أملاكه، واستقرّ بالمغرب نظرا للأمن والاستقرار الذي عرفته[3]، ومن هنا يفهم أنّ العنف والاضطهاد كان أحد الأسباب الرئيسية للهجرة، فقد قدّم لنا الزياني نماذج حيّة عن تلك التصرفات وقسوة بعض الحكّام مع الرعية ومن ضمنها فئة العلماء وفنون التعذيب المنتهجة والممارسة ضدّهم، من ذلك أنّه بعد ثورة درقاوة قام أحد البايات بإتّباع سياسة التنكيل والقسوة ضدّ أتباع الطريقة الدرقاوية بمجرّد الوشاية أو الادّعاء عن طريق الإعدام كحل أمني وأسلوب في التعاطي مع الطريقة وأتباعها، حتى لا يستفحل أمرها وتنتقل عدواها[4] مصوّرًا ذلك بقوله: "وصار مهما ظفر من أحد من درقاوة بادر للانتقام منه بأي نوع شاءه ولم يقبل منه شفاعة شفيع، وابتدع قتلا لم يبتدعه أحد من الملوك قبله وهو فعل شنيع، ونوع عذاب من يظفر به إلى أنواع فمنهم من يأمر بإخراجه للسوق ودق أعضائه حيا شيئا فشيئا بالمعاول إلى أن يموت بإنفظاع، ومنهم من يأمر بإقلاع عينيه ويتركه أعمى من حينه، ومنهم من يأمر بقطع أعضائه فإن مات وإلا جهز عليه فيموت في سجنه، ومنهم من يأمر

---

[1]: لبصير سعاد، "المرجع السابق"، ص: 60.

[2]: ابن سحنون الراشدي: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص-ص: 56-57.

[3]: وللإشارة فقد كان المغرب الأقصى منطقة جذب لعلماء الجزائر خلال العهد العثماني، وخاصة علماء الجهة الغربية. للمزيد عن هذا الموضوع يرجى العودة إلى: بوشنافي محمد: "هجرة العلماء الجزائريين إلى المغرب الأقصى وبلدان المشرق العربي خلال العهد العثماني 1520- 1830"، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، العدد: 04، جامعة معسكر، ديسمبر 2009، ص-ص: 101- 102.

[4]: مختار مخفي: العلماء والسلطة .... "المرجع السابق"، ص: 168.

بذبحه.... ومنهم من يأمر بقطع رأسه وفضحه، ومنهم من يأمر بخنقه.... ومنهم من يأمر بشنقه، إلى غير ذلك من الأنواع المختلفة"[1].

ولكلّ ذلك انتشر تنديد الرعيّة والعلماء وتحسّرهم على حالة الظلم السائد، وحتى الشعر الشعبي عبّر عن ظلم الأتراك من خلال البيت التالي:

التُرْكُ جَارُوا وَاسْوِيدْ أَعْقَابُهُمْ طَافْحِينْ وَالتُرْكُ شَارِبِينَ الهْبَالْ فِي سَطْلَهْ[2]

وبالتالي فقد تمادى الأتراك –السلطة– وعاثوا في الجزائر فسادا وظلما، وقسوا في معاملة الرعية وتوحيد البلاد وحماية الحدود، واصطدموا بكثير من التمردات والثورات التي كانوا ينجحون تارة في إخمادها ويفشلون تارة أخرى[3]، هذا وقد كان العنف والاضطهاد أحد الأسباب الرئيسية للهجرة[4].

4- الإهانة والمضايقة:

بعد ممارسة العنف والقتل تمكّن العثمانيون من كبح جماح أكبر زعماء المتصوفة، إلاّ أنّ الميدان أفرز نوع آخر من التعذيب والتنكيل بالعلماء والمرابطين ألا وهو "المضايقة" التي كانت أهون من حيث درجة الأذى الجسماني لما لها من آثار وأضرار على المستوى النفسي والعقلي[5]، حيث تعرّض العديد منهم للإهانة والإذلال، فها هو الباي محمد الكبير الذي عُرِف بتقديره وتقريبه للعلماء وحسب "بوي" Boyer فإنّه أساء إلى مرابطي منطقة تسالة والتّمثيل بأحدهم أمام المحلّة، حيث أهانه بأن جعله على ظهر حمار وأخذ يطوف به في معسكر المحلّة، بعد إلقاء مسؤولية إحداث اضطرابات بمنطقة تسالة عليه[6].

---

[1]: محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران... "المصدر السابق"، ص: 227.

[2]: ابن سحنون الراشدي: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص: 36 (من مقدمة المحقق).

[3]: "المصدر نفسه"، ص: 34.

[4]: لبصير سعاد: "المرجع السابق"، ص: 49. وللمزيد عن موضوع هجرة العلماء خلال العهد العثماني ينظر: مختار حساني: موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية: مدن الغرب، ج4، الجزائر، دار الحكمة، 2007، ص-ص: 95-96. وأيضا: لبصير سعاد: "المدينة المنورة مركز استقطاب العلماء الجزائريين"، مداخلة بالملتقى العلمي حول الهجرة: الحراك والمعالم الحضرية في الجزائر، جوان 2009، منشورات مخبر الدراسات والأبحاث حول الرحلة والهجرة، قسنطينة، 2011، ص: 154.

[5]: مختار مخفي: العلماء والسلطة.... "المرجع السابق"، ص: 171.

[6]: Pierre Boyer: Contribution… Op. cit, p : 38.

ممّا يدلّ على عدم ثقة العثمانيين في الصوفية ومنعهم من تأليب الناس عليهم، أو على الأقل الحدّ من تحرّكهم المحتمل ضدّهم.

كما تعرّض الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر للإهانة والإساءة من قبل الباي حسن الذي تبنّى سياسة البطش والقتل ضدّ العلماء والأولياء، من خلال وضعه رفقة ابنه عبد القادر تحت الحراسة والإقامة الجبرية في وهران خلال توجّهه إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج[1].

ويرجح أنّ الباي حسن كان ينتظر الفرصة للقضاء على شيخ الزاوية القادرية محي الدين وأسرته الذي حظي بالاحترام والتقدير ممّن سبقه من البايات لمكانته، وهذا ما نستشفه من أحد المجالس التي عُقِدت لتقدَّم للباي التبريكات بعد انتصاره على الثورة الدرقاوية، فقال لجلسائه مشيرا إلى الشيخ محي الدين: "نحن لا نخشى من ابن الشريف وأمثاله، وإنّما نخشى من صولة هذا"[2]، ولولا تدخّل بعض أعيان المخزن لصالحه لكاد أن يهلك[3].

هذا وتعود مجريات الأحداث في المنطقة لشهر أكتوبر من سنة 1823م عندما غادر شيخ الزاوية القادرية محي الدين وابنه عبد القادر القيطنة، وقد منع الباي حسن الشيخ من متابعة رحلته إلى الحج وهو يشارف سنّ الخمسين، ووضعه رفقة ابنه عبد القادر تحت الحراسة والإقامة الجبرية في وهران[4].

ومن الأسباب التي دفعت باي وهران إلى اتّخاذ هذا الإجراء التعسّفي نذكر تخوّفه من تداعيات رحلة الشيخ المثيرة للشك، والتي أثارت حفيظة الباي بفعل الوشاية[5]، ففي نهاية اليوم الأول منها رأى محي الدين مئات من العرب يطالبون بشرف وشغف كبير مشاركته في رحلته المباركة إلى الأراضي المقدّسة، وفي اليوم الثاني أصبح عددهم بالآلاف، وفي اليوم الرابع أقيم بحر من الخيام حول خيمته، ذلك أنّ محي الدين كان مرابطهم ورئيسهم وقديسهم حسب تعبير هنري تشرشل، وستتضاعف بركة أولئك الذين يتطلّعون تحت رعايته

---

[1]: محمد بكار: "الشيخ محي الدين بن مصطفى والزاوية القادرية "، آفاق فكرية، العدد: الثاني، جامعة جيلالي اليابس – سيدي بلعباس، ربيع 2015، ص: 44.

[2]: محمد بن الأمير عبد القادر: تحفة الزائر....ج1، "المصدر السابق"، ص، ص: 76، 77.

[3]: ابن سحنون الراشدي: الثغر الجماني....، "المصدر السابق"، ص: 49 (من مقدمة المحقق).

[4]: محمد بكار، "المرجع السابق"، ص: 44.

[5]: "المرجع نفسه"، ص: 44.

إلى تقبيل الكعبة المقدسة، وفي عشية اليوم السادس تجمّع الركب الكبير على ضفة نهر جديوية في سهل الشلف، وهناك أُستُدعي محي الدين من طرف الباي حسن ورغم معارضة المناصرين ذهابه إلى الحاكم بوهران خوفًا عليه من العواقب استجاب الشيخ للدعوة ورضي بالحكم، كما أجابهم بأنّ عليه أن يذهب ولو كلّفه ذلك حياته[1]، وقد استمرّ هذا الوضع الشاق دون وهن سنتين، ولم يقم محي الدين بأيّ احتجاج، وهذا يدلّ على مدى طاعة هذا العالم للسلطة الحاكمة[2].

ويفهم من هذا أنّ ملاحقة هؤلاء المتصوفة يدلّ على التخوف الذي بدأت السلطة العثمانية تحسّ به من جرّاء اتّساع نفوذهم ومريديهم وأتباعهم[3]، حيث "أسكنه الباي حسن بوهران بمنزلة المثقف"[4] نظرا للمكانة التي كان يتمتّع بها محي الدين وأسرته في المنطقة، ولم يطلق سراح الشيخ محي الدين وعبد القادر إلاّ بعد سنتين من الإقامة الجبرية، وبفضل تدخّل زوجة الباي وبعض أعيان المنطقة أمثال مصطفى بن إسماعيل والمزاري[5]، ليغادر بعدها الشيخ رفقة ابنه وهران في سرعة كبيرة عام 1825م نحو الحجاز عبر البحر لأداء فريضة الحج، دون العودة إلى القيطنة خوفًا من إثارة الفتنة ووقوع تجمهرات مماثلة لما حدث سابقًا، وتجنّب وقوع الحرب مع السلطة العثمانية[6].

نستخلص أنّ المتصوفة تعرضوا للمضايقة مع أشكال مختلفة من الإهانة والإذلال وغير ذلك، وفيما يظهر أنّه لم تُشِر مصادر تلك الفترة إلى ما يدلّ على تورّط الشيخ محي الدين وابنه عبد القادر في تلك الثورات التي تزعمها شيوخ الطرق الصوفية، فها هو مثلا تلميذه السيد السنوسي بن عبد القادر بن السنوسي الدحاوي يخاطبه بقصيدة نونية وهو في

---

[1]: شارل هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم: أبو القاسم سعد الله، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 2004، ص، ص: 65، 66.

[2]: فوزية لزغم: البيوتات والأسر العلمية.... "المرجع السابق"، ص: 460.

[3]: شارل هنري تشرشل: "المصدر السابق"، ص: 67.

[4]: محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران.... "المصدر السابق"، ص: 248. – الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود... ج1، "المصدر السابق"، ص: 361.

[5]: محمد بكار، "المرجع السابق"، ص: 45.

[6]: شارل هنري تشرشل، "المصدر السابق"، ص: 70.– محمد بكار، "المرجع السابق"، ص: 45.

سجن وهران بيّن فيها الظروف التي من أجلها قُبِض عليه[1]، ومبرزا كذلك إتّهام الشيخ محي الدين وأنّ ذلك لم يكن نتيجة خطأ اقترفه، وممّا جاء فيها:

عَوِّلْ عَلَى الصَبْرِ لاَ تُفْزِعُكَ أَشْجَانْ وَلاَ تُرِعْكَ بِمَا فَاجَتْكَ وَهْـــرَانْ
مَا أَنْتَ أَوَلْ مَنْ دَهَتْ وَلاَ آخِـــرْ وَلاَ بِأَوْسَطِ مَنْ خَانَتْهُ إِخْـــوَانْ
لَمْ يَشْتُوكَ أَمُحْيِ الدِينَ عَنْ زَلَـــةٍ رَأَوْ وَلَكِنْ أَشْقَى القَوْمِ شَيْطَـــانْ
وَيَكْظِمُ الغَيْظَ مِنْ خَصْمٍ وَمِنْ حَكَمٍ وَيَكْشِفُ الغَمَ أَنْ صَدُوا وَأَنْ خَانُوا
بَلْ لاَ عَلَيْكَ وَإِنْ سَاءَتْ ظُنُونُهُـــمْ سَيُهْزَمُ الجَمْعُ أَوْ يُشَتَتُ دِيـــوَانُ[2]

ممّا يبيّن بجلاء السياسة التي انتهجها الحكّام العثمانيون والرامية إلى التضييق على المتصوفة، وفكّهم عن مجالات روابطهم البشرية وقواعدهم الاجتماعية ومريديهم حتى تتمّ مراقبتهم عن قرب ومتابعة أنشطتهم، لكن كثير من المتصوفة استمرّوا في انقباضهم ورفضهم التعامل مع رجال السلطة.

فمثلا كان من نتائج هذه الحادثة أن وقف الشيخ محي الدين موقفًا محايدًا لمّا غزت فرنسا المنطقة، ولم يهب لمساعدة الباي حسن في مواجهة العدوّ، حيث استنجد به ورفض من جهته الشيخ محي الدين طلب الباي بعد استشارة قومه خوفًا من غضب القبائل الثائرة والمعادية له[3]. وحتى ابنه عبد القادر كان له موقف مماثل من العثمانيين لمّا تولّى قيادة المقاومة، حيث كان يَعتبر أنّ ما حلّ بالجزائر من محن ودمار أفضى بها إلى الوقوع تحت براثن الاحتلال سنة 1830م، إنّما كان بسبب سياسة الأتراك في البلاد التي اتّسمت بالظلم والجور[4]، ففي رسالة بعث بها الأمير إلى السلطان العثماني عبد المجيد بتاريخ 26 ديسمبر 1838م قال فيها: "....إنّ الانكشارية الذين كانوا بالجزائر لمّا خرجوا عن طاعة أمير

---

[1]: ابن سحنون الراشدي: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص: 49.

[2]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود.... ج1، "المصدر السابق"، ص: 361.

[3]: وأيضا بحجّة عدم قدرة الباي حسن على حماية مدينة معسكر، حيث أنّه سلّم مدينة وهران بسرعة يوم 04 جانفي 1831م، وقرّر بعد رفضه الهروب أن يُرسِل إلى محي الدين ويتوسّل إليه أن يحميه، الأمر الذي أدّى بالأمير إلى إقناع أبيه برفض تقديم المساعدة للباي. للمزيد عن هذا الموضوع يرجى العودة إلى: صالح فركوس: "مواقف الأمير عبد القادر من السلطة التركية والحاج أحمد باي قسنطينة"، حوليات، العدد: 02، جامعة قالمة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، 2008، ص-ص: 200- 201.

[4]: محمد بوشنافي: مواقف علماء معسكر.... "المرجع السابق"، ص: 20.

المؤمنين.... عاقبهم الله بسوء فعلهم، فسلّط عليهم من لا يرحمهم العدو الكافر الغشوم فبدّد شملهم وأجتثّ أملهم، وملك القرى والمدائن واستولى على الأموال والذخائر والخزائن، وسمت به همته أخزاه الله إلى ملك جميع الإيالة واسترقاق المسلمين تارة بالمكايد والحيل وتارة بالقهر والاستطالة، وحال الكافر والبحر بين المسلمين وبين سلطانهم مع شدة حاجتهم إلى من يقوم بهم، ويدافع عن حريمهم وأولادهم وأوطانهم"[1].

هذا وقد ظلّ الأمير عبد القادر ينظر إلى أتراك الجزائر على أنّهم مصدر ما أصاب الجزائر من احتلال وتشريد وتقتيل، بعد أن استيقن من ضعفهم السياسي والعسكري مع اتّساع استغلالهم لطبقات الشعب الجزائري[2]، ففي نفس الرسالة التي بعث بها إلى السلطان عبد المجيد حمّل الأتراك مسؤولية احتلال الجزائر، ومشيرًا فيها إلى أنّ إساءتهم للرعية كانت سببًا مباشرًا في عدم قدرتهم على المواجهة العسكرية، وممّا جاء فيها: "...وأهل هذا الوطن بالأصالة ضعاف منذ عاملهم عمال الجزائر في السابق بالظلم الكبير والاعتساف، ومنذ دهمهم العدو الكافر أشغلهم حربه عن البيع والشراء، فهم كلهم يتكففون عالة فقرا....فهم لنا ظالمون وتبرأ منا من كان قريبا لنا من الملوك، ومنعونا شراء ما نتفق به على الكافر خوفا منه ومنعونا حتى السلوك... "[3].

وممّا تجدر الإشارة إليه هو أنّ الأمير عبد القادر قد عاين التصرفات الجائرة للحكّام الأتراك عند إقامته بمدينة وهران لمدّة سنتين، حيث كان يراقب ذلك عن قرب فلاحظ الفرق الحياتي والاجتماعي بين الأتراك والجزائريين. كما شاهد معاملة الأتراك السيئة لبني جلدته فقد عانى منهم السكان معاناة كبيرة، كلّ هذا جعل الأمير عبد القادر يتذمّر من بقائهم على رأس سدّة الحكم ويُبدي معارضته الشديدة لحكمهم[4]، ففي رسالة وجّهها إلى الصدر الأعظم بتاريخ 24 نوفمبر 1841م أظهر فيها نقمته على تصرفات الأتراك، وألقى كلّ المسؤولية فيما حلّ بالجزائر من ويلات ومحن على فرق الانكشارية، إذ ذكر: ".... بوطن الجزائر

---

[1]: أحمد توفيق المدني: أبطال المقاومة الجزائرية: حمدان عثمان خوجة، أحمد باي قسنطينة، الأمير عبد القادر والدولة العثمانية، الجزائر، دار البصائر، 2009، ص: 69.

[2]: صالح فركوس: مواقف الأمير عبد القادر من السلطة التركية ....، "المرجع السابق"، ص: 196.

[3]: أحمد توفيق المدني: أبطال المقاومة الجزائرية.... "المرجع السابق"، ص: 74.

[4]: صالح فركوس: مواقف الأمير عبد القادر من السلطة التركية ... "المرجع السابق"، ص، ص: 196، 198.

الذي صار لقربان الكفر وذيابه جزائر، ولم تتفقده ساداته وحماته، وتغافلت عنه أنصاره وفرسانه وكماته...."[1].

وزيادة على هذا فقد اعتبر الأمير عبد القادر فشل الداي حسين في التصدّي للجيش الفرنسي ورضوخه لشروط الفرنسيين في 04 جويلية 1830م أنّ الحكم التركي بالجزائر قد انتهى إلى الأبد، وأنّ ارتباط البلاد الجزائرية بالدولة العثمانية لم يَعد أمرًا واردًا مطلقًا، بل اقتنع بضرورة تغيير الأنظمة والقوانين التي كان العمل جاريًا بها، فأبطل في دولته امتيازات الأتراك، وألغى ما كانت قبائل المخزن وجماعة الكراغلة تحظى به من معاملة على حساب عامّة سكان المدن والأرياف[2].

هذا وقد كان للأمير موقف صريح من الحكّام الأتراك لا سيما الحاج أحمد باي الذي لم يكن يختلف –في نظره– عن باقي الحكّام الأتراك، الذين حمّلهم مسؤولية احتلال الجزائر من طرف المحتل[3]. الأمر الذي سبّب كراهية الحاج أحمد باي لشخصية الأمير فَكَنَّ له عداءًا كبيرًا، وهو ما نستشفّه من خلال الرسالة المؤرّخة في 15 أكتوبر 1837م من أحمد باي إلى الصدر الأعظم أحمد قبطان باشا يتّهم فيها الباي الأمير على أنّه سبب الفتنة في البلاد، وممّا جاء فيها: "... لكنّه لا تخفاكم أحوال البادية لا تنضبط لأنّ الطول يحصل لهم الكسل ويوجب الوهن والملل، وإن كان لا غرض لكم في هذا الوطن فعينوا لنا طريقا مأمونا نأتيكم أموت بين أيديكم عزيزا ولا أقدر على المذلة، لأنّ مكثنا بالبادية لغير فائدة يضر بنا، لا سيما وابن محي الدين منهم وهو في إعانة الكافر الآن..."[4].

وفي رسالة أخرى من أحمد باي لحسن باشا والي طرابلس الغرب مؤرّخة في 15 أكتوبر 1837م يتّهم فيها الباي أيضا الأمير بالعمل على خلق روح العداء للباي، وتحريض السكان الخاضعين لسلطاته على ذلك، وممّا جاء فيها: "... وقد كاتبنا المولى الأعظم السيد قبطان باشا أعزه الله ليعلموا لنا تأويلا إن كان غرضهم نصر الدين المحمدي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام، وإعزاز هذا الإقليم بين الأنام... لأننا إن مكثنا بالبادية وطال الأمر

---

[1]: أحمد توفيق المدني: أبطال المقاومة الجزائرية.... "المرجع السابق"، ص: 78.

[2]: صالح فركوس: مواقف الأمير عبد القادر من السلطة التركية... "المرجع السابق"، ص: 200.

[3]: "المرجع نفسه"، ص: 204.

[4] : أحمد توفيق المدني: أبطال المقاومة الجزائرية.... "المرجع السابق"، ص: 55.

عنا يحصل لهم الملل، والوطن دخلته رائحة الكفر، وأهل البوادي ضعفاء القلوب لا سيما وابن محي الدين منهم وهو الآن في إعانة العدو، فلا بد أيها السيد الجليل أن تعرفوا السيد قبطان باشا وتعلموا أمير المؤمنين نصره الله بهذه البلية العظيمة والثملة والواقعة في إيالته، عساه أن ينظر بعين الرضا والقبول ويبلغ الإسلام في العدو المأمول...."[1].

نستخلص وكما سبق أن رأينا في المبحث الأول أنّ المتصوفة تعرّضوا للتعذيب مع أشكال مختلفة من العنف كالضرب والتكبيل وغير ذلك، وإذا كانت معسكر قد عرفت واحتوت عددا كبيرا من أقطاب التصوف وفي مقدّمتهم الشيخ محي الدين وابنه عبد القادر كما رأينا، فإنّ هذا التيار شمل كذلك مدنًا أخرى مثل وهران وتلمسان، وقد تمّ مراقبة جلّ المتصوفة حتى يكونوا قريبين من المراقبة، وكي يتمّ خنق أنفاسهم، وحتى يتمّ تفكيكهم عن قواعدهم الاجتماعية ومريديهم، وهو الأمر الذي مارسه العثمانيون داخل بايلك الغرب[2].

وقد نتجت عن هذا التذمّر من أطراف كثيرة قطيعة سوسيولوجية بين النظام العثماني وبعض التشكيلات الاجتماعية الجزائرية- خصوصًا فئة رجال الدين والعلماء-، حيث تمّ غلق باب الاجتهاد، وانحرفت مؤسسة القضاء الإسلامي عن مهامها بإسناد المناصب إلى محافظين جاهلين لأمور الدين والدنيا[3]. فالعلاقة التي بلغت ذروتها في التردّي بين السلطة التركية الحاكمة وبين المتصوفة قد ساهمت بشكل كبير في التشنج واتساع الهوة مع كافّة الرعيّة، وذلك لِما للمتصوفة من أتباع ومريدين ومتعاطفين معهم داخل المجتمع، حتى صار الجميع يسأل الله أن يزيل عنهم ظلم الأتراك[4].

5- المصادرة:

شكّلت بعض العوامل السياسية مبرّرًا لمصادرة أملاك العلماء والمرابطين من طرف السلطة العثمانية إثر تعاظم القوة المادية والروحية للمرابطين والطرق الصوفية، فأمام تطور

---

[1]: "المرجع نفسه"، ص: 50.

[2]: ولعل إقدام الباي حسن على هذا العمل إنّما كان نتيجة انتساب عبد القادر إلى قبيلة "هاشم" العربية الأصيلة، ومكانة أسرته الشريفة في منطقة غريس بالغرب الجزائري، حيث كان جدّه مصطفى بن محمد موضع إكبار وإجلال، كما كان أبوه الشيخ محي الدين رجل دين ينتسب إلى الطريقة القادرية، ومحلّ تقدير عند الباي محمد الكبير. ينظر: صالح فركوس: مواقف الأمير عبد القادر من السلطة التركية...، "المرجع السابق"، ص-ص: 198- 199.

[3]: عميراوي حميدة: قضايا مختصرة.... "المرجع السابق"، ص، ص: 80، 82.

[4]: محمد شاطو: السلطة العثمانية في الجزائر.... "المرجع السابق"، ص: 169.

تلك الإقطاعيات المرابطية لجأت السلطة إلى المصادرة كنوع من العقاب التأديبي ضد السلطة الروحية للتقويض من نفوذهم، والحدّ من سلطتهم بين السكان[1].

وفيما يظهر أنّ حرية الرأي والديمقراطية وحقوق الإنسان هي كلمات لا توجد في قاموس أصحاب السلطة في ذلك الوقت، ويُعتبر من يُطالِب بها – إنْ وُجِد هذا المُطالب– متعديًّا على حقوق الراعي مع رعيته، ونشير أنّ المصادر تبدوا شحيحة جدًّا فيما يرتبط بالمصادرة، فلا نعثر سوى على إشارات محدودة في هذا الجانب أهمّها ما ورد عند المزاري بقيام الباي الحاج خليل الذي عُرِف باضطهاده للعلماء والمرابطين على غزو ديار الشيخ أبو ترفاس، وأخذ زاويته بنواحي ندرومة وتشريد طلبته[2].

كما أشار المزاري إلى تعرّض زاوية الشيخ أبو ترفاس إلى تخريب كبير خلال فترة حكم الباي "محمد بن عثمان" بحكم أنّ شيخها كان على مصاهرة مع الدرقاوي، وفي هذا الصدد يقول: "...فغزى–أي الباي– صهره الشيخ أبو ترفاس لمّا سمع بالدرقاوي عنده على غفلة من الناس... فزاد الباي للساحل وأخلا منه ما أخلا وقتل ما قتل، وأجلا ما أجلا وخرّب قرية أبي ترفاس واحتطب أجنتها، وسلّط عليها أذاها ومنتها، ولمّا فعل بقرية الشيخ أبي ترفاس أفعال الشرور والإفلاس، قال له أيّها الباي لماذا فعلت بنا هذا ونحن من جملة ضعفاء الناس، فقال له الباي لأنّ صهرك درقاوي يأوي إليك فأنت مثله وأحوالك ببداية"[3].

ويفهم من هذا أنّ المزاري قد قدّم لنا معطيات تسمح لنا باستنتاج أنّ فترة الثورات الدينية اتّسمت بمشاركة المتصوفة ورجال العلم والدين في سياستها وأحداثها، وأصبحوا من عناصر النزاع والصراع السياسي الدائر على السلطة السياسية.

كما أنّ الإجراءات العقابية التي اتّخذتها السلطة ضدّ العلماء والمرابطين وشيوخ الطرق والزوايا على السواء انعكس سلبًا على علاقة العلماء والمرابطين من جهة أخرى مع السلطة، وكان كلّ عمل تأديبي له عواقبه الوخيمة على استمرار العلاقة بين الطرفين، بل أدّت إلى اتّساع الهوة وتعميق الفجوة بين الطرفين في ظلّ تنامي نفوذ المرابطين وشيوخ

[1]: مختار مخفي: العلماء والسلطة.... "المرجع السابق"، ص: 172.

[2]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود.... ج1، "المصدر السابق"، ص: 287.

[3]: "المصدر نفسه"، ص–ص: 332– 333.

الزوايا، ولم تكن السلطة الروحية تملك إلاّ خيار المواجهة والتصدّي[1]، لذا عرفت الجزائر العثمانية العديد من الثورات الاجتماعية خاصة في بايلك الغرب، أين تطورت الطرق الصوفية المحلية التي كان لها الدور الريادي في قيادة هذه الثورات والانتفاضات ضدّ سوء الحكم العثماني.

ثالثا: نتائج القطيعة:

إنّ الحكّام العثمانيون لم يتركوا وسيلة إلاّ واتّبعوها للوصول إلى هدفهم وهو المحافظة على استقرار حكمهم، فبداية من النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي كانت السمة الرئيسية التي طبعت سياستهم هي العنف، ومحاولة السيطرة الفعلية على البلاد بالقضاء على أيّ خطر يهدّد مصالحهم في الحصول على النفوذ والموارد المالية، الأمر الذي ولّد صراعًا حادًّا بين الحاكم والمحكوم ونشر الفوضى وعدم الاستقرار بالبلاد[2].

وكذلك تبنِّي الزعامات الدينية لموقف معادي من سياسة الحكّام الداخلية والتي وصلت إلى حدّ القطيعة مع مطلع القرن 13هـ/19م، بل وصلت إلى درجة الثورة ضدّ النظام العثماني بعد تزعم شيوخ الطرق الصوفية والزوايا لها، والتي مثّلت تهديدا للوجود العثماني بسبب اتّساع رقعتها وتنظيمها، باعتبارها ثورات شعبية مدعومة بقوة روحية ومادية[3]، وقد اختلفت هذه الثورات في غايتها وأساليبها ومن أخطرها الدرقاوية، حيث شملت رقعة واسعة امتدّت شرقا وغربا، استمرّت لعدّة سنوات مهدّدة الوجود العثماني إضافة إلى التيجانية[4].

1- ثورة ابن الشريف الدرقاوي في بايلك الغرب 1805- 1813م:

أطلّ القرن التاسع عشر الميلادي على اندلاع أكبر وأخطر ثورة شعبية ضدّ السلطة العثمانية في إيالة الجزائر منذ مجيئهم إليها، ألا وهي الثورة التي قادتها الطريقة الدرقاوية[5]أو أتباع الشيخ مولاي العربي الدرقاوي[1]، حيث استغلّ دعاة الطريقة الدرقاوية

---

[1]: مختار مخفي: العلماء والسلطة.... "المرجع السابق"، ص: 174.

[2]: لبصير سعاد: دوافع الهجرة .... "المرجع السابق"، ص: 52.

[3]: مختار مخفي: العلماء والسلطة.... "المرجع السابق"، ص: 174.

[4]: محمد شاطو: السلطة العثمانية في الجزائر... "المرجع السابق"، ص: 166.

[5]: الدرقاوية: طريقة صوفية مغربية متفرّعة عن الشاذلية، وأوّل من دعا إليها هو الشريف إدريس في الشمال الغربي من مدينة فاس، والذي كان يُدعى علي بن عبد الرحمن الجمل، وقد انتشرت الطريقة في كلّ من فاس وسوس الأقصى، وساحل

وضع الجزائريين المتردّي فازدادت شعبيتهم عندهم، وفي الغرب الجزائري أعلنت الثورة بقيادة عبد القادر بن الشريف الدرقاوي الذي أصبح يشتكي إليه الجزائريون ظلم واستبداد النظام العثماني، فمن هو ابن الشريف؟ وما هي ظروف وأسباب ثورته؟ وما مراحلها؟ وما هي آثارها على البلاد والعباد؟

1-1. التعريف بابن الشريف الدرقاوي:

هو الشيخ عبد القادر ابن الشريف الدرقاوي الفليتي من أولاد بليل المرابطين بقبيلة كسانة البربرية، يعود أصله إلى قبيلة كسانة البربرية[2]، تعلّم بمسقط رأسه ثم التحق بزاوية القيطنة لأخذ العلم على يد مشائخها كالشيخ محي الدين، واتّجه إلى المغرب الأقصى وأخذ من علماء فاس، ثم التقى بالشيخ مولاي العربي الدرقاوي فاتّبع طريقته، وعيّنه هذا الأخير مقدّمًا للدرقاوية بالجزائر[3].

دكالة والمناطق الغربية من الجزائر كوهران ومستغانم وتلمسان، تميّز أتباعها عن غيرهم بلبس الرث من الثياب وحمل العصا والابتعاد عن الشؤون الدنيوية، للمزيد عن هذا الموضوع يرجى العودة إلى:

Louis Rinn : Marabouts et Khouans, Alger, Adolphe Jourdan, 1884, p-p : 234-235.

وأيضا:

=Octave Depont, Xavier Coppolani : Les confréries religieuses musulmanes, Alger, Adolphe Jourdan, 1897, p-p : 503-506.

[1]: مولاي العربي الدرقاوي: مؤسس الطريقة الدرقاوية ومنظمها، ولد بتطوان سنة 1150هـ/ 1737م، عمل مدرِّسًا بفاس وكان ملازمًا لدروس الصوفي الكبير الشيخ علي بن عبد الرحمن الجمل، وبالرغم من أنّه قد أُعتبر مؤسِّس الطريقة ومنظمها بعد وضعه لأسسها على قواعد صحيحة ونشره لتعاليمها، إلاّ أنّها تُنسب لأحد أسلافه وهو أبو عبد الله محمد بن يوسف المكنى "بأبي درقة"، و"الدرقة" لقب كان يطلق على العربي الدرقاوي وهي الدرع التي يحتمى بها زمن الحروب، لقد أسس العربي الدرقاوي زاويته ببوبريح من بني زروال بضواحي مراكش اجتمع فيها أتباعه ومريدوه الذين كثر عددهم حول طريقته الدرقاوية، حيث أوصاهم بتجنّب ذوي السلطة والحكم والتشدّد في التقشف وغيرها من التعاليم الخاصة بالطريقة، هذا وقد توفي العربي الدرقاوي سنة 1239هـ/ 1823م ودُفِن بزاويته في جبل بوبريح بعد أن تخرج على يده عشرات الأتباع والمريدين. لتفاصيل أكثر ينظر: فيلالي مختار الطاهر: نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني، الجزائر، دار الفن الغرافيكي للطباعة والنشر، د. ت، ص-ص: 53- 55.

[2]: Adrien Delpech: "Resume historique sur le soulèvement des derk' aoua de la province d'Oran", R. A, N : 18, 1874, p : 40.

[3]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب.... "المصدر السابق"، ص: 49.

هذا وقد قال فيه صاحب أنيس الغريب والمسافر من كونه: "كان رجلا عالمًا متفنّنًا في جميع العلوم ورعًا زاهدًا، والناس يشيرون إليه بالصلاح لا غير، إلى أن زغت به نفسه وباع آخرته بدنياه، ثم أصبح بلاهما جميعا"[1].

وعند رجوعه إلى الجزائر أسس زاويته في أولاد بليل لاستقبال الأتباع وتلقين الأذكار والأوراد وتعليم مبادئ الدرقاوية[2]، فكثر أتباعه خاصة من القبائل الصحراوية وزاد احترامهم وتقديرهم له، وتوالت عليه الهدايا والهبات والزيارات، وكلّما كانوا يلتقون به يشتكون له من ظلم الأتراك وجورهم فكان يعدهم بالفرج القريب حاثّهم على الصبر، ومؤكّدًا أنّ ذلك الوضع لن يدوم[3]. وهذا ما كان يقصّه على شيخه مولاي العربي الدرقاوي إذ قال له: "يا سيدي إنّ بوطننا قومًا يقال لهم الترك لا شيء لهم من دعائم الإسلام، ويظلمون الناس ولا يعبئون بالعلماء والأولياء، نسأل منك أن يكون هلاكهم على يدي لتستريح منهم العباد وتطهر منهم البلاد" فقال له: "عليك بجهادهم وقتالهم، وأنّ الله ينصرك عليهم بكمالهم"[4].

وفي رواية أخرى للمزاري ومسلم بن عبد القادر كان يقول له شيخه: "أنصرهم والله ينصرك عليهم"[5]، وقد تشجّع عبد القادر بن الشريف الدرقاوي بهذا الإذن واستعدّ للثورة ضدّ الأتراك في بلاد الأحرار أين تجمعت حوله قبائل الصحراء وساندته[6]، خاصة وأنّه أغراهم بما كان يظهره لهم من شعوذة ويعدهم به من نصر قريب، فأخذوا عنه الورد وبايعوه فاتّجه بهم نحو البطحاء رافعًا راية الحرب ضدّ الأتراك محلّلاً دمائهم وأموالهم[7]، وفي هذا السياق يذكر المزاري: "السيد عبد القادر بن الشريف القائم بالغوغاء والعامة على أهل الملك والتصريف...وابتدع أمورا ينكرها الشرع، واقتدى به في ذلك الجلّ من الناس وأخذ عنه كلّ من هو في عقله في غاية الإخساس خصوصا أهل الصحراء، فأذعنوا له إلى أن قهرهم

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص-ص: 71-72.

[2]: بونقاب مختار: انتفاضة درقاوة... "المرجع السابق"، ص: 135.

[3]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب.... "المصدر السابق"، ص: 72.

[4]: محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران.... "المصدر السابق"، ص: 208.

[5]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود....ج1، "المصدر السابق"، ص: 303. – مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب ... "المصدر السابق"، ص: 72.

[6]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب... "المصدر السابق"، ص: 72.

[7]: يحكى عن الشيخ ابن الشريف الدرقاوي أنّه كان يلبس الخرقة المرقّعة، ويُعلّق الببوش والقرون معه تقليدًا للشيخ مولاي العربي الدرقاوي. ينظر: محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران..."المصدر السابق"، ص: 208.

قهرا، وصارت عامة درقاوة تجتمع إليه فيخرج بهم إلى الصحراء فيجتمعون عليه حتى أخذت عنه جميعها الورد وهو في سرور، وصارت كلّ شيعة تهدي إليه الهدايا ويأتون إليه من كلّ فج بالعطايا، ويشتكون إليه ضرر المخزن وماهم فيه من أداء المغارم، ولم يعلموا أنّهم سيرجعوا إلى انتهاك المحارم"[1].

1-2. مراحل ثورة ابن الشريف الدرقاوي:

تُعدّ الثورة الدرقاوية من أكبر وأخطر الثورات التي شهدها العثمانيون منذ بداية تواجدهم بالجزائر[2]، وهذا بعد انتشار الطريقة الدرقاوية بالإيالة خاصة بالناحية الغربية منها أين لعب المقدّمون والأتباع دورا كبيرا في تأسيس زوايا تابعة للزاوية الأم، مزوّدين بتعاليم وقواعد السلوك من مؤسِّس الطريقة مولاي العربي الدرقاوي، وممّا يلفت الانتباه هو سرعة انتشار الطريقة الدرقاوية في الجزائر، والذي يعود إلى اعتمادها على الريف كمجال لنشر تعاليمها وأفكارها مستغلّة بعده عن الحكم المركزي من جهة، والمستوى العقلي لسكان الريف من جهة أخرى[3].

كان هذا الإطار العام الذي وُجِدت فيه الطريقة الدرقاوية بالجزائر وقيام ابن الشريف الدرقاوي بتبنِّي هذه الطريقة ونشر تعاليمها في الغرب الجزائري، وازدياد نفوذه وشعبيته والتفاف السكان حوله، حيث رأوا فيه منقذهم من الوضع الاقتصادي المتأزِّم ما أدّى إلى تجنيد السكان في الثورة ضدّ العثمانيين.

1-2-1. مرحلة المقاومة والانتصار:

لقد استغرقت مرحلة الإعداد والتحضير للثورة وجمع أكبر عدد من الأنصار مدّة خمس سنوات 1800- 1805م، ولمّا أتمّ استعداده وجمع العدّة والعتاد أعلن ابن الشريف الثورة على العثمانيين، مستغلاً هزيمة إحدى الحاميات التركية أمام قبائل الأنجاد المتمردة ضد السلطة العثمانية أيضا. وتوجّه برجاله نحو البطحاء قرب وادي مينا حيث كان معسكره،

---

[1]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود...ج1، "المصدر السابق"، ص-ص: 302-303.

[2]: زينب جعني: ثورة ابن الأحرش.... "المرجع السابق"، ص: 130.

[3]: محمد مكحلي: ثورات رجال الزوايا والطرقية في الجزائر خلال العهد العثماني 1807- 1827، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، 2003- 2004، ص: 172.

وهنا وقعت اصطدامات بينه وبين رجال الباي مصطفى العجمي وسمّيت هذه الواقعة بمعركة فرطاسة[1].

وكانت هذه الواقعة بداية لتمرّدات درقاوة في الغرب الجزائري، بحيث لمّا وصل ابن الشريف إلى واد مينا أَذِن لأتباعه نهب أموال وممتلكات محلّة الباي والقبائل المؤيدة لها، ولمّا بلغ الخبر للباي جمع عسكره وعاد طالبًا إياه فالتقيا بفرطاسة –واد الأبطال حاليا– عام 1805م، حيث اشتدّ القتال بينهما وهُزِم الباي وفُرِّق جيشه الذي طارده الدرقاوي حتى أسوار مدينة معسكر[2]، وقد سجّل هذه المعركة الشاعر الشعبي الشيخ بوعلام بن الطيب السجراري فقال:

كِي قِصَةْ الأَجْوَادْ مَعَ أَتْرَاكْ النُوبَـــةْ ... يَوْمَ أَنْ فَزَعَهُمْ ابْنْ الشَرِيفْ أُوجَـــاوْا
انْعَقْدُوا غَاشِي الأَحْرَارْ عَقْدَ إِمْحَبَـــةْ ... فِي فَرْطَاسَةْ شَاوْ إِنْهَارْ وَإِتْلاَقَـــــــاوْ
بِالْسَيْفِ أُوْ نَارِ المَشْطِ أُودَقْ الحَرْبَةْ ... مَلْهِيهْ أُوْ مِنَا عِيطَا أَعْقِيدْ أَفْنَـــــاوْا
ذَاكَ أَمْقَعْشَمْ ذَاكَ يْهُومْ بِالْحَرْ بَابَـــــهْ ... وَإِفْرَايَسْ الأَتْرَاكْ إِعْلَى الطَرِيقِ إِبْقَاوْا
انْغَلَبُوا الأَتْرَاكْ أُوْ سَلَمُوا فِي الضَرْبَهْ ... أَهْلْ العَدَةْ البَيْضَا كَامَلْ إِتْعَـــــــرَاوْا
خَطْ الخُوجَةْ خَطْ إِحْدِيثْ كَانْ أُوْ صَارْ ... البَاشَا مَبْهُوتْ صَادْفَتَهْ خَلْعَـــــــةْ[3]

وممّا يلفت الانتباه هو البيت الأخير من هذه القصيدة فبعد انتصار ابن الشريف الباهر في هذه الواقعة اعترف علماء البلاط في إيالة الجزائر العثمانية بذلك، واعترفوا بالكارثة وضخامة خسائر الجيش التركي في الأموال والأنفس، فها هو العالم "حسن خوجة"[4] يعترف بذلك قائلاً في قصيدته النونية التي أنشدها:

فَرْطَاسَةُ يَومَهَا تَرَى الجُنُودَ بِـــهِ ... مَا بَيْنَ قَتْلَى وَأَسْرَى غَيْرَ نَاجِينَا

---

[1]: Adrien Delpech; Op. cit, p: 42.

[2]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب....، "المصدر السابق"، ص: 73.

[3]: ابن سحنون الراشدي: الثغر الجماني... "المصدر السابق"، ص–ص: 40– 41. (من مقدمة المحقق).

[4]: حسن خوجة: من أسرة علمية عريقة عُرِفت باسم أسرة بن خوجة المستغانمية اشتهرت بالعلم والتقوى، وهو محمد بن حسن عالم وفقيه وأديب، كان كاتبًا في ديوان الإنشاء للباي محمد بن عثمان الكبير، وألّف كتابًا أسماه: "در الأعيان في أخبار مدينة وهران"، هذا وقد عاصر حسن خوجة حروب درقاوة التي نظّم بمناسبتها العديد من القصائد، ليتولّى بعدها أيضا وظيفة الكتابة لقائد فليتة حسن بن موسى الباهي الذي وُلِّي فيما بعد بايًا على وهران. للمزيد ينظر: الآغا بن عودة =المزاري: طلوع سعد السعود.... ج1، "المصدر السابق"، ص–ص: 97– 98. – أبو راس الناصر: فتح الإله ... "المصدر السابق"، ص: 100.

فَالْبَايْ جَاءَ بِجَيْشٍ لاَ نَفَـادَ لَـــهُ بِهِ يُرِيدُ لِقَاءَ العَدُوِ بَاغِينَـــــا
فَلَمْ يُحَقَقْ لَهُ سَعْـــيٌ وَلاَ أَمَـــلٌ بَلْ جَاءَ جُنْدُهُ صِفْرَ الكَفِ بَاكِينَا
فَالْيَوْمَ لابْنْ الشَرِيفِ عِزٌّ فِيهِ عَلَى بَايِ الأَعَاجِمِ لَوْلاَ الدِينُ لاَ دِينَا[1]

كما يذكرها مسلم بن عبد القادر الوهراني في قصيدة شعرية يشيد فيها بالباي مصطفى، وما جهّزه من قوّة لمواجهة الدرقاوي الذي يذكره باحتقار:

فَيَوْمَ فَرْطَاسَةُ يَوْمٌ كَبِيـــــرٌ ذُلَّ فِيهِ العَزِيزُ وَعُزَّ الحَقِيرُ
لَقَدْ هَيَّأَ مُصْطَفَى جَيْشًا كَثِيرْ تُرْكًا وَمَخْزَنَ المَلِكِ الكَبِيـــرِ
فَلَمْ تَكُنْ سَاعَةٌ وَانْهَزَمُـــوا مِنْ جَيْشٍ قَلِيلٍ هَيَّأَهُ الفَقِيـــــرُ[2]

وفي نفس السياق وصف مسلم بن عبد القادر هذه المعركة وما نتج عنها بقوله: "فأمسى الباي ومخزنه في نكد، وأصبح الدرقاوي وأتباعه في رغد"[3]، وقد مات في هذه المعركة خلق كبير منهم كاتِبَا الباي الحاج أحمد بن هطال التلمساني وأبو عبد الله محمد الغزلاوي[4]. وفرّ الباي إلى معسكر على إثر الهزيمة على فرس من دون سرج[5]، ثم غادرها منها مساء نفس اليوم ليدخل وهران وهو خائف وجل بما حلّ به وجيشه على يد أتباع ابن الشريف الدرقاوي[6].

ولمّا استفحلت ثورة الثائر ابن الشريف الدرقاوي وعظم أمره وشأنه، وَجَّهَ أنظاره إلى مدينة وهران حيث عمل على إثارة السكان واستطاع جلب عدد كبير من الأنصار لمهاجمة الأتراك العثمانيين بها، مُناديًا كلّ قبائل الغرب إلى دعمه ومبايعته قائلا: "أننا نزعنا عنكم ما كنتم فيه من الحقر والذلة والمسكنة وأداء المغارم والجزية الثقيلة، والمؤن الكثيرة الجليلة

---

[1]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود... ج1، "المصدر السابق"، ص: 304.

[2]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب.... "المصدر السابق"، ص: 76.

[3]: "المصدر نفسه"، ص: 73.

[4]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود.... ج1، "المصدر السابق"، ص: 304. ولتفاصيل أكثر ينظر: مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب.... "المصدر السابق"، ص: 75.

[5]: بونقاب مختار: انتفاضة درقاوة.... "المرجع السابق"، ص: 138.

[6]: وللإشارة فلقد كان هروب الباي مصطفى العجمي إلى معسكر يوم الأحد 08 ربيع الأول من سنة 1220هـ/ 1805م، وفي نفس اليوم اتّجه نحو مدينة وهران. لتفاصيل أكثر ينظر: مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب... "المصدر السابق"، ص، ص: 50، 73.

الذي جمع ذلك هو حرام على من انتظم بالدخول في سلك الإسلام، وقد قطعنا دابر الترك الظلام وأتباعهم الشرار اللئام، فالواجب عليكم مبايعتنا والإذعان لنا وطاعتنا"[1].

وممّا زاد من شعبية ابن الشريف لجوئه إلى إقناع الناس بصحّة وشرعية دعوته وثورته باعتماده مختلف الوسائل، حيث ادّعى أنّه المنقذ لهم وبواسطته سيمكِّنهم الله من العثمانيين[2]، فقد جاء في دليل الحيران أنّه خاطب الرعيّة قائلا لهم: "قد نزعنا عنكم ظلم الترك والذل، والمسكنة والمغارم والمكوس فالواجب عليكم مبايعتنا"[3]. في حين يذكر مسلم بن عبد القادر الوهراني أنّه كاتب القبائل لتُعلن الجهاد ضدّ العثمانيين قائلا لهم: " إنّا نرغب عنكم ما كنتم فيه من أداء الجزية التي هي حرام على المسلم، وقطعنا دابر الترك وأتباعهم، فالواجب مبايعتنا والجهاد معنا فيمن أبي عن طاعتنا"[4].

ولقد كان لهذا النداء صدى كبير لدى القبائل، حيث تمكّن بفضله من الحصول على دعم وتأييد العديد منها، فانضمّت إليه قبائل المخزن نفسها مثل قبيلة الحشم، الزمالة، والدوايرة وغيرها[5]، وبهذا يكون ابن الشريف الدرقاوي قد اكتسب مساندة ومؤازرة بل وحتى احترام الكثير من سكّان المناطق الريفية، وأصبحت كلمته مطاعة فطالب أتباعه بمهاجمة الحاميات التركية، والزّحف إلى وهران قصد فتحها وأملاً في دخولها.

وحسب إشارة الأستاذ مختار بونقاب أنّه من الأسباب التي دفعت بتلك القبائل لمساندة ابن الشريف هو محاولتها التخلّص من الضرائب الثقيلة التي كان قد فرضوها الأتراك عليها من قبل، إلى جانب تأكّد القبائل من انكسار شوكة الأتراك العثمانيين وضعف قوتهم بعد انهزامهم في معركة فرطاسة[6]. في حين يرى المزاري أنّ سبب ذلك يعود إلى خوف البعض من تلك القبائل من إتلاف الدرقاوي لمحاصيلهم الزراعية، خاصة وأنّه كان فصل الصيف ووقت الحصاد فانضمّوا إليه وساندوا ثورته، وفي هذا الصدد يقول: "وكان قدومه-

---

[1]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود....ج1، "المصدر السابق"، ص: 306.

[2]: وللإشارة فلقد ذكر المزاري قصة مفادها أنّ ابن الشريف قَدْ مَرّ بغريس فسمع امرأة تُنادي على أخرى "تركية" وكان ذلك اسمها فغضب من ذلك، وأبدل اسمها فورا بـــ: "عربية"، وقال: ما عدوّنا إلاّ الترك بأتباعهم وحشومهم وأشياعهم، وهذا دليل على مدى الحقد والكراهية التي كان يكنّها ابن الشريف للعثمانيين. ينظر: "المصدر نفسه"، ص: 306.

[3]: محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران....، "المصدر السابق"، ص: 209.

[4]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب.... "المصدر السابق"، ص: 74.

[5]: Adrien Delpech: Op. cit, p: 44.

[6]: بونقاب مختار: انتفاضة درقاوة...، "المرجع السابق"، ص: 138.

أي ابن الشريف– لوهران في الصيف في إبان الحصاد، فسارت إليه وأطاعته جميع العباد لا عربي ولا مخزني ولا شريف القدر ولا دني خشية منه على زرعهم ومالهم وضرعهم، لكون الجنود مضنة الفساد والضلال والنكاد، لا سيما عادة الجنود السلطانية المتوجة بالتيجان الشيطانية"[1].

وبعد أن عزّز ابن الشريف الدرقاوي موقعه العسكري اتّخذ من مدينة معسكر مقرًّا له ولأسرته، وقد ألقى بها القبض على مبعوث الباي الفارس القائد أبو محمد بالحضري بن إسماعيل البحثاوي وسجنه[2]. ووجّه حينها أنظاره إلى وهران فزحف إليها بجيوشه، فكان في طريقه إليها لا يمرّ بأيّة أرض إلاّ ويتلف الزرع ويدمِّر العمران معاقبة لمن رفض الانضمام إليه، وأثناء وصوله "لسيق" بأرض الغرابة فرَّ منه أهلها بعضهم للجبال وبعضهم للغابات والشعاب، ومنهم من دخل لغابة "الجيرة" التي كانت هي الأخرى طريق ابن الشريف، حيث أوقع بمن هرب إليها بين القتل والأسر والسبي[3].

وأثناء حصار ابن الشريف الدرقاوي لوهران اضطرّ هذا الأخير إلى الانسحاب بعد أن أوشك على الاستيلاء عليها، نتيجة تحالف أهل المدينة لقتال جيش الدرقاوي والدفاع عن أنفسهم، والتصدّي لأيّ محاولة من جيشه في اختراق أبواب مدينتهم رغم قلّة عددهم ونقص عدّتهم، حيث انقطعت كلّ الطرق والاتصالات بين وهران والجزائر، ماعدا الطريق البحري الذي كان المنفذ الوحيد لوصول المساعدات والإمدادات العسكرية للمدينة التي حاصرها ابن الشريف الدرقاوي[4].

1-2-2. مرحلة التراجع والانهزام:

بدأت هذه المرحلة بوصول الباي الجديد محمد بن عثمان المقلش والذي عُيِّن مكان الباي المعزول مصطفى العجمي، فحين وصول الباي المقلش إلى وهران وَجَد ابن الشريف

---

[1]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود...ج1، "المصدر السابق"، ص: 307.

[2]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب..."المصدر السابق"، ص: 74. – الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود....ج1، "المصدر السابق"، ص:306.

[3]: وللإشارة فقد ذكر المزاري أنّ ارتكاب ابن الشريف لتلك المجازر في غابة الجيرة قد أثّر على سكّان المنطقة، لدرجة أنْ سُمِّيَ الموقع ب: "شعبة النواح"، وأُطلِق عليه هذا الاسم لكثرة بكاء الناس، ونواحهم على ما وقع لأهليهم وأنفسهم بها. ينظر: "المصدر نفسه"، ص: 307.

[4]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب.... "المصدر السابق"، ص: 75.

الدرقاوي محاصرًا لها من كلّ جهة ومكان، وحتى أبوابها الخمسة وجدها مغلقة، فأمر بفتحها حتى أصبح الناس أحرارا في دخول المدينة أو الخروج منها[1]. وليبدأ بعدها الباي في مساعيه السياسية والدبلوماسية لإيقاف الثورة أو للتخفيف من آثارها، حيث طلب من المولى سليمان سلطان المغرب التدخّل، والذي بعث بشيخ الطائفة الدرقاوية مولاي العربي الدرقاوي إلى تلميذه ابن الشريف الدرقاوي، لكن هذا الأخير شكا لشيخه ضرر الأتراك وجورهم بالرعية فتوقف الشيخ وصدر عنه ما يشجّع على مواصلة الثورة ضد الأتراك[2]، وهو الأمر الذي أشار إليه المزاري بقوله: "... إلى أن جاءه –الهاء تعود على ابن الشريف– شيخه من المغرب وحضر المقاتلة وشدة الحروب مع جيش تلميذه... وأزعجه قتال المخزن وما فيه من الأعيان، بعد أن أمرهم بحمل الشواقير والفيسان، وأنهم في يومهم يدخلون وهران ويصيرونها بالهدم والتخريب مغارات للفيران"[3].

ويسايره في ذلك صاحب أنيس الغريب والمسافر الذي أشار إلى وصول الشيخ مولاي العربي الدرقاوي إلى ابن الشريف "فشكا إليه عبد القادر بن الشريف ما نزل بالفقراء المنتسبين إليه، وبسائر الرعية من عسف الترك وجورهم، وانتهائهم في ذلك إلى القتل والطرد عن الوطن، فتوقف الشيخ وربّما صدر منه بعض تقبيح لفعل الترك وما هم عليه، فازدادت العرب بذلك تظاهرًا على الترك وتكالبًا عليهم"[4].

ويفهم من هذا القول أنّ وصول شيخ الطريقة الدرقاوية مولاي العربي الدرقاوي إلى تلميذه ابن الشريف والتقاءه به لم يزد الثورة إلاّ لهيبًا، ففي موضع آخر يذكر مسلم بن عبد القادر الوهراني أنّ ابن الشريف كانت الناس تقدِّم له الهدايا والعطايا ويشتكون إليه من أضرار المخزن وكثرة المغارم، فكان يَعِدهم بالفرج إلى أن قام بثورته، وعند التقاءه بشيخه

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص–ص: 76–77. – الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود....ج1، "المصدر السابق"، ص–ص: 308–309.

[2]: بونقاب مختار: انتفاضة درقاوة... "المرجع السابق"، ص: 139. ولتفاصيل أكثر ينظر: ابن سحنون الراشدي: الثغر الجماني.... "المصدر السابق"، ص–ص: 44–45 (من مقدمة المحقق).

[3]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود.... ج1، "المصدر السابق"، ص: 309.

[4]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب... "المصدر السابق"، ص: 51.

مولاي العربي الدرقاوي شكا إليه ظلم الأتراك وتعسّفهم في أداء المغارم، فردَّ عليه هذا الأخير بقوله: "أنصرهم والله ينصرك، فحصل له بذلك الطمع الكثير"[1].

كما نتلمّس ذلك أيضا عند مسلم بن عبد القادر في قوله: "إلى أن قدم إليه شيخه من المغرب وحضر الحرب مع الجيش، ورأى بعينه ما يَسُرّ فذهب إلى حال سبيله، وتركهم على ما هم عليه"[2].

ومن هنا نرى فشل كلّ المساعي السياسية والدبلوماسية للباي المقلش، حيث جنَّد بعدها هذا الباي قوّته العسكرية للقضاء على جيش الدرقاويين الذين فشلوا في دخول وهران وتراجعوا عنها نحو معسكر، وحين وصولهم إلى سيق قرب سيدي داوود هاجمتهم قبيلة الغرابة للثأر بما فعله بهم من قتل الرجال والنساء والصبيان، فتعرّضوا له بالضرب والنهب والقتل والسبي[3]. ومُنِي في نفس الوقت ذاته بهزيمة أخرى شنيعة على يد قبائل البرجية وأهالي بني شقران بسيدي مبارك قرب وادي هبرة، أين تكبَّد الثائر ابن الشريف خسائر فادحة في الأرواح وتشتُّت قوّاته، فَفرَّ مع قِلّة من جيشه نحو معسكر التي لم يستقبله أهلها[4].

وممّا تجدر الإشارة إليه هو أنّه عند سماع سكّان معسكر بخبر هزيمة ابن الشريف الدرقاوي وما حلّ به على يد قبائل البرجية، قاموا بإطلاق سراح أبو محمد بالحضري بن إسماعيل البحثاوي، الذي كان قد سجنه الدرقاوي، وألقوا القبض على أهل الدرقاوي وأولاده وأتباعه[5].

إنّ عدم اغتنام ابن الشريف الدرقاوي فرصة محاصرة مدينة وهران، وتشتّت قوّاته بسيدي داوود وسيدي مبارك للقضاء على سلطة البايلك سمح لحكومة الدايات بإعادة تنظيم نفسها، وإرسال الإمدادات إلى وهران، وعَزْل ابن الشريف عن أغلب القبائل التي ساندته أول

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص: 72.

[2]: "المصدر نفسه"، ص: 77.

[3]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود... ج1، "المصدر السابق"، ص-ص: 310- 311.

[4]: "المصدر نفسه"، ص-ص: 310- 311. – مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب... "المصدر السابق"، ص: 78.

[5]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود...ج1، "المصدر السابق"، ص: 311. وللإشارة فإنّ الباي المقلش طلب من سكّان معسكر بتسليمه نساء الدرقاوي وأهله ففعلوا ذلك، ثم قام الباي بإرسالهم إلى الجزائر عن طريق البحر. لتفاصيل أكثر ينظر: "المصدر نفسه"، ص: 312.

الأمر، حيث اغتنم الباي المقلش الفرصة لتقوية موقعه في البايلك بإرسال رسائل العفو إلى رؤساء قبائل المخزن، فانضمّت إليه الغرابة والدوابر والزمالة، في حين تحالفت قبائل مجاهر وبني عامر مع الدرقاوي[1].

بعد ذلك خرج ابن الشريف الدرقاوي وظهر من جديد، فهاجم محلّة الباي في موقعة وادي المالح إلاّ أنّ جيشه فشل بسبب قوّة جيش الباي المقلش، وبعد ذلك عاود الدرقاويون ومعهم ابن الشريف الهجوم على العثمانيين بقرية سيدي محمد بن عودة لكنّهم انهزموا، ولم يَنجُ من درقاوة سوى من فرَّ إلى قبّة هذا الوليّ، لكون الباي أوصى جنوده باحترامه وعدم التعرّض لمن لجأ إليه بحال من الأحوال[2]، كما تمّ قتل الكثير من جيش الدرقاوي حيث جُمِعت رؤوس القتلى منهم، فكانت أكوامًا على حسب تعبير مسلم بن عبد القادر الوهراني[3] وبُعِث بها إلى مدينة معسكر[4].

وبعد هذه الانتصارات مكث الباي المقلش لمدّة أيام في مدينة معسكر ليأتيه الخبر بظهور الدرقاوي من جديد بمنطقة بني مريانن، فأسرع الباي اتّجاهه وهزمه وكبَّد جيشه خسائر كبيرة[5]. وبعد ذلك واصل حملته مُتتبِّعًا قبيلة بني عامر التي تحالفت مع الدرقاوي إلى جانب أولاد الزائر فطاردهم وهزمهم بتسالة[6]، ولم يَنجُ من درقاوة سوى القليل منهم، حيث تمّ القضاء على عدد كبير منهم، وتمَّ أسر بعضهم وتشتُّت البعض الآخر على ولهاصة وجبل تزارة، وفَرَّ ابن الشريف مع قلّة من جيشه إلى اليعقوبية[7]، ولمّا انتهت المعركة

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص: 312. – مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب....، "المصدر السابق"، ص: 53.

[2]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود.... ج1، "المصدر السابق"، ص: 315.

[3]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب..."المصدر السابق"، ص: 53.

[4]: لقد أشار المزاري أنّ حسن خوجة ذكر في "درّ الأعيان" بأنّه رأى الجندي يأتي بثلاثة رؤوس أو أربعة ويضعها بين يدي الباي، ممّا يدلّ على صرامة سلطة البايلك في التّعامل مع المتمرّدين والثائرين. لتفاصيل أكثر يرجى العودة إلى: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود....ج1، "المصدر السابق"، ص: 315.– مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب.... "المصدر السابق"، ص: 53.

[5]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود...ج1، "المصدر السابق"، ص: 316.

[6]: "المصدر نفسه"، ص–ص: 317– 318. –مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب.... "المصدر السابق"، ص: 53.

[7]: محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران... "المصدر السابق"، ص: 220.

جُمِعت الرؤوس المقطوعة في ذلك اليوم من درقاوة وبني عامر، فكانت ستمائة رأس بَعثَها الباي كلّها للجزائر[1].

بعد هذه الانتصارات سار الباي المقلش إلى تلمسان أين عقد الصلح بين سكّانها الحضر والكراغلة وأقام بها أيّامًا، ثم عاد إلى وهران ومعه صهره قائد تلمسان أبو الحسن علي قارة بغلي فأقام بها شهرا، ثم جهّز جيشه وهاجم قبيلة مجاهر لخيانتهم له، فأوقع بهم وبالدرقاوي هزيمة شنيعة[2].

وتعدّدت المعارك بين الدرقاويين والعثمانيين في مواقع أخرى مختلفة، فقد انتصر الباي المقلش كذلك على الدرقاويين بعين السدرة بسبب مهاجمة الدرقاوي لسهول غريس وإفساده لزرعها، وتزامن ذلك مع وصول زعيم الثورة ببايلك قسنطينة وهو ابن الأحرش[3] الذي تحالف مع ابن الشريف لمواجهة الباي، لكنّه هزمهم وقتل منهم الكثير بمساعدة قبائل الحشم والبرجية التي كان لها دور كبير في هذا الانتصار على الدرقاويين[4].

كما انتصر الباي المقلش على الدرقاويين في معارك أخرى كثيرة منها "معركة التوتة" بوادي العبد، "وجديوية" التي انهزم فيها الدرقاوي مع جيشه حيث بلغ عدد القتلى منهم حوالي ألف درقاوي[5]. ضف إلى ذلك معركة "تافنة" التي تكبّد فيها الدرقاوي خسائر كبيرة، لدرجة أنّها سمّيت ب: "يوم ابن الأحرش" نتيجة موت جماعة كبيرة من طلبته بها[6].

---

[1]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود.... ج1، "المصدر السابق"، ص: 319. –مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب... "المصدر السابق"، ص: 91.

[2]: محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران.... "المصدر السابق"، ص–ص: 220–221. ينظر أيضا: الآغا بن عودة المزاري، "المصدر السابق"، ص–ص: 320–322. ومسلم بن عبد القادر الوهراني، "المصدر السابق"، ص: 92.

[3]: ابن الأحرش: هو الشيخ الحاج محمد بن عبد الله بن الأحرش الملقب بالبودالي مغربي الأصل، مالكي المذهب، درقاوي الطريقة، نال شهرة كبيرة بعد مشاركته مع المصريين في مواجهة الحملة الفرنسية التي قادها نابليون بونابرت على مصر سنة 1798م، حيث كان ذلك وهو في طريق عودته من الحج، ليتوجّه بعدها إلى قسنطينة التي مكث بها، ثم إلى جيجل أين استطاع الاستيلاء على سفينة صيد المرجان التابعة للشركات الفرنسية بالقالة في جوان 1803م، =وبهذه الطريقة استطاع التقرّب من مريدي ومرابطي الطريقة الدرقاوية، فعمل على نشر تعاليمها، ثم قاد الثورة الدرقاوية في الشرق الجزائري ضدّ السلطة العثمانية. ينظر: زينب جعني: ثورة ابن الأحرش.... "المرجع السابق"، ص: 129.

[4]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب.... "المصدر السابق"، ص–ص: 94–95. – الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود....ج1، "المصدر السابق"، ص– ص: 322–323.

[5]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود ...ج1، "المصدر السابق"، ص: 324.

[6]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب ...، "المصدر السابق"، ص 96.

هذا وقد كان الدرقاوي كلّما انهزم في معركة إلاّ وظهر من جديد في منطقة أخرى بجيوشه مهدِّدًا سلطة العثمانيين، لكن الباي المقلش كلّما سمع بالدرقاوي في منطقة إلاّ واتّجه إليه وهزمه وفرَّق جيشه، وبالرغم من هذه الانتصارات التي حقّقها إلاّ أنّه قُتِل بأمر من باشا الجزائر، وتمَّ تعيين مكانه الباي مصطفى العجمي للمرة الثانية سنة 1222هـ/1807م[1].

وبعدما تولّى الباي مصطفى العجمي الحكم ثار عليه درقاوة في بلاد "قليتة" فهزمهم شرّ هزيمة، ولم يَنجُ من درقاوة سوى القليل منهم، ثم عاد الباي بعدها إلى وهران أين مكث بها أيّامًا ليأتيه الخبر بظهور الدرقاوي وجيشه من جديد في "مرغوسة"، فأسرع الباي اتّجاهه وهزمه، وتمكَّن من قتل العديد من أتباعه وغنم الكثير من أمواله[2]. ثم اتّجه بجيشه نحو قبائل "المجاهر" المتواجدة على ضفاف نهر الشلف لتحالفهم مع الدرقاوي[3]، وهناك أتاه الخبر بأنّ الباشا ولاّه خزناجيا بالجزائر، وتمّ تعيين مكانه الباي محمد بن عثمان[4].

اهتمّ هذا الأخير بالقضاء على درقاوة وأتباعهم بطريقة جديدة تقوم على جمع المعلومات عن أتباع الطريقة الدرقاوية ثمّ مباغتتهم فرادى[5]، كما استخدم أساليب جديدة في تعذيب من يظفر به منهم كاقتلاع الأعين وقطع الرؤوس والشنق، بل وحتى أولئك المشكوك فيهم ولو عن طريق الوشاة، حتى أنّه سار من يحسد أحدا وشى به عنده وادّعى عليه مَحبَّة الدرقاوي فإنّه ينتقم منه فورا[6]. ثم اتّجه بعدها هذا الباي نحو قبيلة "اليعقوبية" التي تحالفت مع الدرقاوي فهزمهم، وتمكّن من قتل العديد من أتباع الدرقاوي[7].

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص- ص: 96-97. – الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود ...ج1، "المصدر السابق"، ص- ص: 325- 326.

[2]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب ...، "المصدر السابق"، ص: 97.- الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود ... ج1، "المصدر السابق"، ص: 326.

[3]: Adrien Delpech: Op. cit, p: 56.

[4]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب ...، "المصدر السابق"، ص: 97.

[5]: صالح عباد: الجزائر خلال الحكم التركي 1514- 1830، الجزائر، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، 2011، ص: 206.

[6]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب ...، "المصدر السابق"، ص: 98. – الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود ... ج1، "المصدر السابق"، ص 328.

[7]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود ...ج1، "المصدر السابق"، ص: 329.

وبالتالي تشتَّت أتباع الدرقاوي وانفصلوا عنه وأعرضوا فكلّما اتّجه إلى مكان إلاّ وفَرُّوا منه، حيث قصد بلاد الأحرار سنة 1809م فطردوه، فانتقل بعدها إلى عين ماضي والأغواط، غير أنّه لم يَجِد تجاوبًا من سكّانها الذين أبعدوه لمّا علموا مقصده عندهم[1]. الأمر الذي جعل من ابن الشريف في الأخير يلتجئ إلى قبيلة "بني يزناسن" الذين استجابوا لطلبه[2]، فتزوّج من ابنة الشيخ بوترفاس الدرقاوي وهو من قبيلة ترارة، ثم اختفى بعد ذلك[3].

وبعد اختفاء ابن الشريف الدرقاوي عن الأنظار قام صهره الشيخ بوترفاس سنة 1813م بجمع قبائل الجهة الغربية في جبل ترارة بُغية التمرّد ضدّ السلطة الحاكمة، لكن الباي بوكابوس لم يُعطه فرصة تنظيم قوّاته حيث سار إليه وخرَّب قريته بالكامل، ولمّا فعل ذلك به قال الشيخ أبي ترفاس: "أيها الباي لما فعلت بنا هذا ونحن ضعفاء الناس، فقال له إنّه صهرك درقاوي فأنت مثله وأحوالك ببداية"[4].

وقد عرفت حملة الباي هذه بحملة الثلج لأنّ الثلوج تساقطت بغزارة عندما كانت الحملة في طريق عودتها وبالتحديد بوادي تافنة، أين ألحقت تلك الثلوج المتساقطة بالمحلة أضرارا بليغة، حيث ماتت العديد من خيول الجنود ممّا أدّى إلى اضطراب الجيش وتشتّته، وبعد وصول الباي إلى تلمسان مكث بها أيّامًا ثم سار منها إلى وهران[5].

وبالرغم من تلك الهزائم التي لحقت بدرقاوة على يد الباي بوكابوس حاول الدرقاويون التحرّك مرّة أخرى في عهد الباي الجديد علي قارة باغلي، لكنّه هزمهم وانتصر عليهم من جديد في "بني مراد" سنة 1813م[6]، وقد مات في هذه المعركة آغا الدوائر قدور الصغير بن

---

[1]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب ...، "المصدر السابق"، ص: 98 .- الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود ... ج1، "المصدر السابق"، ص: 329.

[2]: Adrien Delpech: Op. cit, p: 57.

[3]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب...، "المصدر السابق"، ص: 98.- محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران...، "المصدر السابق"، ص: 230.

[4]: محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران ...، "المصدر السابق"، ص: 230. – الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود ...ج1، "المصدر السابق"، ص- ص: 332- 333.

[5]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب ...، "المصدر السابق"، ص:102.- الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود ... ج1، "المصدر السابق"، ص :333.

[6]: Adrien Delpech: Op. cit, p: 58.

بن إسماعيل وقائد الزمالة محمد بن قدور[1]. ثمّ قام الباي بالسير من جبال ترارة إلى تلمسان فوهران، وبذلك تم القضاء على ثورة الدرقاوي[2]، أمّا نهاية ابن الشريف فما زال يكتنفها الغموض بسبب الاختلاف في الروايات كَوْنه قُتِل بعد هذه المعارك، أم بقي على قيد الحياة.

1-3. نتائج وآثار ثورة ابن الشريف الدرقاوي:

كان لثورة ابن الشريف آثار وخيمة انعكست على أوضاع البلاد بشكل كبير ويتمثّل ذلك في:

- إضعاف نفوذ البايلك بالأرياف وازدياد عزلة المدن، كما شجّعت القبائل على عدم دفع الضرائب، وهو ما يؤكّده ناصر الدين سعيدوني حيث يقول: "في هذه الظروف المتأزمة اقتصاديا والمضطربة اجتماعيا، تحوّلت المدن الجزائرية إلى بيئات منكمشة على نفسها متخوّفة من سكان الريف القريبين منها، كما غدا الريف الجزائري مجالاً مغلقًا على نفسه يكاد يفقد صلته بالمدن وينقطع تفاعله مع سكانها، فأصبح منكفئا على نفسه وغير مستعد للتعامل مع السلطة المركزية، بعد أن تحوّل أغلب سكانه المؤطرين بشيوخ الزوايا إلى موقف عدائي صريح من إدارة البايليك والمتعاملين معها... في مثل هذه الأحوال أصبحت الظروف مهيأة في الجزائر لانهيار داخلي، أو لوقوعها ضحية عدو خارجي، وبالفعل كان الغزو الفرنسي 1830م"[3].

- انتشار الفوضى والاضطرابات في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، وانعدام الأمن والاستقرار.

- ازدياد الخلاف بين الأتراك الحاكمين وبين الرعيّة المحكومين نتيجة لسياسة القمع التي اتّبعها الأتراك اتّجاه القبائل المساندة المتعاطفة مع الثوار[4]، كما أنّ العلاقة التي بلغت ذروتها في التردّي بين السلطة التركية الحاكمة وبين المتصوفة قد ساهمت بشكل كبير في

---

[1]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب ...، "المصدر السابق"، ص: 107.

[2]: Adrien Delpech: Op. cit, p: 58.

[3]: ناصر الدين سعيدوني: عصر الأمير عبد القادر الجزائري، الكويت، مؤسسة جائزة البابطين للإبداع الشعري، 2000، ص- ص: 121- 122.

[4]: بونقاب مختار: انتفاضة درقاوة ...، "المرجع السابق"، ص- ص: 140- 141.

التشنّج واتّساع الهوة مع كافّة الرعية، وذلك لِما للمتصوفة من أتباع ومريدين ومتعاطفين معهم داخل المجتمع، حتى صار الجميع يسأل الله أن يُزيل عنهم ظلم الأتراك[1].

كما ساهمت ثورة درقاوة في إضعاف النظام العثماني بالجزائر رغم أنّها لم تُحقِّق هدفها الرامي إلى الإطاحة به، إلاّ أنّها مهّدت الطريق لسقوط الجزائر في يد الفرنسيين بعد سنوات قليلة. كما أنّها استطاعت حتى التأثير على الحكّام أنفسهم مثل الباي بوكابوس الذي تمرَّد حتى هو على سلطته، وتحالف مع سلطان المغرب مولاي سليمان، هذا ما أدّى بالباي الذي خلفه إلى الانتقام منه بسلخ رأسه حيًّا وحشوه بالقطن، وإرساله إلى مدينة الجزائر[2].

هذا بالإضافة إلى أنّ ثورة درقاوة قد أفسحت المجال للسلطان المغربي مولاي عبد الرحمن لمهاجمة إقليم فجيج عام 1805م، وقورارة وتوات عام 1808م على عهد الباي المقلش[3].

كما كانت الثورة الدرقاوية التي دامت نحو10 سنوات وبالاً على المقاطعة الغربية وسببًا في تخريب شامل للحياة الاقتصادية والاجتماعية فيها، فقد أدّت إلى هجرة العديد من أتباع درقاوة نحو الخارج لا سيما المغرب الأقصى خوفًا من معاقبة الأتراك لهم قصد الانتقام، وهجرة بعض العلماء حتى لا يتّخذوا موقفًا من الصراع[4].

هذا وقد هاجرت العديد من القبائل الجزائرية إلى المغرب الأقصى، حيث قام بايات وهران بإخلاء أراضيها وفي هذا السياق يقول مسلم بن عبد القادر الوهراني: "... بنو عامر ترك أوطانهم قفرة لا يلقي فيها سالكها أنس ولا أنيس إلاّ البوم والذئاب تقاوى من فقد الأنيس، وأهلها دخلوا المغرب وفارقوها من غير اختيار ..."[5]، ويفهم من هذا القول أنّ قبائل بني عامر قد أُرغمت على الهجرة من الوطن بواسطة الإكراه.

---

[1]: محمد شاطو: السلطة العثمانية في الجزائر...، "المرجع السابق"، ص: 169.

[2]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب ...، "المصدر السابق"، ص: 28.

[3]: "المصدر نفسه"، ص- ص: 54- 55.

[4]: بونقاب مختار: انتفاضة درقاوة ...، "المرجع السابق"، ص141.

[5]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب ...، "المصدر السابق"، ص: 93.

وزيادة على هذا فقد كانت الثورة سببًا في سقوط العديد من الضحايا من الجانبين، حيث ذهب ضحيّتها الكثير من الناس من مختلف الفئات لا سيما العلماء، نذكر منهم كاتب الباي محمد الكبير الشيخ أحمد بن هطال التلمساني، وقدور بن إسماعيل آغا الدواير[1].

أمّا من الناحية الاقتصادية فقد أدّى اضطراب الأحوال وعدم الاستقرار إلى تعطيل الصناعة وإفساد الزرع، وركود التجارة الداخلية لانعدام الأمن وفقدان الاستقرار، وكثرة اللصوصية وقطاع الطرق فقلّت المؤونة وحدثت مجاعة عانى منها سكان الأرياف والمدن على حد سواء[2]، وهو ما دفع بعضهم بالقول: "هكذا كانت الثورة الدرقاوية .... سببا في تقتيل مئات من أبناء الوطن، وفي استنفاد الطاقات الحربية التي كانت خير قوة تعدّ لمدافعة الإسبان بوهران... وخير قوة كان يمكن أن ترصد لرد جيوش الاحتلال الفرنسي فيما بعد"[3].

كما تجدر الإشارة إلى أنّ هذه التمرّدات قد أدّت إلى خراب المؤسسات التعليمية وتشريد طلبتها بعد أن قُتِل علماؤها ومشايخها بالرغم من وقوف بعضهم في صفوف العثمانيين، وخير دليل على ذلك معارضة الشيخ أبو راس الناصر لثورة درقاوة التي اعتبرها وبالاً على البلاد والعباد، إلاّ أنّه لم ينجو ككثير من علماء عصره من تُهمة مساندته لها وتعاطفه مع الدرقاويين، حيث عُزِل من جميع مناصبه الرسمية، الأمر الذي دفعه إلى تأليف كتابه الذي سمّاه "درء الشقاوة في حرب درقاوة"[4].

وإذا كان العالم أبو راس الناصر قد أبدى معارضته لهذه الثورة، فإنّ عالمًا آخر نجده يُمجِّد ويشيد بانتصارات العثمانيين على درقاوة بالغرب الجزائري إنّه مسلم بن عبد القادر الوهراني، ففي قصيدة أشاد بانتصارات العثمانيين في معركة "بني مريانن" على الدرقاويين، وبالدور الكبير الذي لعبه آغا الدواير قدور الصغير بن إسماعيل البحثاوي وممّا جاء فيها:

جَزَى اللهُ جُلَّ النَاصِرِ بِالْبَوَاتِـــــرِ قَدُورْ بَنْ إِسْمَاعِيلْ رَايَسْ الدَوَايرِ
لِحِزْبِ الأَتْرَاكِ فِي جَمِيعِ المَعَارِكِ فَإِنَّهُ لَيْثُ الحَرْبِ لَيْسَ بِغَـــــادِرِ

---

[1]: Adrien Delpech: Op. cit, p: 58.

[2]: بونقاب مختار: انتفاضة درقاوة ...، "المرجع السابق"، ص141.

[3]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب ...، "المصدر السابق"، ص: 55.

[4]: محمد بوشنافي: موقف علماء معسكر...، "المرجع السابق"، ص: 25.

وَزَادَ انْدِفَاعًا لَمَّا رَأَى رَأْسَ العَدَا خَلِيفَةَ ابْنْ الشَرِيفِ بِالقُرْبِ حَايـــرِ
فَسُرَّ بِهِ البَايُ وَعَـــزَّ جَنَابـــــهُ وَأَدْنَاهُ مَنْزِلاً فِي كُلِّ الأَوَامِـــــــرِ[1]

ويفهم من هذا أنّ هؤلاء العلماء الذين ساندوا العثمانيين نالوا الحظوة والمكانة المرموقة لدى رجال الحكم، فتولّوا الوظائف الشرعية وأصبحوا محلّ احترام وتقدير من قبلهم[2]، ومن بين هؤلاء أيضا العالم حسن خوجة الذي عارض ثورة درقاوة وأعلن ولائه للعثمانيين، حيث يتّضح موقفه منها ومن زعيمها ابن الشريف الدرقاوي في هذه الأبيات التي نظَّمها بمناسبة معركة "أولاد الزائر"، والانتصارات التي حقَّقها الباي المقلش فيها على درقاوة، وممّا جاء فيها:

أَيَا عَسْكَرَ الأَعْرَابِ تَبَّ جَمِيعُكُمْ وَسَوْفَ تَرُوْا مَاذَا بِكُمْ سَيَصِيـــرُ
فَلاَ تَعْجَلُوا لِلْمَوْتِ هَا هِيَ دُونَكُمْ غَدَاتَ اللِّقَا مِنْهَا الرُؤُوسُ تَطِيـــرُ
فَتَبَّ أُمْرُؤٌ أَغْرَ افْتِرَاؤُهُ جَمْعَكُمْ وَبِيسَ فَصَوْبَ الرَأْيِ مِنْهُ عَسِيرُ[3]

وممّا تقدّم يمكن القول أنّ ثورة ابن الشريف الدرقاوي أنهكت بايلك الغرب وسكّانه وبهذا لم تزد البلاد أمنًا ورخاء، حيث زعزعت أمن البلاد، لكنّها من جهة أخرى نجدها قد وحَّدت صفوف السكّان المتذمِّرين من السياسة الحاكمة، فكانت منفذًا للتّعبير عن سخطهم على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية التي كانت تسود البلاد من جرّاء الحكم العثماني الفاسد خاصّة سياسة الضرائب المجحفة[4]، وبالرغم من أنّ هذه الثورة كانت تحمل شعارات دينية إلاّ أنّها وجدت الكثيرين ممّن يلتفّون حولها، ضف إلى ذلك الدور الكبير الذي لعبته القوى الخارجية في تعزيز هذه الثورة ودعمها ماديًا، فها هو مثلا سلطان المغرب مولاي سليمان يقوم بدعم وتأييد ومؤازرة أتباع الطريقة الدرقاوية للوقوف ضدّ الحكّام العثمانيين في الجزائر[5].

---

[1]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود ...ج1، "المصدر السابق"، ص- ص: 316- 317.

[2]: وللإشارة فقد ذكر المزاري أنّ علماء الإيالة قد استَفتُوا أهل الحلّ والعقد بتطوان بالمغرب الأقصى بشأن درقاوة وثورتها ضدّ الأتراك، حيث كان ردُّهم بأنّ الدرقاويين مبتدعة وزنادقة ومخالفين لسنّة الرّسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم ويجب تعذيبهم. للمزيد عن هذا الموضوع ينظر: "المصدر نفسه"، ص: 303.

[3]: "المصدر نفسه"، ص: 319.

[4]: زينب جعني: ثورة ابن الأحرش ...، "المرجع السابق"، ص 136.

[5]: "المرجع نفسه"، ص: 130.

لكن هذا لا يمنع من وجود استعداد لدى الرعية للثورة ضدّ السلطة فهي تعبير صادق عن سخط الرعية وعدم رضاها عن الأوضاع السائدة، ويبدوا أنّها موروثة عن وضع اجتماعي متردِّي وتأزّم اقتصادي خطير عانى فيه المجتمع الفقر والظلم والحرمان والتقسيم[1]، وهذا ما يفسِّر انتشار تلك الثورة والتفاف النّاس حولها.

ومن هنا نرى أنّ الثورة قد فشلت في تحقيق أهدافها الرامية إلى الحدّ من تعسّف الأتراك وظلمهم، رغم الأساليب التي اعتمدها ابن الشريف الدرقاوي لكسب القبائل بالمنطقة الغربية، كما أنّ هذه الانتفاضة لم تنجح في القضاء على الحكم العثماني في الجزائر، إلاّ أنّها ساهمت في إضعافه.

2- ثورة الطريقة التيجانية ببايلك الغرب:

إنّ سوء تعامل الأتراك مع الرعية وانتشار الفساد والظلم تسبَّب في مواجهة مباشرة بين السلطة وزعماء المتصوفة، الذين وقفوا إلى جانب السكان فتمسَّكوا بهم وانصاعوا لأوامرهم، حتى أصبح رجال الزوايا والطرق الصوفية يتكلَّمون باسم الرعية ويدافعون عن مصالحهم لاسيما في الأرياف، ممّا نتج عنه قيام ثورات كالثورة التيجانية وسنسلِّط الضوء على هذه الأخيرة من خلال الوقوف على أسبابها ومراحلها ونتائجها.

2-1. التعريف بأحمد التيجاني:

هو الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن المختار بن سالم التيجاني من نسب شريف، وُلِد سنة 1150ه/ 1737م بعين ماضي[2]مقرّ أسلافه المتأخّرين، باعتبار أنّ جدّه الرابع سيدي محمد بن سالم انتقل من قبيلة عبدة أحواز مدينة آسفي مع أسرته بالمغرب الأقصى إلى بني

---

[1]: بونقاب مختار: انتفاضة درقاوة...، "المرجع السابق"، ص: 136. – وللمزيد من الحيثيات عن طبيعة الحركة الدرقاوية يرجى العودة إلى: مختار بونقاب: تاريخ الطريقة الدرقاوية في الجزائر، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة وهران، 2001- 2002، ص: 93.

[2]: عين ماضي: مدينة صغيرة وإحدى دوائر ولاية الأغواط حاليا تبعد عنها بحوالي 70 كلم وتقع غربها على حواف سلسلة جبال عمور. للمزيد ينظر:

- E. Mangin : "Notes sur l'histoire de Laghouat". R. A, N : ° 37, 1893, p : 385.
- A.O.M, 16H44 : "Sur sujet de ziara dessinées à la zaouïa d'Ain Madhi", Aix-en-Provence, p-p : 01-02.
- A.O.M, 16H44 : "Sur sujet des Marabouts d'Ain Madhi", 20février 1869, Aix-en-Provence, p-p : 01-07.

توجين أو تجانة بعين ماضي، وتزوّج منهم فكانوا أخوالا للشيخ، وكنيته بالتيجاني تعود إلى أخواله[1].

تربّى ونشأ في مسقط رأسه وسط عائلة جلّ أفرادها كانوا على مستوى رفيع من العلوم الدينية والدنيوية، فكان تقيًّا ومتديِّنًا وكريم الأخلاق مُقبلاً على الاجتهاد، حيث حفظ القرآن الكريم على ظهر قلب وهو ابن سبع سنوات[2]، وعكف على طلب العلم فتلقّى مبادئه على يد أساتذة أجلاّء حتى نبغ في علوم الفقه والتفسير والحديث، ثم شمَّر ساعديه على دراسة التصوف والبحث عن المعارف الإلهية، فسافر في طلب ذلك من بلد إلى آخر حتى بلغ غايته[3].

أول رحلة قام بها أحمد التيجاني خارج عين ماضي كانت إلى فاس سنة 1171هـ/1758م، وهناك لازم شيوخها الأجلاّء والعظماء[4] منهم الشيخ الطيب بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم اليملحي وأحمد الصقلي، وغيرهم من العلماء والأقطاب والأولياء الذين تبرَّك بهم، وحضر مجالسهم العلمية ليستمع لبعض ما يدور فيها من شروح وتفاسير في علوم القرآن والحديث[5].

ولمّا حصل على مبتغاه من العلم النافع قفل راجعًا لوطنه الجزائر كي يفيد بذلك طلاّب العلم، وقد نزل ببلدة الأبيض سيدي الشيخ[6] ومكث بها خمس سنوات مارس خلالها مهنة التّدريس، وكان من حين إلى آخر يزور مسقط رأسه عين ماضي[7]، ثم سافر الشيخ أحمد التيجاني إلى مدينة تلمسان واستقرّ بها، وشرع في التّدريس بالمسجد الكبير فدرَّس

---

[1]: أحمد الأزمي: الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي خلال القرن التاسع عشر الميلادي، ج1، المغرب، دار الطبع فضالة، 2000، ص- ص: 45- 46.

[2]: "المرجع نفسه"، ص: 53.

[3]: أحمد بن الحاج سكيرج العياشي: كشف الحجاب عمن تلاقى مع الشيخ التيجاني من الأصحاب، لبنان، المكتبة الشعبية، 2002، ص: 14.

[4]: علي حرازم ابن العربي برادة المغربي: جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التيجاني، المكتبة التجارية الكبرى، ص: 34.

[5]: بن يوسف تلمساني: الطريقة التيجانية وموقفها من الحكم المركزي بالجزائر: الحكم العثماني، الأمير عبد القادر، الإدارة الاستعمارية، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، 1997- 1998، ص- ص: 65- 66.

[6]: Louis Rinn : Op. cit, p : 417.

[7]: أحمد الأزمي، "المرجع السابق"، ص: 61. – بن يوسف تلمساني، "المرجع السابق"، ص: 67.

التفسير والحديث وغيرهما زمنًا لا بأس به[1]. ثم غادرها سنة 1186هـ/ 1772م قاصدًا أداء فريضة الحج، وفي طريقه مرّ ببلاد القبائل فاتَّصل بالشيخ أبي عبد الله سيدي محمد بن عبد الرحمن الأزهري وأخذ عنه الطريقة الرحمانية الخلوتية، ثم واصل طريقه إلى تونس التي مكث بها سنة كاملة قصد التعبُّد والتّدريس، والأخذ عن أهل الخير والصلاح[2].

ليشدّ الرحال بعدها إلى مصر أين التقى بالشيخ محمود الكردي فأخذ عنه الطريقة الخلوتية، ولمّا قضى سنتين بالمشرق العربي عاد إلى تلمسان التي كان يتردَّد بينها وبين فاس لمضايقة السلطات العثمانية له[3]، ثمّ ارتحل إلى ناحية الصحراء سنة 1196هـ/1782م ونزل بقرية أبي سمغون[4]، ثمّ سافر منها إلى توات وتازة لزيارة أهل الصلاح والعلم[5].

ويذهب أتباع الطريقة التيجانية أنّ الشيخ أحمد التيجاني قد تَمَّ له الفتح حينما كان بقرية أبي سمغون، حيث ذكر أنّه رأى الرّسول صلّى الله عليه وسلّم يقظة لا منامًا، وأخبره بعُلوِّ مقامه وأمره بترك جميع الطرق التي أخذها من قبل، وعيَّن له الورد الذي يلزم طريقته الجديدة وأمره بتلقينه للناس من غير خلوة[6].

وبإعلانه عن وقوع الفتح بدأ الناس يلتفّون حوله فكثر مريدوه وقصدته الوفود من جميع أنحاء الصحراء[7]، وبدأت بذلك صفحة جديدة من حياة التيجاني بميلاد طريقته الجديدة الجديدة سنة 1196هـ/1782م، التي قام بتثبيت أركانها بمسقط رأسه بعين ماضي واتّخذها مقرًّا رئيسيًا لها[8]، وبدأ منذ ذلك الحين يحاول نشر طريقته متنقِّلاً بين عدّة مناطق من

---

[1]: علي حرازم برادة، "المصدر السابق"، ص- ص: 34- 35.

[2]: بن يوسف تلمساني، "المرجع السابق"، ص: 68.

[3]: أحمد الأزمي، "المرجع السابق"، ص: 69.

[4]: أبي سمغون: قرية تقع على بعد 120 كلم جنوب البيض، سُمِّيت بهذا الاسم نسبة إلى الوليّ الصالح أبي سمغون، أُنشئت على حواف جبل يدعى تميدة، ويمتدّ في جنوبها الغربي جبل آخر يدعى جبل تانوت. لتفاصيل أكثر ينظر:
A. Goyne : "Le Sahara de l'ouest". R. A, N=° :33, 1889, p : 49.

[5]: L. Arnaud : "Histoire de l'ouali sidi – Ahmed et - Tedjani", R. A, N=° :05, 1861, p : 470.

[6]: شيخ لعرج: الطريقة التيجانية ونشاطها في الغرب الجزائري بين 1782 و1838م، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة معسكر، 2008- 2009، ص: 63.

[7]: بن يوسف تلمساني، "المرجع السابق"، ص: 71.

[8]: Octave Depont, Xavier Coppolani, Op. cit, p : 416.

الصحراء، ولنشرها عمد التيجاني إلى تأسيس زاوية في كلّ مكان يحِلّ به، وجنَّد المقدّمين لطريقته، وراسل الأمراء وعامّة الناس من التجار والفقهاء وشرح لهم طريقته[1].

وبهذا توسّع نفوذ الطريقة التيجانية وارتفع عدد أتباعها[2] سيما في الصحراء، إلى درجة أصبحت تتحكّم في الطرق والقوافل التجارية عبر الصحراء ممّا زاد في قلق السلطة العثمانية، حيث أقدم باي الغرب على تضييق الخناق على مؤسِّس الطريقة بعد أن تخوّف من قيام ثورة ضدّه نتيجة قوّة الشيخ التيجاني، ونفوذ طريقته بين أوساط الشعب، فبعث إلى سكان قرية أبي سمغون يتوعّدهم العقاب إن لم يطردوا الشيخ أحمد التيجاني من قريتهم[3].

وأمام هذا الوضع المتعفن ومطاردة باي الغرب عثمان بن محمد للشيخ أحمد التيجاني، قرّر هذا الأخير الهجرة إلى فاس المغربية سنة 1213هـ/1798م فرارًا من ظلم الأتراك وجورهم[4]، حيث رحّب به السلطان مولاي سليمان وقرّبه إلى مجلسه، فعاش في فاس داعيًا داعيًا إلى مذهبه، يُدرِّس ويُفتي بالزاوية التي أسّسها بحي البليدة بفاس سنة 1215هـ/1801م[5]، وقد وفد عليه عدد كبير من الناس للتبرُّك به وأخذ طريقته من بلدان مختلفة مثل موريتانيا والسودان، السينغال، مصر، وبلدان المغرب العربي[6].

ويبدوا أنّ السلطان المغربي مولاي سليمان كان يريد من وراء استقباله للشيخ أحمد التيجاني، ومساندته تحقيق جملة من الأهداف منها:

- إهانة العثمانيين الذين كان في صراع معهم.

---

[1]: بن يوسف تلمساني، "المرجع السابق"، ص: 72.

[2]: من خلال وثيقة عثرنا عليها بأرشيف أكس أون بروفانس بفرنسا تبيّن أنّه قد بلغ عدد أتباع الطريقة التيجانية بوهران لوحدها 313 نسمة وبمدينة معسكر حوالي 172 وتلمسان 36 وبالجزائر كلّها حوالي 23046 نسمة، وفي وثيقة أخرى وجدنا أنّه قد بلغ عدد إخوان التيجانية حوالي 62000 للمزيد ينظر:

- A.O.M, 16H2 : "Répartition par tribu de la population indigène entre les divers ordres religieux de l'Algérie". Aix- en – Provence.
- A.O.M, 16H39 : "Etude d'ensemble sur les confréries religieuses et zaouïas Musulmanes des territoires de sud". Aix – en- Provence.

[3]: بن يوسف تلمساني، "المرجع السابق"، ص: 72.

[4]: "المرجع نفسه"، ص: 74.

[5]: Octave Depont, Xavier Coppolani, Op. cit, p : 418.

[6]: شيخ لعرج، "المرجع السابق"، ص: 100.

– إقلاق راحة العثمانيين بعد الانتشار السريع لنفوذ الطريقة التيجانية في أوساط الشعب، خصوصًا وأنّ الشيخ التيجاني كان من ألدّ أعدائهم[1].

– توظيفه للعامل الديني، وتقرُّبه من الشيخ أحمد التيجاني بُغية إحكام السيطرة على الأوضاع في المغرب وتقوية نظامه[2].

– هذا وقد شهدت الطريقة التيجانية انتشارا كبيرا بحيث وصلت إلى أقصى المناطق الإفريقية في عهد مؤسِّسها ليصبح عدد أتباعها بكثرة، وذلك لتعاليمها البسيطة وابتعادها عن البدع وتمسّكها بالكتاب والسنّة[3]، وبقي الشيخ أحمد التيجاني يواصل رسالته بتفاني إلى آخر يوم من حياته، وفي يوم الخميس 17 شوال 1230ه الموافق ل: 19 سبتمبر 1815م تُوفِي عن عمر يناهز الثمانين عامًا ودُفِن بزاويته بفاس[4]، وقد ترك ولدين محمد الكبير ومحمد الحبيب، وبناءا على وصيته انتقلت الخلافة إلى الحاج علي التماسيني[5] ليواصل المهمّة بعده برفقة مجموعة من الفقهاء والشيوخ الذين كانوا غيورين على طريقتهم.

---

[1]: "المرجع نفسه"، ص: 97.

[2]: بن يوسف تلمساني، "المرجع السابق"، ص: 74.

[3]: وللإشارة فإنّ الطريقة التيجانية قد قامت على شروط وتعاليم وأذكار يمتثل بها كلّ من رغب الانضمام إليها، ومنها: مداومة الورد إلى الممات والقائم على الورد المعلوم والوظيفة والهيللة، ضف إلى ذلك المحافظة على الصلوات الخمس في أوقاتها، لتفاصيل أكثر ينظر: بن يوسف تلمساني، "المرجع السابق"، ص– ص: 79– 81. وأيضا:
Octave Depont, Xavier Coppolani, Op. cit, p : 417.

[4]: شيخ لعرج، "المرجع السابق"، ص: 100. وللمزيد عن هذا الموضوع يرجى العودة إلى: عبد الباقي مفتاح: أضواء على على الشيخ أحمد التيجاني وأتباعه، الجزائر، 1988، ص: 117.

[5]: الحاج علي التماسيني: (ت. 1260هـ/1844م)، أصله من ينبوع بالحجاز، وينتسب إلى تماسين بالجنوب الشرقي، أخذ ورد الشيخ أحمد التيجاني، وأكثر من زياراته له بفاس حتى بلغت 14 مرّة، لدرجة أنّ التيجاني أوصى قبل وفاته بثلاثة أيام بنقل الخلافة إليه، لتفاصيل أكثر ينظر:
Octave Depont, Xavier Coppolani, Op. cit, p : 421.

2-2. التيجانية والسلطة العثمانية:

لقد شهدت الطريقة التيجانية منذ تأسيسها سنة 1782م مضايقات عديدة من طرف السلطة العثمانية، فنتيجة المكانة الواسعة التي كان يتمتّع بها أحمد التيجاني وسط الصحراء تخوّف منه الحكّام الأتراك، لذا اتّسمت العلاقة بينه وبينهم منذ البداية بالنفور والعداء والمواجهة في آخر المطاف، فما أسباب ذلك يا ترى؟

2-2-1. مرحلة العداء والنفور:

إنّ التفاف الناس حول الشيخ أحمد التيجاني وانتشار طريقته بشكل سريع وملفت للانتباه نتج عنه قلق وتخوّف أبداه الحكّام العثمانيون اتّجاه هذا الشيخ، حيث قاموا بتضييق الخناق عليه وبشنّ عدّة حملات عسكرية على عين ماضي المركز الرئيسي لطريقته الصوفية الجديدة. ولعلّ أول حملة ضدّها كانت سنة 1198هـ/1784م من طرف الباي محمد الكبير انتهت بفرضه على سكّانها ضريبة سنوية تقدر ب: 188ريال[1]، وفي هذا المقام يصف لنا ابن هطال التلمساني نزول الباي عند عين ماضي قائلا: "ثم أصبح مرتحلا قاصدا عين ماضي فوصلها في ثلاث ساعات، فلمّا رأوا أهلها خيله قد طلعت وبنوده قد أقبلت فزعت قلوبهم وطاشت عقولهم وغلقوا الديار وعلوا الأسوار وهم مصرخون وبالطاعة وطلب الشريعة معلنون، فنزلت المحلة بقرب السور بنحو المائة ذراع ... فبينما الناس متردّدون في أمرهم شاكون في قدومهم، وإذا بهم خرجوا بنسائهم وعلمائهم مقدّمون النساء أمامهم وتلك كانت عادتهم، فلمّا دخلوا إلى المحلّة أمر السلطان – الباي– من أوقف النساء بمكان بعيد من فسطاطه مستنكبين عن بساطه، وأذن للعلماء في التقدّم فتقدّموا وسلّموا عليه وسألوه أن يرفق بهم ويشفق من حالهم، وأن يعفيهم من القطيعة الأولى التي فرضها عليهم فإنّهم لم يقدروا عليها ولا طاقة لهم بدفعها، فلمّا سمع كلامهم واستقصى خبرهم أدركته الحنانة والشفقة عليهم وجعل لهم لزمة أقل من الأولى ... وبالغد أصبحت أهل عين ماضي يدفعون قطيعتهم من الخيل والخدام والدراهم، فدفعوا جزءا وكمّلوا الباقي في اليوم الذي بعده ..."[2].

---

[1]: Louis Rinn, Op. cit, p : 420.

[2]: أحمد بن هطال التلمساني: رحلة الباي محمد الكبير ...، "المصدر السابق"، ص– ص: 72– 74.

وبعد مرور سنتين على هذه الحملة شنّ عثمان باي ابن محمد الكبير سنة 1201ه/ 1787م حملة أخرى على عين ماضي مُطالبًا بالضريبة التي فرضها أبوه على المدينة[1]، ونتيجة للضغوط التي تعرّض لها الشيخ أحمد التيجاني وملاحقة الباي عثمان له بقرية أبي سمغون ارتحل إلى فاس برفقة تلاميذه وأهله سنة 1213هـ/1798م، ولمّا وصلها أعلم السلطان مولاي سليمان أنّ سبب رحيله هو جور الترك وظلمهم[2]، فرحَّب به السلطان ومَنح له قصرًا يسمّى "دار المراية"، ورتَّب له كلّ ما يكفيه بُغية التقرّب منه[3].

وبالرغم من هذه الحملات فإنّ خضوع المنطقة لم يدم طويلا لعدم تمكّن السلطة العثمانية من إيقاف انتشار الطريقة التيجانية والقضاء على مؤسِّسها بعد أن ذاع صيتها وزاد عدد أتباعها، فاعتبر بايات وهران ذلك تهديدًا لنفوذهم في بايلك الغرب، لذلك حاولوا الحدّ من نفوذها بتشديد الحصار وإرهاق سكّان عين ماضي بالضرائب[4]، نتج عنه في الأخير إصرار سكّان المدينة على مجابهة جيش الباي والثورة ضدّ السلطة الحاكمة[5].

ورغم هجرة الشيخ التيجاني إلى فاس فإنّه طلب من سكّان عين ماضي الخضوع للسلطة ودفع الضريبة التي فرضها عليهم الباي، لدرجة أنّه حثّهم على ضرورة التصالح معه وعدم مُجابهته والتمرّد ضدّه، وهذا بعد رسالة بعثها الشيخ أحمد التيجاني إلى سكّانه بعين ماضي جاء فيها: "... وأمّا أمر الباي معكم فاسمعوا مني نصيحة كاملة يبذلها الوالد لولده إذا كنتم تراعون نصيحته، فسيروا إليه في بلاده وأعطوه ما تقدرون عليه من المال، ولا تقاتلوه فإنّكم لا خير لكم في قتاله... فإيّاكم ثم إيّاكم أن تخالفوه وتقاتلوه... كلّ تدبير عندكم في القتال والخلاف فاتركوه، ولا تدبروا إلاّ في الصلح بينكم وبين الباي..."[6]، ويفهم من هذه الرسالة أنّ التيجاني كان يرفض أيّ مواجهة مع الأتراك ولم يكن يُحضِّر ولا يفكِّر في إحداث ثورة.

---

[1]: شيخ لعرج، "المرجع السابق"، ص: 94.

[2]: بن يوسف تلمساني، "المرجع السابق"، ص: 74.

[3]: Louis Rinn, Op. cit, p : 421.

[4]: شيخ لعرج، "المرجع السابق"، ص: 120.

[5]: وللإشارة فقد طلب سكّان عين ماضي عبر رسالة من الشيخ أحمد التيجاني، الذي كان متواجدًا بقرية أبي سمغون تزويدهم بالبارود والرصاص استعدادًا لمجابهة جيش الباي. لتفاصيل أكثر ينظر: بن يوسف تلمساني، "المرجع السابق"، ص- ص: 133- 135.

[6]: أحمد بن الحاج سكيرج العياشي، "المصدر السابق"، ص: 404.

بعد هذا اتّسمت العلاقات بين السلطة وأهل عين ماضي بالهدوء إلى غاية وفاة الشيخ أحمد التيجاني سنة 1230هـ/1815م، وعودة ابنيه وهما محمد الكبير[1] ومحمد الصغير[2] إلى المدينة برفقة خليفة أبيهم الحاج علي التماسيني، فعمل الولدان على مواصلة نشر طريقتهم التي اكتسبت نفوذا كبيرا في أوساط السكّان، وهو ما أثار مخاوف الحكّام الذين كانوا يترقّبون أيّة حركة دينية، خاصة وأنّ التيجانية ظهرت في وقت اشتدّ فيه الضغط على النشاط الديني[3].

لهذا قرّر الباي حسن القضاء عليها قبل أن يستفحل أمرها فشنّ حملة على عين ماضي سنة 1236ه/ 1820م، مغتنمًا فرصة عودة الحاج علي التماسيني بِولَديْ الشيخ أحمد التيجاني محمد الكبير ومحمد الصغير بعد وفاة والدهما إلى عين ماضي لإلقاء القبض عليهم، واستنجاد التجاجنة- فرع من بني عشيرته- أعداء أبيهما وتحالفهم معه انتقاما لطردهم سابقًا من عين ماضي إلى جبل عمور[4].

وبعد محاصرة الباي حسن بن موسى لعين ماضي مدّة شهر كامل وتطبيقًا لوصية الشيخ أحمد التيجاني بعدم مواجهة البايات وإعطائهم ما يقدرون عليه من المال[5]، عرض عليه التيجانيون مبلغًا قدره مائة ألف ريال ما يعادل 350 ألف فرنك مقابل رفع الحصار عليهم وتأمين أرواحهم فقبل عرضهم، ولكنّه بمجرَّد استلام هذه الأموال قام بقصف المدينة مدّة 36 ساعة، إلاّ أنّه فشل في اقتحامها ثمّ رجع إلى وهران[6].

لقد عرفت الطريقة التيجانية في الجزائر ازدهارا كبيرا بعد عودة وَلَديْ الشيخ أحمد التيجاني من المغرب الأقصى إلى عين ماضي وهما محمد الكبير ومحمد الصغير، حيث

---

[1]: محمد الكبير: هو الابن الأكبر لأحمد التيجاني وُلِد بعين ماضي عام 1796م، انتقل مع أبيه إلى فاس وتزوّج هناك، تُوفِي في معسكر في معركة جرت بينه وبين الباي حسن عام 1827م. ينظر: بن يوسف تلمساني، "المرجع السابق"، ص: 139. (هامش رقم 01).

[2]: محمد الصغير: وهو محمد الحبيب وُلِد بفاس عام 1802م، تولّى مقاليد الطريقة التيجانية عام 1844م بعد وفاة الحاج علي التماسيني إلى غاية وفاته عام 1853م، حيث دُفِن بعين ماضي تاركًا وراءه ولدين. ينظر: بن يوسف تلمساني، "المرجع السابق"، ص: 139. (هامش رقم 02).

[3]: رشيدة شدري معمر، "المرجع السابق"، ص- ص: 196- 197. – بن يوسف تلمساني، "المرجع السابق"، ص: 130.

[4]: Louis Rinn, Op. cit, p : 423.

[5]: أحمد سكيرج، "المصدر السابق"، ص: 404.

[6]: Louis Rinn, Op. cit, p : 423.

ازداد نفوذها الذي أصبح يزعج السلطة العثمانية، وكان للحكّام أن يخافوا خاصة بعد أن عاشوا الاضطرابات الخطيرة التي أحدثتها الطريقة الدرقاوية ببايلك الغرب، فشنّ باي التيطري مصطفى بومرزاق سنة 1238هـ/1822م حملة أخرى على عين ماضي، غير أنّه لم ينجح في اقتحامها لشدّة تحصينات البلدة[1]. الأمر الذي دفع بسلطات البايلك إلى تجهيز حملة أخرى بقيادة الباي حسن سنة 1241هـ/1825م، حيث حاصرت قواته البلدة لمدّة شهر كامل انتهى بعقد الصلح بين الطرفين، مقابل دفع سكان عين ماضي لضريبة سنوية قدرها خمسمائة ريال وأن يدفعوا للباي ألفي ريال حالا[2].

ويرجّح أنّ خروج الباي حسن نحو عين ماضي لمجابهة أبناء التيجاني ومحاصرته للبلدة أكثر من مرّة، بل وحتّى مراقبته لتحركات التيجانيين حصل لتخوّفه من الثورة عليه لكثرة أتباعهم، وفي هذا المقام يقول المزاري: "أنّ الباي حسن كان قد دخله التخمين بأنّ التجيني سيقوم عليه بالأصفى كقيام ابن الشريف الدرقاوي على الباي مصطفى، لإقبال الناس عليه في كلّ ناحية وانتشار صيته في كلّ ضاحية، فرام كسر شوكته قبل تزايدها وهدم قوته قبل تعاهدها، فجمع له جيشا عظيما وعددا كثيرا جسيما، وغزى به عليه بعين ماضي ..."[3].

وفيما يظهر أنّ العثمانيين لم يكتفوا بهذا بل عملوا على مراقبة تحرّكات محمد الكبير، فأثناء خروج هذا الأخير من بلدته عين ماضي باتّجاه البقاع المقدسة أمر الداي حسين باي قسنطينة بإلقاء القبض عليه فور رجوعه من الحج، ولكن الباي لم يتمكّن من ذلك[4]، وزادت وزادت هذه الحادثة من حدّة عداء التيجانيين للحكم العثماني[5].

---

[1]: صالح عباد: الجزائر خلال الحكم التركي ...، "المرجع السابق"، ص- ص: 230- 231.

[2]: محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران ...، "المصدر السابق"، ص: 242. وللإشارة فإنّ العالم والقاضي محمد بن الخروبي القلعي (ت. 1278هـ/1861م) كاتب الباي حسن آخر بايات وهران، هو من توسّط لهم لدى الباي فقبل هذا الأخير صلحهم. ينظر: بوركبة محمد: جوانب من مخطوط قلعة بني راشد ...، "المرجع السابق"، ص: 115.

[3]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود...ج1، "المصدر السابق"، ص: 353.

[4]: الحاج أحمد الشريف الزهار، "المصدر السابق"، ص: 159.

[5]: شيخ لعرج، "المرجع السابق"، ص: 122.

وأمام هذه الضغوطات والمضايقات المستمرّة للطريقة التيجانية أصرّ محمد الكبير التيجاني على مجابهة الباي حسن وبإعلان الثورة على السلطة العثمانية، لأنّها الوسيلة الوحيدة المتبقية أمامه ليثأر لِما حلَّ به وليحافظ على طريقته من الزوال.

2-2-2. مرحلة التصادم المسلح والمواجهة:

قبل أن ينتقل محمد الكبير التيجاني من مرحلة الدفاع إلى الهجوم، تراسل مع خليفة والده الحاج علي التماسيني حول الموقف الذي يعتزم القيام به وهو الثورة على العثمانيين، وممّا قاله: "... يا سيدي علي بعد تفكير طويل قد عزمت على ذلك الأمر الذي تكلّمنا فيه من قبل، وهو القيام بالثورة على هؤلاء العجم الذين أكثروا في الأرض الفساد، فأهلكوا الحرث والنسل ولم يحكموا بما أنزل الله تعالى من شريعة الإسلام، فكم قتلوا من خيار علمائنا وصلحائنا وكم ضيّقوا على آخرين حتى اغتربوا، وكم أثقلوا كواهل فقرائنا وفلاحينا وتجارنا بالغرائم، وأنت يا سيدي عليم بما صنعوه مع والدنا رحمه الله وبهجوماتهم المتكررة على قريتنا، وبفعالهم الشنيعة مع أهالينا ... وهم الآن يراقبون قوافلنا ويترصدون سلبها ظلما وعدوانا، ولم يكتفوا بذلك فهم الآن بالمرصاد لي ولأخي ولا همّ لهم سوى قتلنا لا لشيء إلاّ بغضا في المصلحين من أهل الوطن، وقل لي بربك يا سيدي ماذا انتفعت أمتنا في الجزائر بوجود الترك؟ ... ثم إنّ طغيانهم داخل البلاد أربى على الحد المحتمل، ومولانا عزّ وجلّ أمرنا بالنهي عن المنكر وجهاد الظلمة ولابدّ للامتثال لأمره ....."[1].

هذا وقد عمد محمد الكبير التيجاني على تجاوز نصيحة أبيه السابقة ونصيحة الحاج علي التماسيني-بعد رسالة ردّ فيها عليه- بعدم مقاتلة الأتراك، والعصيان والتمرّد عليهم لِما فيها من مخاطر على أصحاب الطريقة التيجانية[2].

2-2-2-1. تحالف محمد الكبير التيجاني مع قبائل الحشم:

إنّ نزعة الثأر لدى الشيخ محمد الكبير التيجاني من الحكّام العثمانيين الذين ضايقوا والده من قبل، ونهبوا عين ماضي في عهده واستمرّوا في إضعاف طريقته قد وجدت السند لدى قبائل الحشم الذين كانوا يرغبون في الانتقام من الباي حسن لقتله زعماءهم الأحد عشر

---

[1]: مجموعة رسائل تبودلت بين محمد الكبير التيجاني والحاج علي التماسيني، محفوظة في زاوية عين ماضي- تاغزوت، ذكرها بن يوسف تلمساني في المرجع السابق، ص- ص: 146- 147.

[2]: بن يوسف تلمساني، "المرجع السابق"، ص: 146.

عام 1242هـ/1826م، في ضيافة أعدّها لهم بعدما شكّ في عدم ولائهم له[1]. هذا ما زادهم دعمًا وولاءًا للشيخ محمد الكبير التيجاني، حيث كاتبوه وحثّوه على القدوم إليهم بمعسكر، كما وعدوه بأن يتجنّدوا معه لمحاربة الباي حسن[2].

وهو بدوره أجرى اتّصالات حثيثة معهم قصد قتال الأتراك حتى استكمل جمع قوّاته، فكاتب قبائل الحشم ومن يظن بهم مساعدته[3] بموعد هجومه، واستعدّ للزحف على معسكر.

2-2-2-2. حصار التيجاني لمدينة معسكر:

زحف الشيخ محمد الكبير التيجاني سنة 1242هـ/1826م من عين ماضي باتّجاه معسكر على رأس جيش يفوق ستمائة رجل من التيجانيين، ومعهم جمع غفير من الصحراويين الذين انضم إليهم الحشم[4]، ولمّا وصل هاجمها من ناحية العرقوب والمعروفة بالحومة الغربية فحاربه سكّانها ومات من الطرفين خلق كثير[5]، لكن بالرغم من ذلك واصل محمد الكبير التيجاني زحفه على معسكر، وحاصر العديد من أحياءها إلى غاية إخضاعها وإعلان سكّانها طاعتهم له، وفي هذا المقام يقول المزاري: "..... ثم رحل التجيني في يوم الإثنين لمدينة المعسكر، وهي على سبعة أقسام حومة العرقوب بسورها وحومة سيدي علي محمد وحومة عين البيضا وحومة الباب الشرقي، وحومة بابا علي وحومة سيدي محمد أبي جلال وحومة المدينة الداخلة وهو الوسطى بسورها ذي أدهام، ونزل على الحومة الغربية وسط النهار وهي حومة العرقوب يريد الدخول إليها ويظفر بالمطلوب، فتلقّاه أهلها بأسرهم بالقتال وصار الحرب بينه وبينهم في السجال، وأعانهم بنوا شقران على ذلك القتال، وقد مات من الفريقين خلق كثير ... ولمّا رأوا ذلك قادوا له فرسا أشهب ودخلوا تحت حكمه بانتخاب، وأتوه ليلتهم بمؤونة جيشه من المأكول والمشروب وعلف الدواب، واندرج في ذلك أهل الحومة الشرقية بلا محال وهي حومة الباب الشرقي، كما اندرج في ذلك أيضا حومة سيدي

---

[1]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب ...، "المصدر السابق"، ص: 31. ولتفاصيل أكثر عن كيفية قتل الباي حسن لقوّاد الحشم ينظر: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود ...ج1، "المصدر السابق"، ص- ص: 353- 354.

[2]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود ...ج1، "المصدر السابق"، ص: 355.

[3]: وللإشارة فقد كَاتَبَ محمد الكبير التيجاني العديد من القبائل للحصول على دعمها ومساعدتها لكنّها رفضت ذلك، ومن بينها: بني عامر وبني شقران، والبرجية والغرابة والزمالة والدوائر. ينظر: محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران ...، "المصدر السابق"، ص: 244. - الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود ...ج1، "المصدر السابق"، ص: 356.

[4]: مسلم بن عبد القادر الوهراني: أنيس الغريب ...ج1، "المصدر السابق"، ص: 31.

[5]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود ...ج1، "المصدر السابق"، ص: 356.

محمد أبي جلال ..... وفي يوم الخميس تهيّأ بجيشه لقتال الحومتين المحيط بهما السور، وهما العرقوب والمدينة الداخلة..."[1].

2-2-2-3. معركة عواجة ونهاية الثائر محمد الكبير التيجاني:

بينما كان التيجاني يحاصر مدينة معسكر بلغت أنباؤه باي وهران حسن بن موسى فخرج له هذا الأخير في جيش قوي ونزل بقرية الكرط، ثم اتّجه نحو التيجاني بخصيبية لمقاتلته فالتقى الجيشان في منطقة عواجة بأولاد رحو[2]، أين اشتدّ القتال بين الطرفين في معركة حامية الوطيس، انتهت بهزيمة التيجاني بعد انسحاب قبيلة الحشم التي تخلّت عنه مع الكثير من الأعراب- بعد ساعة من القتال-، ولم يبق معه سوى ثلاثمائة مقاتل[3].

وبخصوص انسحاب قبيلة الحشم في هذه المعركة يرى محمد بن يوسف الزياني أنّ الباي حسن لجأ إلى خديعة تمثّلت في ارتشاء أعيان الحشم بالمال، مُقابِل تخلِّيهم عن محمد الكبير التيجاني إذ يقول في هذا المقام: "... ويقال أنّ الباي أعطى لأعيان الحشم وكافة العرب أموالا كثيرة فأوقعوا الهزيمة وفرّوا عنه، وتركوه في جيشه الخاص به منفردا"[4].

وعلى الرغم من الخديعة إلاّ أنّ محمد الكبير التيجاني استبسل في القتال وصمد في المعركة، ولم ينسحب هو ومن بقي معه من أتباعه إلى أن قضى عليهم جيش الباي عن آخرهم، وفي هذا السياق يقول صاحب دليل الحيران: "... فصار جيشه (التيجاني) يذبون عن أنفسهم ويسارعون في مشيهم نحو بستان أولاد رح، وهو بستان عظيم من الهندية ليتحصّنوا به، فحال بينهم وبينه جيش الباي وأوقفوهم بموضع يقال له السمار وأداروا بهم دور مقياس، واشتدّ القتال بين الفريقين إلى أن قتل التجيني بجميع جيشه، ولم يفلت منهم واحد ومات خليفته السيد إبراهيم بن يحيى من أولاد سيدي محمد بن يحيى، ومن جيش الباي عدد كثير منهم محمد ولد قدور البحثاوي وقايد غمرة وخلق كثير ..."[5].

---

[1]: "المصدر نفسه"، ص- ص: 356- 357.

[2]: محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران ...، "المصدر السابق"، ص: 246.

[3]: الحاج أحمد الشريف الزهار، "المصدر السابق"، ص: 159.

[4]: محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران ...، "المصدر السابق"، ص: 247.

[5]: "المصدر نفسه"، ص: 247.

وبعد هزيمة محمد الكبير التيجاني ومقتله أَمرَ الباي حسن بقطع الرؤوس "رأس التيجاني ويده ورؤوس التجاجنة أهل الضرر، فقطعت الرؤوس وبعث بها الباي أمامه للمعسكر"[1] وعاد الباي منتصرًا إلى معسكر ومنها إلى وهران.

هذا وقد كانت هذه النتيجة المأساوية التي آلت إليها المعركة مع الباي حسن صدمة كبيرة للتيجانيين خصوصًا بعد قيام الباي بالتنكيل بالجثث، حيث أمر جنده بتعليق رؤوس التيجانيين في كلّ المدن حتى يكونوا عبرة لمن يفكّر في الخروج عن طاعته[2]، أمّا رأس محمد الكبير التيجاني وسيفه ورؤوس البارزين من جنده، فقد بعث بهم إلى الداي حسين مبشّرًا إيّاه بالقضاء على الثورة التيجانية[3].

2-3. نتائج وآثار تمرد التيجانيين:

من خلال استعراضنا لهذه الثورة التي قادها المتصوفة والتي أنهكت الجميع، وتصدّي السلطة الحاكمة لها ومواجهتها بقوة السلاح رغم ما كلّفها من الخسائر المادية والبشرية، كمقتل كبار أعيان الباي حسن في مواجهة قبائل الحشم المتحالفة مع الثائر محمد الكبير التيجاني[4]، نجد أنّ الحكّام الأتراك لم يستسلموا لهؤلاء الثائرين رغم الظروف الصعبة التي كانت تمرّ بها البلاد، معتبرين خطرهم أكبر مهدِّد للأمن الداخلي والوجود العثماني بالجزائر، ولعلّ ما يؤكّد ذلك هو مضامين الرسالة التي بعث بها الباي حسن إلى قائد مليانة وقد جاء فيها: "... فالذي نبشّركم به خيرا إن شاء الله تعالى هو أنّنا طحنا على محلّة الظالم ابن التجيني وأحزابه، فقتلناه هو بنفسه وقتلنا خليفته وقطعنا رأسيهما معا وقتلنا جميع من كان معه بمحلته، ولم يفلت أحد منهم ما يزيد على ألف رأس، وسبينا جميع ما عندهم من خيول وإبل حتى الأخبياء جميعا، والحمد لله على هذه البشارة المباركة لقد هنيت العباد من ظلمه وفساده، وها نحن بشّرناك والسلام بأمر المعظم السيد حسن باي آمنه الله آمين"[5].

كما أسفرت ثورة التيجانيين وطريقتهم الصوفية في حدّ ذاتها ردود فعل متباينة من طرف العلماء بين مؤيِّد ومعارض لها، ولعلّ من أبرز من عارض تعاليم هذه الطريقة العالم

---

[1]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود ...ج1، "المصدر السابق"، ص: 360.

[2]: بن يوسف تلمساني، "المرجع السابق"، ص: 152.

[3]: الحاج أحمد الشريف الزهار، "المصدر السابق"، ص: 160.

[4]: الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود ...ج1، "المصدر السابق"، ص: 355.

[5]: "المصدر نفسه"، ص: 360.

محمد بن عبد الله الجيلالي – رئيس مجلس الشورى ببلاط الباي محمد الكبير– ففي نظره أنّ تعاليم تلك الطريقة وعقائدها منافية للسلفية[1]، ويتّضح ذلك في الرسالة التي بعثها إلى زميله في الدراسة بفاس أحمد التيجاني مؤسِّس الطريقة التيجانية، يحذِّره وينصحه فيها ضد الخروج عن السلفية، وذلك عندما سمع به يزعم أنّه لا يوجد من بعد الصحابة رضوان الله عليهم إلى عصره عالم مثله، فكتب يقول: "... غير أنّنا تحيّرنا في قولك من آخر عصر الصحابة إلى يوم ينفخ في الصور ما قاربني ولي من أولياء الله فيما أعطاني الله من اتّساع العلم، إلى أن قلت وذلك لا يدلّ على التفضيل .... فأوقعت الناس في أمر هائل وجدل طائل، ومعارضة في الكلام ومخالفة فيه .... لا قائل إلى الكذب لتخبرني بمرادك، ومقصودك بهذا العلم الذي فقت به جميع أولياء هذه الأمة ..."[2].

ويفهم من هذه الرسالة أنّه قد صدرت من الشيخ أحمد التيجاني مقالات أنكرها عليه بعض معاصريه من أهل العلم، حتى وصل بهم الأمر إلى التشكيك في تعاليم وعقائد الطريقة التيجانية، خصوصًا وأنّ أحمد التيجاني كان يزعم أنّه قد فُتِح له بطريقته التيجانية مالم يُفْتح لأحد قبله من عهد الصحابة. ومن هنا لا نستبعد وقوف العالم الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي إلى جانب السلطة العثمانية في محاربة ثورات المتصوفة، ومحاولته التخفيف من التأثير القوي للطرق الصوفية لكن بالنصح والحكمة والموعظة الحسنة[3].

وإذا كان الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي قد أبدى معارضته لتعاليم وعقائد الطريقة التيجانية، فإنّ عالمًا آخر من معسكر نجده يدعم الثورات الشعبية التي قادها رجال الزوايا والمرابطين ببايلك الغرب في مطلع القرن التاسع عشر، رغم أنّه كَتب مؤلَّفه هذا بعد مجيئ الاحتلال الفرنسي إنّه أبو حامد المشرفي[4]، الذي لجأ إلى المغرب سنة 1844م وهناك ألّف

---

[1]: بوجلال قدور: العلم والعلماء...، "المرجع السابق"، ص: 135 (هامش رقم 63).

[2]: ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، "المرجع السابق"، ص– ص: 186– 187.

[3]: جاكر لحسن، "المرجع السابق"، ص: 54.

[4]: أبو حامد المشرفي: هو العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي، وُلِد مع بداية سنة 1805م بقرية الكرط ضواحي مدينة معسكر، ينتسب إلى أسرة المشارف التي أنجبت العديد من العلماء، يُعتبر العربي المشرفي من كبار علماء الجزائر، عاش متنقِّلا بين معسكر ومستغانم وتلمسان ووهران لطلب العلم، إلى غاية رحلته خارج الوطن نحو المغرب الأقصى، توفي سنة 1895م، تاركًا وراءه العديد من المؤلَّفات أبرزها "الحسام المشرفي". ينظر: عبد الحق شرف: "الجزائر في عيون الرحالة الجزائريين خلال القرن التاسع عشر: الرحالة المشرفي أنموذجا"، دورية كان التاريخية، العدد: العشرون، يونيو(حزيران) 2013م– رجب 1434ه، ص: 26.

العديد من الكتب التي تطرّق فيها إلى العديد من القضايا ومنها ثورة التيجانيين، ففي رحلته الموسومة ب: "ذخيرة الأواخر والأول فيما يتضمن من أخبار الدول" والتي أتمّ تأليفها سنة 1882م يُبيّن الأسباب التي دفعت بمحمد الكبير التيجاني إلى الثورة على العثمانيين، والذي اعتبره إحدى مظاهر عدم رضا الشعب الجزائري بالحكم التركي ويستشف ذلك من قوله: "وما كان مع ابن السيد أحمد التيجاني دفين فاس المحروسة، فقد ثار عليهم ابنه السيد محمد وجاءهم في نفير من رماة الصحراء، وساعدته قبائل الحشم ومن جاورهم وأعلنوا له بالنصر"[1].

ويفهم من هذا أنّه قد نجم عن تمرّد الطريقة التيجانية عدّة نتائج منها اتّساع الهوة بين السلطة العثمانية والمتصوفة، زيادة على سقوط العديد من الضحايا قُتِلوا بأبشع الطرق بعد إقدام الباي حسن على التصفية الجسدية للكثير من العلماء وشيوخ المتصوفة أمثال الشيخ بلقندوز التيجاني والحاج محمد البوشيخي، وكلّ هذا أدّى في الأخير إلى هجرة الكثير من أتباع الفكر الطرقي إلى الخارج خاصة نحو المغرب الأقصى لإضفاء طابع الشرعية على الثورات الدينية التي قامت ضدّ الحكم العثماني، وهو ما نستشفّه من خلال ما ذكره أبو حامد المشرفي عن ثورة درقاوة التي مجَّدها حينما قال: "ففي حدود العشرين من قرننا هذا ثار عليهم درقاوة أهل النظافة في الدين والنقاوة ..."[2].

كما أنّ الخطورة التي شكّلها التيجانيون في وجه السلطة العثمانية والتي وصل صداها حتى مقرّ الخلافة[3]، جعل من الحكّام الأتراك يكّنون العداء والكراهية لتعاليم وعقائد الطريقة التيجانية التي تعرّضت للعديد من المضايقات حتى بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م، فقد عثرنا على وثيقة بأرشيف ما وراء البحار بأكس أون بروفانس بفرنسا تؤكِّد على استمرار مضايقة أتباع العثمانيين للتيجانيين، بعدما أصبحوا هؤلاء يتحكّمون في الطرق والقوافل التجارية عبر الصحراء، وهي عبارة عن رسالة من توراق الأهقار التابعين للطريقة

---

[1]: العربي المشرفي: ذخيرة الأواخر والأول فيما يتضمن من أخبار الدول، مخطوط في المكتبة الوطنية المغربية تحت رقم: 2956، الرباط، ص: 11. نقلا عن: عبد الحق شرف، "المرجع السابق"، ص: 27.

[2]: العربي المشرفي، "المصدر نفسه"، ص- ص: 04- 09. نقلا عن: عبد الحق شرف، "المرجع السابق"، ص: 27.

[3]: بن يوسف تلمساني، "المرجع السابق"، ص: 153. وللإشارة فبوصول رأس محمد الكبير التيجاني إلى الداي حسين، أمر هذا الأخير بتعليق رأسه فوق عمود وصلبه في الباب الجديد بالعاصمة، بينما قام بإرسال سيفه للسلطان العثماني محمود الثاني. لتفاصيل أكثر يرجى العودة إلى: الحاج أحمد الشريف الزهار، "المصدر السابق"، ص: 160.

التيجانية إلى الجنرال "دولاروك" الحاكم العام بقسنطينة يطلبون فيها من الحكومة الفرنسية بالضغط على حكومة إسطنبول لإعادة ما ضاع لسكان عرش "فغاس" و"مغساتن" من الإبل، بعد تعرّضهم لهجوم بغدامس من طرف عرش "الحطمان" و"أولاد بوسيف" و"الزوايد" الموالين للأتراك[1]، وهذا نصها: "إلى صاحب القدر والحكم السيد الجنرال الحاكم لقسمطينة- قسنطينة- وما يليها من الأوطان مثل تقرت والواد السلام عليك ورحمة الله وبركاته وبعد: فهانا نعرّفك بالمصيبة التي وقعت لنا بنواحي إغدامس-غدامس- وهانا نبيّن لك ما وقع لنا من ناس من قتل الرجال وأخذ الإبل ونهب البيوت وذلك كلّه في عرشنا أهل فغاس وبعض الأنفار من مغساتن، وكما يطلب منك أناس فغاس الذين أرسلونا ووكّلونا الإستجارة بك وفي الإعانة على الوقوف على ترجيع الإبل وتكلّم عليها الدولة الفرانساوية سلطان إسطنبول لأنّهم راعيته وهما عرش الحطمان والزوايد وأولاد بسيف، وحيث ما وقع لنا هذا النهب كنّا حاطّين في غدامس فهي بلاد السلطان إسطنبول ومؤمنين لأجل البلاد المذكورة حاكمها محمد الدرباس هو الباش نايب السلطان غرّنا من جهة الأمان أو هو مغرور بنفسه، نطلب من قدركم العالي تبذلوا جهودكم في ترجيع إبلنا من عند الدولة العثمانية، وتعاقب الدولة العثمانية أصحاب الغازية الذين نهبونا وإداولنا خيامنا وجميع ما فيهم من الأثاث وتركوا العيلة في الأرض مطروحين، فهانا نترجوا في الدولة الفرانساوية تقبل منا هذا الطلبة التي هي على الصواب، وتعاوننا فيها لأنّنا مستجارين بها لتكون في عوننا، إمّا بترجيع رزقنا بنفسه أو عوظه من الذين غزوا علينا، هذا ما نطلب منك وهانا أرسلنا لك داخل جوابنا هذا جريدة مبيّن فيها أسماء ناس فغاس المصابين وما يتبعهم من إيمغساتن، وعدد الإبل التي ضاعت لهم جملة، والسلام من المقدم عبد النبي بزاغلي الفغاسي وهندبول الفغاسي وبشهاو الفغاسي والطالب محمد بنيابة على أعراشنا حرّر ذلك في 12 جمادى الثاني سنة 1311هـ"[2].

---

[1]: وللعلم فلقد وجدنا وثيقة بأرشيف ما وراء البحار بأكس أون بروفانس- فرنسا- تدلّ على تقييد أسماء التوارق التابعين للطريقة التيجانية الذين ضاعت لهم إبلهم من عرش فغاس وعددهم ثلاثون بيتا، وحسب نفس الوثيقة فإنّ عدد الإبل هو800 ناقة، ضف إلى ذلك تقييد أسماء الذين ماتوا من سكان فغاس وإيمغساتن بعد مقتلهم من طرف العرش الموالي للعثمانيين. ينظر: الملحق الموجود في نهاية هذه الدراسة.

[2]: رسالة من توارق الأهقار إلى الجنرال دولاروك حاكم قسنطينة، وثيقة بأرشيف ما وراء البحار بأكس أون بروفانس بفرنسا تحت رقم: 22H28.

ويبدوا أنّ الظلم والقهر والتعاسة والبؤس اللذان عرفتهما الرعية خلال العهد العثماني، كان السبب المباشر في الانتفاضة الشعبية والتمرّد الذي قاده التيجانيون. وممّا يستلفت النظر هو استمرار زعماء الطريقة التيجانية في جوّ العداء مع العثمانيين حتى بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م، حيث يمكننا أن نستشفّ جوانب أخرى من آراء التيجانيين في العثمانيين من خلال ما ورد في جواب[1] بعث به سيدي محمد بن سيدي محمد العيد التيجاني شيخ الطريقة التيجانية بزاوية تماسين إلى الجنرال "دولاروك" حاكم قسنطينة، وممّا جاء فيه: "... المسألة الثانية نحن بلاد إسطنبول نسمع بها سمع مثل ما نسمع بالبلدان، وليس لنا معرفة بأحد منها ولا نحتاج منهم طلب القرب، لأنّه ناس الترك لهم مباينة مع العرب لا تتركّب من بعضها بعضًا مصلحة أصلاً ..."[2]، إذن من خلال مقتطفات من هذه الرسالة يتّضح لنا التأثير العميق الذي تركه نظام الحكم العثماني على التيجانيين وغيرهم.

وعمومًا فلقد كانت هذه الثورات المتعدِّدة العوامل سببًا في إضعاف القدرات الحربية للأتراك من جهة، وفي إضعاف السلطة المركزية من جهة أخرى[3]، حيث

---

[1]: وللإشارة فإنّ الجواب كان كردٍّ على الرسالة التي بعث بها الجنرال دولاروك حاكم قسنطينة بتاريخ 11 ديسمبر من سنة 1897م إلى شيخ الطريقة التيجانية بزاوية تماسين، يستفسره في شأن الرجل المسمّى محمد العبيدي الذي سافر من الجزائر إلى إسطنبول مركز الخلافة العثمانية قصد بناء زاوية للولي سيدي محمد التيجاني، حيث ادّعى أنّه مقدّم الطريقة التيجانية، وهذا يدلّ على حرص الإدارة الاستعمارية الفرنسية على مراقبة تحرّكات شيوخ الطرق الصوفية، على عكس الخطأ الكبير الذي وقعت فيه الدولة العثمانية في بداية الأمر. للمزيد عن هذا الموضوع يرجى العودة إلى: رسالة من الجنرال دولاروك حاكم قسنطينة إلى سيدي محمد سيدي محمد العيد التيجاني شيخ الطريقة التيجانية بزاوية تماسين، مؤرخة في 11 ديسمبر من سنة 1897م، وثيقة بأرشيف ما وراء البحار بأكس أون بروفانس- فرنسا- تحت رقم:

A.O.M, 16H45 : "personnages religieux 1895- 1911".

وينظر أيضا:

A.O.M, 2U1 : "L'organisation du culte musulman en Algérie : surveillance et police des Mosquées, marabouts, zawiyas et autres établissements religieux". Aix- en- Provence, p : 04.

[2]: رسالة من شيخ الطريقة التيجانية سيدي محمد بن سيدي محمد العيد التيجاني بزاوية تماسين إلى الجنرال دولاروك الحاكم الكبير بإيالة قسنطينة، مؤرخة في: 28 ديسمبر من سنة 1897م، وثيقة بأرشيف ما وراء البحار بأكس أون بروفانس، تحت رقم: 16 H51.

[3]: مسلم بن عبد القادر الوهراني، أنيس الغريب ...، "المصدر السابق"، ص: 57. ولتفاصيل أكثر ينظر: فاطمة بلهواري: "وصف الجنوب الصحراوي الجزائري في ظل الحكم العثماني من خلال مخطوط رحلة أبي العباس الهلالي السجلماسي"، المجلة الجزائرية للمخطوطات، العدد: السابع، جامعة وهران، 2010، ص- ص: 73- 74.

فشلت

في التصدّي للهجمات الأجنبية المتكرِّرة على الجزائر، وخاصة الحصار الفرنسي الذي فرض على البلد منذ سنة 1827م، وهذا ما سهّل على سقوط الجزائر فريسة سهلة بيد الفرنسيين سنة 1830م.

الخاتمة

يتّضح ممّا سبق أنّ الفترة العثمانية بطول امتدادها وتعاقب مراحلها في الجزائر قد عرفت المدّ والجزر وهذا على صعيد علاقات الحكام بالعلماء ورجال الدين، غير أنّه من الأكيد والمتيقّن منه أنّ الصبغة الأكثر شمولية لتدهور العلاقات قد تأكّد في أواخر القرن الثامن عشر ميلادي وبداية التاسع عشر منه. وليس معنى ذلك أنّه لم تكن هناك علاقات قائمة بين الحكّام من جهة والعلماء والمرابطين وشيوخ الزوايا من جهة ثانية على الأقل على المستوى الودّي، بل فعلاً كانت هناك علاقات قائمة رغم التأجّج الثّوري الذي عرفته بعض الجهات.

ولقد تبيّن لنا أنّ علاقة العلماء بالعثمانيين كانت قويّةً خلال القرن السادس عشر ميلادي لارتباط الوجود العثماني بالجزائر بالجهاد ضدّ الغزوات الصليبية الأوربية –لاسيما الإسبانية منها– على السواحل الجزائرية، حيث أدّى هذا الوضع إلى حدوث تقارب وتحالف بين الفئتين وذلك لحاجة كلّ طرف للآخر.

كما اتّضح لنا بأنّ الاعتداءات الخارجية المتكرّرة على الجزائر هي التي كانت السّبب الرئيسي والعامل المهمِّ الذي ساهم في توحيد العلاقات بين العلماء والحكّام العثمانيين، وفي التّلاحم الذي كان موجودًا بين الطرفين، ويظهر ذلك جليًّا عند فتح وهران سنة 1792م أين التحم الشعور الوطني والديني بالانتماء إلى الخلافة الإسلامية.

ولقد كشف البحث أنّ العلماء الذين وقفوا أمام الإسبان، وتصدّوا لاعتداءاتهم المتنوّعة الصّور على وهران كانوا كثرة كاثرة معظمهم احتلّ مكانة علمية شَهِد لهم بها أوّلاً معاصروهم، ثمّ شهد لهم بها الواقع ثانيًا. حيث تربَّع نَفرٌ منهم على كرسي الصدارة العلمية في العلوم التي تخصّصوا بها، وصار كثير منهم مثابةً لطلبة العلم من داخل البلاد وخارجها يقرأون عليهم وينهلون من علمهم. كما وصل جماعة منهم إلى شغل وظائف رفيعة في المجتمع والدولة –كالإفتاء والقضاء– لا يصل إليها إلاّ من كان علمه يؤهّله إلى شغلها، ثمّ إنّ فريقًا منهم كتبوا مؤلَّفات دلَّ ما بقي منها أو ما ورد في وصفها أنّ مُصنِّفيها بلغوا في العلم درجة عالية.

كذلك اتّضح أنّ لهم منزلة سامية في مجتمعهم الذي عاشوا فيه، فقد كانت كلمتهم مسموعة ورأيهم نافذ وأوامرهم مطاعة عند الرعيّة في بايلك الغرب. كما إعتاد النّاس في كثير من الأوقات على اللّجوء إليهم إذا حزبهم أمر، أو حلّت بهم مشكلة أو أدركتهم مظلمة.

ولقد استبان أنّ هؤلاء العلماء أفادوا السكان من الناحية العلمية، فعن طريق امتلاكهم لقنوات التأثير على المجتمع كالتّدريس والخطابة والتّأليف وغيره، نشروا العلوم والمعارف الأساسية التي لا يمكن الاستغناء عن معرفتها والإلمام بها، وخرّجوا أعدادًا متعاقبة من طلبة العلم الذين صار عديد منهم من كبار العلماء، وتهيّأ لنفر منهم نشر مصنَّفات كثيرة في فنون مختلفة. كما وُفِّق آخرون في إثراء علوم تخصّصوا فيها، فصار لبعضهم آراء واجتهادات يركن إليها معاصروهم ومن جاء بعدهم.

كما لعب العلماء دورًا كبيرًا في تحريض الحكّام العثمانيين والمجتمع على الجهاد لصدّ الغزو الصليبي لبلادهم، حيث أنّ الدراسة كشفت بجلاء ما كان لهم من جهود متعدِّدة الأشكال متلوِّنة الصّور في ميدان الصراع ضدّ النصارى الإسبان. فتبيَّن لنا أنّهم تبنُّوا أساليب ومناشط مختلفة لدعوة الرعيّة والحكّام إلى مناهضة العدوّ ومواجهة عدوانه، فأصدروا الفتاوى الشّرعية الموضّحة لفرضية الجهاد بوهران –أرض جهاد وموطن رباط–، واتّجهوا إلى تصنيف كتب تتعلّق بالجهاد في الإسلام وما يرتبط به من أحكام. وقد لاحظنا أنّ بعضهم – لاسيما ابن زرفة الدحاوي– توقّفوا عند بعض الآيات والأحاديث والألفاظ الخاصّة بالجهاد في مؤلَّفاتهم فاهتمّوا ببيانها وشرح دلالتها، واستنبطوا منها معانيّ وأحكامًا ربطوها بواقعهم لتبصّر النّاس والحكّام بأهميّة إعداد القوة لمجاهدة الأعداء، والتّصدي لانتهاكاتهم وغاراتهم وعدوانهم. كما استغلّوا سقوط بعض المدن الأندلسية بأيدي الإسبان في تحريك همم النّاس والحكّام للجهاد، وذلك بإنشائهم الكتب والقصائد التي تصف ما وقع لها ولسكّانها على أيدي النصارى الإسبان من محن وفظائع، وهو ما حدث مع أبو راس الناصر في مؤلَّفه "الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية"، وكتابه الآخر "الخبر المعرب عن الأمر المغرب الحال بالأندلس وثغور المغرب".

كذلك رأينا أنّ من الأساليب التي استخدمها العلماء لدفع الحكّام نحو مقاومة الأعداء والنهوض لجهادهم الكتابة عن فضل وهران، وخصائص سكناها باعتبارها من الثغور الإسلامية. مع إبراز ماضي الأمّة المجيد الذي ارتفع فيه علم الجهاد في سبيل الله، وبخاصّة

في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضي الله عنهم، ثمّ الإشادة بالقادة الأوائل الذين فتحوا هذه الثغور الإسلامية.

ومن الجوانب المهمّة التي كشفتها الدراسة ما أَبْداه علماء ذلك العصر من سعي متواصل لإبقاء إيالة الجزائر متلاحمة الأجزاء، متّحدة الكلمة في وجه الاعتداءات الصليبية الأوربية –لاسيما الإسبانية منها–. فهم مثلما تبنّوا دعوة الحكّام العثمانيين لاستنقاذ وهران من براثن النصارى الإسبان، فقد رأيناهم يتابعون تأييدهم للحكّام العثمانيين لإتمام توحيد البلاد بأجمعها تحت رايتهم، فيقفون في صفِّهم ضدّ بعض القبائل التي تعاملت مع الإسبان وأظهرت الطاعة لهم كفعل كريشتل، شافع، حميان، غمرة، قيزة، أولاد عبد الله، أولاد علي، والونازرة، ولا نحسب كلّ من العالم عبد القادر المشرفي، أبو راس الناصر المعسكري، وابن زرفة الدحاوي إلاّ من هذا الصِّنف من العلماء.

ولقد أزاح البحث السِّتار عن إسهامات متشعّبة لعلماء المنطقة الغربية في الميدان الحربي ضدّ الإسبان في ذلك العصر، فبان لنا بجلاء أنّ جهاد الإسبان كان على رأس اهتماماتهم، فكانوا يتابعون فصوله أوّلاً بأوّل. وكانت لهم فيه فتاوى وأقوال، وكان بعضهم يرصد ما شهده أو سمعه من اعتداءات إسبانية ثمّ يبادر بتبليغ ذلك إلى القادة أو الحكّام العثمانيين ليقوموا بمسؤوليتهم تجاهها. وبحكم مشاركتهم المباشرة في المعارك ومتابعتهم لتطوراتها كان لبعضهم حولها تحليلات دقيقة وآراء جيّدة وتوقّعات صائبة، ثم أنّ عددًا منهم –لاسيما كلّ من محمد بن رقية التلمساني والحلفاوي وأبو راس الناصر– صار يتحدّث عن الأمور الحربية حديث من خبرها ومارسها وعرف جيّد آلاتها من رديئها. ثمّ لاحظنا بعضهم قد ذهب به الاهتمام بجهاد الإسبان إلى الاحتفاء بعناصر أساسية في سير العمليات القتالية وخصوصًا ابن سحنون الراشدي الذي حثَّ على العناية بالخيل وأشاد بفوائدها في الجهاد وخصَّص لذلك جانباً في مؤلَّفه "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني".

ولقد كشفت الدراسة عن مدى عُمْق العلاقة والاحترام المتبادَل بين الباي محمد الكبير وبين العلماء، وأثر ذلك في تحصيل الثّمرة الطيِّبة التي اشتهر بها الباي وهي فتح وهران، ابتداءً من دَوْر العلماء في تحفيز الباي على القيام بالمحاولة، ومرورًا بعمليات الاستعداد والإعداد المعنويِّ والماديِّ للمعركة، وانتهاءً بدور العلماء المميَّز في مسار عمليات الفتح الميدانية.

كما اتّضح لنا جهود الباي محمد الكبير المميَّزة في دفع حركة العلم والتعليم في إيالة الجزائر عامّة وفي بايلك الغرب خاصّة، تلك الجهود التي كانت تُمثِّل حلقة مهمَّة في مسار الارتباط والاحترام المتبادل بين الباي محمد الكبير فاتح وهران وبين العلم والعلماء، تلك الرابطة وتلك الجهود التي ظلَّت سمةً تُميِّز حياة الباي بقيَّة حياته إلى وفاته رحمه الله.

وبعد ذلك ثبت لنا أنّ العلماء حرصوا على دعم وحدة بلادهم في ظلّ حكم العثمانيين، فرأيناهم يستمسكون بحبلهم ويسيرون في ركابهم، فارتبط كثير منهم بجهازهم الإداري من خلال تولّيهم للوظائف الرسمية وخاصة الشّرعية منها. كما تقرَّبوا من البايات وأخذوا يَبثُّون الدّعاية الحسنة للعثمانيين في أواسط المجتمع لإضفاء طابع الشّرعية على حكمهم من خلال مؤلَّفات وكتابات تُمجِّد الأتراك العثمانيين، وتُعدِّد انتصاراتهم وإنجازاتهم لاسيما الجهادية منها.

ثمّ عرفنا أنّ للعلماء جهودهم الفعَّالة في الحفاظ على الوحدة متماسكة تحت حكم العثمانيين، فكانوا يتعهدونها ويقفون بالقول والفعل لكلّ عمل يكدر صفوها ويعكّر انسجامها، فرأينا كيف وقف أبو راس الناصر موقفًا صارمًا من ثورة درقاوة التي سمَّاها "فتنة" واعتبرها وبالاً على البلاد والعباد.

ولقد أظهرت الدراسة أنّ انشغال الحكَّام طوال الفترة العثمانية بالدِّفاع عن حدود الجزائر الشرقية والغربية واهتمامهم بالجانب العسكري، كان السّبب الرئيسي في إهمالهم للجوانب الحضارية لاسيما الثقافية العلمية منها التي لم تَحْظ بعنايتهم. ولهذا لا غرابة في عدم تَلقِّي علماء الجزائر العناية الكافية من رجال السلطة العثمانية، الأمر الذي جعل أهل العلم يهجرون الجزائر، ومَنْ بقي منهم لم يَجد مَنْ يُقدِّر علمه، وهذا ما أدّى إلى انكماش بعض زوايا العلم واتّساع دائرة الخرافة. وبالرّغم من ذلك فقد كانت إيالة الجزائر خلال هذه الفترة لا تَعرف الأُميّة بشهادة بعض الأجانب، وعشيّة الاحتلال الفرنسي وُجِدت هياكل ومؤسسات دينية إسلامية تتألّف من شيخ الإسلام والعلماء والقضاة والمفتيين، والأئمّة والمدرّسين وشيوخ الزوايا.

لقد تناولت هذه الدراسة موضوع العلاقة بين العلماء والسلطة العثمانية في فترة الدايات (1671–1830م)، وهي مرحلة جدّ حرجة شابها الحروب والفتن والقلاقل والاضطرابات المتلاحقة، كان لها تأثير كبير في نفسية العلماء والمرابطين وشيوخ الزوايا والطرق، وفي

تفكيرهم بل وحتّى في رسم تصوّرهم للحياة، وفي المسار الذي ينبغي أن يسلكوه في تطوّرات خطيرة كهذه.

وفي ظلّ هذه الظروف كان العلماء بين ثلاث فئات، فئة منهم بحثَتْ عن سلامة نفسها حيث كانت غايتها أن تتجنَّب كلّ ما يمكن أن يؤدّي بها إلى الإصابة بشيء من تلك الفتن التي لاحت في عصرها ووقفت على الحياد، وابتعدت عن السياسة وركّزت كلّ اهتمامها على التّأليف والتّدريس. وفئة ثانية من العلماء صاحبة عزيمة وضمير متوقّد أحزنها ما عانته الإيالة ووهران على سبيل الخصوص، فعملت جاهدة إلى إصلاح ما استطاعت عليه سبيلاً وبما أُتيح لها من فرص، حيث تمكّنت هاته الفئة في ظلّ تلك الظروف من التقرّب من الحكّام والبايات غير مبالية بآثار تلك الفتن والاضطرابات، مُتوليةً للوظائف الرسمية وخاصة الشّرعية منها. كما وُجدت فئة ثالثة من العلماء أعلنت معارضتها الصريحة لهم، كالشاعر سعيد المنداسي الذي هجاهم لما هاجر إلى المغرب.

وبعد ذلك ثبت لنا أنّ العثمانيون حاولوا منذ وصولهم إلى الجزائر التقرّب من العلماء والمرابطين بكلّ الوسائل لمكانتهم العلمية ونفوذهم الرّوحي بين الأوساط الشعبية، حيث عرفت السلطة كيف تكسب تأييدهم، وتكلّفهم بإدارة شؤون الرعيّة مع بقاءها بعيدة عن السكان ما دام الشيوخ والمرابطون يجمعون الجباية والغرامات من السكّان لصالح الخزينة المركزية مقابل مجموعة من الإعفاءات والامتيازات.

إنّ أهمّ ما خلصنا إليه من هذا البحث، هو أنّ السلطة العثمانية بالجزائر قد لجأت إلى وسيلة من أهمّ الوسائل في جلب ولاء العلماء والمرابطين وهي تعيينهم في الوظائف الدينية العليا كالقضاء والإفتاء وتوريثهم لها. فعائلة الكتروسي تولّت وظائف الإفتاء والإمامة بمازونة لفترة طويلة من الزمن، وكذا الحال لعائلة المشارف التي تولّى بعض أفرادها المناصب الشرعية وبقوا على ذلك الحال حتى في عهد الأمير عبد القادر، ويأتي على رأسها العالم عبد القادر المشرفي وابنه الطاهر المشرفي الذي تولّى منصب القضاء على عهد العثمانيين.

كما لاحظنا أنّ كثيرًا من العلماء تقرّبوا من السلطة والحكّام طمعًا في عطاياهم، وسَعيًا وراء المناصب –التي كانت محصورة في المهام الدينية والتعليمية حدّدتها السلطة–،

والحصول على المال والتقوّي على أحد المنافسين، واتّخذ هذا التقرّب من العثمانيين ومن رجال السياسة مظهر المدح المفرط والمبالغ فيه.

ثم شرحت الدراسة بشكل ثابت موثوق، وبصورة حيّة مباشرة عن مدى مساهمة مواقف التّأييد هذه في الحفاظ على وحدة إيالة الجزائر التي عرفت مرحلة طويلة من الاستقرار السياسي والهدوء، وفي تدعيم فكرة التّحالف والتّقارب بين العلماء والمرابطين والحكّام العثمانيين من جهة، وفي تَقبُّل السكان للعثمانيين واحترامهم وطاعتهم، ومؤازرتهم في سياستهم ومشاريعهم التوسّعية والجهادية من جهة أخرى.

لكن سرعان ما زال ذلك التّحالف بعد تحرير وهران الثاني سنة 1792م، حيث أصبح العلماء ورجال الطرق الصوفية إلى محرِّضين على السلطة العثمانية بعد أن كانوا في فترة قد مضت من المدافعين عنها والمؤيّدين لها. كما يمكننا القول أنّ سياسة العثمانيين التعسّفية هي التي كانت سببًا في اتّساع الهوة بين الطرفين –السلطة والعلماء–، وممّا زاد في اتّساعها أيضًا فقر الجزائريين وشعورهم بالإحباط والضعف بعد غلاء الأسعار وزيادة المطالب الضريبية، وهو الأمر الذي أدّى بهم إلى محاولة تغيير الوضع عن طريق التمرّد والقيام بالثّورة ضدّ السلطة الحاكمة، والتي تزعّمها رجال الصوفية على وجه الخصوص لما لهم من مكانة وكلمة مسموعة في أوساط المجتمع.

ونظرًا للخدمات الجليلة التي قدَّمها أهل التصوف للمجتمع الجزائري أصبحت العامّة تعتمد اعتمادًا كليًّا عليهم لمواجهة الأزمات الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تحلّ بها من حين لآخر، وهذا نظرا لعجز الدولة أو السلطة عن التكفُّل بحلِّ مشاكل النّاس. ومع مرور الزّمن ترسّخت قناعة لدى العامّة أنّ الصوفية هُمْ أقدر النّاس على حلِّ المشاكل وتقديم المساعدات للطبقات المحرومة، فأصبحت المرجع الأوّل والأخير للجماهير.

وفضلاً عمّا كانت تقوم به الزاوية من وظائف متعدّدة كالتعليم والتربية والإرشاد، والإطعام والإيواء لعابري السبيل والفقراء والإصلاح بين الناس، فإنّها كانت كذلك مركزا لتجنيد الأتباع وإثارة الحماس وتنظيم الجهاد. وهذا ما كان له الأثر في توليد الحقد وردّ الفعل، وفي تغذية الرّوح الجهادية لدى أتباع الطرق الصوفية في الغرب الجزائري ضدّ العثمانيين. فالزوايا قد تعاظم دورها كثيرا مع أواخر العهد العثماني عندما تراجع دور

السلطة المركزية حتى صارت أوكارًا للثورة، ومكانًا لتبنِّي أفكار سياسية مُعادية لنظام الحكم العثماني، وتنادي برفع المظالم المسلَّطة على سكّان الرّيف.

ومن جانب آخر نتج عن انتشار ظاهرة التصوف وتوسُّع تيّار المتصوفة في بايلك الغرب، لجوء العثمانيين إلى ممارسة سياسة القمع ضدّهم تعتمد على المراقبة والسجن والقتل، فرجال السلطة لجأوا إلى قتل الكثير من العلماء والفقهاء وشيوخ الصوفية تخوّفًا من الاستمرار في استقطاب المزيد من الأتباع. وفي أيام الباي حسن آخر بايات وهران ازداد القمع ضدّهم، ولا سيما بعد اندلاع ثورة درقاوة والثورة التيجانية.

وعمومًا فلقد كانت هذه الثورات المتعدّدة العوامل سببًا في إضعاف القدرات الحربية للعثمانيين من جهة، وفي إضعاف السلطة المركزية من جهة أخرى، حيث فشلت في التّصدي للهجمات الأجنبية المتكرّرة على الجزائر وخاصة الحصار الفرنسي الذي فرض على البلد منذ سنة 1827م، وهذا ما سهّل على سقوط الجزائر فريسة سهلة بيد الفرنسيين سنة 1830م.

وفي الأخير إنّ هذه النتائج التي خرجنا بها لا تعدو سوى أن تكون مجرّد آراء واستنتاجات قابلة للمناقشة والتعديل، كما يمكن من خلالها اتّخاذ مواضيع عديدة للدراسة في أوجه مختلفة، ونرجو أن نكون قد وُفِّقنا في تحقيق ولو جزء بسيط من الأهداف المرجوّة والإجابة على الإشكاليات المطروحة.

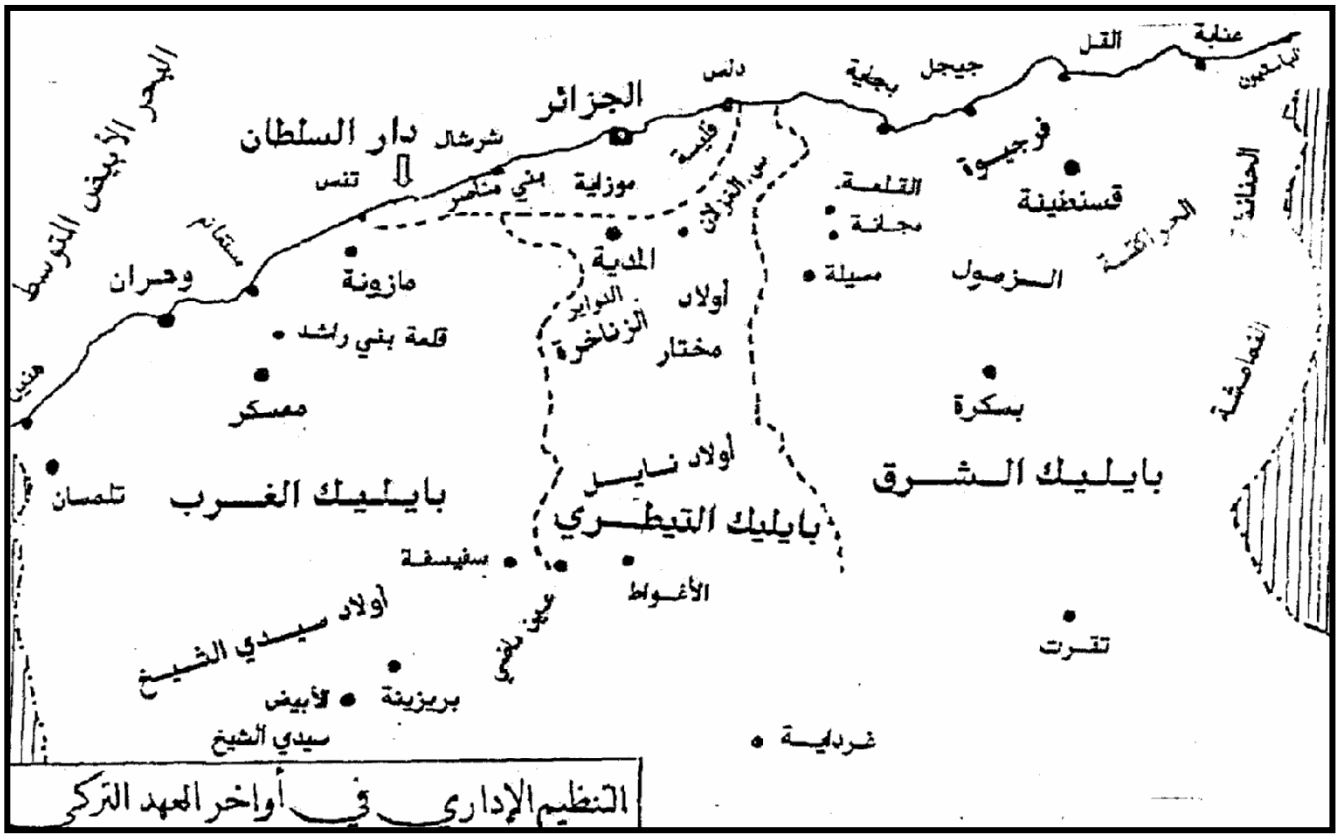
الملاحق:

أولا: الخرائط.

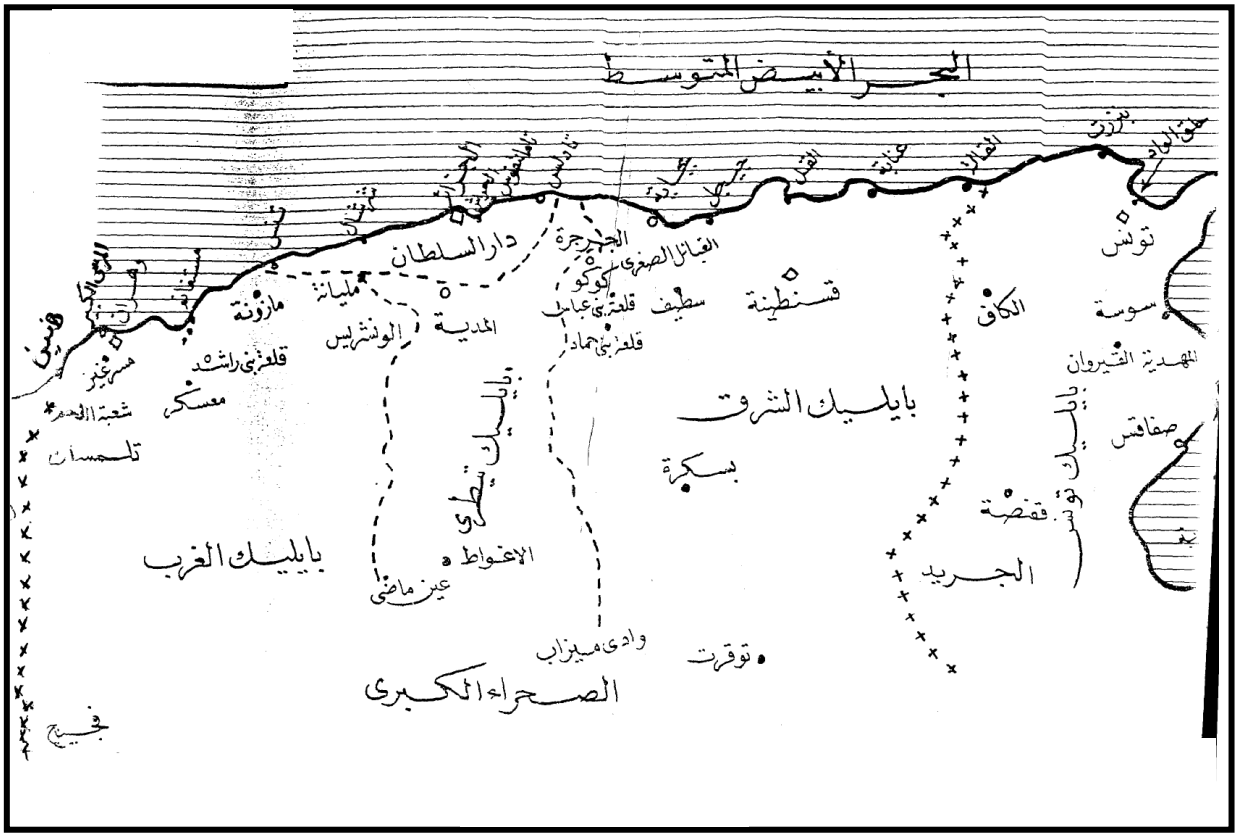
ثانيا: الوثائق والمخطوطات.

ثالثا: الصور الفوتوغرافية.

الخرائط

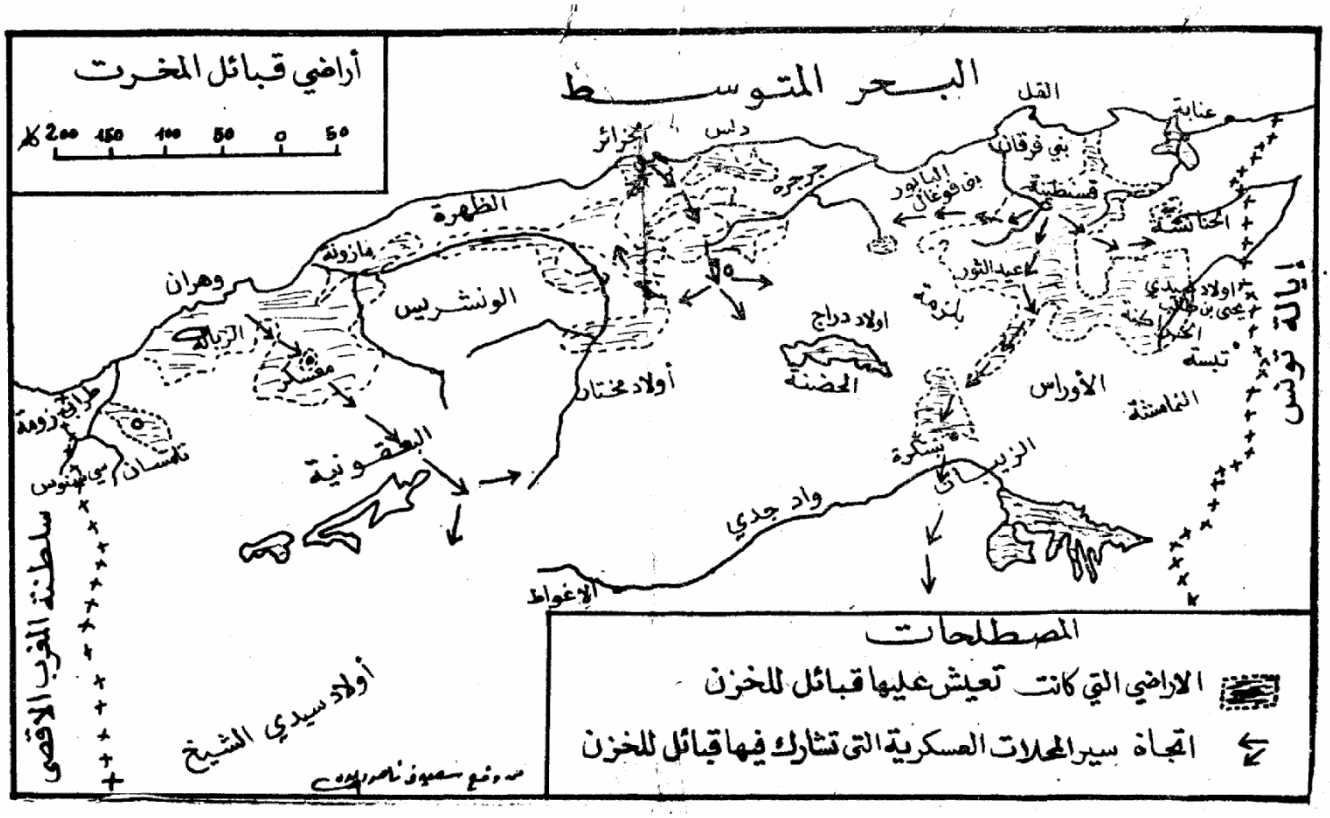


ملحق رقم 01: خريطة توضح التنظيم الإداري بالجزائر مع أواخر العهد العثماني عن: صالح عباد: الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830.



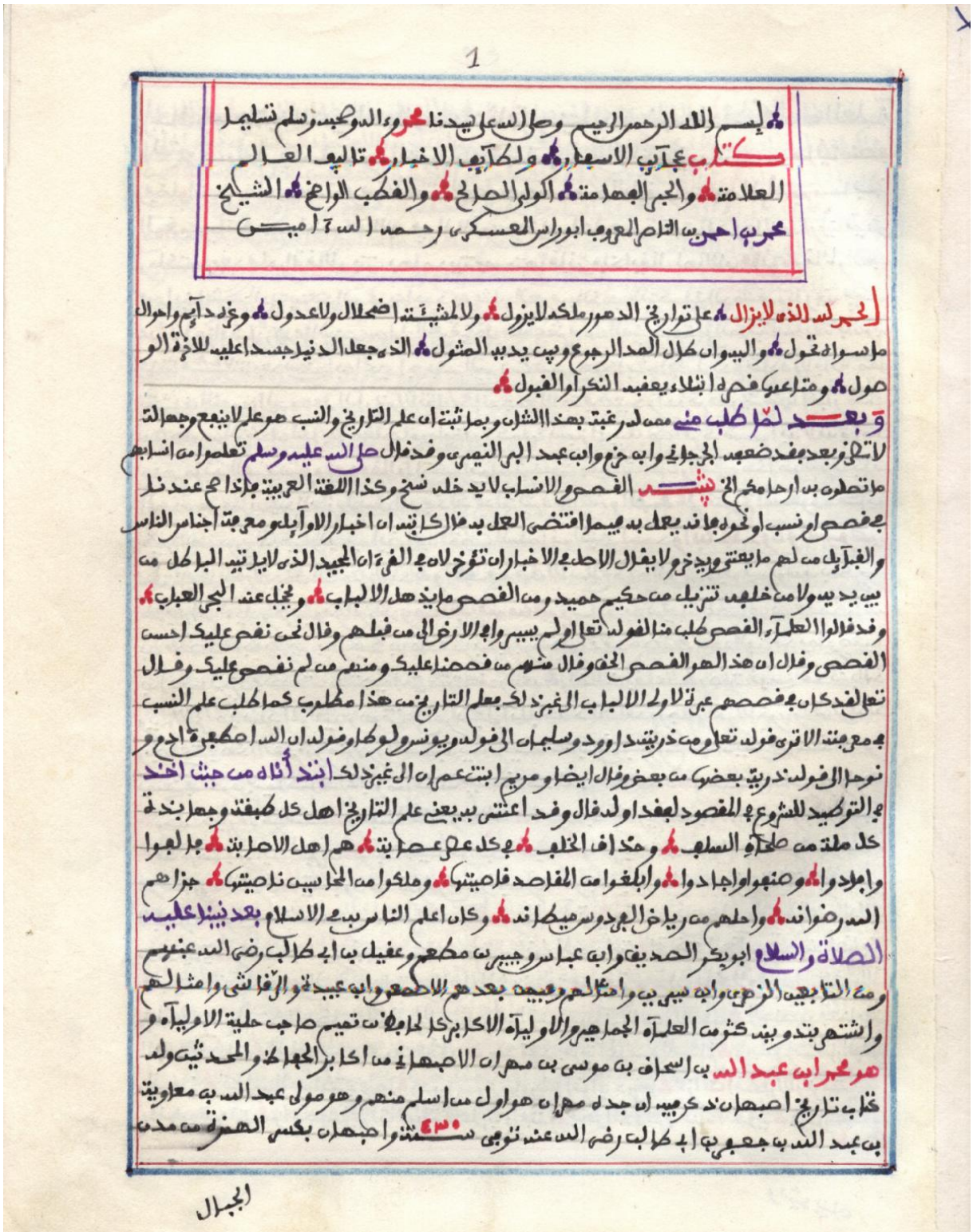
ملحق رقم 02: خريطة الجزائر العثمانية عن أحمد توفيق المدني:

حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492–1792.



ملحق رقم 03: خريطة توضح توزيع أراضي قبائل المخزن بالجزائر العثمانية عن ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر: العهد العثماني.

الوثائق والمخطوطات



1

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

كتاب عجائب الأسفار ولطائف الأخبار تأليف العالم

العلامة والحبر الفهامة الولي الصالح والقطب الراسخ الشيخ

محمد بن أحمد بن القاسم المعروف بأبوراس العسكري رحمه الله آمين

الحمد لله الذي لا يزال على توالي الدهور ملكه لا يزول ولا لمشيئته اضمحلال ولا عدول الذي خلق آدم وأحوال

ما سواه تحول والبيوان كمال المعاد الرجوع وبيده يديب الشؤول الذي جعل الدنيا جسدا عليه للآخرة الوصول

ومتاعها فخرا ابتلاء يعقبه النكرا والفيول

وبعد لما كان من

ممن لم يرغب بهذا الشان وبما ثبت أن علم التاريخ والنسب هو علم لا ينبغي وجهالته

لا تسعى وبعد فقد ضعف الجواني وابن حزم وابن عبد البر النيسري وقد قال صلى الله عليه وسلم تعلموا من أنسابكم

ما تصلون به أرحامكم الخ يشد الفصحى والانساب لا يدخلها نسخ وكذا اللغة العربية فإذا جمع عندنا

بين فصحى ونسب أو نحوه فإنه يعلم به فيما اقتضى العمل به فقال كما تبين أن أخبار الأوائل مع معرفة أجناس الناس

والقبائل مما لهم ما يعتنى ويدخر ولا يقال الأحقاب الأخبار أن تؤخر لأن في القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من

بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ومن الفصحى ما يذهل الألباب ويجل عنه البحر العباب

وقد قالوا العلماء الفصحى كلب من القول تعالوا نسير وا إلا الأرض التي من قبلهم وقال نحن نقص عليك أحسن

القصص وقال إن هذا لهو القصص الحق وقال منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وقال

تعالى لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب إلى غير ذلك بعلم التاريخ من هذا مطلوب كما كلب علم النسب

بل مع بعض الأقوى قول تعالى ومن ذريته داود وسليمان إلى قوله ويونس ولوطا وقوله إن الله اصطفى آدم ونوحا إلى قوله ذرية بعضها من بعض وقال أيضا ومريم ابنت عمران إلى غير ذلك أبتدأ أناه من حيث أخذ

في التوحيد للشروع والمقصود بعضه أول وقال وقد اعتنى به بعض علم التاريخ أهل كل طبقة وجهابذة

كل ملة من علماء السلف وحذاق الخلف في كل عصر بذة هم أهل الأصابة جالوا

وإجادوا وصنفوا وأجادوا وأبلغوا من المقاصد فاضيتها وملكوا من المحاسن ناصيتها جزاهم

الله رضوانه وأجلهم من رياض الجود سريعا نه وكان أعلم الناس به بعد نبينا عليه

الصلاة والسلام أبو بكر الصديق وابن عباس وجبير بن مطعم وعقيل بن أبي طالب رضي الله عنهم

ومن التابعين الزهري وابن سيرين وأمثالهم وفيه بعدهم الأصمعي وابن عبيدة والفراشي وأمثالهم

واشتهر بتدوينه كثير من العلماء الجماهير والأولياء الأكابر كما لحاوي من تميم صاحب حلية الأولياء و

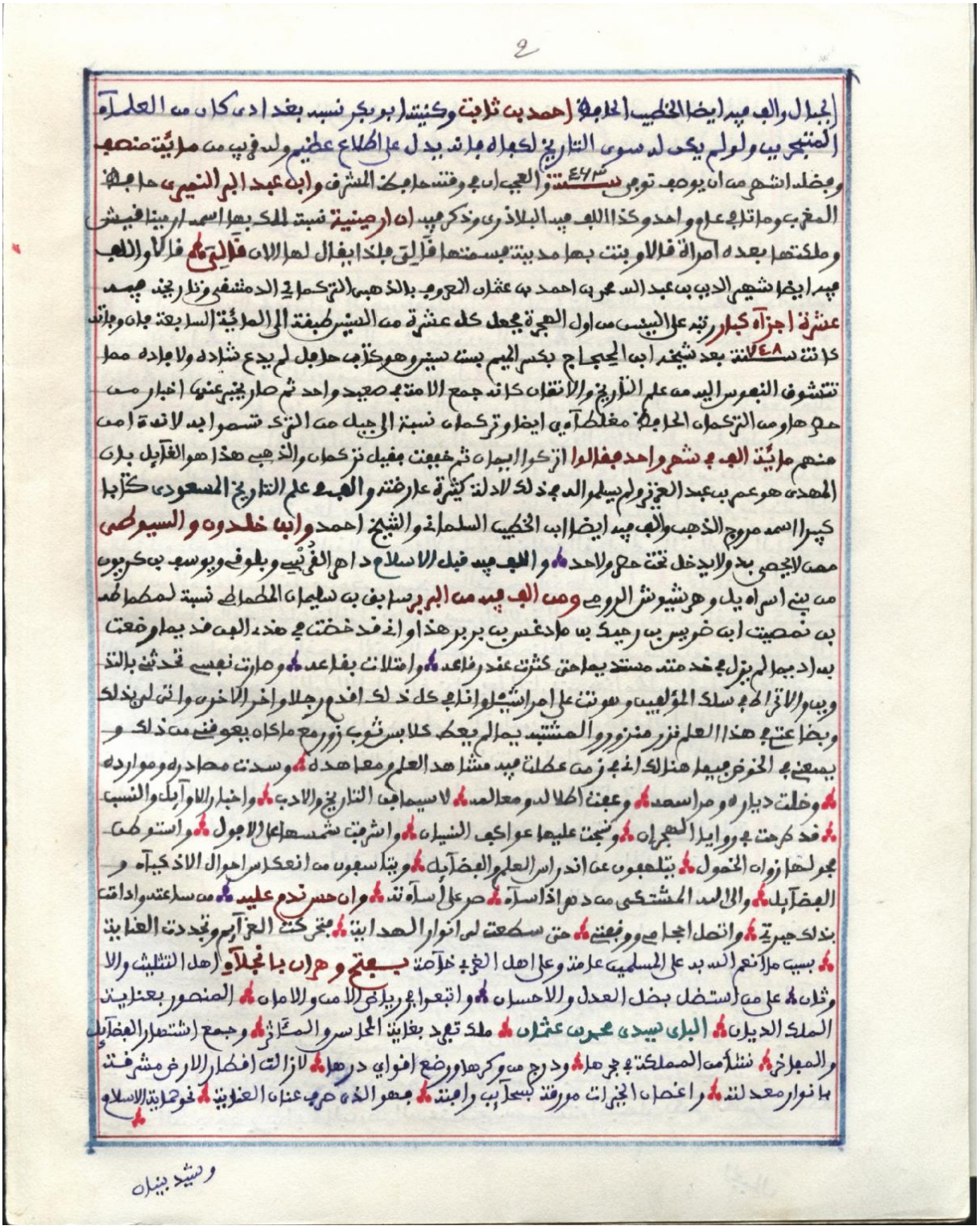
هو محمد بن عبد الله بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني من أكابر الحفاظ والمحدثين وله

كتاب تاريخ أصبهان ذكر فيه أن جده مهران هو أول من أسلم منهم وهو مولى عبد الله بن معاوية

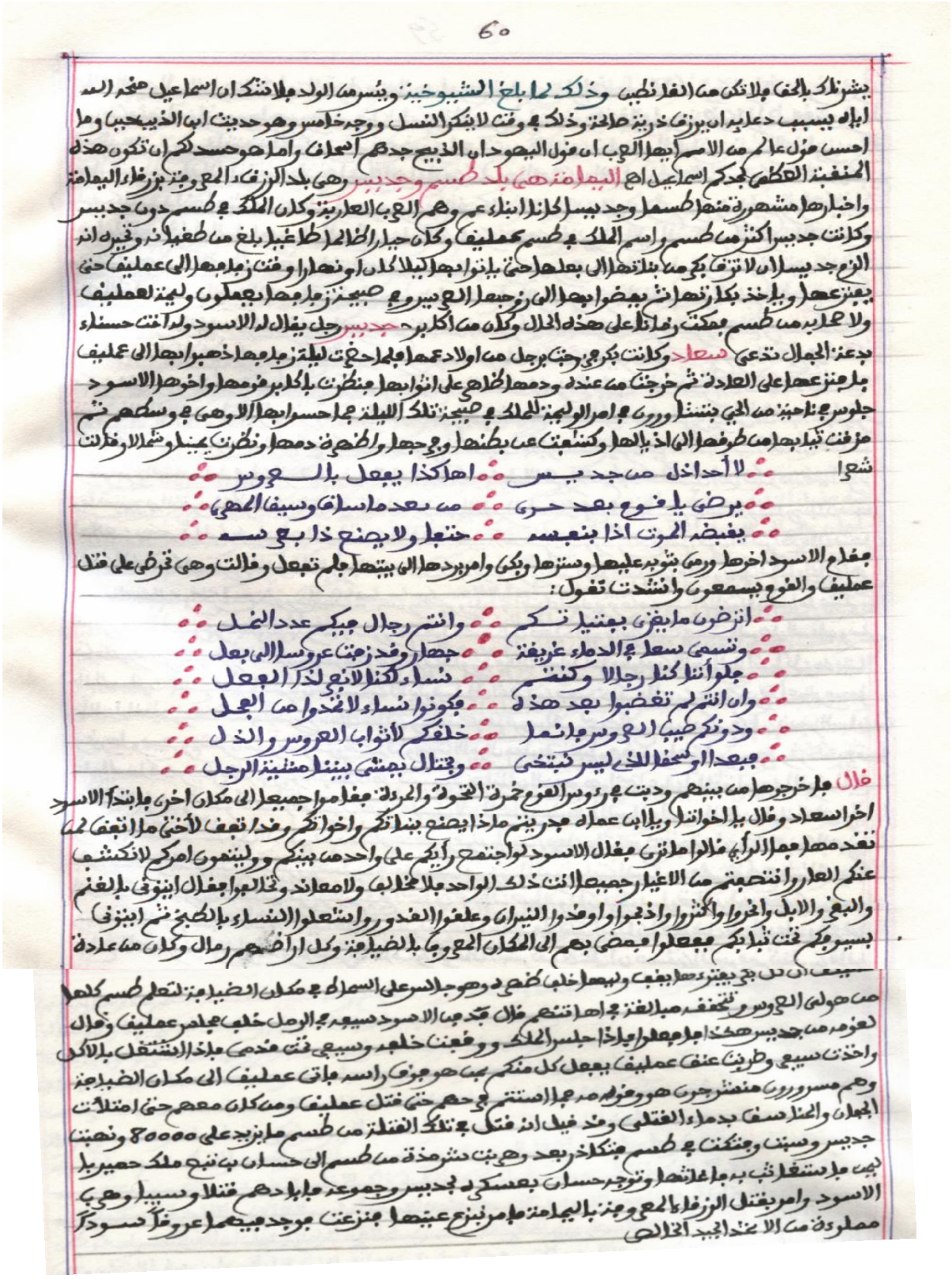
بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه توفي سنة ٤٣٠ وأصبهان بكسر الهمزة من مدن

الجبال

ملحق رقم 01: صورة لوجه الورقة الأولى من مخطوط عجائب الأسفار ولطائف الأخبار لصاحبه أبوراس الناصر (نسخة خزانة الشيخ محمودي البشير، البرج–معسكر).



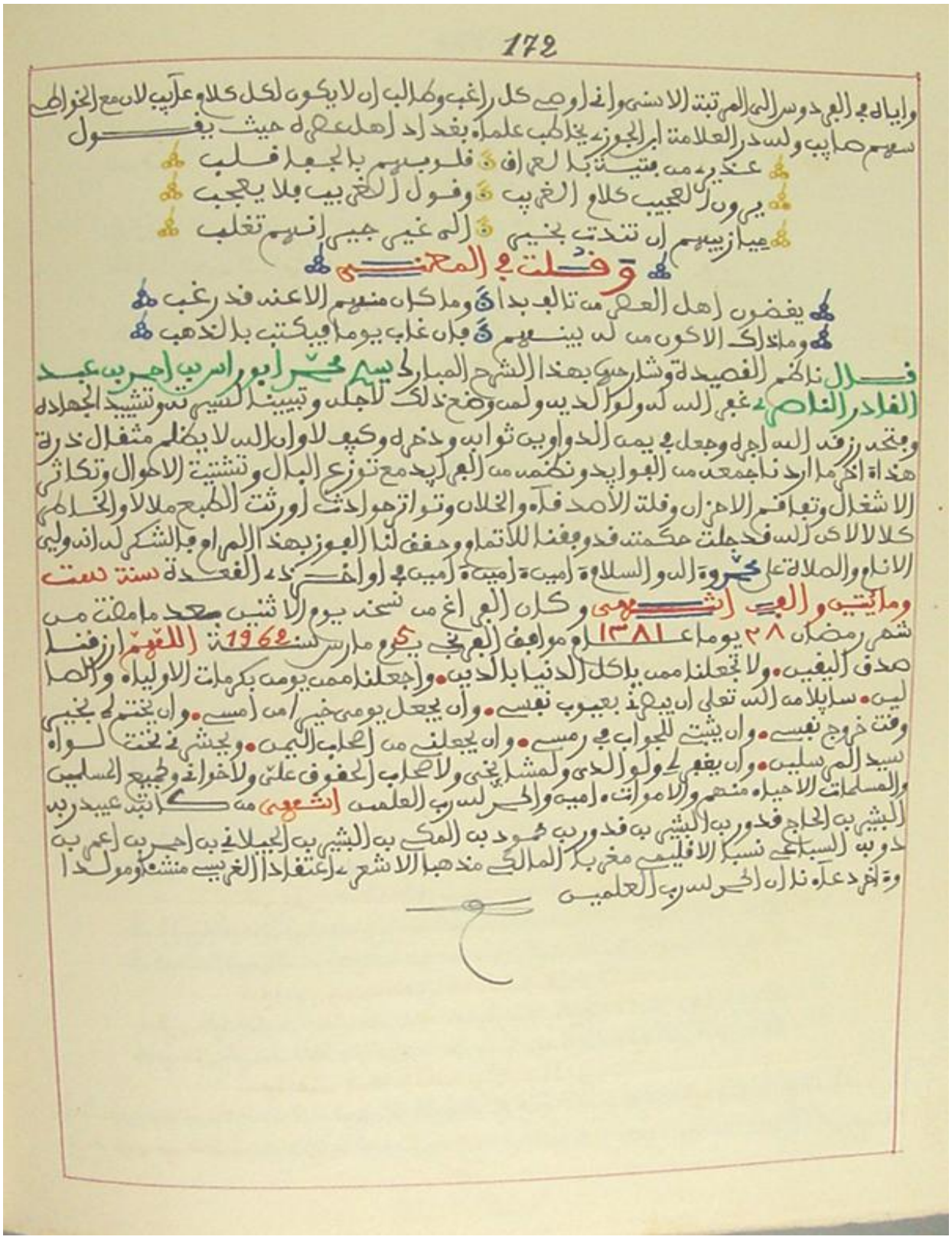
ملحق رقم 02: صورة لظهر الورقة الأولى من مخطوط عجائب الأسفار ولطائف الأخبار لصاحبه أبوراس الناصر (نسخة خزانة الشيخ محمودي البشير، البرج–معسكر).



ملحق رقم 03: صورة لآخر ورقة من مخطوط عجائب الأسفار ولطائف الأخبار لصاحبه أبوراس الناصر (نسخة خزانة الشيخ محمودي البشير، البرج–معسكر).



ملحق رقم 04: صورة لوجه الورقة الأولى من مخطوط عجائب الأسفار ولطائف الأخبار لصاحبه أبوراس الناصر (نسخة المكتبة الوطنية الجزائرية، الحامة) تحت رقم: 3327.



172

وإياك في الفي دوس إلى المرتبة الأسنى وإنك أوصي كل راغب وطالب أن لا يكون لكل كلام عاتب لأن مع الخواطر
سهام صائب ولسيدي العلامة ابن الجوزي يخاطب علماء بغداد أهل عصره حيث يقول

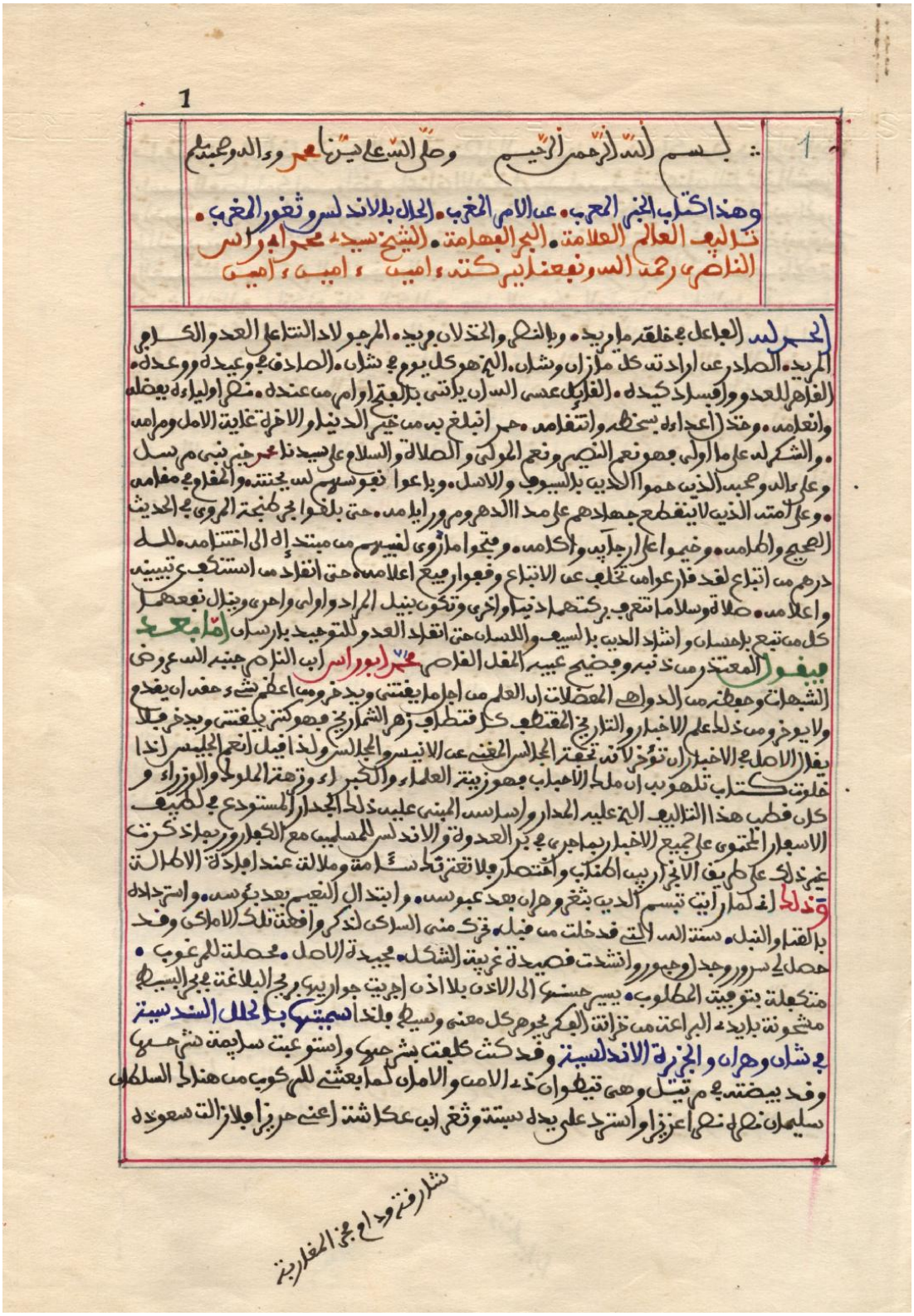
عذيري من فتية بالعراق ... قلوبهم بالجفا قلب
يرون العجيب كلام الغريب ... وقول الخطيب بلا يعجب
فيا ربنا إن تتدت بغيي ... إلهي غيي جبي إنهم تغلب

وقفة في المعنى

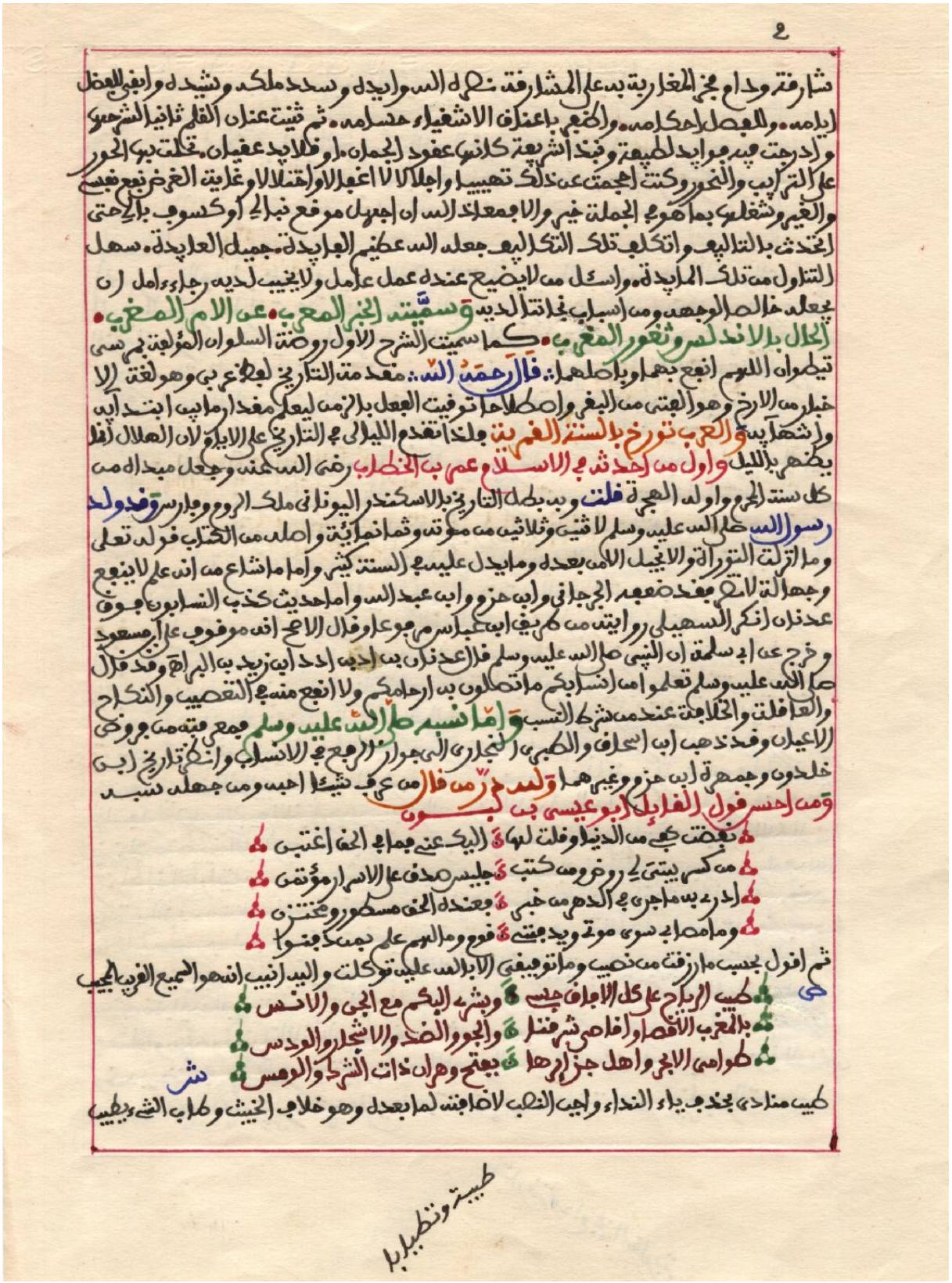
يغضون أهل العصر من تالف بداة ... وما كان منهم لا عنه فد رغب
وما ذاك لا كون من له بينهم ... فإن غاب يوما فيكتب بالذهب

قال ناظم القصيدة وشارحها بهذا الشرح المبارك السيد محمد أبو راس بن أحمد بن عبد القادر الناصر: غفر الله له ولوالديه ولمن وضع ذلك لأجله وتبينا لشيء تشييد الجهاد ومتحد رزقه الله أجره وجعل في يمينه الدواوين ثوابه وذخره وكيف لا وإن الله لا يظلم مثقال ذرة هذا إن ما أردنا جمعه من الفوائد ونظمه من الفرائد مع توزع البال وتشتيت الأحوال وتكاثر الاشغال وتفاقم الأهوال إن وقلة الأمداد والخلان وتواتر حوادث أورثت الطبع ملالا والخاطر كلالا لا لأن لله فضل علت عكمته فدوقفنا للاتمام وخفف لنا العبوز بهذا المرام فالشكر لله ولي الانام والصلاة على محمد وآله والسلام آمين آمين آمين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين سنة ست وماءتين وألف هجرية وكان الفراغ من نسخه يوم الاثنين بعد ما مضت من شهر رمضان ٢٨ يوما عام ١٣٨١ موافق الفرنجي يوم مارس سنة 1962 اللهم ارزقنا صدق اليقين. ولا تجعلنا ممن يأكل الدنيا بالدين. واجعلنا ممن يرمق بكرامات الأولياء والأصالين. سائلا من الله تعالى أن يتوفنا بحبوب نفسه. وأن يجعل يومي خيرا من أمسه. وأن يختم لي بخير وقت خروج نفسه. وأن يثبت الجواب في رمسه. وأن يجعلني من أصحاب اليمين. ويحشرني تحت لواء سيد المرسلين. وأن يغفر لي ولوالدي ولمشايخي ولأصحاب الحقوق علي ولإخواني ولجميع المسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات. آمين والحمد لله رب العالمين الشعوي منه كاتبه عبيد ربه البشير بن الحاج قدور بن البشير بن قدور بن محمد بن المكي بن البشير بن الجيلاني بن أحمد بن أعمر بن داود بن السباعي نسبا الأفليسي مغربا المالكي مذهبا الأشعري اعتقادا الغريسي منشأ ومولدا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

ملحق رقم 05: صورة لآخر ورقة من مخطوط عجائب الأسفار ولطائف الأخبار لصاحبه أبوراس الناصر (نسخة المكتبة الوطنية الجزائرية، الحامة) تحت رقم: 3327.



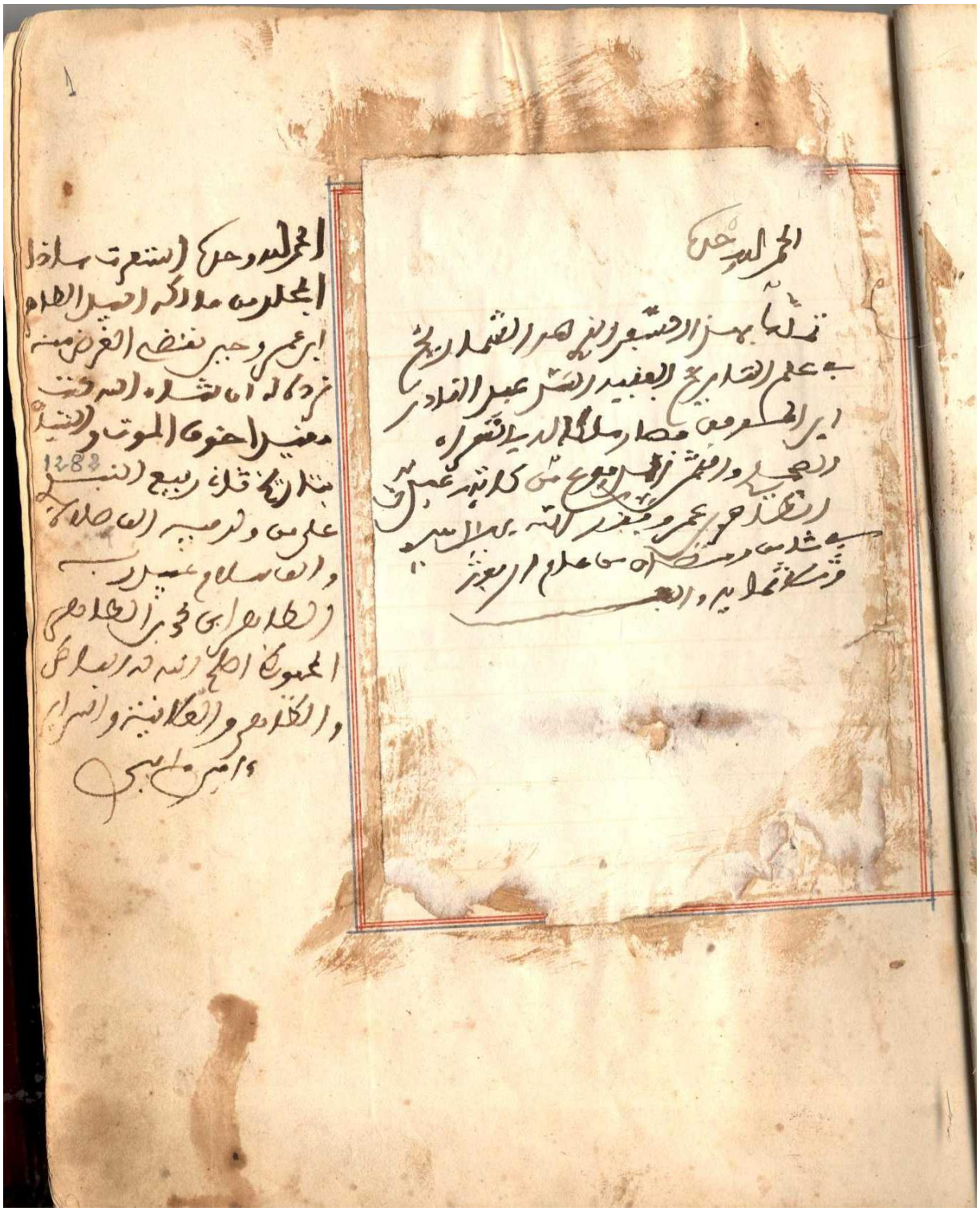
ملحق رقم 06: صورة لوجه الورقة الأولى من مخطوط الخبر المعرب عن الأمر المغرب الحال بالأندلس وثغور المغرب لصاحبه أبوراس الناصر (نسخة خزانة الشيخ محمودي البشير، البرج – معسكر).



ملحق رقم 07: صورة لظهر الورقة الأولى من مخطوط الخبر المعرب عن الأمر المغرب الحال بالأندلس وثغور المغرب لصاحبه أبوراس الناصر (نسخة خزانة الشيخ محمودي البشير، البرج – معسكر).



ملحق رقم 08: صورة لآخر ورقة من مخطوط الخبر المعرب عن الأمر المغرب الحال بالأندلس وثغور المغرب لصاحبه أبوراس الناصر (نسخة خزانة الشيخ محمودي البشير، البرج –معسكر).



ملحق رقم 09: صورة لوجه الورقة الأولى من مخطوط زهر الشماريخ في علم التاريخ لصاحبه أبوراس الناصر (مخطوط بخزانة الشيخ بلقرد بوكعبر–معسكر).


بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله

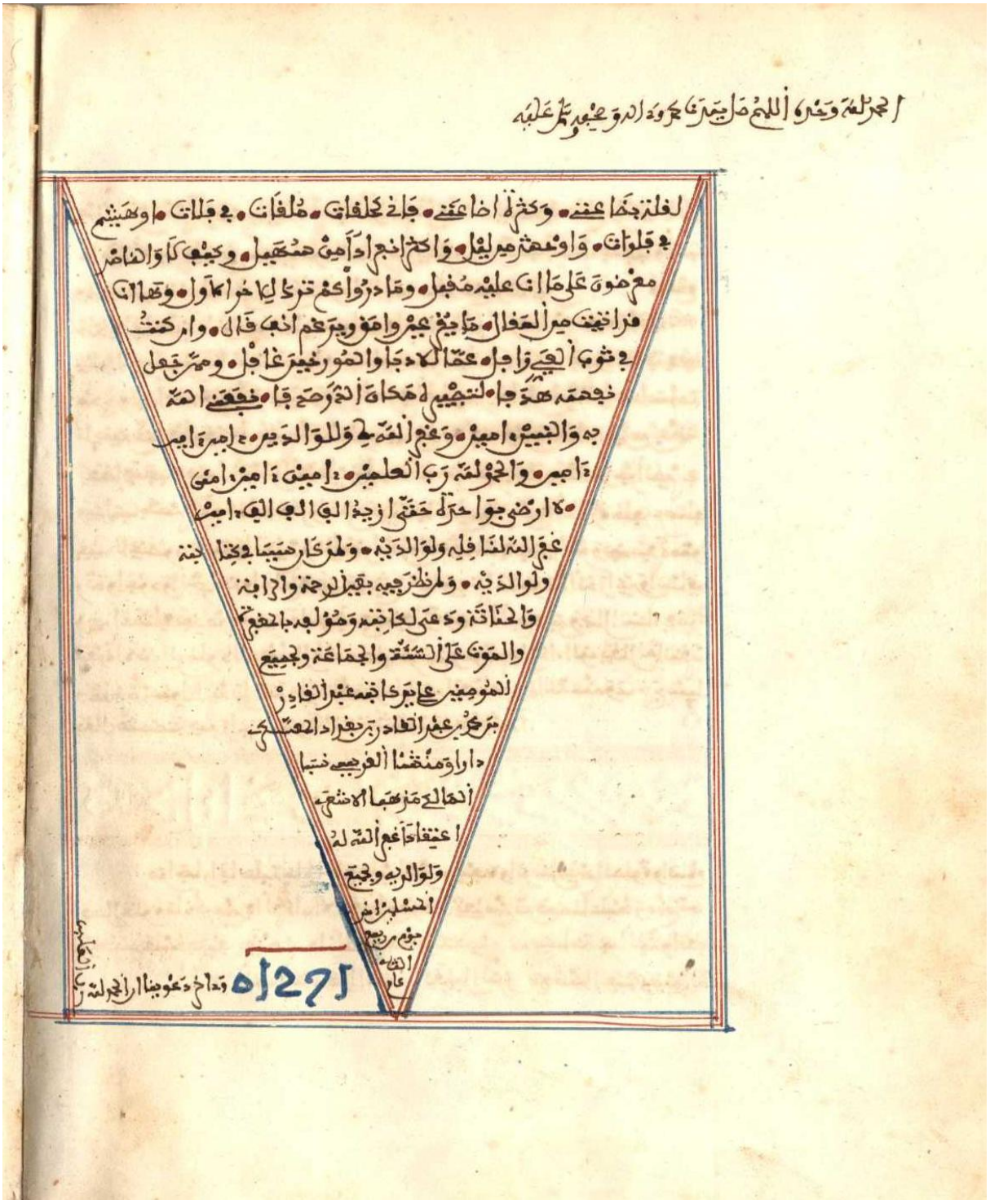
الحمد لله الذي لا تزول على بوابه الدهور ولا يبدو من نوابه ولا

لمشيئته وإرادته أضحى لا ولا عدو

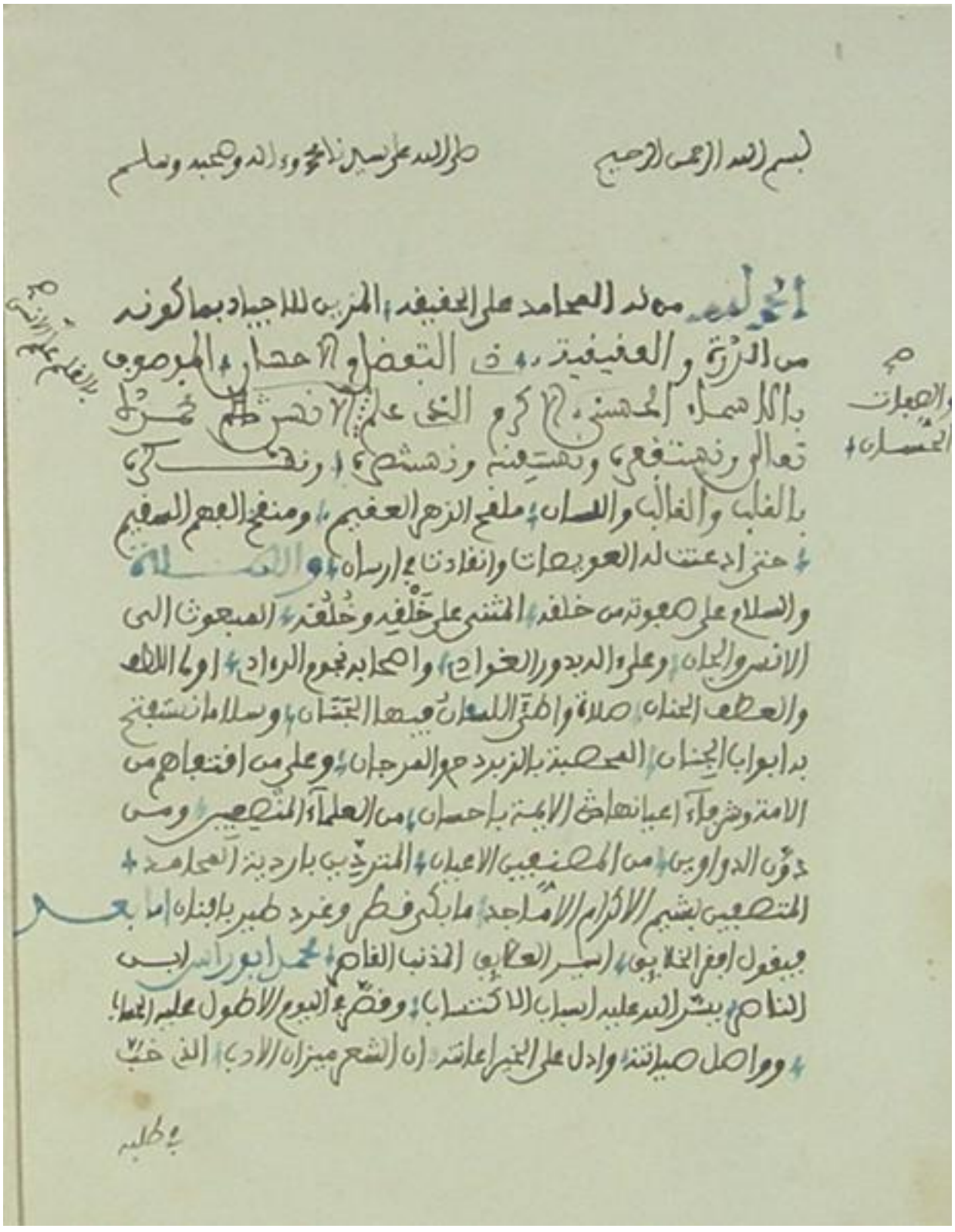
وعزائمهم وأحوال ما سواه تحول • وإليه وإن كمال المدة الرجوع ويتبرئ به
المشمول • ألزم جعل الربيا يحسم عليه لباخ له الوصول • ومتاعنا على قصر
اجتلا يعقبه النعيم والقبول • حتى طلع بعد ولما تنازع اعقبه الا جول
او اتى بحار بها يحمى نظاه الحجول • جلا الا رمتنه كما جلاد • وذول الا ملاد
كما فجم فاحلاد • تطلع من المشرق وتغرب • ثم تغيب غايرة متغيرة • بينما
تهول الدهمت عظيم الزحام • والموكب مشهد الا لتحام • والا غايا تنشيم •
الا بواب يتفهما البشير • والسرور فد تشمل الاهل والعشير • والا طراب

تلمسان

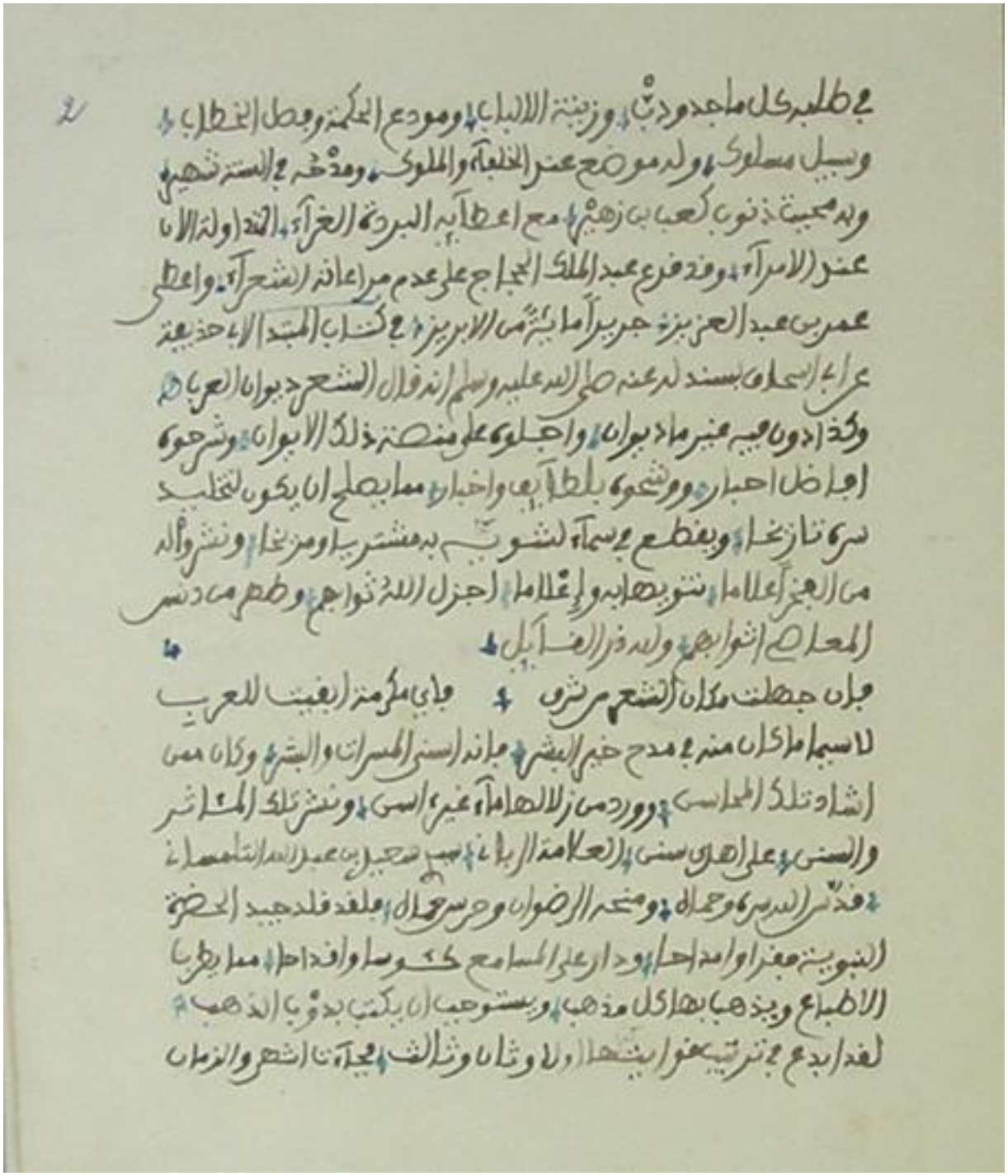
ملحق رقم 10: صورة لظهر الورقة الأولى من مخطوط زهر الشماريخ في علم التاريخ لصاحبه أبوراس الناصر (مخطوط بخزانة الشيخ بلقرد بوكعبر–معسكر).



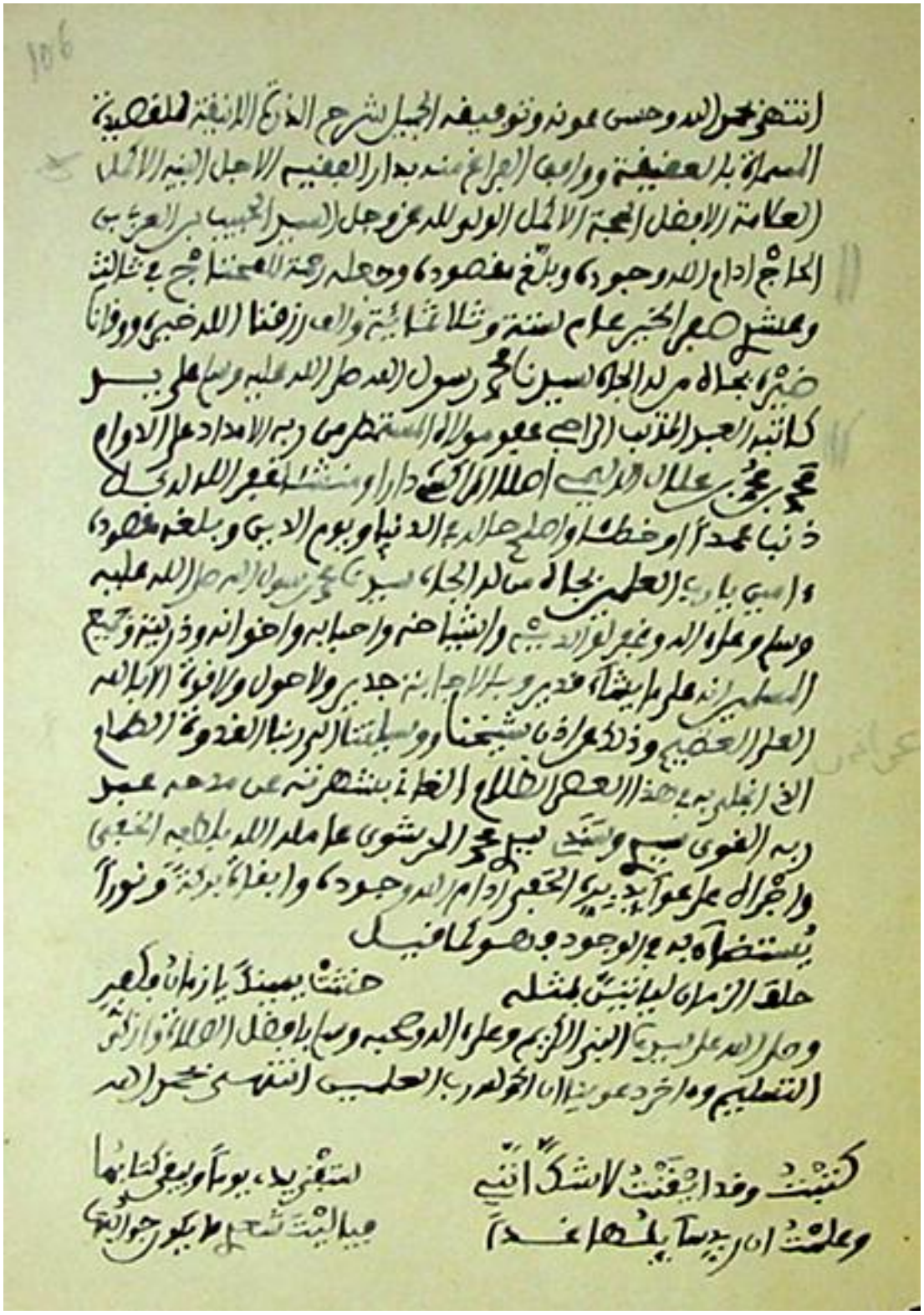
ملحق رقم 11: صورة لآخر ورقة من مخطوط زهر الشماريخ في علم التاريخ لصاحبه أبوراس الناصر (مخطوط بخزانة الشيخ بلقرد بوكعبر–معسكر).



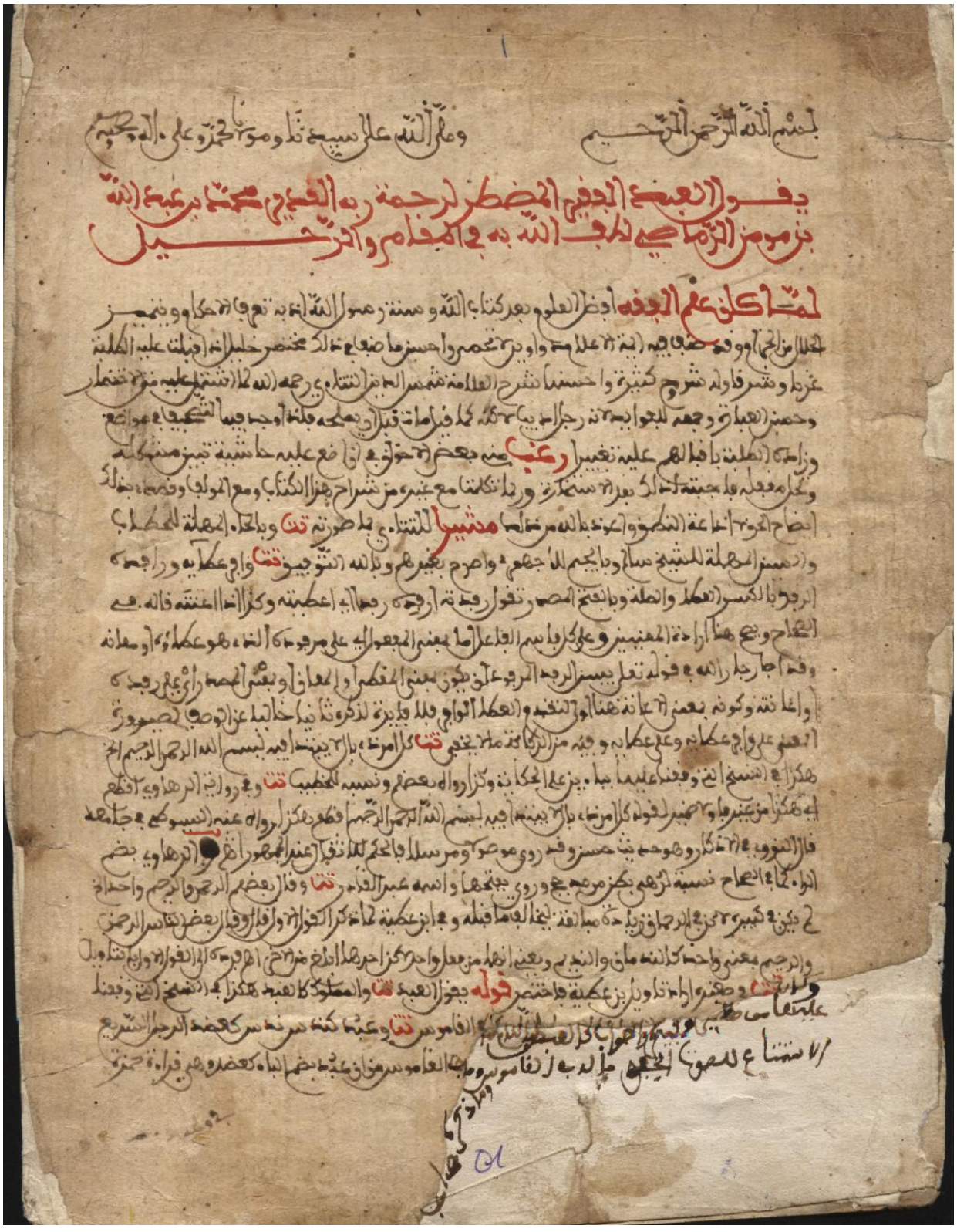
ملحق رقم 12: صورة لوجه الورقة الأولى من مخطوط الدرة الأنيقة في شرح العقيقة لصاحبه أبوراس الناصر (نسخة المكتبة الوطنية الجزائرية، الحامة) تحت رقم: 3195.



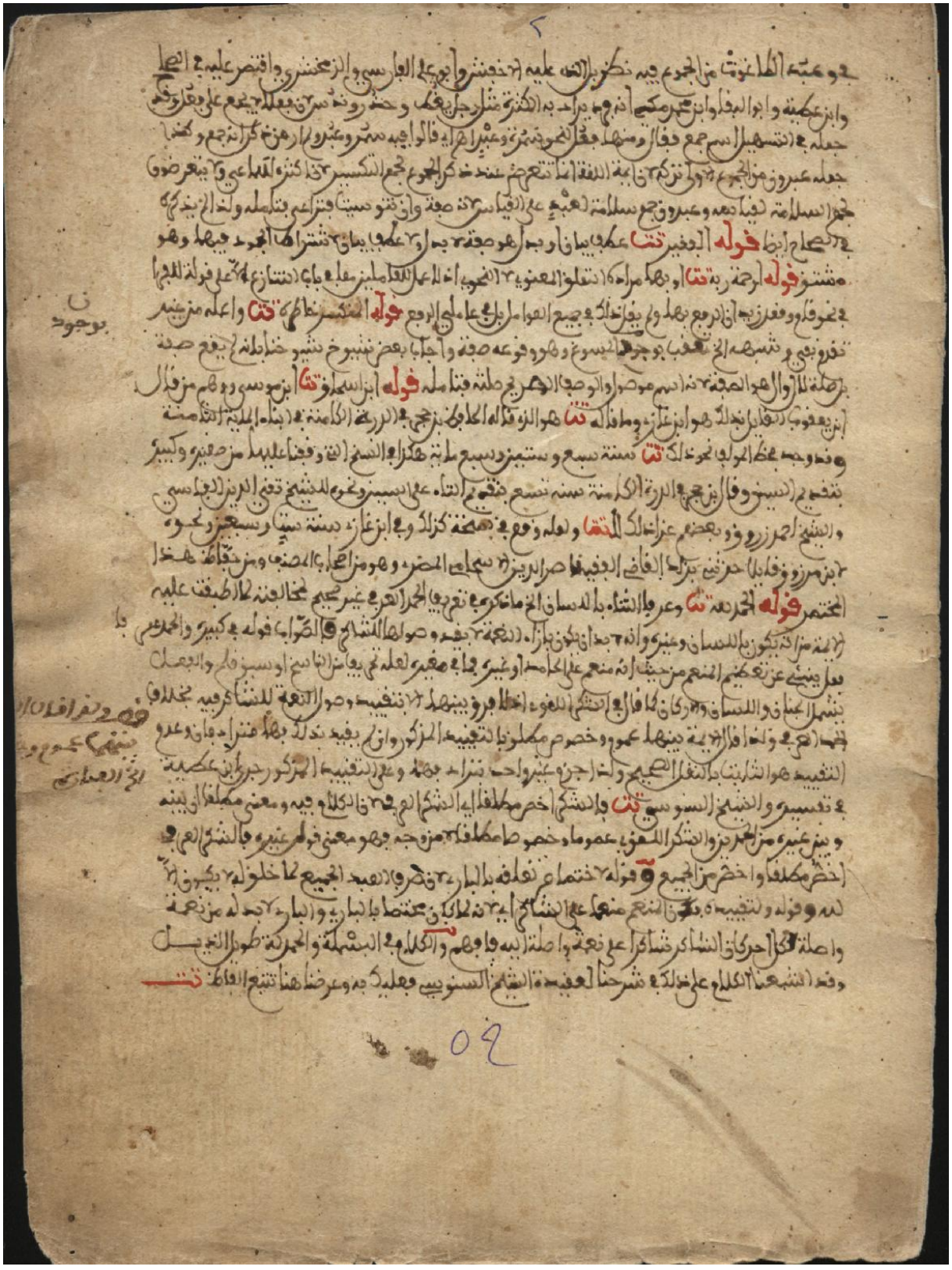
ملحق رقم 13: صورة لظهر الورقة الأولى من مخطوط الدرة الأنيقة في شرح العقيقة لصاحبه أبوراس الناصر (نسخة المكتبة الوطنية الجزائرية، الحامة) تحت رقم: 3195.



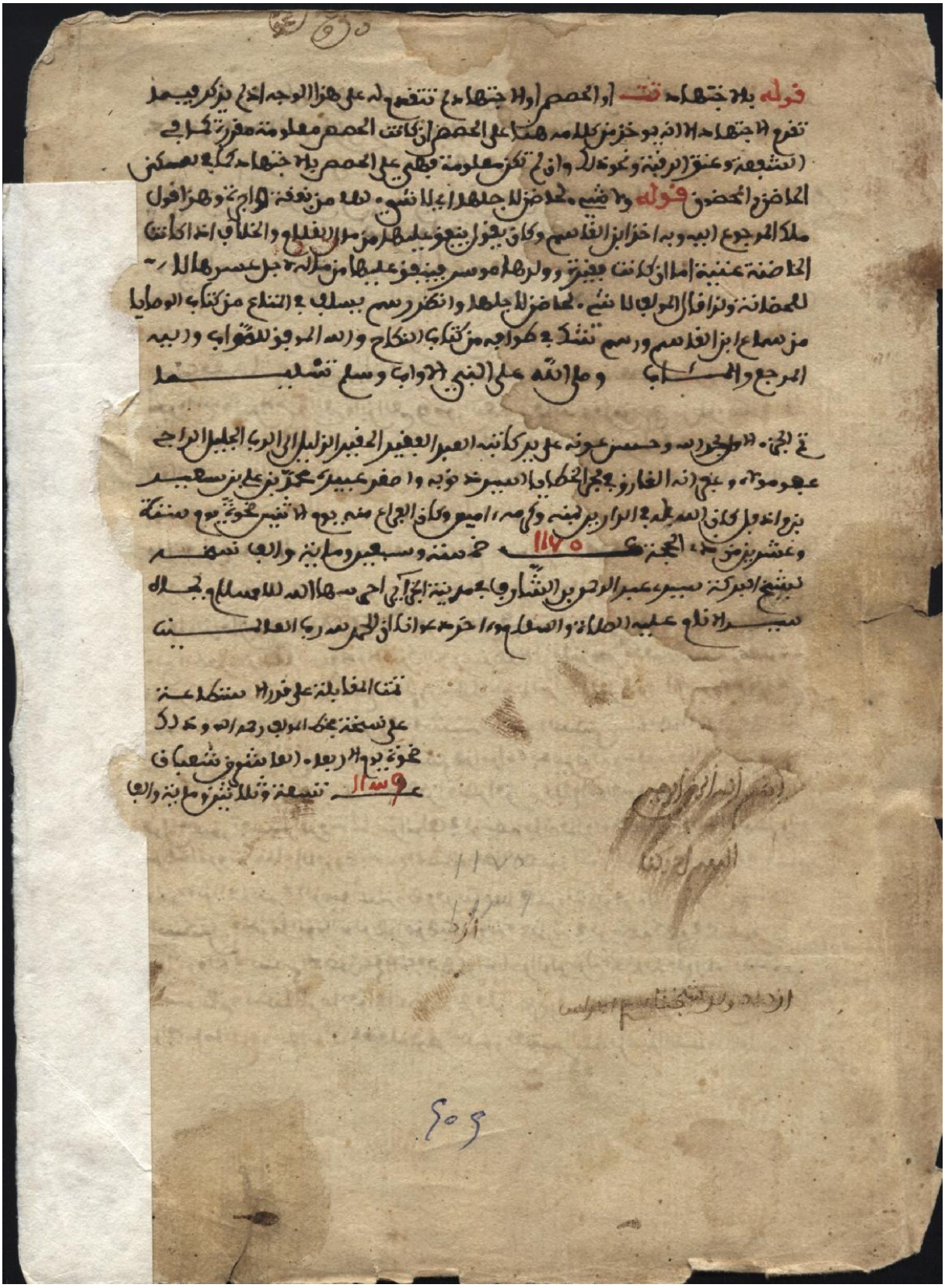
ملحق رقم 14: صورة لآخر ورقة من مخطوط الدرة الأنيقة في شرح العقيقة لصاحبه أبوراس الناصر (نسخة المكتبة الوطنية الجزائرية، الحامة) تحت رقم: 3195.



ملحق رقم 15: صورة لوجه الورقة الأولى من مخطوط شرح حاشية شمس الدين التتائي لصاحبه الشيخ مصطفى الرماصي (نسخة خزانة الشيخ محمودي البشير، البرج–معسكر).



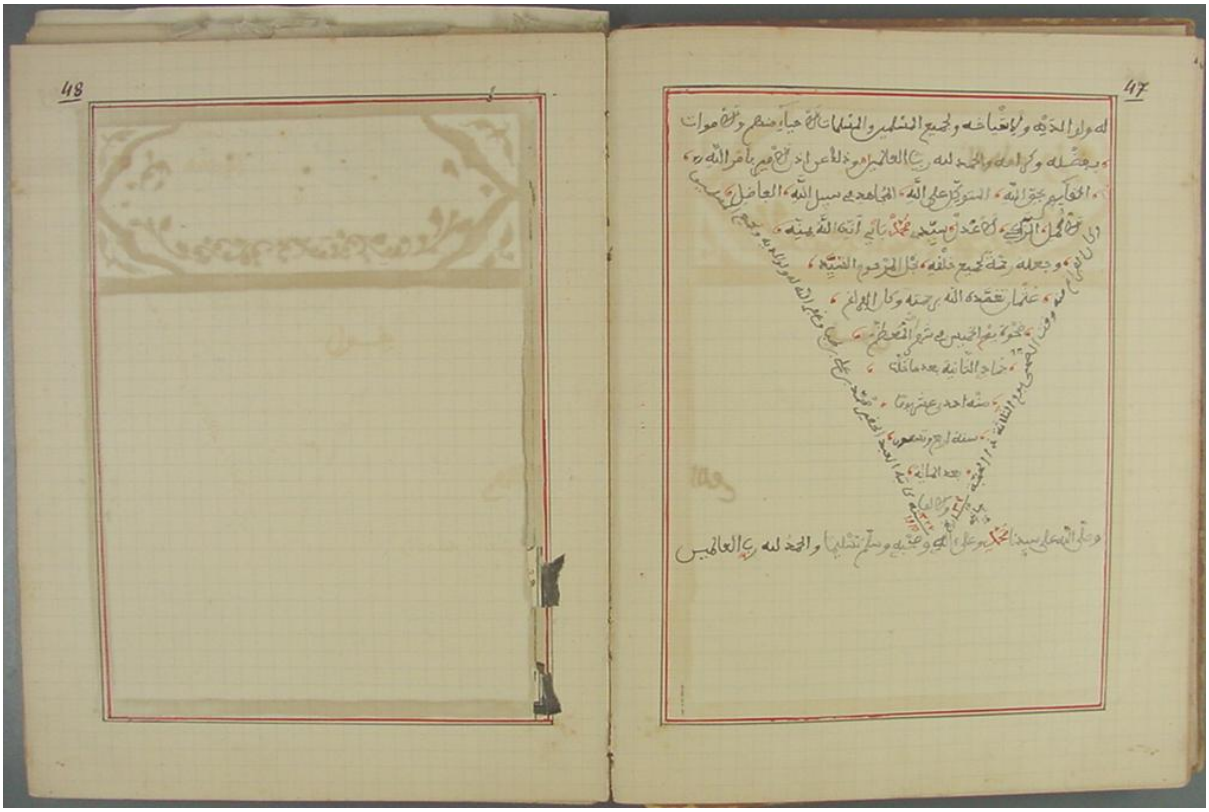
ملحق رقم 16: صورة لظهر الورقة الأولى من مخطوط شرح حاشية شمس الدين التتائي لصاحبه الشيخ مصطفى الرماصي (نسخة خزانة الشيخ محمودي البشير، البرج–معسكر).



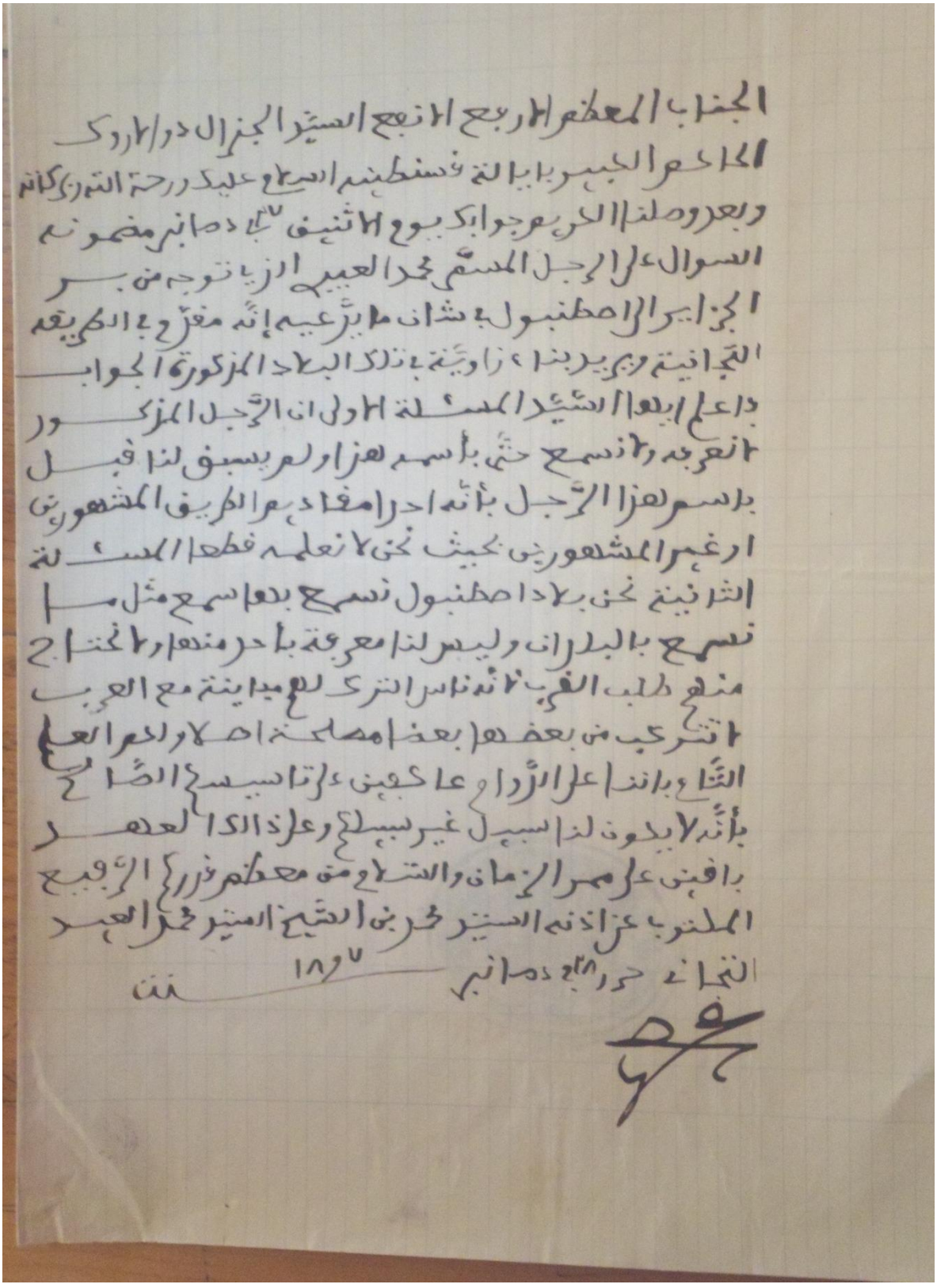
ملحق رقم 17: صورة لآخر ورقة من مخطوط شرح حاشية شمس الدين التتائي لصاحبه الشيخ مصطفى الرماصي (نسخة خزانة الشيخ محمودي البشير، البرج–معسكر).



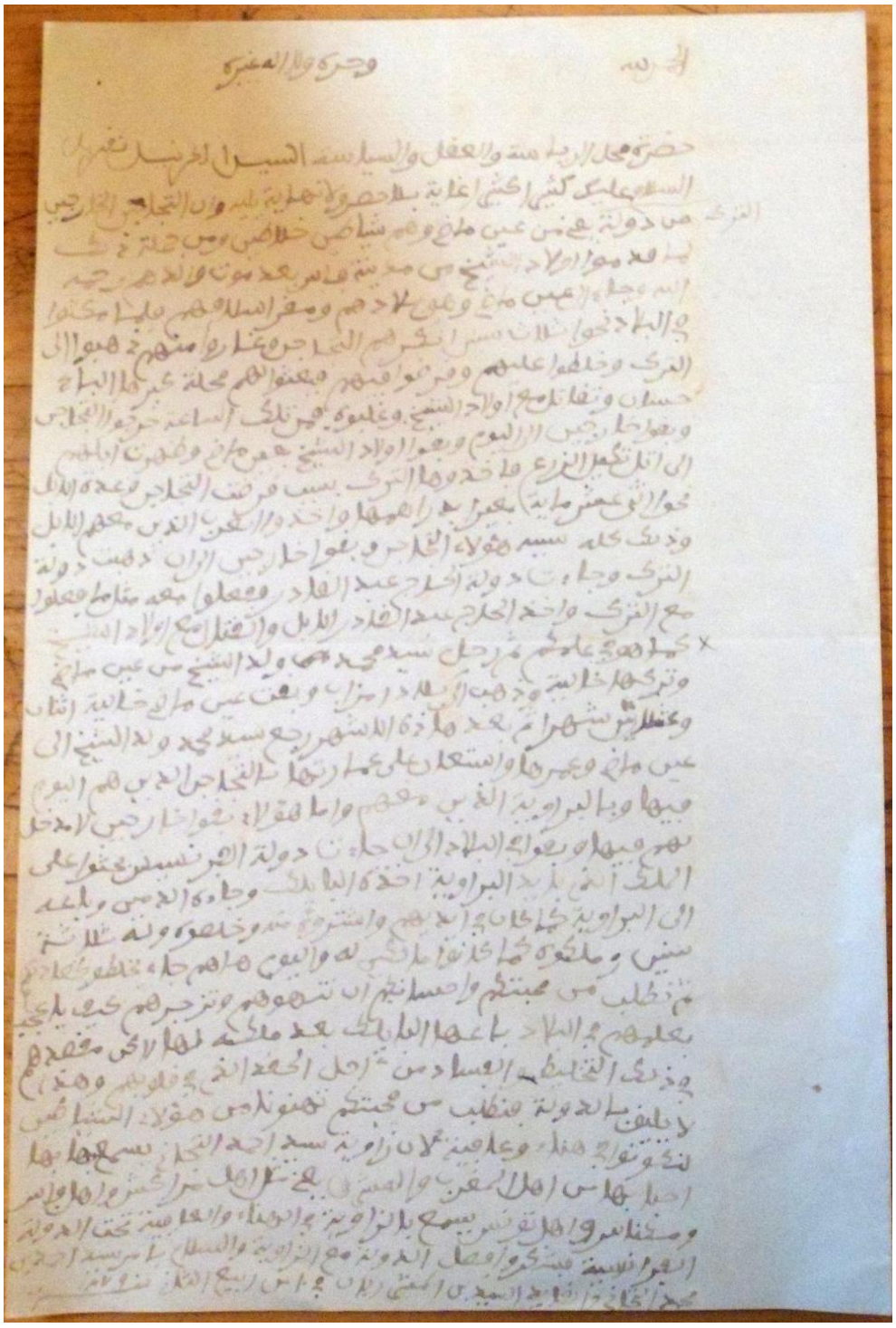
ملحق رقم 18: صورة الورقة الأولى (و،ظ) من مخطوط الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة لصاحبه محمد بن رقية التلمساني (نسخة المكتبة الوطنية الجزائرية)، تحت رقم: 2603.



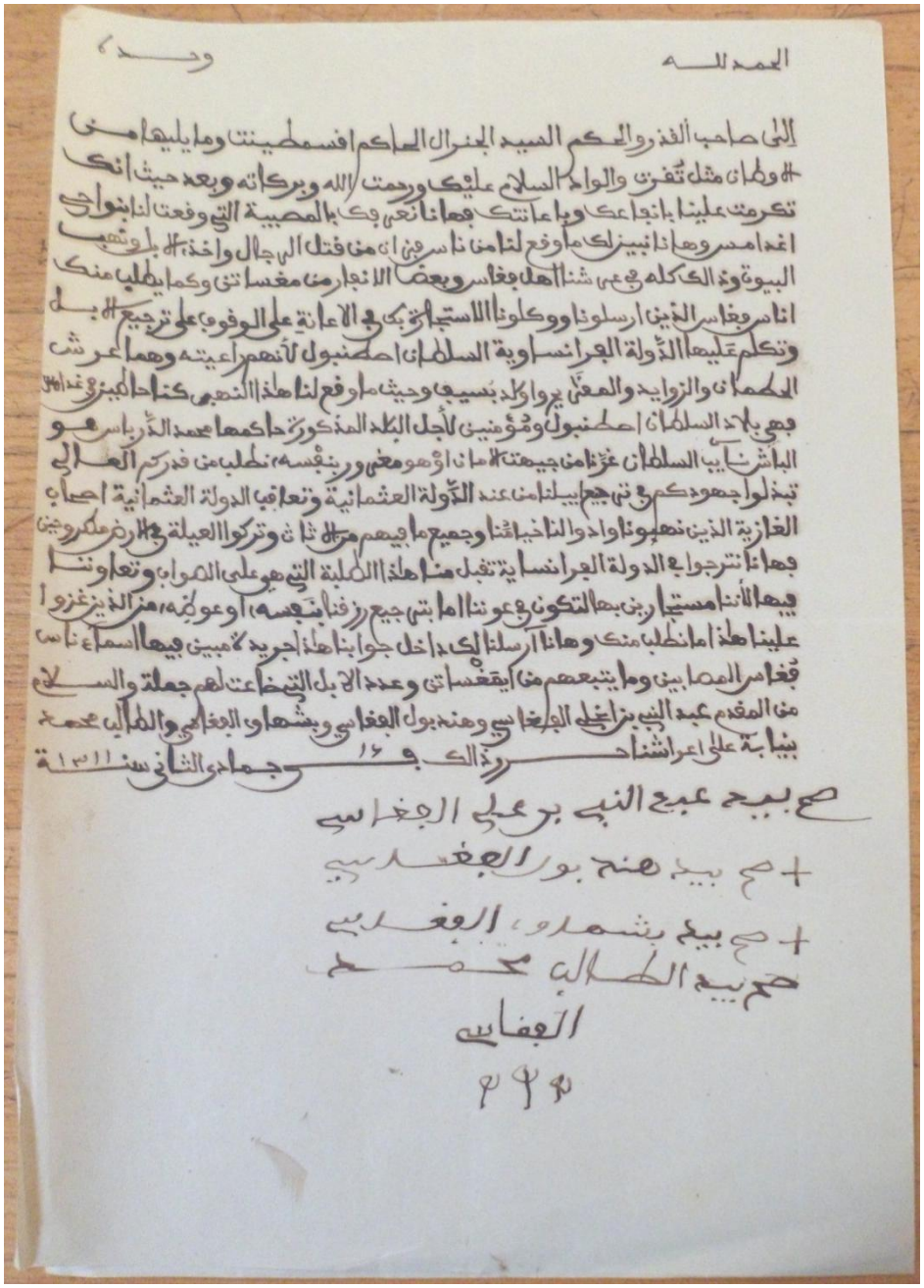
ملحق رقم 19: صورة لآخر ورقة (و،ظ) من مخطوط الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة لصاحبه محمد بن رقية التلمساني (نسخة المكتبة الوطنية الجزائرية)، تحت رقم: 2603.



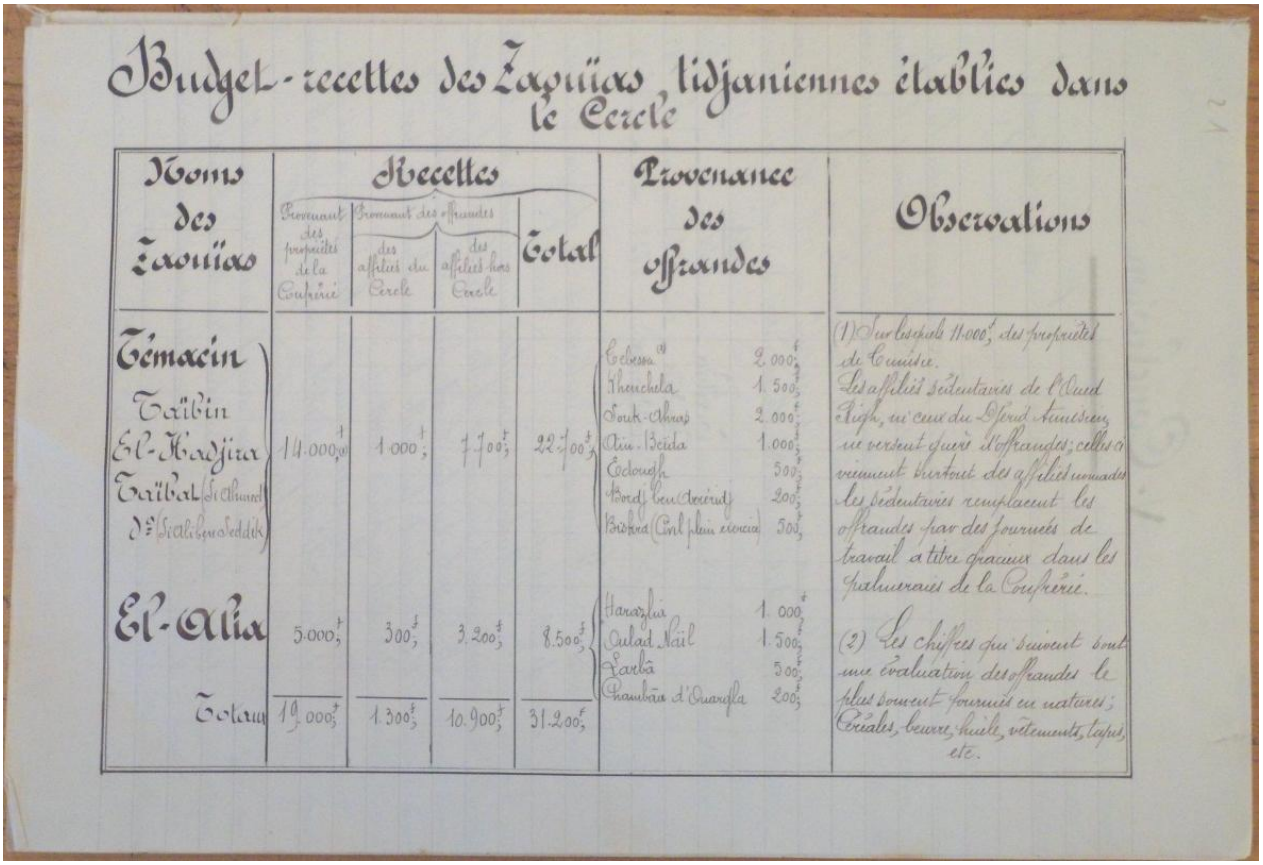
ملحق رقم 20: وثيقة تدلّ على أنّ الطريقة التيجانية ناقمة على الحكم العثماني في الجزائر أواخر عهده. عن أرشيف ما وراء البحار بأكس أون بروفانس –فرنسا– تحت رقم: 16H51.



ملحق رقم 21: وثيقة تتضمّن المعاناة والظلم المتكرّر على التيجانيين من قبل العثمانيين. عن أرشيف ما وراء البحار بأكس أون بروفانس –فرنسا– تحت رقم: 16H44.



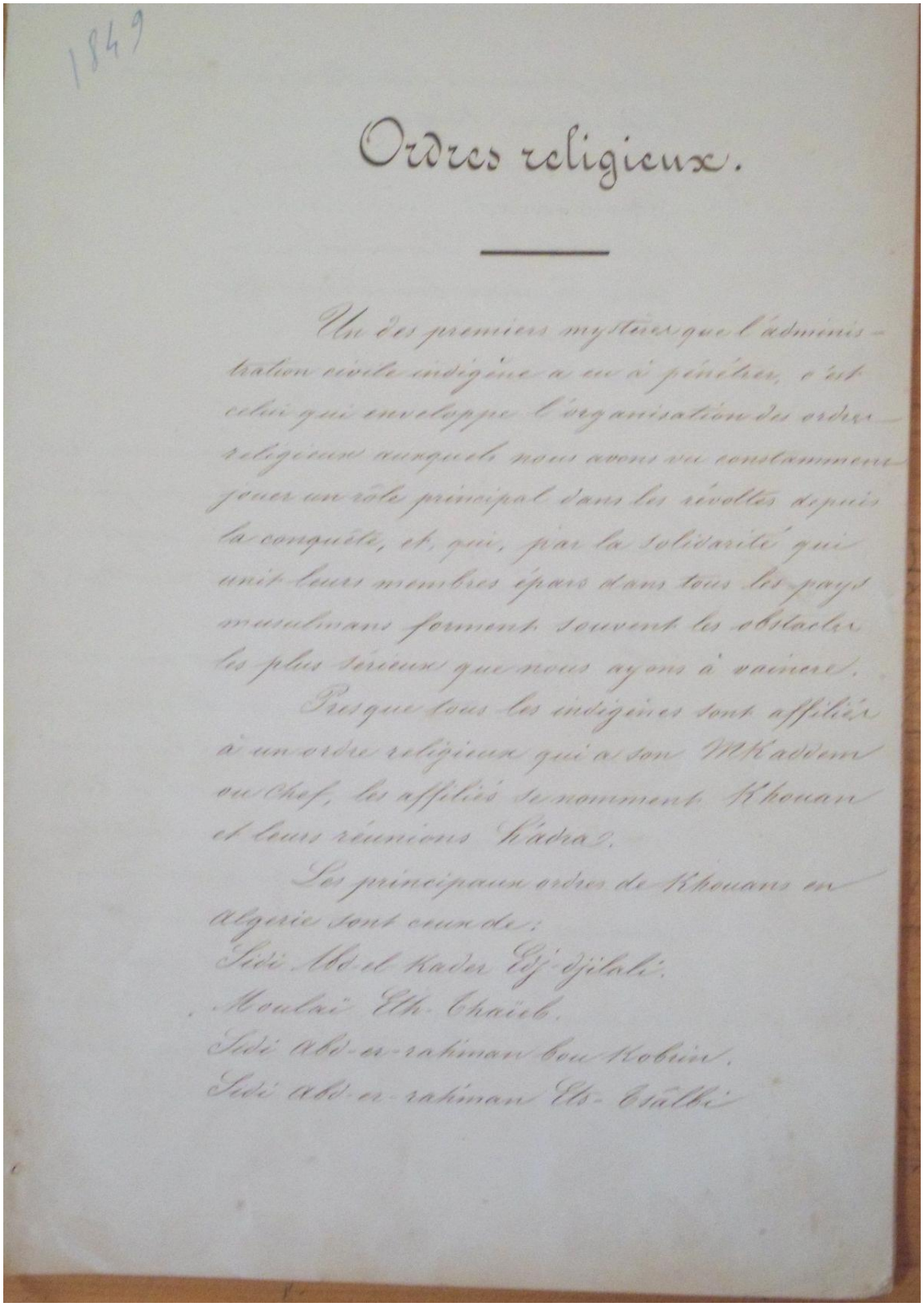
ملحق رقم 22: وثيقة تدل على استياء التيجانيين من نظام الحكم العثماني. عن أرشيف ماوراء البحار بأكس أون بروفانس –فرنسا– تحت رقم:22H28 .



Budget-recettes des Zaouïas Tidjaniennes établies dans le Cercle

Noms des Zaouïas	Recettes: Provenant des propriétés de la Confrérie	Provenant des offrandes: des affiliés du Cercle	Provenant des offrandes: des affiliés hors Cercle	Total	Provenance des offrandes		Observations
Témacin Taïbin El-Hadjira Taïbat (Ech Chmad) Dr Sidi Ben Sedditk	14.000f	1.000f	7.100f	22.100f	Echessa (1) Theuchela Touk-Ahmar Ain-Beida Eclough Nord (ben Abderrhaf) Brikna (Cnl Flatin exercice)	2.000f 1.500f 2.000f 1.000f 500f 200f 500f	(1) Sur lesquels 11.000f des propriétés de Témacin. Les affiliés sédentaires de l'Aoud Righ, au cœur du Djerid Tunisien, ne versent guère d'offrandes; celles-ci viennent surtout des affiliés nomades. Les sédentaires remplacent les offrandes par des journées de travail à titre gracieux dans les palmeraies de la Confrérie. (2) Les chiffres qui suivent sont une évaluation des offrandes le plus souvent fournies en nature; Céréales, beurre, huile, vêtements, tapis, etc.
El-Alia	5.000f	300f	3.200f	8.500f	Haraziia Oulad Naïl Zaouïa Chambâa d'Ouargla	1.000f 1.500f 500f 200f	
Totaux	19.000f	1.300f	10.900f	31.200f			

ملحق رقم 23: تقرير فرنسي يعود إلى سنة 1895م يتضمّن معلومات عن نشاط الطريقة التيجانية وعدد الأتباع ومداخيل الزوايا. عن أرشيف ما وراء البحار بأكس أون بروفانس – فرنسا– تحت رقم: 16H2.



1849

Ordres religieux.

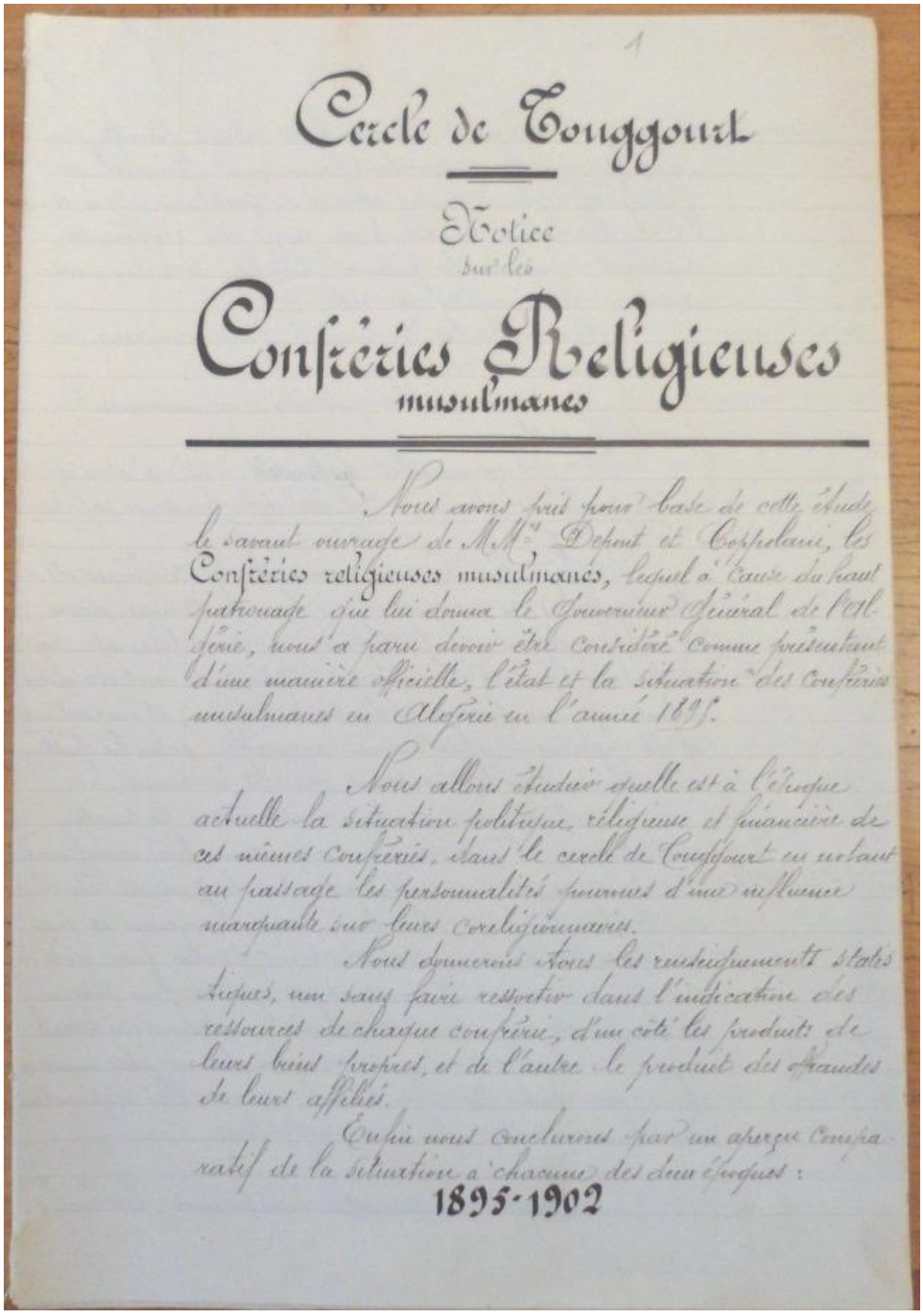
Un des premiers mystères que l'administration civile indigène a eu à pénétrer, c'est celui qui enveloppe l'organisation des ordres religieux auxquels nous avons vu constamment jouer un rôle principal dans les révoltes depuis la conquête, et, qui, par la solidarité qui unit leurs membres épars dans tous les pays musulmans forment souvent les obstacles les plus sérieux que nous ayons à vaincre.

Presque tous les indigènes sont affiliés à un ordre religieux qui a son Mkadem ou Chef, les affiliés se nomment Khouan et leurs réunions Khadra.

Les principaux ordres de Khouans en algérie sont ceux de:

Sidi Abd el Kader Ej-Djilali.
Moulaï Eth-Thaïeb.
Sidi Abd-er-rahman bou Kobrin.
Sidi Abd-er-rahman Ets-Tsâlbi

ملحق رقم 24: دراسة مختصرة حول الطرق الصوفية. عن أرشيف ما وراء البحار بأكس أون بروفانس –فرنسا– تحت رقم: 16H2.



Cercle de Touggourt

Notice
sur les

Confréries Religieuses
musulmanes

Nous avons pris pour base de cette étude le savant ouvrage de MM.rs Depont et Coppolani, les Confréries religieuses musulmanes, lequel à cause du haut patronage que lui donna le Gouverneur Général de l'Algérie, nous a paru devoir être considéré comme présentant d'une manière officielle, l'état et la situation des Confréries musulmanes en Algérie en l'année 1895.

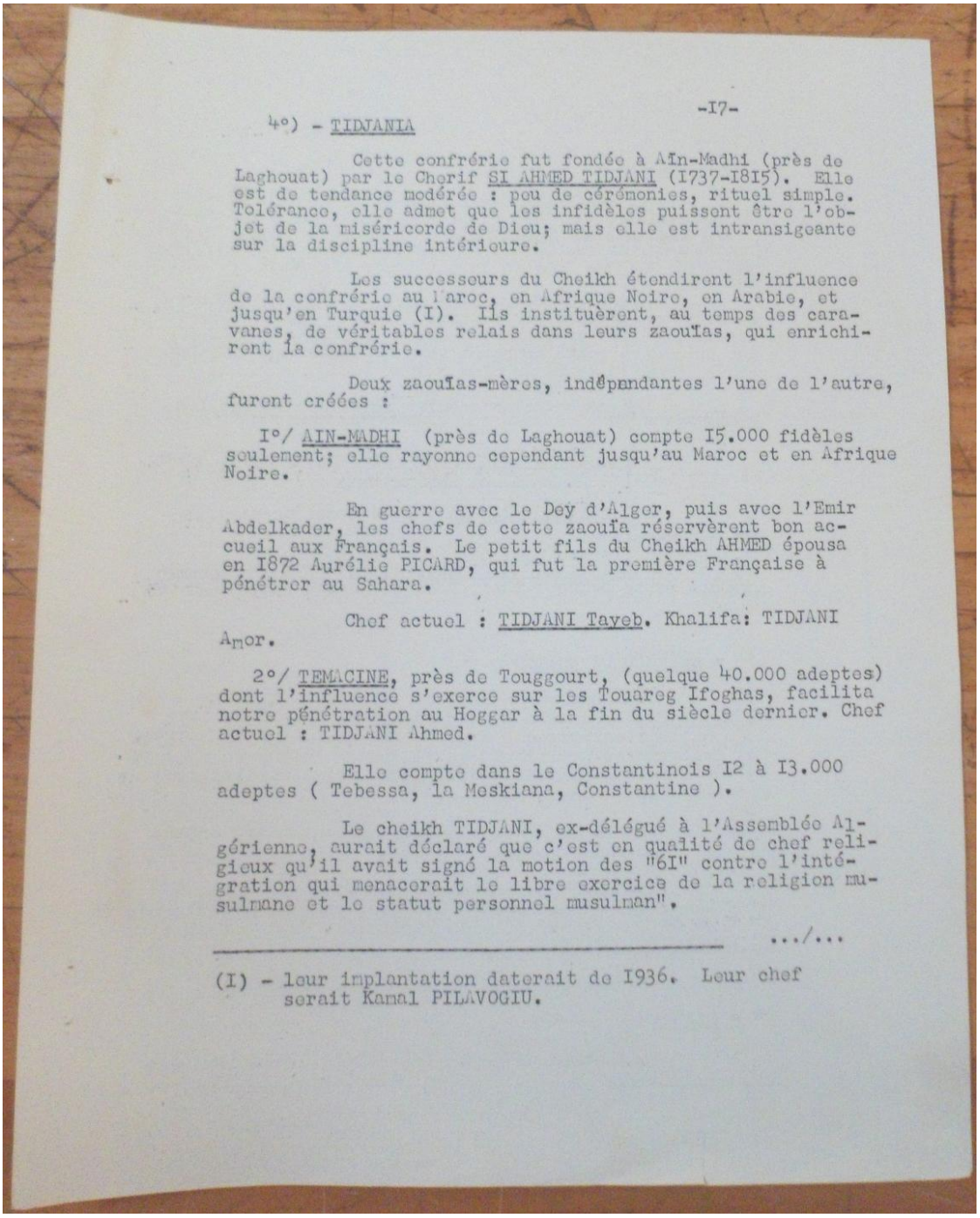
Nous allons étudier quelle est à l'époque actuelle la situation politique, religieuse et financière de ces mêmes Confréries, dans le cercle de Touggourt en notant au passage les personnalités jouissant d'une influence marquante sur leurs coreligionnaires.

Nous donnerons dans les renseignements statistiques, un sens particulier dans l'indication des ressources de chaque confrérie, d'un côté les produits de leurs biens propres et de l'autre le produit des quêtes de leurs affiliés.

Enfin nous conclurons par un aperçu comparatif de la situation à chacune des deux époques :

1895-1902

ملحق رقم 25: دراسة مختصرة حول الطرق الصوفية. عن أرشيف ما وراء البحار بأكس أون بروفانس –فرنسا– تحت رقم: 16H2.



-I7-

4°) - TIDJANIA

Cette confrérie fut fondée à Aïn-Madhi (près de Laghouat) par le Chérif SI AHMED TIDJANI (I737-I8I5). Elle est de tendance modérée : peu de cérémonies, rituel simple. Tolérance, elle admet que les infidèles puissent être l'objet de la miséricorde de Dieu; mais elle est intransigeante sur la discipline intérieure.

Les successeurs du Cheikh étendirent l'influence de la confrérie au Maroc, en Afrique Noire, en Arabie, et jusqu'en Turquie (I). Ils instituèrent, au temps des caravanes, de véritables relais dans leurs zaouïas, qui enrichirent la confrérie.

Deux zaouïas-mères, indépendantes l'une de l'autre, furent créées :

I°/ AIN-MADHI (près de Laghouat) compte I5.000 fidèles seulement; elle rayonne cependant jusqu'au Maroc et en Afrique Noire.

En guerre avec le Dey d'Alger, puis avec l'Emir Abdelkader, les chefs de cette zaouïa réservèrent bon accueil aux Français. Le petit fils du Cheikh AHMED épousa en I872 Aurélie PICARD, qui fut la première Française à pénétrer au Sahara.

Chef actuel : TIDJANI Tayeb. Khalifa: TIDJANI Amor.

2°/ TEMACINE, près de Touggourt, (quelque 40.000 adeptes) dont l'influence s'exerce sur les Touareg Ifoghas, facilita notre pénétration au Hoggar à la fin du siècle dernier. Chef actuel : TIDJANI Ahmed.

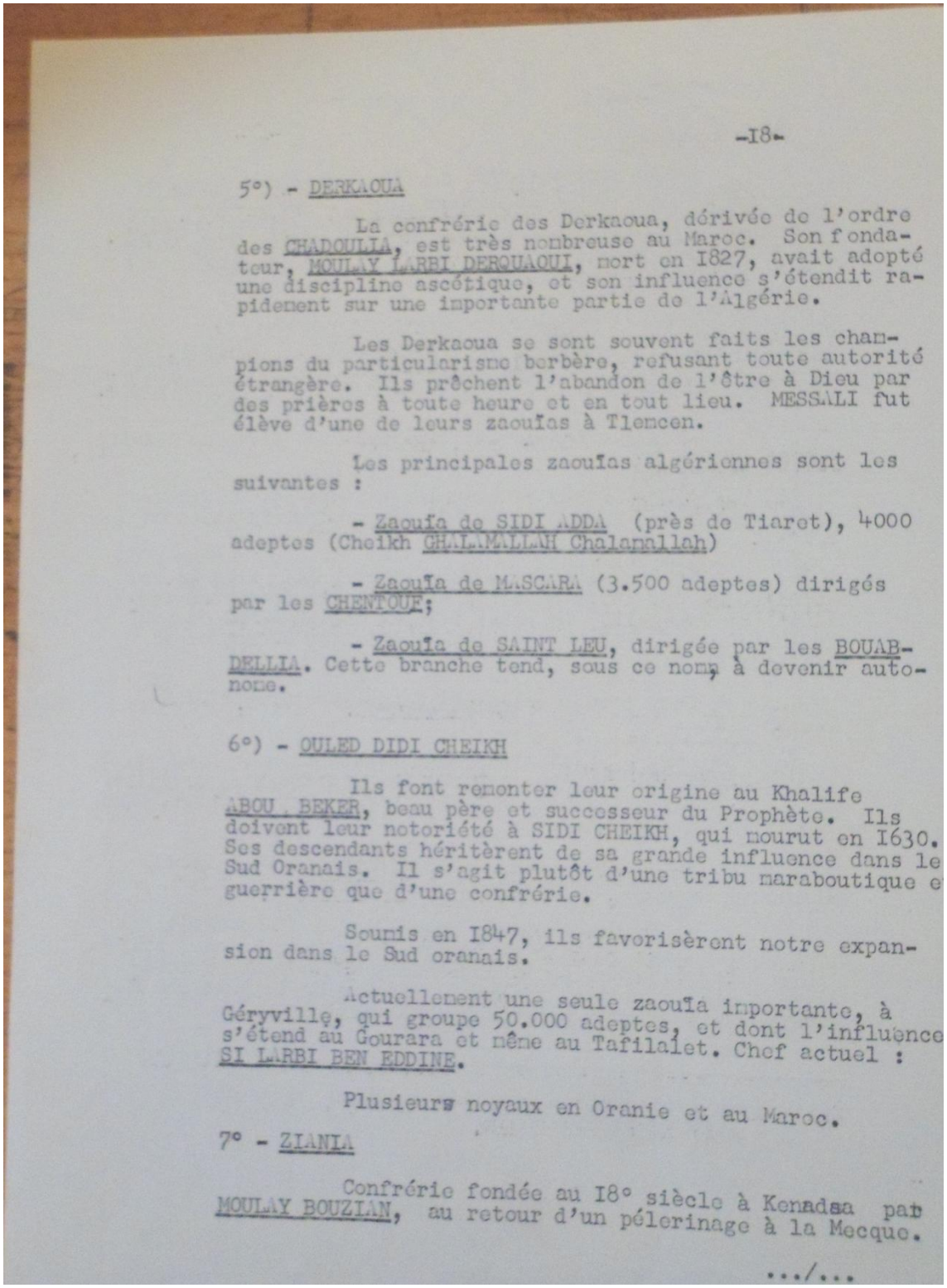
Elle compte dans le Constantinois I2 à I3.000 adeptes (Tebessa, la Meskiana, Constantine).

Le cheikh TIDJANI, ex-délégué à l'Assemblée Algérienne, aurait déclaré que c'est en qualité de chef religieux qu'il avait signé la motion des "6I" contre l'intégration qui menacerait le libre exercice de la religion musulmane et le statut personnel musulman".

.../...

(I) - leur implantation daterait de I936. Leur chef serait Kanal PILAVOGIU.

ملحق رقم 26: وثيقة تتضمن تقرير فرنسي عن نشاط الطريقة التيجانية من حيث عدد الأتباع ومداخيل الزوايا. عن أرشيف ماوراء البحار بأكس أون بروفانس –فرنسا– تحت رقم: 16H74.



-I8-

5°) - DERKAOUA

La confrérie des Derkaoua, dérivée de l'ordre des CHADOULIA, est très nombreuse au Maroc. Son fondateur, MOULAY LARBI DERQUAOUI, mort en I827, avait adopté une discipline ascétique, et son influence s'étendit rapidement sur une importante partie de l'Algérie.

Les Derkaoua se sont souvent faits les champions du particularisme berbère, refusant toute autorité étrangère. Ils prêchent l'abandon de l'être à Dieu par des prières à toute heure et en tout lieu. MESSALI fut élève d'une de leurs zaouïas à Tlemcen.

Les principales zaouïas algériennes sont les suivantes :

- Zaouïa de SIDI ADDA (près de Tiaret), 4000 adeptes (Cheikh CHALAMALLAH Chalamallah)

- Zaouïa de MASCARA (3.500 adeptes) dirigés par les CHENTOUF;

- Zaouïa de SAINT LEU, dirigée par les BOUABDELLIA. Cette branche tend, sous ce nom, à devenir autonome.

6°) - OULED DIDI CHEIKH

Ils font remonter leur origine au Khalife ABOU . BEKER, beau père et successeur du Prophète. Ils doivent leur notoriété à SIDI CHEIKH, qui mourut en I630. Ses descendants héritèrent de sa grande influence dans le Sud Oranais. Il s'agit plutôt d'une tribu maraboutique e guerrière que d'une confrérie.

Soumis en I847, ils favorisèrent notre expansion dans le Sud oranais.

Actuellement une seule zaouïa importante, à Géryville, qui groupe 50.000 adeptes, et dont l'influence s'étend au Gourara et même au Tafilalet. Chef actuel : SI LARBI BEN EDDINE.

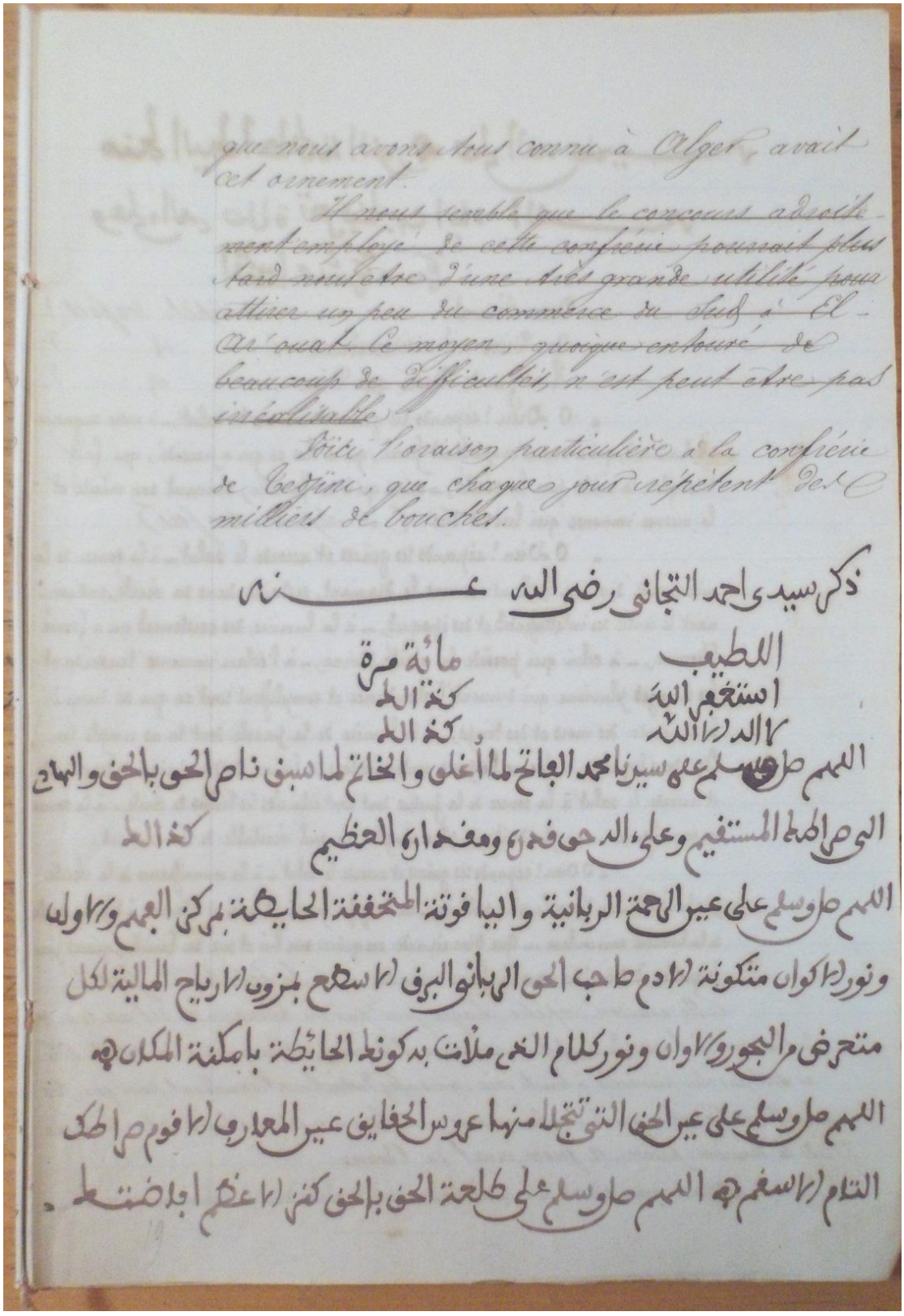
Plusieurs noyaux en Oranie et au Maroc.

7° - ZIANIA

Confrérie fondée au I8° siècle à Kenadsa par MOULAY BOUZIAN, au retour d'un pélerinage à la Mecque.

.../...

ملحق رقم 27: وثيقة تتضمن تقرير فرنسي عن نشاط الطريقة الدرقاوية والشيخية من حيث عدد الأتباع ومداخيل الزوايا. عن أرشيف ما وراء البحار بأكس أون بروفانس –فرنسا– تحت رقم: 16H74 .



ذكر سيدي احمد التجاني رضي الله عنه

اللطيف — مائة مرة

استغفر الله — كفى الله

لا اله الا الله — كفى الله

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي

الى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم كفى الله

اللهم صل وسلم على عين الرحمة الربانية والياقوتة المخففة الحائطة بمركز العلم والاولية

ونور الاكوان متكونة لادم طالب الحق الى باني البرق الاسطع بمزوف الارياح المالية لكل

متعرض من البحور والاوان ونور كلام الذي ملأت به كونك الحائطة باماكنة المكان

اللهم صل وسلم على عين الحق التي تتجلى منها عروس الحقايق عين المعارف الاقوم صراطك

التام الاسقم اللهم صل وسلم على كلمة الحق بالحق كنز الاعظم اجل ضبط

ملحق رقم 28: وثيقة تتضمّن نماذج من أذكار شيخ الطريقة التيجانية أحمد التيجاني. عن أرشيف ما وراء البحار بأكس أون بروفانس –فرنسا– تحت رقم: 16H44.

الملحق رقم 29: [1]

"بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله صلى الله عليه وسلم محبنا السيد محمد بن عبد الله وكافة الطلبة سلام عليكم ورحمته تعالى وبعد:

بلغنا كتابكم مُعلمًا لنا بم وقع بينكم وبين أعداء الله ورسوله النصارى وإخوانهم المغاطيس، محمدنا الله على سلامتكم وحفظكم من خذلان الكفرة، ثبت لنا ولكم الأجر ونزونا بينهن الدوائر على العسة معكم وما طلبتم منا نزوه لأحقابكم في أثر الرسول صلى الله عليه وسلم من بارود ورصاص وسلاح ولا ما يثق شكم، ونبعث لكم الطبيب والشقماقجية وكلّ ما يخصكم يأتيكم عن عجل إن شاء الله وتزف السيد الحاج مكي بعثناه لكم بقصد الطلبة متاع الشيخ محمد بن أبي سيف الدين أتوا نت الغرب وبعثنا لكم معه نصيبه من الدراهم بقسمه عليهم، ولتعلموا أن وحد الشقماقجي يأتيكم من الزمالة بعثنا لكم ستة ريالات يوجهها مع حاملها إليكم فأعطوه في يده، والحذر والحذر من بعض الخدائع يعملها لكم النصارى وحتى خدامين الماء حذروهم ربما يمكنون عنده في الليل، وأمّا المكاحل الفاسدة التي لا يمكنكم إصلاحها فبعثوها لنا بحسابها نصنعها هنا لابد على الزوائل التي تأتيكم بالحرج، والسلام من كاتبها بأمر عبد الله المتوكل عليه السيد محمد باي وفقه الله تعالى".

[1]: رسالة الباي محمد الكبير إلى الفقيه العالم الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي رئيس رباط وهران، يتفقّد فيها أحوال طلبة العلم المرابطين بعد تعرّض بعضٍ منهم رُفقة شيخهم أبو طالب المازوني لاعتداء من طرف الإسبان. عن ابن زرفة الدحاوي، الرحلة القمرية...، المصدر السابق، ص-ص: 348-349.

الملحق رقم 30:[1]

"بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني بعثت لكم صحبة ممسكه (أي السيد أحمد ابن القاضي أحد أعوان الباي محمد الكبير برباط وهران) أرزاق شهر رجب و300 سيف و80 مكحلة و10 قفف من الرصاص و 6 قناطر بارود، وتُنبِّهوا الطلبة فإنّ هذا البارود الذي بعثته لهم هذه المرّة لم يأتيهم مثله قبل فإن هم جعلوا في المكاحل مثل ما كانوا يجعلونه من غيره أفسد مكاحلهم وأيديهم فليأخذوا حذرهم.

هذا والمطلوب منكم والمؤكَّد به منا عليكم هو أن تفعلوا ما كنت أمرتكم به من تجريد المكاحل أرباب المخزنية من الطلبة بأسمائهم وأسماء آبائهم بأن تذكروا كبير كل خبا وما عندهم من المكاحل وتجعل كل خبا على حدى، ثم تُجرِّدوا من لا سلاح لهم على حدى لنبعث لهم ما فيه كفاية ولا زائد إلا معكم والتماس صالح دعائكم، والسلام عليكم من كاتبها بأمر عبد الله المتوكل عليه السيد محمد باي وفقه الله تعالى".

[1]: رسالة الباي محمد الكبير إلى طلبة العلم المرابطين بوهران، يأمرهم فيها بتقييد أسماء الطلبة والأسلحة التي قُدِّمت لهم في دفتر خاص. عن ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية...، المصدر السابق، ص-ص: 450-451.

الملحق رقم 31: [1]

"بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم: محبنا السيد محمد بن عبد الله وكافّة الطلبة سلام عليكم وبعد:

نحن بعثنا لكم ما كنّا وعدناكم به وذلك مائة وعشرون مكحلة وأربع قلال من العسل وقنطارين بارود وثلاث قفف من الرصاص فاقتسموا ذلك على الطلبة، كما بعثنا زوج غرائر روش لأجل المجاريح والمرضى وترق الشقماقجية يأتونكم من الدوائر والزمالة يخدمون لكم ما حضركم من المكاحل وسرحوهم لأهلهم وابعثوا لنا ما عندكم من المكاحل الفاسدة التي لا يمكن إصلاحها، هنالك علة الزوائل الحاملة لكم فأذكر هذا ماسنا إليكم والله تعالى يكون في عوننا وعونكم وكتب فسلام عليكم بأمر عبد الله المتوكل عليه السيد محمد باي أيده الله تعالى".

[1]: رسالة الباي محمد الكبير إلى رئيس الرباط الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي ونائبه السيد الطاهر بن حوا طالبًا منهم فيها بتوفير كلّ ما يَلْزم للعلماء وطلبة العلم والقرآن المرابطين بجبل المائدة. وهذا بعد توفير الباي للطعام كالسمن والزيت والعسل والقمح والفواكه والأغنام والأبقار وغيرها، والذخيرة الحربية من بارود ورصاص وبنادق على أظهر الدواب إلى الرباط. عن ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية...، المصدر السابق، ص: 350.

الملحق رقم 32: [1]

"بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد: فإنّ كتاب الطلبة بلغنا وعرفنا مضمنه فلتعلن أنا بعثنا لهم ما يكفيهم من كلّ شيء،ولا زلنا متذكرين لهم كل يوم ونبعث ما يحتاجونه ولا ما يشوشهم.

وقد كتبنا لوكيل مسرغين يعطيهم الشعير وعلف دوابهم وكتبنا لقائد تلمسان فيه على المحازم يصنعها السراجون المعروفون بصنعتهم، وحاصله أقرأ هذا الكتاب بحضرة جميعهم وأعلمهم بأنّهم لا يخصهم شيء إن شاء الله وترونا بعثنا لهم الطباخين والطناجر على وفق مسؤولهم، وعنّا السلام على جملتكم من كاتبها بأمر السيد محمد باي وفقه الله تعالى".

[1]: رسالة الباي محمد الكبير إلى طلبة العلم المرابطين بوهران بعد الشِّكاية التي قدَّمها له طلبة الغرابة، والتي مفادها بأنّ شيخهم الموكَّل أمير المرابطين الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي لا يعدل في الرعية ولا يقسم بالسوية –أي أنّ العطايا التي يُقدِّمها الباي لا تقسم بالتَّساوي–، الأمر الذي أدّى بالباي محمد الكبير على تكليف أمناء الرباط من توفير كلّ ما يطلبه طلبة العلم والقرآن مع حثِّهم على ضرورة تحسين النيّات ونزع الضغائن فيما بينهم. عن ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية...، المصدر السابق، ص: 353.

الملحق رقم 33: [1]

"الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم محبنا سيدي محمد بن عبد الله وكافة الطلبة سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد: بلغنا كتابكم وقرأناه وعرفنا ما ذكرتم لنا فيه أعلم أننا بعثنا لمستغانم يأتيكم البشماط والرشيشة، وبعثنا لتلمسان ولا ينقطع بعثنا وتحريضنا لهم على إتيان القوت لكم إن شاء الله والمحازم التي وجدناها بعثناها وبعثنا حق الباقي دراهم مع الحاج أحمد وهو يعرفكم بذلك، وما ذكرتم من أنّ الصبيان ضيّقوا عليكم الأمر فلتعلموا أنّنا لم نأمر بإتيان المحاصر متع النجوع يقرؤون هناك وإنّما عبنا الطلبة الذين يقضون الحاجة منهم من يقرأ في القرآن ومنهم من يقرأ في سيدي خليل والنحو كما لا يخفاكم فسرحوا المحاضر لأهلهم، ولتعلموا أنّ النصارى وردوا علينا هاربين فقالوا أنّالمغاطيس يخرجون ليلا ويشعلون النار مثل أصحاب العسة يوهمون النصارى فلابد لكم أن تنبهوا الناس يتركون الذهاب لوهران بقصد الخيانة، والذي يشاهدونه يشعل النار يذهبون له فإن وجدوهم مغاطيس يعطوهم الحديدة وقرونا نبهنا النجوع على ترك الخيانة، وأن يقبضوا كل من يلقوه خارجا من ناحية وهران ويتسبب بالخيانة أو يقتلوه فالحذر من أولاد الحرام، وأحكموا الطلبة على الخيانة لا حاجة لهم بها ولتعلموا أنّ الطلبة أهل البجوع الذين عندكم لا حصرة في تسريحهم لأهلهم ثم يأتوا المرة بعد المرة، وما ذكرتكم على تدبيرنا من طباخين لهم معرفة بناء الخيام فأنظروا هناك من يحسن بنائها وعيوة مع الطباخين السابقين، والسلام التام عليكم بأمر عبد الله المتوكل عليه السيد محمد باي وفقه الله تعالى".

---

[1]: رسالة الباي محمد الكبير إلى رئيس رباط وهران الشيخ العالم محمد بن عبد الله الجيلالي يأمره فيها بضرورة تسريح طلبة العلم المرابطين إلى ذويهم، مع وجوب التردّد على الرباط المرّة بعد الأخرى،ومع الحثِّ أيضاً على وجوب تآزر الجهود ضدّ الإسبان. كما جاء فيها إعلام الباي للطلبة بوصول مستلزمات الرباط من غذاء وأسلحة، خصوصًا بعد زيارة كلّ من العالم أحمد بن هطال التلمساني وقائد المكاحلية قدور بن مخلوف المحلي إلى رباط الطلبة مصحوبين بثمانين (80) مكحلة –بنادق–، وثلاثة عشر مائة ريال كرنيطة وتسعة وعشرين ريالا. عن ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية...، المصدر السابق، ص–ص: 346–347.

الملحق رقم 34: [1]

"بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله السيد محمد بن أبي طالب والسيد مصطفى ابن عبد الله والسيد محمد بن أبي سيف وكافّة الطلبة خصوصًا الشيوخ سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ورضوانه العميم وتحياتي وبعد:

فترون بعثنا لكم سي بن عبد القادر بن البوري وبيده الدراهم اقسموها على الطلبة واجعلوا خمسة وعشرين طالبًا في القسمة وكلّ قسمة أعطوها خمسة عشر ريالا بوجوهها مؤقتة قهرهم هذا من غير القمح، وقد فرَّقنا لكلّ قسمة حملاً من القمح نفقة شهر، وما أشرتم لنا به في كتابكم على طحن القمح فاليوم أمر ذلك لكم فاعملوا شطارتكم في ذلك، ونحن قد بلغنا لكم نفقة الشهر فاحتفظوا ما قدرتم ومن فرط فلا علينا فيه وما يضل من الدراهم يحفظه سيدي مصطفى بن عبد الله تحت يده حتى يقدم سيدي محمد بن عبد الله يضيفهم لما تحت يده سابقًا حتى يصرفهم إن شاء الله، هذا ما عفا إليكم والله يصلح حالنا وحالكم بمنه آمين وكتب مسلما عليكم وطالبا صالح الدعاء منكم بأمر السيد محمد باي وفقه الله تعالى بمنه آمين".

[1]: رسالة الباي محمد الكبير إلى الفقيه العالم محمد بن أبي طالب المازوني وباقي أمناء الرباط يأمرهم فيها بتقسيم الأموال على طلبة العلم المرابطين بوهران، كما جاء فيها أَمْرُهُ بأن يتحصّل كلّ خمسة وعشرين طالبًا على نصيب قدره خمسة عشرة ريالا، ولم يكن هذا الإجراء إلاّ بعد قيام الباي بإرسال ألف ريال من الأموال مع سي بن عبد القادر بن البوري. عن ابن زرفة الدحاوي: الرحلة القمرية...، المصدر السابق، ص-ص: 382-383.

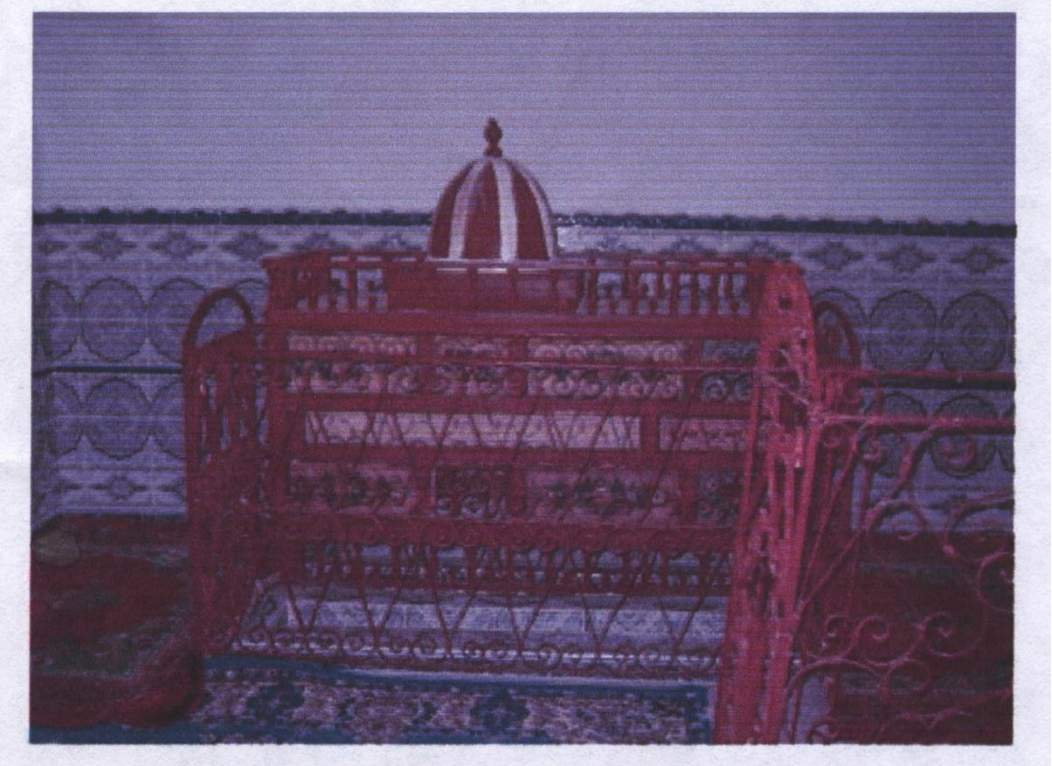
الصور الفوتوغرافية



ملحق رقم 01: لوحة تذكارية بمناسبة تدشين مدرسة مازونة الفقهية.



ملحق رقم 02: فناء مدرسة مازونة الفقهية بعد ترميم حديث.



ملحق رقم 03: ضريح الشيخ محمد بن الشارف المازوني.



ملحق رقم 04: ضريح الشيخ أبو طالب محمد بن علي الشارف المازوني.





ملحق رقم05: صورة فوتوغرافية توضح اللوحة التذكارية للجامع الكبير الذي بناه الباي محمد الكبير بمعسكر ومحرابه.



ملحق رقم06: صورة فوتوغرافية تمثل زاوية القيطنة.

الفهارس

- فهرس الأعلام
- فهرس الأماكن و البلدان
- فهرس الشعوب والقبائل

فهرس الأعلام

– أ –

أبو راس الناصر: 91، 103، 116، 121، 122، 123، 131، 199، 203، 205، 215، 217، 221، 222، 227، 233، 234، 238، 246، 258، 259، 260، 261، 262، 263، 264، 265، 266، 267، 268، 306، 307، 337.

أبو طالب محمد بن علي الشارف المازوني: 84، 96، 97، 98، 100، 102، 106، 141، 142، 146، 162، 163، 164.

أبو القاسم الحفناوي: 85، 89، 99.

أبو طاهر محمد عبد السميع بن أبي العرفان إبراهيم الكوران: 97.

أبو عبد الله محمد ابن عبد السلام بن أبي زيد اليازمي: 97.

أبو عبد الله بن عزوز الشريف التلمساني: 86.

أبو القاسم سعد الله: 87، 287، 288.

أبو عبد الله السيد المكي بن عيسى: 152.

أبو حامد المشرفي: 90، 91، 353.

أبو الفيض محمد مرتضى الزبيدي: 225، 261.

أبو القاسم الزياني: 225.

أبو عبد الله محمد بن سعد التلمساني: 308.

أبو عبد الله محمد الغزلاوي: 324.

أبو محمد بالحضري بن إسماعيل البحثاوي: 326، 329.

أبو العباس الناصري: 278.

أبو ترفاس: 299، 318، 333.

أبو الحسن علي قارة بغلي: 331، 334.

أبو عثمان المنداسي بن عبد الله التلمساني: 309.

أبي عبد الله سيدي محمد بن عبد الرحمن الأزهري: 340.

أبي الفرج الأصفهاني: 236.

أحمد ابن هطال التلمساني: 143، 145، 149، 178، 185، 186، 187، 214، 233، 252، 253، 254، 255، 256، 257، 258، 324، 336، 344.

أحمد ابن ناصف: 159.

أحمد بن خدة الكتروسي: 175، 195، 196.

أحمد الصقلي: 340.

أحمد التيجاني: 301، 339، 340، 341، 342، 343، 344، 345، 346، 347، 353، 354.

أحمد قبطان باشا: 316.

أحمد بن محمد بن علال القرومي: 208، 210، 224.

أحمد بن محمد بن صار مشق: 210.

أحمد ابن سحنون الراشدي: 96، 100، 103، 106، 109، 110،111، 117، 118، 119، 127، 128، 129، 130، 131، 132، 133، 134، 135، 137، 138، 139، 140، 141، 143، 144، 145، 147، 148، 149، 150، 151، 152، 155، 156، 157، 159، 160، 163، 165، 166، 167، 168، 178، 186، 187، 204، 208، 209، 210، 212، 213، 214، 216، 220، 223، 233، 234، 235، 236، 237، 238، 239، 240، 241، 242، 243، 244، 252.

أحمد بن هني: 97.

أحمد بن عيسى المستغانمي: 97.

أحمد المقري التلمساني: 101.

أحمد هني: 85.

أحمد الشريف الزهار: 45، 46، 47، 49، 50، 51، 275، 278.

أحمد بن ثابت: 119.

أحمد بن عامر البرجي: 105.

أحمد بن أعمر بن الخضير المهاجي: 183.

أحمد بن يوسف الملياني: 193.

أحمد أبو العباس عبد الله الباشا: 195.

أحمد بن التهامي: 197.

أحمد ابن عمار: 236، 261.

أحمد بن علي بوشنتوف: 198.

أرامبورو دون جوزيف: 23، 26.

إبراهيم الملياني الباي: 36، 57، 58.

الأغا بن عودة المزاري: 22، 47، 52، 53، 55، 56، 59، 63، 65، 79، 182، 188، 210، 246، 276، 277، 283، 294، 295، 296، 297، 298، 299، 300، 303، 304، 318، 321، 326، 327، 347، 350.

أوزن حسن: 54، 112، 268.

أمحمد بن الشارف: 97.

إبراهيم التازي: 120، 238.

الأمير عبد القادر: 176، 183، 198، 209، 245، 301، 311، 312، 313، 314، 315، 316.

إسحاق: 267.

إميرت: 276.

ألفرد بل: 289.

إبراهيم الخروطي: 297.

-ب-

بشهاو الفغاسي: 356.

بوعلام بن الطيب السجراري: 323.

بوكابوس محمد بن عثمان: 61، 182، 333، 334، 335.

بوي: 311.

البوعبدلي: 275.

بوجناح: 273، 278، 279.

البوصيري: 95.

البخاري: 95، 109، 179، 182، 185، 210، 215، 235.

ابن الأحرش: 331.

ابن دهماء العامري: 300.

ابن عقيل: 95.

ابن الشاهد: 236.

ابن خديجة: 25.

بن عبد الله بن حواء التجيني الدرقاوي: 295.

بكري: 273، 278، 279.

بابا حسان الداي: 273، 278.

بيدرو نافارو: 78.

بايسونال: 27.

-ج-

جلال يحيى: 37.

جرير بن عبد الله: 132.

الجنرال دولاروك: 355، 356.

-د-

الدكتور شو: 27، 207.

دي غرامونت: 283.

الداي حسين: 315، 348، 352.

-ه-

هندبول الفغاسي: 356.

هنري تشرشل: 312.

-و-

والزين إسترهازي: 46، 49.

-ز-

زولة: 259.

زينب جعني: 285.

-ح-

حسن آغا: 25، 219.

حسن بن خير الدين: 22، 23، 267.

الحاج خليل الباي: 36، 59، 176، 299، 318.

الحاج عثمان بن إبراهيم: 57، 58، 176، 201.

حسن بن موسى الباي: 58، 62، 181، 198، 276، 292، 294، 295، 296، 297، 298، 299، 300، 301، 302، 303، 304، 305، 308، 311، 312، 313، 346، 347، 348، 349، 350، 351، 352.

حسن بن علي بن محمد بن عمر العجيمي: 97.

حمدان بن عثمان خوجة: 174، 272.

الحاج بن عودة الغبريني: 192.

الحاج محمد البوشيخي: 295.

الحاج الموفق الكبير بن سعيد الشقراني: 299.

الحاج علي التماسيني: 343، 346، 348، 349.

الحجاج بن يوسف: 306.

الحاج أحمد باي: 315، 316.

حسن باشا والي طرابلس: 316.

حسن خوجة: 323، 337.

-ط-

الطيب بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم اليملحي: 340.

الطيب بن المختار الغريسي: 177.

الطالب محمد: 356.

الطاهر بن حوا: 84، 95، 96، 100، 101، 103، 106، 107، 109، 145، 152، 162، 165، 166، 174، 189، 190، 191، 207، 215، 234.

الطاهر بن عبد القادر المشرفي: 199.

طالبي عطاء الله: 216.

-ي-

يوسف بن مصطفى بوشلاغم: 56، 57.

-ك-

الكونت مونطمار: 79.

-ل-

لوجي دو تاسي: 180، 292.

ليكليرك: 213.

-م-

مصطفى بوشلاغم: 25، 26، 46، 51، 52، 53، 54، 55، 63، 73، 78، 90، 112، 128، 176، 228، 244.

محمد بكداش: 25، 26، 53، 54، 112، 118، 119، 137، 244، 268.

محمد بن عثمان الكبير: 26، 46، 52، 59، 60، 63، 73، 79، 84، 94، 95، 96، 102، 106، 110، 113، 117، 118، 119، 120، 121، 124، 127، 130، 134، 135، 136، 137، 138، 139، 140، 141، 142، 143، 147، 148، 149، 150، 151، 152، 153، 154، 155، 156، 157، 159، 160، 166، 168، 174، 177، 178، 179، 184، 185، 186، 187، 188، 189، 190، 191، 192، 193، 201، 202، 203، 204، 206، 207، 208، 209، 210، 211، 212، 213، 214، 215، 216، 217، 218، 219، 220، 222، 223، 224، 227، 233، 234، 235، 236، 237، 238، 239، 241، 242، 243، 244، 246، 247، 248، 249، 250، 251، 252، 253، 254، 255، 256، 262، 263، 264، 265، 266، 267، 268، 276، 282، 283، 311، 336، 344، 352، 353.

محمد بن يوسف الزياني: 48، 59، 97، 212، 291، 297، 303، 304، 309، 351.

محمد بن عبد الله الجيلالي: 84، 93، 94، 95، 100، 103، 105، 106، 107، 108، 109، 129، 145، 149، 151، 152، 167، 189، 190، 191، 207، 215، 234، 352، 353.

محمد المصطفى ابن زرفة الدحاوي: 112، 113، 114، 115، 120، 123، 124، 125، 126، 138، 140، 141، 142، 143، 145، 146، 147، 149، 150، 152، 153،

155، 156، 157، 158، 159، 160، 161، 162، 164، 166، 167، 174، 188، 190، 191، 217، 218، 233، 234، 238، 245، 246، 247، 248، 249، 250، 251.

محمد بن رقية الجديري التلمساني: 116، 117، 218.

محمد بن عبد الله البوشيخي: 298.

محمد المزاري: 298، 313.

محمد الكبير التيجاني: 343، 346، 347، 348، 349، 350، 351، 352، 354.

محمد الحبيب التيجاني: 343، 346، 347.

محمد ولد قدور البحثاوي: 351.

محمد بن سيدي محمد العيد التيجاني: 356.

محمد الدرباس: 355.

محمد بن موسى الباي: 25.

مولاي بالحميسي: 28.

محمد بن عثمان باشا الداي: 44، 59، 273، 274.

محي الدين المسراتي: 46، 56.

مسلم بن عبد القادر الوهراني: 53، 56، 59، 60، 61، 283، 284، 292، 304، 305، 321، 324، 325، 328، 330، 336، 337.

مصطفى الأحمر المسراتي: 56، 57.

محمد أبو طالب المجاجي المسراتي: 57.

مصطفى قائد الذهب المسراتي: 57.

محمد عثمان: 59، 60، 239، 244، 252، 268.

مصطفى بن عبد الله العجمي: 61، 253.

مولاي إسماعيل: 80، 187.

مولاي محمد: 80.

محمد بن عثمان الملقب بالمقلش: 60، 179، 182، 183، 188، 192، 306، 327، 328، 329، 330، 331، 332، 335، 338.

مصطفى الرماصي: 84، 85، 86، 87، 88، 89، 99، 101، 102، 103، 104، 105، 107، 108، 109، 144، 206.

محمد الحلفاوي: 84، 87، 112، 115، 119، 129، 131.

محمد أبو راس المازوني: 85.

محمد بن عبد القادر بن عبد الكريم: 142.

محمد بن عبد الرحمن البيدري: 86.

محمد بن علي الشريف الجعدي الجزائري: 88، 97.

المختار أنكروف: 236.

محمد بن علي بن الخروبي القلعي: 88.

مالك بن أنس: 89، 94، 95، 205، 260.

محمد المنور التلمساني: 90.

محمد بن محمد بن عربي البناني المكي: 90.

محمد بن محمد شهاب الدين الأنصاري المدني: 90.

محمد بن حسن الميقاتي الإسكندري: 90.

مفتاح الدين أبي حسام الدين البخاري: 90.

محمد الطاهر المشرفي: 91.

مشرف بن عبد الرحمن مسعود: 90.

محمد بن القندوز المستغانمي: 104.

محمد بن علي السنوسي: 97، 100، 104، 302.

محمد بن يوسف: 146.

محمد الحجري: 104.

محمد بن أبي سيف: 146.

محمد بن حوا بن يخلف: 107، 197، 201.

محمد بوشنافي: 111.

محمد بن أقوجيل: 145.

محمد الصغير بن أحمد بن خدة الكتروسي: 196.

محمد بن المهدي الكتروسي: 175، 200.

المهدي بن أحمد بن خدة الكتروسي: 175، 176.

مصطفى بن المختار: 177، 259.

محمد بن عثمان: 318.

محمد بن سعد اليبدري التلمساني: 181.

مولاي عبد المالك: 187.

محمد بن الجيلاني الخروبي: 188.

محمد بن عمر: 191.

محمد بن عبد القادر بن المختار: 197.

محمد بن عبد الله سقط: 198.

محمد صلى الله عليه وسلم: 205.

محمد بن علي بن سحنون الراشدي: 234.

محمد بن صالح العنتري: 255، 274، 277.

المكودي: 260.

محمد بن جعدون: 260.

محمد بن مالك: 260.

محمد بيرم: 261.

مولاي سليمان: 261، 327، 335، 338، 342، 345.

مولاي عبد الرحمن: 335.

مصطفى باشا الداي: 273، 278، 279.

مؤيد محمود حمد المشهداني: 280.

محفوظ سماتي: 288.

محمد ابن أحمد الصدمي: 295.

محمد بن قريد الغربي: 296.

مصطفى بومرزاق الباي: 347.

محمد بلقندوز القداري التجيني: 300، 301، 302، 303، 308.

محي الدين القادري: 90، 176، 179، 183، 301، 311، 312، 313، 314، 316، 320.

محمد بن عبد الرحمن اليبدري التلمساني: 307.

مصطفى بن إسماعيل: 313.

مصطفى العجمي الباي: 323، 324، 327، 332، 347.

مختار بونقاب: 326.

محمد بن قدور: 334.

محمود الكردي: 341.

مولاي العربي الدرقاوي: 319، 320، 321، 322، 327، 328.

-ن-

ناصر الدين سعيدوني: 30، 36، 38، 42، 66، 334.

نوشي: 27.

الناصر بن علي بن عبد العظيم: 258.

-س-

سيدي محمد بن علي: 59.

سيدي محمد السنوسي: 59، 176.

سيدي عمر بن دوبة: 85.

سيدي العربي بن الحطاب: 85.

سيدي محمد بن الشارف المازوني: 88.

سيدي عبد الرحمن أبي زيد الراشدي: 88.

سيدي محمد الصحراوي: 89.

سيدي بن يخلف: 94.

سيدي محمد بوجلال 93.

سي بن عبد القادر بن البوري: 152.

سيدي محمد بن عودة: 176، 179، 329.

سيدي محمد الهواري: 176.

سيدي بوبكر ولد سيدي الشيخ: 180.

سيدي أحمد بومعزة: 198.

سيدي عبد الرحمن بن أحمد بومعزة: 198.

سيدي المداني ابن عطاء الغريسي: 299.

السلطان محمود: 275.

السايح الباي: 25.

سعيدوني: 275.

سعيد بن محمد العقباني: 197.

سعيد عبد الله المنداسي: 281، 291، 235، 236.

سعيد قدورة: 87.

السنوسي بن عبد القادر بن السنوسي الدحاوي: 313.

-ع-

عبد النبي بزاغلي الفغاسي: 356.

عامر الشعبي: 306.

عبد الرحمن بن هشام السلطان: 308.

عبد المجيد السلطان: 314.

عبد القادر بن السنوسي: 259.

عبد الكريم محمد الفكون: 260.

عبد الرحمن التلمساني: 261.

عبد الرحمن الثعالبي: 193.

عبد الرحمن الجامعي: 85، 87، 109، 115.

عبد الرحمن التوجيني: 245.

عبد الرحمن بن علي المعروف بدحو بن زرفة: 177، 245.

عبد القادر المشرفي: 89، 90، 91، 92، 93، 103، 105، 108، 116، 145، 199، 223، 229، 230، 231، 232، 260.

عبد القادر الجيلاني: 119.

عبد القادر بن المختار: 177.

عبد القادر ابن الشريف الدرقاوي: 179، 183، 188، 192، 253، 311، 318، 319، 320، 321، 322، 323، 324، 325، 326، 327، 328، 329، 330، 331، 332، 333، 334، 337، 338، 339، 347.

عبد القادر الأطرش: 199.

عبد القادر بن زيان: 263.

عبد الله بن حواء: 188، 207، 215.

عبد المؤمن بن علي: 137.

عبد الرحمن هني: 99.

عيسى السكتاني: 101.

عقبة بن عامر: 127.

علي بن يوسف بن تاشفين: 137.

علي بن عبد الرحمن: 96.

علي بن أبي طالب: 258.

عمرو التراري المشرفي: 85، 198.

عمر باشا الداي: 62، 273.

عروج بربروس: 218، 267.

علي باشا الداي: 61، 273.

عثمان باشا: 219.

-ف-

فرقان الفليتي: 295.

فونتير دي بارادي: 47.

فاطمة الزهراء: 93، 258.

الفيروز آبادي: 206.

-ص-

صالح فركوس: 44.

صالح عباد: 30، 36، 37، 80.

صالح باي: 208، 255، 274.

صلاح الدين الأيوبي: 238.

-ق-

قدور المحلي: 146.

قدور بن الصحراوي: 183.

قدور الكبير بن إسماعيل البحثاوي: 216.

قدور الصغير بن إسماعيل البحثاوي: 334، 336، 337.

قارة بغلي: 61، 62.

-ر-

رين لويس: 26.

رابح بونار: 305.

رمضان بولكباشي: 219.

-ش-

شعبان الزناقي الباي: 25، 53، 118.

شمس الدين التتائي: 101، 104، 110.

الشارف بن تكوك: 302، 308.

الشيخ هني: 84، 97، 98، 102، 141.

الشيخ الهواري: 238.

الشيخ الدردير: 104.

الشيخ العربي بن نافلة: 261.

الشيخ البناني الفاسي: 104.

-ت-

توفيق دحماني: 286.

تيدنا: 202.

-خ-

خالد بن زيد: 127.

خير الدين: 218.

-ض-

ضياء الدين خليل بن إسحاق موسى بن شعيب: 86، 95، 104، 206، 260.

فهرس الأماكن والبلدان

-أ-

أكس أون بروفانس: 355.

آرزيو: 24، 73.

إسبانيا: 79، 137، 218.

إيزلي: 80.

إيفري وادي: 135، 140، 143، 145، 146، 148، 153، 161، 162، 246.

الأندلس: 118، 122، 123، 128.

الأفوال: 164، 166.

الأغواط: 185، 186، 224، 333.

أبي سمغون القرية: 341، 342، 345.

الأبيض سيدي الشيخ: 340.

إسطنبول: 58، 355، 356.

آسفي المدينة: 339.

-ب-

البيض: 24.

بني صاف: 24.

بني شقران: 26.

بني مريانن: 330، 337.

بني مراد: 334.

بريطانيا: 187.

البرج: 212.

برج العيون: 167.

بني راشد قلعة: 23، 24، 25، 54، 259.

البرتغال: 137.

البريدية: 139.

-ج-

الجزائر: 27، 28، 29، 31، 35، 42، 43، 44، 46، 47، 48، 52، 53، 56، 60، 61، 67، 70، 72، 80، 83، 88، 104، 111، 117، 125، 128، 164، 173، 174، 180، 182، 184، 187، 188، 197، 202، 204، 206، 207، 216، 217، 221، 227، 228، 232، 254، 255، 258، 259، 260، 267، 269، 272، 273، 274، 275، 276، 278، 279، 280، 281، 283، 284، 285، 287، 290، 291، 292، 304، 305، 307، 308، 314، 315، 316، 318، 319، 320، 321، 322، 323، 327، 332، 335، 338، 340، 347، 352، 355، 356، 357.

جديوية: 312، 331.

-ه-

هبرة وادي: 329.

هونت: 259.

-و-

وهران: 22، 23، 24، 25، 26، 30، 44، 45، 46، 47، 52، 53، 54، 55، 56، 57، 58، 59، 60، 61، 62، 63، 64، 65، 67، 68، 71، 72، 77، 78، 79، 84، 87، 89، 91، 92، 93، 94، 95، 96، 97، 98، 100، 101، 102، 103، 104،

105، 106، 107، 108، 109، 110، 111، 112، 113، 114، 116، 117، 118،
119، 120، 121، 122، 123، 124، 125، 126، 127، 128، 130، 134، 135،
136، 137، 138، 139، 140، 141، 142، 143، 146، 147، 150، 152، 153،
154، 155، 157، 159، 160، 161، 162، 163، 164، 166، 167، 168، 169،
174، 176، 177، 178، 179، 181، 186، 187، 188، 189، 190، 192، 193،
207، 211، 214، 215، 217، 219، 220، 221، 223، 224، 227، 228، 229،
230، 231، 232، 233، 235، 237، 238، 240، 241، 246، 247، 248، 249،
250، 252، 260، 261، 263، 264، 265، 266، 267، 268، 270، 272، 279،
282، 283، 291، 293، 294، 295، 296، 299، 301، 311، 312، 313، 315،
316، 324، 325، 326، 327، 328، 329، 330، 332، 334، 336، 345، 347،
350، 351.

وجدة: 80.

وادي أرهيو: 300.

واريزان: 300.

-ح-

الحمام وادي: 91، 141.

-ط-

طارق جبل: 187، 252.

الطائف: 123.

طرابلس: 222.

-ي-

اليعقوبية: 330.

-ك-

كرسوط جبل: 259.

الكرط: 90، 91، 212، 350.

-م-

مازونة: 22، 23، 24، 25، 30، 36، 53، 54، 61، 65، 85، 86، 97، 98، 99، 100، 101، 102، 106، 123، 146، 162، 163، 175، 195، 196، 200، 201، 260، 301، 302.

معسكر: 23، 24، 25، 26، 47، 53، 54، 55، 58، 69، 70، 72، 85، 86، 87، 90، 93، 96، 101، 102، 103، 109، 120، 121، 124، 140، 141، 143، 145، 147، 152، 154، 163، 183، 202، 203، 204، 205، 206، 207، 209، 210، 211، 212، 213، 215، 221، 223، 233، 234، 235، 238، 254، 259، 260، 263، 307، 316، 323، 324، 326، 328، 329، 330، 349، 350، 351، 353.

مستغانم: 23، 24، 25، 40، 54، 55، 57، 73.

موريتانيا: 342.

مصر: 102، 205، 260، 261، 341، 342.

المدية: 46.

مراكش: 101.

مسرغين: 150، 162، 191.

المغرب الأقصى: 61، 78، 79، 80، 95، 101، 104، 187، 205، 222، 252، 259، 278، 287، 308، 309، 320، 327، 328، 336، 339، 343، 347، 353.

المرسى الكبير: 24، 68، 78، 79، 80، 111، 114، 115، 117، 137، 140، 143، 148، 152، 229.

المائدة جبل: 135، 143، 145، 148، 166، 169.

الملوية وادي: 24.

مينا وادي: 65، 70، 71، 72، 73، 153، 253، 322، 323.

مرغوسة: 332.

متيجة سهل: 259.

مجاجة: 259.

-ن-

ندرومة: 80، 146، 318.

-س-

السودان: 26، 49، 342.

السينغال: 342.

سعيدة: 64.

سيق: 326، 328.

سباو: 46.

سيدي معروف: 142.

سيدي داوود: 329.

سيدي مبارك: 329.

-ع-

عين ماضي: 178، 333، 339، 340، 341، 344، 345، 346، 347، 348، 349، 350.

عين السدرة: 331.

العراق: 260.

العبد وادي: 253، 331.

عنابة: 279.

عمور جبل: 346.

-ف-

فروحة واد: 184.

فجيج إقليم: 335.

فرطاسة: 253، 323، 324، 326.

فلسطين: 261.

الفضة وادي: 72.

فرنسا: 281، 313، 355.

فاس: 26، 50، 93، 95، 205، 261، 320، 340، 341، 342، 343، 345، 353، 354.

-ق-

قسنطينة: 23، 46، 208، 260، 261، 331، 348، 355، 356.

قورارة: 335.

القسطنطينية: 123.

القاهرة: 85.

القيطنة: 91، 176، 177، 179، 194، 260، 311، 313، 320.

-ر-

الروينة وادي: 72.

رماصة: 84، 89، 103، 109.

-ش-

الشلف وادي: 23، 64، 70، 72، 312، 332.

الشلف: 64، 68، 70، 71، 80.

الشام: 261.

شرشال: 192.

-ت-

تازة: 341.

تماسين: 356.

تافنة وادي: 333.

تاسالة جبال: 55، 311، 330.

تونس: 57، 187، 205، 261، 283، 341.

تجانة أو بني توجين: 339.

تيارت: 24، 71.

تلمسان: 24، 25، 26، 36، 47، 50، 53، 54، 56، 57، 58، 59، 68، 86، 87، 101، 102، 112، 140، 146، 153، 181، 201، 212، 278، 298، 301، 307، 308، 309، 316، 330، 334، 340، 341.

تليلات وادي: 142.

توات: 335، 341.

تقرت: 355.

-غ-

غريس: 26، 68، 95، 184، 234، 245، 331.

غليزان: 153.

غدامس: 355.

فهرس الشعوب والقبائل

-أ-

أولاد سيدي الشيخ: 24، 180.

أولاد عامر: 30، 329، 330، 336.

أولاد البقرة: 199.

أولاد سيدي عريبي: 65.

أولاد صبيح: 65.

أولاد العباس: 65.

أولاد عبد الله: 73، 92، 231.

أولاد بليل: 320، 321.

أولاد علي: 92، 231.

أولاد سيدي دحو: 245.

أولاد الزائر: 330، 338.

أولاد بوسيف: 355.

الأندلسيون: 41.

الأتراك: 22، 41، 42، 45، 61، 68، 73، 174، 176، 180، 183، 184، 198، 246، 247، 267، 273، 274، 277، 278، 279، 280، 283، 284، 285، 286، 287، 290، 291، 292، 301، 302، 304، 305، 306، 310، 314، 315، 317،

321، 323، 325، 326، 327، 328، 335، 336، 337، 339، 342، 344، 346، 349، 352، 354، 355، 357.

الأحرار بلاد: 321.

الأنجاد: 322.

-ب-

بني شقران: 300، 329.

بني يزناسن: 333.

بني عامر: 54، 55، 73، 80، 92، 93، 115، 116، 117، 228، 300.

بني راشد: 54.

بني يحيى: 72.

بني عثمان: 198.

بني إسماعيل: 127.

بوحلوان: 72.

البحايثية: 65، 66.

البناعدية: 65، 66.

البلاغة: 65، 66.

البرجية: 64، 65، 66، 300، 329، 331.

-د-

الدوابر: 30، 55، 64، 65، 66، 67، 69، 70، 71، 73، 325، 329.

-و-

الونازرة: 92، 231.

ولهاصة: 181، 308.

-ز-

الزمالة: 30، 63، 64، 65، 66، 67، 70، 71، 72، 300، 325، 329.

الزوايد: 355.

زمالة البغدادي: 72.

زمالة الحاج: 72.

-ح-

الحطمان: 355.

الحشم: 80، 183، 184، 300، 325، 331، 349، 350، 351، 352، 354.

حميان: 92، 231.

-ي-

اليعقوبية: 333.

اليهود: 40، 106، 213، 273، 279.

-ك-

كسانة: 320.

كرشتل: 92، 229، 231.

الكراغلة: 41، 42، 56، 91، 106، 315، 330.

الكراطة: 65، 66.

الكتروسي بيت: 175، 195، 200.

-م-

المحال: 57، 73.

المكاحلية: 64، 65، 66، 71، 146.

المجاهر: 30، 300، 329، 331، 332.

المشارف أسرة: 90، 91، 198.

مغراوة: 130.

مخزن الصحاري: 72.

مغساتن: 355، 356.

-ن-

النقايبية: 65، 66.

-س-

سويد: 310.

-ع-

عبدة قبيلة: 339.

عزارة: 72.

العرهوبيين: 90.

العيديون: 96.

عبيد: 55.

-ف-

فغاس: 355، 356.

فليتة: 58، 61، 72، 300، 332.

الفرس: 238، 268.

فجيج: 169.

-ق-

قيزة: 73، 92، 231.

-ش-

شافع: 92، 231.

-ت-

التجاجنة: 201.

ترارة: 333.

-غ-

غمرة: 92، 231.

الغبريني أسرة: 192.

الغرابة: 64، 65، 66، 146، 326، 329.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية حفص.
- البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري، ج4، ط4، بيروت، عالم الكتب، 1985.

أولا- المصادر والمراجع باللغة العربية:

أ-المصادر غير المطبوعة:

1- الوثائق:

- وثائق تخص أسرة الكتروسي بمازونة:

- وثيقة ملك عائلة الكتروسي بمازونة مؤرخة بسنة: 1080هـ/1669م، وهي صادرة عن باشا الجزائر أحمد أبو العباس عبدالله، وموجّهة إلى الشيخ أحمد بن خدّة بن علي الكتروسي قَصْد تعيينه مُفتيًا بمازونة وسائر عمالتها على مذهب مالك.

- وثيقة ملك عائلة الكتروسي بمازونة مؤرخة بسنة: 1124هـ/1712م، وهي عبارة عن ظهير صادر عن مصطفى باي صاحب الولاية الغربية، وموضوعه تعيين الفقيه العالم محمد الصغير بن أحمد بن خدّة الكتروسي إمامًا بجامع سيدي عيسى وعزوز، ومنحه امتيازات مادية ومعنوية.

- وثيقة ملك عائلة الكتروسي بمازونة مؤرخة بسنة: 1215هـ/1800م. وهي عبارة عن ظهير وقَّعه خليفة الباي الحاج أحمد، وموضوعه تعيين الفقيه العالم الشيخ محمد بن المهدي -إمام مسجد أبي ذلول بمازونة- مُفتيًا وخطيبًا بها، ومنحه امتيازات مادية ومعنوية متعدِّدة أبرزها وُجُوب احترامه وإعفائه من جميع المطالب المخزنية (الضرائب).

- وثيقة ملك عائلة الكتروسي بمازونة مؤرخة بسنة: 1238ه/ 1822م.

- وثيقة تاريخية موجودة بخزانة مدرسة مازونة الفقهية مؤرخة في 09 فيفري 1910م، إلى السيد المتصرف بدائرة أرنو (سيدي محمد بن علي: غليزان)، كاتبها غير مذكور.

2- أرشيف ما وراء البحار بأكس أون بروفانس (Aix- en- Provence):

- رسالة من توارق الأهقار إلى الجنرال دولاروك حاكم قسنطينة، وثيقة بأرشيف ما وراء البحار بأكس أون بروفانس -فرنسا- تحت رقم: 22H28 .

– رسالة من الجنرال دولاروك حاكم قسنطينة إلى سيدي محمد سيدي محمد العيد التيجاني شيخ الطريقة التيجانية بزاوية تماسين، مؤرخة في: 11 ديسمبر من سنة 1897م. وثيقة بأرشيف ما وراء البحار بأكس أون بروفانس –فرنسا– تحت رقم:
A.O.M,16H45 : « Personnages religieux 1895-1911 ».
– رسالة من سيدي محمد بن سيدي محمد العيد التيجاني شيخ الطريقة التيجانية بزاوية تماسين إلى الجنرال دولاروك الحاكم الكبير بإيالة قسنطينة، مؤرخة في: 28 ديسمبر من سنة 1897م، وثيقة بأرشيف ما وراء البحار بأكس أون بروفانس –فرنسا– تحت رقم: 16H51.
- A.O.M, 16H39 : Etude d'ensemble sur les confréries religieuses et zaouïas Musulmanes des territoires du sud. Aix-en- Provence.
- A.O.M, 16H2 : Répartition par tribu de la population indigène entre les divers ordres religieux de l'Algérie. Aix- en-Provence.
- A.O.M, 16H44 : Sur sujet des Marabouts d'Ain Madhi, 20 février 1869.Aix- en-Provence.
- A.O.M, 16H44 : Sur sujet de ziara dessinées à la zaouïa d'Ain Madhi. Aix- en-Provence.
- A.O.M, 2U1 : L'organisation du culte musulman en Algérie : surveillance et police des Mosquées, marabouts, zawiyas et autres établissements religieux. Aix- en- Provence.

3– المخطوطات:

4– الدحاوي المصطفى ابن زرفة: الرحلة القمرية في السيرة المحمدية، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 3322.

5– المشرفي أبو العربي: ياقوتة النسب الوهاجة وفي ضمنها التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 3326.

6– الناصر أبو راس: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 1632.

7––––، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مخطوط بخزانة الشيخ البشير محمودي، البرج– معسكر.

8––––، الخبر المعرب عن الأمر المغرب الحال بالأندلس وثغور المغرب، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 3182.

9––––، الخبر المعرب عن الأمر المغرب الحال بالأندلس وثغور المغرب، مخطوط بخزانة الشيخ البشير محمودي، البرج– معسكر.

10----، الحلل السندسية في فتح وهران والجزيرة الأندلسية، مخطوط بخزانة الشيخ البشير محمودي، البرج- معسكر.

11----، زهر الشماريخ في علم التاريخ، مخطوط بخزانة الشيخ بلقرد بوكعبر، معسكر.

12----، الدرة الأنيقة في شرح العقيقة، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 3195.

13- الرماصي مصطفى: شرح حاشية شمس الدين التتائي، ج1، مخطوط بخزانة الشيخ البشير محمودي، البرج- معسكر.

14- التلمساني محمد بن رقية: الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 2603.

ب- المصادر المطبوعة:

15- ابن فرحون إبراهيم بن علي: الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، ج1، تحقيق: علي عمر، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 2003.

16- بن العنتري محمد الصالح: فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، مراجعة وتقديم وتعليق: يحي بوعزيز، الجزائر، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، 2007.

17----، مجاعات قسنطينة، تحقيق وتقديم: رابح بونار، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974.

18- بربروس خير الدين: مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة: محمد دراج، الجزائر، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، 2010.

19- الجامعي عبد الرحمن: فتح مدينة وهران، تحقيق: مختار حساني، جامعة الجزائر، مخبر المخطوطات، 2003.

20- الجزائري محمد بن ميمون: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1972.

21- الدحاوي ابن زرفة: الرحلة القمرية في السيرة المحمدية، ضمن كتاب تاريخ تحرير مدينة وهران من الاحتلال الإسباني خلال القرن الثامن عشر الميلادي من خلال مخطوطتين، تحقيق: مختار حساني، جامعة الجزائر، مخبر المخطوطات، 2003.

22- الوهراني مسلم بن عبد القادر: تاريخ بايات وهران المتأخر أو خاتمة أنيس الغريب والمسافر، تحقيق وتقديم: رابح بونار، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974.

23- الزهار الحاج أحمد الشريف: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار: نقيب أشراف الجزائر، تحقيق وتقديم: أحمد توفيق المدني، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980.

24- الزياني محمد بن يوسف: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق: المهدي البوعبدلي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978.

25- المزاري الآغا بن عودة: طلوع سعد السعود: في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ج1، ج2، تحقيق: يحي بوعزيز، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990.

26- المختاري عبد القادر بن محي الدين(الأمير): مذكرات الأمير عبد القادر: سيرة ذاتية، تحقيق: محمد الصغير بناني وآخرون، الجزائر، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، 2008.

27- المختاري الطيب بن المختار الغريسي: كتاب القول الأعم في بيان أنساب قبائل الحشم، ضمن كتاب مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب، في أربعة كتب للهاشمي بن بكار، تلمسان، المطبعة الخلدونية، 1961.

28- المختاري محمد بن الأمير عبد القادر: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج1، الإسكندرية، المطبعة التجارية عرزوزي وجاويش، 1903.

29- المغربي علي حرازم ابن العربي برادة: جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التيجاني، المكتبة التجارية الكبرى، د.ت.

30- المشرفي أبو حامد العربي: ياقوتة النسب الوهاجة وفي ضمنها التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة، دراسة وتحقيق: بن عمر حمدادو والعربي بوعمامة، الجزائر، دار قرطبة للنشر والتوزيع، 2011.

31- المشرفي عبد القادر: بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تحقيق وتقديم: محمد بن عبد الكريم، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، د.ت.

32- الناصري أبو العباس أحمد بن خالد: الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى: الدولة العلوية، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، المغرب، دار الكتاب، 1956.

33- الناصر أبو راس: فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته: حياة أبي راس الذاتية والعلمية، حققه وضبطه وعلق عليه: محمد بن عبد الكريم الجزائري، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990.

34----، الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية، الجزائر، مطبعة فونطانا، 1903.

35----، الشقائق النعمانية في شرح الروضة السلوانية في علم الصيد، دراسة وتحقيق: حمدادو بن عمر، بيروت، دار الكتب العلمية، 2010.

36- السيوطي جلال الدين: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج1، تحقيق: أبو الفضل محمد إبراهيم، مطبعة عيسى البابلي الحلبي وشركاه، 1964.

37- العياشي أحمد بن الحاج سكيرج: كشف الحجاب عمن تلاقى مع الشيخ التيجاني من الأصحاب، لبنان، المكتبة الشعبية، 2002.

38- العسقلاني شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج6، نشر: محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، بيروت، دار المعرفة، د.ت.

39- عياض القاضي أبو الفضل عياض بن موسى: الغنية: فهرست شيوخ القاضي عياض، تحقيق: محمد بن عبد الكريم، ليبيا- تونس، الدار العربية للكتاب، 1978.

40- العلوي ابن طباطبا: عيار الشعر، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع، الرياض، دار العلوم للطباعة والنشر، 1985.

41- الفاسي الحسن بن محمد الوزان ليون الإفريقي: وصف إفريقيا، تحقيق: محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983.

42- الراشدي أحمد ابن سحنون: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم: المهدي البوعبدلي، الجزائر، مطبعة البعث، 1973.

43- الراشدي أحمد بن عبد الرحمن الشقراني: القول الأوسط في أخبار بعض من حلّ بالمغرب الأوسط، تحقيق: ناصر الدين سعيدوني، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1991.

44- التونسي خير الدين: أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تونس، مطبعة الدولة، 1867.

45- التوجيني أبي زيد عبد الرحمن بن عبد الله: عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس، الجزائر، دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع، 2005.

46- التلمساني أحمد بن هطال: رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تحقيق وتقديم: محمد بن عبد الكريم، القاهرة، عالم الكتب، 1969.

47- تشرشل شارل هنري: حياة الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم: أبو القاسم سعد الله، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 2004.

48- خوجة حمدان بن عثمان: المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق: محمد العربي الزبيري، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 2006.

49----، إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز عن الوباء، تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم، الجزائر، وزارة الثقافة، 2007.

50- خوجة حسين: ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، تحقيق: الطاهر المعموري، ليبيا- تونس، الدار العربية للكتاب، 1975.

51- الضبي أبو جعفر أحمد بن يحيى: بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، دار الكتاب العربي، 1967.

ج- المراجع:

52- الأزمي أحمد: الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي خلال القرن التاسع عشر الميلادي، ج1، المغرب، دار الطبع فضالة، 2000.

53- بوحوش عمار: التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1997.

54- بوعزيز يحي: مدينة وهران عبر التاريخ، الجزائر، دار البصائر للنشر والتوزيع، 2009.

55----، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، الجزائر، دار الهدى، 2009.

56----، المساجد العتيقة في الغرب الجزائري، الجزائر، دار البصائر للنشر والتوزيع، 2009.

57----، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا 1500- 1830، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1980.

58----، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1995.

59- بوغوفالة ودان: الثورة الفرنسية في الأسطوغرافيا المغاربية: دراسة تاريخية تحليلية في نماذج من كتابات القرن 13ه/ 19م، الجزائر، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، 2004.

60- بوشنافي محمد: موقف علماء معسكر من بعض القضايا السياسية للجزائر خلال العهد العثماني، ضمن كتاب جماعي تحت عنوان: معسكر: المجتمع والتاريخ، تنسيق: عبيد بوداود، الجزائر، منشورات مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر، 2014.

61- البدري عبد العزيز: الإسلام بين العلماء والحكام، الكويت، دار القلم، 1986.

62- بن شهرة المهدي: تاريخ وبرهان بمن حلّ بمدينة وهران، الجزائر، دار الريحانة للكتاب، 2007.

63- بالحميسي مولاي: مازونة مقصد الدارسين وقلعة الخليليين، الجزائر، منشورات المجلس العلمي، 2005.

64----، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979.

65- بن حموش مصطفى أحمد: المدينة والسلطة في الإسلام: نموذج الجزائر في العهد العثماني، دمشق، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، 1999.

66- بركات مصطفى: الألقاب والوظائف العثمانية، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 2000.

67- بيل ألفرد: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي إلى اليوم، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1989.

68- جلال يحي: العالم العربي الحديث: المدخل، القاهرة، المكتبة التاريخية، 1968.

69----، المغرب الكبير: العصور الحديثة وهجوم الاستعمار، ج3، بيروت، دار النهضة العربية، 1981.

70- جغلول عبد القادر: تاريخ الجزائر الحديث: دراسة سوسيولوجية، الجزائر، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، 1981.

71- جيلالي جلول: معسكر رجال وتاريخ، الجزائر، منشورات دار الأديب، 2006.

72- الجيلالي عبد الرحمن بن محمد: تاريخ الجزائر العام، ج3، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1994.

73- الدهان سامي: المديح، مصر، دار المعارف، 1984.

74- هلايلي حنيفي: أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، الجزائر، دار الهدى، 2008.

75- هيكل محمد خير: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، ج2، بيروت، دار البيارق، 1993.

76- وولف جون: الجزائر وأروبا 1500- 1830، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، الجزائر، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 2009.

77- الزبيري محمد العربي: مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث، الجزائر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1985.

78- الحداد حميد: النفي والعنف في الغرب الإسلامي، المغرب، دار إفريقيا الشرق للنشر والتوزيع، د.ت.

79- حميدة عميراوي: قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث، الجزائر، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، 2005.

80- حمودة محمود عباس: الوثائق العثمانية، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 1999.

81- الحسني عبد المنعم القاسمي: الطريقة الرحمانية: الأصول والآثار، الجزائر، دار الخليل للنشر والتوزيع، د.ت.

82- الحفناوي أبو القاسم محمد: تعريف الخلف برجال السلف، الجزائر، المطبعة الشرقية، 1906.

83----،تعريف الخلف برجال السلف، ج2، الجزائر، دار موفم للنشر، 1991.

84- الطاهر جنان: مازونة عاصمة الظهرة: ثغر حربي ومركز إشعاع حضاري، الجزائر، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، 2005.

85- الطاهر فيلالي مختار: نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني، الجزائر، دار الفن الغرافيكي للطباعة والنشر، د.ت.

86- الكعاك عثمان: موجز تاريخ الجزائر العام من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، تونس، مطبعة العرب، 1925.

87- لحسن جاكر: نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مدينة معسكر 1931-1956، الجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع، 2003.

88- المدني أحمد توفيق: أبطال المقاومة الجزائرية: حمدان عثمان خوجة، أحمد باي قسنطينة، الأمير عبد القادر والدولة العثمانية، الجزائر، دار البصائر، 2009.

89----، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766- 1791م، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986.

90----، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492- 1792، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1976.

91- مهيريس مبروك: المساجد العثمانية بوهران ومعسكر، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 2009.

92- الميلي مبارك بن محمد: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، الجزائر، مكتبة النهضة الجزائرية، 1964.

93- المستغانمي عبد القادر بن عيسى، مستغانم وأحوازها عبر العصور: تاريخيا وثقافيا وفنيا، الجزائر، المطبعة العلاوية بمستغانم، 1996.

94- مفلاح محمد: أعلام من منطقة غليزان: تراجم منذ القدم إلى غاية القرن التاسع عشر ميلادي، الجزائر، دار هومه للطباعة والنشر، 2006.

95----، أعلام من منطقة غليزان: أعلام التصوف، شعراء الملحون بمنطقة غليزان، الجزائر، دار المعرفة، 2008.

96- مفتاح عبد الباقي: أضواء على الشيخ أحمد التجاني وأتباعه، الجزائر، 1988.

97- مجموعة أساتذة: الحياة الروحية في الإسلام: معسكر رجال وتاريخ، في أعمال ملتقى الفكر الإسلامي الواحد والعشرين، ج1، معسكر، وزارة الشؤون الدينية خلال: 26 أوت- 01 سبتمبر 1987.

98- نور الدين عبد القادر: صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، الجزائر، نشر كلية الآداب الجزائرية، 1965.

99- نسيب محمد: زوايا العلم والقرآن بالجزائر، الجزائر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.

100- سماتي محفوظ: الأمة الجزائرية: نشأتها وتطورها، ترجمة: محمد الصغير بناني وعبد العزيز بوشعيب، منشورات دحلب، 2007.

101- سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998.

102----، تاريخ الجزائر الثقافي: من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16-20م)، ج2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981.

103----، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981.

104- سعيدوني ناصر الدين والبوعبدلي المهدي: الجزائر في التاريخ: العهد العثماني، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.

105- سعيدوني ناصر الدين: عصر الأمير عبد القادر الجزائري، الكويت، مؤسسة جائزة البابطين للإبداع الشعري، 2000.

106----، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية (1800- 1830)، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979.

107----، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر: العهد العثماني، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.

108----، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1999.

109----، ورقات جزائرية: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2000.

110----، دراسات في الملكية العقارية، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986.

111----، دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية: الفترة الحديثة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2001.

112- عباد صالح: الجزائر خلال الحكم التركي 1514- 1830، الجزائر، دار هومه للطباعة والنشر، 2005، وطبعة 2011.

113- العسلي بسام: الجزائر والحملات الصليبية 1547- 1719م، بيروت، دار النفائس، 1986.

114- فركوس صالح: المختصر في تاريخ الجزائر: من عهد الفينيقيين إلى خروج الفرنسيين 814 ق.م- 1962م، الجزائر، دار العلوم للنشر والتوزيع، 2002.

115- الصلابي علي محمد: الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط، القاهرة، دار التوزيع والنشر الإسلامية، 2001.

116- القاسمي عبد المنعم: أعلام التصوف في الجزائر، دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع، 2006.

117- قطب سيد: في ظلال القرآن، ج1، بيروت، دار الشروق، 1980.

118- شارف رقية: الكتابات التاريخية الجزائرية الحديثة خلال القرن 18م وبداية القرن 19م: دراسة تحليلية نقدية، الجزائر، دار الملكية للطباعة والنشر والتوزيع والإعلام، 2007.

119- شويتام أرزقي: المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 926-1246ه/ 1519-1830م، الجزائر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، د.ت.

120- شريط عبد الله والميلي محمد مبارك: مختصر تاريخ الجزائر: السياسي والثقافي والاجتماعي، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985.

121- خليفي عبد القادر: الطريقة الشيخية، الجزائر، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، 2010.

122- ضيف الشيخ بشير: فهرست معلمة التراث الجزائري بين القديم والحديث، ج3، الجزائر، 2002.

123- ضيف شوقي: تاريخ الأدب العربي: عصر الدول والإمارات، القاهرة، دار المعارف، 1995.

124- الضيقة حسن: الدولة العثمانية: الثقافة، المجتمع والسلطة، بيروت، دار المنتخب العربي، 1997.

د- الدوريات:

125- أوجرتني محمد: "إشكالية الخطاب الشريفي في الجزائر العثمانية: أسرة بن قانة نموذجا"، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد: السابع، قسنطينة، شوال 1427ه- نوفمبر 2006.

126- أمين محمد: "ملاحظات حول سياسة التهميش والمهمشين بولاية الجزائر العثمانية"، مجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد: 25، 2002.

127- أرزازي محمد: "الأبعاد السوسيولوجية والرمزية للممارسة الصوفية في الجزائر"، المواقف، عدد خاص بفعاليات الملتقى الدولي الأول حول الظاهرة الدينية: 14 و15 و16 أفريل 2008، جامعة مصطفى إسطمبولي، معسكر.

128- بوداوية مبخوت: "دور الطريقة الشيخية في مقاومة أولاد سيد الشيخ الثانية"، المواقف، عدد خاص بفعاليات الملتقى الدولي الأول حول الظاهرة الدينية: 14 و15 و16 أفريل 2008، جامعة مصطفى إسطمبولي، معسكر.

129- بونقاب مختار: "انتفاضة درقاوة في بايليك الغرب الجزائري 1802- 1816"، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، العدد: 03، جامعة معسكر، 2008.

130- بوركبة محمد: "جوانب من مخطوط قلعة بني راشد للشيخ أبي عمر بن عثمان القلعي"، المجلة الجزائرية للمخطوطات، العدد: الأول، جوان 2003.

131- البوعبدلي المهدي: "الرباط والفداء في وهران والقبائل الكبرى"، الأصالة، العدد: 13، مارس- أفريل 1973.

132----، "أضواء على تاريخ الجزائر في العهد التركي من خلال مخطوط الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني"، مجلة الأصالة، العدد: 08، ربيع الثاني- جمادى الأولى 1392ه/ ماي- جوان 1972.

133- بوشنافي محمد: "دور الطلبة في تحرير وهران الثاني من الاحتلال الإسباني عام 1791م من خلال مصادر معاصرة"، عصور الجديدة، العدد: 01، جامعة وهران، 2011.

134----، "هجرة العلماء الجزائريين إلى المغرب الأقصى وبلدان المشرق العربي خلال العهد العثماني 1520- 1830"، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، العدد: 04، جامعة معسكر، ديسمبر 2009.

135- بوغوفالة ودان: "أبو راس الناصري والآخر: نظرة الفقيه إلى نابليون من خلال كتاباته"، مجلة الحضارة الإسلامية، العدد: 12، جامعة وهران، 1426ه- 2005.

136- بويجرة محمد بشير: "التسامي والعبقرية عند أبي راس: قراءة في فتح الإله وفق المنهج النفسي"، مجلة قراءات: دورية لغوية أدبية محكمة يصدرها قسم اللغة العربية، العدد: الأول، المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي، معسكر، 2008.

137- بكار محمد: "الشيخ محي الدين بن مصطفى والزاوية القادرية"، آفاق فكرية، العدد: الثاني، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، ربيع 2015.

138- بلهواري فاطمة: "وصف الجنوب الصحراوي الجزائري في ظل الحكم العثماني من خلال مخطوط رحلة أبي العباس الهلالي السجلماسي"، المجلة الجزائرية للمخطوطات، العدد: السابع، جامعة وهران، 2010.

139- بلبراوات بن عتو: "الباي محمد الكبير: باي وهران 1779- 1797، حياته وسيرته"، عصور، العدد: 03، جامعة وهران، 1423ه- جوان 2003.

140- بن دحمان حفيظة: "قراءة في بحث للدكتور أبو القاسم سعد الله حول: السلطة والطرق الصوفية في المغرب العربي في العهد العثماني من خلال الوثائق المحلية"، قراءة وتعليق من طرف الطالبة في إطار الأعمال الأسبوعية المنجزة في السنة التحضيرية للماجستير، تخصص: الدولة والمجتمع في المغرب الكبير.

141- بن عامر كريمة: "الطقس الديني والضبط الاجتماعي"، المواقف، عدد خاص بفعاليات الملتقى الدولي الأول حول الظاهرة الدينية: قراءات جديدة من منظور العلوم الاجتماعية والإنسانية، أيام 14 و15 و16 أفريل 2008، جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر.

142- بن قادة صادق: "الشيخ بن حواء المستغانمي ومنظومته سبيكة العقيان: مكانتها في إنتاج المناقب الجهوية"، المجلة الجزائرية للمخطوطات، العدد: الثاني والثالث، جامعة وهران، 2004- 2005.

143- بحري أحمد: "ضرائب الجزائر العثمانية من خلال بعض الظهائر المازونية"، المجلة الجزائرية للمخطوطات، العدد: 10، جامعة وهران، 2013.

144- الجيلالي الزاوي وعبد الكريم المشرفي: "نافذة على بعض علماء معسكر: رثاء الشيخ مصطفى الرماصي لشيخه عمرو التراري المشرفي"، المجلة الجزائرية للمخطوطات، العدد: الثاني والثالث، جامعة وهران، 2004- 2005.

145- جعني زينب: "ثورة ابن الأحرش في بايلك الشرق 1800- 1807"، عصور الجديدة، العدد: 18، جامعة وهران، خريف- أكتوبر 1436ه- 1437ه/ 2015.

146- هلايلي حنيفي: "عملاء وجواسيس الإسبان في بايليك الغرب على ضوء كتاب بهجة الناظر"، مجلة الحوار الفكري، العدد: 07، جامعة قسنطينة، ذي القعدة 1426ه- ديسمبر 2005.

147----، "الثورات الشعبية في الجزائر أواخر العهد العثماني كرد فعل على سياسة التهميش"، مجلة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، العدد: 20، قسنطينة، أفريل 2006.

148- هلال عمار: "العلماء الجزائريون في فاس"، مجلة الدراسات التاريخية، العدد: 09، جامعة الجزائر، د.ت.

149- هشام عمر النور: "الظاهرة الدينية من المجتمعات القديمة إلى الحداثة"، المواقف، عدد خاص بفعاليات الملتقى الدولي الأول حول الظاهرة الدينية: قراءات جديدة من منظور العلوم الاجتماعية والإنسانية، أيام 14 و15 و16 أفريل 2008، جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر.

150- الزين محمد: "نظرة على الأحوال الصحية بالجزائر العثمانية في أواخر عهد الدايات"، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، العدد: 17، جامعة غرداية، 2012.

151- حباش فاطمة: "الوضع في منطقة الجنوب الغربي خلال العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي"، عصور، العدد: 12-13/ 14-15، جامعة وهران، 2008- 2009.

152- حاجيات عبد الحميد: "الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان"، مجلة الأصالة، عدد خاص، جويلية- أوت 1975.

153- الحمدي أحمد: "أهمية مخطوط لقطة العجلان في شرف سيدي عبد القادر بن زيان في تاريخ الجزائر الحديثة"، مجلة الحضارة الإسلامية، العدد: 12، 1426ه- 2005.

154- حمدادو بن عمر: "الجزائر الحديثة من خلال الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني لابن سحنون الراشدي"، مجلة الحضارة الإسلامية، العدد: 12، ربيع الثاني 1426ه/ جوان 2005.

155- حسن حنفي: "أبعاد الظاهرة الدينية"، المواقف، عدد خاص بفعاليات الملتقى الدولي الأول حول الظاهرة الدينية: قراءات جديدة من منظور العلوم الاجتماعية والإنسانية، أيام 14 و15 و16 أفريل 2008، جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر.

156- لبصير سعاد: "دوافع الهجرة الدينية والعلمية من الجزائر في العهد العثماني 1516-1830"، مداخلة بالملتقى العلمي الأول حول سوسيولوجية الهجرة الجزائرية في تاريخ الماضي والحاضر، ماي 2008، منشورات مخبر الدراسات والأبحاث الاجتماعية التاريخية حول الهجرة والرحلة، قسنطينة، جوان 2009.

157- ---، "المدينة المنورة مركز استقطاب العلماء الجزائريين"، مداخلة بالملتقى العلمي حول الهجرة: الحراك والمعالم الحضرية في الجزائر، جوان 2009، منشورات مخبر الدراسات والأبحاث حول الرحلة والهجرة، قسنطينة، 2011.

158- لونيسي إبراهيم: "مصطفى بن التهامي (1788- 1866م): العالم ورجل الدولة"، عصور، العدد: الثالث، جامعة وهران، ربيع الثاني 1423ه/ جوان 2003.

159- مهيرس مبروك: "المساجد العثمانية في وهران ومعسكر"، عرض وتقديم: قويدر بشار، مجلة الدراسات التاريخية، العدد: 01، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1986.

160- مسعود العيد: "حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني"، مجلة سيرتا، العدد: 03، رجب 1400ه- ماي 1980.

161- محمد غالم: "الشيخ والثورة الفرنسية: نظرة عالم جزائري معاصر لثورة 1789"، وهران، مطبوعات مركز الأبحاث في الأنتروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، نوفمبر 1995.

162- المشهداني مؤيد محمود حمد: "أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني 1518-1830"، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، المجلد: 05، العدد: 16، نيسان 2013.

163- سعيدوني ناصر الدين: "ثلاثة رسائل تتعلق بأوضاع الجزائر قبل الاحتلال"، مجلة التاريخ، العدد: 07، 1979.

164----، "دور قبائل المخزن في تدعيم سلطة البايلك بالجزائر"، الأصالة، العدد: 32، 1976.

165- سعد الله أبو القاسم: "مؤرخ جزائري معاصر للجبرتي: أبو راس الناصري"، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، العدد: 12، ديسمبر 1974.

166- سلطاني الجيلالي: "قراءة في أرجوزة الحلفاوي في فتح وهران من خلال مخطوط شرح الجامعي للأرجوزة"، المجلة الجزائرية للمخطوطات، العدد: الثاني والثالث، جامعة وهران، 2004- 2005.

167- سي يوسف محمد: "دراسة مخطوط عجائب الأسفار ولطائف الأخبار لأبي راس الناصر"، مجلة الدراسات التاريخية، العدد: 02، جامعة الجزائر، 1986.

168- عميراوي حميدة: "معاهدة الدوابر والزمالة"، الثقافة، العدد: 88، 1985.

169- فكاير عبد القادر: "دور العلماء والرباطات في مواجهة العدوان الإسباني على الجزائر"، مجلة المواقف، عدد خاص بفعاليات الملتقى الدولي الأول حول الظاهرة الدينية: قراءات جديدة من منظور العلوم الاجتماعية والإنسانية، أيام 14 و15 و16 أفريل 2008، جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر.

170- فركوس صالح: "الباي محمد الكبير وبعث الحركة الثقافية ببايلك الغرب الجزائري"، الثقافة، العدد: 71، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، سبتمبر- أكتوبر 1982.

171----، "مواقف الأمير عبد القادر من السلطة التركية والحاج أحمد باي قسنطينة"، حوليات، العدد: 02، جامعة قالمة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، 2008.

172- قندوز عبد القادر: "الوضع الصحي لسكان الجزائر في العهد العثماني"، الخلدونية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد: السابع، جامعة ابن خلدون، تيارت، ديسمبر 2014.

173- القشاعي فلة موساوي: "وباء الطاعون في الجزائر العثمانية: دوراته وسلم حدته وطرق انتقاله"، مجلة دراسات إنسانية، العدد: 01، جامعة الجزائر، 2001.

174- شاطو محمد: "السلطة العثمانية في الجزائر وعلاقتها بالطرق الصوفية 1792- 1830"، المواقف، العدد: الثالث، جامعة معسكر، ديسمبر 2008.

175- شقرون إكرام: "مصطلح الرباط: المفهوم والدلالة"، دورية كان التاريخية، العدد: الثامن عشر، ديسمبر 2012.

176- شرف عبد الحق: "صورة الأسرة المشرفية بمنطقة معسكر في كتابات يحي بوعزيز"، ضمن مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، العدد: 01، جوان 2011.

177----، "الجزائر في عيون الرحالة الجزائريين خلال القرن التاسع عشر: الرحالة المشرفي أنموذجا"، دورية كان التاريخية، العدد: العشرون، يونيو(حزيران) 2013م- رجب 1434ه.

178- التلمساني محمد ابن رقية: "الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة"، تحقيق: سليم بابا عمر، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، العدد: 03، 1967.

179- غانم محمد: "أبو راس المعسكري: مسار عالم جزائري وإنتاجه الفكري"، مجلة الحضارة الإسلامية، العدد: 12، جامعة وهران، 1426ه- 2005.

ه- الموسوعات والمعاجم:

180- ابن الأبار أبو عبد الله محمد بن عبد الله: المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي، القاهرة، دار الكتاب العربي، 1967.

181- ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب المحيط، ج13(ن-ه)، تقديم: عبد الله الفيلالي، تركيب: يوسف الخياط، بيروت، دار الجيل- دار لسان العرب، 1988.

182- بن نعمية عبد المجيد وآخرون: موسوعة أعلام الجزائر (1830- 1954)، الجزائر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، 2007.

183- الزبيدي محمد مرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس، ج2، مصر، دار مكتبة الحياة، 1306ه/ 1889م.

184- الحوتي سعد أبو سيف: الموسوعة العلمية في أنساب القبائل العربية، الإسكندرية، دار أبو العزم للنشر والتوزيع، 2002.

185- حساني مختار: موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية: مدن الغرب، ج4، الجزائر، دار الحكمة، 2007.

186- الكتاني عبد الحي بن عبد الكريم: فهرس الفهارس والأثبات والمعاجم والمشيخات والمسلسلات، ج1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1982.

187- مصطفى شاكر: موسوعة دول العالم الإسلامي ورجاله، ج3، بيروت، دار العلم للملايين، 1993.

188- نويهض عادل: معجم أعلام الجزائر، بيروت، مؤسسة نويهض للتأليف والترجمة والنشر، 1980.

و- الأطروحات:

189- أوقاسي عبد القادر: مخطوطات المؤلفين الجزائريين في المكتبة الوطنية للجزائر: فهرس فانيان، رسالة ماجستير في علم المكتبات والتوثيق، جامعة الجزائر، 1996-1997.

190- بوجلال قدور: العلم والعلماء في بايلك الغرب 1711-1830م: معسكر ومازونة نموذجا، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة معسكر، 2008-2009.

191- بونقاب مختار: تاريخ الطريقة الدرقاوية في الجزائر، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة وهران، 2001-2002.

192- بوركبة محمد: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار للشيخ أبي راس الناصر المعسكري(1165-1238ه-1755-1823م): دراسة وتحقيق، رسالة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2007-2008.

193- بوشنافي محمد: القضاء والقضاة في الجزائر خلال العهد العثماني(10-13ه/16-19م)، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، 2007-2008.

194- بلبراوات بن عتو: الباي محمد الكبير ومشروعه الحضاري 1779-1797م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، 2001-2002.

195- بن جبور محمد: صورة الجزائر والجزائريين من خلال الكتابات الفرنسية في القرنين 17 و18م، رسالة ماجستير في تاريخ العلاقات الدولية، جامعة وهران، 2002-2003.

196- بحري أحمد: حاضرة مازونة: دراسة حضارية في العصر الحديث(1500-1900م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2012-2013.

197- داده محمد: اليهود في الجزائر في العهد العثماني، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة دمشق، 1985.

198- دحماني توفيق: النظام الضريبي ببايلك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني(1193ه-1779م/ 1246ه-1830م)، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2003-2004.

199- هلايلي حنيفي: النظام الحربي للجزائر في العهد العثماني منذ مطلع القرن السابع عشر إلى 1830م، أطروحة دكتوراه، جامعة سيدي بلعباس، 2003-2004.

200- الزهراني عبد الله بن إبراهيم بن يوسف: الشعر وحروب الخلافة العثمانية، رسالة دكتوراه في الأدب، جامعة أم القرى، 1412ه.

201- حمدادو بن عمر: أبو راس الناصر المعسكري وكتاباته التاريخية 1155-1238ه/1737-1823م، مذكرة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2002-2003.

202----، المساهمة العلمية لمتصوفة بايليك الغرب خلال القرنين(11-12ه/17-18م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2012-2013.

203- يوسف بوكفة: مدرسة مازونة الفقهية: النهضة والسقوط، رسالة ماجستير في علم الاجتماع، جامعة وهران، 2002-2003.

204- لعرج الشيخ: الطريقة التجانية ونشاطها في الغرب الجزائري بين 1782-1838م، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة معسكر، 2008-2009.

205- لزغم فوزية: الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية 924-1245ه/ 1518-1830م، رسالة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2005-2006.

206----، البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها الثقافي والسياسي(925-1246ه/ 1520-1830م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2013-2014.

207- مهيرس مبروك: المساجد العثمانية بوهران ومعسكر، رسالة لنيل دبلوم الدراسات المعمقة لعلم الآثار، جامعة الجزائر، 1981-1982.

208- مكحلي محمد: ثورات رجال الزوايا والطرقية في الجزائر خلال العهد العثماني 1807-1827، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، 2003-2004.

209- معمر رشيدة شدري: العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر: فترة الدايات 1671-1830م، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2005-2006.

210- مخفي مختار: العلماء والسلطة بالجزائر خلال العهد العثماني، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة معسكر، 2011-2012.

211- سيدهم فاطمة الزهراء: علاقة دايات الجزائر بالدولة العثمانية ما بين 1791-1830م، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة سيدي بلعباس، 2011-2012.

212- عطاء الله طالبي: علاقة الحكام الأتراك برجال الدين والعلماء في الجزائر: 1656-1830م: بحث في منهجية الدراسات المعمقة، الجزائر، معهد العلوم الاجتماعية، دائرة الدراسات التاريخية، 1980.

213- فتيحة الواليش: الحياة الحضرية في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 1993-1994.

214- فكاير عبد القادر: آثار الاحتلال الإسباني على الجزائر خلال العهد العثماني(10-12ه/ 16-18م)، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، 2008-2009.

215- صحراوي عبد القادر: التصوف والمتصوفة في الجزائر العثمانية ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، 2008-2009.

216- صغيري سفيان: العلاقات الجزائرية العثمانية خلال عهد الدايات في الجزائر 1671-1830، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2011-2012.

217- قايش حورية: التحليل اللغوي للخطاب الشعري الجزائري في العصر التركي: ديوان أشعار جزائرية تحقيق أبو القاسم سعد الله نموذجا، مذكرة ماجستير ضمن مشروع الدراسات اللغوية والنحوية في العصر التركي بالجزائر، جامعة الشلف، 2007-2008.

218- قندوز عبد القادر: الطب في ثقافة علماء الجزائر خلال العهد العثماني 1519-1830م، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة معسكر، 2011-2012.

219- القشاعي فلة موساوي: الصحة والسكان في العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي، أطروحة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، 2003-2004.

220- شاطو محمد: نظرة المصادر الجزائرية إلى السلطة العثمانية في الجزائر، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 2005-2006.

221- شرف عبد الحق: العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي ت.1895م: حياته وآثاره، مذكرة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2006-2007.

222- تلمساني بن يوسف: الطريقة التجانية وموقفها من الحكم المركزي بالجزائر: الحكم العثماني، الأمير عبد القادر، الإدارة الاستعمارية، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، 1997-1998.

223- خليفي زبيدة: حركة التأليف التاريخي في الجزائر خلال العهد العثماني، مذكرة ماجستير في التاريخ العثماني، جامعة قسنطينة، 2004-2005.

224- الغالي العربي: الثورات الشعبية أثناء العهد التركي، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، 1985.

ز- اللقاءات والاستجوابات:

225- لقاء مع الشيخ مصطفاوي عبد الله: أحد أحفاد الشيخ مصطفى الرماصي، إمام ومدرّس بزاوية قرآنية بقرية رماصة بتاريخ: 2008/01/17.

226- لقاء مع الدكتور مولاي بالحميسي بالجزائر العاصمة بتاريخ: 2007/02/03.

227- لقاء مع الحاج هني محمد: إمام المسجد الملحق بمدرسة مازونة الفقهية(مسجد محمد بن الشارف)، بتاريخ: 2007/04/25.

ثانيا- المصادر والمراجع باللغة الفرنسية:

أ- المصادر والمراجع:

228-Belhamissi Moulay : Histoire de Mostaganem : des origines à nos jours, Alger, Imprimerie El-Wiame, 2004.
229- Paradis Venture de : Tunis et Alger au xviii siècle, Rassemblés et Présentés par : Joseph Coq, Paris, Sind Bad, 1983.
230- Boyer Pierre : La vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention Française, Ed : Hachette, Paris, 1963.
231- DE Grammont (H.D) : Histoire d'Alger sous la domination Turque 1515-1830, Ed Ernest Leroux, Paris, 1887.
232- Depont Octave, Coppolani Xavier : Les confréries religieuses musulmanes, Alger, Adolphe Jourdan, 1897.
233- De Tassy Laugier : Histoire de royaume d'Alger, avec l'état présent et son gouvernement, de ses forces de terre et de mer, de ses revenus, police, justice politique et commerce, Amsterdam, Henri du Sauzet, sans date.
234- Devoulx Albert : Tachrifat, Recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger, Alger, Imprimerie du gouvernement, 1852.
235- Don-Joseph de Aramburu : Oran et l'ouest Algérien au 18 siècle, présentation et traduction de : Korso et Epalza, Alger, Bibliothèque Nationale, 1978.
236- Emile Dermenghem : Le culte des saints dans l'islam Maghrébin, Paris, Gallimard, 1951.
237- Esterhazy Walsin : De la domination turque dans l'ancienne régence d'Alger, Paris, Librairie de Charles Gosselin, 1840.
238----, Notice historique sur le maghzen d'Oran, Oran, Typographie de Berrier, 1849.
239- En-Nasri Abou-Ras : Les vêtements de soie fine au sujet d'Oran et de la péninsule espagnole, traduction par : Générale Faure- biguet, Alger, Imprimerie Orientale, p. Fontana, 1903.
240- Peyssonnel et Desfontaines : Relation d'un voyage dans les régences de Tunis et d'Alger, Paris, Gide, 1838.
241- Rousseau Alphonse : Chroniques de la régence d'Alger, traduites d'un manuscrit arabe intitulé : El- Zohrat El- Nayerat, auteur : Muhammad ibn Muhammad al- Tilimsani, Alger, Imprimerie du Gouvernement, 1841.
242- Rinn Louis : Marabouts et Khouans, Alger, Adolphe Jourdan, 1884.
243- Shaw Dr : Voyage dans la régence d'Alger, Trad. Par J. Mac. Carthy, Paris, Editeur Marlin, 1830.
244----, L'Algérie un siècle avant l'occupation Française, Traduit par : J. Mac. Carthy, Paris, Editions Imprimerie de Carthage, 1968.

ب- المجلات:

245- Arnaud. L : "Histoire de l'ouali sidi- Ahmed et- Tedjani", R.A, N° : 05, 1861.
246- Bodin Marcel : "L'agrément du lecteur : Notice historique sur les arabes soumis aux espagnols pendant leur occupation d'Oran par si Abdelkader El- Mecherfi", R.A, N° : 65, 1924.

247- Boyer Pierre : "Contribution à l'étude de la politique religieuse des Turcs dans la régence d'Alger xvr- xrx siècle", R.O.M.M, N° : 01, 1966.
248- Braudel Fernand : "Les espagnoles et l'Afrique du nord", R.A, N° : 69, 1928.
249- Brosselard Charles : "Les inscriptions arabes de Telemcen", R.A, N° : 06, 1862.
250- Bouabdelli El Mahdi : "Le cheikh Mohammed ibn Ali El Kharroubi", R.A, N° : 96, 1952.
251- Cazenave Jean : "Les gouverneurs d'Oran pendant l'occupation espagnole de cette ville (1509-1792)", R.A, N° : 71, 1930.
252- Devoulx Albert : "Lettres adressées par des marabouts arabes au pacha d'Alger", R.A, N° : 18, 1874.
253- Djoglou Pestemal : "Mers el-kebir historique et description de la forteresse", R.A, N° : 84, 1940.
254- Delpech Adrien : "Resume historique sur le soulèvement des derk'aoua de la province d'Oran", R.A, N° : 18, 1874.
255- De Madrid Pedro : "Rapports officiels espagnols sue le prise de Mers-el-kebir en 1505, traduction de Berbrugger", R.A, N° : 13, 1869.
256- De Paradis Venture : "Alger au xvɯ siècle", R.A, N° : 40, 1896.
257- Emerit Marcel : "Les aventures de Thédenat : esclave et ministre d'un bey d'Afrique 18 siècle", R.A, N° : 92, 1948.
258----, "Mémoires de Thédenat", R.A, N° : 92, 1948.
259- Faure- biguet : "Notice sur le cheikh Mohammed Abou Ras", Journal Asiatique, septembre- octobre, 1899, série 09,T : 14, Paris, Imprimerie National.
260- Filali Kamel : "Sainteté maraboutique et mysticisme : contribution à l'étude du mouvement maraboutique en Algérie sous la domination ottomane", Insaniyat, N° : 03, 1997.
261- Gorguos : "Notice sur le bey d'Oran : Mohammed El Kebir", R.A, N° : 01, 1856.
262----, "Expédition de Mohammed El Kebir bey de Mascara dans les contrées du sud", R.A, N° : 03, 1858, p-p : 52-61, et 185-192, N° : 04, 1859-1860, p-p : 347-357.
263- Goyne. A : "Le Sahara de l'ouest", R.A, N° : 33, 1889.
264- Guin Louis : "Notice sur la famille des Robrini de Cherchel", R.A, N° : 17, 1873.
265- Leclerc : "Inscriptions arabes de Mascara", R.A, N° : 04, 1859.
266- Mangin. E : "Notes sur l'histoire de Laghouat", R.A, N° : 37, 1893.
267- Montanes : "Mers el- Kebir", R.A, N° : 09, 1865.
268- Raoul : "Notice historique sur El- Bordj depuis la dernière période de l'occupation turque jusqu'à nos jours", B.S.G.A.O, T : xx, Oran, 1900.
269- Rinn Louis : "Le royaume d'Alger sous le dernier dey", R.A, N° : 41, 1897.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع **رقم الصفحة**

الإهداء.....

شكر وتقدير.....

قائمة المختصرات.....

المقدمة..... أ

الفصل الأول: بايلك الغرب: إطاره العام ووضعه السياسي

1. جغرافية بايلك الغرب 22

2. المنظومة الإدارية للبايلك..... 28

3. البايلك الغربي وعلاقته بالسلطة المركزية. 45

4. سياسة البايلك الداخلية وأهم باياته: النشأة والتطور..... 52

5. التركيبة القبائلية للبايلك الغربي ودورها في تدعيم السلطة المركزية..... 64

1- القبائل المخزنية 64

أ. دور قبائل المخزن في تدعيم سلطة البايلك الغربي..... 66

ب. وضعية قبائل المخزن الاجتماعية والآثار التي ترتبت عليها..... 73

2- قبائل الرعية..... 77

6. الأطماع الأجنبية بالبايلك الغربي..... 78

الفصل الثاني: حركة الجهاد ضد الإسبان بوهران: الرباط الأساسي بين العلماء والسلطة

أولا: العلماء المشاركون في الصراع ضد النصارى الإسبان ومنزلتهم العلمية والاجتماعية..... 84

1-مشاهير العلماء المشاركين في ميدان الصراع مع الإسبان..... 84

1-1 مصطفى الرماصي..... 84

1-2 عبد القادر المشرفي..... 89

1-3 محمد بن عبد الله الجيلالي..... 93

1-4 الطاهر بن حوا..... 95

1-5 أبو طالب محمد بن علي الشارف المازوني..... 96

1-6 الشيخ هني..... 98

2- المنزلة العلمية للعلماء المشاركين في الصراع مع الإسبان..... 99
3- المنزلة الاجتماعية للعلماء المشاركين في الصراع مع الإسبان..... 104
4- أثرهم العلمي في المجتمع..... 107
ثانيا: أثر العلماء السياسي والعسكري في مواجهة الإسبان..... 111
1 – أثر العلماء في دعوة الحكام لمواجهة العدوان الإسباني على وهران..... 112
1-1 دور العلماء في تحريض الحكام على الجهاد..... 113
2-1 موقف العلماء من الحكام المتقاعسين عن الجهاد..... 117
3-1 أثر العلماء في نشر المرائي الخيالية والقرآنية المبشّرة بالفتح..... 119
4-1 دور العلماء في تحريض الحكام على الجهاد عقب سقوط المدن..... 121
5-1 إشادة العلماء بفضل الرباط والجهاد بوهران..... 123
2- مظاهر عامة لاهتمام العلماء بشؤون الجهاد الحربي ضد الإسبان..... 125
1-2 دور العلماء في نشر الوعي العسكري وفي بناء الجيش العثماني..... 126
2-2 دور العلماء في التعريف بالوسائل القتالية..... 130
ثالثا: دور العلماء والطلبة في ميدان الجهاد الحربي ضد الإسبان..... 135
1- دور العلماء والطلبة في تجنيد العامة وقيادة الصفوف الأمامية..... 135
1-1 الباي محمد الكبير وإحياء فكرة الرباط..... 136
2-1 الباي محمد الكبير وتجنيد الطلبة..... 140
3-1 تكليف العلماء لقيادة الطلبة المرابطين..... 143
2- إسهام الحكام العثمانيين في إنفاق الأموال على طلبة العلم المرابطين..... 147
3- مشاركات العلماء الميدانية مع الجيوش النظامية في الجهاد الحربي ضد الإسبان..... 153
1-3 مقدار أثر العلماء والطلبة في الجيوش النظامية..... 157
2-3 مشاركة العلماء في المعارك..... 161

الفصل الثالث: التقارب بين العلماء والسلطة: طرقه وأشكاله

أولا: وسائل السلطة في التّقرّب من العلماء والمرابطين..... 173
1- الامتيازات المعنوية..... 173
1-1 الإحترام..... 174
2-1 الوساطة..... 181

1-3 دور العلماء والمرابطين في المهام السياسية الداخلية..... 181
1-4 دور العلماء والمرابطين في المهام السياسية الخارجية..... 186
1-5 الاستشارة..... 187
1-6 المراسلات والزيارات..... 189
2- الامتيازات المادية..... 194
2-1 المناصب..... 194
2-2 الإعفاء من الضرائب..... 200
ثانيا: علاقة البايات بالعلماء: الباي محمد الكبير أنموذجا..... 202
1- رعايته للعلم وعلاقاته بالعلماء..... 204
1-1 اهتمامه بالمدارس والمساجد..... 204
1-2 اهتمام الباي محمد الكبير بالعلماء..... 214
1-3 تشجيع الباي لحركة النسخ والتأليف ومكافأة العلماء على أعمالهم..... 217

الفصل الرابع: دور العلماء في تمجيد السلطة العثمانية والحفاظ على وحدة الإيالة

أولا: أثر العلماء في الحفاظ على وحدة إيالة الجزائر أمام الخطر الإسباني..... 228
ثانيا: نماذج من العلماء المقرّبين إلى السلطة ومؤلّفاتهم الممجّدة لجهاد العثمانيين..... 232
1-ابن سحنون الراشدي..... 233
1-1 التعريف بابن سحنون..... 233
1-2 علاقته بالباي محمد الكبير..... 235
1-3 مدحه للباي محمد الكبير وأثر ذلك في إضفاء الشّرعية على حكمه..... 239
1-3-1 المدح بالدين والورع..... 239
1-3-2 المدح بالنجدة والإغاثة..... 240
1-3-3 المدح بالحلم..... 241
1-3-4 المدح بالعدل..... 242
1-3-5 المدح بالكرم..... 242
1-3-6 المدح بالشجاعة..... 243
2-ابن زرفة الدحاوي..... 245
2-1 التعريف بابن زرفة الدحاوي..... 245

2-2 مدحه للباي محمد الكبير..... 248
3-أحمد بن هطال التلمساني..... 252
3-1 التعريف بابن هطال..... 252
3-2 إشادته برحلة الباي محمد الكبير إلى الجنوب..... 253
4-أبو راس الناصر المعسكري..... 258
4-1 التعريف بأبوراس الناصر..... 258
4-2 إشادته بالباي محمد بن عثمان 263
4-3 تمجيده للعثمانيين..... 267

الفصل الخامس: مظاهر تدهور علاقة العلماء بالسلطة العثمانية

أولا: أسباب القطيعة بين السلطة والعلماء..... 272
1-الأوضاع السياسية المتعفنة والمتدهورة..... 272
2-الأوضاع الإقتصادية..... 274
3-الأوضاع الإجتماعية..... 280
4-الأوضاع الثقافية والدينية..... 284
ثانيا: مظاهر القطيعة..... 291
1-القتل..... 293
2-العزل من المناصب..... 305
3-الهجرة..... 307
4-الإهانة والمضايقة..... 310
5-المصادرة..... 317
ثالثا: نتائج القطيعة..... 319
1-ثورة ابن الشريف الدرقاوي في بايلك الغرب 1805- 1813م..... 319
1-1 التعريف بابن الشريف الدرقاوي..... 320
1-2 مراحل ثورة ابن الشريف الدرقاوي..... 322
1-2-1 مرحلة المقاومة والانتصار..... 322
1-2-2 مرحلة التراجع والانهزام..... 327
1- 3 نتائج وآثار ثورة ابن الشريف الدرقاوي..... 334
2-ثورة الطريقة التيجانية ببايلك الغرب..... 339

2-1 التعريف بأحمد التيجاني..... 339
2-2 التيجانية والسلطة العثمانية..... 344
2-2-1 مرحلة العداء والنفور..... 344
2-2-2 مرحلة التصادم المسلح والمواجهة..... 348
2-2-2-1 تحالف محمد الكبير التيجاني مع قبائل الحشم..... 349
2-2-2-2 حصار التيجاني لمدينة معسكر..... 350
2-2-2-3 معركة عواجة ونهاية الثائر محمد الكبير التيجاني..... 350
2-3 نتائج وآثار تمرد التيجانيين..... 352
الخاتمة..... 359
الملاحق..... 369
فهرس الأعلام 416
فهرس الأماكن و البلدان..... 437
فهرس الشعوب و القبائل..... 446
قائمة المصادر والمراجع..... 452
فهرس الموضوعات..... 476

الملخص

لقد اختلف العلماء والفقهاء والمثقّفون وتضاربت آراؤهم ومواقفهم حول الموقف من الدولة العثمانية، والدور الذي اضطلعت به نحو العالم الإسلامي عامة والشعوب الإسلامية –ومنها الجزائر- التي خضعت لسلطانها قرون عديدة بشكل خاص وانقسموا إلى فئتين:فئة تؤيّدها وتنظر إليها على أنّها أعادت الاعتبار والقوّة للدولة الإسلامية التي سقطت مع انهيار الدولة العباسية ووحّدت الشعوب الإسلامية مرّة أخرى، وشرّعت الأبواب لفتوحات إسلامية جديدة ووفّرت للمسلمين القوّة والاحترام، وجعلت من القسطنطينية عاصمة لدولة الخلافة.وفئة ثانية ترى فيها السّبب الرّئيس في تأخّر الشعوب الإسلامية التي خضعت لها، وارتكبت بحقّها مظالم كثيرة وأذاقتها ألوانا من القهر والجوع والاضطهاد، ومارست عليها سياسة التتريك والصهر القومي وخدمت الأتراك دون غيرهم، فكانت دولة تركية في ثوب إسلامي.من هنا ارتأينا البحث في جوهر تلك العلاقة ودوافعها وأسبابها وتغيّراتها ونتائجها ضمن موضوع موسوم ب: "مظاهر التقارب والقطيعة بين العلماء والسلطة العثمانية في بايلك الغرب فترة الدايات 1671-1830م"، وقد اتخذنا من أهمّ حواضره عيّنات للدراسة في فترة لا تتعدّى القرنين من الزمن تتبَّعْنا فيها مسار علاقة العلماء بالسلطة العثمانية الحاكمة، مع الوقوف على دور العلماء والمرابطين الفاعل والمهم في مجال السياسة في مختلف الفترات التي مرّت بها إيالة الجزائر. حيث تنوّعت إسهاماتهم السياسية بين نصح للحكّام وتقويم للاعوجاج وبيان لأصول الحكم الإسلامي، ومشاركة لهم في إدارة الدولة -لاسيما المناصب الشرعية كالقضاء والإفتاء- أو في سفارات ووفود تمثل الحكّام أو كمستشارين مقرَّبين يدافعون عن المؤسسة الحاكمة أو كناصحين جريئين في قول كلمة الحق، أو كمشاركين في الثورة على الظالمين والمنحرفين والمقصرين منهم، وهذا بغضّ النظر عن إسهاماتهم الثقافية والدينية والجهادية.

الكلمات المفتاحية:

العلماء؛ السلطة العثمانية؛ بايلك الغرب؛ الباي محمد الكبير؛ عبد القادر المشرفي؛ أبوطالب المازوني؛ أبو راس الناصري؛ ابن سحنون الراشدي؛ الديات؛ إيالة الجزائر.

نوقشت يوم 14 مارس 2017